

وبذلك يعلم الإنسان أن الحق سبحانه شاء ذلك ؛ ليعرف كل عبد علم الواقع ، لا علم الحصول .

إذن : فذكر كلمة ﴿وَلْيَعْلَمْ﴾ وكلمة ﴿لِنَنْظُرَ﴾ في القرآن معناها علم واقع ، وعلم مشهود ، وعلم حُجَّة على العبد ؛ فلا يستطيع أن ينكر ما حدث ، وقوله الحق :

﴿وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

هذه الآية تبين لنا أدوات انتظام الحكم الإلهي : رسل جاءوا بالبرهان واليثة ، وأنزل الحديد للقهر ، قال الحق سبحانه :

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

وقرن ذلك بالرسول ، فقال : ﴿وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ والنصرة لا تكون إلا بقوة ، والقوة تأتي بالحديد^(١) الذي يظل حديداً إلى أن تقوم الساعة ، وهو المعدن ذو البأس ، والذي لن يخترعوا ما هو أقوى منه ، وعلم الله سبحانه هنا علم وقوع منكم ، لا تستطيعون إنكاره ؛ لأنه سبحانه لو أخبر خيراً دون واقع منكم ؛ فقد تكذبون ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ وفي هذا لون من الاحتياط الجميل .

وقوله : ﴿وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ كأن الله يطلب منكم أن تنصروه ، لكن إياكم أن تفهموا المعنى أنه سبحانه ضعيف ، معاذ الله ، بل هو قوي وعزيز . فهو القاتل :

﴿لَا تَأْتِيهِمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ .. (١٤)﴾ [التوبة]

(١) الحديد : الفلز المعروف تصنع منه الآلات المختلفة النافعة للناس . يقول الحق سبحانه : ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] أى : فيه صلابة وقوة ، وهو وسيلة من وسائل النصر والعمارة ، وقد يكون وسيلة للدمار إذا وضع في يد من لا ضمير له ولا إيمان عنده .

بل يريد سبحانه أن يكون أعداء الإيمان أذلاء أمامكم ؛ لأنه سبحانه يقدر عليهم .

إذن : فقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ إنما يعنى : أن يكون علم الله بمن ينصر منهجه أمراً غيبياً ؛ حتى لا يقول أحدٌ إن انتصار المنهج جاء صدفة ، بل يريد الحق سبحانه أن يجعل نُصْرَةَ منهجه بالمؤمنين ، حتى ولو قُلَّتْ عدَّتُهُمْ ، وقلَّ عددهم .

إذن : قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ .. (١٤) ﴾

أى : نظر واقع ، لا نظر علم .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتِ بِفُرْءٍ إِن غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُمْ مِنْ يَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) ﴾

نحن نعرف أن الآيات ثلاثة أنواع : آيات كونية ، وهى العجائب التى فى الكون ويسمىها الله سبحانه آيات ، فالآية هى عجيبة من العجائب ، سواء

(١) الآية : العبرة ، والآية : المعجزة أو الشئ العجيب . والجمع : آيات ، وآى . قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَكَ يَا نَبِيَّ ﴾ فى الآفاق .. (٥٧) ﴿ فصلت ﴾ ، والآيات هنا : الأدلة الواضحة على وحدانية الله وكمال قدرته وقبوميته . [لسان العرب : مادة (آيا) . . بتصرف] .

(٢) التلقاء : مصدر لَقِيَ ، يقال : يسرنى تلقاؤك أى : لقاءك . ويستعمل ظرف مكان بمعنى جهة اللقاء والمقابلة .

سُورَةُ الْاَنْعَامِ

٥٧٩٧

فى الذكاء أو الجمال أو الخلق ، وقد سَمَّى الحق سبحانه الظواهر الكونية آيات ؟ فقال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ﴾ (٣٧)

[فصلت]

وقال سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. ﴾ (٢١)

[الروم]

وهذه من الآيات الكونية .

وهناك آيات هى الدليل على صدق الرسل - عليهم السلام - فى البلاغ عن الله ، وهى المعجزات ؛ لأنها خالفت ناموس الكون المألوف للناس . فكل شيء له طبيعة ، فإذا خرج عن طبيعته ؟ فهذا يستدعى الانتباه .

مثلاً يحكى القرآن عن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - أن أعداءه أخذوه ورموه فى النار فنجّاه الحق سبحانه من النار ؛ فخرج منها سالماً ، ولم يكن المقصود من ذلك أن ينجو إبراهيم من النار ، فلو كان المقصود أن ينجو إبراهيم عليه السلام من النار ؛ لحدثت أمور أخرى ، كالأمكنهم الحق - عز وجل - من أن يمسكوه ، لكنهم أمسكوا به وأشعلوا النار ورموه فيها ، ولو شاء الله تعالى أن يطفئها لفعل ذلك بقليل من المطر ، لكن ذلك لم يحدث ؛ فقد تركهم الله فى غيهم^(١) ، ولأنه واهب النار للإحراق قال سبحانه وتعالى لها :

﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٦٩)

[الأنبياء]

(١) الفى : الضلال . غوى غيًّا وغيابة : أمن فى الضلال ، قال تعالى : ﴿ مَا جُلِّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ (٢٠) [النجم] وتغوى القوم : تجمعوا وتعاونوا على الشر . واستغوا بالأماني الكاذبة : طلب غيّه وأضله . وقال تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ لِي اللَّيْنِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَى .. ﴾ (٢٥٦) [البقرة] . [المعجم الوسيط : مادة (غوى) .. بتصرف]

وهكذا تتجلى أمامهم خيبتهم .

إذن : الآيات تُطْلَقُ على الآيات الكونية ، وتطلق على الآيات المعجزات ، وتطلق أيضاً على آيات القرآن ما دامت الآيات القرآنية من الله والمعجزات من الله ، وخلق الكون من الله ، فهل هناك آية تصادم آية ؟ لا ؛ لأن الذي خلق الكون وأرسل الرسل بالمعجزات وأنزل القرآن هو إله واحد ، ولو كان الأمر غير ذلك لحدث التصادم بين الآيات ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ .. وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٨٢) [النساء]

وقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ .. ﴾ (١٥) [يونس]

أى : آيات واضحة . ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ وعرفنا أن الرجاء طلب أمر محبوب ومن الممكن أن يكون واقعاً ، مثلما يرجو إنسان أن يدخل ابنه كلية الطب أو كلية الهندسة . ومقابل الرجاء شيء آخر محبوب ، لكن الإنسان يعلم استحالة ، وهو التمنى ، فالمحبيبات - إذن - قسمان : أمور مُتَمَنَّاة وهى فى الأمور المستحيلة ، لكن الإنسان يعلن أنه يحبها ، والقسم الثانى أمور نحبها ، ومن الممكن أن تقع ، وتسمى رجاء .

﴿ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ هم من لا يؤمنون ، لا بإله ، ولا ببعث ؛ فقد قالوا :

﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (٢١) [الحاقة]

(١) الدهر : الزمان الطويل ، ومدة الحياة الدنيا . قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾ (١) [الإنسان] . وقال ﷺ : « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » ومعناه : أن ما أصابك من الدهر ، فالله فاعله وليس الدهر ، فإذا شتمت الدهر ، فكأنك أردت به الله تعالى سبحانه عما يقولون أو يصفون . [لسان العرب : مادة (دهر) - بتصرف] .

وقالوا:

﴿أَتَذَا مَنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَتَنَا لَمَبْعُوثُونَ... (٨٢)﴾ [المؤمنون]

وإذا كان الإنسان لا يؤمن بالبعث ؛ فهو لا يؤمن بلقاء الله سبحانه ؛ لأن الذى يؤمن بالبعث يؤمن بلقاء الله ، ويُعدّ نفسه لهذا اللقاء بالعبادة والعمل الصالح ، ولكن الكافرين الذين لا يؤمنون بالبعث سيفاجأون بالإله الذى أنكروه ، وسوف تكون المفاجأة صعبة عليهم ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ (١) يَحْسِبُهُ الظَّمآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا... (٣٩)﴾ [النور]

السراب : هو أن يمشى الإنسان فى خلاء الصحراء ، ويخيل إليه أن هناك ماءً أمامه ، وكلما مشى ظن أن الماء أمامه ، وما إن يصل إلى المكان يجد أن الماء قد تباعد . وهذه العملية لها علاقة بقضية انعكاس الضوء ، فالضوء ينعكس ؛ ليصور الماء وهو ليس بماء :

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ... (٣٩)﴾ [النور]

إنه يُفاجأ بوجود الله سبحانه الذى لم يكن فى باله ، فهو واحد من الذين لا يرجون لقاء الله ، وهو ممن جاء فيهم القول :

(١) السَّرَابُ : ما يُرى فى نصف النهار من اشتداد الحرّ كما الماء فى الصحراء يلتصق بالأرض . وهو من خداع البصر . وقد سُمّي السراب سراباً لأنه يسرب سروراً ، أى : يجرى جرياناً ، أى : يتحرك حركة تغدغ الرائي من بعيد ؛ فيظنه ماء وهو ليس بماء ، بل خداع بصري ناتج عن الحالة النفسية للشخص عند شدة عطشه ووجوده فى صحراء قاحلة ؛ فأى حركة من بعيد يظنها ماء ، ويجرى إليها ؛ ليفاجأ بعدم وجود شيء .

(٢) القِيعَة : أرض واسعة مستوية لا تنبت الشجر . قال الفرّاء : القِيعَة جمع القِيع ، والقِيع : ما انبسط من الأرض . قال تعالى : ﴿فَيَذَرُهَا قَلْعًا صَفْصَفًا (٣٠)﴾ [طه] . [اللسان : مادة (قوع) . . بتصرف] .

﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١١﴾﴾ [المسجدة]

رغم أن الكون الذي نراه يُحتمل قضية البعث ؛ لأننا نرى أن لكل شيء دورة ، فالوردة الجميلة الممتلئة بالنضارة تذبل بعد أن تفقد مائيتها ، ويضيع منها اللون ، ثم تصير تراباً . وأنت حين تشم الوردة فهذا يعنى أن ما فيها من عطر إنما يتبخر مع المياه التي تخرج منها بخاراً ، ثم تذبل وتحلل بعد ذلك .

إذن : فللوردة دورة حياة . وأنت إن نظرت إلى أى عنصر من عناصر الحياة مثل المياه سوف تجد أن الكمية الموجودة من الماء ساعة خلق الله السموات والأرض هي بعينها ؛ لم تزد ولم تنقص . وقد شرحنا ذلك من قبل . وكل شيء تتفع به له دورة ، والدورة تُسلم لدورة أخرى ، وأنت مستفيد بين هذه الدورات ؛ هدماً وبناءً .

والذين لا يرجون لقاء الله ، ولا يؤمنون بالبعث ، ولا بثواب أو عقاب ، لا يلتفتون إلى الكون الذي يعيشون فيه ^(١) ؛ لأن النظر في الكون وتأمل أحواله يُوجب عليهم أن يؤمنوا بأنها دورة من الممكن أن تعود .

وسبحانه القائل :

(١) ضللنا في الأرض : قال أبو منصور : الأصل في كلام العرب أن يقال : أضللت الشيء إذا غيبيته ، وأضللت الميت : دفنته . فالضلال من معانيه : الفساد والمعصيان ونقيض الهداية والرشاد . ومن معانيه : التفتيت والدفن . فكانهم يقولون : «إِذَا دُفِنَّا وَغِيبْنَا تَحْتَ الْأَرْضِ . . . قَهْلُ نَحْيَا مِنْ جَدِيدٍ ؟» فيرد عليهم الحق سبحانه بقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ . . .﴾ (١١٥) [الروم] . [لسان العرب : مادة (ضلل) - بتصرف] .

(٢) وقد حكى الله تعالى عنهم هذا فقال : ﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٠) [يوسف] ويقول سبحانه : ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (٢١) [الأنبياء] .

[الأنبياء]

﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ ^(١) نُعِيدُهُ .. (١٠٤) ﴾

وهؤلاء الذين لا يرجعون لقاء الله يأتي القرآن بما جاء على ألسنتهم: ﴿ أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ .. (١٠٥) ﴾ [يونس]

هم هنا يطلبون طلبين: ﴿ أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا ﴾ ، ﴿ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ .

أى: يطلبون غير القرآن. ولنلاحظ أن المتكلم هو الله سبحانه ؛ لذلك فلا تفهم أن القولين متساويان .

﴿ أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ هما طلبان: الطلب الأول: أنهم يطلبون قرآناً غير الذى نزل . والطلب الثانى: أنهم يريدون تبديل آية مكان آية ، وهم قد طلبوا حذف الآيات التى تهزأ بالأصنام ، وكذلك الآيات التى تنوعدهم بسوء المصير ^(٢) .

ويأتى جواب من الله سبحانه على شق واحد مما طلبوه وهو المطلب الثانى ، ويقول سبحانه: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ﴾ ولم يرد الحق سبحانه على قولهم: ﴿ أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا ﴾ .

وكان مقياس الجواب أن يقول: « ما يكون لى أن أتى بقرآن غير هذا أو أبدله » ؛ لكنه اكتفى بالرد على المطلب الثانى ﴿ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ ؛ لأن الإتيان بقرآن يتطلب تغييراً للكل . ولكن التبديل هو الأمر السهل . وقد نفى

(١) عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة فقال: يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حُفَاءَ عُرَاءَ عُرْلًا: ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدْنَا عَلَيْكُمُ الْمَوْتَ فَأَعْلِمِينَ (١٠٤) ﴾ [الأنبياء] الحديث أخرجه البخارى في صحيحه (٦٥٢٤) ينجوه ، ومسلم (٢٨٦٠) واللفظ لمسلم .

(٢) وهذا يتفق مع ما قاله القرطبي في تفسيره (٤ / ٣٢٤٥) لهذه الآية . قال: فى قولهم ذلك ثلاثة أوجه: أحدها: أنهم سألوه أن يعزوا الوعد وعيداً والوعيد وعداً ، والحلال حراماً والحرام حلالاً . قاله ابن جرير الطبري .

الثانى: سألوه أن يسقط ما فى القرآن من عيب ألهمهم وتسفيه أحلامهم . قاله ابن عيسى .

الثالث: أنهم سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور . قاله الزجاج .

الأسهل ؛ ليسلموا أن طلب الأصعب منفي بطبيعته .

وأمر الحق سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾^(١)
 أى : أن أمر التبديل وارد ، لكنه ليس من عند رسول الله ﷺ . بل
 بأمر من الله سبحانه وتعالى ، إنما أمر الإتيان بقرآن غير هذا ليس وارداً .
 إذن : فالتبديل وارد شرط ألا يكون من الرسول ﷺ ، ولذلك قال الحق
 سبحانه :

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ^(٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ .. (١٠١)﴾ [النحل]
 وهو ما تذكره هذه الآية : ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾
 و﴿تِلْقَاءِ﴾ من «لقاء» ؛ فتقول : «القيت فلاناً» ، ويأتى المصدر من جنس
 الفعل أو حروفه ، ويسمون «التلقاء» هنا : الجهة .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ^(٣) .. (٢٢)﴾ [القصص]

(١) يقول سبحانه وتعالى عن محمد ﷺ : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (١) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٢)
 ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٣) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤)﴾ [الحاقة] ، فهذا تأكيد أن محمداً ﷺ
 لا يستطيع أن يزيد أو ينقص فيما يوحى إليه من عند الله ، وإلا لبطش الله به ولقطع نياط قلبه وأمانته .
 (٢) وهذا هو نسخ التبديل ؛ للتيسير على الناس أو لحكم يعلمها الله سبحانه ، والتيسير ورفع الحرج هو من
 مفاصل الشريعة ، يقول سبحانه : ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَثَلُ آبَائِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ
 الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ .. (٧٨)﴾ [الحج] ويقول تعالى : ﴿مَا نُنْسخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا فَأَنْتَ بِخَيْرِ مَثَلٍهَا .. (٥٥)
 (٥٥)﴾ [البقرة] والنسخ فى القرآن أنواع :

١- ما نسخ تلاوته وحكمه معاً ، قالت عائشة : كان فيما أنزل عشر رخصات معلومات فنسخن بخمس
 معلومات .

٢- ما نسخ حكمه دون تلاوته ، وهو قليل جداً فى القرآن ، وأكثر فيه بعض الناس بغير مقتضى .

٣- ونسخ نسخ شرائع من قبلنا وما كان عليه الأمر فى الجاهلية . انظر : الإتيان فى علوم القرآن
 للسيوطى (٣/ ٥٩ - ٧٧) .

(٣) مَدْيَن : اسم قرية شعيب - عليه السلام .

و«تلقاء مدين» أى: جهة مدين . و«التلقاء» قد تأتى بمعنى اللقاء ؛ لأنك حين تقول : «لقيته» أى : أنا وفلان التقينا فى مكان واحد ، وحين نتوجه إلى مكان معين فنحن نُوجَد فيه . ويظن بعض الناس أن كل لفظ يأتى لمعنيين يحمل تناقضاً ، ونقول : لا ، ليس هناك تناقض ، بل انفكاك جهة ، مثلما قال الحق سبحانه :

﴿ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. ﴾ (١٤٤) [البقرة]

والشطر معناه: الجهة ؛ ومعناه أيضاً: النصف ، فيقال : «أخذ فلان شطر ماله» ، أى: نصفه ، و«اتجهت شطر كذا» ، أى: إلى جهة كذا . وهذه معان غير متناقضة ؛ فالإنسان منا ساعة يقف فى أى مكان ؛ يصبح هذا المكان مركزاً لمرائيه ، وما حوله كله محيطاً ينتهى بالأفق .

ويختلف محيط كل إنسان حسب قوة بصره ، ومحيط الرؤية ينتهى حين يُخيّل لك أن السماء انطبقت على الأرض ، هذا هو الأفق الذى يخصك ، فإن كان بصرك قوياً فأفقك يتسع ، وإن كان البصر ضعيفاً يضيق الأفق .

ويقال : «فلان ضيق الأفق» أى : أن رؤيته محدودة ، وكل إنسان منا إذا وقف فى مكان يصير مركزاً لما يحيطه من صَراء ؛ ولذلك يوجد أكثر من مركز ، فالمقابل لك نصف الكون المرتى ، وخلفك نصف الكون المرتى الآخر ، فإذا قيل : إن «الشطر» هو «النصف» ، فالشطر أيضاً هو «الجهة» .

(١) شَطْر الشيء : ناحيته ، وشَطْر كل شيء : نحوه وقصدّه ، وقصدتُ شَطْرَهُ أى : ناحيته . «وشَطْرُ المسجد الحرام» : نحوه وتلقاه . قال تعالى : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَرُكُوزُوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ .. ﴾ (١٤٤) [البقرة] . وشَطْرُ الشيء : نصفه ، والجمع : أشطر ، وشَطْرور . وشَطْرته : جعلته نصفين . وشاطرته ماله : ناصقه . وفى الحديث : أن سعداً استأذن النبي ﷺ أن يتصدق بماله كله ، قال : «لا» قال : «لا» ، قال : «لا» ، قال : «لا» ، قال : «لا» ، وفى الحديث : «الطهور شَطْر الإيمان» أخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى مالك الأشعرى (٢٢٣) ؛ لأن الإيمان يظهر بحاشية الباطن ، والطهور يظهر بحاشية الظاهر . [السان العرب : مادة «شَطْر» - بتصرف] .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَيْعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ .

أى : أنه ﷺ لا يأتى بالقرآن من عند نفسه ﷺ ، بل يُوحَى إليه .
ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .. (١٥) ﴾ [يونس]

أى : أنه ﷺ لو جاء بشيء من عنده ، ففى هذا معصية لله تعالى ، ونعلم أن رسول الله ﷺ لم يُعرف عنه أنه كان شاعراً ، ولا كان كاتباً ، ولا كان خطيباً . وبعد أن نزل الوحي عليه من الله جاء القرآن فى متهى البلاغة .

وقد نزل الوحي ورسول الله ﷺ فى الأربعين من عمره ولا توجد عبقرية يتأجل ظهورها إلى هذه المرحلة من العمر ، ولا يمكن أن يكون النبى ﷺ قد أجّل عبقريته إلى هذه السن ؛ لأنه لم يكن يضمن أن يمتد به العمر .

ويأتى لنا الحق سبحانه بالدليل القاطع على أن رسول الله ﷺ لا يتبع إلا ما يُوحى إليه فيقول :

﴿ إِنْ أَتَيْعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) ﴾ [يونس]

ويأتى الأمر بالرد من الحق سبحانه على الكافرين :

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْهِمْ وَلَا أَذْرَكُكُمْ بِهِ ۚ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾

وهنا يبلغ محمد ﷺ هؤلاء الذين طلبوا تغيير القرآن أو تبديله : لقد عشت طوال عمري معكم ، ولم تكن لي قوة بلاغة أو قوة شعر ، أو قوة أدب . فمن له موهبة لا يكتسبها إلى أن يبلغ الأربعين ، ورأيت أنه ﷺ لم يجلس إلى معلم ، بل عندما اتهمتموه وقلتم :

﴿ إِنَّمَا بُعِثْتُ بِشَرٍّ ۖ ۝ (١٠٣) ﴾ [النحل]

وفضحكم الحق سبحانه بأن أنزل في القرآن قوله تعالى :

﴿ لِسَانَ الَّذِي يُلْحِدُونَ ۖ ۝ إِلَيْهِ أَعْجَمِي ۖ ۝ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ۖ ۝ (١٠٣) ﴾ [النحل]

ولم يخرج النبي ﷺ من شبه الجزيرة العربية ، ولم يقرأ مؤلفات أحد . فمن أين جاء القرآن إذن ؟

لقد جاء من الله سبحانه ، وعليكم أن تعقلوا ذلك ، ولا داعي للاتهام بأن القرآن من عند محمد ، لأنكم لم تجربوه خطيباً أو شاعراً ، بل كل ما جاء به رسول الله ﷺ ، بعد أن نزلت عليه الرسالة ، هو بلاغ من عند الله .

وبطبيعة الحال لا يمكن أن يُنسب الكمال إلى إنسان فينتفيه ، فالعادة أن

(١) لحَدَّثَ في الدين والحَدَّ والتَّحَدَّ : مال عنه ، وحَدَّ ، وابْتَعَدَ . والإِلْحَادُ : الخِطَالُ والمِرَاءُ ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۖ ۝ (١٠٣) ﴾ [فصلت] وقال تعالى : ﴿ رَفَعُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۖ ۝ (١٨٠) ﴾ [الأعراف] . والإِلْحَادُ : الظلم والجور . قال تعالى : ﴿ وَنُفِذْ فِيهِ بِالْعَادِ يُظْلَمُ تُدْفَعُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۖ ۝ (٣٥) ﴾ [الحج] . والإِلْحَادُ في اللغة : الميل عن القصد . وقوله : ﴿ لِسَانَ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي ۖ ۝ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ۖ ۝ (١٠٣) ﴾ [النحل] وأصل الإِلْحَادُ : الميل والعُدُولُ عن الشيء . والمُلْحِدُ : المُلْحَا ، لأنَّ اللّاحِظَ يَعْمَلُ إِلَيْهِ ، [لسان العرب : مادة (لحذ) - بصرياً] .

(٢) عَجَم : العَجَمُ والعَجَمُ : خلاف العرب والعرب . ورجل عَجَمِيٌّ وأَعْجَمِيٌّ : غير عربي . قال أبو إسحاق : الأعجم : الذي لا يفصح ولا يبين كلامه وإن كان عربياً . والعجمي هو الذي من جنس العجم أفصح أو لم يفصح . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى نَعْصِ الْأَعْجَمِينَ (١٥٥) لَفَرَّاهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٥٦) ﴾ [الشعراء] .

يسرق شاعر - مثلاً - قصيدة من شاعر آخر ، أو أن يتحلل^(١) كاتب مقالة من آخر ، لكن رسول الله ﷺ يبلغكم أن كمال القرآن ليس من عنده ، بل هو مجرد مبلغ له ، وكان يجب أن يتعمقوا تلك القضية بمقدماتها ونتائجها ؛ فلا يلقوا لأفكارهم العنان^(٢) ؛ ليكذبوا ويعاندوا ، فالأمر بسيط جداً^(٣) .

يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَفَوَّتْهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٦)

[يونس]

إذن : فالمقدمة التي يريد الحق سبحانه وتعالى أن يقنع بها الكافرين أن رسول الله ﷺ قد أرسله الله رسولا من أنفسهم^(٤) ، فإن قلت :

﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ ﴾ (١٦٤)

[آل عمران]

أى : أنه ﷺ من جنس الناس ، لا من جنس الملائكة ، أو ﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أى : من أمة العرب ، لا من أمة العجم ، أو ﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أى : من قبيلتهم التي يكذب أصحابها رسول الله ﷺ .

إذن : فحياته ﷺ معروفة معلومة لكم ، لم يغيب عنكم فترة ؛ لنقولوا

(١) يتحلل الشيء : ينسبه إلى نفسه . نحلة القول : نسبه إليه . وتحل الشاعر قصيدة إذا نسبت إليه وهي من قبل غيره . [لسان العرب : مادة تحل] .

(٢) العنان : هتان اللحام : السير الذي تُمسك به الدابة ، والجمع : أعنة . والعنان : الحبل . والمراد هنا : تشبيه الأفكار بالبعير الذي له عقال أو عنان ؛ إذا أرغبت له سار وانطلق كما يشاء ويهوى على غير هدى . والعنان للذئاب كالعقل للإنسان فإذا فقد العقل ضل صاحبه ، وإذا لم يعقل الإنسان أفكاره يضل . [لسان العرب : مادة عنن] - بتصرف .

(٣) فرسول الله ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنْتَ تُنْظَرُ مِنْ قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا نُقُطَةٍ يُحْسِبُكَ إِذَا لَوَّاتِ الْبُطْلُونَ ﴾ (١٤) [الحجرات] .

(٤) وفى هذا يقول الحق سبحانه : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٦٥) [التوبة] .

بُعْثَ بَعْثَةً ؛ لِيَتَعَلَّمَ عِلْمًا مِنْ مَكَانٍ آخَرَ ، وَلَمْ يَجْلِسْ إِلَى مَعْلَمٍ عِنْدَكُمْ وَلَا إِلَى مَعْلَمٍ خَارِجَكُمْ ، وَلَمْ يَتَلُ كِتَابًا ، فإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، فَيَجِبُ أَنْ تَأْخُذُوا مِنْ هَذَا مَقْدُمَةً وَتَقُولُوا : فَمَنْ أَيْنَ جَاءَتْ لَهُ هَذِهِ الْحِكْمَةُ فَجَاءَتْ ؟

أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الْمَوَاهِبَ وَالْعِبَقْرِيَّاتِ لَا تَنْشَأُ فِي الْأَرْبَعِينَاتِ ، وَلَكِنْ مَخَائِلُ الْعِبَقْرِيَّةِ إِنَّمَا تَنْشَأُ فِي نَهَايَةِ الْعَقْدِ الثَّانِي وَأَوَائِلِ الْعَقْدِ الثَّلَاثِ ، فَمَنْ الَّذِي أَخَّرَ الْعِبَقْرِيَّةَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَقُولَ هَذَا الْقَوْلَ الْبَلِيغَ الَّذِي أَعْجَزَكُمْ ، وَأَنْتُمْ أُمَّةُ الْبَلَاغَةِ وَأُمَّةُ الْفَصَاحَةِ الْمُرْتَاضُونَ ^(١) عَلَيْهَا مِنْ قَدِيمٍ ، وَعَجَزْتُمْ أَمَامَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ ؟

كَانَ يَجِبُ أَنْ تَقُولُوا : لِمَ نَعْرِفُ عَنْهُ أَنَّهُ يَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ هَذَا ، فإِذَا حُلَّ لَكُمْ اللَّغْزُ وَأَوْضِحَ لَكُمْ : أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ مِنْ عِنْدِي ؛ كَانَ يَجِبُ أَنْ تَصْدُقُوهُ ؛ لِأَنَّهُ ﷺ يَعِزُّوهُ إِلَى خَالْفِهِ وَرَبِّهِ سُبْحَانَهُ . وَالذَّلِيلُ عَلَى أَنْكُمْ مُضْطَرِبُونَ فِي الْحُكْمِ أَنْكُمْ سَاعَةً يَقُولُ لَكُمْ : الْقُرْآنَ بَلَاغَ عَنْ اللَّهِ ، تَكْذِبُونَهُ ، وَتَقُولُونَ : لَا ، بَلْ هُوَ مِنْ عِنْدِكَ ، فإِذَا فُتِرَ عَنْهُ الْوَحْيُ مَرَّةً قُلْتُمْ : قَلَاهُ ^(٢) رَبُّهُ .

لِمَاذَا اقْتَنَعْتُمْ بِأَنَّهُ رَبًّا يَصِلُهُ بِالْوَحْيِ وَيُهْجَرُهُ بِمَا وَحَى ؟

أَنْتُمْ - إِذَنْ - أَنْكُرْتُمْ حَالَةَ الْوَصْلِ بِالْوَحْيِ ، وَاعْتَرَفْتُمْ بِالْإِلَهِ الْخَالِقِ عِنْدَمَا غَابَ عَنْهُ الْوَحْيُ ، وَكَانَ يَجِبُ أَنْ تَسْبِّهُوا وَتَعُودُوا إِلَى عَقُولِكُمْ ؛ لَتَحْكُمُوا عَلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ، وَقَدْ ذَكَرَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ الْأَمْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ آيَاتِهِ ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ :

(١) الْمُرْتَاضُونَ : الَّذِينَ لَهُمْ تَرْبِيَةٌ ، فَذَلِكَ أَسْتَهْمَ عَلَى الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ .

(٢) قَلَاهُ رَبُّهُ : أَبْغَضَهُ وَتَرَكَهُ . وَلِذَلِكَ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ [الضحى] .

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَاهُمْ﴾^(١) أَيْهُمْ يَكْفُلُ^(٢) مَرْيَمَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران]

ويقول سبحانه :

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾^(٣) إِذْ قُضِيَ إِلَى مُوسَى الْأَمْرُ. ﴿٤٥﴾﴾ [القصص]

ويقول سبحانه :

﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا﴾^(٤) فِي أَهْلِ مَدْيَنَ .. ﴿٤٦﴾﴾ [القصص]

ويقول سبحانه :

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لِأَرْثَابِ الْمِطْلُونِ﴾ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت]

فمن أين جاءت تلك البلاغة ؟ كان يجب أن تأخذوا هذه المقدمات ؛ لتحكموا بأنه صادق في البلاغ عن الله ؛ لذلك يُنهي الحق سبحانه الآية التي نحن بصدده نحواً طرنا عنها بقوله : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ .

وحين يثبتك الحق سبحانه وتعالى إلى أن تستعمل عقلك ، فهذا دليل على الثقة في أنك إذا استعملت عقلك ؛ وصلت إلى القضية المرادة . والله

(١) أَفْلَاهُمْ : ساهمهم ، وقيل : أَفْلَاهُمْ التي كانوا يكتبون بها التوراة . قال الزجاج : الأفلام هنا : القديح . وهي قديح جعلوا عليها علامات يعرفون بها من يكفل مريم ، على جهة القرعة ، وإنما قيل للسهم : التلم ؛ لأنه يُقْلَمُ ، أي : يُبْرَى . وكل ما قطعت منه شيئاً بعد شيء ، فقد قُلِّعَتْهُ ، من ذلك القلم الذي يكتب به ، وإنما سُمِّيَ قَلَمًا ؛ لأنه قُلِمَ مرة بعد مرة ، ومن هنا قيل : قُلِّمْتُ أَظْفَارِي . قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ .. ﴿١٧﴾﴾ [القصص] . [لسان العرب : مادة (قلم) - بتصرف] .

(٢) يكفل : يعول ، والكافل : العائل . قال تعالى : ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ .. ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران] .

(٣) الغربي : الجبل الغربي الذي كَلَّمَ الله سبحانه نبيه موسى عليه السلام عنده من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي المقدس (مُوسَى) . [تفسير ابن كثير : ٣/ ٢٩١ - بتصرف] .

(٤) ثاوياً : متقيماً والثواء : الإقامة ، ثويت بالمكان : أقمت فيه . قال تعالى : ﴿وَمَا وَاعَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوًى الطَّالِبِينَ﴾ .. ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران] . [لسان العرب : مادة (ثوا) - بتصرف] .

سبحانه وتعالى مُنْزَهٌ عن خديعة عباده ، فمن يخدع الإنسان هو من يحاول أن يصيب عقله بالغفلة ، لكن الذي يَنْبَهُ العقل هو من يعلم أن دليل الحقيقة المناسبة لما يقول ، يمكن الوصول إليه بالعقل .

وقول الحق سبحانه في آخر الآية : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يدلنا على أن القضية التي كَذَّبُوا فيها رسول الله ﷺ نشأت من عدم استعمال عقولهم ، فلو أنهم استعملوا عقولهم في استخدام المقدمات الحسنة التي يؤمنون بها ويسلمون ؛ لانتهوا إلى القضية الإيمانية التي يقولها رسول الله ﷺ .

ولو أنهم فكروا وقالوا : محمد نشأ بيننا ولم نعرف له قراءة ، ولا تلاوة كتاب ولا جلوساً إلى معلم ، ولم يَغْبِ عنا فترة ليتعلم ، وظل مدة طويلة إلى من الأربعين ولم يرتض على قول ولا على بلاغة ولا على بيان ؛ فمن أين جَاءَتْه هذه الدفعة القوية ؟

كان يجب أن يسألوه هو عنها : من أين جاءتكَ هذه ؟ وما دام قد قال لهم : إنها جاءت من عند الله ، فكان يجب أن يصدّقوه .

ومهمة العقل دائماً مأخوذة من اشتقاقه ، « فالعقل » ^(١) مأخوذ من « عقال » البعير . وعقال البعير هو الحبل الذي تربط به ساقى الجمل ؛ حتى لا ينهض ويقوم ؛ لنوقر له حركته فيما نحب أن يتحرك فيه ، فبدلاً من أن يسير هكذا بدون غرض ، وبدون قصد ، فنحن نربط ساقيه ؛ ليرتاح ولا يتحرك ، إلى أن نحتاجه في حركة .

إذن : فالعقل إنما جاء ؛ ليحكم الملكات ؛ لأن كل ملكة لها نزوع إلى شيء ، فالعين لها ملكة أن ترى كل شيء ، فيقول لها العقل : لا داعي أن

(١) العقل - النهي ، ضد الحقن ، وعقل يعقل فهو عاقل . قال ابن الأنباري : الرجل العاقل هو الجامع لأمره ورأيه ، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قرائمه ، وقيل : العاقل هو الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها . والعقل : التثبت في الأمور .

تشاهدى ذلك ؛ لأنه منظر سيؤذيك ، والأذن تحب أن تسمع كل قول ،
فيقول لها العقل : لا تسمى إلى ذلك ؛ حتى لا يضررك ^(١) .

إذن : فالعقل هو الضابط على بقية الجوارح . وكذلك كلمة «الحكمة» ،
مأخوذة من «الحكمة» ^(٢) وهى فى «اللجام» الذى يوضع فى فم الفرس ؛
حتى لا يجمع ، وتظل حركته محسوبة ؛ فلا يتحرك إلا إلى الاتجاه الذى
تريده .

إذن : شاء الحق سبحانه أن يميز الإنسان بالعقل والحكمة ؛ ليقيم الموازين
للكلمات النفس ؛ فخذوا المقدمات الحسنة التى تؤمنون بها وتشهدونها
وتسلمونها لرسول الله ﷺ لتستبسطوا أنه جاء بكلامه من عند الله تعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ
بِآيَاتِهِ إِنَّكَ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ^(٣)

وهنا يوضح القرآن على لسان الرسول ﷺ : أكذب على الله ؟ إذا كنت
لم أكذب عليكم أنتم فى أمورى معكم وفى الأمور التى جرتتموها ،
أفأكذب على الله ؟ ! إن الذى يكذب فى أول حياته من المعقول أن يكذب

(١) وقد قال سبحانه : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء] .

(٢) حكمة اللجام : ما أحاط بحنكى الفرس ، سميت بذلك لأنها تمتعه من الجرى الشديد . وقيل : الحكمة
حديدية فى اللجام تكون على أنف الفرس وحنكه تمتعه عن مخالطة راكبه . [لسان العرب : مادة
(حكم)] .

وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : «أما من آدمى إلا فى رأسه حكمة بيد ملك ، فإذا تواضع قبل
للملك : أرفع حكمته ، وإذا تكبر قبل للملك : خضع حكمته» أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير
(١٢٩٣٩) وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨ / ٨٢) وقال : إسناده حسن .

(٣) افترى : اختلق ، الفرية : الكذب . وافترى : تنبذ للباطلة فى الكذب .

فى الكِبَر ، وإذا كنت لم أكذب عليكم أنتم ، فهل أكذب على الله ؟
وإذا لم أكن قد كذبت وأنا غير ناضج التفكير ، فى طفولتى قبل أن أصل
إلى الرجولة ، فأنا الآن لا أستطيع الكذب . فإذا كنتم أنتم تتهمونى بذلك ،
فأنا لا أظلم نفسى وأتهمها بالكذب ، فتصبحون أنتم المكذبين ؛ لأنكم
كذبتُمونى فى أن القرآن مبلغ عن الله ، ولو أننى قلت : إنه من عند نفسى
لكان من المنطق أن تُكذِّبوا ذلك ؛ لأنه شرف يُدعى . ولكن أرفعه إلى
غيرى ؛ إلى من هو أعلى منى ومنكم .

وقوله الحق : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أى : لا أحد أظلم ممن افترى على الله سبحانه
كذباً ؛ لأن الكاذب إنما يكذب ليدلّس على من أمامه ، فهل يكذب أحد
على من يعلم الأمور على حقيقتها ؟ لا أحد بقادر على ذلك . ومن يكذب
على البشر المساوين له يظلمهم ، لكن الأظلم منه هو من يكذب على الله
سبحانه .

والافتراء كذب متعمد ، فمن الجائز أن يقول الإنسان قضية يعتقدها ،
لكنها ليست واقعاً ، لكنه اعتقد أنها واقعة بإخبار من يثق به ، ثم تبين بعد
ذلك أنها غير واقعة ، وهذا كذب صحيح ، لكنه غير متعمد ، أما الافتراء
فهو كذب متعمد .

ولذلك حينما قسم علماء اللغة الكلام الخبرى ؛ قسموه إلى : خبر
وإنشاء ، والخبر يقال لقائله : صدقت أو كذبت ، فإن كان الكلام يناسب
الواقع فهو صدق ، وإن كان الكلام لا يناسب الواقع فهو كذب .

وقوله الحق : ﴿ افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ﴾ يبين لهم رسول الله
ﷺ : إن قلتم إننى ادعيت أن الكلام من عند الله ، وهو ليس من عند
الله . فهذا يعنى أن الكلام كذب وهو من عندى أنا ، فما موقف من
يكذب بآيات الله ؟

إن الكذب من عندكم أنتم ، فإن كنتم تكذبونني وتدعون أني أقول إن هذا من الله ، وهو ليس من الله ، وتتمادون وتكذبون بالآيات وتقولون هي من عندك ، وهي ليست من عندي ، بل من عند الله ؛ فالإثم عليكم .

والكذب إما أن يأتي من ناحية الفاتل ، وإما من ناحية المستمع ، وأراد الرسول ﷺ عدالة التوزيع في أكثر من موقع ، مثلما يأتي القول الحق مبيّناً أدب النبوة :

﴿وَأَنَا أُرِيكُمْ لَعَلِّي هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ .. (٢٤) [سبا]

وليس هناك أدب في العرض أكثر من هذا ، فيبين أن قضيته ﷺ وقضيتهم لا تلقيان أبداً ، واحدة منهما صادقة والأخرى كاذبة ، ولكن من الذي يحدد القضية الصادقة من الكاذبة ؟ إنه الحق سبحانه .

وتجده سبحانه يقول على لسان رسوله ﷺ : ﴿أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وفي ذلك طلب لأن يعرضوا الأمر على عقولهم ؛ ليعرفوا أي القضيتين هي الهدى ، وأيها هي الضلال^(١) .

وفي ذلك ارتقاء للمجادلة بالتي هي أحسن من رسول الله ﷺ .

ويقول الحق سبحانه :

(١) هذا من باب اللف والنشر ، وهو لون من ألوان البديع في القرآن ، وتعميغه : « أن يذكر شيئاً أو أشياء ، إما تفصيلاً بالنص على كل واحد أو إجمالاً ، بأن يؤتى بلفظ يشمل على متعدد ، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك ، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم ، ويقرّض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به » (الإتقان في علوم القرآن للمبشوطي ٢/٢٧٩ ، ٢٨٠) وهو هنا تفصيلي ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فَسُكْرًا لِّهِ وَنَوْمًا مِّنْ فَضْلِهِ ..﴾ (الفصل) ، فالسكون راجع إلى الليل ، والابتغاء راجع إلى النهار .

(٢) وقد استخدم صحابة رسول الله ﷺ هذا المنهج مع المشركين ، فكانوا يقولون لهم : « والله ما نحن وإياكم على أمر واحد إن أحد الفريقين لمهتد » ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/٥٣٨) من قول قتادة . وهو دعوة لإعمال الفكر والعقل من جانب المشركين .

﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ...﴾ (٢٥) [ب]

أى : كل واحد سيُسأل عن عمله ، فجزيمتك لن أسأل أنا عنها ، وجزيمتى لا تُسأل أنت عنها . ونسب الإجماع لجهته ولم يقل : " قل لا تُسألون عما أجرمنا ولا تُسأل عما تجرمون " وشاء ذلك ليرتقى فى الجدل ، فاختار الأسلوب الذى يهذب ، لا ليهيج الخصم ؛ فيعاند ، وهذا من الحكمة ؛ حتى لا يقول للخصم ما يسبب توتره وعناده فيستمر الجدل بلا طائل .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فإذا كان الظلم من جهتى ؛ فسوف يحاسبنى الله عليه ، وإن كان من جهتكم ؛ فاعلموا قول الحق سبحانه : ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ولم يحدد من المجرم ، وترك الحكم للسامع .

كما تقول لإنسان له معك خلاف : سأعرض عليك القضية واحكم أنت ، وساعة تفوضه فى الحكم ؛ فلن يصل إلا إلى ما تريد . ولو لم يكن الأمر كذلك لما عرضت الأمر عليه .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ
وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَشْفَعُونَ
عِندَ اللَّهِ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى
عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٨)

(١) قال الجوهري : الشرك الكفر . وأشرك يشرك إشراكاً فهو مشرك وهم مشركون . وفى الحديث : «الشرك أخفى من ديب التنمل» ، قال ابن الأثير : يريد به الرياء فى العمل فكانه أشرك فى عمله غير الله . وفى الحديث : «من حلف بغير الله فقد أشرك» . [اللسان : مادة (شرك) بتصرف] .

وكلمة ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ تقتضى وجود عايد ؛ ووجود معبود ؛ ووجود معنى للعبادة . والعايد أدنى حالاً من المعبود ، ومظهر العبادة والعبودية كله طاعة للأمر والانصراف عن المنهى عنه .

هذا هو أصل العبادة ، ووسيلة القرب من الله .

وحتى تكون العبادة فى محلها الصحيح لا بد أن يقر العايد أن المعبود أعلى مرتبة فى الحكم على الأشياء ، أما إن كان الأمر بين متساويين فيسمونه التماساً .

إذن : فهناك أمر ومأمور ، فإن تساويا ؛ فالمأمور يحتاج إلى إقناع ، وأما إن كان فى المسألة حكم سابق بأن الأمر أعلى من المأمور ؛ كالأستاذ بالنسبة للتلميذ ، أو الطبيب بالنسبة للمريض ، ففى هذا الوضع بطبع المأمور الأمر لأنه يفهم الموضوع الذى يأمر فيه .

وكذلك المؤمن ؛ لأن معنى الإيمان أنه آمن بوجود إله قادر له كل صفات الكمال المطلق ؛ فإذا اعتقدت هذا ؛ فالإنسان يتفقد ما يأمر به الله ؛ ليأخذ الرضاء والحب والثواب . وإن لم ينفذ ؛ فسوف ينال غضب المعبود وعقابه .

إذن : فأنت إن فعلت أمره واجتبت نهييه ؛ نلت الثواب منه ، وإن خالفت ؛ تأخذ عقاباً ؛ لذلك لا بد أن يكون أعلى منك قدرة ، ويكون قادراً على إنفاذ الثواب والعقاب ، والقادر هو الله جل علاه .

أما الأصنام التى كانوا يعبدونها ، فبأى شيء أمرتهم ؟ إنها لم تأمر بشيء ؛ لذلك لا يصلح أن تكون لها عبادة ؛ لأن معنى العبادة يتطلب أمراً ونهياً ، ولم تأمر الأصنام بشيء ولم تنه عن شيء ، بل كان المشركون هم الذين يقترحون الأوامر والنواهي ، وهو أمر لا يليق ؛ لأن المعبود هو الذى عليه أن يحدد أوجه الأوامر والنواهي .

إِذَنْ : فَمَنْ الْحَقُّ ^(١) أَنْ يَعْبُدَ أَحَدَ الْأَصْنَامِ ؛ لِأَنَّهَا لَا تَضُرُّ مِنْ تَخَالُفِهَا ، وَلَا تَنْفَعُ مِنْ عَيْذِهَا ، فَلَيْسَ لَهَا أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ .

وَمَنْ أَوْقَفُوا أَنْفُسَهُمْ هَذَا الْمَوْقِفَ نَسُوا أَنْ فِي قُدْرَةِ كُلِّ مَتْنَمٍ أَنْ يَنْفَعِ الصَّنَمَ وَأَنْ يَضُرَّهُ ، فَالْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصْنَعَ الصَّنَمَ ، وَأَنْ يَصْلَحَهُ إِذَا انْكَسَرَ ، أَوْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْسِرَهُ بِأَنْ يُلْقِيَهُ عَلَى الْأَرْضِ . وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ يَكُونُ الْعَابِدُ أَقْدَرُ مِنَ الْمَعْبُودِ عَلَى الضَّرِّ وَعَلَى النِّفْعِ ، وَهَذَا عَيْنُ التَّخَلُّفِ الْعَقْلِيِّ .

إِذَنْ : فَمِثْلُ هَذِهِ الْعِبَادَةِ لَوْنٍ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَوْ عُرِضَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ عَلَى الْعَقْلِ ؛ فَسَوْفَ يَرْفُضُهَا الْعَقْلُ السَّبِيلِيْمُ .

وَعِنْدَمَا تَجَادَلُهُمْ ، وَتَثْبِتَ لَهُمْ أَنَّ تِلْكَ الْأَصْنَامَ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، تَجِدُ مِنْ يَكَايِرٍ قَائِلًا : ﴿ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ وَهُمْ بِهَذَا الْقَوْلِ يَعْتَرِفُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَنْفَعُ وَيَضُرُّ ، وَلَكِنْ أَمَا كَانَ يَجِبُ أَنْ يَتَّخِذُوا شَفِيعًا لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَنْ يَكُونَ الشَّفِيعُ مَتَمَتًا بِمَكَانَةِ وَمَحَبَّةٍ عِنْدَ مَنْ يَشْفَعُ عِنْدَهُ ^(٢) ؟

ثُمَّ مَآذَا يَقُولُونَ فِي أَنْ مَنْ تُقَدِّمُ لَهُ شَفَاعَةً هُوَ الَّذِي يَنْهَى عَنْ اتِّخَاذِ الْأَصْنَامِ آلِهَةً وَيَنْهَى عَنْ عِبَادَتِهَا ؟

وَهَلْ هُنَاكَ شَفَاعَةٌ دُونَ إِذَنْ مِنَ الْمَشْفُوعِ عِنْدَهُ ؟ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ جَاءَ الْأَمْرُ مِنْ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ :

(١) الْحَقُّ : وَضَعَ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، وَالْحَقُّ : ضِدُّ الْعَقْلِ أَوْ قُلَّةُ الْعَقْلِ وَضَعْفُهُ . وَالْحَقِيقَةُ : الْحَقَرُ ؛ لِأَنَّهَا تَعْقِبُ شَارِبَهَا الْحَقَّ . وَالْأَحَقُّ مَا خُذَ مِنْ انْتِمَاقِ السُّوقِ إِذَا كَسَدَتْ ، فَكَأَنَّهُ قَدْ عَقِلَ حَتَّى كَسَدَ . قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : الْحَقُّ أَصْلُهُ الْكَسَادُ . وَيُقَالُ : الْأَحَقُّ الْكَاسِدُ الْعَقْلُ . وَالْحَقُّ أَيْضًا : الْغُرُورُ . وَاتَّحَقَّ الرَّجُلُ : ضَعُفَ عَنِ الْأَمْرِ . [الْلِسَانُ : مَادَّةُ (حَقٌّ)] .

(٢) يَقُولُ سَبْحَانَهُ - ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ [طه] ، إِنْ ادَّعَى الْمُشْرِكِينَ أَنَّ الْأَصْنَامَ تَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ - ادَّعَاءٌ بِاطْلٍ وَمَعَ بَطْلَانِهِ اعْتِرَافٌ مِنْهُمْ بِأَنَّ الشَّفَاعَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَشَفَاعَةُ اللَّهِ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلْحَبِيبِ وَمُخَيَّبٍ بِعِظَمِهِ فَرَضًا وَفَضْلًا .

﴿ قُلْ أَتَتَّبِعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١٨)

[يونس]

إذن : فمن أين جئتم بهذه القضية ؛ قضية شفاعة الأصنام لكم عند الله ؟ إنها قضية لا وجود لها ، وسبحانه لم يبلغكم أن هناك أصناماً تشفع ، وليس هذا وارداً ، فقولكم هذا فيه كذب متعمد وافتراء .

فهو سبحانه الذى خلق السموات وخلق الأرض ، ويعلم كل ما فى الكون ، وقضية شفاعة الأصنام عنده ليست فى علمه ، ولا وجود لها ، بل هى قضية مفتراة ، مدعاة .

وقوله الحق هنا : ﴿ أَتَتَّبِعُونَ اللَّهَ ﴾ مثلها مثل قوله الحق :

[الحجرات]

﴿ قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ .. ﴾ (١٦)

ويعنى هذا القول بالرد على من قالوا ويقولون : إن المطلوب هو تشريعات تناسب العصر ، وكلما فسد العصر طالبا بتشريعات جديدة ، وما داموا هم الذين يشرعون ، فكأنهم يرغبون فى تعليم خالفهم كيف يكون الدين ، وفى هذا اجتراء وجهل بقدرة وحكمة مَنْ خلق الكون ، فأحكمه بنظام .

وقوله الحق : ﴿ قُلْ أَتَتَّبِعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فيه تنزيه له سبحانه ، فهو الخالق لكل شيء ، خالق الملك والملكوت ويعلم كل شيء ، وقضية شفاعة الأصنام إنما هى قضية مفتراة لا وجود لها ؛ لذلك فهى ليست فى علم الله ، والحق سبحانه مُنزّه أن توجد فى ملكه قضية لها مدلول يقينى ولا يعلمها ، ومُنزّه جل وعلا عن أن يُشرك به ؛ لأن الشريك إنما يكون ليساعد من يشركه ، ونحن

نرى على سبيل المثال صاحب مال يديره فى تجارة ما ، ولكن ماله لا ينهض بكل مسئوليات التجارة ، فيبحث عن شريك له .

وسبحانه وتعالى قوى وقادر ، ولا يحتاج إلى أحد فى ملكية الكون وإدارته ، ثم ماذا يفعل هؤلاء الشركاء المدَّعون كذباً على الله ؟
إن الحق سبحانه يقول :

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا أُبْتَغُوا ^(١) إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ^(٢) ﴾ [الإسراء]

وهذا القول الحكيم ينبه المشركين إلى أنه بافتراض جدلى أن هؤلاء الشركاء قوة وقدرة على التصرف ، فهم لن يفعلوا أى شىء إلا بابتغاء ذى العرش ، أى : بأمره سبحانه وتعالى . وهم حين ظنوا خطأ أن لكل فلان من الأفلاك سيطرة على مجال فى الوجود ، وأن النجوم لها سيطرة على الوجود ، وأن كل برج من الأبراج له سيطرة على الوجود ، فلا بد فى النهاية من الاستئذان من مالك الملك والملوك .

ومن خيبة من ظنوا مثل هذه الفنون ، ومعهم الفلاسفة الذين أقروا بأن هناك أشياء فى الكون لا يمكن أن يخلقها إنسان ، أو أن يدعى لنفسه صناعتها ؛ لأن الجنس البشرى قد طرأ على هذه المخلوقات ، فقد طرأ الإنسان على الشمس والقمر والنجوم والأرض ، ولا بد إذن أن تكون هناك قوة أعلى من الإنسان هى التى خلقت هذه الكائنات . كل هذه الكائنات تحتاج إلى مُوجد ، ولم نجد معامل لصناعة الشمس أو القمر أو الأرض أو وجدنا من ادعى صناعتها أو خلقها .

ولكن الفلاسفة الذين قبلوا وجود خالق للكون لم يصلوا إلى اسمه

(١) ابتغوا : طلبوا . قال تعالى : ﴿ قُلْ لَيْسَ لَنَا أَقْسَمُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [التوبة] [اللسان : مادة (بني)] .

ولا إلى منهجه ، وقوة الحق سبحانه مطلقة ، ولا يحتاج إلى شريك له .
وإذا أردنا أن نتأمل ولو جزءاً بسيطاً من أثر قوة الله التي وهبها للإنسان ،
فلنتأمل صناعة المصباح الكهربى .

وكل منا يعلم أنه لا توجد بذرة نضعها فى الأرض ، فتنبت أشجاراً من
المصابيح ، بل استدعت صناعة مصباح الكهربى جهد العلماء الذين درسوا
علم الطاقة ، واستنبطوا من المعادلات إمكان تصور صناعة المصباح
الكهربى ، وعملوا على تفريغ الهواء من الزجاجاة التى يوضع فيها السلك
الذى يضىء داخل المصباح ، وهكذا وجدنا أن صناعة مصباح كهربى واحد
تحتاج إلى جهد علماء وعمل مصانع ، كل ذلك من أجل إنارة غرفة واحدة
لفترة من الزمن . فما بالنا بالشمس التى تضىء الكون كله ، وإذا كان أتفه
الأشياء يتطلب كمية هائلة من العلم والبحث والإمكانات الفنية والتطبيقية ،
وتطوير للصناعات ، فما بالنا بالشمس التى تضىء نصف الكرة الأرضية
كل نصف يوم ، ولا أحد يقدر على إطفائها ، ولا تحتاج إلى صيانة من
البشر ، وإذا أردت أن تنسبها فلن تجد إلا الله سبحانه .

وأنت بما تبتكره و تصنعه لا يمكن أن يصرفك عن الله ، والذى حقاً هو
من يجعل ابتكاراته وصناعاته دليلاً على صدق الله فيما أخبر .

وإذا كان الحق سبحانه قد خلق الشمس^(١) - ضمن ما خلق - وإذا أشرقت
أطفاً الكل مصابيحهم ؛ لأنها هى المصباح الذى يهذى الجميع ، وإذا كان
ذلك هو فعل مخلوق واحد لله ، فما بالنا بكل نعمة من سائر مخلوقاته .
ونور الشمس إنما يمثل الهداية الحسية التى نحمينا من أن نصطدم بالأشياء
فلا تحطمنا ولا نحطمها ، فكذلك يضىء لنا الحق سبحانه المعانى والحقائق .

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ لَيَقُوْلُنَّ اللّٰهُ ۚ ۖ ﴾ [الفجر] ويقول
سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۚ ۖ ﴾ [الأنبياء] ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ
شَاءَ لَجَعَلْنَا سَاكِنَاتٍ لَّهُم مَّجَالًا لِّلشَّمْسِ فَلَإِنَّ لَّهُ لَمَنْ أَعْبَدُ ۚ ۖ ﴾ [الفرقان] .

وإياك أن تقول : إن الفيلسوف الفلاني جاء بنظرية كذا ؛ فخذوا بها ، بل دع عقلك يعمل وقيس ما جاء بهذه النظرية على ضوء ما نزل في كتاب الحق سبحانه ، وإن دخلت النظرية مجال التطبيق ، وثبت أن لها تصديقاً من الكتاب ، فقل : إن الحق سبحانه قد هدى فلاناً إلى اكتشاف سر جديد من أسرار القرآن ؛ لأن الحق يريد منا أن نتعقل الأشياء وأن ندرسها دراسة دقيقة ، بحيث نأخذ طموحات العقل ؛ لتقربنا إلى الله ، لا لتبعدنا عنه ، والعبادة بالله .

وإذا قال الحق سبحانه : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فذلك لأن الشراكة تقتضي طلب المعونة ، وطلب المعونة يكون إما من المساوى وإما من الأعلى ، ولا يوجد مساو لله تعالى ، ولا أعلى من الله سبحانه وتعالى . ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِحَتْ بَيْنَهُمْ
فِيمَا فِئُو يَخْتَلِفُونَ ۝١١﴾

وقد جاءت آية في سورة البقرة متشابهة مع هذه الآية وإن اختلف الأسلوب ، فقد قال الحق سبحانه في سورة البقرة : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ ۝١﴾ (١١) ، والذين يقرأون القرآن بسطحية وعدم تعمق قد

(١) الذين ذهبوا إلى أن الناس كانوا أمة واحدة على الكفر ، فاختلَفوا في عبادة مظاهر القوى ، ثم أدركوا أن القوى الكونية زائلة ، فامتثلوا بالعقل إلى الله تعالى . هؤلاء نسوا الميثاق الأول في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَتَّهَدْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۝١٢﴾ [الأعراف] ، ولكن الناس كانوا أمة واحدة على فطرة الإيمان ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ فِطْرَةَ النَّاسِ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۝١٣﴾ [الروم] ، فاختلَفوا بعبادة غير الله ، فبعث الله الرسل ، وإلا كان إرسال الرسل عبثاً إذا كان الناس أمة واحدة على الكفر واعتدوا بقولهم إلى الله سبحانه ، وهذا فهم قاصر .

لا يلتفتون إلى الآيات المشابهة لها في المعنى العام ، وهذه الآيات توازن بين المعاني فلا تضارب بين آية وأخرى .

ولذلك نجد بين المفكرين العصريين من يقول : إن الناس كانوا كلهم كفاراً ، ثم ارتقى العقل محاولاً اكتشاف أكثر الكائنات قوة ؛ ليعبدوه ، فوجدوا أن الجبل هو الكائن العالي الصلب ؛ فعبدوه . وأناس آخرون قالوا : إن الشمس أقوى الكائنات فعبدوها ، وآخرون عبدوا القمر ، وعبد قوم غيرهم النجوم ، واتخذ بعض آخر آلهة من الشجر ، وكل جماعة نظرت إلى جهة مختلفة تتلمس فيها القوة .

وهم يأخذون من هذا أن الإنسان قد اهتدى إلى ضرورة الدين بعقله ، ثم ظل هذا العقل في ارتقاء إلى أن وصل إلى التوحيد .

ونرد على أصحاب هذا القول : أنتم بذلك تريدون أن تعزلوا الخلق عن خالقهم ، وكأن الله الذي خلق الخلق وأمدهم بقوام حياتهم المادية قد ضنَّ عليهم بقوام حياتهم المعنوية ، وليس هذا من المقبول أو المعقول ، فكيف يضمن لهم الحياة المادية ، ولا يضمن لهذه المادية قيماً تحرسها من الشراسة وتحميها من الفساد والإفساد ؟

وقوله الحق :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢١٣) ﴿ [البقرة]

لذلك فهم البعض أن الناس كانوا أمة واحدة في الكفر ، وحين جاء

النبيون ، اختلف الناس ؛ لأن منهم من آمن ومنهم من ظل على الكفر ، ولكن لو أحسن الذين قالوا مثل هذا القول الاستنباط وحسن الفهم عن الله لوجدوا أن مقصود الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها الآن إنما هو : ما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ؛ فبعث الله النبيين ؛ ليخرجوهم عن الخلاف ويعيدوهم إلى الاتفاق على عهد الإيمان الأول الذي شهدوا فيه بربوبية الحق سبحانه وتعالى ^(١) ؛ لأن الأصل في المسألة هو الإيمان لا الكفر ^(٢) .

ومن أخذ آية سورة البقرة كدليل على كفر الناس أولاً ، نقول له : اقرأ الآية بأكملها ؛ لتجد قوله الحق : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ ۝ (٢١٣) ﴾ [البقرة]

وهكذا نرى أن الاختلاف الذي حدث بين الناس جاء في آية البقرة في المؤخرة ، بينما جاء الاختلاف في هذه الآية في المقدمة ، وهذا دليل على أن الناس كانوا أمة واحدة على الإيمان ^(٣) ، فليس هناك أناس أولى من

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَخَذَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَنبَذَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ سَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ۝ (٢٢٥) ﴾ [الأعراف] .

(٢) وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : كان بين نوح وأدم عشرة فروع كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . أورده ابن كثير في تفسيره (١/٢٥٠) .

(٣) إن تصدير الاختلاف في آية سورة يونس وتأخيرها في سورة البقرة ، فأول القضية أن الأمة واحدة على دين الله ومنهجه ، والخلاف عارض ؛ لهذا كان الرسل ، أما موقف سيدنا إبراهيم عليه السلام في آية الأنعام في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۝ (٢٢) فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ تَازَعَا قَالَا هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ بِهَٰذَا رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۝ (٢٣) فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَا هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَا يَٰقَوْمِ إِنَّا بِرَبِّعِهِ مُتَشَرِّكُونَ ۝ (٢٤) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ (٢٥) ﴾ [الأنعام] فسيدنا إبراهيم كان في مرحلة إيمان الهداية ، ثم بالتأمل يصل إلى إيمان الدلالة حتى يصل إلى إيمان اليقين .

أناس عند الخالق سبحانه وتعالى ، ولم يكن عدل الله ليترك أناساً متخبطين في أمورهم على الكفر ، ويرسل الرسل لأناس آخرين بالهداية ؛ فالناس بالنسبة لله سواء . وما دام الحق سبحانه قد أوجد الخلق من البشر فلا بد أن يُنزل لهم منهجاً ؛ ولذلك حين تقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ^(١) مَبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ^(٢) ﴾ [آل عمران]

نجد فيه الرد على من يقول إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى الكعبة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لم يترك الخلق من آدم إلى إبراهيم دون بيت يحججون ^(٣) إليه ، ولكن الحق سبحانه وضع البيت ؛ ليحج إليه الناس من أول آدم إلى أن تقوم الساعة ، والذي وضع البيت ليس من الناس ؛ بل شاء وضع البيت خالق الناس ، وما فعله سيدنا إبراهيم - عليه السلام - هو رفع القواعد من البيت الحرام .

أى : أنه أقام ارتفاع البيت بعد أن عرف مكان البيت طولاً وعرضاً ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ بَرَأْنَا ^(٤) لِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. ^(٥) ﴾ [الحج]

(١) بكّة : موضع البيت الحرام . ومكة : الحرم كله وتدخل فيه البيوت . وبعض علماء التفسير مثل مجاهد ذهب إلى أن كليهما واحد ، وأن الميم مبدلة من الباء . ثم قيل : بكّة مشتقة من البك وهو الازدحام أى : ازدحامهم في موضع ضرائعهم . والبك أيضاً : دق العنق ، وسميت بذلك لأنها كانت تدق رقاب الجبابرة إذا أُلحدوا فيها يظلم . بتصرف من تفسير القرطبي (١/٢٨٦) .

(٢) يحججون إليه : يقصدونه بشد الرحال إليه لنعبداه والتعظيم . قال الجرجاني في كتابه : « التعريفات » (ص ٧٢) : « الحج : القصد إلى الشيء العظيم » . وفى الشرع قصد لبيت الله تعالى بصفة مخصوصة فى وقت مخصوص بشرائط مخصوصة فى أماكن مخصوصة .

(٣) برأنا له : أزلناه ، فكان البيت الحرام وهديناه إليه . والتبوء : أن يعلم الرجل الرجل على مكان ليترك به . وبرأنا له : هبنا له المكان ومكانه منه . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِبُيُوتٍ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. ^(٦) ﴾ [يوسف] . [اللسان : مادة (بوا) - بتصرف] .

وهكذا يَصْدُقُ قول الحق سبحانه بأن البيت قد وُجد للناس قبل آدم ، وهو للناس إلى أن تقوم الساعة ، وهكذا نعلم أن الحق سبحانه خلق الخلق وأنزل لهم المنهج ، وأن الأصل في الناس هو الإيمان ، لكن الكفر هو الذي طرأ على البشر من بابين : باب الغفلة ، وباب تقليد الآباء .
والدليل على ذلك أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن ميثاق الذر ، قال :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ^(١) وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ^(٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْتَطِلُونَ^(٣)﴾
[الأعراف]

إذن : فالتعصّي عن الحكم الإيماني مدخله بابان : الأول باب الغفلة ، أى : أن تكون قد علمت شيئاً ، ولم تجعله دائماً فى بؤرة^(٤) شعورك ؛ لأن عقلك يستقبل المعلومات ، ويستوعبها من مرة واحدة ، إن لم تكن مُسْتَتِراً الفكر فى أكثر من أمر ، فإن كنت صافى الفكر ومتنبهاً إلى المعلومة التى تَصْلُكُ ؛ فإن عقلك يستوعبها من مرة واحدة ، ومن المهم أن يكون الذهن خالياً لحظة أن تستقبل المعلومة الجديدة .

ولذلك نجد فارقاً بين إنسان وإنسان آخر فى حفظ المعلومات ، فواحد يستقبل المعلومة وذهنه خال من أى معلومة غيرها ، فتثبت فى بؤرة

(١) ذرية الرجل : ولده ، والجمع : الذريات والذريات . قال تعالى : ﴿ذُرِّيَّةً بِفَصْطٍهَا مِنْ بَعْضِ .. (٢٥)﴾ [آل عمران] والذرية مأخوذة من ذرأ الله الخلق ، أى : خلقهم . فالذرية : اسم يجمع نسل الإنسان من ذكر وأنثى ، وأصلها الهمز ولكنهم حذفوه فلم يستعملوها إلا غير مفعوزة ؛ وقيل : الذرية أصلها من الذر بمعنى : التفريق ؛ لأن الله تعالى ذرهم فى الأرض ، أى : فرقهم . [اللسان : مادة (ذر)] .

(٢) بار النشء : نجيله وأخيره . ومنه قيل للحفرة : البؤرة . ومنها بؤرة الشعور أى : حفرة ومركز الشعور الذى يحتفظ فيها الإنسان بمعلوماته ومشاعره تجاه الأحداث التى تواجهه . انظر لسان العرب (مادة : بار) .

الشعور ، بينما يضطر الآخر إلى تكرار قراءة المعلومة إلى أن يخلو ذهنه من غيرها ؛ فتستقر المعلومة في بؤرة الشعور ، وحين تأتي معلومة أخرى ، فالمعلومة الأولى تنتقل إلى حاشية الشعور إلى حين أن يستدعيها مرة أخرى .

وإذا أراد طالب - على سبيل المثال - أن يستوعب ما يقرأ من معلومات جديدة ، فعليه أن ينفض عن ذهنه كل المشاغل الأخرى ^(١) ؛ ليركز فيما يدرس ؛ لأنه إن جلس إلى المذاكرة وباله مشغول بما سوف يأكل في الغداء ، أو بما حدث بينه وبين أصدقائه ، أو بما سوف يرتدي من ملابس عند الخروج من البيت ، أو يغير ذلك من المشاغل ، هنا سوف يضطر الطالب أن يعيد قراءة الدرس أكثر من مرة ؛ حتى يصادف الدرس جزئية خالية من بؤرة الشعور ؛ فتستقر فيها ^(٢) .

وقد نجد طالباً في صباح يوم الامتحان وهو يسمع من زملائه أن الامتحان قد يأتي في الجزء الفلاني من المقرر ؛ فيفتح الكتاب المقرر على هذا الجزء ويقراه مرة واحدة ؛ فيستقر في بؤرة الشعور ، ويدخل الامتحان ، ليجد السؤال في الجزء الذي قرأه مرة واحدة قبل دخوله إلى اللجنة ؛ فيجيب عن السؤال بدقة .

(١) ولذلك أوصى العلماء طلاب العلم أن يقتلوا علائق الاشتغال بالدنيا ، فإن العلائق - كما يقول الإمام وحاتم الغزالي - في إحيائه (كتاب التعمد) «شاغلة وصارفة عما جعل الله لرحل من قلبي في جوفه ..» (١) [الأحزاب] ، ومهما توزعت الفكرة قصرت عن ذك الحقائق ؛ ولذلك قيل : «لعم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك» والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق مآزه فنشئت الأرض بعضه واختطف الهواء بعضه ، فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزارع . قال الربيعي في تحف السادة المتقين (١/ ٥٠٤) : «لذا كرهوا التعمد في الاشتغال في دروس في علمين مستقلين لئلا تنوزع الفكرة ، والانتقال من فن إلى فن آخر قبل استكمال الأول» .

(٢) وأمر تداية الذهن والفكر من الشواغل والخواطر شيء - حث عليه حديث رسول الله ﷺ بالنسبة للصلاة - فمن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا صلاة بحضرة طعام ، ولا وهو - أفعه الآخر -» أخرجه مسلم في صحيحه (٥٦٠) والأغبان هما البول والبراز . وكذلك درس العلم يجب على المتعلم أن يعطيه كل ذهنه وتركيزه فلا يشغله شيء .

ولذلك فالتلميذ الذكي هو من يقوم بما يسميه علم النفس «عملية الاستصحاب» ، أى : أن يقرأ الدرس ثم يخلق الكتاب ؛ ليسأل نفسه : «ما الجديد من المعلومات فى تلك الصفحة ؟» ويحاول أن يتذكر ذلك ، ويحاول أن يتعرف حتى على الألفاظ الجديدة التى فى تلك الصفحة ، وما هى الأفكار الجديدة التى صحَّحت له معلومات أو أفكاراً خاطئة كانت موجودة لديه .

وهكذا يستصحب الطالب معلوماته بتركيز وانتباه .

وكذلك الأستاذ المتميز هو من يشرح الدرس ثم يتوقف ؛ ليسأل التلاميذ ؛ ليثير انتباههم ؛ حتى لا ينشغل أحدهم بما هو خارج الدرس ، والأستاذ المتميز هو الذى يلقي درسه بما يستميل التلاميذ ، كما تستميلهم القصة المروية ، وحتى لا تظل المعلومات الدراسية مجرد معلومات جافة .

وبهذا يستمر الذهن بلا غفلة ، والغفلة تأتى إلى القضايا الدينية ؛ لأن فى الإنسان شهوات تصادم الأوامر والنواهي ؛ فيتناسى الإنسان بعض الأوامر وبعض النواهي إلى أن يأتى الران^(١) الذى قال عنه الحق سبحانه : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين]

وبين النبي ﷺ ذلك بالحديث الشريف : « نزلت الأمانة فى جئر^(٢) قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة » . ثم يحدثنا ﷺ عن رفع الأمانة فيقول : « ينام الرجل النوم فتقبض الأمانة

(١) الرين : الطبع والدنس . وهو كالصدأ يفسد القلب . قال الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب . يتصرف من لسان العرب (مادة : رين) والرين : الصدأ يعلو السيف فيذهب بهريقه ويستعار للشحاسة تنعطي على القلب بسبب الذنوب ، وران الصدأ عليه : غلب عليه وغطاه كله . قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين] .

(٢) جئر كل شئ : أصله . ومنه هذا الحديث : جئر قلوب الرجال ، أى : فى أصلها . (اللسان مادة : جئر) .

من قلبه ؛ فيسظل أثرها مثل أثر الوُكْتُتِ^(١) «^(٢) أى : مثل لسعة النار وهكذا تتوالى ؛ حتى يأتى الرآنُ على القلب.

إذن : فالغفلة تنلصص على النفس الإنسانية ، وكلما غفل الإنسان فى نقطة ، ثم يغفل عن أخرى وهكذا . ولكن من لا يغفل فهو من يتذكر الحكم ، ويطبقه ، ويدوق حلاوته^(٣) . ومثال هذا : المسلم الذى يشرح الله تعالى قلبه للصلاة ، فإن لم يُصَلِّ يظل مرهقاً وفى ضيق .

ولذلك جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجحجياً لا يعرف معروفه ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه»^(٤) .

إذن : فالغفلة هى أول باب يدخل منه الشيطان ؛ فيبعد الإنسان عن

(١) الوكْتُت : الأثر فى الشيء ، كالقطة من غير لونه ، والجمع : وكْتُت . وفى الحديث : «لا يحلف أحدكم على مثل جناح بعوضة ، إلا كانت وكُتة فى قلبه» . ومنه فى حديث حليقة : « . . . ويظل أثرها كأثر الوكْتُت» . [اللسان : مادة (وكْتُت)] .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٩٧) ومسلم (٢٤٢) من حديث حليقة بن اليمان وهو حديث طويل ، هاتان قطعتان منه .

(٣) هذه الحلاوة تحدث عنها رسول الله ﷺ فقال : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة طعم الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار» متفق عليه . أخرجه البخارى (١٦) ومسلم (٤٢) عن أنس بن مالك .

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٤) وأحمد فى مستدره (٥/ ٣٨٦ ، ٤٠٥) من حديث حليقة بن اليمان . مثل الصفا : الصخرة المساء العريضة . مرباداً : أسود مشرباً بشربة .

كالكوز : كلمة عربية صحيحة لا فارسية وهو كوز بمروءة . مجحجياً : مثلاً ، أى : عن الاستقامة والاعتدال ، فشبه القلب الذى لا يعى خيراً بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شيء لأن الكوز إذا مال انصب ما فيه . [انظر لسان العرب مادة : جحجج] .

أحكام الله . وإذا ما غفل الأب ، فالأبناء يُقلّدون الآباء ، فتأتيهم غفلة ذاتية ، وهكذا يكون الغافل أسوة لمن بعده .

ولذلك قال الحق سبحانه عن الأبناء الذين يتبعون غفلة الآباء : ﴿ بَلْ تَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا ^(١) عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٧٠) ﴾ [البقرة]

وإلف تقليد الآباء قضية كاذبة ؛ لأننا إن سلسلنا مسألة الإيمان إلى آدم عليه السلام ، وهو الأب الأول لكل البشر ؛ لوجدنا أن آدم عليه السلام قد طبق كل مطلوب لله ^(٢) ، فإن قلت : ﴿ بَلْ تَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ فهذا القول يحتم عليك ألا تنحرف عن الإيمان الفطري ، وإلا كنت من الكاذبين غير المدققين فيما دخل على الإيمان الفطري من غفلة أو غفلات ، تبعها تقليد دون تمحيص .

والحق سبحانه قد شاء أن تكون كل كلمة في القرآن لها معنى دقيق مقصود ، فالحق سبحانه يقول على ألسنة الكافرين في القرآن : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (١٢) ﴾ [الزخرف]

ولم يقل : «مهتدون» بل قال : «مقتدون» ، والمقتدى من هؤلاء هو من اتخذ أباء قدوة ، لكن المهتدى هو مَنْ ظن أن أباه على حق .

إذن : فالمقتدى هو من لا يهتم بصدق إيمان أبيه ، بل يقلده فقط ، وتقليد الآباء نوعان : تقليد على أنه اقتداء مطلق لا صلة له بالهدى أو الضلال ، وتقليد على أنه هدى صحيح لشرع الله تعالى .

(١) ألفينا : وجدنا . يقال : ألفيت الشيء إذا وجدته وصادفته ولفيته . انظر اللسان مادة (لفي) .
(٢) إن آدم عليه السلام طبق المطلوب ، أما أكله من الشجرة التي نهى عنها ، فكان نسياناً ، والنسيان وارد وعارض ؛ لذلك علمه الله كلمات فتاب عليه وهدى ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَضَلَّيْنا وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (١٢٩) ﴾ [طه] وهذا لا ينافي أنه طبق كل المطلوب .

وقد حدث خلاف حول آدم عليه السلام أهو رسول أم نبي فقط ^(١) ؟
فهناك مَنْ قال: إن أول الرسل هو نوح عليه السلام ونقول: وهل من
المعقول أن يترك الله الخلق السابقين على نوح عليه السلام دون رسول ؟

إن الحق سبحانه هو القائل: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا ^(٢) فِيهَا نَذِيرٌ ^(٣)﴾
[طه]

والذي أشكل على هؤلاء المفسرين الذين قالوا: إن أول رسول هو نوح
عليه السلام أنهم قد فكروا تفكيراً سطحياً ، وفهموا أن الرسول يطرأ على
المرسل إليهم ، وما دام لم يكن هناك بشر قبل آدم فكيف يكون آدم مبعوثاً
برسالة ، ولئن تكون تلك الرسالة ؟

ولم يفتن هؤلاء المفسرون إلى أن آدم عليه السلام كان رسولاً وأسوة
إلى أبنائه ، فالحق سبحانه قد قال له: ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبِعَ
هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ^(٤)﴾
[البقرة]

وسبحانه قد قال لآدم عليه السلام: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ
وَلَا يَشْقَى ^(٥)﴾
[طه]

وما دام الحق سبحانه قد ذكر الهدى ، فهذا ذكر للمنهج ، وهو الذي
طبقه سلوكاً يقلده فيه الأبناء . وغفل هؤلاء المفسرون أيضاً عن استقراء قوله
الحق: ﴿وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ^(٦)﴾
[البقرة]

(١) هناك فرق بين النبي والرسول ، فالنبي هو من بُيِّنَ وأوحى إليه دون أن ينزل عليه كتاب أو يؤمر بتبليغ
قومه رسالة معينة ، لذلك كان كل رسول نبياً ، وليس كل نبي رسولاً .

(٢) خلا: مضى . أى: مضى وأرسل . ويقال: القرون الخالية: الماضية ومنها قوله عز وجل: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ
خَلَتْ لَهَا مَا كُتِبَتْ وَلَكُمْ مَا تُسْتَعْمَرُونَ ^(٣)﴾ [البقرة] ، وقوله عز وجل: ﴿كَلِمَاتٍ وَأُشْرُوا آمِنًا بِمَا أَسْلَمْتُمْ
فِي الْأَمَامِ فَخَالَتْهُ ^(٤)﴾ [الحاقة] .

(٣) القربان: ما قُرب إلى الله - عز وجل - وتقربت به ، تقول: قُربتُ لله قرباناً . وتقرب إلى الله بشيء .
أى: طلب به القربة عنده تعالى . قال اللبث: القربان ما قُربت إلى الله ، تبستى بذلك قربة
ووسيلة . [اللسان: مادة (قرب) - يتصرف] .

سُورَةُ يُوسُفَ

○ ٥٨٢٩ ○

وَابْنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ قَدَّمَا الْقَرِيبَانِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى . إِذْنُ : فَهَمَا قَدْ عَرَفَا أَنَّ هُنَاكَ إِلَهُاً .

وَحِينَ قَالَ قَايِيلُ لِأَخِيهِ : ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ (٢٧)﴾ [المائدة]

بعد ما تقبل الله قربان أخيه ولم يتقبل منه . قال هابيل : ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)﴾ [المائدة]

ثم في قول هابيل : ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨)﴾ [المائدة]

إذن : لو لم يكن آدم عليه السلام رسولاً فمن بلغ أبناءه بأن الله يثيب ويعاقب ؟

والحق سبحانه يقول في الآية التي نحن بصدد خرواطرنا عنها : ﴿وَكَلِمَةً^(١) سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لِقَضَىٰ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِئَهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وفي هذا إشارة إلى أن الله سبحانه - قبل رسالة محمد عليه الصلاة والسلام - كان يعاقب من يكذب البلاغ عنه وما جاء به السابقون من الرسل ، يقول سبحانه :

﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا^(٢) وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ^(٣) وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ^(٤) وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت]

(١) وعد الله سبحانه أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، وأنه قد أجل الخلق إلى أجل محدود لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه فأسعد المؤمنين وأعنت الكافرين [ابن كثير ٤١١ / ٢] .

(٢) الحاصب : ريح صرصر باردة شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل عليهم حصباء الأرض ، فتلقيها عليهم وتقتلعهم من الأرض . [ابن كثير ٤١٣ / ٣] .

(٣) عذب بها قوم ثمود ، جاءتهم صيحة أصممت أذانهم وأخمدت منهم الأصوات والحركات . [ابن كثير ٤١٣ / ٣] .

(٤) الخسف : إذهاب الأشياء في الأرض . وخسف بالرجل : إذا أخذته الأرض وغاب فيها ، وقد عذب بهذا فاروق ، [ابن كثير ٤١٣ / ٣] .

إلا أمة محمد ﷺ فقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (٢٣) [الأنفال]

أى : أنه سبحانه قد أجل الجزاء والعقوبة عن أمة محمد ﷺ إلى الآخرة . وهذه الكلمة التى سبقت ، أنه سبحانه لا يؤاخذ أمة محمد ﷺ بذنوبهم فى الدنيا ، ولكنه يؤخر ذلك إلى يوم الجزاء . ويقضى سبحانه فى ذلك اليوم بين من اتبعوا الرسول ﷺ ومن عاندوه ، وبطبيعة الحال يكون الحق سبحانه فى جانب من أرسله ، لا من عاند رسوله ﷺ .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ
فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ (٢٥)

والآية كما عرفنا هى الشئ العجيب ، وإما أن تكون آية كونية ، أو آية إعجاز ، أو آية قرآن تشتمل على الأحكام .

ولماذا لم يصدقوا آيات القرآن ، وهى معجزة بالنسبة إليهم ؟

نقول : إن استقبال القرآن قرع تصديق للرسول ﷺ ، وقد حدث اللبس عندهم ؛ لأنهم ظنوا أن الآية هى الآيات المحسنة الكونية المشهودة ، وما علموا أن الآيات التى سبق بها الرسل إنما جاءت لتناسب أزمان

(١) تستعمل (لولا) أداة عرض وتخصيص ، مثل (علا) وتختص بالدخول على المضارع كقوله تعالى : ﴿ لَوْلَا فَتَنَّاكَ اللَّهُ .. ﴾ (٥٥) [النحل] وتدخل على ماضى فى تأويل المضارع كقوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أَهْرَاقِنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ .. ﴾ (١٠) [الأنعام] أى : لولا تؤخرنى ، وتستعمل (لولا) للتوبيخ والنتيم فتختص بالماضى كقوله تعالى : ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ .. ﴾ (٥٥) [النور] ، ولها استعمالات أخرى يرجع إليها فى كتب اللغة [القاموس القويم : ٢ / ٢٠٧ ، ٢٠٨] .

رسالاتهم ؛ ولتناسب مواقعهم من المرسل إليهم .

فقد كان الرسل السابقون لرسول الله ﷺ - وعلى جميع الرسل السلام - قد بُعث كل منهم لأمة محدودة زماناً ومكاناً ؛ ولذلك كانت الآيات التي اصطحبها آيات حسية ، وكل آية كانت من جنس ما نبخ فيه القوم المبعوث إليهم .

أما رسالة محمد عليه الصلاة والسلام فهي لعامة الزمان وعامة المكان ^(١) . فلو جعل الله سبحانه له آية حسية لآمن بها مَنْ شاهدها ، ولضارت خيراً لمن لم يشاهدها .

وتحن على سبيل المثال كمسلمين لم نصدق أن موسى - عليه السلام - قد ضرب البحر فانشق له البحر ؛ إلا لأن القرآن قال ذلك ؛ لأن كل أمر حسى يقع مرة واحدة فمن شاهده آمن به ، ومن لم يره إن حدث به له أن يكذب ، وله أن يصدق ، ولكننا صدقنا ؛ لأن القائل هو الحق سبحانه وقد أبلغنا ذلك في القرآن . وثقتنا فيمن قال هي التي جعلتنا نصدق معجزات الرسل السابقين على رسول الله ﷺ .

وقد يتساءل البعض عن السر في عدم إرسال معجزات حسية مع رسول الله ﷺ ، فنقول : لقد شاء الله سبحانه أن يرسل الرسول ﷺ بمعجزة باقية إلى أن تقوم الساعة وهي معجزة القرآن . وتحدث كتب السيرة أن الماء نبع من بين أصابعه ﷺ ، فمن صدَّق صدَّق ، وإن قرأت ولم تصدِّق ذلك ، فاعلم أنك لست المقصود بها ، فقد كان المقصود بها هم المعاصرون

(١) وهذا مما خص به الله رسوله ﷺ وأمه ، ويدل عليه حديث رسول الله ﷺ : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي : نصرت بالعرب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأما رجل من امتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي المغنم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ويبعث إلى الناس عامة ^(٢) من حديث جابر بن عبد الله . أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) .

لها ، وقد جاءت لتريب الإيمان في القوم المعاصرين ؛ لأنهم كانوا في حاجة إلى شدّ أزرهم الإيمانى ، وحدثنا كتب السيرة أيضاً عن حفنة الطعام التى أكل منها عدد كبير من الرجال ، ومن صدّق الرواية ؛ فليصدقها ، ومن لم يصدقها ، فهذه الآية لم تأت له ، لكنها جاءت للمعاصرين له ﷺ .

وهذا لا يمنع أن يكون للرسول ﷺ معجزات حسية كباقي إخوانه من الرسل علينا أن نؤمن بها بالثقة فيمن أخبر بها .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ وإن دخلت «لولا»^(١) على جملة اسمية ، فالمقصود بها عدم شيء لوجود شيء ، كقول إنسان لآخر: لولا زيد عندك لأتيك ، وبذلك ينعدم ذهابه إلى فلان لوجود زيد عنده . وهكذا تكون «لولا» حرف امتناع لوجود ، وكذلك كلمة «لوما» إن وجدت تدخل على جملة اسمية فاعرف أنها امتناع شيء لوجود شيء وإن دخلت «لولا» على جملة فعلية فاعلم أنها حثٌّ وتخفيض .

وهم هنا قد قالوا: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ وكأنهم لا يعترفون بالقرآن ، وطلبوا آية حسية ؛ لذلك نجد الحق سبحانه يقول في موقع آخر بالقرآن الكريم : ﴿لَوْلَا أَوْتِيَتْ حِثْلٌ مَا أَوْتِيَتْ مُوسَى﴾ (١٥) [انقصر]

وهذا تأكيد أنهم طلبوا الآية الحسية ؛ لأنهم علموا بالآيات الحسية للرسول السابقين على رسول الله ﷺ ، ولكن قولهم هذا كان تشيئاً بالكفر

(١) «لولا» حرف شرط لا يعمل ، ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط وجملة الشرط اسمية (مبتدأ وخبر) ويحذف الخبر وجوباً إذا كان كوناً عاماً وإذا وليها مضمير يكون ضمير رفع منفصلاً مثل : ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ .. (٢٠) [مبا] وجملة الجواب فعلية وتقرن باللام إذا كانت مثبتة في الغالب وتتجرد منها إذا كانت منفية . قال تعالى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ .. (٢١) [النور] وقد يحذف الجواب إذا دل عليه دليل كقوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَعُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٢) [النور] القاموس القويم ج ٢ / ٢٠٧

رغم أنهم شهدوا رسول الله ﷺ في كل أحواله ، وقد حدثت الآيات الحسية ورآها مَنْ آمَنَ به ، وزاد تمسكهم بالإيمان .

والذين طلبوا أن يأتي لهم محمد ﷺ بمعجزة حسية ، كمعجزة موسى عليه السلام ، نسوا أن موسى عليه السلام قد بُعث إلى قوم محدودين هم بنو إسرائيل ،

أما محمد ﷺ فقد بُعث إلى الناس كافة ؛ لذلك كان لا بد أن تكون معجزته متجددة العطاءات ، وتحمل المنهج المناسب لكل زمان ومكان . أما المعجزة الحسية فهي تنقضي بانقضاء زمانها ومكانها .

أو هم طلبوا الآيات التي اقترحوها مثل قولهم : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ^(١) ﴾ (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ^(٢) ﴾ (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا ^(٣) ﴾ (٩٢) أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ^(٤) ﴾ (٩٣) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ ^(٥) ﴾ (٩٤) أَوْ تَرْقَى ^(٦) ﴾ (٩٥) فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ ^(٧) ﴾ (٩٦) ﴿ [الإسراء]

إذن : فهم قد طلبوا آيات اقترحوها بأنفسهم ، والآيات لا تكون باقتراح المرسل إليهم ، بل بتفضل المرسل .

(١) ينبوع : العين الجارية والجدول الكثير الماء ، والجمع يتابع . (اللسان : مادة نبع) .

(٢) كسفاً : جمع كسفة وهي القطعة ، والمراد : المذاب . قال تعالى : ﴿ إِنَّ نُفُثًا تَغْيِبُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ تُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. ﴾ (٩١) ﴿ [سبا] . [اللسان : مادة كسف] .

(٣) القيل : الجماعة من أي شيء .

(٤) زخرف : نقش وزينة وتمويه بالذهب . والزخرف : الذهب في غيره . قال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَهَّتْ وَطُنُوتُهَا أَتَتْهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا نُفُثًا بَلْبًا أَوْ نُفَارًا .. ﴾ (٩٢) ﴿ [يونس] .

[اللسان : مادة زخرف]

(٥) ترقى : تصعد ، والرقى : الصعود . وفي الحديث : « كنت رفقاء على الجبال » أي : صحاباً عليها ، وفعل للمبالغة . قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّوَافِلُ ^(١) وَقِيلَ مِنْ رَأَى ^(٢) ﴾ (٩٧) ﴿ [القيامة] .

ولقائل أن يقول: ولماذا لم يُرسل الحق سبحانه لهم آية حسية معجزة كما قالوا؟

فنقول: إن الحق سبحانه قد قال: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ .. (٥٩)﴾ [الاسراء]

وعلى ذلك يكون قولهم بطلب الآيات مدحوضاً^(١)؛ لأن الحق سبحانه قد أرسل الآيات من قبل وكذب بها الأولون، أو هم طلبوا آيات اقترحوها، ويقول الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ وفي هذا إقرار منهم بأن لمحمد ﷺ رباً، وهو ﷻ يُبلغ عنه، فكيف - إذن - يُنكرون أنه رسول؟!

ونعلم أنهم قالوا من قبل: «إن رب محمد قد قلاه»^(٢) حين فتر^(٣) الوحي عنه ﷻ، ولكن الحق سبحانه رد عليهم:

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٦٠)﴾ [الضحى]

إذن: هم قد ناقضوا أنفسهم، ففى الوصل منعوا وأنكروا أن يكون له رب، وفى الهجر سلّموا بأن له رباً، وهذا تناقض فى الشيء الواحد، وهو لون من التناقض يؤدى إلى اضطراب الحكم، واضطراب الحكم يدل على يقظة الهوى^(٤).

(١) اللحض: الدفع والبطلان، ومنه قوله تعالى: ﴿سَجَّتهم دَاحِضَةً .. (٦٠)﴾ [الشورى] أى: باطللة.
(٢) قلاه: أخضه وتركه وتخلّى عنه، عن جندب الجبلى قال: أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون: قد ودّع محمد. فنزل الله عز وجل: ﴿وَالضُّحَى (٦٠) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٦١) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٦٢)﴾ [الضحى] أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٩٧) والترمذى فى سننه (٣٣٤٥) وقال: حديث حسن صحيح. وقد أورد ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٥٢٢) من الطريق الذى أخرجه مسلم والترمذى إلى جندب بلفظ: «فقال المشركون: ودع محمداً ربّه».

(٣) فتر الوحي: انقطع.

(٤) أى: أنه يُحكّم هواه فى كل نصراته ومنازع تفكيره، أى: يتخذ هواه إلهاً له، يأتمر بأمره، ويستوى بنهيه، لهذا يحدث التناقض. ويقول سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهاً هَواًهٗ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَحْتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَفَهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٥)﴾ [الجنابية].

ثم يقول الحق سبحانه رداً على طلبهم للآية الحسية : ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ وهكذا يُعلم الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ جواباً احتياطياً ، فمن الممكن أن يُنزل الحق سبحانه الآية الحسية ، ومن الممكن ألا ينزلها ، فرسول الله ﷺ لا يحكم على ربه ؛ لأن الغيب أمر يخصه سبحانه ، إن شاء جعل ما في الغيب مشهداً ، وإن شاء جعل الغيب غيباً مطلقاً ، وليس عليكم إلا الانتظار ، ويعلمن رسول الله ﷺ أنه معهم من المنتظرين ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (٢٠) [يونس]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرُفٍ ءَايَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَشْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ (٢١)

والرسول ﷺ حين ضاق ذرعاً بالكافرين من صناديد قريش دعا عليهم أن يهديهم الحق بسنين الجذب كالسنين التي أصابت مصر واستطاع سيدنا يوسف عليه السلام أن يدبر أمرها ، فسلط الحق سبحانه على قريش الجذب والقحط^(١) ، ثم جاء لهم بالرحمة من بعد ذلك . وكان من المقروض أن يرجعوا إلى الله ، وأن يؤمنوا برسالة رسوله ﷺ ، بعد أن علموا أن ما

(١) المقصود بالرسول هنا : الحفظة من الملائكة . قال تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالْبَیِّنِ﴾ (٢) وإن عليكم لعاقبين (٣) كَرَامًا كَاتِبِينَ (٤) يَعْلَمُونَ مَا تَقُولُونَ (٥) ﴿[الأنفال] .

(٢) الجذب : مفيض الذهب ، أي : الخفاف وانقطاع المطر . وفي حديث الاستسقاء : «هلكت المواشي وأجدبت البلاد» ، أي : قحطت وغلّت الأسعار . [اللسان : مادة (جذب)] .

القحط : احتباس المطر ، والقحط : الجذب ؛ لأنه من أثره . وفي حديث الاستسقاء : «قحط المطر واحمر الشجر» هو من ذلك . وقد يشتق القحط لكل ما قلّ غيرهِ ، والأصل للمطر . والقحط في كل شيء قلة خيرهِ . [اللسان : مادة (قحط)] .

مَسَّهُمْ مِنَ الْقَحْطِ وَمَنِ الْجَدْبِ كَانَ بِسَبَبِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ : «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ مَنِينٌ كَسَنِي يَوْسُفَ» ^(١) .

وانتهت السنوات السبع وجاءت لهم الرحمة ممثلة في المطر ، ولم يلتفتوا إلى ضرورة شكر الله والإيمان برسوله ﷺ ، ولكنهم ظلوا يحشرون عن أسباب المطر ، فمَنَعَهُمْ مَنْ قَالَ : لَقَدْ جَاءَ مَطَرُنَا نَتِيجَةً لِنُؤْمٍ ^(٢) كَذَا ، وَلَآنَ الرِّيحُ هَبَّتْ عَلَى مَنَاطِقِ كَذَا ، وَفَعَلُوا ذَلِكَ دُونَ التَّفَاتِ لِانْتِهَاءِ دَعْوَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، مِثْلُهُمْ مِثْلُ مَنْ جَلَسَ يَبْحَثُ فِي أَسْبَابِ النُّصْرَةِ فِي الْحَرْبِ ، وَجَعَلُوا أَسْبَابَهَا مَادِيَةً فِي الْعُدَّةِ وَالْعِتَادِ ^(٣) . وَلَا أَحَدٌ يَنْكُرُ أَمِّيةَ الاسْتِعْدَادِ لِلْمَقَاتِلِ وَجَدْوَاهُ ، وَلَكِنْ يَبْقَى تَوْفِيقُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَوْقَ كُلِّ اعْتِبَارٍ ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ الَّذِينَ اسْتَعَدُّوا لِلْمَقَاتِلِ وَدَخَلُوا الْمَعَارِكَ وَجَدُوا الْمَعْجَزَاتِ تَجَلَّى بِنُصْرِ اللَّهِ ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ يَنْصُرُ مَنْ يَنْصُرُهُ .

أما الذين يحصرون أسباب النصر في الاستعداد القتالي فقط ، فالمقاتلون الذين خاضوا الحرب بعد التدريب الجاد ، يعلمون أن التدريب وحده لا يصنع روح المقاتل ، بل تصقل ^(٤) روحه ورغبته في القتال وتبيل الشهادة ودخول الجنة .

(١) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول : «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مَغْرِبِ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا مَنِينٌ كَسَنِي يَوْسُفَ» . الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (١٠٠٦) وأحمد في مسنده (١٧٠/٢ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) .

(٢) ناء يثاء نوا من باب قال يقول أي : نهض . ومنه النوء للمطر وجمعه أنواء . المصباح (١٥١/٢) .
(٣) العتاد : العُدَّة ، والجمع : أعتدة وعتد . قال اللبث : العتاد : الشيء الذي تعدّه لأمر ما رتبته له . وفي حديث صفته ﷺ : «الكل حال عنده عتادة أي : ما يصلح لكل ما يقع من الأمور . والمراد هنا بالعتاد : الأسلحة وآلات الحرب . قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَابًا وَأَغْلَالًا وَسَجِيرًا ﴾ [الإنسان] . [اللسان : مادة (عتد)] .

(٤) الصقل : الجلاء والشحذ ، والمراد : الحمية الدينية والتعبئة النفسية والمعنوية للمقاتلين . [اللسان : مادة (صقل)] - بتصرف .

إذن : فلمدد السماء مدخل ، ومن رأى من المقاتلين آية مخالفة لنواميس الكون ، فليعلم علم اليقين أن يد الله كانت فوق أيدي المؤمنين المقاتلين . ومن يدعى أن أي نصر هو نتيجة للحضارة ، يجد الرد عليه من المقاتلين أنفسهم بأن الحضارة بلا إيمان هي مجرد تقدم مادة هشة^(١) لا يصنع نصراً^(٢) ، والنصر لا يكون بالمادة وحدها ، وقد أمرنا الله بحسن الاستعداد المادي ، ولكن النصر يكون بالإيمان فوق المادة .

ولذلك نجد من خاضوا حربنا المنتصرة في العاشر من رمضان ١٣٩٣ هـ يعلمون أن مدد الله كان معهم بعد أن أحسنوا الاستعداد ، ولا أحد من المقاتلين يصدق أن الاستعداد المادي وحده يمكن أن يكفي للنصر ، إنه ضرورة ، ولكن بالإيمان وحسن استخدام السلاح يكون النصر ؛ ولذلك لا يصدق المقاتلون من ينسب النصر للمادة وحدها ، وينسحب عدم التصديق على كل ما يقوله من ينكر دور الإيمان في الانتصار .

وهكذا نجد أن من مجرد النصر من قيمة الإيمان إنما يخدم الإيمان ؛ لأن إنكار الإيمان يقلل من قيمة الرأي المادي . وهكذا ينصر الله دينه حتى يشبه في قلوب جنده ، ويقلل من قيمة ومكانة من ينكرون قيمة الإيمان .

ومثال هذا في تاريخ الإسلام أن اليهود الذين كانوا يستفتحون على أهل المدينة من الأوس والخزرج بأن رسولا سوف يظهر ، وأنهم - أي : اليهود - سيتبعونه^(٣) ، وسوف يقتلون العرب من الأوس والخزرج قتل عاد وادم .

(١) الهش والهبش من كل شيء : ما فيه رخاوة ولين ، والمراد الضعف .

(٢) يقول تعالى : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْغَزِيرِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران] .

(٣) وقد حكى الله سبحانه هذا لنا في قرآنه ، فقال عن اليهود : ﴿ وَلَمَّا حَادَّثْتُمْ كِتَابَ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا نَعْتُمُ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة] وعن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً فمهرأ في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن تبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه نزل عاد وادم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفرنا به . ذكره ابن كثير في تفسيره (١/١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق .

ولما جاء وقت ظهور محمد بن عبد الله ﷺ بمكة ، أسرعت الأوس والخزرج إلى الإيمان به ، وقالوا : إنه النبي الذي تهددنا به يهود ، فأنسبوا إليه حتى لا يسيقونا .

هكذا كانت كلمة اليهود هي دافع الأوس والخزرج إلى الإيمان .

إذن : فالله ينصر دينه بالفاجر ^(١) ، رغم ظن الفاجر أنه يكيد للدين .

وكذلك حين جاءت لهم الرحمة بعد الفحط أرجفوا ^(٢) وظلوا يحللون سبب سقوط المطر بأسباب علمية محدودة بالمادة ، لا بالإيمان الذي فوق المادة .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خوطبنا عنها :

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ ^(٣) فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس]

(١) وقد ورد بهذا حديث رسول الله ﷺ ، فمن أبي هريرة قال : شهدنا مع رسول الله ﷺ حيناً ، فقال لرجل من يَدْعَى بالإسلام «هذا من أهل النار» فلما حضرنا القتال قاتل الرجل قتلاً شديداً فأصابته جراحة . فقيل : يا رسول الله الرجل الذي قلت له أنفاً «إنه من أهل النار» فإنه قاتل اليوم قتلاً شديداً . وقد مات فقال النبي ﷺ : «إلى النار» فكاد بعض المسلمين أن يرتاب . فبينما هم على ذلك إذ قيل : إنه لم يمت ولكن به جراحاً شديداً فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه ، فأخبر النبي ﷺ بذلك فقال : «الله أكبر أشهد أني عبد الله ورسوله» ثم أمر بلالاً فنادى في الناس «إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة» وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر . حديث صحيح ، متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (٣٠٦٢) ومسلم (١١١) .

(٢) أرجفوا : اضطربوا اضطراباً شديداً . (اللسان مادة : رجف) .

(٣) المكر : احتيال في خفية . قال تعالى : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النمل] . قال أهل العلم بالتأويل : المكر من الله تعالى جزاء سُمِّيَ باسم مكر المجازي كما قال تعالى : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا .. ﴿٥٥﴾﴾ [الشورى] فالثانية ليست بسنة في الحقيقة ، ولكنها سميت سنة لازدواج الكلام ، وكذلك قوله تعالى : ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ .. ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة] فالأول ظلم والثاني ليس بظلم ، ولكنه سُمِّيَ باسم الذنب ليعلم أنه عقاب عليه وجزاء به . قال ابن الأثير : مكر الله إيقاع بلائه بأعدائهم دون أوليائه . (اللسان : مادة (مكر)) .

والمكر: هو الكلام الملتوى الذى لا يريد أن يعترف برحمة الله ، والادعاء بأن نوء كذا هو السبب فى سقوط المطر ، وبرج كذا هو السبب فى سقوط المطر .

وقوله الحق: ﴿مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ والمكر هو الكيد الخفى ، والمقصود به هنا محاولة الالتفاف ؛ لتجريد العجائب من صنع الله لها ، وحتى العلم وقوانينه فهو هبة من الله ، والحق هو القادر على أن يوقف الأسباب وأن يفعل ما يريد وأن يخرق القوانين ، فهو سبحانه رب القوانين ، فلا تنسبوا أى خبر إلا له سبحانه ؛ حتى لا نضل ضلال الفلاسفة الذين قالوا بأن الله موجود ، وهو الذى خلق الكون وخلق النواميس ؛ لتحكم الكون بقوانين .

ونقول: لو خلق الحق سبحانه القوانين والناواميس وتركها تتحكم لما شذَّ شىء عن تلك القوانين ، فالمعجزات مع الرسل - على سبيل المثال - كانت خروجاً عن القوانين . وأبقى الله فى يده التحكم فى القوانين ، صحيح أنه سبحانه قد أطلقها ، ولكنه ظل قيُوماً عليها، فيعطل القانون متى شاء ويبرزه متى شاء ويؤجّه كيفما شاء .

والمكر كما نعلم مأخوذ من التفاف أغصان الشجرة كالضفيرة ، فلا تتعرف على منبت ورقة الشجر ومن أى غصن خرجت ، فقد اختلطت منابت الأوراق ؛ حتى صارت خفية عليك ، وأخذ من ذلك الكيد الخفى ، وأنت قد تكيد لمساويك ، لكنك لن تقدر على أن تكيد لمن هو أعلى منك ، فإن كنتم تمكرون فإن الله أسرع مكرأ ، والحق سبحانه يقول: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ ، وهذه اسمها «مشاكلة التعبير»^(١) .

(١) المشاكلة: مصطلح بلاغى جاء فى القرآن كثيراً ، وهو يعنى: ذكر الشىء بلفظ غيره ، لوقوعه فى صحبته تحفيها أو تقديراً . وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُوا اللَّهَ...﴾ [آل عمران] فإن إطلاق المكر فى جانب البارى تعالى إنما هو لمشاكلة ما معه . (الإتقان فى علوم القرآن: ٣ / ٢٨١) .

أى : عليك أن تأخذ ذلك فى مقابله فى ذات انفاعل والفعل ، ولكن لا تأخذ من هذا القول اسماً لله ، فإياك أن تقول : إن الله - سبحانه وتعالى - مكر ؛ لأن المكر كيد خفىٌ تفعله أنت مع مساويك ، ولكنك لن تستطيع ذلك مع من هو مُطَّلِع على كيدك ، ولا تطلع أنت على ما يشاء لك .

وانظر إلى أى جماعة تكيد لأى أمر ، ومستجد من بينهم من يبلغ عنهم السلطات ، وأجهزة الأمن ، فإذا كان كيد البشر للبشر مفضوحاً بمن يشئ منهم بالآخرين ، بل هناك من البشر غير الكائدين من يستطيع بنظرته أن يستنبط ويستكشف من يكيدون له .

وهناك من الأجهزة المعاصرة ما تستطيع تسجيل مكالمات الناس والتتصُّت^(١) عليهم ؛ وكل ذلك مكر من البشر للبشر ، فما بالنا إن كاد الله لأحد ، وليس هناك أحد مع الله - سبحانه وتعالى - ليبلغنا بكيده ، ولا أحد يستطيع أن يتجسس عليه ؟

مكر الله سبحانه - إذن - أقوى من أى مكر بشرى ؛ لأن مكر البشر قد يهدم من بعض الماكرين أو من التجسس عليهم ، لكن إذا كاد الله لهم ، أيعلمون من كيده شيئاً ؟ طبعاً لا يعلمون .

وكلمة ﴿أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ تلفتت إلى أن هناك اثنين يتنافسان فى سياق ، وحين تقول : فلان أسرع من فلان ، فمعنى ذلك : أن كلاهما يحاول الوصول إلى نفس الغاية ، لكن هناك واحداً أسرع من الآخر فى الوصول إلى الغاية .

ومكرهم البشرى هو أمر حادث ، لكن الله - سبحانه - أزلى الوجود ،

(١) التتصُّت : المراقبة : التجسس . وأنصت الرجل إنصاً : استمع باهتمام . قال تعالى : ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤] ، [اللسان : مادة (نصت) - بصرفه] .

يعلم كل شيء قبل أن يقع ، ويرتب كل أمر قبل أن يحدث ؛ لذلك فهو الأسرع في الرد على مكركم ، إن مكرتم .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضِرَاءٍ مَّسْتَهْمٍ إِذَا^(١١) لَهُمْ مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ و«إذا» الأولى ظرف ، أما إذا الثانية فهي «إذا الفجائية» مثلما تقول : خرجت فإذا الأسد بالباب .

وهم حين أنزل الحق لهم الأمطار رحمة منه ، فهم لا يهدأون ويستمتعون ويزوقون رحمة الله تعالى بهم من الماء الذي جاءهم من بعد الجذب ، بل دبروا المكر فجأة ، فيأتي قول الحق سبحانه : ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ .

وهكذا ترى أن ما يبطل كيد الماكرين من البشر ، يكون بإحدى تلك الوسائل : إما أن يكون بوشاية من أحد الماكرين ، وإما أن يكون بقوة التخابير من الغير ، وإما أن يكون من رسل العلى القدير وهم الملائكة الذين يكتبون كل ما يفعله البشر ، فسبحانه القائل : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ^(١٢) كَرَامًا كَاتِبِينَ^(١٣) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ^(١٤)﴾ . [الانظار]

واقرا أيضاً قول الحق سبحانه : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا^(١٥)﴾ . [الإبراء]

(١) «إذا» تأتي لمعين : شرطية ، وفجائية . وإذا الشرطية : اسم شرط للزمن المستقبل فتختص بالدخول على الجملة الفعلية ، ومعرب ، وتدخل أحياناً على الأسماء المرفوعة ، فيكون ما بعدها فاعلاً لفعل محذوف بفسره الفعل الذي بعده مثل قوله تعالى : ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ^(١٢)﴾ [التكوير] ، وقد تكون «إذا» للمفاجأة وتختص بالجملة الاسمية كقوله تعالى : ﴿فَالْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حِجَابٌ مُّسْتَوٍ^(١٣)﴾ [طه] ، وقد اجتمعت الشرطية والفجائية في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ^(١٤)﴾ [الروم] . وكما في الآية : ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضِرَاءٍ مَّسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا...^(١٥)﴾ [يونس] .

وجاء الحق سبحانه بكل ما سبق ؛ لأنه سبحانه قد شاء أن يعطى لقريش فرصة التراجع في عنادها للرسول ﷺ ، هذا العناد الذي قالوا فيه : إنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ، وهذا قول مغلوط ؛ لأن الآباء في الأصل كانوا مؤمنين ، ولكن جاءهم الضلال كأمر طارئ ، والأصنام التي عبدوها طارئة عليهم من الروم ، جاء بها إنسان ممن ساحوا في بلاد الروم هو «عمرو بن لحي»^(١) ، فإن رجعتهم إلى الإيمان بعد عنادكم ؛ فهذا هو الطريق المستقيم الذي كان عليه آباؤكم بالفطرة والميثاق الأول .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ
وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ
وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُم أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا
اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ
الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

وهذه الآية الكريمة جاءت مرحلة من مراحل إخبار الله سبحانه وتعالى عن المعاندين لدعوة الإسلام ، التي بدأها الحق سبحانه بأنه قد رحمهم فأجل لهم استجابة دعائهم على أنفسهم بالشر ، ولو أنه أجابهم إلى ما دعوا به على أنفسهم من الشر في قولهم : ﴿إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۖ﴾ (٢٢) [الأنفال]

(١) ذكر ابن هشام في السيرة النبوية (١ / ٧٧) أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء ، وبها يرمث العماليق ، وأهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها ، فنستعطرها فتعطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطونني منها صنماً ، فأسير به إلى أرض العرب ، فيعبدوه ؟ فأعطوه صنماً يقال له هكل ، فقدم به مكة ، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

لقضى أمرهم . فمن رحمة الله تعالى أنه لم يُجِبهُم إلى دعائهم .

وإذا كان الله سبحانه قد أجل استجابة دعائهم على أنفسهم بالشر رحمة بهم ، فيجب أن يعرفوا أن تأجيل استجابتهم بدعاء الخير رحمة بهم أيضاً ؛ لأنهم قد يدعون بالشر وهم يظنون أنهم يدعون بالخير ، وبعد ذلك دُلَّ على كذبهم في دعائهم على أنفسهم بالشر بأنهم إذا مسَّهم ضرٌّ دعوا الله تعالى مُضْطَهِجِينَ^(١) وقاعدين وقائمين .

فلو كانوا يحبون الشر لأنفسهم ؛ لظلوا على ما هم فيه من البلاء إلى أن يقضى الله تعالى فيهم أمراً .

ثم عرض سبحانه قضية أخرى ، وهي أنه سبحانه إذا مسَّهم بضر ؛ ليعتبروا ، جاء الله سبحانه برحمته ؛ لينقذهم من هذا الضر . فباليتمهم شكروا نعمة الله تعالى في الرحمة من بعد الضر ، ولكنهم مرُّوا كأن لم يدعوا الله سبحانه إلى ضرِّهم .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، يصور لنا الحق سبحانه وضعاً آخر ، هو وضع السير في البر والبحر ، فيقول : ﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ..﴾ (٢٢) .

وكلمة ﴿يُسِيرُكُمْ﴾ تدل على أن الذي يسير هو الله ، ولكن في القرآن آيات تثبت أن السير يُنسب إلى البشر حين يقول : ﴿قُلْ مَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ..﴾ (٦٩) .

(١) الاضطجاع : الاستلقاء ووضع الجنب إلى الأرض . قال ابن المظفر : كانت هذه الطاء تاء في الأصل ، ولكنه فتح مندهم أن يقولوا (اضجع) فأبدلوا التاء طاءً . قال تعالى : ﴿تَجَالَى جُنُودُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ..﴾ (٦٩) [السجدة] . [اللسان : مادة (ضجع)] .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ مَوْسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ.. (٢٩) ﴾ . [القصر]

وهو سبحانه يقول : ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِينَ.. (١٨) ﴾ . [سبا]

فكان هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنها عنها قد نسبت التسيير إلى الله سبحانه ، وبعض الآيات الأخرى نسبت التسيير إلى النفس الإنسانية ، ونقول لمن توهموا أن في ذلك تعارضاً :

لو أنكم فطتم إلى تعريف الفاعل عند النحاة^(١) وكيف يرفعونه ؛ لعرفتم أن تحقق أى فعل إنما يعود إلى مشيئة الله سبحانه ، فحين نقول : «نجح فلان» فهل هو الذى نجح ، أم أن الذى سمح له بالنجاح غيره ؟ إن الممتحن والمصحح هما من سمحا له بالنجاح ؛ تقديرًا لإجاباته التى تدل على بذل المجهود فى الاستذكار .

وكذلك نقول : «مات فلان» ، فهل فلان فعل الموت بنفسه ؟ خصوصاً ونحن نعرب «مات» كفعل ماضٍ ، ونعرب كلمة (فلان) «فاعل» أو نقول : إن الموت قد وقع عليه و اتَّصفَ به ؛ لأن تعريف الفاعل : هو الذى يفعل الفعل ، أو يتَّصف به .

وإذا أردنا أن ننسب الأشياء إلى مباشرتها السببية ؛ قلنا : «سار الإنسان» .

وإذا أردنا أن نؤرِّخ لسير الإنسان بالأسباب ، وترحَّلنا به إلى الماضى ؛ لوجدنا أن الذى سيَّره هو الله تعالى .

وكل أسباب الوجود إن نظرت إليها مباشرة ؛ وجدتها منسوبة إلى من هو فاعل لها ؛ لكنك إذا تتبعتها أسباباً ؛ وجدتها تنسب إلى الله سبحانه .

(١) لأن تعريف الفاعل عند النحاة هو : كل اسم مرفوع سبقه فعل متعمد أو لازم ، وهذا الاسم هو الذى فعل الفعل أو قام به أو اتَّصف به ، مثل : قرأ محمد الكتاب ، ونجح محمد ، وأثمرت الشجرة .

فمثلاً : إذا سُئِلت : مَنْ صَنَعَ الْكُرْسَى ؟ تجيب : النجار . وإن سَأَلت النجار : مَنْ أَيْنَ أَتَيْتَ بِالْخَشَبِ ؟ سيجيبك : مِنَ التَّاجِرِ . وسيقول لك التاجر أنه استورده من بلاد القبايات ، وهكذا .

إذن : إذا أردت أن تسلسل كل حركة في الوجود ؛ لا بد أن تنتهي إلى الله تعالى^(١) .

وحين قال الحق سبحانه : ﴿ قَلَمًا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ^(٢) وَسَارَ بِأَهْلِهِ .. ﴾ (٢٩) ﴿ [الفصل]

فهم من ذلك أن موسى - عليه السلام - قد سَيرَ بأهله ؛ لأن التسيير في كل مقوماته من الله تعالى .

والمثال الآخر : نحن نقرأ في القرآن قوله الحق : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ (٤٢) ﴿ [النجم]

فهو سبحانه الذي خلق الضحك ، وخلق البكاء .

فنجد من يقول : كيف يقول الله سبحانه إنه خلق الضحك والبكاء وهو الذي يقول في القرآن : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا .. ﴾ (٨٦) ﴿ [التوبة]

ونقول : أنت إن نظرت إلى القائم بالضحك ، فهو الإنسان الذي ضحك ، وإن نظرت إلى من خلق غريزة الضحك في الإنسان ؛ تجده الله سبحانه .

(١) يقول عز وجل : ﴿ يَخْبَرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَكُمْ بَهَاءَ وَتَكْمُلُ تَوْفِيقًا .. ﴾ (٦) ﴿ [الرعد] ويقول سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ .. ﴾ (١٠٢) ﴿ [هود] .

(٢) وذلك أن شعيباً قال لموسى : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَ إِخْنًا ابْنَتِي هَانِئِينَ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي لِمَا بِي حَاجِجٌ فَإِنْ

أَقْبَلْتُ فَشَرًّا لِّعَيْنِ عَدُوٍّ .. ﴾ (٢٧) ﴿ [القصص] . فقال له موسى : ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيُّهَا الْأَجْلَيْنِ

فَضَلْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا ظَنَنْتُ وَكَمَلْ ﴾ (٢٨) ﴿ [القصص] ، وقد ثبت في الحديث أن موسى عليه

السلام قضى الأجل الأم والأكمل وهو عشر سنين (ابن كثير : ٢/ ٢٨٤ - ٢٨٧) .

وغريزة الضحك موجودة باتفاق شامل لكل أجناس الوجود ، وكذلك البكاء فلا يوجد ضحك عربى ، وضحك انجليزى ، ولا يوجد بكاء فرنسى ، أو بكاء روسى .

إذن : فالله سبحانه وتعالى هو الذى خلق الضحك والبكاء .

وقد صدق قوله الحق : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ (١٧) [النجم]

لكن الضاحك والباكى يقوم به الوصف . وكذلك قوله الحق : ﴿وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ..﴾ (١٧) [الأهلال]

فقد شاء الحق سبحانه أن يمكن رسوله ﷺ بالبشرية أن يرمى الحصى ، ولكن إيصال الحصى لكل فرد فى الجيش المقابل له ، فتلك إرادة الله (١) .

إذن : فقول الحق سبحانه : ﴿هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ . لا يتعارض مع أنهم هم الذين يسيرون ، وأنت إذا علّلت السير فى الأرض أو فى البحر ؟ مستجد أن السير هو انتقال السائر من مكان إلى مكان ، وهو يحدد غاية السير بعقله ، والأرض أو البحر الذى يسير فى أى منهما بأقدامه أو بالسيارة أو بالمركب ، هذا العقل خلقه الله تعالى ، والأرض كذلك ، والبحر أيضاً ، كلها مخلوقات خلقها الله سبحانه وتعالى . وأنت حين تحرك ساقيك ، لتسير ، لا تعرف كيف بدأت السير ولا كم عضلة تحركت فى جسدك ، فالذى أخضع كل طاقات جسمك لمراد عقلك هو الله تعالى .

إذن : فكل أمر مرجعه إلى الله سبحانه .

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما : رفع رسول الله ﷺ يديه معنى يوم بدر فقال : يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً ، فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم فما من مشركين أحد إلا أصاب عينيه ومتخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين . أخرجه أبو نعيم (ص ٤٠٤) والبيهقى (٣/ ٧٩) كلاهما فى دلائل النبوة ، وذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٩٤) .

وهنا ملحظ في السير في البر والبحر ، فكلاهما مختلف ، فالإنسان ساعة يسير في الأرض على اليابسة ، قد تنقطع به السبل ، ويمكنه أن يستصرخ ^(١) أحداً من المارة ، أو ينتظر إلى أن يمر عليه بعض المارة ؛ ليعاونه . أما المرور في البحر ؛ فلا توجد به سابلة أو سالكة ^(٢) كثيرة ؛ حتى يمكن للإنسان أن يستصرخهم .

إذن : فالمرور في البحر أدق من المرور في البر ؛ ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية التي نحن بصدد خواتمها عنها يقول عن السير في البحر : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُ مِنْ هَٰذَا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٢٢) [يونس]

وهكذا لا نجد أن في الآية نفسها حديثاً عن السير في البر ؛ لأن الحق سبحانه ما دام قد تكلم عن إزالة الخطر للمضطر في البحر ، فهذا يتضمن إزالته عمن يسير في البر من باب أولى . وإذا ما جاء الدليل الأقوى ، فهو لا بد أن ينضوي ^(٣) فيه الدليل الأقل .

ومثال هذا قول الحق سبحانه :

﴿وَوَعَّيْنَا لِلْإِنْسَانِ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا .. ﴾ (٦٥) . [الاحقاف]

وجاءت كل الحثثيات بعد ذلك للآم ، ولم يأت بأي حيثية للآب ،

(١) يستصرخ : يصرخ طالباً النجدة . والصرخة : الصيحة الشديدة عند الفزع أو المصيبة . قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ .. ﴾ (٢٨) [القصص] . وقال : ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُفْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴾ (٢٢) [يونس] . والصرير : المغيث . [اللسان : مادة (صرخ) ، بتصرف] .

(٢) سبل سابلة : طريق مسلوكة . والسابلة : أبناء السبيل المختلفون على الطرقات في حوائجهم ، والجمع : السوايل . والسلوك : مصدر سلك طريقاً ومن يسلكون طريقاً فهم سالكة . قال تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَرَجَعَكُمْ فِيهَا سَبِيلًا .. ﴾ (٢٢) [طه] . [اللسان : مادة (سبل) ، (سلك)] .

(٣) ضوى إليه : انضم ولجا . وينضوي في الشيء : يدخل فيه ويندرج تحته . [اللسان : مادة (ضوا) ، بتصرف] .

فيقول : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ^(١) ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۝١٥ ﴾ [الأحقاف]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأن حيشة الأم مبنية على الضعف ، فيريد أن يرقق قلب ابنها عليها ، فالأب رجل ، قد يقدر على الكدح في الدنيا ، كما أن فضل الأب على الولد يدركه الولد ، لكن فضل أمه عليه وهو في بطنها ؛ لا يعيه ، وفي طفولته الأولى لا يعي أيضاً هذا الفضل . ولكنه يعي من بعد ذلك أن والده يحضر له كل مستلزمات حياته ، من مأكّل وملبس ، ويبقى دور الأم في نظر الطفل ماضياً خافئاً .

إذن : فحيشة الأم هي المطلوبة ؛ لأن تعبها في الحمل والإرضاع لم يكن مُدركاً من الطفل .

وكذلك هنا في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها ، ترك الحق سبحانه حيشة البر وأبان بالتفصيل حيشة البحر :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ ^(٢) ۝٢٢ ﴾ [يونس]

(١) الفصال : النظام . والمعنى : أن مدى حمل المرأة إلى منتهى الوقت الذي يفصل فيه الولد عن رضاعها ثلاثون شهراً ، وفصلت المرأة ولدها أي : قطعت . وقال تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ۝١٦ ﴾ [القمان] . وقال تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرُّضَاعَةَ ۝١٧ ﴾ [البقرة] . [اللسان : مادة (فصل) - بتصرف] . وقد استنبط العلماء من هذا أن أقل مدة للحمل هي ستة أشهر ، وقد حدث أن امرأة رفغ أمرها إلى علي بن أبي طالب وأنها حملت ستة أشهر وانتمها زوجها بانزناً ، وبرأها على استدلالاً بالجمع بين هذه الآيات . وهو مذهب الجمهور [فقه السنة : ٣/٣٦٧] .

(٢) الفلك : السفينة للمذكر والمؤنث والواحد والجمع ، قال تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ۝١٧٩ ﴾ [الشعراء] جعله مفرداً ومذكراً ، أي : المركب ؛ وقال : ﴿ وَتَرَىٰ الْفُلُكَ مَوَاجِرَاجٍ ۝١٨٠ ﴾ [التحل] جعل الفلك جمعاً ووصفه بقوله : (مواجر) أي : السفن . الفاموس القويم (٢/٨٩) .

سُورَةُ يُوسُفَ

﴿٥٨٤٩﴾

وكلمة (الفلك) تأتي مرة مفردة ، وتأتي مرة جمعاً ، والوزن واحد في الحالتين ومثال هذا أنه حين أراد الله سبحانه أن ينجي نوحاً عليه السلام ، وأن يفرق الكافرين به ، قال لسيدنا نوح : ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ..﴾ (٢٧) . [هود]

إذن : هي تطلق على المفرد ، وعلى الجمع ، ولها نظائر في اللغة في كلتا الحالتين ، فهي في الأفراد تكون مثل : قُفْل ، وقُرْط . وعند الجمع تكون مثل : أسد .

والحق سبحانه وتعالى يصف الريح هنا بأنها طيبة ، والقرآن الكريم من طبيعة أسلوبه حين يتكلم عن الريح بلفظ الأفراد يكون المقصود بها هو العذاب ، مثل قوله الحق : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٤) تَذَمَّرُ كُلُّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ..﴾ (٢٥) . [الأحقاف]

وإن تكلم عنها بلفظ الجمع فهي للرحمة ، وسبحانه القائل :

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ﴾^(١) ..﴾ (٢٦) . [الحجر]

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ مَنَاجِبُهَا ثِقَالًا سَقَنَاهُ لِيَلِدَ مِيتَ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ..﴾ (٥٧) . [الأعراف]

(١) لواقح : حوامل ؛ لأنها تحمل الماء والسحاب وتقلبه وتصرفه ، ثم تستدره ، فهي تفتح السحاب بالماء فيدر ماء وينزل المطر وتفتح الشجر فتعطى نتاجها . [لسان العرب . مادة : (نفع)] وابن كثير (٥٨٤٩/٢) .

والرياح هنا جاءت في صيغة الجمع ، وعلة وجود ربح للشر " ، ورياح للخير ، يمكنك أن تستشفها من النظر إلى الوجود كله ؛ هذا النظر يوضح لك أن الهواء له مراحل ، فهواء الرثاء هو الذي يمر خفيفاً ، مثل النسيم العليل ، وأحياناً يتوقف الهواء فلا تمر نسمة واحدة ، ولكننا نتفس الهواء الساكن الساخن أثناء حرارة الجو ، ثم يشتد الهواء أحياناً ؛ فيصير رياحاً قوية بعض الشيء ، ثم يتحول إلى أعاصير .

والهواء - كما نعلم - هو المقوم الأساسى لكل كائن حى ، ولكل كائن ثابت غير حى ، فإذا كان الهواء هو المقوم الأساسى للنفس الإنسانية ، فالعمارات الضخمة - مثل ناطحات السحاب - لا تثبت بمكانها إلا نتيجة توازن تيارات الهواء حولها ، وإن حدث تفريغ للهواء تجاه جانب من جوانبها ؛ فالعمارة تنهار .

إذن: فالذى يحقق التوازن فى الكون كله هو الهواء .

ولذلك نجد القرآن الكريم قد فصل أمر الرياح وأوضح مهمتها ، وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجُودٌ بِهُمْ بِرِيحٍ طَبَئًا ﴾ وكأنه سبحانه يتكلم هنا عن السفن الشراعية التى تسير بالهواء المنجم فى أشرعتها . وإذا كان التقدم فى صناعة السفن قد تعدى الشراع ، وانتقل إلى البخار ، ثم الكهرباء ، فإن كلمة الحق سبحانه : ﴿ رِيحٌ طَبَئًا ﴾ تستوعب كل مراحل الارتقاء ، خصوصاً وأن كلمة «الريح» قد وردت فى القرآن الكريم بمعنى القوة أيا كانت : من هواء ، أو محرك يسير بأية طاقة . وسبحانه

(١) ومن الريح ما يسخره الله ويحكمه ربيع خير ، مثل قوله تعالى عن سليمان عليه السلام : ﴿ فَسَعَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ فَجَرى بِأَمْرِهٖ وَخَاءَ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص] والريح الرخاء هى : الريح اللينة السريعة التى لا ترعزع شيئاً من مكانه . انظر [اللسان مادة (رعو)] .

القاتل: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (٤٦) . [الأنفال]

وهكذا نفهم أن معنى الريح ينصرف إلى القوة . وأيضاً كلمة «الريح» تنسجم مع كل تيسيرات البحر .

وقوله الحق: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ هذا القول الكريم يضم ثلاثة وقائع: الوجود في الفلّك ، وجرى الفلّك بريح طيبة ، ثم فرحهم بذلك ؛ هذه ثلاثة أشياء جاءت في فعل الشرط ، ثم يأتي جواب الشرط وفيه ثلاثة أشياء أيضاً:

أولها: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ وثانيها: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ وثالثها: ﴿وَوُظِّنُوا أَنَّهُمْ أَحْبَطَ بِهَمٍّ﴾ .

أما الريح العاصف: فهي المدمرة ، ويقال: فلان يعصف بكذا ، وفي القرآن: ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (٥) . [الفيل]

إذن: «ريح عاصف» هي الريح المدمرة المفارقة . وقوله الحق: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ .

فالموج يأتي من أسفل ، والريح تأتي من أعلى ، وترفع الريح الموج فيدخل الموج إلى المركب ، ونعلم أنهم يقيسون ارتفاع الموج كل يوم حسب

(١) أي: قوتكم ، فالريح هنا معناها القوة وذهب الريح أي: ذهب القوة والهيبة ، فالقوة هي التوازن في الحياة ، إن استعملت بأخلاق عادت على الإنسانية بالخير والسلام ، أما إذا تجردت من الأخلاق أصبحت طغياناً وقسداً في الأرض وفيما حكاية التاريخ ونشأته في دنيا الواقع لأكبر دليل . وقد تطلق على الراحة ، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْغَمْرُ قَالَ لِبُورِهِمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ...﴾ (١١) [يوسف] ، وهذا يخدم معنى القوة أيضاً ، فإن من ذهب رائحته من الوجود ، فهذا دليل على ذهب قوته .

(٢) العصف المأكول: الثين - والنصف له معنيان: - أنه جعل أصحاب القيل كورق أخذ ما فيه من الحب وبقى هو لا حب فيه . - أو أراد أنه جعلهم كعصف قد أكلته البهائم . [اللسان (مادة: عصف)] .

قوة الريح ، فحين تكون الريح خفيفة ؛ يظهر سطح مياه البحر مجعداً ^(١) ،
وحين تكون الريح ساكنة ؛ فأنت لا تجد صفحة المياه مجعدة ، بل
مبسوطة ، وقد جاءتهم الريح عاصفاً فيزداد عنف الموج ، ويتحقق نتيجة
لذلك الظن بأنهم قد أحيط بهم .

ومعنى الإحاطة هو عدم وجود منفذ للفرار ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه
يتكلم عن الكافرين بقوله : ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۝ (١٩) ﴾ . [البقرة]
أي : ليس هناك منفذ يفلتون منه .

ولحظة ظنهم أنه قد أحيط بهم ؛ لا يسلمون أنفسهم لهذه الحالة ؛
بدعوى الاعتزاز بأنفسهم غريباً ، بل يتجهون إلى الله بالدعاء ، هذا الإله
الذي أنكروه ، لكنهم لحظة الخطر لا يكذب أحد على نفسه أو يخدعها ^(٢) .

ولذلك نجد سيدنا جعفر الصادق يجيب على سائل سأله : أهنأك دليل
على وجود الصانع الأعلى ؟ فيقول سيدنا جعفر : ما عملك ؟ فيجيب
السائل : تاجر أبحر في البحر . فسأله سيدنا جعفر : أو لم يحدث لك فيه
حال ؟ قال الرجل : بل حدث . فسأل سيدنا جعفر : ما هو ؟ قال :
حملت بضائعي في سفينة ، فهبت الريح وعلا الموج وغرقت السفينة
وتعلقت بلوح من الخشب . قال سيدنا جعفر : ألم يخطر على بالك أن تفزع
إلى شيء ؟ قال الرجل : نعم . قال سيدنا جعفر : هذا الصانع الأعلى .

وكذلك لجأ هؤلاء الذين كفروا بالله إلى الله تعالى حين عصفت بهم
الريح ، وعلا عليهم الموج ، وظنوا أنهم قد أحيط بهم ويقول الحق سبحانه

(١) المراد بتجمد سطح الماء : التموجات التي تبدو على سطح المياه إذا هب عليها الهواء .
(٢) لأن فطرة الميثاق الأولى تستجيب للإنسان عند الحاجة وعند إضحاك الحقيقة يقول الحق : ﴿ وَتَمُنُّ بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۝ (٢٠) ﴾ [لقمان] ، فهذا القول نابع من الفطرة التي غابت عنهم في
رحمة العناد ، ويظهر ذلك جلياً عند حدوث الأخطار .

وتعالى عنهم - وهم في مثل هذه الحالة : ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وهذا يعنى أنهم لم يدعوه فقط ، بل دَعَوْهُ بإخلاص وأقروا بوحدايته ، وألا شريك له أبداً ؛ لأنهم يعلمون أن مثل هذا الشريك لن يفعهم أبداً .

ثم يجيء الحق سبحانه بصيغة دعائهم : ﴿لَئِنْ أَجَبْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونُنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فهل وقوا بالعهد؟ لا ؛ لأن الحق سبحانه يقول بعد ذلك :

﴿فَلَمَّا أَجَسُّهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا
النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا
مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٧﴾﴾

وبعد أن أجازهم الحق سبحانه مباشرة تأتي «إذا» الفجائية لتوضح لنا أنهم لم ينتظروا إلى أن يسترخوا أنفاسهم ، أو تمر فترة زمنية بينهم وبين الدعاء ، وتحقق نتيجة الضراعة ، لا ، بل بغوا ^(١) - على الفور - في الأرض ﴿فَلَمَّا أَجَسُّهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ .

والبغي : هو تجاوز الحد في الظلم وهو إفساد ؛ لأن الإنسان إذا ما أخرج أى شيء عن صلاحه ، يقال : «بغى عليه» ، فإن حفرت طريقاً مسمهداً ؛ فهذا إفساد ، وإن ألقى بنفاية ^(٢) في بئر يشرب منه الناس ؛ فهذا إفساد وبغى ، وأى شيء قائم على الصلاح فتخرجه عن مهمته وتطراً عليه بما يفسده ؛ فهذا بغى .

(١) البغى : الظلم والفساد والكبر والاستطالة على الناس والإيذاء والجور وأصل البغى : مجاوزة الحد . قال تعالى : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ .. (٥٧)﴾ [الشورى] . وقال : ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلَا فِي بَيْنِهِمَا﴾ [الحجرات] . [اللسان : مادة (بغى) - بتصرف] .

(٢) نفاية الشيء : بقبه وأردؤه . والنفاية : ما بقيت من الشيء لردائه . والمراد بالنفاية هنا : الفضلات وكل ما من شأنه تلويث الشيء وإفساده . [اللسان : مادة (بغى) - بتصرف] .

والبغى : أعلى مراتب الظلم ؛ لأن الحق سبحانه هو القاتل : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ۖ ﴾ (٧٦) . [القصص]

ويعطينا رسول الله ﷺ صورة البغى المثثلة في الاعتداء بالفساد على الأمر الصالح ، فيقول ﷺ : «أسرع الخير ثواباً : البر وصلة الرحم ، وأسرع الشر عقوبة : البغى وقطيعة الرحم»^(١) .

والحق سبحانه لا يؤخر عقاب البغى وقطيعة الرحم إلى الآخرة ، بل يعاقب عليهما في الدنيا ؛ حتى يتوازن المجتمع ؛ لأنك إن رأيت ظالماً يحيا في رضا ورخاء ثم يموت بخير ، فكل مَنْ يراه ويعلم ظلمه ولم يجد له عقاباً في الدنيا ، سوف يستشري في الظلم .

ولذلك نجد أن عقاب الله تعالى لمثل هذا الظالم في الدنيا وأن يُرى الناس نهايته السيئة ، وحين يرى الناس ذلك يتعظون ؛ فلا يظلمون ، وهذا ما يحقق التوازن في المجتمع .

وإلا فلو ترك الله سبحانه الأمر لجزاء الآخرة ؛ لشقى المجتمع بمن لا يؤمنون بالآخرة ويحترفون البغى ؛ ولذلك يرى الناس عذابهم في الدنيا ، ثم يكون لهم موقعهم من النار في الآخرة . ويقول ﷺ محذراً : «لا تبغ ، ولا تكن باغياً»^(٢) .

فالباغى إنما يصنع خلافاً في توازن المجتمع . والذي يبغى إنما يأخذ حق الغير ، ليستمتع بنتائج من غير كدّه وعمله ، ويتحول إلى إنسان يحترف

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٢١٢) وابن عدى في الكامل (٧٠/١) ط . دار الفكر ، والذهبي في ميزان الاعتدال (ت ٣٨٣١) من حديث عائشة ، كلامها في ترجمة صالح بن موسى الطلحي ، وهو كوفي ضعيف . وقال ابن عدى : لا يعتمد الكذب ، وسيأتي نص الحديث يؤخذه .

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه على الصحيحين (٣٣٨/٢) عن أبي بكر ، وقال : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه . وأقره الذهبي .

فرض الإتاوات^(١) على الناس ، ويكسل عن أى عمل غير ذلك . وأنت ترى ذلك فى أبسط المواقع والأحياء ، حين يحترف بعض ممن يغتربون بقوتهم الجسدية ، وقد تحولوا إلى (فتوات)^(٢) يستأجرهم البعض لإيذاء الآخرين ، والواحد من هؤلاء إنما احترف الأكل من غير بذل جهد فى عمل شريف .

والبغى - إذن - هو عمل مَن يفسد على الناس حركة الحياة ؛ لأن من يقع عليهم ظلم البغى ، إنما يزهدون فى الكدِّ والعمل الشريف الطاهر . وإذا ما زهد الناس فى الكدِّ والعمل الشريف ؛ تعطلت حركة الحياة ، وتعطلت مصالح البشر ، بل إن مصالح الظالم نفسها تتعطل ؛ ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ . (٢٣) . [يونس]

ولقائل أن يسأل : وهل هناك بَغْيٌ بحق ؟

أقول : نعم ؛ لأن البغى اعتداء على الصالح بإفساد . وأنت ساعة ترى إنساناً يفسد الشيء الصالح ، فتسأله : لماذا تفعل ذلك ؛ وقد يجيبك بأن غرضه هو الإصلاح ، ويُعدُّد لك أسباباً لهذا البغى ، فهذا بغى بحق ، أما إن كان بغياً بدون سبب شرعى فهذا هو البغى ، بل قمته .

ومثال البغى بحق ، أقول : ألم يَسْتَوْلِ النِّبِيُّ ﷺ على أرض بني قريظة ، وأحرق زرعهم وقطع الأشجار فى أراضيهم ، وهدم دورهم ؟ أليس فى ذلك إعتداء على الصالح ؟

(١) إتاوات : جمع إتاوة وهى قدر من المال يُدفع غصباً وإجباراً - بدون وجه حق - إلى ذوى السطوة والتسلط . وهى تشبه المكوس .

(٢) هذا لفظ يستعمله الناس لكل إنسان منحرف ليتخذ من قوته تهديداً للأمن والسطوة على ممتلكات الناس وتخويف الناس . وفى لغة العرب : الْبَغْتَى : هو الشاب القوى والفنى : العبد ، وجمعه على القلة نسبة . وفى الكثرة فتیان ، والأمة : فتاة ، وجمعها فتیات . والفتوة عرفت عند العرب بأهل التجدد والعون والاحساب ، ولكن هذه الكلمة أطلقت على كل منحرف ومنحرف الإفساد .

لقد فعل رسول الله ﷺ ذلك ؛ لأنه ردّ على عدوان أقسى من ذلك .

وهكذا نرى أن هناك بغياً بحق ، وبغياً بغير حق . ولذلك يسمي الله جزءا السيئة سيئة مثلها ^(١) ، ويقول سبحانه : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾ (١٩٤) [البقرة]

ويسميه الحق سبحانه «اعتداء» رغم أنه ليس اعتداء ، بل ردّ الاعتداء .

ويطلقها الحق سبحانه وتعالى قضية تظل إلى الأبد بعد ما تقدم ، فيقول : ﴿ يَسْأَلُهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِقِيَكُم عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٢٣) [يونس]

وهو يبين الله سبحانه وتعالى وكأنه يخاطب الباغي : يا مَنْ تريد أن تأخذ حق غيرك ، اعلم أن قصارى ^(٢) ما يعطيك أخذ هذا الحق هو بعض من متاع الدنيا ، لم تجازي من بعد ذلك بنار أبدية ^(٣) .

وأنت إن قارنت زمن المتعة المقتضية الناجمة عن البغي بزمن العقاب عليها ؛ لو وجدت أن المتعة رخيصة هيئة بالنسبة إلى العقاب الذي سوف تناله عليها ولا تأخذ عمرك في الدنيا قياساً على عمر الدنيا نفسها ؛ لأن الحق سبحانه قد يشاء أن يجعل عمر الدنيا عشرين مليوناً من السنوات ، لكن عمرك فيها محدود .

(١) وذلك في نحو قوله تعالى ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ۖ ﴾ (٥) [الشورى] . وهذا من قبيل المشاكلة ، وهو مصطلح بلاغي مؤداه ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته ، فالجزاء هنا حق لا يوصف بأنه سيئة ، ولكنه سمي هكذا لمشاكلته لما معه . انظر (الإتيان في علوم القرآن ٣ / ٢٨١) .

(٢) قصارى الشيء : آخره وغايته وهي من معنى القصر ، أي : الحبس ؛ لأنك إذا بلغت الغاية حَبَسْتَكَ . (اللسان : مادة (قصر) - بتصرف) .

(٣) ومن أدلة المصعب والبيضا بغير الحق ما رواه ابن مسعود قال : قلت يا رسول الله ، أي الظلم أعظم ؟ قال : ذراع من الأرض يتقصها المرء المسلم من حق أخيه ، فليس حصاة من الأرض يأخذها أحد إلا ملوكها يومئذ يأمرونه إلى قعر الأرض ، ولا يعلم قعرها إلا الذي خلقها . أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٦ / ١) والعلواني في معجمه الكبير (١٠ / ٢٦٦) . قال الهيثمي في المجمع (٤ / ١٧٤) : «إسناده أحمد حسن» .

سُورَةُ الْيُونُسَ

٥٨٥٧

فأربأوا^(١) على أنفسكم وافهموا أن متاع الدنيا قليل ، إن كان هذا المتاع نتيجة ظلمكم لأنفسكم ؛ لأن نتيجة هذا الظلم إنما تقع عليكم ؛ لأن مقتضى ما يعطيكم هذا الظلم من المتعة والنعمة هو أمر محدود بحياتكم في الدنيا ، وحياتكم فيها محدودة ، ولا يظن الواحد أن عمره هو عمر البشرية في الدنيا ، ولكن ليقس كل واحد منكم عمره في الدنيا وهو محدود .

ولذلك يقول الحق سبحانه في آية أخرى : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ۖ ﴾ (٧٧)

[النساء]

وهنا يؤكد الحق سبحانه : ﴿ إِنَّمَا بِغَيْرِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ﴾ (٧٢)

[يونس]

وقد يتمثل جزاء البغي في أن يشاء الحق سبحانه ألا يموت الظالم إلا بعد أن يرى مظلومه في خير مما أخذ منه ؛ ولذلك أقول دائماً : لو علم الظالم ما إدخره الله للمظلوم من الخير ؛ لسنَّ عليه بالظلم .

وعلى فرض أن الظالم يتمتع بظلمه وهو من متاع الدنيا القليل ، نجد الحق سبحانه يقول : ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ۖ ﴾ (٧٢)

[يونس]

وحين نرجع إلى الله تعالى فلا ظلم أبداً ؛ لأن أحدكم لن يظلم أو يظلم فكل منكم سوف يلتقى ما ينبت به الله سبحانه إن ثواباً أو عقاباً ؛ مصداقاً لقوله الحق : ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ ۖ ﴾ (٧٢) بما كنتم تعملون . [يونس]

وقد جاء الخير عن نيا الجزاء من قبل أن يقع ؛ ليعلم الجميع أن لكل فعل

(١) أربأوا على أنفسكم : حافظوا عليها وأبعدوها عن كل ما من شأنه أن يجلب لها العذاب في الآخرة . وفي الحديث : « مثل من ظلمكم كرجل ذهب يربأ أهله » أي : يحفظهم من عدوهم . (اللسان مادة ربا) .

(٢) الأنبياء : الأخبار الهامة . قال الحق : ﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا ۖ ﴾ [الأعراف] وقال :

﴿ لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَفَرٍّ ۖ ﴾ [الأنعام] . أي : لكل خبر عام وقت أو مكان يقع فيه في المستقبل أو في

الماضي . ونبأ مثل أنباء . والتضعيف يفيد المبالغة والتكرار . قال الحق : ﴿ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ۖ ﴾ [المائدة] - القاموس القويم ج ٢ ص ٢٥٠ و ٢٥١

مقابلاً من ثواب أو عقاب ، كما أن في ذكر النبا مقدماً تقریباً لمن يظلمون أنفسهم بالبنی .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا قَتَلْنَاهَا أَمْ حَتَّى إِذَا أَثْبَتْنَا أَشْجَارَهَا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

والماء الذى ينزل من السماء ، هو الماء الصالح للرى والسقى ؛ لأن المياه الموجودة فى الوجود ، هى مخازن للحياة ، وغالباً ما تكون مالحة ، كمياه البحار والمحيطات، وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ لحمايتها من العفن والفساد ، ثم تتم عملية تقطير المياه بأشعة الشمس التى تحول الماء إلى بخار، ويتجمع البخار كسحاب ، ثم يسقط ماء عذباً مقطراً صالحاً للشرب والرى .

(١) الزخرفة : الزينة . قال ابن سيده : الزخرف : الذهب ، هذا الأصل ، ثم سُمي كل عمره مزوراً به . وبيت مزخرف . وزخرف البيت : زينته وأكملته . وفى الحديث : أن النبي ﷺ لم يدخل الكعبة حتى أمر بالزخرف فشئى . وقوله تعالى : ﴿ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ۖ ﴾ (٢٤) ﴿ [يونس] المراد بالزخرف هنا : زينة الحياة الدنيا ومناعها الزائل الذى يخدع بريقه أعين الغافلين عن الآخرة وما فيها من نعيم مقيم . [اللسان : مادة (زخرف) - بصرف] . وقال القرطبي : زخرفها ، أى : حسنها وزينتها . والزخرف : كمال حسن الشيء ومنه قيل للذهب زخرف (تفسير القرطبي : ٤ / ٢٢٥٤) . وقال ابن كثير : زخرفها ، أى : زينتها الغائبة . وازبئت ، أى : حشئت بما خرج فى رباعها من زهور ونضرة مختلفة الأشكال والألوان (تفسير ابن كثير : ٢ / ٤١٣) .

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ (٢٩) [يونس]

والاختلاط : اجتماع شيئين أو أشياء على هيئة الانفصال بحيث يمكن أن تعزل هذا عن ذاك ، فإن خلطت بعضاً من حبات الفول مع بعض من حبات الترمس ؛ فأنت تستطيع أن تفصل أياً منهما عن الأخرى ، ولكن هناك لوناً آخر من جمع الأشياء على هيئة المزج ، مثلما تعصر ليمونة على ماء محلى بالسكر ، وهذا ينتج عنه ذوبان كل جزىء من الليمون والسكر فى جزئيات الماء .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ وقد يفهم من ذلك أن الماء والنبات قد اختلطا معاً ، لكن النبات - كما نعلم - ككائن حي مخلوق من الماء مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ ﴾ (٢١) [الأنبياء]

وهنا لا بد أن تلتفت إلى الفارق بين «باء» الخلط ، و«باء» السببية^(١) فالباء هنا فى هذه الآية هى باء السببية ، وبذلك يكون المعنى : فاختلط بسببه نبات الأرض . وأنت ترى بعد سقوط المطر على الأرض أن المياه تغطى الأرض ، ثم تجدد بعد ذلك بأيام أو أسابيع ، أن سطح الأرض مغطى بالزروع ، وكلها مختلطة متشابكة ، وكلما تشابكت الزروع مع بعضها فهذا دليل على أن الرى موجود والخصوبة فى هذه الأرض عالية ، وهذا نتيجة تفاعل الماء مع التربة .

(١) الباء : حرف يجر الاسم الظاهر والمضمر ، ويقع أصلياً أو زائلاً ، ويؤدى عدة معان : أشهرها خمسة عشر ، هى : الإلصاق ، والاستعانة ، والسببية ، والتعدي ، والظرفية ، والعرض ، والمصاحبة ، والتبويض ، والمجاورة ، والاستعلاء ، والتوكيد ، وأن تكون بمعنى كلمة (بذل) ، وأن تكون بمعنى كلمة (إلى) . انظر تفصيل ذلك فى النحر الرانى (٢ / ٤٩١ - ٤٩٧) .

أما إن كانت الأرض غير خصبة ، فأنت تجد نبتة في منطقة من الأرض ،
وأخرى متباعدة عنها ، وهذا ما يطلق عليه أهل الريف المصرى أثناء زراعة
الذرة - على سبيل المثال : «الذرة تفلس» أى : أن كل عود من أعواد الذرة
يتباعد عن الآخر نتيجة عدم خصوبة الأرض .

إذن : فخصوبة الأرض لها أساس هام فى الإنبات والماء موجود لإذابة
عناصر الغذاء للنبات ، فتتشر بها جذور النبات .

وإن سمحت لك الظروف بزيارة المراكز العلمية للزراعة فى «طوكيو»
أو «كاليفورنيا» ؛ فلسوف ترى أنهم يزرعون النباتات على خيوط رفيعة ؛
تُسقى بالماء الذى يحتوى على عناصر الغذاء اللازمة للإنبات ؛ لأنهم وجدوا
أن أى نبات يأخذ من الأرض المواد اللازمة لإنباته بما لا يتجاوز خمسة فى
المائة من وزنه ، ويأخذ من الهواء خمسة وتسعين فى المائة من وزنه .

إذن : فالمطر النازل من السماء خلال الهواء هو الذى يذيب عناصر
الأرض ؛ ليمتصها النبات .

والحق سبحانه وتعالى هنا أراد أن يضرب لنا المثل ، والمثل : هو قول
شُبَّه مَقْصُرُهُ بِمَوْلَدِهِ ، أى : شىء نريد أن نمثله بشىء ، ولا بد أن يكون
الشىء الممثل به معلوماً ، والشىء المأخوذ كمثال هو الذى نريد أن نوضح
صورته ؛ ولذلك لا يصح أن نمثل مجهولاً بمجهول ، وإنما نمثل مجهولاً
بمعلوم .

ونجد من يقول لك : ألا تعرف فلاناً ؟ فنقول : لا أعرفه ، فيرد عليك
صاحبك : إنه مثل فلان فى الشكل ، وهكذا عرَّفْتَ المجهول بمعلوم .

وبعض من الذين يحاولون الاعتراض على القرآن ، دخلوا من هذه
الناحية ، وقالوا : إذا كان الشىء مجهولاً ونريد أن نعرف به ، ألا نعرفه

سُورَةُ يُوسُفَ

٥٨٦١

معلوم ؟ فما بال الله - سبحانه وتعالى - يقول في شجرة الزقوم ^(١) : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ (٦٤) طَلْعُهَا ^(٢) كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿ ٦٥ ﴾ [الصافات]

ما بال الله سبحانه يبين شجرة الزقوم ، وهي شجرة في النار لا تعرفها ، فيعرفها للمؤمنين به بأن طلعها يشبه رؤوس الشياطين ، وبذلك يكون سبحانه قد مثل مجهولاً بمجهول . والذين قالوا ذلك فاتهم أن الذي يتكلم هو الله تعالى . وقد أراد الحق سبحانه أن يُمثل لنا شجرة الزقوم بشيء يشع معلوم لنا ، والبشع المعلوم هو الشيطان .

وشاء الحق سبحانه ألا يحدد البشاعة ؛ حتى لا ينقض التشبيه ؛ لأن الشيء قد يكون بشعاً في نظرك ، وغير بشع في نظر غيرك . ويريد الله سبحانه أن يبشع طلع شجرة الزقوم ؛ فاختار الشيء المتفق على بشاعته ، وهو رؤوس الشياطين ، وليتصور كل إنسان صورة الشيطان ، بما ينقر منه وبقبحه ، وهكذا تتجلى عظمة الحق سبحانه في أن جعل شكل الشيطان مبهماً ^(٣) .

وأما المثل الذي نحن بصدد هنا وهو تشبيه الحياة الدنيا بأنها كالماء الذي أنزله الحق سبحانه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، والحياة الدنيا نحن ندرك بعضها ، وكل منا يدرك فترة منها ، ولم يدرك أولها ، وقد لا يدرك آخرها ، فجاء الحق سبحانه بمثل يراه كل واحد منا ، وهو الزرع

(١) شجرة الزقوم هي الشجرة الملعونة في القرآن ، قال تعالى : ﴿ وَنَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ .. ﴾ [الإسراء] وأخبر الله تعالى في كتابه الكريم أنها تخرج في أصل الجحيم . وتعرفها هو الزقوم وهو طعام أهل النار . [اللسان : مادة (زقم) - بتصرف] .

(٢) الطلع : غلاف يشبه الكوز ، يفتح عن حبّ متضود ، فيه مادة إخصاب النخلة [المعجم الوسيط : مادة (طلع)] .

(٣) مبهماً : خافياً . وامتنع الأمر إذا استغلق . والمبهم سمي كذلك لأنه أبهم عن البيان فلم يجعل عليه دليل ، ومنه قيل لما لا ينطق «بهيحة» [اللسان : مادة (بهم)] .

الذى يرتوى بالمطر ، فأراد الحق سبحانه أن يجمع لنا صورة الدنيا فى مثل معروف لنا جميعاً ، ونذكره جميعاً ، فنذكر ما سبق ، وما يلحق ، فكل شيء يأخذ حظه فى الازدهار ، والجمال ، ثم ينتهى ، كذلك الدنيا .

يقول الحق سبحانه :

﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَنَاهَا أَمَرْنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ ﴾ (٢١) [يونس]

والزخرف : هو الشيء الجميل المستعمل للنفس وتُسَرُّ به حينما تراه ، وتزين الدنيا بالألوان المتروعة فى تنسيق بديع ، ثم يصبح كل ذلك حصيداً^(١) وهذا ما نراه فى حياتنا ، وهكذا جمع الله سبحانه وتعالى مثل الحياة الدنيا من أولها إلى آخرها بالصورة المراثية لكل إنسان ، حتى لا يخدع إنسان بزخرف الدنيا ولا بزيتها .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَيْنًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢) فَإِذَا

(١) حصيداً : محصورة مقطوعة لا شيء فيها ، قال أبو عبيدة : الحصيد : المستأصل . [تفسير القرطبي ٣٢٥٤ / ٤] .

(٢) قال الحسن البصري : القضب : العلف الذى تأكله الدواب [تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٧٢ - بتصرف] .
(٣) حدائق غلباً ، أى : بساتين . وقيل : هى نخل غلاظ كرام . وقيل : هى الشجر الذى يُسْتظل به . [تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٧٢] .

(٤) قال ابن عباس : الأب ما أنبتت الأرض مما يأكله الدواب ولا يأكله الناس . وقيل : هو الحشيش للبهائم وقيل : الأب الكلا . [تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٧٢ ، ٤٧٣] .

جَاءَتِ الصَّاحَّةُ ^(١) (٢٢) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٢٤) وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ (٢٥) وَصَاحِبَتِهِ
وَبَنِيهِ (٢٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٢٧) ﴿[عبس]

إذن: فالدنيا بكل جمالها الذي تراه إنما تذوى ^(٢) ، وما تراه من بديع
ألوانها إنما يذبل ، ومهما ازدادت الدنيا فهي إلى زوال ، فإياك أن تبغى ؛
لأن البغى فيه متاع الدنيا ، والدنيا كلها إلى زوال ؛ كزوال الروض التي
ينزل عليها المطر ؛ فتنبت الأرض الأزهار ، ثم يذوى كل ذلك .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ
(٢٧) وَلَا يَسْتَنْتَوْنَ (٢٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (٢٩)
فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ^(٣) (٣٠) 〉 ﴿[القم]

إذن: فالدنيا بهذا الشكل وعلى هذا الحال .

(١) الصاحفة: قال ابن عباس: هي اسم من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذر منه . وقال البغوي: الصاحفة
يعنى: صيحة يوم القيامة ، سميت بذلك ؛ لأنها تصخ الأسماع ، أى: تبلغ فى إسماعها حتى تكاد
تصمها . [تفسير ابن كثير: ٤ / ٤٧٣] .

(٢) تذوى: تذبل . ذوى النبات: أصابه الحر والعطش فذبل . صمف: وذوى عود النبات: يس .
[اللسان: مادة (ذوى)] .

(٣) هذا مثل صريره الله تعالى لكفار مريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة
الجميلة ، وهو بعثة محمد ﷺ إليهم ، فقابلوه بالكفـيـب والرد والحاربة ، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّا
بَلَوْنَاهُمْ ﴾ أى: اختبارناهم ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ وهى البستان المشتعل على أنواع الشمار والفواكه
﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أى: حلفوا فيما بينهم ليجدون ثمرها (يجمعونه) ليلاً لئلا يعلم بهم فقير
ولا سائل ؛ ليتوفر ثمرها عليهم ، ولا يتصدقوا منه بشيء . ﴿ وَلَا يَسْتَنْتَوْنَ ﴾ أى: فيما حلفوا به ، ولهذا
حشـنهم الله فى إيمانهم ، فقال تعالى: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ أى: أصابها أفة
سماوية ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ قال ابن عباس: أى: كالليل الأسود . وقال الثوري واللسي: أى:
هشيماً يشأ . [تفسير ابن كثير: ٤ / ٤١٦] .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا
وَارْتَوَتْ ۖ ﴾ (٢٤)

والأرض تتزين بأمر ربها ، والحق سبحانه ينسب الإدراكات إلى
ما لا نعرف أن له عقلاً أو إرادة . ألم يقل الحق سبحانه في قصة العبد
الصالح : ﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبْرَأَ أَن يَضِفُوهُمَا
فَرَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ ۚ ۖ ﴾ (٧٧) . [الكهف]

فهل يملك الجدار إرادة أن ينقض ؟ ولو حققنا الأمر جيداً ، لوجدنا أن
الحق سبحانه جعل لكل كائن في الوجود حياة تناسبه ، وله إرادة تناسبه ،
وله انفعال يناسبه . وقد ضرب الحق سبحانه لنا في ذلك صوراً شتى ، فنجد
أن الشيء الذي يعزُّ على عقولنا أن تفهمه يبرز لنا بيان من الله تعالى .

ومثال هذا : معرفة الهدهد في قصة سليمان عليه السلام بالتوحيد ،
وكيف أخبر هذا الهدهد سيدنا سليمان عليه السلام بحكاية ملكة سبأ حيث
يسجد الناس هناك للشمس من دون الله ، فكان الهدهد قد علم من يستحق
السجود له إذ قال : ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ ۚ ۖ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۚ ۖ ﴾ (٢٥) . [النمل]

ومن كان يظن أن الهدهد ، وهو طائر ، يكون على هذه البصيرة
بالعقائد على أصفى ما تكون ؟ لأن الحق سبحانه أراد أن يبين لنا أن هذا

(١) يريد أن ينقض : الانقضاء السقوط بسرعة وإضافة إرادة الانقضاء إلى الجدار مجاز عن قرب
سقوطه ، وذلك على التشبيه بحال من يريد الفعل ، وفي كتاب الله قوله : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى
الْخَبَابَ ۖ ۖ ﴾ [الأعراف] وقوله : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ ۖ ۖ ﴾ [محمد] [تفسير سورة الكهف للشيخ
محمد محمد المدني - ينصرف] .

(٢) الخبء : ما خفى ، والخبء الذي في السموات هو المطر ، والخبء الذي في الأرض هو النبات .
وقيل : الخبء كل ما غاب ، فيكون المعنى : يعلم الخبء في السموات والأرض . [اللسان : مادة
خبأ] .

الطائر لا هوى له يفسد عقيدته ، وأن أهوائنا هي التي تفسد العقائد ، ومن أعطاه الله سبحانه البدائل هو الذي يفسد الاختيار ما دام لا يحرس الاختيار بالإيمان ، وأن يختار في ضوء منهج الله تعالى .

ونحن نرى أن ما دون الإنسان من طائر أو حيوان لا يفسد شيئاً ؛ لأن غريزته تقوده ، فلا نجد حيواناً يأكل فوق طاقتة ، لكننا نجد إنساناً يصيب نفسه بالتخمة^(١) ، ولا نجد حماراً يقفز فوق قناة من الماء لا يقدر عليها ، بل نراه وهو يتراجع عنها ، ولكننا نجد إنساناً يشمر عن ساعديه^(٢) ؛ ليقفز فوق قناة مياه ؛ فيقع فيها^(٣) .

إذن : فنحن بأهوائنا التي تسيطر على غرائزنا نوقع أنفسنا فيما يضرنا ، ما لم نحرس أنفسنا بمنهج الله سبحانه وتعالى . ونجد في مثال الهدهد صفاء عقدياً في التوحيد كأصفي ما يكون المتصوفة ، ويأتى بما يهمه ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لأن الخبء هو رزق الهدهد ، فهو لا يأكل من الشيء الظاهر على سطح الأرض ، بل يضرب بمنقاره الأرض ؛ ليأتى لنفسه بما يطعمه .

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً آخر بالنملة التي قالت : ﴿ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٨) .

[النمل]

- (١) التخمة : الذي يعيب الإنسان من الطعام إذا استوعبه أى : استقله . وقد تطلق «التخمة» على كثرة الطعام والمبالغة في الأكل والشرب حتى يشغل على الجسم هضم الطعام ؛ فيصاب الإنسان بالوخم والنفل وعدم القدرة على الحركة ، [اللسان : مادة وخم] .
- (٢) الساعد : مستقى الزندين من عند المرفق إلى الرسغ . والساعد : ساعد الزندين والمرفق ، سُمي ساعداً لمساعدته الكف . وجمع الساعد : سواعد . [اللسان : مادة (ساعد)] .
- (٣) وهذا مصداق قوله تعالى ﴿ إِذَا عَرَّجْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَيُّنَ أَنْ نَحْمِلَهَا وَأَنفُسُنَا عَلَيْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٢٣) [الأحزاب] .

وهذه دقة عدالة من هذه النملة ، فإنها لم تقل : إن سليمان وجنوده سيحطمون أخواتها من النمل ظلماً لهم ، بل قالت : ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لأنكم لا تظهرون تحت أرجلهم .

إذن : كل كائن في الوجود له حياة تناسبه ، ولكن الآفة أننا نريد أن نتصور الحياة في كل كائن ، كتصورها في الكائن الأعلى وهو الإنسان .

ولا بد لنا أن نعلم أن النبات له حياة تناسبه ، والحيوان له حياة تناسبه ، والجماد له حياة تناسبه ، وكل شيء في الحياة له لون من الحياة المناسبة له .

وقد أوضحنا من قبل أن الحق سبحانه قد قال : ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ..﴾ (٤٢) . [الأنفال]

والهلاك مقابل للحياة ، والحياة مقابلة للموت ، والهلاك يساوي الموت . والحق سبحانه يصور الحالة يوم القيامة فيقول : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ..﴾ (٨٨) . [القصص]

إذن : فالجماد هالك ، ولكنه يتمتع بلون من الحياة لا نعرفه ، وكذلك كل كائن له حياة تناسبه ، والآفة أن الإنسان يريد أن يعرف الحياة التي في الجماد كالحياة في الإنسان .

وانظر إلى دقة الأداء القرآني في قوله الحق : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَنَّتَاهَا أَمْرًا نَّيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ (٢٤) . [يونس]

وقد جاء هذا القول من قبل أن يتقدم العلم ويشي أن الأرض تشبه الكرة ، وأنها تدور ، وأن كل ليل يقابله نهار ، وكذلك جاء قول الحق

سُورَةُ الْيُونُسَ

○ ٥٨٦٧ ○

سبحانه : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ (٩٧) أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى . . ﴿ (٩٨) . [الأعراف]

إذن : فأمر الله سبحانه يتحقق حين يشاء ، وهو أمر واحد عند من يكونون في ضحى أو في ليل .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا ^(١) كَأَنْ لَّمْ تَكُنْ ^(٢) ﴾ [يونس]

أى : كأنها لم يكن لها وجود .

ويُنتهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢٤) [يونس]

فإذا كانت الدنيا كلها مثل عملية الزرع في الأرض الذى ينمو ويزدهر ويزدان ، ثم ينتهى ، ألا يجب أن نتبّه إلى أن كل زخرف إلى زوال ؛ وعلينا ألا نفتتن بزينة الدنيا ومتاعها فى شيء ، وأن نحرص على ألا نبغى فى الأرض ؛ لأن البغى متاع الحياة الدنيا ، وهى إلى زوال ^(٣) .

ونجد القرآن يأتى بذكر التفصيل للآيات ، ويتبع ذلك بأن هذا التفصيل لقوم « يذكرون » ، أو « يتذكرون » ، أو « يعقلون » ، أو « يتدبرون » .

وكل هذه عمليات تتناول المعلوم الواحد فى مراحل متعددة ، فالتعقل :

(١) الحصيد والحصد : الزرع للحصود بعد ما يحصد ، والمراد بالحصيد هنا : تشبيهه وتصوير إهلاك الله للأرض فى نهاية الدنيا بما يحدث عند حصد البت من اقتلاعه وتقطيعه . [اللسان : مادة (حصد) - بتصرف] .

(٢) ﴿ تَحَانَ لَمْ تَكُنْ بِالْأَمْسِ ﴾ أى : لم تكن عامرة ، والغالى فى اللغة : المنازل التى يعمرها الناس . وقال قتادة : كان لم تنعم . وقرأ قتادة (بغن) بالياء ، يذهب به إلى الزخرف ، يعنى : فكما يهلك الزرع هكذا ، كذلك الدنيا . [تفسير القرطبي : ٤ / ٣٢٥٤] .

(٣) يقول الله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا لَانٍ ^(٢٦) وَيَقَعُ رُجَّةٌ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ^(٢٧) ﴾ [الرحمن] .

هو أن تأتى بالمقدمات ؛ لنستنبط ولتتري إلى أى نتائج تصل . والتذكرُ
يعنى : ألا تنسى وألا تغفل عن الأمر الهام . والتفكرُ : هو أن تُعمل الفكر .
والفارق بين الفكر والعقل هو أن العقل أداة التفكير . والتدبرُ ^(١) : هو
ألا تنظر إلى ظواهر الأشياء ، بل إلى المعطيات الخفية فى أى أمر .

والحق سبحانه يقول : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقرآنَ ۚ ۞ (٨٢) ﴾ . [النساء]

أى : اجعل بصيرتك تمحص البدايات والنهايات ؛ لتعرف أن المرجع
والمصير إلى الله تعالى . والعاقل هو مَنْ يعدّ نفسه للقاء الله سبحانه ، وقد
يرهب نفسه فى الدنيا الفانية ؛ ليستريح فى الآخرة .

وإذا نظرنا إلى الدنيا والآخرة من خلال معادلة تجارية ، سنجد أن الآخرة
لا بد وأن ترجح كفتها ؛ لأن عمر الإنسان فى الدنيا مقنون ، ولا يعرف
فرد هل يحيا فى الدنيا عاماً أو عشرة أو سبعين أو مائة عام .

ومهما طالَت الدنيا مع كل الخلق فهى منتهية ، والنعيم فيها على قدر
إمكاناتك البشرية وعلى قدر تصورك للنعيم ، أما الآخرة فهى بلا نهاية ،
وأمر الإنسان فيها متيقن ، والنعيم فيها على قدر عطاءات الله تعالى ومراده
سبحانه للنعيم . فإن قارنت هذا بذاك وقارنت الدنيا بالآخرة لرجحت كفة
الآخرة .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ^(٢) لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ . [التكوير]

(١) التدبر فى الأمر . التفكير فيه وأن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته ، وفلان ما يدرى قبالة الأمر من دباره ،
أى : أوله من آخره . ويقال : إن فلاناً لو استقبل من أمره ما استدبره لهدى لوجهة أمره ، أى : لو علم
فى بدء أمره ما علمه فى آخره لاسترشد لأمره . قال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ بِتِلْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ
وَلِيَتَذَكَّرُوا أَلْأَنبَاءَ (٦٤) ﴾ [مى] . [اللسان : مادة (دبر) - يتصرف] .

(٢) ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ ۞ (٦٤) ﴾ [التكوير] أى : هى الحياة الدائمة التى لا زوال لها
ولا انقضاء ، بل هى مستمرة أبد الأبد . [تفسير ابن كثير : ٣ / ٤٢٦] .

وفى قوله سبحانه: ﴿لَهُيَ الْحَيَوانُ﴾ . مبالغة فى كونها حياة لا فناء فيها .
فاتبع منهج الله سبحانه ؛ ليأخذك هذا المنهج إلى دار السلام والسلامة من
الآفات . وضمن لنفسك الخروج من دار الفناء والأغيار ، وَضَعَ يَدَكَ فى
يد من يدعوك إلى دار السلام .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾

ودار السلام : هى الآخرة التى تختلف عن دار الدنيا المليئة بالمتاعب ،
هذه الدنيا التى تزهر وتزخر ، وتنتهى إلى حطيم ؛ لذلك يدعو الله
تعالى إلى دار أخرى ، هى دار السلام ؛ لأن من المتخصصات على أهل
الدنيا ، أن الواحد منهم قد يأخذ حظه جاهلاً ، ومالاً ، وصحة ، وعافية ،
ولكن فى ظل أرق من أمرين : الأول هو الخوف من أن يفوته هذا النعيم
وهو حى ، والثانى أن يفوت هو النعيم .

أما الآخرة فالإنسان يحيا فيها فى نعيم مقيم ؛ ولذلك يقول الله سبحانه :
﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ .

وهذه الآخرة لن يشاغب فيها أحدٌ الآخر ، ولن نجد من يأكل عرق غيره

(١) دار السلام هى الجنة ؛ لأنها دار الأمان والسلامة من كل سوء يقول الحق : ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ..﴾ [الأنعام] وسلم تأتى لعان منها : ألقى السلام واتقادواذعن ، وسلمه
الله : أنجاه . وسلمه الأمانة أوصلها لمصاحبها ، وأداها فهو مُسَلِّمٌ ، يقول الحق : ﴿مُسَلِّمَةٌ لِأُخْتٍ فِيهَا
..﴾ [البقرة] وأسلم قلبه : أخلص . وأسلم : دخل فى دين الإسلام ، يقول الحق : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ
أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة] القاموس القويم ج ٢ ص ٣٢٥

مثلاً يحدث في الدنيا ^(١) ، وإذا كنا نعيش في الدنيا بأسباب الله ، فنحن في الآخرة نعيش بالله سبحانه وتعالى ، فكل ما يخطر على بالك تجده .

فإذا كانت الأسباب تتنوع في الدنيا وتختلف قدرات الناس فيها مع أخذهم بالأسباب ، فإنهم في الآخرة يعيشون مع عطاء الله سبحانه دون جهد أو أسباب ؛ لأن دار السلام هي دار الله تعالى ، فالله تعالى هو السلام .

ولله المثلى الأعلى ، فأنت إذا دعاك ولي أمرك إلى داره ، فهو يُعدّ لدعوتك على قدره هو ، وما يناسب مقامه ، فما بالك حين يدعوك خالقك سبحانه وقد اتبعت منهجه ، إنه سبحانه هو القائل :

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاعِهُونَ﴾ ^(٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ ^(٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ^(٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ^(٥٨) ﴿

وهذا السلام ليس من البشر ؛ لأن من البشر من يعطيك السلام وهو يُمكنُ لك غير السلام ، أو قد يعطيك السلام وهو يريد بك السلام ، ولكنه

(١) وفي هذا يقول رب العزة عن أهل الجنة : ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ ^(٥٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ^(٥٦) ﴿ [الواقعة] . فهم لا يسمعون فيها كلاماً عبثاً أو فيه تبجح ، بل قولهم لبعضهم سلاماً سلاماً ، أى : تسليمهم على بعضهم ، فهي دار السلام .

(٢) ﴿فِي شُغْلٍ فَاعِهُونَ﴾ : مرقهون ناعمون بتعيم الجنة . قال تعالى : ﴿فَاعِهِينَ بِمَا أَنَاهُمْ رَبُّهُمْ ..﴾ ^(٥٨) ﴿ [الطور] . [اللسان : مادة (فكه) - بتصرف] .

(٣) ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ﴾ قال المفسرون : الأرائك : السرور في الحجال ، وقيل : هي القُرُش . وقيل : الأريكة : سرير متجدد مزين في قبة أو بيت . وقيل : الأريكة : هو كل ما اتكى عليه من سرير أو فراش أو منصة . قال تعالى : ﴿مُتَكِنِينَ لَهَا عَلَى الْأَرَائِكِ بِمَنْ تَوَابَ ..﴾ ^(٥٩) ﴿ [الكهف] . [اللسان : مادة (أرك) - بتصرف] .

من الأغيار^(١)؛ فيتغير فلا يقدر أن يعطيك هذا السلام ، لكن إذا ما جاء السلام من الله تعالى ، فهو سلام من رب لا يعجزه شيء ، ولا يُعوزه شيء ، ولا تلحقه أغيار ؛ لذلك يقول سبحانه: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ .. (٢٤)﴾ . [الرعد]

والملائكة حين يقولون ذلك إنما أخذوا سلامهم من باطن سلام الله تعالى ، وحتى أصحاب الأعراف^(٢) الذين لم يدخلوا الجنة ، ويرون أهل الجنة وأهل النار ، هؤلاء يلقون السلام على أهل الجنة . وهكذا يحيا أهل الجنة في سلام شامل ومحيط ومطمئن ؛ لأن الداعي هو الله سبحانه ، ولا أحد يجبره على أن ينقض سلامه .

ودعوة الله سبحانه هي منهجه الذي أرسل به الرسل ؛ ليحكم به حركة الحياة حركة إيمانية ، يتعاش فيها الناس تعايشاً على وفق منهج الله تعالى ، بما يجعل هذه الدنيا مثل الجنة ، ولكن الذي يرهق الناس في الدنيا أن بعض الناس يعطلون جزئية أو جزئيات من منهج^(٣) الله سبحانه .

وأنت إذا رأيت مجتمعاً فيه لون من الشقاء في أي جهة ؛ فاعلم أن جزءاً من منهج الله تعالى قد عُطل .

(١) فالسلام عند أهل الأغيار يتغير حسب المصالح ، أما سلام الله فلا يلحقه التغيير ولا التبديل ، لأن وعده الحق ، وقوله الصديق : وهو السلام ، ومنه السلام .

(٢) أصحاب الأعراف هم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فيقفون بين الجنة والنار يوم القيامة ، ينظرون إلى أهل هذه وأهل تلك ، ينتظرون عفو الله عنهم ، وفيهم قال سبحانه : ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَتَادِرُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا حُشِرَ آبَاؤُهُمْ تَلْقَاءُ أَصْحَابِ النَّارِ فَالْوَارِثَةُ لَا تَجِدُكَ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧)﴾ [الأعراف] .

(٣) منهج الله تعالى : طريقه وشريعته ، قال تعالى : ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمَنْهَاجًا (١٨)﴾ [المائدة] . فقد وضع منهجاً للمروح سمواً ، وللقلب حباً ، وللغش سكيناً وللعقل فكراً وتأملاتاً للجسم حركة . ومنهج هذه الطاقات يوجد مجتمع الربوبية بمقيدة توحده ، وعبادة تحبه وتخشاها ومعاملات بأخلاق فإذا اختلت طاقة من هذه الطاقات بسبب نسيانه أو غفلة تعطل المسير في المنهج نحو الله جل علاه .

ولو أن الناس قد ساروا على منهج الله سبحانه وتعالى ؛ لما كان بالوجود عورة واحدة ؛ فالذى يُظهر عورات الوجود هو غفلة بعض الناس عن منهج الله سبحانه .

وأنت إن رأيت فقراء لا يجدون ما يأكلونه ؛ فاعلم أن هناك مَنْ عطّل منهج الله تعالى ، إما من الفقراء أنفسهم ، الذين استمروا^(١) بعضهم الكسل ، وإما أن الأغنياء قد ضنوا برعاية حق الله تعالى في هؤلاء الفقراء ؛ وبذلك يتعطل منهج الله سبحانه .

أما إذا سيطر منهج الله تعالى على الحياة ؛ لصارت الحياة مثل الجنة .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ونعلم أن الهداية نوعان : هداية الدلالة بالمنهج ، فمن أخذ المنهج سهل الله تعالى له طريق الصراط المستقيم ؛ وبذلك انتقل العبد من مرحلة الهداية بالدلالة إلى الهداية بالمعونة ، وحين تقوم القيامة يهديهم الله سبحانه بالنور إلى الجنة : ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ۖ ۝٩ ﴾ . [يونس]

إذن : فمن أخذ هداية الله بالدلالة وهي المنهج ، واتبع هذا المنهج ؛ فالحق سبحانه يجعل له نوراً يسمي بين يديه : ﴿ نُورَهُمْ يَسْمَعُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْمَنُهُمْ ۖ ۝٨ ﴾ . [التحریم]

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۖ ۝٢٥ ﴾ [يونس]

لأن كل شيء في هذا الكون لا يخرج عن مشيئته سبحانه ، فالقوانين لا تحكمه ، بل هو الذي يحكم كل شيء .

وإذا كان الله قد بين من شاء هدايته ، فهو أيضاً قد بين لنا من شاء ضلاله بقوله سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۖ ۝٣٧ ﴾ . [التوبة]

(١) استمراً : استحسن الشيء واعتاده . [اللسان : مادة (مراً) - بتصرف] .

وقوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٤) . [التوبة]

إذن : فقد بين الحق سبحانه لنا من الذين يهديهم إلى الجنة ومن الذين لا يهديهم ، فلا يقولن أحد : وما ذنب الكافرين والفاستقين ^(١) ؟ لأن الحق سبحانه قد بين منهجه ، فمن أخذه به ؛ جعل له نوراً يسمى بين يديه ، ويدخله الجنة .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٥١)

وكلمة ﴿الحُسْنَىٰ﴾ مثلها مثل قولنا : «امرأة فضلى» ونقول أيضاً : امرأة كبرى ، وهى أفعل تفضيل ، أى : مبالغة فى الفضل ^(٢) .

والمقصود بقوله سبحانه : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ أى : بالغوا فى أداء الحسنات ، والحسنة كما نعلم بعشرة أمثالها ، وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فما هذه الزيادة ؟

نقول : هى عطاء زائد فى الحسنات ، فهناك «كادر» للجزاء بالحسنات ، يبدأ بعشرة أمثال الحسنة ويصل إلى سبعمائة ضعف ، أما السيئة

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٩) قال ربنا لم نحشُرْهُ أى : لقد كنّنا بصيراً (١٣٠) قال كذلك أُنْكَرُ أَنَاثًا فُسَيْفَهَا وكذلك اليوم نَحْشُرُ (١٣١) ﴿طه﴾ .

(٢) أفعل التفضيل : اسم مشتق على وزن (أفعل) يدل غالباً على أن شيئين اشتركا فى معنى ، وزاد أحدهما فيه على الآخر . مثل (أحسن - أفضل - أكبر) فى مثل قولنا : نعيم الآخرة أحسن وأفضل وأكبر من متاع الدنيا . وعند التانيث تصاغ الكلمة على وزن (فُعَلَى) مثل : (حُسْنَى - فَضْلَى - كُبْرَى) انظر تفصيل ذلك فى (النحو الوافى ٣ : ٣٩٤ - ٤١٥) .

فبواحدة ^(١) . وهذا «الكادر» لا يحدد فضل الله تعالى ، بل الحق سبحانه يزيد من فضله مَنْ يشاء .

ولذلك يجب ألا نفرق بين عدل الله سبحانه في أن الشيء يساوى الشيء ، وفضل الله تعالى في أن يجزى على الشيء الحسن بأضعاف أضغاف ما تتصور .

والحق سبحانه يقول : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ۖ ۝٥٨ ﴾ [يونس]

وقال قوم من العارفين بالله : إن الزيادة المقصودة هي في العشرة الأمثال والسبعمئة ضعف ، والفضل هو ما فوق ذلك .

وهكذا تتعدد مراتب الجزاء : فهناك العشرة الأمثال ، والسبعمئة ضعف ، والحسنى ، والزيادة عن الحسنى ، وقد قال رسول الله ﷺ في ذلك : «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم . فيقولون : ألم تبئض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل» ^(٢) .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا يَرَهُمْ قَبْرٌ وَلَا ذُلَّةٌ ۖ أَى : لا يغطي وجوههم غبار ، وهو سبحانه القائل : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۖ ۝٢٢ ﴾ إلى ربها ناطرة ۝٢٣ ﴾ .

(١) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : قال الله عز وجل : «إذا هم عبدي بحسنة ولم يعملها كتبها له حسنة ، فإن عملها كتبها عشر حسنات إلى سبعمئة ضعف ، وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه ، فإن عملها كتبها سيئة واحدة» أخرجه مسلم في صحيحه (١٢٨) والبخاري في صحيحه (٦٤٩١) يلقط آخر عن ابن عباس .

(٢) أخرجه مسلم (١٨١) وأحمد في مستدركه (٢٣٢/٤) والترمذي في سننه (٢٥٥٢) من حديث صهيب الرومي .

وهو سبحانه القاتل : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١)﴾ .
[عبس]

وترهقها : أى : تغطيها ، وقتره تعنى : الغبار ، وهى مأخوذة من القُتَار وهو الهواء الذى يمتلىء بدخان الدُّهْن المحترق من اللحم المشوى ، وقد تكون رائحته أخاذة ويسيل لها اللعاب ، ولكن مَنْ يوضع على وجهه هذا القُتَار يصنع له طبقة سوداء .

ويقول الحق سبحانه : ﴿وَلَا يَرْمُقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ (٤٢)﴾ [يونس]
لأنهم اتقوا الله سبحانه وأحيا منهجه .

ويقول الحق سبحانه : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ .. (٤٣)﴾

[آل عمران]

فليس المقصود هو لون الوجه فى الدنيا ؛ لأنك قد تجد إنساناً أسود اللون لكنه بالإيمان قد أشرق وجهه ، وأحاطت ملامحه هالة من البهاء . وهناك من هو أبيض الوجه ولكنه من فرط معصية الله صار وجهه بلا نور .

ويقول الحق سبحانه : ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦)﴾ [يونس]

أى : أنهم ملازمون للجنة ملازمة الصاحب لصاحبه ، أو «أصحاب الجنة» أى : مَنْ يملكونها ،

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) القَتَرُ : جمع القَتْرَة ، وهى القَبْرَة وفى التهليل : القَتْرَة غبرة يملوها سواد كالدخان ، والقَتَار : ريح القدر ، وقد يكون من الشَّوَاء والعظم المحترق ، وريح اللحم المشوى . وفى حديث جابر ، رضى الله عنه : لا تَوَدُّ جَارَكَ بِقَتَارٍ قَرَّكَ . [اللسان سادة (قتر)] .

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾



وما دام الحق سبحانه قد جاء بمن دعاهم إلى دار السلام وأعطاهم الجنة جزاء للعمل الحسن ، فذكر مقابل الشيء يجعله ألصق بالذهن ، والحق سبحانه هو القائل : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَكُونُوا كَثِيرًا .. ﴾ (٨٢) . [التوبة]

وأيضاً من أمثلة المقابلة^(١) في القرآن قوله الحق : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿ (١٤) [الانفطار]

إذن : فمجيء المقابل للشيء إنما يرسّخه في الذهن ؛ ولأن الحق سبحانه قد تكلم عن الدعوة إلى دار السلام ، ومن دخل هذه الدعوة ؛ فله الجنة خالداً فيها ، لا يرهق وجهه قتر ولا ذلة ، كان لا بد أن يأتي بالمقابل ، وأن يشع رفض الدعوة لدار السلام ، ويحسن الأمر عند من يقبلون الدعوة .

ولا بد - إذن - أن يفرح المؤمن ؛ لأنه لن يكون من أهل النار ، ولا بد أيضاً أن يخرج بعض من الذين ضلّوا عن الغفلة ؛ ليهربوا من مصير النار ، ويتحولوا إلى الإيمان .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ .. ﴾ (٢٧) [يونس]

(١) المقابلة نوع من أنواع المطابقة أو الطابق ، ويقصد بها الجمع بين متضادين في الجملة ، فالمقابلة هي أن يذكر لفظان فأكثر ، ثم اضفادهما على الترتيب . ومن أمثلتها أيضاً قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة : ١٩٧] . انظر : الإتيان في علوم القرآن للسيوطي (٣ / ٢٨٤ - ٢٨٧) .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

○ هـ ٨٧٧ ○

ونحن نعلم أن الكسب إنما يكون في الأمر الفطري ويناسب الطاعات ؛
لأن الطاعة أمر مناسب وملائم للفطرة ، فلا أحد يستحي أن
يصلّي ، أو يتصدق ، أو يصوم ، أو يحج ، لكن من الناس من يستحي
أن يُعرف عنه أنه كاذب ، أو مُرّاب ، أو شارب خمر .

والإنسان حين يرتكب السيئة يمر بتفاعلات متضاربة ؛ فالذي يسرق من
دولاب والده وهو نائم ، تجده يشمل على أطراف أصابعه ويكون حذراً
من أن يرتطم بشيء يفضح أمره ، كذلك الذي ينظر إلى محارم غيره .

كل هذا يدل على أن ارتكاب الشيء المخالف فيه افتعال ، أي : يحتاج
إلى اكتساب ، ولكن الكارثة أن يستمر الإنسان في ارتكاب المعاصي حتى
تصير دُرّة ، ويسهل اعتياده عليها ؛ فيمارس المعصية باحتراف ؛ فتتحول
من اكتساب إلى كسب .

أو أن يصل الفاسق من هؤلاء إلى مرتبة من الاستقرار على الانحلال ؛
فيروى ما يفعله من معاصي وأثام بفخر ، كأن يقول : « لقد سهرنا بالأمس
سهرة تخلب العقل ، وفعلنا كذا وكذا » ، ويروى ذلك ، وكأنه قد كسب
تلك السهرة بما فيها من معاصي وأثام .

ومن رحمة الله سبحانه بالخلق أنه يجازي مرتكب السيئة بسيئة مثلها ،
فيقول سبحانه : ﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةً مِثْلُهَا ﴾ ، وتتجلى أيضاً رحمة الحق سبحانه
وتعالى حين يعطي من لا يرتكب السيئة مرتبة ؛ فيصير ضمن من قال
عنهم الحق سبحانه : ﴿ لَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ لكن الذين لم يهتدوا
منهم من يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أي : لن
يجيرهم أحد عند الله تعالى ، ولن يقول أحد لله سبحانه : لا تعذبهم .

أو أن (لا عاصم لهم) يعنى : أن الله تعالى لن يأمر بعد ذلك بألا يُعذَّبوا .

ولا يقتصر أمرهم على ذلك فقط ، بل يقول الحق سبحانه : ﴿ كَأَنَّمَا
أَغْشَيْتَ وُجُوهَهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾ أى : كأن قطعاً من الليل المظلم قد
غطت وجوههم ، ويكون مأواهم النار ﴿ أَوَلَيْسَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴾ .

هذا هو حال الذين كذبوا بآيات الله تعالى وكذبوا الرسل ، وتأبوا عن
دعوة الله سبحانه وتعالى إلى دار السلام واتبعوا أهواءهم واتخذوا شركاء
من دون الله تعالى .

وشاء الحق سبحانه أن يُجَلِّى لنا ذلك كله فى الدنيا ؛ حتى يكون الكون
كله على بصيرة بما يحدث له فى الآخرة ؛ لأنه نتيجة حتمية لما حدث من
هؤلاء فى الدنيا .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا
مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ
مَا كُنْتُمْ إِلَّا أَنْتَا تَعْبُدُونَ ﴾ ٢٨

والحشر : هو أخذ الناس من أمكنة متعددة إلى مكان واحد ، وسنقذف
هذه الأمكنة المتعددة من فيها من الكفرة ؛ ليصيروا فى المكان الذى شاء
الله سبحانه لهم .

وكلما اقترب الناس من هذا المكان ؛ ازدحموا ، وذلك شأن الدائرة

بمحيطها ، والمحيطات الداخلة فيها إلى أن تلتقى في المركز ، فأنت إذا نظرت إلى محيط واسع في دائرة ، وأخذت بعد ذلك الأفراد من هذا المحيط الواسع ؛ لتلقى بهم في المركز ؛ فلا شك أنك كلما اقتربت من المركز ؛ فالدوائر تضيق ، ويحدث الحشر .

فكاننا سنكون مزدحمين ازدحاماً شديداً ، ولهذا الازدحام مشاعب ، ولكن الناس سيكونون في شغل عنه بما هم فيه من أهوال يوم القيامة ^(١) .

وقوله الحق : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ تفيد الجمع المؤكد لحالات الذين لم يستجيبوا لمنهج الله تعالى ، ولا لدعوة الله سبحانه لهم لدار السلام ، وكذبوا رسلهم ، واتخذوا من دون الله تعالى أنداداً ، فيجمع الله سبحانه الْمُتَّخِذَ أَندَاداً ^(٢) ، وَالْمُتَّخِذَ نَدَاً ، ويواجههم ؛ لشكون الفضيحة تامة وعامة ، بين عابد عبد باطلاً ، ومعبود لم يطلب من عابده أن يعبد ، أو معبود طلب من عابده أن يعبد .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ ۖ ۝ (٢٨) ﴾ [يونس]

وهكذا يتلاقى من عَبَدَ الملائكة مع الملائكة ، ويتلاقى من عَبَدَ رسولاً وجعله إلهاً ، ومن عبد صنماً ، أو عبد شمساً ، أو عبد قمراً ، أو جنّاً

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً » قلت : يا رسول الله ، النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض . قال ﷺ : « يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٥٩) والبيهقي (٦٥٢٧) فهول يوم القيامة هول شديد ، حتى إن الناس يتنون أن ينتهي يوم الحساب حتى ولو كان مصيرهم إلى النار .

(٢) التذ : المثل والنظير ، والجمع أنداد . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ۖ ۝ (٢٨) ﴾ [إبراهيم] أي : أنداداً وأنبهاً . وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يُتَّخَذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ ۝ (٦٠) ﴾ [البقرة] [اللسان : مادة (ندد)] .

أر شيطاناً من شياطين الإنس أو شياطين الجن .

إذن : فالمعبودون متعددون ، وكل معبود من هؤلاء له حكم في ذلك
الحشر ، وستكون المواجهة علنية مكشوفة .

فإذا نظرنا إلى العابد الذي اتخذ إلهاً باطلاً سواء أكان من الملائكة
أو رسولاً أرسل إليهم ؛ ليأخذهم إلى عبادة إله واحد - هو الله سبحانه
وتعالى - ففتنوا في الرسول وعبدوه ، أو عبدوا أشياء لا علم لها بمن
يعبدها : كالأصنام ، والشمس ، والقمر ، والأشجار .

أما المعبود الذي له علم ، وله دعوة إلى أن يعبد غيره ، فهو يتركز في
شياطين الإنس ، وشياطين الجن ، وإبليس .

أما الملائكة فإن الله - سبحانه وتعالى - يواجههم بمن عبدهم ،
فيسألهم : أنتم وعدتم هؤلاء ؛ ليتخذوكم آلهة ، فيقولون : سبحانه أنت
ولينا ، ويتبرأون من هؤلاء الناس ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ إِذْ
تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا .. ﴾ (١٦٦) [البقرة]

والملائكة لا علم لهم بمن اتخذهم آلهة ، وإذا انتقلنا إلى البشر وعلى
قمتهم الرسل عليهم السلام ، فيأتي سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام ،
ويقول الحق سبحانه له : ﴿ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِسْهَيْنِ مِنْ
دُونِ اللَّهِ .. ﴾ (١٦٦) [المائدة]

فيقول سيدنا عيسى عليه السلام ما جاء على لسانه في القرآن
الكریم : ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ
فَقَدْ عَلِمْتَهُ .. ﴾ (١٦٦) [المائدة]

فكان هؤلاء قد عبدوا من لا علم له بهذا التأليه ، ولم يدع إليه .

والأصنام كذلك ليس لها علم بمن ادعى ألوهيتها ، ولكن الذى له علم بتلك الدعوة هو إبليس ، ذلك أنه حينما عز عليه أنه عاص لله ، أغوى آدم ، ثم تاب آدم عليه السلام وقبِل الله سبحانه وتعالى توبته ، أما إبليس فلم يتب عليه الحق سبحانه ؛ لأنه رد حكم المولى - عز وجل - بالسجود لآدم ، واستكبر ، وظن نفسه أعلى مكانة ^(١) . أما آدم عليه السلام فلم يرد الحكم على الله تعالى .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) ﴾ [الأعراف]

ومن ذلك نأخذ مبدأ إيمانياً موجزه أن الذين لا يقدرُونَ على أنفسهم فى إخضاعها لمنهج الله تعالى ، فمن الخير لهم أن يقولوا : إن منهج الله سبحانه هو الصدق ، وحكمه سبحانه هو الحق ، ولكننا لم نستطع أن نخضع أنفسنا للحكم ؛ وبذلك يخرجون من دائرة رد الأمر على الأمر ، ويأمكنهم أن يتوبوا بنية عدم العودة إلى المعصية .

إذن : فالمخاصمة والمحااجة ^(٢) موجهة من إبليس لذرية آدم ، فقد أقسم

(١) عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ؛ اعتزل الشيطان يبكي يقول : يا ويله ، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار أخرجه مسلم فى صحيحه (٨١)

(٢) الحاجة : المغالبة والجدال . والحجة : الدليل والبرهان . وحجته وحاجته : غلبه على حُجته . قال تعالى : ﴿ فَإِنْ سَأَلْتَهُمْ لَقَدْ أُسْمِتَ وَيُحْيِي اللَّهُ ﴾ [٢٠] ﴿ [أن عمران] قال الأزهرى : إنما سميت الحجة حجة ؛ لأنها تتحج ، أى : تُنقص لأن القصد لها وإليها ، وكذلك حجة الطريق هى المقصد والمسلك [اللسان : مادة (حجج)] .

إبليس بعزة الله سبحانه أن يُغوى كل أبناء آدم إلا الذين استخلصهم الله لعبادته سبحانه وتعالى ؛ فقد علم إبليس أنه غير قادر على إغوائهم^(١) .

وهكذا تكون عزة الله سبحانه هي التي تمكّن إبليس - وذريته من الشياطين - من غواية أو عدم غواية خلق الله سبحانه وتعالى .

والشياطين هم الجن الموصّاة ؛ لأننا نعلم أن الجن جنس يقابل جنس نبيّر ، ومن الجن من هو صالح طائع ، ومنهم من هو عاص ، ويُسمى شيطاناً ، ويخدم إبليس في إغواء البشر ، فيتسلط على الإنسان فيما يعلم أنها نقطة ضعف فيه .

فمن يحب المال يدخل الشيطان إليه من ناحية المال ، ومن يحب الجمال يدخل له الشيطان من ناحية الجمال ، ومن يحب الجاه يجد الشيطان وهو يزيّن له الوصول إلى الجاه بأية وسيلة تتنافى مع الأخلاق الكريمة ومنهج الله عز وجل .

وكل إنسان له نقطة ضعف في حياته يعرفها الشيطان ويتسلل منها إليه ، وقد بُجّد إبليس وذريته أناساً من البشر يعملون بهدف إغواء الإنسان لإفساده .

فهناك - إذن - ثلاثة يطلبون أن ينصرف الناس عن منهج الله تعالى ودعوة الحق ؛ وهؤلاء الثلاثة هم : إبليس ، والعاصون من الجن (أى : الشياطين) ، ثم البشر الذين يشاركون إبليس في الإغواء ، وهم شياطين الإنس الذين يعملون أعمالاً تناهض منهج الرسل .

(١) قال سبحانه عن إبليس ﴿ قَالَ قَبِرْتُكَ لِأَعْتَبَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٢٥) ، إِلَّا عَادُكَ مِنْهُمْ السُّخَطَيْنِ (٢٦) ﴿ [ص] ، وهؤلاء السُّخَطَيْنِ هم عباد الرحمن الذين ذكر الله أوصافهم في سورة الفرقان آيات (٦٣ - ٧٤) ، ومن أبى سعيد الخدرى في حديث أن إبليس قال : يا رب عزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم . فقال الله تعالى : وعزى وجلالى ولا أزال أعفر لهم ما استغفرونى أخرجه أحمد في مسنده (٢٩/٣) والحاكم في مستدركه (٢٦١/٤) وصححه وأقره الذهبي .

وهل يكون الخوار - يوم القيامة - بين الملائكة وَمَنْ عَبَدُوهُمْ مِنَ الْبَشَرِ؟
 وهل يكون الخوار بين الأصنام والذين عبدوها دون علمها ؟ وهل يكون
 الخوار بين عيسى عليه السلام ومن اتخذوه إلهاً دون علمه ؟

ها نحن نجد عارفاً بالله يقول على لسان الأصنام :

«عَبَدُونَا وَنَحْنُ أَعْبُدُ لِلَّهِ مِنْ الْقَائِمِينَ بِالْأَسْحَارِ»^(١)

لأن الحق سبحانه هو القائل : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ..
 (٤٤)﴾ [الإسراء]

ويكمل العارف بالله :

«اتَّخَذُوا صُمْتَنَا عَلَيْنَا دَلِيلًا فَعَدَدُونَا لَهُمْ وَقُودَ النَّارِ»

والحق سبحانه هو النازل : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ
 وَالْحِجَارَةُ .. (٢٤)﴾ [البقرة]

ويتابع العارف بالله :

«قَدْ تَجَنَّنُوا جَهْلًا كَمَا تَجَنَّنُوا عَلَى ابْنِ مَرْيَمَ وَالْحَوَارِيِّ»^(٢)

فما موقف الله سبحانه من هؤلاء وأولئك ؟ فنقول :

إِنَّ لِلْمُعَالِي جَزَاءً ، وَالْمُعَالَى فِيهِ تُجْزِيهِ رَحْمَةُ الْغَفَّارِ .

وهكذا وَضَحَ موقف كل من يعبد غير الله سبحانه أو يشرك به ، هؤلاء

(١) الأسحار : جمع السحر وهو آخر الليل قبل الصبح . لسان العرب (مادة سحر) . والقائمون بالأسحار هم المتعبدون المتهجدون بالليل .

(٢) أى : الخواريون وهم أصحاب عيسى عليه السلام وأنصاره ، الذين خلصوا من كل عيب ، كالدقيق الأبيض الذي يقى من اللبأب . (اللسان : مادة حور) .

الذين يشملهم قول الحق سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ (٢٨) ﴿١١﴾

[يونس]

وهكذا يُحْشَر مَنْ عبدوا الأصنام أو الكواكب أو أشركوا بالله ، وكذلك شياطين الجن والإنس ، الجميع سيحشرون في الموقف يوم الحشر ، وليتذكر الجميع في الدنيا أن في الحشر ستُكشَفُ الأمور ويُفْضَح فيه كل إنسان أشرك مع الله غيره ، سبحانه ، وستحدث المواجهة مع مَنْ أشركه بالعبادة مع الله سبحانه دون علم من الملائكة أو الرسل أو الكواكب أو الحجارة بأمر هؤلاء ، ويأتيهم جميعاً أمر الحق سبحانه : ﴿ثُمَّ تَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ﴾ (٢٨) ﴿١٢﴾

وحين تسمع الأمر : «مكانك» فهو يعني : «الزم مكانك» وهي لا تُقال للتحية ، بل تحمل التهديد والوعيد ، وانتظار نتيجة موقف لن يكون في صالح من تُقال له ، ونعرف أن الملائكة ، والرسل ، والكواكب ، والحجارة ليس لها علم بأمر هؤلاء الذين عبدوهم .

إذن : فالذين ينطبق عليهم هذا الأمر هم هؤلاء المشركون الذين ظنوا أن بإمكانهم الإفلات من الحساب ، لكنهم يسمعون الأمر ﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ﴾ ، فهل يعني ذلك أنهم سوف يأتون مع الملائكة ومنْ عُبِدَ من الرسل والكواكب والحجارة في موكب واحد ؟ لا ؛ لأن هؤلاء العبيد اتفقوا على موقف باطل ، وישاء الحق سبحانه أن يفصل بين الحق والباطل .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِبْرَاءَ تَعْبُدُونَ﴾ (٢٨) ﴿١٣﴾

[يونس]

(١) نحشُرهم : نجتمعهم للحساب . ومنه يوم الحُشْرِ . والحُشْر : جمع الناس يوم القيامة . قال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٨) ﴿البقرة﴾ .

(٢) زَيَّلْنَا بينهم : فرقنا بينهم . والتزاييل : التباين . قال تعالى : ﴿لَوْ تَرَىٰ إِلَىٰ نُفُوسِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٢٢) ﴿الفتح﴾ [اللسان : مادة (ز ي ل)] .

أى : جعل من المشركين فريقاً ، وجعل من الذين عُبِدُوا دون علمهم فريقاً آخر ، وأعلن فريقٌ مَن عُبِدُوا دون علمهم : ﴿ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ .. ﴾ (٢٨) ﴿

[يونس]

أى : ما كنتم تعبدوننا بعلمنا .

وانظروا إلى الموقف المخزى لمن عبدوا غير الله سبحانه ، أو أشركوا به ، إن الواحد منهم قد عبد معبوداً دون أن يدري به المعبود ، مع أن الأصل فى العبادة هو التزام العابد بأمر المعبود ، وهذه المسألة تُصَدِّقُ على الملائكة وسيدنا عيسى عليه السلام ، وتصدق أيضاً على الكواكب والأحجار ؛ لأن الحق سبحانه الذى يُنطق أبعاض الإنسان يوم القيامة ؛ لتشهد على صاحبها ، قادر على أن يُنطق الأحجار .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. ﴾ (٢١) ﴿

[الفصل]

وتجد الصنم يوم القيامة وهو يلعن مَن عبده ، تماماً مثلما يتبرأ الجلد من صاحبه إن عصى الله تعالى ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢٤) ﴿

[التور]

ولكن لا تترك عقلك يتخيل كيفية تكلم الصنم ، فأنت آمنت أن جوارح الإنسان من يد ورجل وجلد ستنطق يوم القيامة ، فهل تعقّلت كيف تنطق اليد ، وكيف ينطق الجلد ، وكيف تنطق الرُّجُلُ فى الآخرة ، أنت تؤمن بخير الآخرة فلا تنظر إلى معطيات أمور الآخرة بقوانين الدنيا ؛ لأن كل

شيء يتبدل في الآخرة ، ألم تخبرك السنة أنك ستأكل في الجنة ، ولا تخرج فضلات^(١) ؟

وهذا أمر غير منطقي - بقوانين الدنيا - ولكننا نؤمن به ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يخبرنا بأشياء سوف تحدث في الجنة ، لو قسناها بعقولنا على ما نعرف في الدنيا لو قففت أمامها عاجزة ، لكن القلب المؤمن يعقل أمور القيامة والآخرة على أساس أنها غيب ، والمقاييس تختلف فيها ؛ لأن الإنسان مطروف^(٢) بين السماء والأرض . وللدنيا أرض وسماء ، وللآخرة أيضاً أرض وسماء ؟

والحق سبحانه يقول : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ..﴾
(٢٨) هـ [إبراهيم]

إذن : فكل شيء يتبدل يوم القيامة ، فإذا حدثت أن الأصنام تنطق مستنكرة أن تُعبد من دون الله تعالى ، وأن الملائكة تلعن من عبدوها من دون الله سبحانه ، فلا تتعجب .

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ

لَغَافِلِينَ﴾^(٣)

إذن : فالكائنات التي عُبِدت من دون الله تعالى تلعن رفضها لمسألة عبادتها ، فإذا كان الطير - ممثلاً في الهدهد - قد أعلن من قبل اندهاشه

(١) عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتخبطون . قالوا : فما بال الطعام لا قال : جشاء أورشح كرشع المسك ، يُلَهْمُونَ التَّسْبِيحَ والتَّحْمِيدَ» . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٣٥) ، وأحمد في مستدركه (٣/٣٦٤) .

(٢) أى : أن الإنسان محل لفروق الزمان والمكان ، بين أرض الدنيا وسمائها وأرض الآخرة وسمائها ، تختلف بينهما قوانين الحياة في كل منهما .

سُورَةُ يُوسُفَ

○ ٥٨٨٧ ○

من أن بعضاً من البشر قد عبد غير الله تعالى ^(١) .

واستدل الهدد - على قدرة الحق سبحانه - بما يخصه هو من الرزق ، حيث يعلم أن الحق سبحانه قد علم الخبء في السموات والأرض ، إذا كان الهدد قد عرف ذلك فالاستتكار أمر منطقي من غيره من المخلوقات ، سواء أكانت من الملائكة ، أو من عيسى عليه السلام ، أو من الأصنام والأشجار والكواكب .

ولذلك نجد الحق سبحانه يضرب المثال بسؤاله للملائكة : ﴿ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۖ ﴾ (٤٠) [سبأ]

فيجيب الملائكة يقولهم : ﴿ سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ ﴾ (٤١) [سبأ]

والحق سبحانه وتعالى يعرض هذه المواقف في سور القرآن الكريم عرضاً مشوراً ^(٢) مكرراً بما لا يدع للغفلة أن تصيب الإنسان ، فمثلاً يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ ^(٣) مِّنَ الْإِنْسِ ۖ ﴾ (١٧٨) [الأنعام]

ويتول على السنة من اتخذوا الشياطين أولياء :

﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِّنَ الْإِنْسِ إِنَّا اسْتَمْتَعْنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَنَا ۖ ﴾ (١٧٨) [الأنعام]

(١) وذلك في قصة الهدد مع سليمان : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهِيَ عَرْشٌ عَظِيمٌ (٤٢) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَصْنَانُهُمْ فَصَدَّاهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٤٣) ﴾ [النمل] .

(٢) المنور : الشيء يُلْقَى متفرقاً هنا ومنك كالحب وغيره . [اللسان : مادة نر] .

(٣) أي : أضللتهم منهم كثيراً وأكثرهم من إغوائهم وإضلالهم .

وقولهم هذا يتضمن الحديث عن ذواتهم والحديث عن الجن .

ولسائل أن يسأل : وكيف يأخذ الجن كثيراً من الإنس ؟

ونقول : إن الحق سبحانه قد خلق الجن على هيئة تختلف عن هيئة الإنس ، فجعل للجن خواصاً تختلف عن خواص الإنس ، ومن هذه الخواص ما قال عنه الحق سبحانه : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ^(١) مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ .. (٢٧) ﴾ [الأعراف]

وأعطى الحق سبحانه للجن قوة أكثر مما أعطى للإنس ، وأعطاهم القدرة على النفاذ من السواتر الحديدية والجدران وغيرها ، وهذا أمر منطقي مع أصل تكوين الجن ، فالجن مخلوق من النار ، والإنسان مخلوق من الطين . وهناك اختلاف بين طبيعة كل من النار والطين ، فما يخرج من الطين قار ^(٢) ، أى : لا يشع ، وما يخرج من النار له إشعاع وحرارة .

بمعنى : أنك لو كنت تجلس فى حجرة ، وخلف ظهرك فى الحجرة الأخرى نار موقدة ؛ فالسائر - أيا كان - سوف يحمل لك بعضاً من حرارة النار ، إلا لو كان عازلاً للحرارة .

أما لو كانت هناك تفاحة - وهى مخلوقة من الطين - موجودة فى الحجرة الأخرى ، فلن ينفذ طعمها أو رائحتها إليك .

إذن : فالنار لها قانونها ، والطين له قانونه . وقانون المادة المخلوقة من الطين لا ينتقل إلا إذا نقلت الجرم ^(٣) إلى المكان الذى توجد فيه .

(١) القبيل : الجماعة من الناس يكونون من الثلاثة قصاعداً من قوم شتى ، كالعرب ، والروم ، والفرج ، وقد يكونون من نحو واحد ، وربما كان القبيل من أب واحد كالتبيلة . وكل جيل من الجن والناس قبل قال تعالى : ﴿ أَوْ قَاتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيلاً (٢٦) ﴾ [الإسراء] . [الإنسان : مادة (قبل)] .
(٢) قار : أى : يستقر فى مكانه لا ينتقل منه شيء إلا إذا نقلته أنت . يقال : فلان قار ، أى : ساكن ثابت . [الإنسان : مادة (قور)] .
(٣) الجرم : الجسم . والجمع (الأجرام) .

ونلمح هذه المسألة التقنية في قصة سيدنا سليمان عليه السلام حين علم أن ملكة سبأ تسير في الطريق إليه لتعلن إسلامها ، وأراد سيدنا سليمان عليه السلام أن يأتي لها بعرشها من مكانه قبل أن تصل ،

فقال لمن هو في مجلسه : ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بَعْرَشَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ .. (٢٨)﴾ [النمل]

وهذا يدل على أنه كان في مجلسه أجناس مختلفة ، ولكل جنس منهم قدرات مختلفة عن قدرات الجنس الآخر ، ونقل العرش من اليمن إلى مكان سيدنا سليمان عليه السلام يحتاج إلى زمن وإلى قوة ، فلو أنهم كانوا متساوين في قدراتهم ما قال : ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي .. (٢٨)﴾ [النمل]

فكان أول من تقدم لتنفيذ ما أراه سليمان عفريت من الجن - لا جنأ عادياً ، فمن الجن من هو خائب قليل الذكاء ، ومنهم من هو ذكي ، فهم وإن كانوا من جنس واحد فهم متفاوتون أيضاً ، وكان عفريت الجن هو أول من تكلم ، وقال : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ .. (٣٩)﴾ [النمل]

ولكن مقام سليمان قد يستمر ساعة أو بضع ساعات^(١) ، والتكلم هو عفريت من الجن الذي يعلم أن له صفات أقوى من صفات الإنس . أما الإنس العادي - ممن كان حاضراً مجلس سليمان - فلم يتكلم ؛ لأن المطلوب ليس في قدرته ، أما الذي تكلم من الإنس فهو مَنْ عنده علم من الكتاب ، فقال : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠)﴾ [النمل]

ولم يأخذ الأمر شيئاً من الزمن ؛ لذلك عبّر القرآن التعبير السريع بعد ذلك ، فقال : ﴿فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي .. (٤١)﴾ [النمل]

(١) كان سليمان عليه السلام يجلس للقضاء بين الناس في مطالعهم من أول النهار إلى أن تروق الشمس .

(٢) الطرف : طرف العين ، وهو أيضاً إطباق الجفن على الجفن . (اللسان : مادة طرف) .

إذن : فللجن قوة على أشياء لا يقوى عليها الإنسان ^(١) ، ولم يأخذ الجنى خواصه في الخفة والقدرة ومهارة اختزال الزمن بذات تكوينه ، ولكن بإرادة المكون سبحانه ؛ ولذلك شاء الحق أن يذكر الجن أنهم قد أخذوا تلك الخصوصيات بمشيئته سبحانه ، والحق هو القادر على أن يجعل الإنسان وهو الأدنى قدرة ، قادراً على تسخير الجن ؛ ولذلك يحاول الإنسان أن يأخذ من تسخير الجن قوة له فيقوى على نظيره من الإنسان .

ولكن الحق سبحانه أصدر الحكم على من يحاول ذلك بأن تسخير الجن يزيد رَهَقاً ^(٢) .

واقراءوا قول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّبِعُوا مَا نَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ ۝ (١٧٠) ﴾

[البقرة]

إذن : فتعليم الجن السحر للإنسان دليل على تفوق قدرات الجن وتميزها عن قدرات الإنسان .

(١) يقول الإمام : إن للجن قوة بحسب تكوينه التاري تفوق قوة الإنسان ، ثم يفيض علينا أن الإنسان بمنهج الله له قوة مدوية من الله إذا عايش المنهج ، وفهم أسرار الكتاب ، يتجلى ذلك في أن الشيطان قال لسليمان : ﴿ قَالَ عَفَرْتُكَ مِنَ الْجِنِّ أَنَا أَتَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۝ (٤٠) ﴾ قال الذي عبده علم من الكتاب أنا أتيتك به قبل أن يرتد إليك ظرْفُكَ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَتَرَى الْشَّكْرُ أَمْ أَكْفَرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَكُفِّرْ كَفْسَهُ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ۝ (٤١) ﴾ [النمل] إذن : الواصل بالله أقوى من الكل ، هذا من حيث العطاء الإلهي ، أما من حيث التكوين فالإنسان من طين ، والطين ليس كالنار .

(٢) وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝ (٦٠) ﴾ [الجن] أي : ذلة وضعفاً . قال السدي : كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فيزولها فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن أن أضرب أنا فيه أو مالي أو ولدي أو ماشيتي . ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٢٨)

ولكن الملكين هاروت وماروت^(١) حينما علّمَا الإنسان السحر حذّراه أولاً من أن يأخذ من ذلك فرصة زائدة تطفيه على بني جنسه ويظلم بها ، إنما الأمر كله اختبار ، فإن تعلّمته فذلك لتقى نفسك من الشر لا لتوقعه بغيرك ، ثم إنك - أيها الإنسان - من الأغبيار قد تضمن نفسك وقت التحصّل ، ولكن ماذا عن وقت الأداء ؟

مثلاً يأتي لك إنسان ليُردعَ عنك ألفاً من الجنيّهات كأمانة ، ولكن أتظل على الأمانة ، أم أنك قد تنكر المال أصلاً حين يطالبك به صاحبه ، أو قد تترك أمانة مالية فتصرف بهذا المال ؟

ولذلك تبحر الذكي هو مَنْ يقول لمودع هذا المال : «احفظ عليك مالك ، لأنني من الأغبيار» .

وتلك هي القضية الإيمانية الأصيلة في الكون كله ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب)

والأمانة هي ما يكون في ذمة المؤمن ، ولا حجة للمؤمن عنده إلا ذمته ، ولا شهود عليه ، ولا يوجد إيصال بتلك الأمانة ، بل هي وديعة لا توثق فيها ؛ إلا ذمة المؤمن ؛ قد يقرُّ بها ، وقد ينكرها .

(١) هاروت وماروت ملكان من السماء ، أنزل إلى الأرض ، وقيل إنهما لم تعجبهما أحكام بني آدم في العباد ، فأهبطا ليحكما بين الناس ، وكانا يعلمان الناس السحر ، فأخذ عليهما أن لا يعلمان أحداً حتى يقولوا : إنما نحن فتنة فلا تكفر .

(٢) اختلف العلماء في تفسير الأمانة في الآية ، ولكن أجمع قول فيها أنها الطاعة بالاختيار ، قال ابن عباس : هي الطاعة عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يعطنها ، فقال لآدم : إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يعطنها فهل أنت أخذ بما فيها ؟ قال : يا رب وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . فأخذها آدم فتحملها . انظر ابن كثير في تفسيره (٣/٥٢٢)

وعلى ذلك فحقُّ المؤمن عند المؤمن خاضعٌ لخيار المؤمن ؛ ولذلك وجدنا السماء والأرض والجبال قالت : يا رب لا نريد أن ندخل أنفسنا في هذه التجربة ، افعل بنا ما شئت واجعلنا مقهورين ولا اختيار لنا ، ولا نريد تحمُّل الأمانة .

أما الإنسان فقد ميَّزه الله بالعقل ، وقدرة الاختيار بين البدائل ؛ لذلك قبلَ الإنسان حمْل الأمانة ، وحين جاء وقت الأداء لم يجد نفسه أميناً على الأشياء مثلما ظنَّ في نفسه وقت التحمُّل .

وكذلك الذين يتعلمون السحر ، يقول الواحد منهم لنفسه : سوف أتعلمه لأدفع الضرَّ عن نفسي ، ونقول له : أنت لا تضمن نفسك ؛ لأنك من الأغيار ، فقد يخضبك أو يثير أعصابك إنسان ؛ فتستخدم السحر فتصيب نفسك بالرهق .

إذن : فحين قال الله سبحانه : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنِّي الْإِنْسِ .. (١٢٨) ﴾ [الأنعام]

أى : أخذتم من الإنس كثيراً بأن أعطيتموهم سلاحاً يحقق لهم فرصة وقوة على غيرهم من البشر .

وقد ذكر الحق - سبحانه وتعالى - لنا أن بعض البشر الذين استجابوا للجن قالوا : ﴿ اسْتَمْتَع بَعْضُنَا بِبَعْضٍ .. (١٢٨) ﴾ [الأنعام]

واستماع الإنس بالجن مصدره أن الإنس يأخذ قوة فوق غيره من البشر ، واستماع الجن بالإنس مصدره أنه سوف يُعين هذا الإنسان على معصيته ؛ تطبيقاً لقسم إبليس اللعين : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ ^(١) أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٤) [ص]

(١) الإغواء : الإضلال . قال تعالى : ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُم بِمَا كُنتُمْ عَادِينَ ﴾ [الصافات .] [اللسان : مادة غوى] .

سُورَةُ يُنُسُ

٥٨٩٣

ولكن هذا الاستمتاع فى النهاية لا يعطى أمراً زائداً عن المقدور لكل جنس ؛ ولذلك تجد أن كل مَنْ يعمل بالسحر وتسخير الجن إنما يعانى ؛ مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ فَرَاذُوهُمْ رَهَقًا ۖ ﴾ (٦) [الجن]

وأنت تجد رزق الذى يقوم بالسحر أو تسخير الجن يأتى من يد مَنْ لا يعلم السحر ، ولو كان فى تعلّم ذلك ميزة فوق البشر ؛ لجعل رزقه من مصدر آخر غير مَنْ لا يعلمون السحر أو تسخير الجن .

وأنت حين ترى الواحد من هؤلاء ، تجد على ملامحه غَبَرَةً ، وفى ذريته آفة أو عيباً ، فمنهم مَنْ هو أعور أو أكتع^(١) أو أعرج ؛ لأنه أراد أن يأخذ فرصة فى الحياة أكثر من غيره من البشر ؛ بواسطة الجن ، وهذه الفرصة تزيده رَهَقًا ؛ ولذلك فليلزم كل إنسان أدبه وقدره الذى شاء الله - سبحانه وتعالى - له ؛ فلا يفكر فى أخذ فرصة تزيد من رَهَقه .

ونحن نرى فى البشر مَنْ يستخدم صاحب القوة الجسدية أو قدرة تصويب السلاح ؛ ليُرهب غيره ، وقد ينجح فى ذلك مرة أو أكثر ، ثم ينقلب هذا (الفتوة) أو ذلك الفاتل المأجور على مَنْ استأجره .

إذن : فلا بد أن يحترم كل إنسان قَدَرَ الله - سبحانه وتعالى - فى نفسه ، وألا يأخذ فرصة من جنس آخر ؛ يظن أنها تزيده فى دنياه شيئاً ، لكنها فى الواقع ستزيده تعباً وتزيده رَهَقًا .

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - يقول عنهم : ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَلْتَ لَنَا قَالِ النَّارُ مُثَوَّكُمُ ۚ ﴾ (٧٨) [الأنعام]

(١) الأكتع : مَنْ رجعت أصابعه إلى كَفِّه ، وظهرت مفاصل أصول أصابعه . و«أكتع» بمعنى «فى التوكيد إتباعاً» ، فيقال : جاء الجيش أجمع أكتعاً [المعجم الوسيط : مادة (كتع)] .

(٢) الثرى : مكان الإقامة والاستقرار . والجمع : الثاوى . قال تعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَفِى الثَّالِثِينَ

(٣) ﴿ آل عمران ﴾ [اللسان : مادة (ثوى)] .

وهكذا نرى أن مصير الاستمتاع بقوة الجن هو النار للإنس الذي استخدم الجن ، وللجن الذي أغوى الإنس .

ثم يعرض لنا الحق - سبحانه وتعالى - قضية أخرى في هذه المسألة :
 فيقول سبحانه : ﴿ الْاٰخِلَاءُ ﴾ ^(١) يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ اِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ [الزخرف]

والأخلاء : هم الجماعة التي يجمع أفرادها صفة ومودة ، ويتخلل كل منهم حياة الآخر . وأنت تجد الناس صنفين :

أناساً اتخذوا الخُلَّةَ ^(٢) في الله تعالى ، فيذهبون إلى المساجد ، ويستذكرون العلم ، ولا يأكلون إلا من حلال ، ويقرأون القرآن ، وإن هم واحد منهم بمعصية وجد من صديقه ما يرده عن المعصية ، ويحجّون إلى بيت الله الحرام ، ويحتمرون ، وتدور حياتهم في إطار حديث المصطفى ﷺ : «رجلان تحابا في الله اجتماعا عليه وتفرقا عليه» ^(٣) وهذا لون من الخُلَّة .

واللون الآخر يضم أناساً يساعد بعضهم البعض على المعصية ، ويشربون الخمر ، ويلعبون الميسر ، ويفعلون كل المعاصي ، فإذا جاء يوم القيامة يتقابلون حكم الله تعالى : ﴿ لَا يَتَّبِعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ .. ﴾ ^(٤) [البقرة]

فلا خُلَّةَ إلا خُلَّةَ اللقاء في الله تعالى ، فإذا التقي الأخلاء في الله تعالى فرحوا ببعضهم ؛ لأن كلاً منهم حمى أخاه من معصية ، أما من كانوا

(١) الأخلاء : جمع (خليل) وهو الصديق . قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ اللهُ اِبْرٰهِيْمَ خَلِيْلًا .. ﴾ [النساء] .
 وقال تعالى - حكاية عن الكافرين يوم القيامة : ﴿ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ اَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيْلًا ﴾ [الفرقان] .
 [الناس : مادة (خ ل ل)] .

(٢) الخُلَّةُ : الصداقة والمحبة . والخل : النوة والصديق . [الناس : مادة (خ ل ل)] .
 (٣) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : تسبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب تشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتماعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم بيته ما تفق شماله ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٣١) والبخاري في صحيحه (٦٦٠) .

يجتمعون في الدنيا على المعصية ، فكل منهم يلعن الآخر ، ويصدق حكم الله سبحانه وتعالى : ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢٧) [الزخرف]

ولذلك نجد الحوار بين الذين استضعفوا والذين استكبروا ، ونجد الحق سبحانه وتعالى يأتي لنا بهذا الحوار في القرآن : ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ .. ﴾ (٢٨) [إبراهيم]

فيرد الآخرون : ﴿ تَوَهَّدْنَا اللَّهَ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا ^(٢٩) أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْصٍ ^(٣٠) .. ﴾ (٢٩) [إبراهيم]

وبعد ذلك يأتي اعتراف الشيطان الذي يقول عنه الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ^(٣١) إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْزِمُونِي وَتُؤْمِرُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي ^(٣٢) .. ﴾ (٣٢) [إبراهيم]

(١) اجزء : تقيض الصبر . قال تعالى عن الإنسان : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ (٥٥) [المعارج] [اللسان : مادة (جزع)]

(٢) تحيص : تهريب . قال تعالى : ﴿ وَأُولَئِكَ مَاؤَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ (٥٤) [النساء] [اللسان : مادة (حيص)]

(٣) السلطان : سلطان القهر في قهرهم على اتباعه . ويطلق السلطان أيضاً على الحجة والبرهان . يقول تعالى عن سليمان وهو يهزم الهمدود : ﴿ وَأَعَدَّيْنَاهُ حِذَابًا مَهِيدًا أَوْ لَأَخْبِتَهُ أَوْ لَأَكْبِتُنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ (٤٦) [النمل]

(٤) مصرخكم : مغيثكم . والمصريح : المنيث . وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ .. ﴾ (٥٤) [القصص] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ لُنَا نَصْرُهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (٥٥) [يس] [اللسان : مادة (صرخ)]

وهذا الحوار هو الذي يكشف لنا ما سوف يحدث يوم القيامة ، ونجد الحق سبحانه يقول :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ۖ ﴾ (١٦)

[الحشر]

هذه كلها لقطات من مشاهد يوم القيامة ، جاءت في حوارنا ونحن نتناول قول الحق سبحانه : ﴿ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ (٢٩)

[يونس]

هكذا يعلن كل مَنْ عُبِدَ من الملائكة أو الرسل أو الأصنام ، وبذلك تتم فضيحة الذين عبدوهم من دون الله سبحانه ويأخذون طريقهم إلى النار .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول : ﴿ احْشَرُوا ۚ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٢٢)

[الصافات]

ولنتبّه هنا إلى أن الأزواج متقدمون في الإغواء والتوجيه إلى الشر ، قبل الأعداء ؛ لأن الزوج أو الزوجة قد يكون هو الشيطان الملازم الذي يهتدي الانحراف إلى ما يريد .^(١)

ونجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ (٢١)

[الصافات]

ومثلها مثل قوله سبحانه : ﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ تفهم من ذلك أنهم كانوا معاً في الدنيا وهي دار الاختيار ، وهم الآن في دار جيرية الاقتدار ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

(١) احشروا : اجمعوا . والحشر : جمع الحلائق يوم القيامة للحساب ، [اللسان : مادة (حشر)] .

(٢) يقول سبحانه وتعالى : ﴿ يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ آبَائِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ ثُمَّ عَذَرُوا لَكُمْ فَأَخَذُوهُمْ ۖ ﴾ (١٥) [التغابن] .

﴿وَقَفَّوهُمْ اِنْهُمْ مُسْتَقْبِلُونَ﴾ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَحْصُرُونَ ﴿٢٥﴾ يَلْ هُمْ الْيَوْمَ
مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَاَقْبِلْ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا اِنْكُمْ كُنْتُمْ
تَأْتِرْتَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ [الصافات]

أى : كنتم تستعملون قوتكم ؛ لتجعلونا نتبعكم ، فلا يظن ظان أنها قوة
البطش فقط ، أو قوة التذليل ، بل المقصود بذلك أى قوة ، حتى وإن كانت
قوة الإغواء :

إذن : فالمواقف مفضوحة ، وهذا لون ومقدمة من ألوان العذاب ؛ ليبين
الله - سبحانه وتعالى - صدقه فى قوله : ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ
عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧) [الزخرف]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليبين لنا كيف يختار الإنسان خليله فى
الدنيا ، فلا يختار الخليل الذى يزين الخطأ والمعصية ، بل يختار الذى يعينه
على الطاعة .

ويذكر الحق سبحانه موقفاً من مواقف يوم القيامة فيقول سبحانه :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرَنَا الَّذِينَ أضَلُّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ (٢٩) نجعلهما
نَحْتِ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٣٠﴾ [فصلت]

هكذا يكون حال الذين ضلُّوا يوم القيامة ، يتبرأون عن أوقفهم هذا الموقف
بل يطلبون من أضلهم لإيقاع العذاب بهم بأنفسهم ؛ لذلك يقول الحق

(١) عن ابن هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «لو أن رجلين تحابيا فى الله ، أحدهما بالشرقى ، والآخر
بالغرب لجمع الله تعالى بينهما يوم القيامة يقول : هذا الذى أحببته فى ذكره ابن كثير فى تفسيره
(١٣٤ / ٤) وعزاء للمحافظ ابن عساكر .

(٢) عن عبد بن أبى طالب أن ﴿الَّذِينَ أضَلُّنَا ..﴾ (٣٠) [فصلت] فى الآية المقصود بهما : إبليس أول من
عصى الله جسوداً لآسره ، وابن آدم الذى قتل أخاه فكان أول من سن ارتكاب الكبائر والمعاصى فى
الأرض ، ذكره ابن كثير فى تفسيره (٩٨ / ٤) .

سبحانه في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا^(١) عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ^(٢)﴾ [يونس]

هكذا يتبرأ الملائكة والرسول الذي عُبدَ ، وحتى الأصنام ، من الذين عبدوهم في الدنيا .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :^(٣)

﴿هَٰذَا لِكَيْ تَبْلُغَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ^(٤) وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ^(٥)﴾

وقول الحق سبحانه : ﴿هَٰذَا لِكَيْ تَبْلُغَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ يعني : في هذا الوقت ، أو في هذا المكان . والزمان والمكان هما ظرفا الحدث ؛ لأن كل فعل يلزم له زمان ومكان ، فإن كان الزمان هو الغالب ، فيأتي ظرف الزمان ، وإذا كان المكان هو الغالب فيأتي ظرف المكان .

وجاءت ﴿هَٰذَا لِكَيْ تَبْلُغَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ أيضاً في قصة سيدنا زكريا عليه السلام ، إذ يقول الحق سبحانه : ﴿هَٰذَا لِكَيْ تَبْلُغَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ^(٦)﴾ [آل عمران]

أي : في ذلك الوقت الذي قالت فيه مريم - رضى الله عنها - قوله أدت بها قضية اعتقادية إيمانية لكفيلها ، وهو سيدنا زكريا عليه السلام وهو الذي يأتي لها بالطعام ، وشاء لها الحق - سبحانه وتعالى - أن تعلمه هي . يقول

(١) إِنْ كُنَّا : أى : ما كنا . فإِنَّ هَٰذَا لِلنَّاسِ ، وتدخّل على الجملة الأسمية نحو قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ لَآلِي غُرُورٍ^(٢)﴾ [الملك] وتدخّل على الجملة الفعلية نحو قوله تعالى : ﴿إِنْ أَرَادَا إِلَّا الْهَيْسَتَى^(٣)﴾ [التوبة] .

(٢) ﴿تَبْلُغَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ^(٤)﴾ [يونس] : تدلّ على جزاء ما عملت وقدمت . وقيل : تخبر . وقيل : تنبئ ، أى : تنبئ كل نفس ما قدمت في الدنيا . وقرا حمزة والكسائي «تبلو» أى : تقرأ كل نفس كتابها الذي كتب عليها . [تفسير القرطبي ٤/ ٢٢٦١ وابن كثير ٢/ ٤١٦] .

سبحانه: ﴿كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا .. (٢٧)﴾

[آل عمران]

والرزق ما به انتفع ، وكان زكريا - عليه السلام - يكفلها بكل شيء
تحتاجه ، لكنه فرجى بوجوه رزق لم يأت هربه ؛ يدلل أنه قال :
﴿أُنِّي لَكَ هَذَا... (٢٧)﴾ [آل عمران]

وهذه ملحظة ويقظة الكفيل حين يجد مكفوله يتمتع بما لم يأت به .
وهذه هي قضية «من أين لك هذا ؟» ، وهي قضية الكفيل العام للمجتمع
حين يرى واحداً يتمتع بما لا تؤهله له حركته في الحياة ، وبذلك يُكتشف
مختلس الانتفاع بما يخص الغير دون أن يعرف كافله ، ولو أن كافله أصروا
على معرفة من أين تأتي مصادر دخله ؛ لَحُمِيَ المجتمع من الفساد .

وانظر إلى جواب مريم عليها السلام على قول زكريا عليه السلام الذي
ذكره رب العزة سبحانه: ﴿أُنِّي لَكَ هَذَا... (٢٧)﴾ [آل عمران]

قالت مريم: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ... (٢٧)﴾ [آل عمران]

ثم تعلل الجواب: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)﴾

[آل عمران]

قالت ذلك ؛ لأنه وجد عندها أشياء لا توجد في مثل هذا الوقت من

(١) أُنِّي لك هذا؟ كيف إذن أين لك هذا؟

(٢) لله في عطائه رزق بحساب ، ورزق بغير حساب ، فرزق الحساب يقدر ما تقدمه من خير وعمل
صالح ، يُقاس المعطاء بقياس العدل الإلهي . أما الرزق الذي بغير حساب فهو رزق الذين وهبوا
كلياتهم إلى الكل المطلق ﴿قُلْ إِنْ صَلَاحِي وَنُصْحِي وَنُصْحِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢٢٢)﴾ [الأنعام] .
إذن : تكون الرزق هنا بلا حظ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿يَتَنَزَّلُ الْمَلَكُ الْكَافِرُ الْغَايَةِ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ
آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا فُرُوقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٢٢)﴾ [البقرة] لأن الإمام العارف
قال : من دخل على الله بحساب أعطاه بحساب ، ومن دخل عليه بغير حساب أعطاه بغير حساب .

السنة ، فعجب سيدنا زكريا عليه السلام - إذن - كان من أمرين اثنين :
 شيء لم يأت هو به ، وشيء مخالف للفترة التي هو فيها ، كأن وجد
 عندها عنياً في زمن غير أوانه ، أو وجد يرتقلاً في غير أوانه ^(١) ، وسؤاله
 كان دليل يقظة الكفيل ، وإجابتها كانت قضية إيمانية عقدية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ
 مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٧) [آل عمران]

وما دام ﴿مَنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ - سبحانه وتعالى - ما طرح حسابك أنت
 للأشياء في ضوء هذه القضية.

ولكن هل غفل سيدنا زكريا - عليه السلام - عن قضية الإيمان بأن الله
 تعالى يرزق مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ؟

فنقول : لا ، لم يغفل عنها ، ولكنها لم تكن في بؤرة شعوره حينئذ ؛
 فجاءت بها قولة السيدة مريم لتذكر بهذه القضية ، وهنا تذكر زكريا نفسه ،
 كرجل بلغ من الكبر عتياً ^(٢) ، وامراته عاقر ، وما دام الله سبحانه يرزق من
 يشاء بغير حساب ، فليس من الضروري أن يكون شاباً أو تكون زوجته
 صغيرة لينجب ، فجاء الحق معبراً عن خاطر زكريا في قوله :

﴿هَٰذَا نَذَارٌ لَّكَ مِنْ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ بِعَيْنِنَا ۚ لَمَّا خَلَّيْنَاكَ مِنْ أُمِّكَ وَكَرَّمْنَاكَ وَأَخْلَصْنَاكَ مِنَ الْإِنسَانِ ۖ فَذَكَرْنَاكَ مِنْ نَحْنُ وَكَرَّمْنَاكَ مِنْ نَحْنُ ۚ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٨) [آل عمران]

أى : في هذا الرقت أو ذلك المكان ، أو في الاثنين معاً زماناً ومكاناً ،
 وهنا جاءته الإجابة من ربه سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَقَدْ
 خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ (٢٩) [مريم]

(١) ﴿كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ مِنْهَا وَهْنًا وَزُقِيَ﴾ (٣١) [آل عمران] قال مجاهد وعكرمة
 وآخرون : معنى : وجد عندها فأكهة النصف في الشتاء ، وفأكهة الشتاء في الصيف . وهذا فيه دلالة
 على كرامات الأولياء [تفسير ابن كثير : ١ / ٣٦٠].
 (٢) عتاً الشيخ عتياً وعتياً : كبر وأسن . [اللسان : مادة (عش)].

وقد جاء الحق سبحانه بهذه القضية ليمنع أى ظاناً من أن يسوء الظن بعفة مريم عليها السلام ؛ لأنها فى موقف اللجوء فأنطقها الحق بقوله : ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٧) [آل عمران]

وما دام الرزق بغير حساب وفى غير وقته وغير مكانه وبلا سبب وبغير علم كافلها ، فعند ذلك تحقق اللجوء إلى الله بالقبول الحسن الذى دعت به امرأة عمران :

﴿وَأَنى أَعِذُّهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٢٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ (٢٧) وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا (٢٧)﴾ [آل عمران]

ويطبقها زكريا عليه السلام على نفسه ، ثم تتعرض هى لها ، حين يشرها الحق سبحانه بغلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم - عليهما السلام .

فهى ستلد من غير أن يمسه ذكر ، وهى تعلم أن الأسباب جارية فى أنه لا يوجد تناسل إلا بوجود ذكر وأنثى ، وشاء الحق سبحانه أن يقدر لها أن تلد دون هذه العملية ، فجاء سبحانه بذلك المقدمة على لسانها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٧) [آل عمران]

وحين تساءلت : ﴿رَبِّ أَنى يَكُونُ لى وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِى بَشَرٌ (٢٨)﴾ [آل عمران]

جاءتها الإجابة بأن اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُخَوِّدُ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمَ الْمَسِيحِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ (٢٥)﴾ [آل عمران]

فيفظتها الإيمانية فطنت إلى أن هذا الطفل سينسب إلى أمه ؛ فعرفت أن

(١) تقبل الشيء وقبوله دليل على أحد الشيء برضا ، فانت قد تأخذ بكثرة أو على مضض ، أما أن تقبل فذلك يعنى الأخذ بقبول ورضا ، أما القبول الحسن فهو زيادة فى الرضا .

أياه ملغى ؛ وأدركت أن هذا الولد لن يأتي نتيجة زواج ولو فيما بعد ، وبذلك كان عليها أن تعود إلى القضية الإيمانية التي ذكرتها : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٧) ﴿آل عمران﴾

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه : ﴿هَٰذَا لِكُلِّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ..﴾ (٢٨) ﴿يونس﴾

أي : في ذلك الوقت تُخبر كل نفس ، وترى هل الجزاء طيب أم لا ؟ فإن كانت قد عملت الشر ؛ فستجد الجزاء شراً .

إذن : فالإنسان وقت النتائج يختبر نفسه بما كان منه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ^(١) الْحَقَّ ..﴾ (٢٩) ﴿يونس﴾

وكانهم كانوا في الدنيا عند مولى آخر غير الإله الحق سبحانه ، والمولى غير الحق هو الشريك أو الشركاء الذين اتخذهم بعض الناس موالى لهم ، وهنا في اليوم الآخر يُردُّون إلى الإله الحق والمولى الحق سبحانه .

وكلمة «رُدُّوا إلى كذا» لا تدل على أنهم كانوا مع الضد ، وجاءوا له ، بل تدل على أنهم كانوا معه أولاً ، ثم ذهبوا إلى الضد ، ثم رُدُّوا إليه ثانياً ، مثل قول الحق سبحانه عن موسى عليه السلام :

﴿وَرَدَّدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ ..﴾ (٣٠) ﴿القصص﴾

فدلت على أنه كان مع أمه ، ثم فارقتها ، ثم رُدَّ إليها .

وقول الحق سبحانه هنا : ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ^(٢) الْحَقَّ ..﴾ (٣١) ﴿يونس﴾

(١) المولى : النصير والمولى الذي يلي عليك أمرك ، ولا يليك إلا من هو قريب منك ، وهو الناصر والمعين الذي تنزع إليه في شداتك .

(٢) قال تعالى هنا : ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ ..﴾ (٣١) ﴿يونس﴾ فأنبت أن الله هو مولاهم الحق ، وقال في آية أخرى : ﴿وَإِنَّ الْكَافِرِينَ لَآ مَوْلَىٰ لَهُمْ ..﴾ (٣٢) ﴿محمد﴾ . فهو سبحانه ليس مولى لهم في النصرة والمعونة ، بل هو مولى لهم في الرزق وإدراك النعم .

أى: أنهم كانوا مع الله أولاً ، ثم أخذهم الشركاء ، وفى هذا اليوم الآخر يرجعون لربهم سبحانه.

والإنسان يكون مع ربه أولاً بالفطرة التكوينية المؤمنة ، ثم يتجه به أبواه إلى المجوسية أو أى ديانة أخرى تحمل الشرك بالله تعالى^(١) ، وهم فى ظل تلك الديانات المشركة ، كانوا عند مولى وسيد وأمر ومشرع ، لكنه مولى غير حق ؛ لأن الحق هو الثابت الذى لا تدركه الأعيان.

﴿هَٰئِلًا تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ﴾ (٣٠) [يونس]

أى: عرفت كل نفس ما فعلت ، ويُعرف كل إنسان بفضيخته فى جزئيات ذاته ، وكذلك الفضيحة العامة لكل إنسان أشرك بالله سبحانه.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْتُرُونَ﴾ (٣١) [يونس]

أى: أن الآلهة التى عبدوها لا تتعرف إلى أمكتهم ومواقعهم ، وأنهم فى خطر ؛ فتأخذ بأيديهم ؛ لأن هذه الآلهة لا علم لها بهم ، ولو أن هذه الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله - سبحانه - على شئ من الحق ؛ ووجدوهم فى مأزق ؛ لكان يجب أن يدافعوا عنهم ، لكنهم لم يعرفوا أمكتهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْتُرُونَ﴾ (٣٢) [يونس]

أى: ما كانوا يكذبونه كذباً متعمداً.

وبعد أن كشف - سبحانه - المسألة وما سوف يحدث فى الآخرة ،

(١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم قال ﷺ «فطهرت الله أنى ظهر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم» (٣٢) [الروم] . متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٧٥) ومسلم (٢٦٥٨).

وخوفهم ويشع لهم ما سوف ينتظرهم من مصير إن ظلوا على الكفر ؛
لعلهم يرددعون^(١) ، ويتذكرون ضرورة العودة إلى عبادة الإله الحق
سبحانه ، يأتي الحق سبحانه وتعالى بما يعيد إليهم رشد الإيمان في
نفوسهم ، فيقول :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ
السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ
أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٢٦)

أى : أن الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ : اسألهم هذا السؤال ،
ولا يسأل هذا السؤال إلا مَنْ يثق في أن المسئول لو أدار في ذهنه كل
الأجوبة ، فلن يجد جواباً غير ما عند السائل .

ومثال ذلك من حياتنا - والله المثل الأعلى - إن جاء لك من يقول : أبى
يهملنى ، فتمسك به ، وتسأله : من جاء لك بهذه الملابس وذلك القلم
ويطعمك ويعلمك ؟ سيقول لك : أبى .

وأنت لا تسأله هذا السؤال إلا وأنت واثق أنه لو أدار كل الأجوبة فلن
يجد جواباً إلا الذى تتوقعه منه ، فليس عنده إجابة أخرى ؛ لأنك لو كنت
تعرف أنه سوف يجيبك إجابة مختلفة لما سألته فكانك ارتضيت حكمه هو
في المسألة .

(١) الارتداد الكف من الشيء . وترادع انقوم : رجع بعضهم بعضاً ، فزجروهم وكفواهم عن المعاصي
وايذاء الناس [وانظر : لسان العرب - مادة ردع] .

(٢) في الآية مطلق الفطرة يأتوحيد ، فالكافر إذا شغل عن خلق الكون ، وعن تدبير الأمر ، وعن عجائب
الآيات لا يجد جواباً إلا أن يقول بدافع الفطرة : الخالق هو الله ، والمدير هو الله .

والحق سبحانه وتعالى قال في بداية هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ﴾ كما أنزل عليه مثيلاتها مما بدأ بقوله سبحانه: ﴿قُلْ﴾ مثل قوله سبحانه:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١)

[الصمد]

وهذا ما اقتضاه خطاب الحق سبحانه دائماً للخلق، ويختلف عن خطاب الخلق للخلق، فحين تقول لابنك: «اذهب إلى عمك»، وقُلْ له كذا. فالابن يذهب إلى العم ويقول له منطوق رسالة الأب، دون أن يقول له: «قُلْ»، أما خطاب الحق سبحانه للخلق، فقد شاء سبحانه أن يبلغنا به رسوله ﷺ كما نزل ﴿قُلْ﴾ فالرسول ﷺ أمين في البلاغ عن الله تعالى، لا يترك كلمة واحدة من الوحي دون أن يبلغها للبشر، وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذي أمره، فهو يبلغ ما أمر، حتى لا يحرم آذان خلق الله تعالى من كل لفظ صدر عن الله سبحانه.

وكذلك أمر الحق - سبحانه - هنا لرسوله ﷺ بأن يقول: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (٢)

[يونس]

ونحن نعلم أن الرزق هو ما يتففع به، والانتفاع الأول مقوم حياة، والثاني ترف أو كماليات حياة، والرزق الذي هو أصل الحياة هو ماء ينزل من السماء، ونبات يخرج من الأرض^(١).

وهكذا قال الحق سبحانه السؤال والإجابة معروفة مقدماً، فلم يقل لرسوله ﷺ: «أجب أنت» بل ترك لهم أن يجيبوا بأنفسهم.

وكذلك جاء الحق سبحانه يسؤال آخر: ﴿أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (٣)

[يونس]

(١) وهذا الرزق هو ما ذكره رب العزة في قوله تعالى: ﴿لِيَنْظُرَ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٢) أَمْ سَيَبْقَى الْمَاءُ مَبْ (٢٣) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٤) فَأَنبَتْنَا فِيهَا سَبًّا (٢٥) وَهَبْنَا وَقْصًا (٢٦) وَوَعَدْنَا نَحْلًا (٢٧) وَوَعَدْنَا قَلْبًا (٢٨) وَفَاكِهِةً (٢٩) وَأَنبَا (٣٠) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنفُسِكُمْ (٣١) ﴿[عبس].

والسمع والبصر هما السيدان للملكات الإدراك ؛ لأن إدراك المعلومات ^(١) له وسائل متعددة ، إن أردتَ أن تدرك رائحة ؛ فبأنفك ، وإن أردتَ أن تدرك نعومة ؛ فبلمسك وببشرك ، وإن أردتَ أن تدرك مذاق شيء فبلسانك ، وإن أردتَ أن تتكلم فبأجهزة الكلام وعمدتها اللسان ، وإن أردتَ أن تسمع فبأذنك .

وكذلك تتجلى لك المراتى ^(٢) بعينيك ، ثم تأتى إدراكات متعددة من الحواس ؛ لتكونُ أشياء نسميها الخميرة ، توجد منها القضية العقلية الأخيرة ، فالطفل أمام النار يجد منظرها جميلاً جذاباً ، لكن ما إن يلمسها حتى تلمسه ؛ فلا يقرب منها أبداً من بعد ذلك ؛ لأنه اختبرها بحواسه فارتكزت لديه القضية العقلية وهى أن هذه نار محرقة ، واستقر هذا لديه يقيناً .

وهكذا تكون الإدراكات الحسية إدراكات متعددة تصنع خميرة فى النفس تكون منها الإدراكات المعنوية .

إذن : فوسائل العلم للكائن الحى هى الحواس ، وهذه الحواس تعطى العقل معطيات تنغرز فيه لتستقر من بعد ذلك فى الوجدان ؛ فتصبح عقائد .

إذن : فمراحل الإدراك هى : إدراك حسي ، وتفكير عقلي ، فانتهاى عقدي ؛ ولذلك نسمى الدين عقيدة .

أى : أنك عقدت الشيء فى يقينك بصورة لا تحلُّ بعدها من جديد لتحلله ، فهذا يُسمى عقيدة .

(١) الإدراك يعطى الوجدان ، والوجدان يعطى الاختيار ، والاختيار يعطى الفكر والتأمل ، وعن طريق الفكر التأمل يكون توحيد الله .

(٢) رأى يرى فهو راه ، وما يقع عليه البصر فهو مرئى ، والجمع : مرأتى .

ولذلك حينما أراد الله - سبحانه وتعالى - أن يقصَّ علينا مراحل الإدراك في النفس الإنسانية ؛ ليربي الإنسان معلوماته ، قال الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

لذلك يقال : « كما ولدته أمه » ، أي : لم يُعطَ القدرة على استخدام حواسه بعد ، ثم يجعل له الحق سبحانه الحواس ، ويجعله قادراً على استخدامها .

ولم يذكر بقية الحواس ، بل جاء بالسيدتين ، وهما السمع والبصر ؛ لأن آيات الكون تحتاج إلى الرؤية ، وإبلاغ الرسل يحتاج للسمع ، وهما أهم التين في البلاغ ، فأنت ترى بالعين آيات الكون ومعجزات الرسل ، وتسمع البلاغ بمنهج الله سبحانه وتعالى من الرسل .

وقد لفتنا الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - إلى العجائب فقال : « اعجبوا لهذا الإنسان ، ينظر بشحم ، ويتكلم بلحم ، ويسمع بعظم ، ويتنفس من خرم »^(١) .

فالصوت يطرق عظمة الأذن ، ويرن على طبليها ، ونرى بشحمة العين ، وننطق بلحمة اللسان .

وأضاف البعض : « ونشم بغضروف ، ونلمس بجلد ، ونفكر بعجين » . فالإنسان يولد وكأن مخه قطعة من العجين التي تعمل في استقبال المعلومات من الكون وتخزينها فيه ، وهي التي ستكون ركيزة لتشكيل الفؤاد من بعد ذلك .

(١) ذكره الشريف الرضي في كتابه «نهج البلاغة» (٤/٤) طبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت .
(٢) شحمة العين . مقلتها ، وقيل : حذقتها أو ماتحت الحذقة . أما شحمة الأذن فهو ما لان من أسفلها ، وهو معلق القرط . [اللسان : مادة (شحم)] .

وجاء قول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها
بوسيلتين من وسائل الإدراك ، وترك بقية الوسائل الثلاث الأخرى
الظاهرة ، مع أن العلم الحديث حين تكلم عن وظائف الأعضاء ، احتاط
للأمر وقرر أن هذه الحواس هي الحواس الخمس الظاهرة .

وهذا يعني أن هناك حواساً أخرى غير هذه سيكشف عنها ، وهي
حواس لم يكن القدماء يعرفونها ، مثل حاسة البين بين ، التي نفرق بها بين
أنواع الأقمشة والأوراق وغيرها ، وكثافة هذا النوع من ذاك ، وهذه الحاسة
توجد بين لمستين من إصبعين متقاربين ^(١) .

وكذلك حاسة العضل التي تزن ثقل الأشياء ، وتعرف حين تحمل ثقلًا ما
مدى الإجهاد الذي يسببه لك ، وهل يختلف عن إجهاد حمل ثقل آخر .

وحين نظر العلماء في معاني الألفاظ قالوا : «النظائر حين تخالف فلا بد
من علة للمخالفة» فالسمع آلة إدراك ، والبصر آلة إدراك ، فلماذا قال الحق
سبحانه في آلة الإدراك «السمع» ، وقال في الآلة الثانية «الإبصار» ؟ ، ولماذا
جاء السمع بالإنفراد ، وجاء الإبصار بالجمع ، ولم يأت بالاثنتين على
وتيرة ^(٢) واحدة ؟

فنقول : إن المتكلم هو الله تعالى ، وكل كلمة منه لها حكمة وموضوعة
بميزان ، وأنت حين تسمع ، تسمع أي صوت قادم من أي مكان ، لكنك
بالمعين ترى من جهة واحدة ، فإن أردت أن ترى ما على يمينك فأنت تتجه

(١) ولما غير حاسة اللمس التي ندرك بها نعمة أو خشونة هذا القماش أو ذاك ، فهذا يدرك بحاسة اللمس
وعادة يكون هذا يامرار كلف اليد على القماش ، أما إدراك «تخانة» هذا القماش أو ذاك فيكون بإدراكه
بهذه الحاسة .

(٢) التوتيرة : الطريقة . مأخوذة من التواتر أي : التابع ، وجرت الأشياء على وتيرة واحدة : أي : بنفس
الصفة والطريقة . [اللسان : مادة (وتر)] .

سُورَةُ يُوسُفَ

٥٩٠

بعينيك إلى اليمين ، وإن أردت أن ترى ما خلفك ، فأنت تغيّر من وقفتك ، فالأذن تسمع بدون عمل منك ، لكن البصر يحتاج إلى عمليات متعددة ؛ لترى ما تريد .

وأيضاً فالسمع لا اختيار لك فيه ، فأنت لا تستطيع أن تحجب أذنك عن سماع شيء ، أما الإبصار فأنت تتحكم فيه بالحركة أو بإغلاق العين .

وجاء الحق - سبحانه وتعالى - بالسمع أولاً ؛ لأن الأذن هي أول وسيلة إدراك تؤدي مهمتها في الإنسان ، أما العين فلا تبدأ في أداء مهمتها إلا من بعد ثلاثة أيام إلى عشرة أيام غالباً .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ .. ﴾ (٣٦) [يونس]

والحق سبحانه يملكها ؛ لأنه خالقها وهو القادر على أن يصونها ، وهو القادر سبحانه على أن يُعطّلها ، وقد أعطانا الحق مثالا لهذا في القرآن فقال عن أصحاب الكهف : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ مِثِينَ عَدَدًا ﴾ (١٦) [الكهف]

فَعَطَّلَ اللهُ سبحانه أسماعهم بأن ضرب على آذانهم ، فذهبوا في نوم استمر ثلاثة قرون من الزمن وازدادوا تسماً .

كيف حدث هذا ؟ .. إن أقصى ما ينامه الإنسان العادي هو يوم وليلة ، ولذلك عندما بعثهم الله تساءلوا فيما بينهم : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْنَا قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. ﴾ (١٧) [الكهف]

ولكن هيئتهم لم تكن تدل على هذا ، فإن شعورهم قد طالت جداً ، بل إن لونها الأسود قد تبدل وأصبحوا شيباً وكهولاً ، ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوُكِّتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِثْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا .. ﴾ (١٨) [الكهف]

ونلاحظ هنا ملحظاً يجب الانتباه إليه ، ففي هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه : ﴿أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعُ وَالْأَبْصَارُ .. (٢١)﴾ [يونس]

بينما يقول في آية أخرى في سورة السجدة : ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ .. (٩)﴾ [السجدة]

ولا بد أن نتنبه إلى الفارق بين «الخلق» و«الجعل» ، و«الملك» ، فالخلق قد عرفنا أمره ، وملكية كل شيء لله - تعالى - أمر مُلْزَمٌ في العقيدة ، ومعروف ، أما «الجعل» ، فهو توجيه ما خلق إلى مهمته .

فأنت تجعل الطين إبريقاً ، والقماش جلباباً ، هذا على المستوى البشري ، أما الحق سبحانه وتعالى فقد خلق المادة أولاً ، ثم جعل من المادة سمعاً وبصراً ، وزاد من بعد ذلك ﴿أَمْ يَمْلِكُ﴾ ، فمن خلق هو الله تعالى ، ومن جعل هو الله تعالى ، ومن ملك هو الله تعالى .

وهو سبحانه ينبها إلى ذلك ، فالأشياء النافعة لابن آدم يخلقها الله سبحانه ، ويجعلها ، ثم يملكها له .

أما ذات الإنسان وأبعاضه من سمع وبصر وغيرهما وإن كانت قد خلقت في الإنسان ، وجُعِلَتْ له للانتفاع بها ، ولكنها مستظل ملكاً لله ، يبقئها على حالها ، أو يخطفها أو يصيبها بأفة ، أو يعطلها ^(١) .

إذن : فهي خلقت لله ، وجُعِلَتْ من الله ، وتظل مملوكة لله ، ويُصِيرُها كيف يشاء ، فدقات القلب والحب والكراهية والأمور اللاإرادية التي تعمل لصالح الإنسان هي مملكة الله .

(١) يقول سبحانه : ﴿يَكْفُرُ الْبَرُّ بِخُلُقِهِ الْأَبْصَارُ كُلَّمَا أَشَاءَ لَهُمْ شَيْئاً فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلِرِشَاءِ اللَّهِ لِلْعَبِيدِ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ [البقرة] .

والحق سبحانه - على سبيل المثال - جعل لكل حيوان جلدًا ؛ نتفع به ونذبغه إلا جلدَيْن اثنين : جلد الإنسان وجلد الخنزير ، وقد حُرِّم استخدام جلد الإنسان ؛ لكرامته عند خالقه ، وحُرِّم استخدام جلد الخنزير ؛ ليدُلَّ على حرمة ونجاسته .

وعلينا أن نتسبه إلى أن الحق سبحانه قد خَلَقَ وجَعَلَ وَمَلَكَ ، ودليل ملكية الحق - سبحانه وتعالى - أنه حَرَّمَ الجنة على المُشْتَحَرِّ^(١) ؛ لأنه لا يأخذ الحياة إلا واهبُ الحياة ، فأنت أيها الإنسان لستَ ملكَ نفسك . ولا عذر لأحد ما دام قد وصله هذا البلاغ ، وعليه أن يستوعبه أما من لا يستوعب ؛ فيلقى مصيره .

لذلك فإنه سبحانه هو الذي رزق ، وهو - سبحانه - الذي يملك .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وَمَنْ يُخْرِجِ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجِ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ .. (٣١)﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن لكل كائن في الوجود حياة تناسبه ، بدليل قول الحق سبحانه : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .. (٨٨)﴾ [الفصص]

وما دام كل شيء سيأتي له وقت يهلك فيه ، فمعنى ذلك أن لكل شيء حياة ، إلا أن حياتنا نحن في ظاهر الأمر عبارة عن الحس والحركة ، والإنسان يأكل الخضروات والخبز والفاكهة ، ومن هذه المأكولات وغيرها يكون الجسم الحيوانات المنوية في الرجل ، والبويضات في المرأة ، ومنهما يأتي الإنسان ، وكذلك يخرج الكتكوت من البيضة المخصبة ؛ لأن البيضة

(١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا ، ومن شرب ساء فقتل نفسه فهو يتجسأ في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا ، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا » . أخرجه البخاري في صحيحه (٥٧٧٨) ومسلم (١٠٩) واللفظ لمسلم .

غير المخصصة لا تُخرج كثر كوتاً ؛ فهي بدون حياة ؛ ولذلك لا يتكون منها جنين ، فهناك فرق بين قابلية الحياة ، وبين الحياة نفسها .

وكذلك نواة التمرة ، إذا ما أُلقيت دون أن توضع في الأرض ، فلن تكون نخلة أبداً ، ولكن إذا ما زُرعت في الأرض ، ووجدت لها البيئة المناسبة ؛ خرجت نخلة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَدِيرُ الْأَمْرَ .. (٣٦) ﴾ [يونس]

والتدبير هو عملية الإدارة لأي شيء ؛ حتى يؤدي مهمته ، وبالله من يدير قلبك ؟ ومن يدير حركة أمعائك ؟ لتستخلص من الطعام ما يفيدك ، ثم تخرج ما لا يفيدك .

إياك أن تقول : إني أنا الذي أدير ذلك ؟ ونقول : كنت طفلاً في مرحلة الطفولة ، فهل كنت تدير حركة قلبك أو أمعائك ؟ ومن الذي يدير حركة رثيك ؟ إن الذي يديرها هو خالقها ؛ لذلك اطمئنوا على حركة أجهزتك التي لا دخل لكم فيها ؛ لأن الذي خلقها فيكم قيوم لا تأخذه سنة^(١) ولا نوم ، ولا يؤوده حفظ ذلك^(٢) .

ويجيب مَنْ يسألهم الرسول ﷺ على كل تلك الأسئلة - بأمر الله تعالى - الإجابة التي حددها الله سبحانه سلفاً ﴿ فَيَقُولُونَ اللَّهُ .. (٣٧) ﴾ [يونس]

إذن : أما كان يجب أن نرهف الأذان ، ونُعْمَل الأبصار ؛ لثري قدرة الله سبحانه الذي وهب لنا كل تلك النعم من رزق ، وسمع ، وبصر ، وإحياء ، وإماتة ، وإحياء من ميت ، وتدبير الأمر كله ؟

(١) السنة : النعاس من غير نوم . وقيل : السنة نعاس يبدأ في الرأس ، فإذا صار إلى القلب فهو نوم . [اللسان مادة : وسن] .

(٢) لا يؤوده حفظ السموات والأرض : أي : لا يعجزه سبحانه ولا يتعب عليه . يقال : آده الأمر . بلغ منه المجهود والمشقة . [اللسان مادة : أود] .

أما كان يجب أن نقول : يا مَنْ خَلَقْتَنَا ماذا تنتظر منا ؛ لنعمر الكون الذى أوجدتنا فيه ؟ فكيف - إذن - يتجه البعض بالعبادة لغير الله تعالى ؛ لشمس أو قمر ، أو ملائكة ، أو نبي ، أو صنم ؟ كيف ذلك والعبادة معناها إطاعة العابد للمعبود فيما يأمر به ؟ وهل هناك إله بغير منهج يأمر به عباده ، ومن عبد الشمس هل كلفته بشيء ؟ .. لا .

إذن : يتساوى عندها مَنْ عبدها ، وَمَنْ لم يعبدها ، وفى هذا نقض لألوهية كل معبود غير الله تعالى .

ولذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٢١) [يونس]

فما دام الله سبحانه هو الذى خلق كل ذلك ، وأنزل منهجاً ، فعليكم أن تجعلوا بينكم وبينه وقاية ؛ تحميكم من صفات الجلال ، وتقريكم من آثار صفات الجمال (١) وأن تسمعوا إلى البلاغ من الرسل عليهم السلام ، وإلى مطلوباته سبحانه .

وما دام كل إنسان سيحجب عن أسئلة هذه الآية ، ويعترف أن الخالق سبحانه والمالك هو الله تعالى ، فعلى الإنسان أن يقي نفسه النار .

والعجيب أن الجميع يجيب بأن الله سبحانه هو الذى خلق ، فالحق سبحانه يقول : ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (٢٧) [الزخرف] ويقول أيضاً : ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (٢٥) [النمل]

وما دام الله تعالى هو الذى خلق ، ورزق ، ودير الأمر ، فكيف تتركون عبادته وتتجهون لعبادة غيره ؟

(١) صفات الجمال هي صفات الرحمة والمغفرة والرضا ، أما صفات الجلال فهي صفات المهر والعلو وكونه سبحانه هو العزيز فعلى العبد أن يهرب من آثار صفات الجلال ليذوق حلاوة آثار صفات الجمال ؛ ليدخل في عباد الله المتقين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۚ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ^(١) ﴾ (٣٢)

وقد جاء قول الحق سبحانه : ﴿ فَذَلِكُمُ ﴾ إشارة منه إلى ما ذكره قبلاً من الرزق ، وملكية السمع والأبصار ، وقدرة إخراج الحي من الميت ، وإخراج الميت من الحي ، وتدبير الأمر .

إذن : فقوله سبحانه : ﴿ فَذَلِكُمُ ﴾ إشارة إلى أشياء ونعم كثيرة ومتعددة أشار إليها بلفظ واحد ؛ لأنها كلها صادرة من إله واحد .

﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ .. ﴾ (٣٢) [يونس]

ولا يوجد في الكون حقان ^(٢) ، بل يوجد حق واحد ، وما عداه هو الضلال ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ .. ﴾ (٣٢) [يونس]

إذن : أنتم إن وجهتم الأمر بالربوبية إلى غيره ؛ تكونون قد ضللتكم الطريق ، فالضلال أن يكون لك غاية تريد أن تصل إليها ، فتتجه إلى طريق لا يوصل إليها . فإن صرّفتكم من الإله الحق فأنتم تصلون إلى الضلال .

ولذلك ينهي الحق سبحانه الآية بما يبين أنه لا يوجد إلا الحق أو الضلال ، فيقول سبحانه : ﴿ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ .. ﴾ (٣٢) [يونس]

(١) فَأَنَّى تُصْرَفُونَ : أي : كيف تُصْرَفُونَ عقولكم إلى عبادة ما لا يرزق ولا يُحيى ولا يميت . [التفسير القرطبي ١/ ٣٢٦٧] .

(٢) الحق واحد لا ينظور الفكر اليشمري ولكنه يهيج الحق ذاته ؛ لأن حقائق الأشياء ثابتة ، والعلم بها متحقق خلافاً للسفسطائية ، وخلافاً لمن يعتقدون أن الباطل حق ، والحق باطل فليس الحق خاضعاً لتخريف العقول ، وتخريف الفكر يفة المخالفة والمخالطة .

أى : أنكم إن انصرفتم عن الحق - سبحانه وتعالى - فإلى الضلال ،
والحقُّ واحد ثابت لا يتغير ،

وَمَنْ عبد الملائكة أو الكواكب أو النجوم ؛ أو بعض رسل الله - عليهم
السلام - أو صتماً من الأصنام ؛ فقد هوى إلى الضلال .
وإن كنتم تريدون أن نجادلكم عقلياً ، فلنقرأ معاً قول الحق سبحانه
وتعالى بعد ذلك :

﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾

﴿ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣٢)

قوله : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما تقدم من رزق الله تعالى للبشر
جميعاً ، ومن ملك السمع والبصر ، ومن تدير الأمر كله ، ومن إخراج
الحى من الميت ، وإخراج الميت من الحى ، ذلك هو الإله الحق سبحانه ،
وقد ثبت ذلك بسؤاله سبحانه وتعالى هذا السؤال الذى علم مُقدِّماً ألا إجابة
له إلا بالاعتراف به إلهاً حقاً : ﴿ فَمَآذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ... ﴾ (٣٢) .

ومثل هذه القضية تماماً قَوْلُ الحق سبحانه : ﴿ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ
فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣٢) [يونس]

لأنهم أساءوا الفهم فى الوجدانية ، وفى العقيدة ، واستحقوا أن
يُعَذَّبُوا ؛ لأنهم صرفوا الحق إلى غير صاحب الحق ،

وقد كان هذا خطاباً للموجودين فى زمن النبى ﷺ ، لكن بعضهم آمن
بالله تعالى ؛ ولذلك فالعذاب إنما يحل على مَنْ لم يؤمن .

وهذا القول متحقق فيمن سبق فى علم الله سبحانه أنهم لا يؤمنون ،

وكذلك حَقَّتْ كلمة ربك على هؤلاء الذين فسقوا ولا ينتهون عن فسقهم وكفرهم ، وإصرارهم على الانحراف بالعبودية لغير الله الأعلى والرب الحق سبحانه وتعالى .

والدليل على العلم الأزلي لله سبحانه ما نقرأه في سورة البقرة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) [البقرة] إذن : معلوم لله تعالى مَنْ يُؤْمِنُ وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ ، وَمَنْ يَسْتَمِرُّ وَيُصِرُّ عَلَى كُفْرِهِ ؛ هو الذى يَلْقَى العذاب ، يعلم الله تعالى فيه أنه لن يُؤْمِنَ .

ثم يذكر الحق بعد ذلك ما يمكن أن يُجادَكَ به الكافرون بمنطق أحوالهم ، ففى ذوات نفوس غير المؤمنين بإله توجد نزعة فطرية لفعل الخير ، وتوجيه غيرهم إليه ، وهو موجود حتى فى الأم غير المؤمنة ، فكل قوم يُوجَّهون إلى الخير بحسب معتقداتهم ، فنجد بين الشعوب غير المؤمنة بإله حكماء وأطباء وعلماء ، وهؤلاء يوجهون الناس إلى بعض الخير الذى يرونه .

ونجد الطفل الصغير يكتسب المعتقدات والعادات والاتجاهات من والديه ، وما يسمعه من توجيهاتهم ، فتجده يبتعد عن النار مثلاً أو الكهرباء ؛ لأنه ترسخت فى ذهنه توجيهات ونصائح غيره ؛ بل إنه يتعلم كيف يتعامل مع هذه الأشياء دون أن تصيبه بالضرر .

إذن : يوجد توجيه من الخلق إلى الخلق لجهات الخير ، ألا نجد فى الدول غير المؤمنة بإله مَنْ يرشد الناس إلى الطرق التى يمكن أن يسيروا فيها

(١) فى الآية إشارة إلى مجتمع النفاق ومجتمع النفاق يعبر بين مجتمعين : للمجتمع الإيماني مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٥) [البقرة] ، وللمجتمع الكافر مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَانُهُمْ كَسَرَابٌ بِقِيَعٍ يُخَسِّبُ الظَّهْمَانُ مَاءٌ حَمِئٌ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَحْذَرِهُ شَيْئاً وَرَوَّاهُ اللَّهُ عَذَابَهُ لَوْلَا حِسَابُ اللَّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٢٥) [النور] ، ومجتمع النفاق أخطر من مجتمع الكفر ، فالكفر معلن وأنا مستيقظ له ، أما النفاق فهو خداع .

باتجاهين ، والطرق التي عليهم أن يسيروا فيها باتجاه واحد ؟

الا يوجد مَنْ يدل الناس على المنحنيات الخطرة على الطرق ، وكذلك يوجههم إلى ضرورة خفض سرعة السيارات أمام مدارس الأطفال ؟

نعم ، يوجد في البلاد غير المؤمنة مَنْ يفعل ذلك .

إذن : قالتفكير في الخير لصالح الأم أمر طبيعي غريزي موجود في كل المجتمعات ، وإذا كان التوجيه للخير يحدث من الإنسان المساري للإنسان ، ألا يكون الله سبحانه هو الأحق بالتوجيه إلى الخير ، وهو سبحانه الذي خلق الإنسان ، وخلق له ما يقيم حياته على الأرض ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلْ

اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فَأَنْتُمْ تَوَفَّكُونَ ﴾ (٣٤)

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أن يسألهم : ﴿ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ (٣٤) . [يونس]

ومعنى أن الله يسأل القوم هذا السؤال أنه لا بد أن تكون الإجابة كما أرادها هو سبحانه . وإن قال قائل : وكيف يأمنهم على مثل هذا الجواب ، ألم يكن من الجائز أن ينسبوا هذا إلى غير الله ؟

(١) الإفك : الكذب والإثم . أتى توفكون : كيف تكذبون ؟ [اللسان : سادة (أفك) : والإفك أخطر من الكذب ، حيث إن الإفك في افتراء متخيل ومبالغه باعته لها التأثير المصير على المجتمعات والأفراد ؛ ولذلك يقول الحق : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَبَرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١١) [النور] . ولم يقل بالكذب مع أنه كذب ، ولكنه غير بالإفك ؛ لأن فيه افتراء على كرامات الناس وقيم المجتمع .

نقول: إن هذا السؤال لا يُطرح إلا وطارحه يعلم أن له إجابة واحدة ،
فلن يجد المستول إجابة إلا أن يقول: إن الذي يفعل ذلك هو الله سبحانه
ولا يمكن أن يقولوا: إن الصنم يفعل ذلك ؛ لأنهم يعلمون أنهم هم الذين
صنعوا الأصنام ، ولا قدرة لها على مثل هذا الفعل .

فالإجابة معلومة مسلفاً: إن الله سبحانه وتعالى وحده هو القادر على
ذلك ، وهذا يوضح أن الباطل لجلج والحق أبلج^(١) ، وللحق صَوْلَةٌ^(٢) ؛
فأنت ساعة تنطق بكلمة الحق في أمر ما ، تجدها قد فعلت فعلها فيمن هو
على الباطل ، ويأخذ وقتاً طويلاً إلى أن يجد كلاماً يرد به ما قلته ، بل
يحدث له انبهار واندهاش ، وتنقطع حجته^(٣) .

ولذلك لم يَسْأَلِ الحق سبحانه هنا مثلاً قال من قيل: ﴿ فَسَيَقُولُونَ
اللَّهُ .. ﴾ (٢١)

بل قال: ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ﴾ (٢٤)

وجاء بها الحق سبحانه هكذا ؛ لأنهم حينما سُئِلُوا هذا السؤال بهرهم
الحق وغلب ألسنتهم وخواطيرهم ؛ فلم يستطيعوا قول أى شيء .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - نجد وكيل النيابة يضيق الخناق على
المتهم بأسئلة متعددة إلى أن يوجه له سؤالاً ينهر المتهم من فرط دقته وليس
له إلا إجابة واحدة تتأبى طباعه ألا يجيب عنه ، فيجيب المتهم معترفاً .

(١) التجلج: اختلاط الأصوات . قال أبو زيد: يقال: الحق أبلج ، والباطل لجلج ، والأبلج: المضيء
المتقن . أما التجلج فهو الخلط المزعج والمتردد غير المستقر . [اللسان: مادة (لجج) - بصرف] .

(٢) الصولة: الوثبة والقوة على إزهاق الباطل .

(٣) وذلك مثلاً حدث من إبراهيم عليه السلام مع النمرود ، وقد قصه الله عز وجل في قرآنه: ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ
إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالْفِتْنِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. ﴾ (٢٠٨) [البقرة] ، فبهت ، أى
فوجىء بالحجة ومنطقها فتحير في جوابه ولم يجد رداً .

سُورَةُ يُوسُفَ

٥٩١٩

والإنسان - كما خلقه الله تعالى - صالح لأن يؤمن ، وصالح لأن يكفر ، وإرادته هنا تتدخل ، لكن أبعاضه مؤمنة عابدة مسبحة ، فاللسان الذي قد ينطق الكفر ، هو في الحقيقة مؤمن مُسَبِّحٌ ، حامد ، شاكِر ، لكن إرادة الإنسان التي شاءها الله - سبحانه - متميزة بالاختيار قد تختار الكفر - والعياذ بالله - فينطق اللسان بالكفر :

وقد تأتمر اليد بأمر صاحبها ؛ فتمتد لتسرق ، أو تسمى الأقدام - مثلاً - إلى محل احتساء الخمر ، ولكن هل هذه الفاعلات راضية عن تلك الأفعال ؟

لا ؛ إنها غير راضية ^(١) ، إنما هي خاضعة لإرادة الفاعل .

وحين يسأل السؤال : من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ فاللسان بفطرية تكوينه المؤمنة يريد أن يتكلم ؛ لكنه لا يملك إرادة الكلام ، فيبين الحق سبحانه للنبي ﷺ أن يجيب نيابة عن الأبعاض المؤمنة ، فيقول سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ ۞ (٢٤) ۝ وَهُوَ بِذَلِكَ يُؤَكِّدُ الصِّغَةَ ، ويكفي أن يقول محمد ﷺ هذا القول مُبَلِّغاً عن ربه ، وينال هذا القول شرف العندية : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٢٤) ۝ ۞ .

والإفك . هو الكذب المتعمد ، وهو الافتراء ، وهناك فارق بين الكذب غير المتعمد والكذب المتعمد ، فالكذب غير المتعمد هو من ينقل ما بلغه عن غيره حسيماً فهم واعتقد ، وهو لون من ألوان الكذب لا يصادف الحق ، ويتراجع عنه صاحبه إن عرف الحق .

أما الافتراء فهو الكذب المتعمد ، أي : أن يعلم الإنسان الحقيقة

(١) بلبل أنها منأتى يوم القيامة وتصبح هي الشاهدة على الإنسان ، يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلَسْتُمْ بِهِمْ وَإِنَّهُمْ وَارِثُهَا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧١) ۝ [النور] .

سُورَةُ يُوسُفَ

٩٢٠

ويقلبها^(١)؛ ولذلك نجد العلماء قد وقفوا هنا وقفة؛ فمنهم من قال: هناك صدق، وهناك كذب، لكن علماء آخرين قالوا: لا، إن هناك واسطة بين الصدق والكذب.

ومثال ذلك: أن يدخل ابنٌ على أبيه، بعد أن سمع هذا الابن من الناس أن هناك حريقاً في بيت فلان، فيقول الابن لوالده: هناك حريق في بيت فلان؛ فيذهب الأب ليعاين الأمر، فإن وجد حريقاً فقول الابن صدق، وإن لم يكن هناك حريق فالخبر كاذب، ولكن ناقِل الخبر نقله حسبما سمع. إذن: فهناك فَرْق بين صدق الخبر وصدق المُخبر، فمرة يَصْدُقُ الخبر ويصدقُ المُخبر، ومرة يصدقُ الخبر ولا يصدقُ المُخبر، ومرة يصدق المُخبر ولا يصدق الخبر.

فهنا أربعة مواقف، والذين قالوا إن هناك واسطة بين الصدق والكذب هم مَنْ قالوا: إن الصدق يقتضى مطابقة بين الواقع والخبر. أما الكذب فهو ألا يطابق الواقع الخبر.

لذلك يجب أن نفرّق بين صدق الخبر في ذاته، وصدق المُخبر؛ بأنه يقول ما يعتقد. أما صدق الخبر فهو أن يكون هو الواقع.

وقول الحق سبحانه: ﴿فَأَنبِئْهُمْ بِمَا كَانُوا يَكُونُونَ﴾ أي: فكيف تغلبون الحقائق؛ لأنكم تعرفون الواقع وتكذبونه كذباً متعمداً؟

وكلنا نعلم قول الحق سبحانه: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾^(٢) [النجم]

(١) الْمُؤْتَفِكَةَ: البهجة التي انتفكت بأهلها أي انتقلت. والانتفك الانقلاب. [اللسان: مادة (أفك)]. وقال ابن كثير: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم]: يعني مدائن قوم لوط قلها الله - تعالى - عليهم، فجعل عاليها سافلها. [تفسير ابن كثير: ٢٥٩/١ - ينصرف].

(٢) وهو الذي قصده رسول الله ﷺ في قوله: «إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً». أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٠٧) والبخاري في صحيحه (٦٠٩٤).

سُورَةُ يُنُسُ

﴿٥٩٢﴾

والمؤتمكة: هي القرى التى كُفنت أعلاها إلى أسفلها ، كذلك الكذاب يقلب الحقيقة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي
لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي
إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ قَالُوا كَيْفَ نَحْكُمُوكَ ﴾ (٢٥)

وهذا أمر للرسول ﷺ بأن يسألهم سؤالاً جديداً ، لا إجابة له إلا ما يفرضه الواقع ، والواقع يؤكد أن الهداية لا تكون إلا للحق ؛ لأن كل كائن مخلوق لغاية ، فلا شيء يُخلق عبثاً^(١) .

ونحن بقدرتنا المحدودة نصنع (الميكرفون) و(التليفزيون) أو السلاجة أو السرير وغيرها ، كل منها له غاية ، وكل له قوانين صيانتها الخاصة به ، والذي يحدد الغاية من هذا المصنوع أو ذاك هو صانعه ، ويضع لها قوانين صيانتها ؛ لتؤدي غايتها ، فالغاية من أى شيء توجد قبل الشيء نفسه ؛ ليوجد الشيء على مقتضى الغاية منه .

وأفة العالم الآن أنهم يعلمون أن الله سبحانه خلق الإنسان ، ولكنهم يصنعون من عندهم قوانين لصيانة الإنسان وحركة الإنسان ، وهذا غباء وغفلة من الذين يفعلون ذلك ، كان عليهم أن يتركوا أمر صيانة الإنسان للقوانين التى وضعها خالق الإنسان سبحانه .

(١) يقول تعالى فى سورة المؤمنون : ﴿ اَللّٰهُمَّ اِنَّمَا خَلَقْتَهُمْ هَيَا وَاَنكُمْ اِنَّمَا لَا تَرْجِعُوْنَ ﴾ (٢٠) ﴿ [المؤمنون] وقال سبحانه فى الفاريات : ﴿ وَاِنَّمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْاِنْسَ اِلَّا لِيَعْبُدُوْهُ ﴾ (٢٠) ﴿ [الفاريات] قللخلق غاية وحكمة وهى العبادة بعبادتها المطلق أى : الطاعة .

فالحق سبحانه وتعالى قد حدد الغاية من خلق الإنسان وحدد قوانين صيانتة ، والشر الموجود حالياً بسبب الجهل بغاية الإنسان ، والعدول عن المنهج الذى يجب أن يسير عليه الإنسان ، فقال الحق سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ .. ﴾ (٣٥) .

أى : هل من هؤلاء الشركاء من يهدي الإنسان إلى غايته ؟ هل قالت الشمس - مثلاً - هل قالت الملائكة غايتها ؟ هل قالت الأشجار أو الأحجار أو الرسل الذين عبدتهم شيئاً غير مراد الله تعالى ؟ إنهم آلهة لا يعرفون الغاية من العابد لهم ، ولا يعرفون الطريق الموصل إلى تلك الغاية .

ولذلك يأتى القول الفصل : ﴿ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ .. ﴾ (٣٥) .

فأله هداك أيها الإنسان إلى الحق فى كل حركة تتحركها بالمنهج الذى أنزله الله سبحانه مكتملاً على رسوله ﷺ من بدء « لا إله إلا الله » إلى إمطة الأذى عن الطريق ^(١) ، وهو منهج مستوعب مستوف لكل حركات الإنسان .

وجاءت الإجابة من الله تعالى على لسان رسوله ﷺ : لأنهم اتبهاوا بالسؤال وتلجلجوا ولم يوجد عند أى منهم قدرة على المعارضة ، فالغاية من خلق الإنسان وغيره يوجزها قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥٦) [الدرجات]

والعبادة ليست أركان الإسلام فقط، بل هى عمارة الكون كبنيان حتى

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « الإيمان بضع وسبعون ، أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق » . راحياء شعبة من الإيمان . أخرجه البخارى فى صحيحه (٩) ، ومسلم فى صحيحه (٣٥) .

للإسلام ، والذي حدد الغاية هو الخالق سبحانه ، وهو سبحانه الذي يحدد طريق الوصول إليها .

ونحن حين نرغب في الوصول إلى مكان في الصحراء مثلاً ، إنما نحدد أولاً المكان ، ونختار طريق الوصول ، فإن كان الطريق المستقيم مليئاً بالعقبات والجبال ، فإنك ستضطر للانحراف عن هذا الطريق وصولاً إلى غايتك ، فهذا الطريق المعوج هو الطريق المستقيم ؛ لأنه الطريق الذي يجنبنا العقبات .

ومثال ذلك : السيول التي تنزل على هضاب الجبشة ، فاختارت لنفسها المجرى السهل فكان نهر النيل ، فلا أحد قد حفر النيل مثلما حفرنا الرياحات أو قناة السويس ، بل نزل السيل واختار لنفسه الطريق السهل فسار فيه بين التعاريج والرمال والصخور .

ولذلك أنت تجد كل ما لا دخل للبشر به قد يتعرج لينفذ ، أما ما صنعه البشر فلا يستطيع ذلك .

وكل خلق لا بد له من غاية ؛ لذلك نجد سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا السلام يقول : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ (٧٨) [الشعراء]

فمن خلق هو الذي يحدد الغاية ؛ لأن هذه الغاية توجد عنده أولاً ليخلق ، وتتجلى الدقة في قول القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام ، فلم يقل : الذي خلقني يهديني ، بل قال : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ مما يدل على أن هذه القضية ستخالف ، وبعد أن يخلق الإنسان سيقوم بعض الناس - حماية لمصالحهم - بوضع طريق أخرى تخالف الغاية ؛ فتوصل إلى الضلال .

أما الحق سبحانه فقد أنزل القرآن فيه الهداية الحقة ، فالذي خلق هو

الذى يقنن ، ولذلك يذكر القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ (٧٩) [الشعراء]

وبهذا القول وصل سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى أن الذى رزق الآباء قدرة استنباط الرزق مطعماً ومشرباً هو الله سبحانه .

وذكر القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ (٨١) [الشعراء]

فالإماتة والإحياء هما من الحق سبحانه ، فلا أحد يسأل عمن يملك الإماتة والإحياء ، أما عن شفاء المرض لمقال : ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (٨١) [الشعراء]

فأنت قد تذهب إلى الطبيب وتظن أنه هو الذى يشفيك ؛ بل هو يعالج ، ولكن الله هو الذى يشفى .

وهكذا نعلم أن قول سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿وَالَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ (٧٨) [الشعراء]

هو كلام منطقي ؛ لأن خالق الشيء هو الذى يهذى إلى الغاية من الشيء ؛ فالغاية أولاً ، ثم الخلق ، ثم توضيح الطريق الموصل إلى تلك الغاية ، فإذا خولف فى شيء من ذلك فلا صلاح لكون أبداً .

وتجد فى القرآن على لسان سيدنا موسى عليه السلام : ﴿قَالَ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (٥٠) [طه]

(١) عن أبي رمة رضى الله عنه قال : انطلقت مع أبي نحر النبي ﷺ ، فإذا هو ذو وقرة ، بهار دوع حناء وعليه يردان أخضران فقال له أيس . أرى هذا الذى يظهر لك فإني رجل طبيب . قال : « الله الطبيب ، بلى أنت رجل رفيق ، طيبها الذى خلقها » .

فما دام الحق سبحانه قد خلق فهو يهdy إلى السبيل الموصل إلى الغاية ، ويقول القرآن أيضاً : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) ﴾ [الأعلى]

وهكذا يتأكد لنا أنه ما دامت هناك غاية ، فلا بد من وجود طريق يهdyنا إليه من خَلْقِنَا .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنَا عنها يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ .. (٢٥) ﴾ لأنه سبحانه هو الذى خلق ؛ ولذلك فمن المنطقى أن يأتى بعد ذلك التساؤل : ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى .. (٣٥) ﴾ ؟

وسبب وجود اللام فى قوله : ﴿ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ هو النظرة إلى الغاية ، وسبب وجود : ﴿ إِلَى الْحَقِّ ﴾ هو لفت الانتباه إلى أن الوصول إلى الغاية يقتضى طريقاً ، فأراد الحق سبحانه فى آية واحدة أن يجمع التعبيرين معاً .

ونحن نعلم أن هذه الآية قد نزلت فى الذين اتخذوا لله شركاء ، فهم يعترفون بالله تعالى ولكنهم يشركون به غيره ، فالله سبحانه وتعالى تفرَّد بالالوهية بربوبيته للخلق ؛ لأنه خلق من عَدَمٍ ، ورزق من عَدَمٍ ، وخلق لنا وسائل العلم ودبر لنا الأمر ، وأخرج الحى من الميت ، وأخرج الميت من الحى ، وهدى للحق .

فأين - إذن - هؤلاء الشركاء الذين اتخذوهم مع الله تعالى ؟ وهل صنع واحد منهم أو كلُّهم مجتمعين شيئاً واحداً من تلك الأشياء (٣) ؟

(١) ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى .. (٢٥) ﴾ [الأعلى] أى : خلق الخليقة ومَرَّئى كل مخلوق فى أحسن الهيئات وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى .. (٣٥) ﴾ [الأعلى] قال سبحانه: هدى الإنسان للشقارة والسعادة وهدى الأنعام لمراتعها ، [تفسير ابن كثير : ٥٠١ / ٤] .

(٢) ويقول سبحانه فى سورة الروم : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَقُولُ مِنْ ذَلِكُمْ مَنْ شِئْنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٥) ﴾ [الروم] .

لذلك قال سبحانه : ﴿ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴾ (٣٠) .
[يونس]

إذن : فالذى يهdy هو الذى خلَق ، وهؤلاء الذين أشركوا اعترفوا
بالله خالقاً بشهاداتهم حين قال الحق سبحانه : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴾ (٨٧) [الزخرف]

إذن : فالذين أشركوا قد ارتكبوا الإثم العظيم ، وهؤلاء الشركاء إما أن
يكونوا من الملائكة ، أو من الأنبياء والرسل الذين قُتِنَ بهم بعض الناس ،
وهناك من اتخذ وسائل أخرى مثل : الشمس والقمر والنجوم ، وهذه
أشياء علوية ، وبعض الناس اتخذوا وسائل سفلية كالأشجار والأحجار ،
فهل أى شيء من كل ذلك يهdy إلى الحق ؟ وما منهج أى منهم إذن ؟
وكيف بلغوكم به ؟

إن كل هؤلاء يعلمون أن آيأ منهم لا يستطيع أن يهdy ، بل هو يُهdy
من الله سبحانه وتعالى ، فمن أين قلتم إن الملائكة ستهديكم ؟ أو من أين جاء
الذين قُتِنوا برسولهم واتخذوه إلهاً ؟ ومن أين جاء هذا الرسول بمنهجه ؟

إن كل كائن لا يهdy إلا بعد أن يهdy من الله أولاً ، وإن كانت
الأشياء - المتخذة شركاء - لا هداية لها ، ولا منهج ، ولا عقل ،
ولا تفكير ، كالشمس والقمر والنجوم فى العلويات ، والأشجار والأحجار
فى السفليات ، فماذا قالت هذه الأشياء ؟ إنها لم تقل شيئاً .

وهكذا لا يستقيم أمر اتخاذهم شركاء مع الله ، حتى الملائكة ، فאלله
هو الذى يختار منهم الملك الذى يُبَلِّغ عن الله سبحانه ، وكذلك الرسل
عليهم السلام : ﴿ أَقْمَنَ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ
يَهْدِي .. ﴾ (٣٥) [يونس]

﴿لَا يَهْدِي﴾ تقرأ هكذا ، ولغة فيها عملية تخفيف جَرَسٍ لسلامة نطقها واستقامة اللغة العربية ، فنحن نعرف أن ﴿يَهْدِي﴾ يعني : يهتدى . . أصلها يهتدى . . ويهتدى فيها هاء ساكنة وتاء وذال وياء . . وفيها تقارب لمخارج الحروف ، وهذا التقارب يجعل المعنى غائماً ، والنطق ثقبلاً ، فتقوم اللغة بعملية إبدال وإدغام ، وتخلص من التقاء الساكنين فتصل إلى مسامعنا كما أنزلها الله تعالى لسلامة النطق وجمال المعنى ؛ لأن القرآن أدب اللغة بكلام السماء ؛ لتكون خالدة اللفظ والمعنى . فإذا كنتم على طريق هداية ، فالأصل في الهداية هو الله تعالى .

ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ . .
(٢٥) ﴿ [يونس]

أى : ماذا أصاب عقولكم لتحكموا هذا الحكم ؛ فتشركوا بالله ما لا منهج له ، أو له منهج ولكنه موصول بالله تعالى جاء ليبلغه لهم ؟ وساعة تسمع ﴿كَيْفَ﴾ فهي للاستفسار عن عملية عجيبة ما كان - فى عَرَفَ العاقل - أن تحدث . كأن تقول : « كيف ضربت أباك ؟ » أو « كيف سببت أمك ؟ » ، وهذا كله من الأمور التى تأباه الفطرة وبآباء الطبع والدين .

وقوله سبحانه : ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ كأنه أمر عجيب ما كان يصح أن يحدث ؛ لأن الحق سبحانه وحده هو الإله ، والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير غاية وطريقاً . والله سبحانه وحده هو الذى حدد لنا الغاية والطريق الموصول إليها ، وهو سبحانه القائل : ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ . . (٢٥) ﴿ [يونس]

والمنهج هو الطريق الذى يوصل إلى دار السلام من أفة الأغيار^(١) ؛

(١) أى : أن أحوال الدنيا تتغير وتبدل ولا تثبت على حال واحدة .

لأن الدنيا كلها أغيار ، فأنت قد تكون قوياً ثم تضعف أو صحيحاً فيصيبك المرض ، أو غنياً فتفتقر ، أو مبصراً فيضيع منك بصرك ، أو تكون صحيح الأذن سمياً فتصير أصم بعد ذلك .^(١)

إذن : فهي دنيا أغيار ، وهب أن إنساناً أخذ من دنياه كل نصيبه عافية وأمنًا وسلامةً وغنى وكل شيء ؛ سنجده في قلق من جهتين : الجهة الأولى أنه يخاف أن يفارقه كل هذا النعيم ، أو يخاف أن يترك هو هذا النعيم ، هذا ما نراه في حياتنا .

إذن : فالدنيا بما فيها من أغيار لا أمان لها ؛ لنفهم أن كل عطاءات المخلوق إنما هي هبة من الخالق سبحانه وتعالى ؛ لأنها لو كانت من ذاتك لاستطعت الحفاظ عليها ، ولكنها هبات من الحق الأعلى سبحانه .
والأمر الموهوب قد يصبح مملوكاً .

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣٦)

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا .. ﴾ (٣٦) يفيد أن بعضهم كان يتبع يقيناً ؛ لأن مقابل الظن هو اليقين ، فالنسب التي تحدث

(١) ولأن الدنيا دنيا أغيار أوصى رسول الله ﷺ رجلاً وهو يعظه : « اغتصم خمساً قبل خمس : شبائك قبل هرمك ، وحسبك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » أخرجه الحاكم في مستدركه (٣٠٦ / ٤) وصححه على شرط الشيخين عن ابن عباس ، وأقره الأذهم .

(٢) الظن كما أنه شك فإنه أيضاً يقين إلا أنه ليس يقين عيان ، إنما هو يقين تدبر ، فأما يقين العيان فلا يقال فيه إلا علم ، وهو يكون اسماً ومصفواً ، وجمع الظن : ظنون . قال تعالى : ﴿ وَتَنظُرُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا .. ﴾ (٥) [الأحزاب] [لسان العرب : مادة (ظنن)].

بين الأشياء تربط بين الموضوع والمحمول ، أو المحكوم والمحكوم عليه ،
وهي نسب ذكرناها من قبل ، ونذكر بها ، فهناك شيء أنت تجزم
به ، وشيء لا تجزم به . وما تجزم به وتُدلل عليه هو علم يقين ، أما
ما لا تستطيع التدليل عليه فليس علم يقين ، بل تقليد ، كأن يقول الطفل :
﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (١) [الإخلاص]

وهذا حق ، لكن الطفل لا يستطيع أن يدلل عليه أو أن يقال شيء ومن
يقوله جازم به ، وهو غير واقع ؛ فذلك هو الجهل .

والعلم هو القضية المجزوم بها ، وهي واقعة وعليها دليل ، على عكس
الجهل الذي هو قضية مجزوم بها وليس عليها دليل .

والظن هو تساوى نسبين فى الإيجاب والسلب ، بحيث لا تستطيع أن
تجزم بأى منهما ؛ لأنه إن رجحت كفة كانت قضية مرجوحة ، والقضية
المرجوحة هى شك أو ظن أو وهم . فالظن هو ترجيح النسب على
بعضها . والشك هو تساوى الكفتين .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا . . ﴾ (٢٦) ﴿ يبين لنا أن الذين
كانوا يعارضون رسول الله ﷺ فعلوا ذلك إما عناداً - رغم علمهم بصدق
ما يبلغ عنه ، وإما أنهم يعاندون عن غير علم ، مصداقاً لقول الحق
سبحانه : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ . . ﴾ (٢٧) [يونس]

وكان الواحد منهم إذا تمنن فى البلاغ عن الله تعالى والأدلة عليه ، يعلن
الإيمان ، لكن منهم من تمنن فى الأدلة وظل على عناده ، والذين اتبعوا
الظن إنما اتبعوا ما لا يعنى من الحق شيئاً .

لذلك يبين لهم الحق سبحانه أنه عليهم بخفايا نفوسهم ، ويعلم إن كان

إنكارهم للإيمان نابعاً من العناد أو من العجز عن استيعاب قضية الإيمان ؛
لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۖ ﴾ [يونس]

إذن : فقد علم الله سبحانه أولاً أن بعضهم في خبايا نفوسهم يوقنون
بقيمة الإيمان ، لكنهم يجحدونها ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ
بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [٢٢] [الأنعام]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى عليم ، ولا يخفى عليه أنهم كذبوا بما لم
يحيطوا بعلمه ، وبعضهم لم يفهم قيمة الإيمان ، ومن علم منهم قيمة
الإيمان جحدوها ، عناداً واستكباراً .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا ۖ ۝
[١٤] ﴾ [النمل]

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ
قَصْدِيقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ
مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [٣٧]

وحين تستمع للقرآن وما فيه من سر الأعداد والإنجبار بالمفاهيم التي
لا تخضع لمنطق الزمان ، ولا لمنطق المكان ، فالفطرة السليمة توقن أن هذا
القرآن لا يمكن أن يُفترى ، بل لا بد أن قائله ومُنزّله عليم خبير ؛ لأن
القرآن جاء مصداقاً لما بين يديه من الكتب السابقة .

أى : أن ما به دائماً هو أمام الناس ، أو مواجه لهم ، وهو كتاب مصدق .
للكتب السابقة من قبل تحريفها كالتوراة والإنجيل والزيور^(١) ، وهى الكتب
التي سبقت القرآن نزولاً ، لا واقعاً ، فجاء القرآن مصدقاً لها .

أى : هى تصدقه ، وهو يصدقها من قبل تحريفها ، وهى الكتب التى
بشّرت بمحمد ﷺ رسولاً ، مثلما جاء فى القرآن عن تصديق عيسى عليه
السلام بمجىء محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَمِمَّا شَرَأَ بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ
بَعْدِ اسْمِهِ أَحْمَدُ .. ﴾ (٦) ﴿

فلما جاء أحمد (محمد ﷺ) ونزل عليه القرآن صدق الإنجيل فى قوله
هذا ، وما جاء فى القرآن من عقائد أصيلة هى عقائد جاءت بها كل الكتب
السمائية ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ
وَهَارُونَ وَمُوسَى وَآدَمَ إِنَّنَا ذَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (١١٤) ﴿

[النساء]

ويقول الحق سبحانه :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ
إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. ﴾ (١٣) ﴿ [الشورى]

إذن : فهناك أصول جاءت بها كل الكتب السماوية ، وهناك كذلك
أخبار أخبرت عن حدوثها الكتب السماوية ، وأبلغنا رسول الله ﷺ بالقرآن
وفيه تلك الأخبار ، فمن أين جاء محمد ﷺ بتلك العقائد الصحيحة ،

(١) الزبور : مر كتاب داود عليه السلام . وأصله : كل كتاب مزبور أى : مكتوب . قال تعالى : ﴿ وَتَقَدَّ

فَصَلْنَا بِمَعْصِيَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضِ ذَاتِنَا دَاوُدَ زَبُورًا .. ﴾ (٥٥) ﴿ [الإسراء] .

وتلك الأخبار الموجودة في الكتب السابقة ، وهو ﷺ لم يكن من أهل الكتاب ، ولا عَلِمَ منهم شيئاً^(١) ؟

إذن : فعندما يقول محمد ﷺ ما جاء ذكره في الكتب السابقة على القرآن ، فهذه الكتب مصدقة لما جاء به محمد ﷺ ؛ لأن هذه الأخبار قد وقعت ، وهذا تأكيد لصدقه ؛ لأنه بشهادة أهل زمانه لم يجلس إلى معلّم ، ولم يقرأ كتاباً ، وتاريخه وسيرته معروفة ؛ لأنه من أنفسكم ، ولم يُعَلِّم عنه أنه قد زاول كلاماً بليغاً ، أو خطب في قوم قبل الرسالة ، أو قال شعراً .

وبعد ذلك فوجيء هو - كما فوجئتم أنتم - بحجج هذا البيان الرائع ، فمن أين جاء به ؟

أنتم تقولون إنه هو الذي جاء به ، لكنه ﷺ ينسب الرفعة لصاحبها ، ويعلن أنه ﷺ مُبَلِّغ فقط ، فيقول ما أمره الله به أن يقوله : ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٦) [يونس]

ويحضُّ القرآن الكريم النبي ﷺ أن يسألهم : هل لاحظوا على كلماته - من قبل - البلاغة والفصاحة أو الشعر ؟!

ولننظر في «ماكُنَّات»^(٢) القرآن الكريم ، وهي الآيات التي يقول فيها الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنْتُ ﴾ مثل قوله سبحانه :

(١) وفي هذا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنْتُ تَقُولُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَعْطَفَ بِمِثْلِكَ إِذَا لَأَوْتَابَ الْمُسْلِمُونَ ﴾ [التكوير: ٤٨]

(٢) «ماكُنَّات» القرآن هي الآيات التي وردت فيها لفظة : ﴿ مَا كُنْتُ ﴾ ، وهذا في إحدى عشرة آية هي : [آل عمران : ٤٤] ، [هود : ٤٩] ، [يوسف : ١٠٣] ، [التقصص : ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٨٦] ، [التكوير : ٤٨] ، [الشورى : ٥٢] .

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَهْمُ^(١) إِلَيْهِمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ۖ ۝ (٤٤) ﴾ [آل عمران]

وهذا أمر ثابت في الأخبار .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝ (٤٤) ﴾ [التقصير]

والروحى إلى موسى - عليه السلام - والمكان الذى نزل فيه ذلك الروحى أمر ثابت في الأخبار .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ^(٢) تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ (٤٥) ﴾ [التقصير]

وكثير من هذه الآيات تجعل محمداً ﷺ وكأنه يسأل المعاصرين له : كيف أخبرت بوقائع وأخبار لم تكن موجوداً في زمانها أو مكانها ؟

لا يد - إذن - أن الله الحق - سبحانه - هو الذى أخبرنى بما وافق ما عندكم من أخبار .

وبعد ذلك جاء القرآن الكريم مصداقاً لما بين يديه : ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۖ ۝ (٩٧) ﴾ [البقرة]

أى : أنه الكتاب الذى يضم صدق كل حدث قادم ؛ لأن القرآن حرق حُجْبَ وَحُجْرَ الْمَاضِىِ وَالْمُسْتَقْبَلِ .

ونحن نعلم أن الأشياء الغيبية تحدث بسببين ؛ الأول : أن يتكلم عن

(١) الأفلام هنا : العدايح ، وهى قداح جعلوا عليها علامات يعرفون بها من يكفل مريم على جهة القرعة ، وإنما قيل للقدح : القلم لأنه يُقْلَمُ أى يُبْرِى . [اللسان مائة : قلم بـ] .

(٢) ثاويًا : مقيماً ، ومدين : قرية شتىب عليه السلام .

شيء سبق الزمان الذي نزل فيه ، فهو يتكلم في الماضي الذي لم يكن رسول الله ﷺ من أهل الاطلاع والتعلم ليعرفه ويعلمه .

وكذلك خرق القرآن الكريم حجب الحاضر الذي عاصر نزوله ، هذا الحاضر الذي قد يكون محجوباً بالمكان .

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - فقد يحدث حادث في الإسكندرية في نفس الوقت الذي تكون أنت فيه موجوداً بالقاهرة ، وأنت لا تعلم هذا الحدث ؛ لأنه محجوب عنك ببعد المكان ، وحاجز المكان يتمثل - غالباً - في الأمور الحاضرة ، أما أمور المستقبل فهي محجوبة عنا بالزمان والمكان معاً .

وحين يخبرنا القرآن الكريم بحدث ماضٍ لم يشهده رسول الله ﷺ ، ولم يتعلمه ، ولم يقرأ عنه ؛ إذن : فالقرآن إنما يخرق أمامنا حجاب الزمن الماضي . وإذا أخبر القرآن بحدث حاضر في غير مكان نزوله على سيدنا رسول الله ﷺ ، فهذا خرق لحجاب المكان مثل قول الحق سبحانه : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ﴾ (٨) [المجادلة]

وحين سمع المنافقون والكفار هذا القول الكريم ، لم ينكروا أنهم قالوا في أنفسهم ما جاء به القرآن ، وهكذا خرق القرآن حاجز المكان في أنفسهم هم .

إذن : فأخبار الغيب في القرآن إما خرقٌ لزمانٍ ماضٍ أو خرقٌ لزمان الحال ، وإما خرقٌ لزمان ومكان الاستقبال .

ونحن نعلم أن القرآن كان ينزل والمسلمون ضعاف ، لا يستطيعون حماية أنفسهم ، ولا أحد يجير على أحد ، ويتجه النبي ﷺ إلى الطائف

ليعرض الإسلام على أهلها ، لعلَّه يلتزم لهم مجيراً من أهل الطائفت ؛ ولكنه ﷺ لا يجد إلا الإيذاء والإعراض^(١) ، ويرضى بعضاً من صحابته أن يهاجروا إلى الحبشة^(٢) .

وفي ظل كل هذه الأزمات ، ينزل قول القرآن : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۖ ۝ (٤٥) ﴾ [القمر]

حتى إن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يتساءل : أى جمع هذا الذى يهزم ، ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟ ثم تأتى غزوة بدر ويشهد عمر هزيمة وفرار مقاتلى قريش ؛ فيرى رأى العين صدق ما جاء به الوحي من قبل^(٣) .

وهكذا تأكد الجميع أن القرآن الكريم غير مُفْتَرى ، فكيف يُثبِتُ رسول الله ﷺ أنه افتراه ؟

(١) كان هذا بعد وفاة عمه أبى طالب ، الذى كان مدافعاً عنه ، حامياً له من أذى المشركين ، ولكن أهل الطائفت قعدوا له ﷺ صفين على طريقه ، وجعلوا لا يرفع رجله ولا يضعهما إلا ضربوهما بالحجارة حتى أدموا رجله . [دلائل النبوة للبيهقى ٤١٥/٢] . عند ذلك قال رسول الله ﷺ : « اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي ، منعه الله الأسواء فوق العقل البشري ، والمعراج فوق الفوق ؛ وذلك لحمايته له ورعايته لدينه » .

(٢) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأودى أصحاب رسول الله ﷺ ، وفشوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم ، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه ومن عمه ، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلايه حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » . حديث طويل أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣٠١/٢) وأورده ابن هشام في السيرة بنحوه (٣٢١/١) .

(٣) عن عكرمة قال : لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۖ ۝ (٤٥) ﴾ [القمر] قال عمر : أى جمع يهزم ؟ أى أى جمع يهزم ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يشب في السرع وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۖ ۝ (٤٥) ﴾ [القمر] فعرفت تلويحها يومئذ . ذكره ابن كثير في تفسيره (٢٦٦/٤) وعزه لابن أبي حاتم .

وإذا كان هذا القرآن مفترىً ، فلماذا لا تفترون مثله ؟ وفيكم الشعراء والبلغاء والخطباء ١٩ ولم يقل محمد ﷺ أنه يليغ أو خطيب أو شاعر ، ولم يطلب القرآن الكريم منهم أن يأتوا بواحد مثل محمد ﷺ ، لا صلة له بالبلاغة أو الفصاحة ، بل يطلب منهم أن يأتوا بالفصحاء كلهم ، ويدعوهم أن يقولوا مثل آية واحدة من القرآن .

وإن قالوا : إن ما جاء به هو السحر ، وإن محمداً ساحر قد سحر العبيد والضعاف ، وأدخلهم في الإسلام ، فلماذا لم يسحركم محمد ؟ إن بقاءكم من غير سحر يدل على أن إطلاقكم كلمة السحر على ما جاء به دعوى كاذبة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ... ﴾ (٣٧) ﴿ [يونس]

فالقرآن قد جاء فيه تفصيل كل الأحكام الصالحة إلى قيام الساعة ، أما الكتب السابقة على القرآن فكانت تضم الأحكام المناسبة لزمانها ، ولأمكنة نزولها .

وهو كتاب ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أى : لا شك فيه ، يكشف الكفار ، ويفضح ارتيابهم وكذبهم ، فهم قد اعترفوا بعظمة القرآن وقالوا : ﴿ لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ... ﴾ (٤٦) ﴿ [الزخرف]

إذن : فهم قد عرفوا أن القرآن لا عيب فيه ، ولا ريب ، حتى من الكافرين به .

ريأتى الرد على قولهم بالافتراء ، فى قول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا

مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

وقد سبق هذا المجيء بالتحدي أسباب عجزهم عن النجاح في التحدي ؛ لأن الآية السابقة تقرر أن الكتب السماوية السابقة تُصدق نزول القرآن الكريم ، وبينها وبين القرآن تصديق متبادل .

فهم مهزومون فيه قبل أن ينزل .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ .. ﴾ (٣٨) ﴿ [يونس]

وقد جاء التحدي مرة بالكتاب في قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ لَنْ أَجْتُمِعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ

لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (٨٨) ﴿ [الإسراء]

ولم يستطيعوا ، فنزلت درجة التحدي ؛ وطالبهم أن يأتوا : ﴿ بَعْشِرْ سُورٍ

مِثْلَهُ مَقْرَآتٍ .. ﴾ (٩٢) ﴿ [هود]

فلم يستطيعوا الإتيان بعشر سور ، فطالبهم أن يأتوا بسورة تقترب -

ولو من بعيد - من أسلوب القرآن ، فلم يستطيعوا ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ

مِثْلِهِ .. ﴾ (٩٢) ﴿ [البقرة]

فكيف - إذن - من بعد كل ذلك يدعون أن محمداً ﷺ قد افترى

القرآن ، وهو ﷺ لم تكن له صلة بالأساليب البلاغية أو الفصاحة ؟!

لقد دعاكم أن تأثوا بكل الفصحاء والبلغاء ليفتروا ، ولو سورة من

مثله ، ووضع شرطاً فقال : ﴿ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ .. ﴾ (٣٨) ﴿

[يونس]

لأن الله سبحانه وتعالى هو القادر الوحيد على أن يُنزل قرآنًا ؛ لذلك دعاهم رسول الله ﷺ أن يدعوا الشركاء ؛ وذلك حتى لا يقول الكفار وبعضهم من أهل اللجاجة ^(١) : سندعو الله ؛ ولذلك يأتي القرآن بالاستثناء **فَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . . (٢٨) ﴿** . وهم بطبيعة الحال غير صادقين في هذا التحدى .

والله - سبحانه وتعالى - حين يرسل رسولاً إلى قوم ؛ ليعلمهم منهجه في حركة الحياة ، إنما يريد سبحانه أن تؤدي حركة الحياة إلى الغاية المطلوبة من الإنسان الخليفة في الأرض ؛ ولذلك يأتي الرسول من جنس المرسل إليهم ؛ ليكون أسوة لهم ؛ لأن الرسول إن جاء ملكاً لما صحت الأسوة ، بل لا بد أن يكون بشراً ^(٢) .

والحق سبحانه لا يرسل أى رسول إلا ومعه بينة ودليل صدق على أنه رسول يبلغ عن الله تعالى .

والبينة لا بد أن تكون من جنس نبوغ ^(٣) القوم ، فلا يأتي لهم بمعجزة فى شيء لم يعرفوه ولم يألّفوه ؛ حتى لا يقولوا : لو تعلمنا هذا لجئنا بمثل ما جاء .

وقد جاء القرآن ليثبت عجزهم عما نبيغوا فيه من صناعة الكلام ؛ شعراً ونثراً وخطابة .

وكان القرآن هو معجزة رسول الله ﷺ فى قوم فصحاء يعقدون للشعر

(١) اللجاجة : التمادي فى الجدل والمراء .

(٢) لذلك قال رب العزة : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَشْهَدُونَ مَطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء] فالرسول يكون من جنس من أرسل إليهم ، ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴾ [الأنعام] .

(٣) النبوغ . الإجابة والبراعة فى علم أو فن معين ، [المعجم الرسيط] .

سُورَةُ يُوسُفَ

○ ٩٣٩ ○

أسواقاً ، ويعلقون الفائز من هذا الشعر على جدران الكعبة شهرة له وشهادة به .

إذن : فهم أصحاب دراية بصناعة الكلام ، وجاءت المعجزة مع الرسول ﷺ من جنس ما نبغوا فيه ؛ لتحدهام . والتحدى يستدعى استجماع قوة الخصم ؛ ليرد على هذا المتحدى ، فإذا عجز مع التحدى ، يصير المعجز ملزماً .

وقد تحدى الحق سبحانه العرب جميعاً بالقرآن كله : ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ^(١) (٨٨) ﴾ [الإسراء]

فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله ، فتدرج القرآن معهم في التحدى فطلب منهم ما هو أقل من ذلك ، وهو أن يأتوا بعشر سور مثله في قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ .. (١٢) ﴾ [هود]

ثم تحدهام بالإتيان بمثل سورة من القرآن :

وعند التأمل نجد أن الأسلوب الذي جاء بطلب سورة كان على لونين : فمرة يقول : ﴿ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ .. (٣٨) ﴾ [يونس]

ومرة يقول : ﴿ بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ .. (٢٢) ﴾ [البقرة]

وكل من اللونين بليغ في موضعه ف ﴿ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ .. (٣٨) ﴾ تبين أن المثلية هنا محققة ، أى : مثل ما جاء من سور القرآن . وقوله : ﴿ بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ .. (٢٢) ﴾ [البقرة]

(١) الظهير : المعين والمساعد . قال تعالى : ﴿ فَلَا تَكُونُوا ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ .. (٨٦) ﴾ [القصص] . وذهب بعض العلماء إلى أن التحدى كان مقصوداً به الإنس فقط دون الجن ، لأن الجن ليسوا من أهل اللسان العربى ، وإنما ذكرهم الله في الآية تعظيماً لإعجاز القرآن ، لأن عجزهما معاً عن أن يأتوا بمثله دليل على أن الفريق الواحد منهم أعجز . [انظر : البرهان في علوم القرآن - للزركشى ١/١١١]

أى : سورة من مثل محمد - ﷺ - فى أنه لم يجلس إلى معلّم ، ولم يقرأ ، ولا عُرِف عنه أنه تكلم بالبلاغة فى أى فترة من مراحل حياته قبل الرسالة^(١) .

وقال الحق سبحانه : ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٦) [برنس]

إذن : ﴿ سُورَةُ مِنْ مِّثْلِهِ .. ﴾ (٢٢) [البقرة]

أى : مثل محمد ﷺ الذى لم يتعلم وكان أمياً ، ولكن لماذا يأتى هذا اللون من التحدى ؟

لأنهم قالوا عن القرآن :

«أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا»^(٢) فهى تُملى عليه بكرة وأصيلاً (٥) ﴿

[الفرقان]

بل واتهموه فى قمة غفلتهم أنه يتعلم من رجل كان بمكة ، فيلفتهم القرآن إلى أن الرجل - الذى قالوا إنه معلم للرسول ﷺ - كان أعجمياً غير عربى ، يقول الحق سبحانه : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ^(٣) إِلَيْهِ أُعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ .. ﴾ (١٠٣) [النحل]

(١) وفى تفسير هذه الآية قول ثالث ذكره القرطبى فى تفسيره (٢٧٧/١) فقال : ﴿ مِنْ قَبْلِهِ .. ﴾ (٢٢) [البقرة] أى : من مثل التوراة والإنجيل ، فالمتى : فأتوا بسورة من كتاب مثله فإنها تصدق ما فيه وكل من هذه الأقوال صواب ومحتمل .

(٢) الأساطير : جمع أسطورة . أى : مما سطره الأولون وكتبوه . والأساطير أيضاً : الأباطيل ، وأحاديث باطلة لا أصل لها قد سطرها وألفها الأولون . [لسان العرب مادة : سطر] .

(٣) اكتتبها : طلب من النساخ نسخها له .

(٤) يلحدون إليه : يملون إليه . واختلف المفسرون فى تسمية هذا الرجل الذى قال المشركون أن محمداً ﷺ تعلم منه ، وليس المهم البحث عن اسمه . بل المهم أنه أعجمى فكيف يعلم محمداً ﷺ هذا القرآن العربى .

ويريد الحق سبحانه أن يصنفهم ، فيقول بعد ذلك :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ، وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ

كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ

عَذَابُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٦﴾

وهذا الصنف من الناس الذين ﴿ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ .. ﴾ (٣٦) ، وهم من أخذتهم المفاجأة حين حَدَّثُوا بشيء لا يعرفونه ، والناس أعداء ما جهلوا ؛ فكذبوا ما جاء به رسول الله ﷺ من القرآن قبل أن يتبينوا جمال الأداء فيه ، ونسق القيم العالية ، وإذا ما سنحت لهم فرصة يتبينون فيها جمال الأداء ، ودقة الإعجاز فهم يتجهون إلى الإيمان .

ومثال ذلك : عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقد كان كافراً ثم علم أن أخته وزوجها قد أسلما ؛ فذهب إليها في منزلها وضربها ، فأسال دمها ، وسيل الدم من أخت بضربة أخيها مثير لعاطفة الحنان ، وهذا ما حدث مع عمر ؛ فهدأت موجة عناده ، فاستقبل القرآن بروح لا عناد فيها ؛ فذهب فأمن برسول الله ﷺ^(١) ، وكان من قبل ذلك ممن : ﴿ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. ﴾ (٣٦) أى : لم يعرفوا مراميهِ ، وبمجرد أن سمعوا عن رسالته ﷺ فجأة ، اتهموه بالكذب والعياذ بالله .

ولذلك اقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا ﴾^(٢) [محمد]

(١) حديث إسلام عمر بن الخطاب ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٣٤٣ - ٣٤٦) .

(٢) أنفاً من قبل ، وقد نزلت هذه الآية في المنافقين كانوا يستمعون كلام رسول الله ﷺ فإذا خرجوا من عنده سألوا أصحاب رسول الله ﷺ استهزاء وإعلاماً أنهم لم يلتفتوا إلى ما قال : ﴿ مَاذَا قَالَ آنفًا ﴾ [محمد]

أنفاً، (٣٤٦) أي : ماذا قال سابقاً وسابقاً ؟ [اللسان : مادة (أ ن ف) - يصرّف]

وهذا يدل على أنهم لم يفهموا ما نزل على رسول الله ﷺ من القرآن ،
وتأتى الإجابة من الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً
وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ^(١) وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. ﴾ (٤٤) [انصت]

إذن : فالقرآن هدى لمن تفتح قلوبهم للإيمان ، أما القلوب المليئة
بالبغض لقائله وللإسلام ؛ فهؤلاء لا يمكن أن يصح حكمهم .

وإن أراد أى منهم حكماً صحيحاً فليُخرج من قلبه ما يناقض ما يسمع ،
ثم عليه أن يستقبل الأمرين ؛ ولسوف يدخل قلبه الأقوى حجة ،
وهو الإسلام .

إذن : فمن امتلأ قلبه بعقيدة كاذبة ؛ لا يمكن له أن يهتدى .

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. ﴾ (٢٩) [برس]

والتأويل^(٢) هو ما يرجع الشيء إليه ، وهذا يوضح لنا أن هناك أقضية
من القرآن لم يأت تفسيرها بعد ، ستفسرها الأحداث ، وقد يقول القرآن
الكريم قضية غيبية ، ثم يأتى الزمن ليؤكد هذه القضية ، هنا نعرف أن
تأويلها قد جاء .

وهؤلاء القوم قد كذبوا من قبل أن يأتى لهم التأويل ، وكان عدم مجيء
التأويل هو السبب فى تأخير بيان الحق فى المسألة لتأخر زمنه .

وعلى سبيل المثال ، ها هو ذا عمار بن ياسر صاحب رسول الله ﷺ
حين قامت المعركة بين معاوية بن أبى سفيان والإمام على - رضى الله
عنه - وقائلاً عمار فى صف على ، وقتل . هنا تنبه الصحابة إلى تأويل

(١) الوقْر : ضعف السمع وقيل : العصب . [اللسان : مادة (وقر)] .

(٢) التأويل والمعنى والتفسير واحد . وأصله ما يؤول إليه الشيء ؛ ويقول تعالى : ﴿ هَلْ يَتَذَكَّرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ
يوم يأتى تَأْوِيلُهُ .. ﴾ (٥٦) [الأعراف] أى : أنهم ينتظرون تحقق الغلاب ووقوعه .

حديث من رسول الله ﷺ حيث قال : « ويح عمار .. تقتله الفئة الباغية »^(١).

وهكذا جاء تأويل حديث رسول الله ﷺ عندما تحقق في الواقع ، وكان هذا سبباً في انصراف بعض الصحابة عن جيش معاوية .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. ﴾ (٣٩) [يونس]
 أى : أن التأويل لم يظهر لهم بعد .

ومن أدوات النفي : « لم » مثل قولنا : « لم يَجِبْ فلان » ، ونقول أيضاً : « لما يَجِبْ فلان » ، والنفي في الأولى جزم غير متصل بالحاضر ، كأنه لم يأت بالأمس .

أما النفي بـ « لما » فيعنى أن المجرى منتف إلى ساعة الكلام ، أى : الحاضر ، وقد يأتى من بعد ذلك لأن « لما » تفيد النفي ، وتفيد توقع الإثبات .
 والحق سبحانه يقول : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا .. ﴾ (١١) [الحجرات]

وهؤلاء القوم من الأعراب قالوا : ﴿ آمَنَّا ﴾ رغم أنهم راعوا المسلمين وقتلدهم زيفاً وتفاقاً^(٢) ، ولم يكن الإيمان قد دخل قلوبهم بعد ، وحين سمعوا قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. ﴾ (١٤) [الحجرات]

(١) أخرجه البخارى في صحيحه (٤٤٧) ومسلم في صحيحه (٢٩١٥) بنحوه عن أبى سعيد الخدرى ، وقامه أنه عند بناء المسجد النبوى ، قال أبو سعيد : « كنا نحمل لينة لينة ، وعمار لبتين لبتين . فرأه النبي ﷺ ، فيفض التراب عنه ويقول : « ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » .

(٢) ذهب البخارى إلى أن هؤلاء الأعراب كانوا منافقين ، وقد استدرك بعض العلماء هذا عليه فقالوا : إنهم كانوا مسلمين ولكنهم أول ما دخلوا في دين الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يكن الإيمان قد تمكن في قلوبهم بعد . انظر تفسير ابن كثير (٤/٢١٨، ٢١٩) .

قَالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ ؛ لِأَن مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْإِيمَانَ سَوْفَ يَدْخُلُ قُلُوبِهِمْ .
وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ
الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ ﴾ (١٤٢) [آل عمران]
فَحِينَ سَمِعُوا ذَلِكَ قَالُوا : إِذَنْ : وَثَقْنَا أَنَّهُ سَيَأْتِي عِلْمُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِنَا
كَمُجَاهِدِينَ وَصَابِرِينَ .

وَهَكَذَا نَعْرِفُ أَنَّ ﴿ لِمَا ﴾ تَعْنِي أَنَّ الْمُنْفَى بِهَا مَتَوَقَّعُ الْخُدُوثِ . وَالتَّأْوِيلُ
كَمَا نَعْلَمُ هُوَ مَرْجِعُ الشَّيْءِ .

وَقَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَثِيرِ مِنَ الْأَخْبَارِ لَمْ تَكُنْ وَقْتُ ذِكْرِهَا بِالْقُرْآنِ
مَتَوَقَّعَةً ، أَوْ مَظَنَّةً أَنْ تَوْجِدَ . وَحِينَ وَجَدْتَ وَلَا دَخَلَ لِبَشَرٍ فِي وُجُودِهَا ،
فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ قَائِلَ هَذَا الْكَلَامِ قَدْ أَخَذَهُ عَمَّنْ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَوْجِدَ ،
مِثْلَمَا جَاءَ فِي نَحْوِ انتِصَارِ الرُّومِ عَلَى الْفَرَسِ رَغْمَ هَزِيمَةِ الرُّومِ .

قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ (١) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَافِلُونَ (٢) فِي
بَضْعِ (٣) سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ
اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الروم]

جَاءَ هَذَا الْخَبَرُ وَانْتَظَرَ الْمُسْلِمُونَ تَأْوِيلَهُ ، وَقَدْ جَاءَ تَأْوِيلُهُ طَبَقاً لِمَا أَخْبَرَ
الْقُرْآنَ .

أَوْ أَنَّ التَّأْوِيلَ سَيَأْتِي فِي الْآخِرَةِ ، وَمَا يؤولُ الْأَمْرُ فِي التَّكْذِيبِ سَيَعْلَمُونَهُ
مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ .

(١) الْبَضْعُ : مَا دُونَ الْعِشْرِ ، وَأَدْنَى الْأَرْضِ : بَيْنَ أَذْرَعَاتِ بَصْرَى فِي الشَّامِ ، وَهِيَ أَقْرَبُ بِلَادِ الشَّامِ إِلَى
الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ [تفسير ابن كثير : ٢/ ٤٢٢ - ٤٢٤] .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥٢) هل ينظرون إلا تأويله .. ﴿ (٥٣) ﴾ [الأعراف]

هم ينتظرون ما يؤول إليه القرآن وما يؤولون إليه ، إن كان في الدنيا فنصر أهل القرآن ، وإن كان في الآخرة ، فهذا قول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فُهِلَ لَنَا مِنْ شُفْعَاءٍ فَشَفَعُوا لَنَا أَوْ نُرْدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ .. ﴾ (٥٣) [الأعراف]

هذا هو التأويل الذي كذبه البعض من قبل .

إذن : فالتأويل إما أن يكون لمن بقي من الكفار فيرى ما أخبر به القرآن وقد جاء على وفق ما أخبر به نبي لا يملك أن يتحكم في مصائر الأشياء ، وتأتى على وفق ما قال .

فكان محمداً ﷺ كان يجازف بأن يقول كلاماً لا يتحقق ؛ فيصرف عنه الذين آمنوا به ، ولكنه ﷺ لم يقل إلا ما هو واثق ومطمئن من وقوعه ؛ لأن الخبر به جاء من لدن عليم خبير .

وإما أن التأويل - أيضاً - يأتى في الآخرة .

وهنا قال الحق سبحانه : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. ﴾ (٣٩) [يونس]

والحق سبحانه هنا يلفت رسوله ﷺ إلى أن ما حدث معه قد حدث مع رسل من قبله ، فقال سبحانه في نفس الآية : ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣٩) [يونس]

أى : انظر لموكب الرسل كلهم من بدء إرسال الرسل ، هل أرسل الله رسولا ونصر الكافرين به عليه . . ٤ . لا ، لقد كانت الغلبة دائما لرسل الحق عز وجل مصداقا لقوله سبحانه : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي . . (٢١) ﴾ [المجادلة]

وعرفنا ما حدث للظالمين ، فمنهم من أغرقه الله ، ومنهم من خسف به الأرض ، ومنهم من أخذه بالصيحة^(١) .

إذن : فالتأويل واضح فى كل مواكب الرسل التى سبقت رسالة محمد ﷺ ، وإذا كان كل قوم من الظالمين قد نالوا ما يناسب رسالة رسولهم ، فسينال القوم الظالمين الكافرين بمرسالة محمد ﷺ ما يناسب عمومية رسالته ﷺ .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ . . (٢٩) ﴾ لا بد لنا أن نعرف معنى الظلم ، إنه نقل الحق لغير صاحبه ، والحقوق تختلف فى مكانتها ، فهناك حق أعلى ، وحق أوسط ، وحق أدنى .

فإذا جئت للحق الأدنى فى أن تنقل الألوهية لغير الله سبحانه وتعالى فهذا قمة الظلم ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ^(٢) ﴾ (١٣) . [لقمان]

لأن فى هذا نقل الألوهية من الله سبحانه إلى غيره ، وبإلتهام غيره كان

(١) قال تعالى : ﴿ قَمِمْهُمْ مِنْ أَرْضِنَا عَلَيْهِ حَامِيًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٢٠) ﴾ [التكوير] . والخاصب : هى ريح شديدة البرد والهبوب تحمل حصباء الأرض فتضيقها على الناس وتقتلهم من الأرض وقد صلب الله بها قوم « عاد » . أما الصيحة فقد صوب بها قوم قوم « نود » . وحوقب : فارون بالخسف ، أما فرعون وجنوده فقد عوقوا بالغرق .

(٢) المعطلة للقيمة للنحرقة انحطاط ، والقيمة السوية رفعة .

صاحب دعوة بينه وبين الله تعالى ، لا ، فليس ذلك المنقول له الألوهية بصاحب دعوة ، بل تطوع الظالم من نفسه بذلك ، واتخذ من دون الله شريكاً لله ، وفي هذا تطوع بالظلم بغير مدع .

وهب أن الله تعالى قال : لا إله إلا أنا ، فلما أن القضية صحيحة ، وإما أنها غير ذلك ، فإن افترض أحد - معاذ الله - عدم صحتها ، فالإله الثاني كان يجب أن يعلن عن نفسه ، ولا يترك غيره يسمع له ويعلن عنه ، وإلا كان إلهاً أصمَّ غافلاً ، ولكن أحداً لم يعلن ألوهيته غير الله سبحانه ؛ لذلك تثبت الألوهية الواحدة للإله الحق سبحانه وتعالى .

وقد بين لنا الحق سبحانه : لا إله إلا أنا ، أنا الخالق ، أنا الرازق . ولم يصدر عن أحد آخر دعوى بأنه صاحب تلك الأعمال ، إذن : فقد صَحَّت الدعوى في أنه لا إله إلا الله .

والدرجة التالية في الظلم هي الظلم في الأحكام ، فإذا حكم أحد بحلِّ الربا فهذا ظلم في قضية كبيرة ، ولكن إن حكم قاض على مدين بأن يردَّ الدين فقط فهذا عدل ؛ وكذلك القاضى الذى يظلم في أحكامه إنما ينقل حقوق الناس إلى غيرهم .

إذن : فالظلم يأخذ درجات حسب الشيء الذى وقع فيه الظلم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِمْ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِمْ
وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٥٠﴾

والكلام هنا في الذين كذبوا ، فكيف يقسم الله المكذبين - وهم

يتكذّبهم لا يؤمنون - إلى قسمين : قسم يؤمن ، وقسم لا يؤمن ؟

ونحن نعلم أن الإيمان عمل قلوب ، لا عمل حواس ، فنحن لا نطلع على القلوب ، والحق سبحانه يعلم مَنْ مِنْ هؤلاء المكذّبين يخفى إيمانه في قلبه .

إذن : فمن هؤلاء من يقول بالتكذيب بلسانه ويخفى الإيمان في قلبه ، ومنهم من يوافق تكذيبه بلسانه فراغ قلبه من الإيمان ، ومن الذين قالوا : إن هذا القرآن افتراء إنما يؤمن بقلبه أن محمداً رسول من الله ، وصادق في البلاغ عن الله ، ولكن العناد والمكابرة والحق يدفعونه إلى أن يعلن عدم الإيمان .

وكذلك منهم قسم آخر لا يؤمن ويعلن ذلك .

إذن : فالمقسم ليس هو الإيمان الصادر عن القلب والمعبر عنه باللسان ، ولكن المُقسّم هو إيمان بالقلب غير مُعبر عنه ، ولم يصل إلى مرتبة الإقرار باللسان .

والذي جعل إيمان بعضهم محصوراً في القلب غير مُعبر عنه باللسان هو الحقد والحسد والكراهية وعدم القدرة على حكم النفس على مطلوب المنهج .

وبعض العرب حين أعلن لهم رسول الله ﷺ أن يقولوا : لا إله إلا الله : فيضمن لهم السيادة على الدنيا كلها^(١) . ورفضوا أن يقولوا الكلمة ؛ لأنهم يعلمون أنها ليست كلمة تقال ، بل فهموا مضمون ومطلوب

(١) فقد قال له عنه أبو طالب : يا ابن أخي ما تريد من قومك؟ قال : إني أريد منهم كلمة واحدة تدن لهم بها العرب ، وتؤدى إليهم العجم الجزية . قال : كلمة واحدة؟ قال : كلمة واحدة . قال : يا عم يقولوا : لا إله إلا الله ، أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٧/١) والترمذي في سننه (٢٢٣٢) وقال : حديث حسن .

الكلمة، وعرفوا أن «لا إله إلا الله» تعنى: المساواة بين البشر، وهم بكرهون ألا تكون لهم السيادة والسيطرة في أقوامهم.

وهذا يدل أيضاً على أن الحق سبحانه قد شاء أن يبدأ الإسلام في مكة، حيث الأمة التي تعلن رأيها واضحاً؛ ولذلك نجد أن النفاق لم ينشأ إلا في «المدينة»، أما في مكة، فهم قوم منسجمون مع أنفسهم، فهم حين أعلنوا الكفر لم يعانون من تشتت الملكات، لكن المنافقين في المدينة وغيرها هم الذين كانوا يعانون من تشتت الملكات، ومنهم من كان يلعب على الطرفين، فيقول بلسانه ما ليس في قلبه.

ولذلك يُعزَى الحق رسوله الكريم ﷺ وَيُسْرَى^(١) عنه ويبين له: إياك أن تحزن لأنهم يكذبونك؛ لأنك محبوب عندهم وموقر، فيقول الحق سبحانه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ...﴾ (٣٣) [الأنعام] أى: أنك يا محمد مُتْرَكة عن الكذب؟

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ...﴾ (٣٣) [الأنعام]

أى: أنه سبحانه يحملها عن رسوله ﷺ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أن رسوله أمين عند قومه، وهم في أثناء معركتهم معه، نجد الواحد منهم يستأتمه على أشيائه النفيسة^(٢).

والذين آمنوا برسالته ﷺ ولم يعلنوا إيمانهم، والذين لم يؤمنوا، هؤلاء

(١) يُسْرَى عنه: يكشفه عنه الهم والحزن، [اللسان: مادة: (سرى)]

(٢) المحردة: تقيض الإقرار، قال الجوهري: الجحود الإنكار مع العلم. قال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستقتها أنفسهم ظلماً وعلواً...﴾ (٣٦) [النمل] [اللسان: مادة: (جحد)]

(٣) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٢/ ٤٨٥) نقلاً عن ابن إسحاق ثم قال: «وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته ﷺ».

وأولئك أمرهم موكلون إلى الله تعالى ؛ ليلقوا حسابهم عند الخالق سبحانه ؛
لأنه سبحانه الأعلم بمن كذب عناداً، ومن كذب إنكاراً.

والحق سبحانه هو الذي يُعَذِّبُ ويُعَاقِبُ، وكل إنسان منهم سوف يأخذ
على قدر منزلته من الفساد ؛ لذلك يُنهِى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَرَبُّكَ
أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ۝ (٤١) ﴾ [يونس]

والفسد كما تعلم هو الذي يأتي إلى الشيء الصالح فيصيبه بالمعطب^(١) ؛
لأن العالَمَ مخلوقٌ قبل تدخل الإنسان - على هيئة صالحة، وصنعة الله
سبحانه وتعالى - لم يدخل فيها الفساد إلا بفعل الإنسان المختار، وصنعة
الله تؤدي مهمتها كما ينبغي لها .

وأنت أيها الإنسان إن أردت أن يستقيم لك كل أمر في الرجود، فانظر
إلى الكون الأعلى الذي لا دخل لك فيه، وستجد كل ما فيه مستقيماً
مصدقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا
الْوِزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴾ [الرحمن]

أي : اتقنوا أداء مسئولية ما في أيديكم وأحسنوه كما أحسن الله سبحانه
ما خلق لكم بعيداً عن أياديكم، والمطلوب من الإنسان - إذن - أن يترك
الصالح على صلاحه، إن لم يستطع أن يزيده صلاحاً؛ حتى لا يدخل في
دائرة المفسدين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) المعطب: الفساد والهلاك .

(٢) تطشوا: من الطغيان، بمعنى الغلظ، أي: اعدلوا في جميع أموركم ووزنوا الأمور والأشياء بميزان
العدل، ولا يظلم بعضكم بعضاً . والقسط: العدل . [اللسان : مادة (قسط) .. يتصرف] .

﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَشْرَ
بِرَيْثُونٍ مِمَّا أَعْمَلُ وَالْأَبْرَارُ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٤١)

وهذه آية تضع الاطمئنان في قلب رسول الله ﷺ فلم يَقُلْ الله سبحانه : «إِذَا كَذَّبُوكَ» بل قال : ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ.. (٤١)﴾ وشاء الحق سبحانه أن يأتي بالتكذيب في مقام الشك، وأتبع ذلك بقوله للنبي ﷺ : ﴿فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ.. (٤١)﴾ أي : أبلغهم : أنا لا أريد أن أحملكم على ما أعمل أنا، إنما أريد لكم الخير في أن تعملوا الخير، فإن لم تعملوا الخير؛ فهذا لن يؤثر في حصيلتي من عملي.

وبذلك يتضح لنا أن الرسول ﷺ لا يُجَازِي على عدد المؤمنين به، بل بأداء البلاغ كما شاء الله سبحانه^(١).

وقد شاء الحق سبحانه أن ينقل محمد ﷺ الخير إلى أمته، فإن ظلوا على الشر؛ فهذا الشر لن يناله لأن خبر البلاغ بالمنهج يعطيه ﷺ خيراً، لأنه يطبِّقه على نفسه، وشر الذين لا يتبعونه إنما يعود عليهم؛ لأن الذين يتأبون على الاستجابة لأي داعٍ إنما يظنون أن الداعي سوف يستفيد^(٢).

والبلاغ عن الله : إنما يطبقه الرسول ﷺ منهجاً وسلوكاً

(١) وما يدل على هذا أن نوحاً مكث في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ورغم هذا قال عنه رب العزة : ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ.. (٦١)﴾ [هود] واختلفوا حتى عدة من آمن معه بين عشرة أنفس، وثمانين نفساً من بينهم أبناءه. انظر تفسير ابن كثير (٢/٤٤٥).

(٢) ولذلك كان نوح يقول لقومه : ﴿وَيَا قَوْمِ لَا اسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ.. (٦١)﴾ [هود]، وهو يقول لقومه عاد : ﴿يَا قَوْمِ لَا اسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦١)﴾ [هود] وهكذا قال صالح لقومه ثمود : ﴿وَمَا اسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٢)﴾ [الشعراء]، ولوط لقومه : ﴿وَمَا اسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٣)﴾ [الشعراء]، وشعيب لقومه أهل مدين : ﴿وَمَا اسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٤)﴾ [الشعراء].

وَيُجَازَى عَلَيْهِ ^(١٧) .

فلا يجوز الخلط في تلك المسائل ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ..﴾ (٤١) .

ثم يقول الحق سبحانه على لسان رسوله ﷺ : ﴿أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ..﴾ (٤١) [يونس]

وكلمة ﴿بريء﴾ تفيد أن هناك ذنباً، وهذا القول الحق فيه مجازاة للخصوم، وشاء الحق سبحانه أن يعلم رسوله ﷺ والمؤمنين أدب الحوار والمناقشة ، فيقول : ﴿وَأَنَا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلِّي هَدَى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٢٤) [سبا]

أى : أننا - الرسول ومعه المؤمنون - وأنتم أيها الكافرون إما على هدى ، أو في ضلال . والرسول ﷺ موقن أنه على هدى وأن الكافرين على الضلال ، ولكنه يجاريهم ؛ عدالة منه ﷺ ومجازاة لهم .

كذلك يعلمه ربه سبحانه أن يقول : ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرِمْنَا ..﴾ (٢٥) [سبا]

أى : أنه يبين لهم : هَبُوا أَنِّي أَجْرِمْتُ فَأَنْتُمْ لَنْ تَسْأَلُوا عَنِ إِجْرَامِي ، ومن أدب الرسول ﷺ شاء له الحق سبحانه أن يقول : ﴿وَلَا تَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٥) [سبا]

ولم يقل : «ولا تسأل عما تجرمون» . وكذلك شاء الحق سبحانه أن تأتي هنا في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها : ﴿أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ..﴾ (٤١) [يونس]

(١) قال الرسول مكلف ببلاغ ما أرسل به ، لا يزيد فيه ولا ينقص ، ولذلك يقول رب العزة عن نبيه ﷺ : ﴿وَلَوْ تَشَوَّلْتَ عَلَيْهِمْ لَغَارُوا مِنْكَ﴾ (١٥) لا غلظاً منه باليمين (١٦) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (١٧) فَمَا يَبْكُم مِّنْ أَسَدٍ عَلَيْهِ حَاجِزِينَ (١٨) [الحاقة] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصُّمَّ
وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١٢)

وكلمة « مَنْ » تطلق وقد يراد بها المفرد ، وقد يراد بها المفردة ، وقد يراد بها المثني ، وقد يراد بها الجمع ، ومرة يطابق اللفظ فيقول سبحانه : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُ إِلَيْكَ .. ﴾ (٢٥) [الأنعام]

ومرة يقصد المعنى فيقول : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُونَ .. ﴾ (٤٦) [يونس]

لأن « مَنْ » صالحة للموقعين .

والسمع كما نعلم هو استقبال الأذن للصوت ، فإن كان صوتاً مَبْهُماً كأصوات الحيوانات أو أصوات الأعواد ، فهذه الأصوات لا تفيد إلا ما تفيده النغمة في الجسم من هزة أو ارتجاج .

وإما أن يكون الصوت له معنى تواضعي ، كاللغات المختلفة التي يتخاطب بها الناس في البلدان المختلفة ، فإن تكلمت بالإنجليزية في بلد يتكلم أهله بهذه اللغة فهموك وفهمت عنهم . هذا هو معنى التواضع في اللغة ، أي : أن المتكلم والسامع على درجة واحدة من الاتفاق على اللغة .

والنبي ﷺ عرّبي يتحدث بلسان عربي مبين لقوم من العرب ، فما العائق عن السمع إذن ؟

إن العائق عن السمع نفخ الأذن لما يأتي من جهة الخصم ، والسمع - كما نعلم - هو استشراق المخاطب إلى ما يفهم من المتكلم ، فإن لم يوجد عند المخاطب استشراق إلى أن يسمع ، فالكلام يُقال ولا يصل .

إذن : لا بد للسامع من حالة الاستشراف إلى فهم ما يقوله المتكلم .
وكما يقول المثل : «أذن من طين وأخرى من عجين» . أو كما تقول المرحّة
أن واحداً مال على أذن صديق له وقال : «أريد أن أقول لك سرّاً» فاقترب
الصديق مستشرفاً سماع السرّ فقال الرجل : «أريد مائة جنيه كقرض» ؛
فقال الصديق : «كأنى لم أسمع هذا السر» .

إذن : فالكلام ليس مجرد صوت يصل إلى الأذن ، لكن لا بد من
استشراف نفسى للتلقي . وهم لا يملكون هذا الاستشراف ؛ لذلك قال الحق
سبحانه : ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ۖ ۝ (٤٢) ﴾ أى : كان سمعهم لا يسمع .

ومثال ذلك : أننا نحمد المدرس الذى يشرح الدرس للتلاميذ ، وبين
التلاميذ من يستشرف السمع ؛ ولذلك يفهم الدرس ، أما الذى
لا يستشرف فكأنه لم يسمع الدرس .

وهم قد فاتوا الصُّمَّ ؛ لأن الأصم قد يفهم بالحركة أو الإشارة أو لغة
العين ، ولكن هؤلاء لا يسمعون ولا يعقلون ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا
لَا يَعْقِلُونَ ۖ ۝ (٤٢) ﴾

[يونس]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى
وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴾ (٤٣)

والرؤى أيضاً تحتاج إلى استشراف ، وأن يُقبل المرء على ما يريد أن يراه ،
وأحياناً لا يكون الرأى مستشرفاً ؛ لأن قلبه غير متجه للرؤية .

وسئل واحد: إنك تقول: من رأى فلاناً الصالح^(١) يَهْتَدِ الله . فردَّ عليه السامع متسائلاً: كيف تقول ذلك؟! فردَّ القائل: لقد رأى أبو جهل خبيراً من هذا، ومع ذلك ظل كافراً. فردَّ السامع: إن أبا جهل لم يرَ محمداً رسول الله ﷺ ، ولكنه رأى يثيم أبي طالب^(٢).

وهكذا شرح الرجل أن أبا جهل لم ينظر إلى محمد ﷺ على أنه رسول؛ لأنه لو نظر إليه بهذا الإدراك لتسللت إليه سكينَةُ الإيمان وهَيْبَةُ الخشوع وِجْلالُ الورع.

ونحن قد تلقى رجلاً صالحاً في بشرته أذمة^(٣) أو سواد ، وصلاحه يضيء حوله ، وله أسر^(٤) من التقوى، وجاذبية الورع.

ولو أن أبا جهل رأى محمداً ﷺ على أنه رسول لتغير أمره.

وها هو «فضالة»^(٥) يحكى عن لحظة أراد فيها أن يقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما اقترب منه ؛ قال له رسول الله ﷺ: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء ، كنت أذكر الله . قال: فضحك النبي ﷺ ، ثم قال: استغفر الله ، ثم وضع يده على صدر فضالة.

وساعة سمع فضالة هذا، ورأى محمداً ﷺ وهو يقول ذلك القول، قال: ما كان أبغض إليَّ من وجهه، ولكنى أقبلت عليه فما كان أحبَّ

(١) إن رؤية الصالحين فيها جذب إيماني ؛ لأن الرائي يرى نور الإيمان يناديه ، فيلحقه ، ويلتقي به .

أما رؤية أبي جهل فهي رؤيا انقطاع إيماني ؛ لأن استقباله للإيمان مقطوع ، فلم ير نوراً ، ولم يحس به ، وإنما كانت رؤيته من خلال الحقد الذي جعله لا يرى في رسول الله ﷺ إلا يثيماً لابن أبي طالب ، وذلك بخلاف موقف فضالة الذي أحس بالنور فأحبه .

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره (٣٢٣٢/٤) أن المشركين قالوا : ما وجد الله من يرسله إلا يثيم أبي طالب .

(٣) الأذمة هي الناس : السمرة السوداء ، وقيل : هي من أذمة الأرض ، وهو لونها ، وهي من داء أهر البشّر - عليه السلام . [اللسان : مادة (أذم)] .

(٤) الأسر : الثَمْتُ الذي يستولى على مشاعر المحيطين به .

(٥) هو : فضالة بن عمير بن الملوح النخعي .

إِلَىٰ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا مِنْ وَجْهِهِ ^(١).

هذا هو السماع ، وهذا هو البصر ، وكلاهما - السمع والبصر - أكرم
المتعلقات وأشرفها ؛ لأن السمع هو وسيلة الاستماع لبلاغ الله عنه ،
والإنسان قبل أن يقرأ لا بد له من أن يكون قد سمع .

والمقصود هنا بالعمى في قول الحق سبحانه : ﴿ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى ^(٢) وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ^(٣) ﴾ هو عمى البصيرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ ^(٤)

أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ^(٥) ﴾

كلمة « الله » هي اسم عَلَّم على واجب الوجود المتصف بكل صفات
الكمال التي عرفناها في أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين ، وإن كان لله
تعالى كمالات لا تنتهى ؛ لأن الأسماء أو الصفات التي يحملها التسعة
والتسعون اسماً لا تكفى كل كمالات الله سبحانه ، فكمالاته سبحانه
لا تنتهى .

ولذلك قال النبي ﷺ :

« أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ بَسَّمْتِ بِهِ نَفْسَكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ،
أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ » ^(١).

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٤١٧/١) بلفظ : « والله ما رفع يده من صدرى حتى ما من خلق الله ^(٢) شيء أحب إلى منه » .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩١/١ ، ٤٥٢) والحاكم في مستدركه (٥٠٩/١) من حديث ابن مسعود وصححه على شرط مسلم إن سلم من الإرسال .

وإن سأل سائل : ولماذا يستأثر الله سبحانه ببعض من أسمائه في علم الغيب ؟

أقول : حتى يجعل لنا الله سبحانه في الآخرة مزيداً من الكمالات التي لم تكن نعرفها ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يفتح على رسوله ﷺ «من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتح على أحد قبله»^(١).

وهذا بعض من فيض لا ينفد من أفاق اسم علم على واجب الوجود ، وصفات علم واجب الوجود ، والتسعة والتسعون اسماً التي نعلمها^(٢) هي اللازمة لحياتنا الدنيا ، ولكننا سنجد في الآخرة صفات كمال أخرى ، وكلمة «الله» هي الجامعة لكل هذه الأسماء ، ما عرفناها ؛ وما لم نعرفها .

والإنسان منا حين يُقبل على عمل ، فهذا العمل يتطلب تكاثف صفات متعددة ، يحتاج إلى قدرة ، وعلم ، وحكمة ، ولطف ، ورحمة ، وغير ذلك من الصفات ، فإن قلت : باسم القوى ؛ فأنت تحتاج إلى القوة ، وإن قلت : باسم القادر ؛ فأنت تحتاج إلى القدرة ، وإن قلت : باسم الحليم ؛ فأنت تحتاج إلى الحليم ، وإن قلت : باسم الحكيم ؛ فأنت تحتاج إلى الحكمة ، وإن قلت : باسم الله فهو تكفيك في كل هذا وغيره أيضاً ؛

(١) وذلك في يوم القيامة في مقام شفاعة رسول الله ﷺ بعد تأخر إخوانه من الأنبياء عنها ، وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - «أن رسول الله ﷺ يأتي تحت العرش فيضع ساجداً ، ثم يفتح الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتح على أحد قبله . ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، سل تعطه ، واشفع تشفع ، فيرفع الرسول ﷺ رأسه ويقول : يا رب آمين ، آمين . من حديث طويل أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧١٢) ، ومسلم في صحيحه (١٩٤) .

(٢) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة» أخرجه البخاري في صحيحه (٧٣٩٢) ومسلم (٢٦٧٧) وقد ورد ذكر أسماء الله الحسنى بالتفصيل في رواية أخرى عن أبي هريرة أخرجهما الترمذي في سننه (٣٥٠٧) وابن ماجه (٣٨٦١) وطريق الترمذي أصح .

ولذلك يكون بدء الأعمال ^(١) بـ «بسم الله» ، فإذا احتسجت إلى قدرة وجدتها ، وإن احتسجت إلى غنى وجدته ، وإن احتسجت إلى بسط ^(٢) وجدته .

وكل صفات الكمال أجزؤها الحق سبحانه لنا في أن نقول : «بسم الله» .
وحين تبدأ عملك باسم الله ؛ فأنت تُقر بأن كل حول ^(٣) لك موهوب من الله ، والأشياء التي تتفعل لك ، إنما تتفعل باسم الله ، وكل شيء إنما يسخر لك باسم الله ، وهو القائل :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾ [يس]

ولو لم يدلل الله لنا الأنعام والأشياء لتفعل لنا ما استطعنا أن نملكها ، بدليل أن الله تعالى قد ترك أشياء لم يدللها لنا حتى نتعلم أننا لا نستطيع ذلك ، لا بعلمنا ، ولا بقدرتنا ، إنما الحق سبحانه هو الذي يدلل .

فأنت ترى الطفل في الريف وهو يسحب الجمل ، ويأمره بالرقود ؛ فيرقد ، ويأمره بالقيام ؛ فيقوم . أما إن رأينا ثعباناً فالكثير منا يجرى ليهرب ، ولا يواجهه إلا من له ذرية على قتله . والبرغوث الصغير الضئيل قد يأتي ليلدغك ليلاً ، فلا تعرف كيف تصطاده ؛ لأن الله لم يدلله لك .

وكذلك الثمرة على الشجرة إذا قطفتها قبل نضجها تكون غير

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٥٩/٢) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كل كلام - أو أمر - في بال لا يفتح يذكر الله عز وجل فهو أيمر - أو قال : أقطع » .

(٢) أي : أن يسط في رزقك ، فهو سبحانه الباسط . يقول سبحانه وتعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. (٣٦) ﴾ [الرعد] .

(٣) الحول : القوة ، والحيلة والقدرة على تسيير أمورك في الحياة .

مستساغة ، أما إن قطفنها بعد نضجها فأنت تستمتع بطعمها ، ثم تأخذ منها البذرة لتعيد زراعتها ، وتضمن بقاء النوع ، بل إن الشجرة تسقط من على الشجرة حين تنضج وكأنها تنادي من يأكلها .

وكذلك الإنسان حين يبلغ ، أى : يصيح قادراً على أن ينجب غيره ، فيكلفه الله بعد ذلك بالتكاليف الإيمانية ؛ لأنه لو كلفه قبل ذلك ^(١) ثم طرأت عليه مشاكل المراهقة ؛ فقد لا يستطيع أن يتحمل التكليف .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يخلق من عدم ، وأن يربى حتى يكتمل الإنسان ، ثم حدد التكليف من لحظة البلوغ ، ووضع شرط اكتمال العقل والرشد ، وألا توجد آفة أو جنون .

ولا أقوى من الله سبحانه يمكن أن يكلف لتفعل غير ما يريد الله ؛ لذلك شاء الحق سبحانه أن يكتمل للإنسان الرشد ساعة التكليف ، أما المجنون فلم يكلفه الله سبحانه ، وكذلك يسقط التكليف عن المكروه ؛ لأن التكليف في مضمونه هو اختيار بين البدائل ، وهذه منتهى العدالة في التشريع .

وأنت حين تستقبل التكليف عليك ألا تنظر إلى ما تأخذه منك العبادات ، لأنها لا تأخذ من حريتك ، بل تحترم أنت حرية الآخرين ، ويحترمون هم حريتك ، فإن حرم عليك أن تسرق ، فهو سبحانه قد حماك بأن حرم على جميع الخلق أن يسرقوا منك ^(٢) .

(١) لما استطاع القيام بما كلف به لأنه ليس بالغاً ؛ ولذلك كان التكليف مصاحباً للبلوغ ؛ ليكون هناك توازن تربوي يروض النفس إلى مراد الله ، ولوقام الصبي بالتكاليف فله ثواب .

(٢) عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » أخرجه مسلم في صحيحه (٤١) فجعل رسول الله ﷺ السلامة من الإيذاء سواء باللسان أو اليد علامة على حسن إسلام العبد .

إذن : فالتقييد قد جاء لصالحك .

ومبً أنك أطلقت يدك في الناس ، فماذا تصنع لو أطلقوا هم أياديهم فيما نملك ؟

وحين حرّم عليك التكليف أن تنظر إلى محارم غيرك ، فهو قد حرم على الغير أن ينظروا إلى محارمك .

وحين أمرك أن تزكّي ، فهو قد أخذ منك ؛ ليعطى الفقير من المال الذي استخلفك الله فيه .

فلا تنظر إلى ما أخذ منك ، بل انظر إلى ما قد يعود عليك إن أصابك القدر بالفقر ، والشيء الذي تستشعر أنه يؤخذ منك فإله سبحانه يعطيك الثواب أضعافاً كثيرة .^(١)

وبعد ذلك انظر إلى حركة الحياة ، وانظر إلى ما حرّم الله تعالى عليك من أشياء ، وما حلّل لك غير ذلك ؛ فستجد المباح لك أكثر مما منعك عنه .

إذن : فالتكليف لصالحك .

ثم بعد كل ذلك : أيعود شيء مما تصنع من تكاليف على الحق سبحانه ؟ لا .

أيعطيه صفة غير موجودة ؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه قد خلقنا بكل صفات كماله ، وليس في عملنا ما يزيده شيئاً .

(١) يقول الله - عز وجل - في كتابه الكريم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظُنُّ مَثَافَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسْبَةً لِّعَاقِبِهَا وَلِيُنَظَّرَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ أَمْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء] . وقد قال عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلرَّحْمَةِ فَاعِلُونَ ﴾ [المؤمنون] - ﴿ وَخُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صِلَاكَ سَكَنٌ لَهُمْ ... ﴾ [التوبة] - ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾ [٥٤] لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [٥٥] [المعارج] .

إذن: فمن المصلحة أن تطبق التكاليف لأنها تعود عليك أنت بالخير.

وانظر - مثلاً - إلى الفلاح في الحقل ، إنه يحرق الأرض ، وينقل السماد ، ويذر ، ويروي ويتعب ، وبعد ذلك يستريح في انتظار الثمار.

وأنت حين تنفذ تكاليف الحق^(١) سبحانه فأنت تحصد العائد ، وأنت ترى في حياتك أن الفلاح الكسول يصاب بحسرة يوم الحصاد ، فما بالنا بحساب الآخرة.

والفلاح الذي يأخذ من مخزونه إردباً ؛ ليزرعه ، وهو في هذه الحالة لا ينقص مخزونه ؛ لأنه سيعود بعد فترة بخمسة عشر إردباً.

وهكذا من ينفذ التكاليف يعود عليه كل خير ؛ ولذلك أقول: انظر في استقبالات منهج الله تعالى فيما تعطيه ، لا فيما تأخذه.

وهكذا ترى أنه لا ظلم ؛ لأننا صنعة الله ، فهل رأيتم صناعاً يفسد صنته ؟

إذن: فالصانع الأعلى لا يظلم صنته ولا يفسدها أبداً ، بل يحسنها ويعطيها الجمال والرونق^(٢) ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

(١) تكاليف الحق سبحانه هي أوامره ونواهيه ، يكلف بها الله من آمن به ، ومثله قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْهِمْ أَنْ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ رِيسَالُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧٠) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْمَلُوا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ تَدَارُكًا (١٧١) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَمْ رِيسَالُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧٢) ﴾ [الأنعام]

(٢) وفي هذا يقول رب العزة : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ﴾ [السجدة]

ويقول في آية أخرى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ (٦١) ﴾ [غافر].

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٤١) [يونس]

أى : أن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم ، ومن الظلم جحد الحق ، وهذا هو الظلم الأعلى ، ومن الظلم أن يعطى الإنسان نفسه شهوة عاجلة ؛ ليدوق من بعد ذلك عذاباً آجلاً ، وهو بذلك يحرم نفسه من النعيم المقيم ، وهو حين يظلم نفسه يكون قد افترقه القدرة على قياس عمره فى الدنيا ، فالعمر مهما طال قصير ، وما دام الشيء له نهاية فهو قصير .

والحق سبحانه وتعالى حين يخاطب الناس ، فهو قد نصب لهم آيات باقية إلى أن تقوم الساعة ، وكلهم شركاء فيها ، وهى الآيات الكونية ^(١) ، وبعد ذلك خص كل رسول بأية ومعجزة ، وأنزل منهجاً به «افعل» و«لا تفعل» ، وبين فى آيات الكتاب ما المطلوب فعله ، وما المطلوب أن تمتنع عنه ^(٢) ، وترك لك بقية الأمور مباحة .

والمثال الذى أضربه دائماً : هو التلميذ الذى يرسب آخر العام ، هذا التلميذ لم تظلمه المدرسة ، بدليل أن غيره قد نجح ؛ لذلك لا يصح أن يقال : إن المدرسة أسقطت فلاناً ، ولكن الصحيح أن نقول : إن فلاناً قد أسقط نفسه ، وأن زميله قد أنجح نفسه ، ودور المدرسة فى ذلك هو إعلان النتيجة .

(١) قد جعل الله فى الكون آيات يخاطب بها الله كل الناس ليتفكروا فيها وليصلوا بها إلى أن لهذا الكون خالقاً واحداً ، وقد جمعها الله فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فى حَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَمْرَى فى الْبَحْرِ جَمْعاً يَضَعُ النَّاسَ وما نَزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة]

(٢) وذلك فى نحو قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَنبِئْكُمْ بِحَرَمِ رِبْكُمْ عَلَيْكُمْ الْأَشْرَافُ بِهَ شَيْئًا وَبِأَنَّا لَدِينِ احْسَابًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ بَعْضٌ قَرِيبٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَبَائِهِمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام]

ومن الظلم أيضاً أن يستكثر الظالم نعمة عند المظلوم ، فيريد أن يأخذها منه ، ولا يمكن أن يكون الحق سبحانه وتعالى ظالماً يستكثر نعم عباده ؛ لأنه منزّه عن ذلك ؛ فضلاً عن أن خلقه ليس عندهم نعم يريدونها ، فهو الذي أعطاهم لهم ؛ ولذلك لا يأتي منه سبحانه أى ظلم ، وإن جاء الظلم فهو من الإنسان لنفسه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ
يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا

مُهْتَدِينَ ﴿٥٠﴾

فهذه الدنيا التي يتلهف عليها الإنسان ، ويأخذ حظه فيها ، وقد يتسى الآخرة ، فإذا ما قامت القيامة فأنت تشعر كأنك لم تمكث في الدنيا إلا ساعة ، والساعة هي الساعة الجامعة التي تقوم فيها القيامة ، ولكن الساعة في الدنيا هي جزء من الوقت ، ونحن نعلم أن اليوم مقسم لأربع وعشرين ساعة ، وأيضاً تُطلق الساعة على تلك الآلة التي تُعلّق على الحائط أو يضعها الإنسان على يده ، وهي تشير إلى التوقيت .

والتوقيت ثابت بمقدار الساعة والدقيقة والثانية - منذ آدم عليه السلام وإلى من سوف يأتون بعدنا ، ولكن التوقيت يختلف من مكان إلى آخر ، فنشير الساعة في القاهرة - مثلاً - إلى الثانية ظهراً ، وتكون في نيويورك الساعة صباحاً ، وتشير في بلد آخر إلى الثالثة بعد منتصف الليل ، ولا تتوحد الساعة بالنسبة لكل الخلق إلا يوم القيامة .

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ... (٥٥)﴾

[الروم]

وهم - إذن - يُضَاجَّأُونَ أَنْ دَنِيَاهُمْ الطَّوِيلَةُ والعريضة كلها مَرَّتْ وكأنها مجرد ساعة^(١)، وهكذا يكتشفون قَصْرَ مَا عَاشُوا مِنْ وَقْتٍ، وَلَا يَقْتَصِرُ الأمر على ذلك، بل إنهم لم يَشْفَعُوا بِهَا أيضاً فهي مدة من الزمن لم تكن لها قيمة.

والحق سبحانه يقول:

﴿كَانْتُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوْعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ فَبَلَّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)﴾

[الاحقاف]

أى: أَنْ الدُّنْيَا تَمُرُّ عَلَيْهِمْ فِي لَهْوٍ وَلَعِبٍ وَمَشَاغِلٍ، وَلَمْ يَأْخُذُوا الْحَيَاةَ بِالْجِدِّ اللَّاتِقِ بِهَا^(٢)؛ فَضَاعَتْ مِنْهُمْ وَكَانَتْهَا سَاعَةً.

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانَ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ... (٤٥)﴾

[يونس]

ويوم الحشر ينقسم الناس قسمين: قسم مَنْ كَانُوا يَتَعَارَفُونَ عَلَى الْبَرِّ، وقسم مَنْ كَانُوا يَتَعَارَفُونَ عَلَى الْإِثْمِ، فَالَّذِينَ تَعَارَفُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَلَى

(١) الساعة: أصلها جزء من الزمن غير محدد بلا حظ فيه الفلّة، قال تعالى: ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ... (٥٥)﴾ [الروم] أى: مدة قليلة، وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦٢)﴾ [الأعراف] أى: لا يَتَأَخَّرُونَ لحظة، والساعة يوم القيامة قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ... (٥٥)﴾ [الروم] أى: القيامة.

(٢) ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (٥٥)﴾ [الاسراء]، فالسعى للآخرة لا بد أن يكون بالسعى إلى عظيم هذا اليوم الأخير.

البر يفرحون ببعضهم البعض ، وأما الذين تعارفوا في الحياة الدنيا على الإثم فهم يتنافرون بالعداء ، والحق سبحانه هو القائل : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (٩٧) [الزخرف]

وكذلك قال في الذين تعارفوا على الإثم :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا .. ﴾ (١٦٦) [البقرة]

هم سيتعارفون على بعضهم البعض ، ولكن هذه المعرفة لا تدوم ، بل تنقلب إلى نكران ، فالواحد منهم لا يريد أن يرى مَنْ كَانَ سَيِّئاً فِي أَنْ يَزُولَ إلى هذا المصير ، وتعارفهم سيكون تعارف تعنيف .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ .. ﴾ (٤٥) [يونس]

وساعة تسمع كلمة «خسر» فاعرف أن الأمر يتعلق بتجارة ما ، والخسارة^(١) تعنى : أن يفقد الإنسان المتاجر إما جزءاً من رأس المال ، أو رأس المال كله .

ومراحل التجارة - كما نعرف - إما كسب يزيد رأس المال المتاجر فيه ، وإما ألا يكسب التاجر ولا يخسر ؛ لكنه يشعر بأن ثمن عمله ووقته في هذه التجارة قد ضاع ، وكل ذلك يحدث في الصفقات .

(١) خسر - أي خسِر الرجل في تجارته خسراً وخساراً وخسارة وخسراناً ، حين فيها ولم يربح وأصابه النقص - وخسر الرجل : ضل . فهو خاسر ، وهو خسير ، قال تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ .. ﴾ (٢١) [الأنعام] . وخسر نفسه . أهلكها بالضللال ، وقوله تعالى : ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ .. ﴾ (٥٧) [الحج] .

ومن الفعل اللازم قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا ضَيْفًا ﴾ (٥٥) [النساء] ، وقد بئى متعبداً ، ومثله قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴾ (١٢٤) [الرمز] [القاموس القويم] .

ونجد الحق سبحانه وتعالى يصف العملية الإيمانية في الدنيا بقوله :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١) تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢)﴾

[الصف]

ويقول سبحانه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ (٣)﴾

[فاطر]

والتجارة تعتمد على أنك لا تقبل على عقد صفقة إلا إذا غلب على ظنك أن هذه الصفقة سوف تأتي لك بأكثر مما دفعت فيها .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الصفقات الخاسرة :

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَاةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤)﴾

[البقرة]

ويقول أيضاً :

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا .. (٥)﴾

[الجمعة]

(١) تجر من باب نصر - تجرأ وتجارة : باع واشترى طلباً للربح ، وتطلق التجارة على المال الذي يتجر فيه التاجر - وتطلق التجارة مجازاً على العمل الذي يترتب عليه خير ، كأن الثواب وبيع ، وكان الحرمان منه حسارة ، قاله تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ .. (٢٤٦)﴾ [البقرة] ، التجارة هي المتجر فيه ، وقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ (٣)﴾ [فاطر] هي الأعمال الصالحة ، وقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢)﴾ [الصف] ، هي التجارة بالمعنى المجازي أي العمل الصالح ، [القاموس القويم]

وشاء الحق سبحانه أن يجعل معنى التجارة واضحاً ومعبراً عن كثير من المواقف ؛ لأن التجارة تمثل جماع كل حركة الحياة ؛ فهذا يتحرك في ميدان ؛ لينفع نفسه ، وينفع غيره ، وغيره يعمل في ميدان آخر ؛ فينفع نفسه ، وينفع غيره .

وبهذا يتحقق نفع الإنسان من حركة نفسه وحركة غيره ، وهو يستفيد من حركة غيره أكثر مما يستفيد من حركته هو ، ومن مصلحة أى إنسان أن يحسن كل إنسان حركته ؛ فيرتاح هو ؛ لأن ما سوف يصل إليه من حركة الناس سيكون جيد الإتقان .

والتجارة تحمل أيضاً الوساطة بين المنتج والمستهلك .

ولذلك حين أراد الله سبحانه أن تستجيب لأذان الجمعة قال :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩)﴾ [الجمعة]

ولم يقل الله سبحانه : اتركوا الزراعة أو اتركوا الصناعة ، أو اتركوا التدريس ، بل اختار من كل حركات الحياة حركة البيع ؛ لأن فيه تجارة ، والتجارة هي الجامعة لكل حركات الحياة .

والتاجر وسيط بين منتج ومستهلك وتقتضى التجارة شراءً وبيعاً ، والشراء يدفع فيه التاجر ثمناً ، أما فى البيع فهو يأخذ الثمن ، والغاية من كل شيء أن يتموّل الإنسان .

لذلك فالبيع أفضل عند التاجر من الشراء ، فأنت قد تشتري شيئاً وأنت كاره له ، لاحتياجك إليه ، ولكنك عند بيع البضاعة تشعر بالسعادة والإشراق ، ولأن الشراء فيه أخذ ، والبيع فيه عطاء ، والعطاء يرضى النفس دائماً ؛ لأن ثمرة الصفقة تأتيك فى لحظتها .

وإن كنت مزارعاً فأنت تُعدّ الأرض ، وتحراثها ، وتبذر البذور ، وترويهما ، وتشدّب النبات ، وتنتظر إلى أن ينضج الزرع ، وكذلك تقضى الكثير من الوقت فى إتقان الصنعة إن كنت صانعاً ، لكن البيع فى التجارة يأتى لك بالكسب سريعاً ، فكأن ضربَ المثل فى التجارة ، جاء من أصول التجارة بالبيع ولم يأت بالشراء .

إذن : لا بد أن نعتبر أن دخولك فى صفقة الإيمان تجارة ، تأخذ منها أكثر من رأس مالك ، وتربح ، أما إن تركت بعضاً من الدين ؛ فأنت تخسر بمقدار ما تركت ، بل وأضعاف ما تركت .

وأنت فى أية صفقة قد تموض ما خسرت فيما بعد ، وإن استمرت الخسارة فإن أثرها لا يتجاوز الدنيا ، ويمكن أن تربح بعدها ، وإذا لم تربح ، فسيضيع عليك تعبك فقط ؛ ولأن الدنيا محدودة الزمن ؛ فخسارتها محتملة ، أما الخسارة فى الزمان غير الموقوت - الزمن الدائم - فهي خسارة كبيرة ؛ لأن الآخرة ليس فيها أغيار كاللدىنا ، وأنت فى الآخرة إما فى جنة ذات نعيم مقيم ، وفى هذا ربح وكسب كبير ، وإما إلى نار ، وهذه هى الخسارة الحقيقية .

والخسران الحقيقى أن يكذب الإنسان ، لا بنعيم الله فقط ، ولكن بقاء الله أيضاً .

يقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ . (٤٥) ﴾

[يونس]

أى : أن الله سبحانه لم يكن فى بالهم ، وهم حين تقوم الساعة يجدون الله - سبحانه وتعالى - أمامهم .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ^(١) يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً...﴾ (٢٩)

[النور]

والسراب كما نعلم يراه السائر في الصحراء ، وهو عبارة عن انعكاس للضوء ؛ فيظن أن أمامه ماء ، ولكن إن سار إليه الإنسان لم يجده ماء ، وهكذا شبه الحق سبحانه عمل الكافر بمن يسير في صحراء شامعة ، ويرى السراب ؛ فيظنه ماءً ، لكنه سراب ، ما إن يصل إليه حتى ينطبق عليه قول الحق سبحانه :

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ...﴾ (٣٩) [النور]

أى : أنه يُفاجأ بوجود الله سبحانه وتعالى ، فيوفيه الله حسابه .

ولذلك فالذى يكفر بالله ويعمل ما يفيد البشر ، فإنه يأخذ حسابه من عمل له ، ولا يُحسب له ذلك في الآخرة ، وتجد الناس يُكرمونه ، ويقيمون له الشمائل أو يمنحونه الجوائز وينطبق عليه قول الرسول ﷺ :

«فَعَلْتُ لِيَقَالَ : وَقَدْ قِيلَ»^(٢)

(١) السراب : ما يرى في نصف النهار من اشتداد الحر كالماء في الصحراء يلتصق بالأرض ، وهو من خداع البصر . وقد سُمي السراب سراباً لأنه يسرب سروباً ، أى : يجري جرياً ، أى : يتحرك حركة تخذع الرائي من بعيد ؛ فيظنه ماء وهو ليس بماء ، بل خداع ضوئي وبصري ناتج عن الحالة النفسية للشخص عند شدة عطشه ووجوده في صحراء قاحلة ؛ فأى حركة من بعيد يظنها ماء ؛ ويجرى إليها ؛ ليفاجأ بعدم وجود شيء . [اللسان : مادة (س و ب) بتصرف] .

والعبارة أرض واسعة مستوية لا تثبت الشجر قال الفراء : القبة جمع القاع ، والقاع : ما انسط من الأرض . قال تعالى : ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ (٥٠٩) [طه] . [اللسان : مادة (ق و ع) بتصرف] .

(٢) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه ففرغها قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكك فأتيت لأن يقال : جرى ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه ففرغها قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكك تعلمت العلم ليفال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارئ . فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . . . الحديث أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٠٥) والنسائي في سننه (٢٣/٦) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت .

وهنا يقول الحق سبحانه عن الذين كذبوا بقاء الله تعالى :

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (٤٥) [يونس]

أى : لم يكونوا سائرين على المنهج الذى وضعه لهم خالقهم سبحانه ؛
هذا المنهج الذى يمثل قانون الصيانة لصنعة الله تعالى ، وقد خلق الله
سبحانه الإنسان لمهمة ، والله سبحانه يصون الإنسان بالمنهج من أجل أن
يؤدى هذه المهمة .

والهداية هى الطريق الذى إن سار فيه الإنسان فهو يؤدى به إلى تحقيق
المهمة المطلوبة منه ؛ لأن الحق سبحانه قد جعله الخليفة فى الأرض .

ومن لا يؤمن برب المنهج سبحانه وتعالى ولا يطبق المنهج فهو إلى
الخسران المبين ، أى : الخسران المحيط .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَأَمَّا رَبُّنَا الَّذِي نَعِدُّهُمْ أَوْتَوْفِّقُنَا فَإِلَيْنَا
مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤٦)

وقول الحق سبحانه : ﴿وَأَمَّا﴾ مكونة من «إن» و«ما» مدغمتين ، وهنا
يبين لنا الحق سبحانه أنه يعد الذين كذبوا رسوله ﷺ بالعذاب والهوان
والعقاب والفضيحة .

أى : يا محمد ، إما أن ترى ما قلناه فيهم من خذلان وهوان ، وإما أن
نتوفئك قبل أن ترى هذا فى الدنيا ، ولكنك ستراه فى الآخرة حين
تشاهدهم فى الهوان الأبدى الذى يصيبهم فى اليوم الآخر .

وفى هذا تسرية لرسول الله ﷺ .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَأَمَّا نُزُيَّتْ .. (٤٦)﴾ أي : أن نريك ما وعدناهم من الخذلان والهوان في هذه الحياة ، وإن لم تره في الحياة الدنيا فلسوف ترى هوانهم في الآخرة ، حيث المرجع إلى الله تعالى ؛ لأنه سبحانه سيصيبهم في أنفسهم بأشياء فوق الهوان الذي يُرى في الناس ؛ كحسرة في النفس ، وكبت للأسى حين يرون نصر المؤمنين .

أما الذي يُرى فهو الأمر الظاهر ، أي : الخذلان ، والهزيمة ، والأسى ، والقتل ، وأخذ الأموال ، وسبى النساء والأولاد ، أو غير ذلك مما سوف تراه فيهم - بعد أن تفيض روحك إلى خالقها - فسوف ترى فيهم ما وعدك الله به .

وأنت لن تحتاج إلى شهادة من أحد عليهم ، لأنه سبحانه : ﴿شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٧)﴾ .

وكفاك الله سبحانه شهيداً : ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٤٨)﴾ [النساء]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رُسُولَهُمْ فُتِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٩)﴾

(١) قَسَطَ يَقْسِطُ - كضرب - قسماً وقسوطاً ، وقسط يقسط قسطاً كنصر : ظلم أو عدل ، من الأضداد ، وتفهم بالقرائن ، واستعمله القرآن بمعنى ظلم في قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (٥١)﴾ [الجن] وأقسط : عدل وأزال الظلم ، واستعمله القرآن بمعنى العدل في قوله تعالى : ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ (٥٥)﴾ [الأعراف] ، والقسطاس : الميزان والعدل ، «الفاموس العرب» .

والحق سبحانه لا يظلم أحداً ، ولا يعذب قوماً إلا بعد أن يكفروا
بالرسول الذي أرسله إليهم ، وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا ^(٢٤) لَهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر]

وهو سبحانه القائل أيضاً :

﴿ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ [الأنعام]

فلا تجريم ولا عقوبة إلا بنص وبيان لتجريم هذا الفعل أو ذاك ، بإرسال
الرسول ؛ حتى لا يحتاج أحد بأنه لم يصل إليه شيء بحاسب بمقتضاه .

والحق سبحانه هنا يبين أن لكل أمة رسولا يتعهدا بأمور المنهج .

وقد خلق الحق سبحانه كل الخلق ، وكانوا موحددين منذ ذرية آدم - عليه
السلام - ثم اقتضت الأحداث أن يتباعدوا ، وانتشروا في الأرض ، وصارت
الالتقاءات بعيدة ، وكذلك المواصلات ، وتعددت الآفات بتعدد البيئات .

ولكن إذا تقاربت الالتقاءات ، وصارت المواصلات سهلة ، فما يحدث
في الشرق تراه في لحظتها وأنت في الغرب ، فهذا يعني توحّد الآفات
أو تكاد تكون واحدة ؛ لذلك كان لا بد من الرسول الخاتم ﷺ ، أما في
الأزمنة القديمة ، فقد كانت أزمنة انعزالية ، تحيا كل جماعة بعيدة عن
الأخرى ؛ ولذلك كان لا بد من رسول لكل جماعة ؛ ليعالج داءات
البيئة ، أما وقد التفت البيئات ، فالرسول الخاتم يعالج كل الداءات ^(١) .

(١) خلا : مضى وسلف . ومنه قوله تعالى : ﴿ كُفُّوا أَسْهُارَكُمْ إِنَّمَا يَنْتَظِرُ لِكُلِّ فِتْنَةٍ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الحاقة] أي : الماضية .

(٢) وذلك لأن رسالة الإسلام من جماع القيم لكل دين سابق ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ بِالْعَرَبِيَّةِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشورى] . ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصى به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كثير على المشركين ما تدعوهم إليه الله يمضي إليه من يفتأ ويهتدي إليه من يهتد [الشورى] .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٧)

[يونس]

وقد حكى التاريخ لنا ذلك ، فكل رسول جاء آمن به البعض ، وكفر به البعض الآخر ، والذين آمنوا به انتصروا ، ومن كفروا به هُزموا .

أو أن الآية عامة ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ ﴾ أى : تُنادى كل أمة يوم القيامة باسم رسولها ، يا أمة محمد ﷺ ، يا أمة موسى ، يا أمة عيسى . . . إلخ .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾ (١٨)

يَوْمَئِذٍ يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَغَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ

اللَّهُ حَدِيثًا (١٩)

[النساء]

إذن : فالحق سبحانه هنا يبين أن لكل أمة رسولا جاءها بالبلاغ عن الله ، وقد آمن به من آمن ، وكفر به من كفر ، وما دام الإيمان قد حدث - وكذلك الكفر - فلا بد من القضاء بين المؤمنين والكافرين .

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : قال لي رسول الله ﷺ : « اقرأ على » فقلت : يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل . قال : « نعم » . فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾ [النساء] فقال ﷺ : « حسبك الآن » فإذا عيناه تذرفان . أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠٥٠) وأحمد في مسنده (٣٨٠ / ١) .

واللغة تقول : الشهيد صيغة مبالغة في الشاهد ، والشهيد من أسماء الله الحسنى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ﴾ [النساء] وقوله : ﴿ وَلَا يُضَارُّ كِتَابٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ [البقرة] أى شاهد . والشهيد من قتل في سبيل الله ، والشهادة : خبر قاطع ، والشاهد اسم فاعل وجمعه شهد وشهود . [القاموس الفري] -

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (١٧) [يونس]

وما دام في الأمر قضاء ، فلا بد أن المؤمن يعتبر الكافر متازعاً له ، وأن الكافر يعتبر المؤمن متازعاً له ، ويصير الأمر قضية تتطلب الحكم ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (١٧) [يونس]

أى : يُقضى بينهم بالعدل ، فالمؤمنون يتقضى الحق سبحانه حسناتهم ويزيدها لهم ، أما الكافرون فلا توجد لهم حسنات ؛ لأنهم كفروا بالله الحق ؛ فيوردهم النار ، وهم قد أبلغهم رسول الله ﷺ أنه سيأتى يوم يُسألون فيه عن كل شيء ، فاستبعدوا ذلك وقالوا :

﴿ أَأَنْتَ أَتِنَا نَارًا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتَ لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (١٦) أَوْ آتَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ (١٧)

[الصافات]

لقد تعجبوا من البعث وأنكروه ، لكنهم يجدونه حتماً وصدقاً .

ويشاء الحق سبحانه أن يدخل عليهم هذه المسألة دخولاً إيمانياً ، فيقول :

﴿ أَفَعَيِّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ . . ﴾ (١٥) [ق]

فأنتم إذا متُّم وتحللتُم في التراب ، أيعجز الله سبحانه أن يخلقكم من جديد ؟ لا ؛ إنه سبحانه القائل :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ﴾ (١٤) [ق]

أى : أنه سبحانه يأمر العناصر الخاصة بكل إنسان أن تتجمع كلها ، وليس هذا بعسير على الله الذى خلقهم أولاً .

وهم قد كَذَّبُوا واستكروا واستهزأوا بحجىء يوم القيامة والبعث ، وبلغ استهزاؤهم أن استعجلوا^(١) هذا اليوم ، وهذا دليل جهلهم ، وكان على الواحد منهم أن يقر من هول ذلك اليوم .

ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك على ألسنتهم :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٥٨)

هذا الإنكار والتكذيب والاستهزاء هو منطق المشركين والملحدين^(٢) فى كل زمان ومكان ، وفى العصر القريب قاله الشيوعيون عندما قاموا بثورتهم الكاذبة ، وذبخوا الطبقة العليا فى المجتمع بدعوى رفع الظلم عن الفقراء .

وإذا ما كانوا قد آمنوا بضرورة الثواب والعقاب ، فمن الذى يحكم ذلك ؟ هل الظالم يحكم على ظالم ، فتكون النتيجة أن الظالم سيهلك بالظالم ، وقد حدث ، فأين الشيوعيون الآن ؟

لماذا لم يلتفتوا إلى أن لهذا الكون خالقاً يعاقب من ظلموا من قبل ، أو من يظلمون من بعد ؟

إنهم لم يلتفتوا ؛ لأنهم اتخذوا المادة إلهاً ، وقالوا : لا إله ، والحياة مادة ، فأين هم الآن ؟

وإن كنتم قد تملكتم فى المعاصرين لكم ، وادعيتم أنكم نشرتم العدل بينهم ، فماذا عن الذين سبقوا ، والذين لحقوا ؟

(١) وقد قال رب العزة عنهم : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ .. ﴾ (٤٧) [الحج] ، ويقول سبحانه فى آية أخرى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ .. ﴾ (٥٢) [التكوير] .
(٢) الملحدون : جميع ملحد ، وهو الطاعن فى الدين ، المائل منه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فى آيَاتِنَا لَا يُخَفِّرُونَ عَلَيْهَا .. ﴾ (٤٥) [فصلت] . [المعجم الرسيط : مادة (لحد)] .

هم - إذن - لم يلتفتوا إلى أن الله سبحانه وتعالى قد شاء ألا يموت ظالم إلا بعد أن يتقنم الله منه^(١) .

وهم لم يلتفتوا إلى أن وراء هذه الدار داراً أخرى يجازى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

وكان المنطق يقتضي أن يؤمن هؤلاء بأن لهذا الكون إلهاً عادلاً ، ولا بد أن يجيء اليوم الذي يجازى فيه كل إنسان بما عمل ، ولكنهم سخروا مثل سخرية الذين كفروا من قبلهم ، وجاء خبرهم في قول الله سبحانه على ألسنتهم : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨) [يونس]

ولكن وعد الله حق ، ووعد الله قادم ، ومحمد ﷺ رسول من الله ، يبلغ ما جاء من عند الله تعالى ، فرسول الله ﷺ لا يملك لنفسه شيئاً .

ولذلك يقول القرآن بعد ذلك :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَسْقِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٤٩)

والرسول ﷺ يبرئ نفسه من كل حَوْلٍ وطَوْلٍ^(٢) ، ويعلن ما أمره الحق

(١) يقول الحق : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأنصار ﴾ (٥٦) مُهْطَعِينَ مُقْبِعِينَ رُوْسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَهْلَتْهُمْ هَرَاءُ (٥٧) ﴿ [إبراهيم] . ويقول الرسول ﷺ : « وإن الله ليمنى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .

(٢) الحق : الخلق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف في الأمور . والطول : الفضل والنسب واليسر . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ .. ﴾ (٥٢) [النساء] . [المعجم الوسيط] .

سبحانه أن يعلنه ، فهو ﷺ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ؛ لأن النفع أو الضرر بيد خالقه سبحانه ، وهو سبحانه وتعالى خالقكم ، وكل أمر هو بمشيئته سبحانه .

وهذه الآية جاءت ردّاً على سؤالهم الذي أورده الحق سبحانه في الآية السابقة : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨) [يونس]

لقد تساءلوا بسخرية عن هذا الوعد بالعذاب ، وكانهم استبطأوا نزول العذاب تهكماً ، وهذا يدل على أن قول الحق سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٤٧) [يونس]

هذه الآية لم تنزل ليوم القيامة ، بل نزلت لتوضح موقف مَنْ كفروا برسول الله ﷺ والذين قالوا بعد ذلك :

﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨) [يونس]

وهذا يعنى أنهم قالوا هذا القول قبل أن تقوم القيامة ، والآية التي توضح أن لكل أمة رسولا تؤيدها آيات كثيرة ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (١٥) [الإسراء]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ (١٣١) [الأنعام]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ وَكُلُّ أُمَّةٍ أَهْلَكْنَاهُمْ بِمَقَادِرٍ مِمَّنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً... ﴾ (١٣٤) [طه]

وكل ذلك يؤيد أن الرسول المرسل إلى الأمة هو الرسول الذي جاء بمنهج الله تعالى ؛ فأمن به قوم ، وكذب به آخرون ، وقضى الله بين المؤمنين والكافرين بأن خذل الكافرين ونصر المؤمنين .

وإن استبيطاً الكافرون الخذلان فلسوف يروته ؛ ولذلك أمر الحق سبحانه رسوله ﷺ :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا .. ﴾ (٤٩) [يونس]

أى : أنكم إن كنتم تسألون محمداً ﷺ عن الضر والنفع ، فهو ﷺ مبلّغ عن الله تعالى ، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، فضلاً عن أن يملك لهم هم ضراً أو نفعاً ، وكل هذا الأمر بيد الله تعالى ، ولكل أمة أجل^(١) يتزل بالذين كفروا فيها بالعذاب ، ويقع فيها القول الفصل .

وقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ .. ﴾ (٤٩) [يونس]

يفيد أن مشيئة الله هي الفاصلة ، ويدل على أن النبي والناس لا يملكون لأنفسهم الضر أو النفع ؛ لأن الإنسان خلق على هيئة القَسَر^(٢) في أمور ، وعلى هيئة الاختيار في أمور أخرى ، والاختيار هو في الأمور التكليفية

(١) الأجل - مدة الشيء ، وغاية الوقت ووقت الحياة ، أو وقت الدين أو وقت العمل . والأجل نفس الوقت الذي أجل له الأمر : ﴿ قُلْنَا قُتِلَ مَرْسَى الْأَجَلِ .. ﴾ [القصص] أى : أتم المدة المحددة له ، وأحل الشيء : حدد له أجلاً مستقبلاً : ﴿ لَا يَوْمَ أُبْقِئُ ﴾ [المرسلات] أى : حدد الموت أو الهرم وقوله : ﴿ ثُمَّ قُتِلَ أَجْلاً وَأَحْلُ مَسْمُومٌ عَذَابٌ .. ﴾ [الأنعام] الأول : هو مدة البقاء في الدنيا ، والثاني : هو مدة البقاء في القبور إلى يوم القيامة ، أو مدة الحياة الآخرة ، وقوله : ﴿ فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ .. ﴾ [البقرة] . أى : نهاية مدة العدة . والأجل ضد العاجل ، والأجلة ضد العاجلة .

[القاموس الفري]

(٢) القسر : القهر والإجبار .

إذن : فالحق سبحانه يؤخر مراداته رحمة بالخلق ، وإذا جاء الأجل فهو لا يتأخر عن مياده ، ولا يتقدم عن مياده .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (١٩) [يونس]

وقوله سبحانه : ﴿ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ليست من مدخلية جواب الشرط الذي جاء بعد ﴿ إِذَا ﴾ "جاء أجلهم" . (١٩) [يونس]

لأن الجواب هو : ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ ﴾ .

فهم لا يستقدمون قبل أن يحين الأجل .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٌ أَوْ نَهَاكُمَا مَاذَا

يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٢٠)

وهذا ردٌ شاف على استعجالهم للعذاب ، فإن جاءكم العذاب قلنر ماذا سيكون موقفكم ؟

وهم باستعجالهم العذاب يبرهنون على غيائهم فى السؤال عن وقوع العذاب .

وقول الحق سبحانه : ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ . أى : أخبرونى عما سوف يحدث لكم .

(١) إذا : تاتى لتعنين شرطية وفحائية ، إذا الشرطية : اسم شرط للزمن المستقبل ، فتختص بالدخول على الجملة الفعلية ، وتعرب إذا ظرف لما يستقبل من الزمان حافض لشرطه منصوب بجوابه ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ (٢٠) [الأنعام] ، وتدخل أحياناً على الأسماء المرفوعة ، فيكون المرفوع بعدها فاعلاً لفعل محذوف يفسره الفعل الذى بعده مثل : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ (٢١) [الانشقاق] أى : إذا انشقت السماء ، وإذا تكون حرفاً للمفاجأة ، وتختص بالجملة الاسمية ، قال تعالى : ﴿ فَانْقَاضاً فَإِذَا هِيَ حَبَّةٌ تَسْعَى ﴾ (٢٢) [طه] « القاموس القويم » .

وشاء الحق سبحانه أن يأتي أمر العذاب هنا مبهماً من جهة الزمان فقال سبحانه :

﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَّاتًا أَوْ نَهَارًا ۖ (٥٠)﴾ [يونس]

والبيات مقصود به الليل ؛ لأن الليل محل البيوتة ، والنهار محل الظهور .
والزمن اليومى مقسوم لقسمين : ليل ، ونهار .

وشاء الحق سبحانه إيهام اليوم والوقت ، فإن جاء ليلاً ، فالإنسان فى ذلك الوقت يكون غافلاً نائماً فى الغالب ، وإن جاء نهاراً ، فالإنسان فى النهار مشغول بحركة الحياة .

والحق سبحانه يقول فى موضع آخر :

﴿أَقَامِنَ أَهْلَ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ۖ بَيَّاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧)﴾ [الأعراف]

ويقول سبحانه :

﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلَ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَنُونَ (٩٨)﴾ [الأعراف]

ولو نظرت إلى الواقع لوجدت أن العذاب يأتى فى الليل وفى النهار معاً ؛ لأن هناك بلداً يكون الوقت فيها ليلاً ، وفى ذات الوقت يكون الزمن نهاراً فى بلاد أخرى .

وإذا جاء العذاب بغتة ، وحاولوا إعلان الإيمان ، فلن يثفعهم هذا

(١) بَأْسُنَا : عذابنا والبأس القوة ، قال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ مِنْ أَمْرٍ شَدِيدٍ ۖ (٢٥)﴾ [الحديد] ، أى : قوة وصلابة ، وقوله تعالى : ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ (٤٤)﴾ [النساء] شدتهم وموتهم فيصددهم عنكم ، وقوله الحق : ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ ۖ (١٧٧)﴾ [البقرة] ، أى : وقت الحرب الشديدة ، وقول الحق : ﴿وَسَرَّابِيلٌ تُقْبِكُمْ بِأَسْكُمْ ۖ (٤٤)﴾ [النمل] ، أى : شدتكم وفونكم فى الحرب ، فتحنفلكم الدروع من أخطار الحرب . والبأساء : الفقر والشدة ، ويقول الحق : ﴿وَالضَّالِّينَ فِي الْبَاسِ وَالضَّرَاءِ ۖ (١٧٧)﴾ [البقرة] فى وقت الفقر والحاجة .

الإيمان ؛ لأن الحق سبحانه يقول فيمن يتخذ هذا الموقف :

﴿الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٥١) [يونس]

فإن جاءكم العذاب الآن لما استقلتم منه ؛ لأنه لن ينفعكم إعلان الإيمان ، ولن يقبل الله منكم ، وبذلك يصيبكم عذاب في الدنيا ، بالإضافة إلى عذاب الآخرة ، وهذا الاستعجال منكم للعذاب يضاعف لكم العذاب مرتين ، في الدنيا ، ثم العذاب الممتد في الآخرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿أَتُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (٥٢)

﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٥١)

أي : إذا ما وقع العذاب فهل ستؤمنون ؟

إن إعلان إيمانكم في هذا الوقت لن يفيدكم ، وسيكون عذابكم بلا مقابل .

إذن : فاستعجالكم للعذاب لن يفيدكم على أي وضع ؛ لأن الإيمان لحظة وقوع العذاب لا يفيد .

ومثال ذلك : فرعون^(١) حين جاءه الغرق ﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي

(١) وذلك أن فرعون خرج في جيش كبير يقدر بمائة ألف وخلق يوسى عند بحافة البحر وقت شروق الشمس ، فأوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه : ﴿فَأَرْحَبْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالظُّورِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٥) [الشعراء] ، ثم يقول سبحانه : ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَاقًّا إِذَا أَخْرَجَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ يَوْمَ إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٥١) [يونس]

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : لما أغرق الله فرعون قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل . قال جبريل : يا محمد فلو رأيته وأنا أخذ من حال البحر (أي : طين البحر) فأدسه في فيه (أي : فمه) مخافة أن تدركه الرحمة ؟ أخرجه الترمذي في سننه وقال : حديث حسن . وانظر تفسير ابن كثير (٤/ ٤٣٠) والقرطبي (٤/ ٣٣٠) .

[يونس]

آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ . . (٩٠) ﴿

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٩١﴾﴾

وهذا إخبار عن العذاب القادم لمن كفروا ويلقوه في اليوم الآخر ، فهم بكفرهم قد ظلموا أنفسهم في الدنيا ، وسيلقون العذاب في الآخرة ، وهو ﴿عَذَابُ الْخُلْدِ﴾ أى : عذاب لا ينتهى .

وينهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ .

أى : أن الحق سبحانه لم يظلمهم ، فقد بلغهم برسالة الإيمان عن طريق رسول ذى معجزة ، ومعه منهج مفصل مؤيد ، وأمهلهم مدة طويلة ، ولم يستفيدوا منها ؛ لأنهم لم يؤمنوا .

إذن : فسيلقون عذاب الخلد ، وقد جاء سبحانه هنا بخبر عذاب الخلد ؛ لأن عذاب الدنيا موقوت ، فيه خزي وهوان ، لكن محدوديته في الحياة يجعله عذاباً قليلاً بالقياس إلى عذاب الآخرة المؤبد .

وجاء الحق سبحانه بأمر عذاب الخلد كأمر من كسبهم ، والكسب زيادة عن الأصل ، فمن يتاجر بعشرة جنيتها ، قد يكسب خمسة جنيتها .

وهنا سؤال : هل الذى يرتكب معصية يكسب زيادة عن الأصل ؟

نعم ؛ لأن الله سبحانه حرّم عليه أمراً ، وحلله هو لنفسه ، فهو يأخذ

(١) الخلد : اللوام ، والمراد أنه عذاب دائم . [اللسان : مادة (خ ل د)] .

زيادة في التحليل ، وينقص من التحريم وهو يظن أنه قد كسب^(١) بفهمه الوهمي الذي زين له مراد النفس الأمارة ، وهذا يعني أنه ينظر إلى واقع اللذة في ذاتها ، ولا ينظر إلى تبعات^(٢) تلك اللذة ، وهو يظن أنه قد كسب ، رغم أنه خاسر في حقيقة الأمر .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُوبُ إِي وَرَقَ إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾^(١)

وهم قد قالوا من قبل : ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ..﴾ (١٨) [يونس]

وهم هنا قد عادوا للتساؤل . ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ﴾ أى : يطلبون منك النبأ . والنبأ هو الخبر المتعلق بشيء عظيم ، وهم يطلبون الخبر منك يا رسول الله ويتساءلون : أهو حق ؟

وكلمة «حق» هنا لها معطيات كثيرة ، لأن ﴿هو﴾ يمكن أن تعود على أصل الدين قرآناً ؛ ونبوة ، وتشريعاً ، وهى كلمة تحمل التصديق بأن القرآن حق ، والتشريع حق ، والشبهة لمحمد ﷺ حق ، والقيامة والبعث حق ، والكلام عن العذاب فى الدنيا بخذلانهم ونصرة المؤمنين عليهم حق .

(١) قال الله تعالى : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (٢٨٥) [البقرة] فالذى يحلل الحرام وأدخله على نفسه عليه أن يتحمل التبعات المترتبة على هذا ، فله بعمله الصالح الكسب ، وعليه بعمله السيء جزاء ما اكتسب .

(٢) ثمة الشيء : نتيجة وعاقبه وما يترتب عليه من أثر . [المعجم الوسيط - مادة (ت ب ع)] .

(٣) إى : نعم . حرف جواب .

(٤) أى : أنكم لن تمعزوا الله عن أن يعيدكم بعد موتكم وأن يحشركم وأن يمدحكم بما كنتم تكبرون .

إذن : فقولهم : ﴿وَيَسْتَعِزُّونَكَ﴾ "أحقُّ هو" .. (٥٣) ﴿لَهَا أَكْثَرُ مِنْ مَرْجِعٍ ،
كَأَنَّهُمْ سَأَلُوا : قُلِ الْقُرْآنَ الَّذِي جِئْتَ بِهِ حَقٌّ ؟

وهل النبوة التي تدَّعيها حق ؟

وهل الشرائع - التي تقول : إن الله أنزلها كمنهج يحكم حركة
الإنسان - حق ؟

وهل القيامة والبعث حق ؟

وهل العذاب في الدنيا حق ؟

إنها كلمة شاملة يمكن أن تؤول إلى أكثر من معنى .

ويأتى الجواب من الله تعالى :

﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ .. (٥٣) ﴿

[يونس]

وأنت حين يستفهم منك أحد قائلاً : هل زيد موجود؟ فأنت تقول : نعم
موجود . ولا تقول له : والله إن زيدا موجود ؛ لأنك لن تؤكد الكلام لمن
يسألك ؛ لأنه لا ينكر وجود زيد .

إذن : فأنت لن تؤكد إجابة ما إلا إذا كان هناك في السؤال شبهة إنكار .

إذن : فأنت تستدل من قول الحق سبحانه :

(١) لَيْسَ : الحبر ، أو الحبر ذو الشأن ، قال تعالى : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ٢٠١ عن النبي العظيم (ص) ﴿النبي﴾ وهذا النبي
هو اليحيى ، وأيوب ، بالنسبة وثبأ به ؛ لا يخبر به ، وأنبا يتعدى للمعول به واحد ؛ مثل قوله تعالى :
﴿أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَانِهِمْ﴾ .. (٢٢) ﴿البقرة﴾ ، ويتعدى للمعولين مثل : ﴿قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا﴾ .. (٢٦) ﴿
[التحريم] ، وقد يتعدى بحرف الجر (عن) كقوله : ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ٢٠١ ﴿[الحجر] أى :
حدثهم ، واستبأ : طلب أن ينسب كقوله تعالى : ﴿وَيَسْتَعِزُّونَكَ أَحقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ .. (٥٣) ﴿
[يونس] .

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ...﴾ (٥٣) على أن مسألهم يحمل معاني الإنكار والاستهزاء ؛ ولذلك جاء الجواب به «إي»^(١) وهو حرف جواب يعنى : «نعم» ، وتأتى «إي» دائماً مع القسم .

ولكل حرف من حروف الجواب مقام ، فهناك «بلى» وهى تأتى فى جواب سؤال منفى ، فى مثل قوله تعالى :

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى...﴾ (١٧٢) [الأعراف]

وقول الحق سبحانه هنا : ﴿إِى وَرَبِّى...﴾ (٥٣) [يونس]

تعنى : نعم وأقسم بربى إنه الحق . وأنت لا تُقسم على شىء إلا إذا كان السائل عنده شبهة إنكار ، وتأتى به «إن» لمزيد من هذا التأكيد .

ومثال ذلك فى قوله سبحانه :

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ^(٢) إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٤) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا^(٣) بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ (١٥)﴾ [يس]

وماذا كان رد من بُعث اليهم الثلاثة؟

﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذُوبُونَ (١٥)﴾ [يس]

هكذا كان إنكار المكذبين للرسل الثلاثة شديداً . فقال لهم الرسل :

(١) إي : حرف جواب ، مثل نعم . ووقع بعد القسم كقوله تعالى : ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ...﴾ (٥٣) [يونس] .

(٢) قيل : هى أنطاكية ، بين سوريا وتركيا وقد تكون قرية أخرى ، وكان ملكها يعبد الأصنام ، فبعث الله تعالى إليه ثلاثة من الرسل فكذبهم . من تفسير ابن كثير (٥٦٨/٢) بتصرف .

(٣) عزَّزْنَا : أَيْدَيْنَا وَقَوَّيْنَا .

﴿رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ (١٦) [يس]

فكان قولهم هذا مناسباً لإنكار الكافرين الشديد.

إذن: فالتأكيد في أسلوب المستول إنما يأتي على مقدار الإنكار، فإن لم يكن هناك إنكار؛ فلا يحتاج الأمر إلى تأكيد.

أما إذا صادف الكلام إنكاراً قليلاً، فالتأكيد يأتي مرة واحدة.

وإن صادف الكلام حاجة في الإنكار جاء التأكيد مرتين.

أما إذا ما صادف الكلام تبعجاً في الإنكار فالتأكيد يأتي ثلاث مرات.

وقد علم الحق سبحانه رسوله ﷺ هنا أن يرد على استنبائهم بأن يقول لهم: ﴿إِنِّي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ (٥٢) [يونس]

وهنا يقسم الرسول ﷺ بالرب؛ لأن الرب هو من كلّفه، ثم يؤكد ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ لأن سؤالهم تضمن الإنكار والاستهزاء.

وما دام قد قال: ﴿إِنِّي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ فهم إن لم يؤمنوا فسوف يلقون العذاب؛ لأنه ليس هناك منجى من الله تعالى، ولن تعجزوا الله هرباً، ولن تعجزوه شفاعاً من أحد، ولن تعجزوه بيعاً، ولن تعجزوه خلسة تتقدم لتشفع لكم.

ثم يأتي قوله سبحانه في نهاية الآية:

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٥٣) [يونس]

وقد أراد الحق سبحانه أن يفسر لمحة من الإعجاز، ذلك أن الله سبحانه وتعالى من الممكن أن يقبل شفاعة الشافعين، ومن الممكن أن يقبل

الافتداء^(١) ؛ ولذلك جاء الإيضاح في الآية التالية ، فيقول سبحانه :
﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ﴾
وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ^(٢) لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ
بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾

وساعة يأتي العذاب فالإنسان يرغب في الفرار منه ، ولو بالافتداء .
وانظر كيف يحاول الإنسان أن يتخلص من كل ما يملك افتداء لنفسه ،
حتى ولو كان يملك كل ما في السموات وما في الأرض^(٣) .
ولكن هل يتأتى لأحد - غير الله سبحانه - أن يملك السموات
والأرض ؟
طبعاً لا .

إذن : فالشر لا يتأتى . وهب أنه تأتى ، فلن يصلح الافتداء بملك ما في
السموات وما في الأرض ؛ لأن الإنسان الظالم في الدنيا قد أخذ حق
الغير ، وهذا الغير قد كسب بطريق مشروع ما أخذه الظالم منه ، والظالم
إنما يأخذ ثمرة عمل غيره ، ولو صبح ذلك لتحوّل البعض إلى مغتصبين
لحقوق الغير ، ولأخذوا عرق وكدح غيرهم ، ولتعطلت حركة الحياة .

(١) الافتداء : ما يقدم من مال ونحوه لتخليص التقدي . قال تعالى : ﴿ وَقَدْ يَأْتِي بِذَنبٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات] .
[المعجم الوسيط : مادة (ف د ي)] .

(٢) ندم على ما فعل يتدم ندماً وندامة ، من باب فرح : أسف وتحسر وتحنن أنه لم يفعله ، قال تعالى :
﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ۖ ﴾ [يونس] وندام اسم فاعل قال الحق : ﴿ فَاصْبِرْ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾
[المائدة] .

(٣) يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَذُ الْمُنْجَرِمُ لَوْ يَفْقَدِي مِنْ عَذَابٍ يُؤْتِيهِ بِهِ (١) وَمُحَاجِبِهِ وَأَخِيهِ (٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ نَحْبِهِ (٤) ﴾ [المعارج] .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

❖ ٥٩٨٩ ❖

ولذلك إن لم يردع الله - سبحانه وتعالى - الظالم في الدنيا قبل الآخرة لاستشرى الظلم ، وإذا استشرى الظلم في مجتمع ، فالبطالة تنتشر فيه ، ويحاول كل إنسان أن يأخذ من دم وعرق غيره ، وبهذا يختل ميزان العدل وتفسد حركة الحياة كلها .

وهب أن الظالم أخذ مُلك الدنيا كلها ، وأراد أن يفتدي به نفسه ساعة يأتي العذاب ، ويفاجأ بأن كسبه من حرام لا يُقبل فداءً ، أليس هذا هو الخسران الكبير؟ وهذه ظاهرة موجودة في دنيا الناس .

وهب أن واحداً ارتشى أو اختلس أو سرق ، ويفاجئه القانون ليمسكه من تلايبه^(١) فيقول : خذوا ما عندي واتركوني . ولن يقبل القانون على القانون ذلك . وإن كان مثل هذا التنازل يحدث في (الجمارك) فنرى من يتنازل عن البضائع المهربة مقابل الإفراج عنه ، هذا ما يحدث في الدنيا ، لكنه لن يحدث في الآخرة .

وفي سورة البقرة يقول الحق سبحانه :

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ^(٢) وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (١٨)﴾ [البقرة]

وقال الحق سبحانه في آية أخرى :

(١) التلايب : سجاجيع ثياب الرجل ، والتلايب : مومجع الثوب الذي يلبسه عند صدره وسعده وجره .
[اللسان مادة لب]

(٢) العدل : العدية المائلة ، قال تعالى : ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ . . (١٨)﴾ [البقرة] أي : لا يتجها من العذاب دفع فدية مائلة ولا تقبل منها . وعدل الشيء وعده أقامه وسواه ، قال الحق : ﴿وَالَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٢٠)﴾ [الأنعام] وعدل المشرك بربه جعل له مساوياً . قال تعالى : ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ . (١٠١)﴾ [الأنعام] وما كان ينفي أن يعدلوا غيره ، فليس كمثل شيء . ومثلها قوله : ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لَهُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٥٦)﴾ [النمل] أي : يجعلون له شريكاً مساوياً . وأما قوله : ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١)﴾ [الأعراف] أي : يحكمون بالعدل [القاموس القويم]

﴿وَأَنْقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (١٢٣) [البقرة]

وقال بعض المشككين أن الآيتين متشابهتان ، ولم يلتفتوا إلى أن كل آية تختلف عن الأخرى في التقديم للعدل ، والتأخير للشفاعة .

والبلاغة الحقة تنجلي في الآيتين ؛ لأن القارئ لصدر كل آية منهما ، والفاهم للملكة اللغوية العربية يعرف أن عجز كل آية يناسب صدرها .

ومن يقرأ قول الحق سبحانه :

﴿وَأَنْقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ (١٢٨) [البقرة]

يرى أنه أمام نفسيين : النفس^(١) الأولى هي التي تقدم الشفاعة ، والنفس الثانية هي المشفوع لها . والشفاعة هنا لا تقبل من النفس الأولى الشافعة ، وكذلك لا يقبل العدل .

وفي الآية الثانية لا تقبل الشفاعة ولا العدل من النفس المشفوع لها ، فهي تحاول أن تقدم العدل أولاً ، ثم حين لا ينفعها تأتي بالشفيع .

وهكذا جاء التقديم والتأخير في الآيتين مناسباً للموقف في كل منهما .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ (٥٤) [يونس]

وفي هذا القول تعذر ملك النفس الواحدة لكل ما في الأرض ، ولو افترضنا أن هذه النفس ملكته فلن تستطيع الاقتداء به ؛ ونكون النتيجة هي ما يقوله الحق سبحانه :

(١) فالآية الأولى تتحدث عن عدم القبول من النفس الشافعة ، والآية الثانية تتحدث عن عدم قبول العدل أولاً والشفاعة ثانياً من النفس المشفوع لها ، هذا ما يفهم من مرادات الشيخ رضي الله عنه .

﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ...﴾ (٥٤) [يونس]

أى: أخفوا الحسرة التى تأتى إلى النفس ، وليس لها ظاهر من انزعاج لفظى أو حركى .

إن كلاً منهم يكتنم همّه فى قلبه ؛ لأنه ساعة يرى العذاب ينهر ويصعق ويُبْهَتٌ " من هول العذاب ، فتجمد دماؤه ، ولا يستطيع حتى أن يصرح ، وهو بذلك إنما يكبت ألمه فى نفسه ؛ لأن هول الموقف يجمّد كل دم فى عروقهم ، ويخرس ألسنتهم ، ولا يستطيع أن ينطق ؛ لأنه يعجز عن التعبير الحركى من الصراخ أو الألم .

ونحن نعلم أن التعبير الحركى لونه من التنفيس البدنى ، وحين لا يستطيعه الإنسان ، فهو يتألم أكثر .

هم - إذن - يُسْرُونَ الندامة حين يرون العذاب المفزع المفجع ، والكلام هنا عن الظالمين ، وهم على الرغم من ظلمهم ، فالحق سبحانه يقول : ﴿وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ (٥٤) "وهم لا يظلمون" (٥٤) [يونس]

وهؤلاء رغم كفرهم واستحقاقهم للعذاب يلقون العدل من الله ، فهُبَّ أن كافراً بالله بمنأى عن الدين ظلم كافراً آخر ، أيقف الله سبحانه من هذه المسألة موقفاً محايداً ؟

لا ؛ لأن حق خلق الله سبحانه - الكافر المظلوم - يقتضى أن يقتصر الله سبحانه له من أخيه الكافر الظالم ؛ لأن الظالم الكافر ، إنما ظلم مخلوقاً لله ، حتى وإن كان هذا المظلوم كافراً .

ولذلك يقضى الله بينهم بالحق ، أى : يخفف عن المظلوم بعضاً من

(١) يبهت: أى ؛ بشلكة هول ما يحدث ، فينتطح عن الكلام أو غيره .

(٢) القسط: المراهبة هنا العدل .

العذاب بقدر ما يثقله على الظالم .

هذا هو معنى ﴿وَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ لأنها تتطلب قضاء ، أى : عدم تحيز ،
وتتطلب الفصل بين خصومتين .

ويترتب على هذا القضاء حكم : لذلك يبين لنا الحق سبحانه أنهم
وإن كانوا كافرين به - إلا أنه إن وقع من أحدهم ظلم على الآخر ، فالحق
رب الجميع وخالق الجميع ، كما أعطاهم بقانون الربوبية كل خير مثلما
أعطى المؤمنين ، فهو سبحانه الذى أعطى الشمس ، والماء ، والهواء ،
وكل وسائل الرزق والثروت لكل الناس - مؤمنهم ، وكافرهم - فإذا ما
حدث ظلم بين متدينين بدين واحد ، أو غير متدينين ، فلا بد أن يقضى
فيه الحق سبحانه بالفصل والحكم بالعدل .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ الْإِنَّ وَعَدَ ٱللَّهُ
حَقًّا ۚ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٥﴾

«ألا» فى اللغة يقال عنها «أداة تنبيه» وهى تنبه السامع أن المتكلم سيقول
بعدها كلاماً فى غاية الأهمية ، والمتكلم - كما نعلم - يملك زمام لسانه ،
بحكم وضعه كمتكلم ، لكن السامع يكون فى وضع المفاجأ .

وقد يتكلم متكلم بما دار فى ذهنه ليبرزه على لسانه للمخاطب ، ولكن
المخاطب يفاجأ ، وإلى أن يتبه قد تفوته كلمة أو اثنتان مما يقوله المتكلم .

(١) وعده شيئاً يعده وعداً وعدة : أخبره أنه سيحققه له أو سيعطيه إياه ، يتعدى لمفعولين ، وقد يحذف أحد
المفعولين للعلم به ، قال الحق : ﴿وَكَلَّا وَعَدَ ٱللَّهُ نَعْمَ ۚ ۝٥٥﴾ [النساء] كلا : مفعول به أول مقدم ،
واخسنى مفعول به ثان . أى : أخبرهم الله أنه سيعطيهم أحسن الترحات ، والوعد يأتى للخير كثيراً ،
وللشر أحياناً كما فى قوله : ﴿ٱلشَّيْطٰنُ يَدْعُوكُمُ ٱلْفَقْرَ ۚ﴾ [البقرة] أى : يندركم ويخونكم بالشر ،
والفعل متعدي لمفعولين * كم * مفعول أول ، والفقر مفعول ثان ، [القاموس المقوم - بصرف] .

والله سبحانه وتعالى يريد ألا يفوت السامع لقوله أى كلمة ، فأتى بأداة تنبيه تنبيه إلى الخير القادم بعدها ، وهو قول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٥٥)﴾ [يونس]

هكذا شاء الحق سبحانه أن تأتى أداة التنبيه سابقة للقضية الكلية ، وهى أنه سبحانه مالك كل شيء ، فهو الذى خلق الكون ، وخلق الإنسان الخليفة ، وسخر الكون للإنسان الخليفة ، وأمر الأسباب أن تخضع لمسببات عمل العامل ؛ فكل من يجتهد ويأتى بالأسباب ؛ فهى تعطيه ، سواء أكان مؤمناً أو كافراً .

وإذا خدمت الأسباب الإنسان ، وكان هذا الإنسان غافلاً عن ربه أو عن الإيمان به ، ويظن أن الأسباب قد دانت له بقوته ، ويفتن بتلك الأسباب ، ويقول مثلاً قال قارون :

﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ^(١) عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي .. (٧٨)﴾ [القصص]

فالذى نسى مسبب الأسباب ، وارتبط بالأسباب مباشرة ، فهو ينال العذاب ، إن لم يكن فى الدنيا ففى الآخرة ؛ فكان الحق سبحانه ينههم : تنبيهوا أيها الجاهلون ، وافهموا هذه القضية الكبرى : ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٥٥)﴾ [يونس]

فإياك أيها الإنسان أن تغتر بالأسباب ، أو أنك بأسبابك أخذت غير ما يريد الله لك ، فهو سبحانه الذى أعطاك وقدر لك ، وكل الأسباب

(١) وقد قال سبحانه : ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَأَنبَأَهُمْ مِنَ الْكُفُورِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْفُتَّةِ أُولَئِكَ أَقْوَامٌ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٨)﴾ [القصص] . وقارون هو ابن عم موسى عليه السلام ، أعطاه الله من الأموال المودعة فى الخزان حتى أن مفاتيحها لا تستطيع الجماعة من الناس حملها لكثرتها وثقلها ، فأهلكه الله ببغيه وفرحه بماله وتعطيه على الناس ، وقوله : ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي .. (٧٨)﴾ [القصص] فكان جزاؤه : ﴿فَنَحْسَنَّا بِهِ وَبَدَّارَهُ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُفْضَرِينَ (٨١)﴾ [القصص] .

تتفاعل لك بعباء وتقدير من الله عز وجل .

وفى أغيار الكون الدليل على ذلك ، ففكرك الذى تخطط به قد تصيبه آفة الجنون ، والجوارح مثل اليد أو القدم أو اللسان أو العين أو الأذن قد تُصاب أى منها بمرض ؛ فلا تعرف كيف تتصرف .

وكل ما تأتى فيه الأغيار ؛ فهو ليس من ذاك ، وكل ما تملكه موهوب لك من مسبب الأسباب .

فإياك أن تنظر إلى الأسباب ، وتنسى المسبب ؛ لأن الله ملك الأشياء التى تحوزها والأدوات التى تحوز بها ؛ بدليل أنه سبحانه حين يشاء يسلبها منك ، فتنبه أيها الغافل ، وإياك أن تظن أن الأسباب هى الفاعلة ، بدليل أن الله سبحانه وتعالى يخلق الأسباب ؛ ثم يشاء ألا تأتى بتأثيرها ، كمن يضع بذور القطن - مثلاً - ويحرق الأرض ، ويروىها فى مواعيدها ، ثم تأتى دودة القطن لتأكل المحصول .

إذن : فمرد كل مملوك إلى الله تعالى .

واعلم أن هناك ملكاً ، وأن هناك ملكاً ، والملك " هو ما تملكه ؛

(١) الملك : فى الأعيان والمحسوسات حقيقة ، وفى المعانى مجاز ، فمن الملك الحقيقى قال تعالى : ﴿ إِنِّى وَجَدْتُ أُمَّرَأَةً تَمْلِكُهُمْ .. ﴾ (١٢) [الملء] ، ومن المجاز قوله : ﴿ أَمِنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ .. ﴾ (١٠) [يوتس]

ومالك اسم فاعل ، وجمعه مالكون ، قال الحق : ﴿ لَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ .. ﴾ (١١) [يس] ومملوك اسم مفعول كقولہ تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا .. ﴾ [الاحل] والملك مصدر ، قال تعالى : ﴿ قَالُوا مَا احْتَلَبْنَا مَوْعِدَكَ سَلَكًا .. ﴾ (١٧) [طه] أى : بإرادتنا واختيارنا . والملك مصدر بمعنى السلطان ، قال تعالى : ﴿ عَلَى مَلِكٍ سَلِيمَانَ .. ﴾ [البقرة] أى : على عهد ملك سليمان . والملك : الحاكم ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ اشْرَفْنِى بِهِ اسْتَخْلَصْنِى لِنَفْسِى .. ﴾ (٢٠) [يوسف] هو فرعون ، وفرىء ملك يوم الدين ، وصالك يوم الدين . والملك والمالك والمليك من أسماء الله الحسنى ، والمملوك : الملك العظيم ، وهو لله خاصة ، قال الحق : ﴿ فِي يَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ .. ﴾ (٥٢) [يس] والملك واحد الملائكة « الفاموس القوم - يتصرف »

جلباباً ؛ أو بيناً ، أو حماراً ، إلى غير ذلك ، أما المُلْكُ فهو أن تملك
من له مِلْكٌ ، وتسيطر عليه ، فالقمة - إذن - في المُلْكِ ،

وانظر إلى قول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ
تَشَاءُ ۚ ﴾ (٣٦)

[آل عمران]

إذن : فالمُلْكُ في الدنيا كله لله سبحانه .

وكلمة «ألا» جاءت في أول الآية - التي نحن بصدد خواطرها عنها -
لتنبيه الغافل عن الحق ؛ لأن الأسباب استجابت له وأعطته النتائج ، فاعترَّ
بها ، فيجعل الله سبحانه الأسباب تختلف في بعض الأشياء ؛ ليظل
الإنسان مربوطاً بالسبب .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۚ ﴾ (٥٥)

[يونس]

والوعد إن كان في خير فهو إشارة بخير يقع ، وإن كان بشرً فهو إنذار
بشرٍ يقع ؛ ويغلب عليه كلمة «الوعد» .

إذن : ففي غالب الأمر تأتي كلمة «وعد» للثنين : الخير والشر ،
أما كلمة «وعيد» فلا تأتي إلا في الشر .

والوعد : هو إخبار بشيء سيحدث من الذي يملك أن يحدث الشيء .

وإنفاذ الوعد له عناصر : أولها الفاعل ، وثانيها المفعول ، وثالثها
الزمان ، ورابعها المكان ، ثم السبب .

والحدث يحتاج إلى قدرة ، فإن قلت : «أتيك غداً في المكان الفلاني
لأكلمك في موضوع كذا» فماذا تملك أنت من عناصر هذا الحدث ؛ إنك

لا تضمن حياتك إلى الغد ، ولا يملك سامعك حياته ، وكذلك المكان الذي تحدد فيه اللقاء قد يصيبه ما يدمره ، والموضوع الذي تريد أن تتحدث فيه ، قد يأتي لك خاطر ألا تتحدث فيه من قبل أن يتم اللقاء .

وهب أن كل العناصر اجتمعت ، فماذا تملك أنت أو غيرك من عناصر الوعد ؟ لا شيء أبداً .

ولذلك يعلم الله سبحانه خلقه الأدب في إعطاء الوعود ، التي لا يملكونها ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴾ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ . . . (٢٤) ﴿

[الكهف]

وحين تقدم المشيئة فإن حدث لك ما يمنع إنفاذ الوعد قلن تكون كذاباً .

وهكذا يعلمنا ربنا صيانة أخیارنا عن الكذب ، وجعلنا نتكلم في نطاق قدراتنا ، وقدراتنا لا يوجد فيها عنصر من عناصر الحدث ، لكن إذا قال الله سبحانه ، ووعد ، فلا راد لما وعده سبحانه ؛ لأنه منزّه عن أن يخلف الميعاد ؛ لأن عناصر كل الأحداث تخضع لمشيئته سبحانه ، ولا تنأى عليه " ، ووعدده حق وثابت .

أما أنت فتحكم فيك الأغيار التي تجريها الحق سبحانه عليك .

(١) ذكر محمد بن إسحاق أن كفار قريش بعثوا وفدًا منهم إلى أخبار اليهود يسألونه عن صفة الرسول ﷺ فأنزلهم : إنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فأوصى اليهود كفار قريش بسؤال محمد ﷺ عن ثلاثة أسور ، منها : «سلوه عن فتية في الدمر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب » فسألوه فقال رسول الله ﷺ : «أخبركم غدا عما سألتكم عنه » ولم يستثن - أي : لم يقل : إن شاء الله ، فمك رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يوحى إليه في ذلك شيء فنزلت هذه الآية . ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧١) .

(٢) التأني : هو الامتناع وعدم الانصياع . والإبادة : أشد الامتناع . [اللسان : مادة أي] .

وَهَبْ أَنْكَ أَرَدْتَ أَنْ تُبْنِيَ بَيْتاً ، وَقُلْتَ لِلْمُهَنْدِسِ الْمَوَاصِفَاتِ الْخَاصَّةِ الَّتِي تَرِيدُهَا فِي هَذَا الْبَيْتِ ، لَكِنَّ الْمُهَنْدِسَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَشْتَرِيَ مِنَ الْأَسْوَاقِ بَعْضاً مِنَ الْمَوَادِّ الَّتِي حَدَدْتَهَا أَنْتَ ، فَأَنْتَ - إِذَنْ - قَدْ أَرَدْتَ مَا لَا يَمْلِكُ الْمُهَنْدِسُ تَصَرُّفاً فِيهِ .

لَكِنَّ الْأَمْرَ يَخْتَلِفُ بِالنِّسْبَةِ لِلْمَخَالِقِ الْأَعْلَى سُبْحَانَهُ ؛ فَهُوَ الَّذِي يَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَهُوَ حِينَ يَعْدُ بِصِيرٍ وَعَدُهُ مُحْتَمٌّ النِّفَازِ ، وَلَكِنَّ الْكَافِرِينَ يَنْكُرُونَ ذَلِكَ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ :

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٥)

[يونس]

أَيُّ : أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ ، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ قَالُوا :

﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ ..﴾ (٤٨)

[يونس]

أَوْ أَنَّ ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تَعْنِي : أَنَّ الْإِنْسَانَ يَجِبُ أَلَّا يَضَعُ نَفْسَهُ فِي مَوْعِدٍ دُونَ أَنْ يَفْدُمَ الْمَشْيِئَةَ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مِنْ عُنَاوِرِ أَيِّ وَعْدٍ إِلَّا مَا يَشَاءُ اللَّهُ تَعَالَى .

وَيَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ بَعْدَ ذَلِكَ :

﴿هُوَ الْحَيُّ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٥٦)

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ حَرَكَةَ الْحَيَاةِ ، وَالْمُلْكِ وَالْمُلْكِ ، هِيَ فَرْوَعٌ مِنَ الْأَحْيَاءِ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ حَيٌّ ؛ لِأَنَّهُ مَالِكُ الْأَصْلِ ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يُمِيتَ ، وَكُلُّ مَا يَصْدُرُ عَنِ الْحَيَاةِ يَسْلُبُهُ " اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِالْمَوْتِ ، فَهُوَ

(١) سَلَبَ الشَّيْءَ وَيَسْلُبُهُ مِنْ بَابِ نَصَرٍ مِثْلًا : فَزَعَهُ مِنْهُ قَهْرًا أَوْ اخْتَلَسَهُ ، يَقُولُ الْحَقُّ : ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ سَيِّئًا لَا يَسْتَعْقِلُونَ مِنْهُ﴾ (٢٢) [الحج] أَيُّ : يَنْزِعُ مِنْهُمْ شَيْئًا ، وَهُوَ فِعْلٌ يَتَعَلَّى لِمَفْعُولَيْنِ «الْقَامُوسُ الْفَرِيدُ» .

مسالك الأشياء ، والأسباب التي تُنتج الأشياء ، ولا يفوته شيء من وعد ولا وعيد ، ونحن نحيا بمشيئته سبحانه ، ونموت بمشيئته سبحانه ، فلن نفلت منه .

لذلك قال سبحانه : ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ فمن لا يعتبر بأمر الأحياء ؛ عليه أن يرتدع بخوف الرجعة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧)

والخطاب هنا للناس جميعاً ؛ لأن الحق سبحانه حين يخاطب المؤمنين بقوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ (١٠٤)

[البقرة]

فهذا خطاب لمن آمن بالمنهج .

والحق سبحانه وتعالى يخاطب الناس كافةً بأصول العقائد ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ...﴾ (١)

[النساء]

أما المؤمنون فسبحانه يكلفهم بخطابه إليهم ، من مثل قول الحق سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ...﴾ (١٨٣)

[البقرة]

ومثل قول الحق :

سُورَةُ التَّوْبَةِ

﴿١٧٨﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ^(١) فِي الْقَتْلِ ..﴾ (١٧٨)

[البقرة]

أى: أن خطابه سبحانه للمؤمنين يكون دائماً فى الأحكام التى يخاطب بها المؤمنين ، أما فى أصول العقائد والإيمان الأعلى بالواحد الموجد ، فهذا يكون خطاباً للناس كافة .

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ ..﴾ (٥٧)

[يونس]

والآية هنا تصور الموعظة وكأنها قد تجسدت وصار لها مجيء ، رغم أن الموعظة هى كلمات ، وأراد الله تعالى بذلك أن يعطى للموعظة صورة الحركة التى تؤثر وتحض على الإيمان:

والموعظة^(٢) هى الوصية بالخير والبعد عن الشر بلفظ مؤثر ، ويقال: فلان واعظ متميز ، أى: أن كلامه مستميل وأسلوبه مؤثر وجميل ، والموعوظ دائماً أضعف من الواعظ ، وتكون نفس الموعوظ ثقيلة ، فلا تتقبل الموعظة ببسر إلا ممن يجيد التأثير بجمال الكلمة وصدق الأداء^(٣) :

(١) القصاص: هو توقيع العقاب على من قتل أو جرح غيره بثل ما قتل أو جرح ، وهى شريعة جاءت النورانية بها وأقرتها شريعة الإسلام ، قال تعالى: ﴿وَكَيْفَا عَلَيْهِمْ قِيَامًا إِذْ تُلْقُوا بِأَنْفُسِكُمْ بِالْهَرَمِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ [البقرة] ،

(٢) وعظه يعطيه وعظاً وعظة: نصحه بالطاعة والعمل الصالح ، وأرشده إلى الخير . قال تعالى مصراً عند الكافرين: ﴿وَقَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَرَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء] فهم لعنادهم يشاوى عندهم الأمران . والموعظة ما يوعظ به من قول أو فعل كقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة] وقال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ..﴾ (١١٦) [النحل] ، والموعظة لها مقدمات بلاغية من متعلق إيماني - مادة وعظ بصرف - من «الفامرس القويم» .

(٣) وقد كان رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة والمثل الأعلى فى الموعظة الحكيمة ، فعن العرياض من سارية قال: قام نبينا رسول الله ﷺ ذات يوم ، فوعظنا موعظة بليغة ، رجلت منها القلوب وذرفت منها العيون .. الحديث أخرجه ابن ماجه فى سنة (٤٢) والترمذى (٢٦٧٦) وأحمد فى مسنده (١٢٦/٤) .

لأن الموعوظ قد يقول في نفسه: لقد رأيتني في محل دونك وتريد أن ترفعني ، وأنت أعلى مني . فإذا قدر الواعظ هذا الظرف في الموعوظ فهو يستميل نفسه .

ولتذكر الحكمة التي تقول: «النصح ثقيل ، فلا تجعلوه جَدَلًا ، ولا ترسلوه جَبَلًا ، واستعبروا له خَفَّةَ البيان» ؛ وذلك لتستميل أذن السامع إليك فتأتي له بالأسلوب الجميل المقنع الممتع الذي يعجبه ، وتلمس في نفسه صميم ما ترغب أن يصل إليه .

والموعظة تختلف عن الوصية ؛ لأن الوصية عادة لا تتأتى إلا في خلاصة حكمة الأشياء ، وهب أن إنساناً مريضاً وله أولاد ، وحضرته الوفاة ، فيقوم بكتابة وصيته ، ويوصيهم بعيون^(١) المسائل .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ .. (٥٧) ﴾

[يونس]

والموعظة إما أن تسمعها أو ترفضها ، ولأنها موعظة قادمة ﴿مَنْ رَبَّكُمْ﴾ فلا بد من الالتفات والانتباه ، وملاحظة أن الحق سبحانه قد اختص الموعظة بأنها من الرب ، لا من الإله ؛ لأن الإله يريدك عابداً ، لكن الرب هو المربي والكفيل ، وإن كفوت به .

وهذه الموعظة قادمة من الرب ، أي: أنها من كمالات التربية ، ونحن نعلم أن متعلقات الربوبية تنوزع ما بين قسمين: القسم الأول هو مقومات الحياة التي يعطيها الحق سبحانه من قوت ورزق - وهذه المقومات للمؤمن ، وللكافر - والقسم الآخر هو مقومات القيم التي ترسم منهج حركة الحياة ، وهذه للمؤمن فقط .

(١) عيون المسائل : أي : أصولها ، ولهم منها ، وعين كل شيء : خياره . [اللسان : مادة (عين)] .

إذن : فالموعظة هي نوع من التربية جاءت من ربكم المأمون عليكم ؛ لأنه هو الذي خلق من عَدَمٍ وأَمَدَّ من عُدَمٍ ، ولم يختص بنعمة الربوبية المؤمنين فقط ، بل شملت نعمته كل الخلق .

إذن : فالموعظة تحيىء ممن يُعطى ولا ينتظر منك شيئاً ، فهو سبحانه مُنزَّهٌ عن الغرض ؛ لأنه لن ينال شيئاً منك ^(١) فأنت لا تقدر على شيء مع قدرته سبحانه .

والموعظة القادمة بالمنهج تخصُّ العقلاء الراشدين ؛ لأن حركة العاقل الراشد تمر على عقله أولاً ، ويختار بين البدائل ، أما حركة المجنون فهي غير مرتبة ولا منسقة ، ولا تمر على عقله ؛ لأن عقله مختل الإدراك وفاقد للقدرة على الاختيار بين البدائل .

ولكن لماذا يُفسد العاقل الاختيار بين البدائل ^(٢) ؟

إن الذي يفسد حركة اختيار العاقل هو الهوى ، والهوى إنما ينشأ عما فى النفس والقلب ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى الآية التى نحن بصدد خوارطنا عنها :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ .. ﴾ (٥٧) ﴿ [يونس]

(١) وقد أعطانا القرآن مثلاً لهذا عن الهدى الذى يذبحه الجميع ، فيقول سبحانه : ﴿ لَنْ يَنَالِ اللَّهُ لُغُومَهَا وَلَا يَمَسُهَا وَلَكِنْ بِمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ (٥٧) ﴿ . [الحج]

(٢) يدل الشئ غيره ، وبديل الكلام : غيره وحرفه ، قال تعالى : ﴿ فَيَسْأَلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا لَوْلَا الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ السَّمَاءِ مِمَّا تَخَلَّفُوا بِفُسْقَوْهُمْ ﴾ (٥١) ﴿ [البقرة] أى : غيره وكلام آخر . ويقول الحق : ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حَسَنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٦٦) ﴿ [النمل] أى : عمل الخير والحسن بعد عمل السوء ، وأبدله الشئ من الشئ ، وأبدل الشئ بالشئ جعله بدلاً منه ، وتبدل الشئ بالشئ ومن الشئ جعله بدلاً منه ، كقوله تعالى : ﴿ لَا يَجْعَلُ لَكَ الْإِنْسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ يُبَدِّلَ بَيْنَهُمْ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَهْبَيتُكَ حَسَنَةً إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَهِيمًا ﴾ (٦١) ﴿ [الأحزاب] .

أى : أنه سبحانه قد أنزل عليكم ما يشفى صدوركم من غلّ يؤثر فى أحكامكم ، وحقد ، وحسد ، ومكر ، ويُتقى باطن الإنسان ؛ لأن أى حركة من حركات الإنسان لها تبع وجدانى ، ولا بد أن يُشفى النبع الوجدانى ؛ ليصح ؛ حتى تخرج الحركات من الجوارح وهى تابعة من وجدان طاهر مُصفى وسليم ؛ وبذلك تكون الحركات الصادرة من الإنسان سليمة^(١) .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٧) [يونس]

وجاءت كلمة «الشفاء» أولاً ، لتبين أن الهداية الحقّة إلى الطريق المستقيم تقتضى أن تُخرج ما فى قلبه من أهواء ، ثم تدلّه إلى المنهج المستقيم .

وإن سأل سائل عن القارق بين الشفاء والرحمة ؟ نجيب : إن الشفاء هو إخراج لما يُمرض الصدور ، أما الرحمة فهى اتباع الهداية بما لا يأتى بالمرض مرة أخرى ، واقرأ إن شئت قول الحق سبحانه :

﴿ وَتَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ﴾ (٨٢) [الإسراء]

وهكذا يتبين لنا أثر الموعظة : شفاء ، وهدى ، ورحمة ، إنها تعالج ليس ظواهر المرض فقط ، ولكن تعالج جذور المرض .

إذن : فشفاء الصدور يجب أن يتم أولاً ؛ لذلك نجد الطبيب الماهر هو من لا ينظر إلى ظواهر المرض فقط ليعالجها ، ولكنه يبحث عما خلف تلك الظواهر ، على عكس الطبيب غير المدرب العَجُول الذى يعالج الظواهر دون علاج جذور المرض .

(١) عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب « أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢) ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩) .

ومثال ذلك : طيب الأمراض الجلدية غير الماهر حين يرى بشوراً ؛ فهو يعالجها بما يطمسها ويزيلها مؤقتاً ، لكنها تعود بعد قليل ، أما الطبيب المدرب الفاهم فهو يعالج الأسباب التي تُنتج البثور ، ويزيلها بالعلاج الفعّال ؛ فيقضى على أسباب ظهورها .

وفي القرآن الكريم نجد قصة ابتلاء سيدنا أيوب عليه السلام ، فقد قال له الحق سبحانه :

﴿ ارْكُضْ ^(١) بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص]

أي : اضرب برجلك ذلك المكان يخرج لك منه ماء بارد ، تغتسل منه ؛ فيزيل الأعراض الظاهرة ، وتشرب منه ليعالج أصل الداء .

إذن : فالموعظة وكأنها تجسّدت ، فجاءت من ربكم - المأمون عليكم - شفاءً حتى تعالج المواجه ^(٢) التي تصدر عنها الأفعال ، وتصبح مواجيد سليمة مستقيمة ، لا تحلّل فيها ، وهدى إلى الطريق الموصل إلى الغاية الحقّة ، ورحمة إن اتبعها الإنسان لا يُصابُ بأيّ داء ، وهذه الموعظة تؤدي إلى العمل المقبول عند الله سبحانه .

ولكن إن صحّت لك الأربعة النابعة من الموعظة : الشفاء ، والهدى ،

(١) ابتلى الله سبحانه عبده نبيه أيوب - عليه السلام - بالمرض في جسده وفقد ماله وأولاده . واستمر هذا البلاء مدة ثمانى عشرة سنة عاشها صابراً على قضاء الله ، ولم يئن معه إلا زوجته التي اضطرت للعمل في خدمة الناس حتى توفر لنفسها ولزوجها الطعام ، ولما دعا أيوب ربه : ﴿ وَأَيُّوبُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الضَّرَّ وَرَأَيْتُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأنبياء] استجاب الله له وأزال عنه الضر إذ قال له : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص] لقد أمره الله أن يقوم ويركض الأرض برجله ففعل ، فأنبع الله في الأرض عيياً وأمره أن يغتسل منها ، فأذهب جميع ما كان في يده من الأذى ، ثم أمره أن يضرب الأرض من مكان آخر ففعل فأنبع الله له عيياً أخرى وأمره أن يشرب منها ؛ فأذهب جميع ما كان في باطنه من السوء ، وتكاملت له العافية ظاهراً وباطناً . [ذكرها ابن كثير في تفسيره ٣٩/٤ ، ٤٠] وقال عنه سبحانه : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص] .

(٢) المواجه : المقصود بها أعمال القلب التي إن استقامت استقامت الحواج .

والرحمة ، والعمل الصالح ، فإياك أن تفرح بذلك ، ففوق كل ذلك فضل الله عليك ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ

مِمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾

وأنت وكل المؤمنين مهما عملوا في تطبيق منهج الله ، فكلنا بعبادتنا لن تؤدي حق النعم الموجودة عندنا قبل أن نُكَلَّف ، وعلينا أن نتدبر قول رسول الله ﷺ : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته ^(١) » .

إذن : فإن افتخر إنسان بطاعته لله ، فهذه الطاعة تعود على العبد في دنياه ، وهو لن يؤدي بطاعته حق كل النعم التي أسبغها الله عليه .

ومثال ذلك : إن العبد لا يُكَلَّف إلا عند البلوغ ، أي : في سن الخامسة عشرة تقريباً ، فإن نظر إلى النعم التي أسبغها الله تعالى عليه حتى وصل إلى هذه السن ، فهو لن يحصيها ^(٢) ، فما بالنا بالنعم التي تغمرنا في كل العمر ، وحين يجازينا الحق في الآخرة ، فهو لا يجازينا بالعدل ، بل يعاملنا بالفضل .

إذن : إياك أن تقول : أنا تصدقتُ بكذا ، أو صليتُ كذا ، حتى لا تورثك استجابتك لمنهج الله غروراً بعملك التعبدي ، وتذكر القول

(١) تغمده الله برحمته : أدخله فيها وغمره بها . قال أبو عبيد : قوله « يتغمدني » : يُلبسني وينشأني ويسترنني . [لسان العرب : مادة (غ م د)] .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٦٣) ومسلم في صحيحه (٢٨١٦) عن أبي هريرة .

(٣) وقد قال الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۚ ﴾ [النحل] وقد أفرد سبحانه النعمة هنا ، لأن كل نعمة من نعم الله عليك وإن اعتبرتها واحدة في نظرك فهي مشتملة على نعم لا تحصى ولا تُعد ، فما بالك بالنعم مجتمعة .

المأثور : « رَبِّ مَعْصِيَةٍ أَوْرَثْتُ ذُلًّا وَانْكَسَارًا ، خَيْرٌ مِنْ طَاعَةِ أَوْرَثْتُ عِزًّا وَاسْتِكْبَارًا » .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا عَلَى اللَّهِ تَفَرُّوتَ ﴾ ﴿٥٩﴾

إن تمتع الإنسان في الحياة بالملك والمالك ، فكل ذلك يحتاج إلى استبقاء الحياة بالرزق الذي يهبنا الحق سبحانه أيّاه ، وكذلك استبقاء النوع بالتزاوج بين الذكر والأنثى .

ولكن الرزق الذي يستبقى الحياة لا بُدَّ أن يكون حلالاً ؛ لذلك حدّد لنا الحق سبحانه وتعالى المحرّمات فلا تقربها ، وأنت عليك بالالتزام بما حدّده الله ، فلا تدخل أنت على ما حلّل الله لتحريمه ^(١) ؛ لأن الحق سبحانه حدّد لك من الطعام ما يستبقى حياتك ويعطيك وقوداً لحركة الحياة ، فعامل نفسك كما تعامل الآلة التي تصنعها ، فأنت تعطى كل آلة الوقود المناسب لها لتؤدي مهمتها ، كذلك جعل الله سبحانه لك المواصفات التي تنفعك وتستفيد منها وتؤدي حركات الحياة بالطاقة التي يملك بها ما حلّله الله لك .

وكذلك حرّم الله عليك ما يضرُّك .

وإياك أن تقول : ما دامت هذه الأشياء تضرّني فلماذا خلقها الله ؛ لأن عليك أن تعرف أن هناك فارقاً بين رزق مباشر ، ورزق غير مباشر ، وكل

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخُزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِغَيْرِ اللَّهِ هـ .. ﴾ (٥٥) [النحل] .

ما في الكون هو رزق ، ولكنه ينقسم إلى رزق مباشر تستفيد منه فوراً ،
وهناك رزق غير مباشر .

ومثال ذلك : النار ، فأنت لا تأكل النار ، لكنها تُنضج لك الطعام .

إذن : فهناك شيء مخلوق لمهمة تساعد في إنتاج ما يفيدك .

والحق سبحانه قد حلل لك - على سبيل المثال - لحم الضأن والماعز ،
والإبل والبقر وغيرها ، وحرم عليك لحم الخنزير^(١) ، فلا تسأل : لماذا خلق
الله الخنزير ؟ لأنه خلقه لمهمة أخرى ، فهو يللملم قاذورات الوجود
ويأكلها ، فهذا رزق غير مباشر ، فتركه للمهمة التي أرادها الله لها .

وبعض الناس قد حرم على نفسه أشياء حللها الله تعالى^(٢) ، وهم بذلك
يُضيقون على أنفسهم ، ويظن البعض أنه حين يحلل ما حرم الله أنه يوسع
على نفسه ، فيأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أن يقول :

﴿ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ .. ﴾ (٥٩) [يونس]

أي : أخبروني ما أنزل الله لكم من رزق ، وهو كل ما تنتفعون به ، إما
مباشرة ، وإما بالوسائط ، فكيف تتدخلون بالحليل والتحريم ، رغم
أن الذي أنزل الرزق قد بين لكم الحلال والحرام ؟!

وقلمة ﴿ أَنْزَلَ ﴾ تفيد أن الرزق كله قادم من أعلى^(٣) ، وكل ما ترونه

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا مَا آخَلَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ ﴾ (١٧٧) وتكونوا مع رزقكم الله خلافاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون (٢٠٠) ﴿ [المائدة] .

(٢) يقول الحق سبحانه عن يعقوب عليه السلام : ﴿ كُلِّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالاً لِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى
نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ الْتَّوْرَةُ فَلَمَّا فَتَوُرَّهَا فَاتْلُوْهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٣١) ﴿ [آل عمران] .

(٣) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ (٢٠٠) ﴿ [الذاريات] فيزول المطر من السماء هو رزق
ينزله الله سبحانه ، فتحيا به الأرض الميتة فتنبث الزرع فيأكل منه كل كائن حي على الأرض من إنسان
أو حيوان ، ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَفَ فِيهِ فَيَاتِ الْأَرْضُ مَعاً يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ .. ﴾
(٢٣) ﴿ [يونس] .

حولكم هو رزق ، تنتفعون به مباشرة ، أو بشكل غير مباشر ، فالمال الذي تُشتري به أغلب الأرزاق لا يأكله الإنسان ، بل يشتري به ما يأكله .

وكلمة ﴿أنزل﴾ تعني : أَوْجَدَ ، وخلق من أعلى ، وما دام كل شيء قد وُجد بمشيئة مَنْ هو أعلى من كل الوجود ، فكل شيء لصالحك مباشرة أو بوسائط .

ولا تأخذ كلمة ﴿أنزل﴾ من جهة العلو الحسية ، بل خُذها من جهة العلو المعنوية ، فالمطر - مثلاً - ينزل من أعلى حسيّاً ، ويختلط بالأرض فيأخذ النبات غذاءه منها ، والرزق بالمطر ومن الأرض مُقَدَّرٌ مِّنْ خَلْقٍ ، وهو الأعلى سبحانه .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [٢٥] ﴿ [الحديد]

نعم ، فقد أنزل الحق سبحانه منهجه على الرسل عليهم السلام لتصلح حياة الناس ، وأنزل الحديد أيضاً ، هذا الذي نستخرجه من الجبال ومن الأرض .

إذن : فالمراد هنا بالإنزال ، أي : الإيجاد ممن هو أعلى منك لصالحك أيها الإنسان .

وما دام الحق سبحانه هو الذي أنزل الرزق ، وبين الحلال والحرام ، فلماذا تُدخلون أنوفكم في الحلال والحرام ، وتجعلون بعض الحلال حراماً ،

(١) البَيِّنَاتُ : الآيات الواضحة ، والقِسْطُ هنا : العدل ، والبَأْسُ : القوة [لسان العرب] .

وبعض الحرام أو كُلَّ الحرام حلالاً ؟ لماذا لا تتركون الجَعْلَ لمن خَلَقَ وهو سبحانه أَدْرِى بِمصلحتكم ؟

﴿ قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ .. ﴾ (٥٩) [يونس]

أى : هل أعطاكم الله سبحانه تفويضاً فى جَعْلِ الحلال حراماً ، والحرام حلالاً ؟ ﴿ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ (٥٩) ﴿ أى : على الله تتعمدون الكذب .

وقد جاء الحق سبحانه بالحلال والحرام ليبين لنا مدى قُبْحِ السلوك فى تحريم ما أحلَّ الله ، وتحليل ما حرَّم الله .

ويشير الحق سبحانه - فى إجمال هذه الآية - إلى آيات أخرى قَصَلت الحرام ، وسبق أن تناولناها بخواطرننا ، مثل قوله تعالى :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٦٠) [المائدة]

والبحيرة - كما ذكرنا - هى الناقة التى أنجبت خمس بطنون آخرها ذُكْرٌ ، وكانوا يشقُّون أذنَّها ، ويعلمون أنها قامت بواجبها وتركونها سائمة^(١) غير مملوكة ، لا يركبها أحد ، ولا يحمل عليها أحد أى حمل ، ولا يحلبها أحد ، ولا يجرّ صوفها أحد ، ثم يذبحها خُدَّامَ الآلهة التى كانوا يعبدونها ، وسَمَّوها «بحيرة»^(٢) ؛ لأنهم كانوا يشقون أذانها علامة على أنها أدَّت مهمتها .

(١) السائمة : الغنم والماشية ترمى حيث شاءت . والسائم : الذاهب على وجهه حيث يشاء . [اللسان مادة سوم] .

(٢) وسبب التسمية بالبحيرة هو أن شق أذنَّها يكون شقاً واسعاً فأشبهه البحر فى معناه . (بتصرف من أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٦٠٨) وفى توحيد المقصود بالبحيرة - هل هى الناقة التى ولدت خمسة أبطن أم بنتها التى ولدت فى آخر بطن ؟ - اختلاف . انظر فى هذا تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٧ ، ١٠٨) وكذا أحكام القرآن للجصاص ، ولذلك قيل فى بعض الأقوال أن السائبة هى أم البحيرة .

أما السائبة فهي غير المربوطة ؛ لأن الربط يفيد الملكية ، وكان الواحد منهم إذا شفى من مرض أو أراد شيئاً ^(١) وَهَبَ أَنْ يَجْعَلَ نَاقَةً لِخُدَّامِ الْأَصْنَامِ ، واسمها سائبة ، وهي أيضاً لا تُركب ، ولا تُحلب ، ولا يُحمل عليها ، ولا أحد يَتَعَرَّضُ لها .

والوصيلة : هي الأنثى تلدها الناقة في بطن واحدة مع ذكر ، فيقولون : «وَصَلَّتْ أَخَاهَا» ؛ فلا يذبحونه للأصنام من أجل أخته .

﴿وَلَا حَامٍ﴾ والحام : هو الفحل الذي يحصى ظهر نفسه بالنجاب عشرة أبطن ، فلا يركبه أحد بعد ذلك ، ولا يُحْمَلُ عليه ، ويترك لخدَّام الأصنام .

هذه هي الأنعام المحللة التي حرّموها على أنفسهم ، بينما يأكلها خُدَّام الأصنام ، وفي ذكر عدم تحريم تلك الأنعام رافة بهم .
وهناك أيضاً قول الحق سبحانه :

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَحْنُبْنِي بَعْلَمَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

[الأنعام]

إذن : فقد حرّموا بعضاً مما أحلَّ الله لهم ، وقالوا ما أورده القرآن :

(١) كان الرجل في الجاهلية إذا قدم من سفر بعيد ، أو برى من هلكة ، أو نجته دابة من مشقة أو حرب قال : ناقي سائبة أي : تسبب فلا ينتفع بظهرها ، ولا تحلبها من ماء ، ولا تمنع من كلاً ، ولا تركب . [ذكره ابن منظور في اللسان مادة (تسبب)] .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ^(١) مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ ^(٢) وَهَذَا لَشُرْكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرْكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرْكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ^(٣) ﴾ [الأنعام]

وأجمل الحق سبحانه كل ذلك في قوله الحق :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ^(٥٦) ﴾ [يونس]

وهكذا تدخلوا في تحريم بعض الحلال وحلّلوا بعضاً من الحرام ، وفي هذا تعدّ ما كان يجب أن يقتضوه ^(٤) ؛ لأن الحق سبحانه هو خالقهم ، وهو خالق أرزاقهم ، وفي هذا كذب متعمّد على الله سبحانه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ^(٦٠) ﴾

وهذه الآية توضح أن كل أمر بحساب ، فالذين يفترون على الله الكذب سيجدون حسابهم يوم القيامة عسيراً ، فالحق سبحانه منزّه عن الغفلة ، ولو ظنوا أنه لا توجد آخرة ولن يوجد حساب ؛ فهم يخطئون الظن .

(١) ذرأ : خلق . والحراث : هو الزرع والثمار .

(٢) بزعمهم ، أى : بقولهم الكذب . [السان العرب] .

(٣) وقد أجمل الحق سبحانه المحرمات من المطاعم في قوله : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم ^(١٠٠) ﴾ [الأنعام] .

ولو استحضروا ما أعدَّه الله لهم من العذاب والشكال ^(١) يوم القيامة لما فعلوا ذلك ، ولكنهم كالظَّالِمِينَ بأن الله - سبحانه وتعالى - غافل عن أفعالهم ، وكأنها أفعال لا حساب عليها ، ولا كسابة لها ، ولا رقيب يحسبها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٦٠) [يوسر]
إن الله سبحانه متفضل على كل خلقه - وأنتم ^(٢) منهم - بأشياء كثيرة ؛ فلم تحرمون أنفسكم من هذا الفضل ؟! ولو شكرتم الله تعالى على هذا التفضل لزد من عطاياكم ، لكنكم تنسون الشكر ،

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾



(١) الشكال : إيقاع العقوبة والعذاب على وجه يجعل من يفعل هذا الفعل عبرة لغيره ، وهذا هو قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءَ مَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٥٨) [المائدة] .

(٢) المقصود بهم أهل مكة ، يقول الحق سبحانه : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا لِمَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُحِطُّوا النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبَالِغِ الظُّلُمَاتِ يَلْمِزُونَ وَيَحْمِةَ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ (١٧) [العنكبوت] ، وقال أيضاً : ﴿ أَوْ لَمْ يُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحِيطُوا إِلَيْهِ فَمَا لِمَ يُقَاتِلُونَ وَهُمْ لَمْ يَأْمُرُوا بِالْعَدْلِ وَالْإِيمَانِ لَمَّا قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَأَنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ﴾ (٢٥) [القصص] .

(٣) تفيضون فيه : تدفعون فيه وتبسطون في ذكره . ما يعزب : لا يبعد ، ولا يتعجب عن علمه سبحانه . [اللسان العرب]

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ ، أى : ما تكون يا محمد فى شأن .
والشأن : هو الحال العظيم المتميز الذى يطرأ على الأمر .

ونحن فى حياتنا اليومية نقول : ما شأنك اليوم أو ما حالك ؟ وهنا يجيب
السامع بالشىء الهام الذى حدث له أو فعله ، ويتناسى اتفاقه من الأمور .
ولذلك يصف الله تعالى نفسه فيقول :

﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (٢٩)

[الرحمن]

أى : لا تظنوا أن ربنا - سبحانه وتعالى - خلق النواميس والقوانين ،
وقال لها : اعملى أنت ، لا فهو سبحانه كل يوم فى شأن .

ولذلك حين سئل أحد العلماء^(١) : ما شأن ربك الآن ؟ وقد صحَّ أن
القلم قد جفَّ ؟ فقال : «أمور يديها ولا يتديها» .

أى : أنه سبحانه قد رسم كل شىء ، وجعل له زماناً ليظهر ، فهو
سبحانه قيوم ، أى : مُبَالِغٌ فى القيام على مصالحكم ؛ ولذلك يطمئنا
سبحانه - وقد جعل الليل لنومنا وراحتنا - بأنه سبحانه قيوم لا تأخذه سنة
ولا نوم ، وهو يراعينا .

فالحديث فى الآية التى نحن بصندها موجه لرسول الله ﷺ :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ (٦١)

[يونس]

وشأن رسول الله ﷺ الذى يهتم به ليس المأكَل ولا المشرب ، إنما المهم
بالنسبة له هو بلاغ الرسالة بالمتهج بـ «افعل و«لا تفعل» .

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ ﴾ (٦١)

[يونس]

(١) هو : الحسين بن الفضل ، وذلك أن عبد الله بن طاهر دعاه ليقرأ له ثلاث آيات أشككت عليه ، منها هذه
الآية ، فقال : إنها شئون يديها لا شئون يتديها . ذكره القرطبي فى تفسيره (٩/٦٥٦٧) .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

٦٠١٣

و«منه» هنا بمعنى اللام ، أى : ما تتلو له ^(١) ، وتعنى تأييداً لآيات القرآن .

وهناك فى موضع آخر من القرآن يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِمَّا خَطَبْتَهُمْ ^(٢) أَغْرَقُوا .. (٢٥) ﴾ [نوح]

أى : أغرقوا لأجل خطيئاتهم .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرها عنها نفهم ما تكون فى شأن وما تتلو لأجل هذا الشأن من قرآن ، فالنبي ﷺ فى شأن هام هو الرسالة ، ويتلو من القرآن تأييداً لهذا الشأن وهو البلاغ بالمنهج .

ويدخل فى هذا الشأن ما فُوض رسول الله ﷺ فيه حسب قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ ^(٣) الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر]

ومثال ذلك : تحديد كيفية الصلاة وعدد ركعات كل صلاة ، وكذلك نصّاب ^(٤) الزكاة ، وهذه أمور لم يأت بها القرآن تفصيلاً ، ولكن جاءت بها الأحاديث النبوية .

إذن : فهناك تفويض من الحق للرسول ﷺ ليكتمل البلاغ بمنهج الله ، بنصوص القرآن ، وبتفويض الله تعالى له أن يشيّر .

(١) ما تتلو له : أى : لهذا الشأن . وهذا يتوافق مع ما ذكره الفراء والزجاج أن الهاء فى «منه» تعود على الشأن ، أى : تحدث شيئاً ، فيبطل من أجله القرآن ، فيعلم كيف حكمه . ذكره القرطبي فى تفسيره (٣٢٨٣/٤) .

(٢) هم قوم نوح عليه السلام .

(٣) آتاكم : أمركم .

(٤) نصّاب الزكاة : هو المقدار الذى إذا بلغه مال المسلم أو ماشيته أو تجارته وجبت فيه الزكاة ، بالمقادير التى حددتها السنة .

إذن: فكل شأن رسول الله ﷺ إما بلاغ عن الله بالنص القرآني ، وإما تطبيق فعلي للنص القرآني بالحديث النبوي ، وبالأسوة التي تركها لنا ﷺ في سنته .

والحُجَّة على الحكم - أي حكم - يأتي بها القرآن ، فإن كانت الأحكام غير صادرة من الله مباشرة ، فيكفي فيها أنها صدرت عن رسول الله ﷺ بتفويض من الله تعالى ليشرع .

وبذلك نردُّ على المنافقين الذين إذا حَدُّثُوا بشيء من حديث رسول الله ﷺ قالوا: «بيننا وبينكم كتاب الله»^(١) ، وهدفهم أن يردُّوا حديث رسول الله ﷺ - فعلاً ، أو قولاً ، أو إقراراً .

ثم ينقل الحق سبحانه الخطاب من المفرد إلى الجماعة فيقول جلَّ شأنه :

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ..﴾ (٦٦) [يونس]

وفى هذا انتقال للسامعين للقرآن ، المبلَّغ إليهم هذا المنهج ، فكل عمل إنما يشهده الحق سبحانه .

والعمل هو مجموع الأحداث التي تصدر عن الإنسان ، فكل حدث يصدر من الإنسان - ولو بنية القلب - يسمَّى عملاً ؛ لأن عمل القلوب هو النية . ولكن إذا صدر الحدث من اللسان كان قولاً ، وإذا صدر الحدث من بقية الجوارح كان فعلاً .

وهكذا ينقسم العمل إلى قسمين : قول ، وفعل .

(١) عن الفداء بن محمد يكرم أن رسول الله ﷺ قال : «يوشك الرجل يتكلم على أريكته فيحدث بحديث فيقول : بيني وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحلناه ، وما كان فيه حراماً حرّمناه ، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله » . أخرجه أحمد في مسنده (١٣٢/٤) والترمذي (٢٦٦٤) وابن ماجه (١٢) والدارقطني (٢٨٦/٤) في سننهم ، واللفظ للدارقطني .

وقد اختُصَّ حدث اللسان باسم القول ؛ لأن أصل مستندات التكليف كلها قولية .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي : تسرعون إلى العمل بنشاط وحيوية وإقبال مما يدل على حسن الاستجابة للمنهج فور أن يبلغه الرسول ﷺ .

والإقبال على العمل التكليفي بهذا الشوق ، وتلك الלהفة ، وحسن الاستقبال ، وإخلاص الأداء ، كل هذه المعاني يؤول إليها قول الحق سبحانه : ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ كما يفيض ماء الإناء إذا امتلأ لينزل . أي : أن تقبلوا على أعمال التكليف بسرعة وأنصبا وبانسكاب .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ^(١) مِنْ عَرَفَاتٍ^(٢)﴾ [البقرة] أي : شَرَعْتُمْ^(٣) فِي الذَّهَابِ مُسْرِعِينَ ؛ لَأَنْكُمْ أَذِيتُمْ سُكَّاءً أَخَذْتُمْ مِنْ طَاقَةٍ ، وَتَقْبِلُونَ بِهَا عَلَى نُسْكَ ثَانٍ .

إذن : فالحق سبحانه يشهد كل عمل منكم ، لكن ماذا عن النيات وما بُيِّتَ فيها من خواطير؟

ها هو الحق سبحانه يخبرنا أن كل شيء مهما صغر واختفى فهو معلوم ومحسوب .

يقول الحق سبحانه :

(١) يس الإفاضة من عرفة بعد غروب الشمس ، ولكن بالسكينة وفقاً للناس ؛ لأن هذا اليوم يتزاحم فيه الناس ويدفع بعضهم بعضاً ؛ ولذلك سميت إفاضة . انظر فقه السنة (٥١٨/١) وقد ثبت عنه ﷺ أنه كان يقسم إليه رمام ناقة حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله ، ويقول بيده اليمنى : أيها الناس السكينة ! أخرجه مسلم في صحيحه (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله .
(٢) شرعت في الأمر : بدأته ودخلت فيه .

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس]

أى: أن كل أمورك ، وأمور الخلق ، والمخلوقات كلها معلومة لله تعالى ، ومكتوبة في كتاب مبين واضح ، فلا أحد بقادر على أن يختلس حركة قلب ، أو يختلس حركة ضمير ، وكلمة «يعزب» تعنى: يغيب ويختفى .

والحق سبحانه يخبرنا أنه لا يضيع عنده جزاء أى عمل أو نية مهما بلغ العمل أو النية أدنى درجة من القلّة .

ولم يوجد عند العرب ما يضرب به المثل على الوزن القليل إلا الذرّة ، وهى النملة الدقيقة الصغيرة جداً ، ثم أطلقت الذرة على الهباء الشائع فى الجو ، ويمكنك أن ترى هذا الهباء إن جلست فى حجرة مظلمة مغلقة ، ثم دخلها شعاع من ضوء ، هنا ترى هذا الضوء وهو يمر من الثقب وكأنه سهم ، وترى مكونات هذا السهم من ذرات الهباء المتحركة الموجودة فى الجو ، تلك الذرات التى لا تراها وأنت فى الضوء فقط أو فى الظلام فقط ، ولكن التناقض بين الضوء والظلام يبرزها .

وأنت لا تدرك الشيء ولا تحسه لأمرين: إما لتناهيه فى الصغر ، وإما لتناهيه فى الكبر ؛ فلا تحيط به ، وحين تقدم العلم التطبيقى اخترعوا المَجَاهِر التى تُكَبِّرُ الشيء المتناهى فى الصغر آلاف ، أو ملايين المرات .

وأنت لو وضعت جلدك تحت عدسة المجهر فسترى فجوات وكأنها آبار لم تكن تراها أو تحسها من قبل ؛ لأنها بلغت من الدقة والصّغر بحيث

لا تستطيع عيناك أن تدركها ، فإن رأيته بالمجهر كُبرَّت فتري
فجوات وتعاريج وعلُوتاً وانخفاضاً - مهما كان الجلد الذي تراه
تحت المجهر ثاغماً .

وكذلك أنت لا تقدر على إدراك الشيء الضخم ، وقد تفصل بينك وبين
الشيء الكبير مسافة ؛ فتراه أصغر من حجمه ، وكلما ابتعد صَغُرَ ، فأنت
إذا رأيته - مثلاً - رجلاً طويلاً على مسافة كبيرة ، فأنت تراه وكأنه طفل
صغير ، وكلما اقتربت منه زاد طوله في عيُنك .

إذن : لا الضخامة ولا البُعد ، ولا القِلَّة تمنع من علم الحق سبحانه لأي
شيء .

وقد خاطب الحق سبحانه العرب بأصغر ما عرفوه ، وهو الذرة ، أي :
النملة الصغيرة .

وأنت إذا وطأت غملة في أرض رملية فهي لا تموت ، بل تدخل في
فجوات الرمل ، وتجد لنفسها طريقاً إلى سطح الأرض مرة أخرى .

قد بيّن الحق سبحانه هذه المسألة حين تحدّث عن سليمان - عليه
السلام - في وادي النمل ، فقال تعالى :

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَبُنَّكُمْ سُلَيْمَانُ
وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٨ ﴾ [النمل]

لأنهم لا يرونهم ، لحجمهم المتناهي في الصغر .

وهكذا يعطينا الحق سبحانه بياناً عن كل أمة في الحياة ، وأن من بينهم
جنوداً يحرسون بيقظة ، فالنملة قامت بإبذار قومها من سليمان وجنوده ،

لأنهم لن يروا النمل الصغير^(١) .

إذن : الذرُّ إما أن يكون النمل الصغير ، وإما أن يكون الذرَّات الهبائية .
وأراد الله سبحانه أن يضرب لنا مثلاً بإحاطة علمه في أنه لا يعزب عنه
مئثال ذرة .

ويعزب ، أى : يغيب ، ويقال : « هذا البشر مأوء عازب » ، أى : قادم من
عمق بعيد ، ويحتاج استخراجَه إلى دَلِّهِ وحبال طويلة .
ونسَمَّى الرجل الذى يبعد عن أهله «عَزَبٌ» .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يَعْزِبُكَ ﴾ . أى : لا يبعد ولا يغيب عنه أصغر
شئ ولا أكبر شئ .

يقول سبحانه ذلك ؛ ليطمئننا أن كل خاطرة من خواطر الإنسان
إنما يشهدها الله ، وَيَعْلَمُهَا ، وهو المُجَازِي عليها .

وإن استطاع إنسان أن يُعَمَّى على قضاء الأرض ، فلن يَستطِع أن يُعَمَّى
على قضاء السماء^(٢) .

ومسألة الذرة والصغر يقول عنها الحق سبحانه :

- (١) قال تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ لَهُمْ يُوَزَّغُونَ ﴾ (١٠٠) ﴿ [النمل] ﴾ وسار سليمان
بجركه العظيم هذا . ﴿ حَتَّى إِذَا تَوَلَّى وَادٍ الثَّمَلِ ﴾ (١٠١) ﴿ [النمل] ﴾ أى : مُرَّراً على وادي النمل فقالت
غلمة لإخوانها : ﴿ إِذْ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطُمَنَّ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٠٢) ﴿ [النمل] ﴾ فهى
خافت على النمل أن تحطه بها الخيول بحوافرها فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم ، ففهم ذلك سليمان .
﴿ فَنِسِمَ مَا كَافَأَهُمْ قَوْلُهَا ﴾ وقال رب آوِزْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً
تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي رَحْمَتَكَ فِى عَمَلِكِ الصَّالِحِينَ (١٠٣) ﴿ [النمل] ﴾ . أى : ألهمنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت
بها على من تولى من تلحقى منطق الطير والحيوان وعلى والدى بالاسلام لك ، [ابن كثير : ٣/ ٣٥٧ - ٣٥٩] .
(٢) عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : « أبكم تختصمون إلى ، وإنا أنا بشر ، ولعل بعضكم أن يكون
ألحن من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع منه ، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً
فلا يأخذه ، فإنما أقطع له به قطعة من النار » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٦٨٠) ومسلم (١٧١٣) .

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾
[الزلزلة]

هذا للمتساوي في الثقل والوزن ، أما إن كان أصغر من الذرة ، فقد ذكره الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها فقال :

﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ (١١)﴾ [يونس]

وعلى زمن نزول القرآن الكريم لم يكن أحد يعرف أن هناك ما هو أصغر من الذرة ، وكنا جميعاً حتى ما قبل الحرب العالمية الأولى لا نعلم أن هناك شيئاً أصغر من الذرة ، وكان العلماء يعتقدون أن الذرة هي الجزء الذي لا يتجزأ ؛ لأنها أصغر ما يقع عليه البصر ، فضرب الله مثلاً بالأقل في زمن نزول القرآن ،

ولما تقدم العلم بعد الحرب العالمية الأولى واخترعت ألمانيا آلة لتحطيم الذرة قيل عنها : إنها آلة تحطيم الجواهر الفرد. أي : الشيء الذي لا ينقسم ، وهذه الآلة مكونة من اسطوانتين مثل اسطوانتي عَصَّارة القصب ، والمسافة بين الاسطوانتين لا تكاد تُرى ، وحين حَطَّمت ألمانيا ما قبل عنه «الجواهر الفرد» تحول إلى ما هو أقل منه ، وتفتتت الذرة.

وقد جعل الحق سبحانه المقياس في الصغر هو الذرة ،

وحين اخترعت ألمانيا تلك الآلة توجَّس المتصلون بالدين وخافوا أن يقال : إن الحق سبحانه لم يذكر ما هو أقل من الذرة ، ولكنهم التفتوا إلى الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، فقرأوا قول الحق سبحانه :

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١)﴾ [يونس]

﴿مَا يَعْزُبُ﴾ أى: لا يبعد أو ينيب ﴿عَنْ رَبِّكَ﴾ أى: عن علمه ﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾. أى: وزن ذرة.

وقديماً قلنا: إن البعض يقول: إن «من» قد تكون حرفاً زائداً فى اللغة، كقولنا: «ما جاءنى من رجل» وتعرب كلمة «من»: حرف جر زائد، و«رجل»: فاعل مرفوع بالضممة الظاهرة التى منع من ظهورها اشتغال المحل وهو «اللام» بحركة حرف الجر الزائد.

ولكن فى كلام الله لا يوجد حرف زائد^(١)، فـ «مِنْ» فى قوله: ﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾. أى: من بداية ما يقال له «مِثْقَال».

ويقول الحق سبحانه فى آية أخرى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيََنَّكُمْ عَالَمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ... (٣)﴾ [سبا]

وكلمة ﴿وَرَبِّى﴾ مُقْسَمٌ به، وحرف «الواو» هو حرف الجر، ولم يأت هنا بالشهادة، وجاء بالغيب، ولم يأت بعلم الغيب فى الآية التى نحن بصدد خواطرها عنها.

وعالم الشهادة، تعنى: أنه عالمٌ بكل ما يشهد، ويظن البشر أنها غير مُحَاط بها لعظمتها؛ أو لأن الله غيب فلا يرى إلا الغيب، لكن الحق سبحانه يرى ويعلم الغيب والشهادة.

(١) «حرف الجر الزائد» مصطلح نحوى يقصد به النحاة الزيادة اللفظية فى الكلام. وإحقق أن حروف الجر الزائدة «تلك ليست بزائدة لأن لها وظيفة بلاغية. فكلمة «من» فى جملة «ما جاءنى من رجل» تفيد تأكيد معنى الغنى. وهناك مثال آخر كثيراً ما يذكره فضيلة الشيخ فى مقولاته، بضرب هذه الأمثلة؛ لأن الحرف ما دام موظفاً فلا يكون زائداً. فيقول: «ما معنى مال؟» و«ما معنى من مال؟». فكلمة «من» فى الجملة الأخيرة تفيد تأكيد معنى وجود أى مال مع التكلم، وهذا التأكيد ليس موجوداً فى جملة «ما معنى مال؟».

لقد قال الحق كلمة «مثقال ذرة» ثلاث مرات :

مرة حين قال سبحانه : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ ۞ (٧) ﴾ [الزلزلة]

ومرة حين قال هنا :

﴿ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۖ ۞ (١١) ﴾ [يونس]

وجاء بـ «من» هنا ليبين أنه لا يغيب عن الله تعالى من بداية ما يقال له «مثقال» .

وقال الحق سبحانه في موضع آخر :

﴿ لَا يَغْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۖ ۞ (٣٠) ﴾ [سبا]

وجاء بالسموات أولاً ، وجاء في الآية - التي نحن بصدد خواطرنا عنها - بالأرض أولاً ، وهو في الآيتين يتكلم عن علمه للغيب " ، فيأتي بمِثْقَالِ الذرة ويقدم السماء ويأتي بها مفردة ، ثم يأتي بما هو أقل من الذرة ويقدم الأرض .

وهذا كله من إعجاز أساليب القرآن التي أراد البعض من المستشرقين أن يعترضوا عليها ، وكانت جميع اعتراضاتهم نتيجة لعجزهم عن امتلاك ملكة الأداء البياني .

وإن عرَضنا الرد على تساؤلاتهم نجد أن الحق سبحانه قدَّم الأرض في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ لأنه سبحانه يتكلم عن أهل الأرض :

(١) غاب الشيء مغيب غيباً ، استتر عن العين أو عن علم الإنسان في المعنوي . والغيبية : اسم مرة من غابه ، أي : ذكره في عينه بالسوء كاختبائه ، قال الحق : ﴿ وَلَا يَغْنَبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ۖ ۞ (١٦) ﴾ [الحجرات] والغيبية : اسم هيئة منه . والغيب مصدر ويسمى به من غاب واستتر ، يقول الحق : ﴿ الَّذِينَ يُرِيدُونَ بِالْغَيْبِ ۖ ۞ (٢٢) ﴾ [البقرة] كالحمة والنار والملائكة والجن ، وجمعه غيوب . يقول الحق : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۖ ۞ (١٧٣) ﴾ [المائدة] .

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ﴾ [يونس]

وجاء أيضاً بالسما ، وهى السماء الدنيا التى يراها أهل الأرض .

أما الآية الأخرى فهو سبحانه يقول :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّی لَتَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ لَا يَغْرِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۖ﴾ [سبا]

والكلام هنا عن الساعة ، وعلمها عند الله تعالى ، ولم تنزل من السموات إلى السماء الدنيا حتى نقول للمكلفين فى الأرض : قوموا ها هى الساعة .

ولذلك جاء الحديث هنا عن السموات أولاً ؛ لأن علم الساعة عند ربى ، ولن ينزل إلا بمشيئته سبحانه .

وهكذا جاء كل أسلوب لا بإجمال المعنى ، ولكن بدقة جزئياته ، فتكلم فى الآية التى نحن بصدد خواتمنا عنها ، وآية سبأ عن العلم والذرة ، والسماء والأرض ، وكل آية جاءت الكلمات فيها بتقديم أو تأخير يناسب مجالها .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾^(١) [يونس]

ولنا أن نلتفت إلى أن الاستثناء هنا لا يُخرج ما قبله ، بل كل شيء

(١) بأن الشيء بين بياناً ظهرياً واضحاً ، فهو بين وهى بينة . أى : ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البين والبيئة بمعنى المظهر والمظاهرة والموضح والموضحة .

يقول الحق سبحانه : ﴿كُلُّ نَفْسٍ مِّنْ أَتَىٰ بِهِنَّ﴾ [البقرة] والبيئة تستعمل بمعنى الحجة والبرهان ، وقوله : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة] أى : موضح للحق اسم فاعل من أبان للتعبدى ، وقوله : ﴿وَهُوَ فِي الْفُصُومِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف] أى : غير مظهر [حرف ب من :]

سُورَةُ التَّوْبَةِ

﴿٦٠٢٢﴾

مكتوب في الكتاب المبين ، ونحن في الدنيا نجد الإنسان إن كان له دين عند آخر فهو يحتفظ بالوثائق المكتوبة التي تُسجّل ما له وما عليه . ولكن ، أيجتهد الحق سبحانه بأعمالنا ونيّاتنا مكتوبة كحجة له ، أم حجة لنا ؟

إنه سبحانه يعلم أزلاً كل أعمالنا ، ولكنه يُسجّل لنا بالواقع تلك الأعمال والنيات ؛ لنعلم عن أنفسنا ماذا فعلنا ؛ لتقطع حجة من أساء إذا وقع به العقاب.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿الْآيَاتِ أُولَآئِكَ اللَّهُ لَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ﴾

وجاءت هذه الآية بعد كلامه الحق عن نفسه سبحانه بأنه عالم الغيب ، ولا يخفى عليه شيء ، وشاء الله سبحانه بذلك أن يعلمنا أنه قد يفيض على بعض خلقه فيوضات الإمداد على قَدَرِ رياضات المرتاضين ، فَهَبْ أن الله قد امتن عليك بنفحة ، فإياك أن تقول إنها من عندك ، بل هي من عند عالم الغيب سبحانه الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

وعلى ذلك فلا يقال : إن فلاناً قد علّم غيباً لأنه وليُّ لله ، بل لنقل : «إن فلاناً مُعلِّمٌ غَيْبٌ» ؛ لأن الغيب هو ما غاب عن الناس ، وما يغيب عنك ولا يغيب عن غيرك فهو ليس غيباً مطلقاً .

ومثال ذلك : الرجل الذي سُرِق منه شيء ، هو لا يعرف أين يوجد الشيء الذي سُرِق منه ، ولكن اللص يعرف ، وكذلك من ساعد اللص وأخفاه وأخفى له المسروقات ، كل هؤلاء يعلمون ، وأيضاً الجُن الذين كانوا في نفس مكان السرقة يعلمون ، وهذا ليس غيباً مطلقاً .

وأيضاً أسرار الكون التي كانت غيباً موقوتاً ، مثل جاذبية الأرض ،
والسالب والموجب في الكهرباء ، وتلقيح الرياح للسحاب " لينزل الماء ،
كل ذلك كان غيباً في زمن ما ، ثم شاء الحق سبحانه فحدد لكل أمرٍ منها
ميعاداً كشفه ؛ فصارت أموراً مشهورة .

وقد شاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليعمل الإنسان ويجهده ليكشف أسرار
الكون .

ومن العجيب أن الباحث قد يعمل من أجل كشف معين ، فيصادف
كشفاً آخر ؛ لأن الله تعالى قد أذن لذلك الكشف الذي كان غيباً أن يولد ،
وإن لم يبحث عنه أهل الأرض .

ومن اكتشف «البسلين» رأى العين الأخضر حول بعض المواد العضوية
فبحث عن أسرار ذلك ، واكتشف «البنسلين» .

و«آرشميدس» الذي اكتشف قانون الطفو ، واستفادت منه صناعات
السفن والغواصات ، وكل ما يسير في البحر ، وقد تم اكتشاف قانون الطفو
صدفة .

إذن : ففي الكون غيب قد يصير مشهداً ، إما بمقدمات يتابعها خلق الله
بالبحث ، وإما أن تأتي صدفة في أثناء أي بحث عن شيء آخر .

ومثال ذلك : عصر البخار الذي بدأ من رجل رأى إناء مغطى يغلي فيه
الماء ، فظل غطاء الإناء يرتفع ليُخرج بعضاً من البخار ، وانتبه الرجل إلى

(١) يقول سبحانه : ﴿ وَرَأَيْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ مَدْمُومًا ﴾ [الشعراء : ١٧] وما انهم في محازين (١١) في [الحجر] والرياح لواقع أي : أنها تحمل حبوب اللقاح التي تلقح بها النبات والشجر ، أو أنها تستدر السحب لينزل منها الماء . [ينصرف من اللسان] .

أن البخار يمكن أن يتحول إلى طاقة تجرّ العربات التي تسير على عَجَلٍ ،
وهكذا جاء عصر البخار .

إذن : فميلاد بعض من أسرار الكون كان تنبيهاً من الله تعالى لأحد عباده
لكي يتأمل ؛ ليكتشف سرّاً من تلك الأسرار^(١) .

وأغلب أسرار الكون تم اكتشافها صدفة ، لفهم أن عطاء الله بميلادهما -
دون مقدمات من الخلق - أكثر مما وُصِلَ إليه بالعطاء من مقدمات الخلق .

ولذلك تجد التعبير الأدائي في القرآن عن لَوْئى الغيب ،
تعبيراً دقيقاً لفهم أن هناك غيباً عن الخلق جميعاً وليست له
مقدمات ، ولا يشاء الله سبحانه له ميلاداً ، واستأثر الله بعلمه ؛ فلا
يعلمه إلا هو سبحانه .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا
شَاءَ ۚ ۝ (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

هذا هو الغيب الذي يكشفه الله سبحانه لهم ، إما بالمقدمات ،
أو بالصدفة ، وقد نسب المشيئة له سبحانه ، والإحاطة من البشر ، وهذا
هو غيب الابتكارات .

أما الغيب الآخر الذي لا يعلمه أحد إلا هو سبحانه ولا يُجَلِّيه
إلا الرسول ﷺ ، فيقول الحق عنه :

(١) من الغيب ما نضر مشاهداً عند الإذن بميلاده بأمر الله سبحانه ، إما بمقدمات أو بغير مقدمات رحمة
للشريعة ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ أَنِّي أَمَرُ اللَّهَ فَلَا تَسْمَعُ لَوْهَ ۚ ۝ (١٠٠) ﴾ [النحل] ، وهناك غيب لله
لا يظهره لأحد إلا من ارتضى من رسول .

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ^(١) عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٤) إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ

رَسُولُ^(٢٧)﴾ [الجن]

إِذْنٌ : فَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ يَفِيضُ مِنْ غَيْبِهِ الذَّاتِي عَلَى بَعْضِ خَلْقِهِ ، وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِيهِ الْكَثِيرُ مِنَ الْغَيْبِ ، وَأَفَاضَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ، وَتَحَقَّقَتْ الْأَحْدَاثُ كَمَا جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ .

وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ يَهَبُ بَعْضًا مِنْ خَلْقِهِ بَعْضًا مِنْ فَيُوضَاتِهِ ، وَقَدْ أَعْطَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ رَسُولَهُ ﷺ بَعْضًا مِنَ الْهَبَاتِ وَحَدَّدَ مِنْ يَعْطِيهِ بَعْضًا مِنَ الْغَيْبِ :

﴿إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ^(٢٧)﴾ [الجن]

وَهِيَ لَيْسَتْ لِلْحَصْرِ ؛ لِأَنَّ الرُّسُولَ ﷺ أَسْوَةٌ^(٢٨) ، وَقَالَ فِيهِ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ

الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١)﴾ [الأحزاب]

وَمَنْ يَعْمَلُ بِعَمَلِ الرُّسُولِ ﷺ وَيَتَّقِ اللَّهَ يَهَبِ اللَّهُ تَعَالَى هَبَةً يَرَاهَا النَّاسُ فَيَعْرِفُونَ أَنَّ مَنْ يَتَّبِعِ الرُّسُولَ ﷺ كَقَدْوَةٍ يَعْطِيهِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْهَبَاتِ التَّوْرَانِيَّةَ ، وَلَكِنْ هَذِهِ الْهَبَةُ لَيْسَتْ وَظِيفَةٌ ، وَلَيْسَتْ (ذُكَّتَانًا) لِلْغَيْبِ ، بَلْ هِيَ مِنْ عَطَايَاتِ اللَّهِ تَعَالَى .

(١) ظَهَرَ الشَّيْءُ يَظْهَرُ ظَهْرًا مِنْ بَابِ فَتَحٍ بِمَعْنَى تَبَيَّنَ ، وَبَرَزَ بَعْدَ الْخَفَاءِ ، قَالَ الْحَقُّ : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَفَى الْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (٢٥) [الأعراف] وَظَهَرَ عَلَى خَصْمِهِ غَلَبَهُ ، يَقُولُ الْحَقُّ : ﴿وَإِنَّمَا يُظْهِرُ^(٢٦) عَنْكُمْ يَرْحَمُكُمْ﴾ (٢٦) [الكهف] أَيْ : إِنْ يَتَصَرَّوْا عَلَيْكُمْ يَقْتُلُوكُمْ رَمِيًّا بِالْحَجَارَةِ ، وَأَظْهَرَ الرَّجُلُ عَلَى عَدُوِّهِ نَصْرَهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَمُوتَ مِنْهُ ، وَمِمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿يُظْهِرُ^(٢٧) عَلَى النَّبِيِّينَ كُلَّهُ﴾ (٢٧) [التوبة] أَيْ : لِيَنْصُرَهُ عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ (حَرْفُ الظَّاءِ - الْقَامُوسُ مِنَ الْقَوْمِ)

(٢) الْأُسْوَةُ : الْقَدْوَةُ [بُحْرَانُ الْعَرَبِ : مَادَّةُ (أَمْ يَ)] . أَيْ : الْإِتِّدَاءُ بِفِعْلِ الْغَيْرِ رَاتِّخَاذَهُ مِثْلًا يَحْتَذَى ، سِوَاهُ أَكَّانَ فِي الْخَيْرِ أَوْ فِي الشَّرِّ ، وَشَاعَ اسْتِخْدَامُهَا فِي الْخَيْرِ .

وانظر إلى دقة القرآن حين يقول :

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۖ...﴾ (٥٩) [الأنعام]

أى : أنه سبحانه لم يُعْط مفتاح الغيب لأحد ، والولى من أولياء الله إنما يأخذ الهبة منه سبحانه ، لكن مفتاح الغيب هو عند الله وحده .

وعندما نتأمل قول الحق سبحانه :

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) [يونس]

نجد أن كلمة «ولى» من وكَيْه ، يليه ، أى : قريب منه ، وهو أول مَفْزَع يفزع إليه إن جاءه أمر يحتاج فيه إلى معاونة من غيره ، وإن احتاج إلى نصرة فهو ينصره ، وخيره يفيض على من والاه .

ومن يقرب عالماً يأخذ بعضاً من العلم ، ومن يقرب قوياً يأخذ بعضاً من القوة ، ومن يقرب غنياً ، إن احتاج ، فالغنى يعطيه ولو قرضاً .

إذن : فالوكى هو القريب الناصر المحين الموالى .

وتطلق «الولى» مرة لله سبحانه ، وقد قال القرآن :

﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ۖ...﴾ (٦١)

[البورى]

(١) قال الزجاج : جاء فى التفسير أنه عنى قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرَى نَفْسٌ مِمَّا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرَى نَفْسٌ مِمَّا أَوْصَرَّتْ نَفْسًا ۖ...﴾ (٦١) [البقرة] . قال : فمن ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه الحقائق فقد كفر بالقرآن ، لأنه قد خالفه . [لسان العرب : مادة (ف ت ح)] .

(٢) تقول اللغة : الولى : هو القريب بالنسب أو بالحنينة أو بالطاعة ، أو الولى الصديق ، وهو أخذ العذر ، والولى : المطر بعد المطر والولى من بلى أمر إنسان ، ويقوم على شئونه ، كالوكيل ، ويجمع على أولياء ، وأولياء الله هم المؤمنون المنتفون ، يقول الحق : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) الذين آمنوا وكانوا يقيمون (٢٠٦) [يونس] والولى : من تولاه الله بالرعاية ، وتولى هو منحه الله بالسلوك للهداية ، ولذلك يقول سبحانه : ﴿لَهُمْ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٦٣) [يونس] (حرف الواو - القاموس القويم) .

لأنه سبحانه القريب من كل خلقه ، عكس الخلق الذين يقتربون من بعضهم أو يتباعدون حسب إمكاناتهم ، أما الله سبحانه وتعالى فهو الولي المطلق ، فقربه من خلق لا يبعده عن خلق ، ولا يشغله شيء عن شيء ، فهو الولي الحق ، وهو سبحانه يقول :

﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ۖ .. ﴾ (٤١) [الكهف]

فمن يحتاج إلى الولاية الحقّة قليلجاً إلى الله ، وهو سبحانه يُفيض على الأوفياء منهجه من الولاية .

ونجد التعبير القرآني الدقيق :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ۖ .. ﴾ (٢٥٧) [البقرة]

فهو سبحانه يقرب من عباده المؤمنين ، والمؤمنون يقربون من الله تعالى في قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ .. ﴾ (٦٢) [برن]

إذن : فالولاية المطلقة لله ، وإن قيّدت بشيء مضاف ومضاف إليه ، فهي مرة تكون من المؤمنين لله ، ومرة تكون من الله للمؤمنين .

والحق سبحانه لا تحكمه قوانين ، فبطاقة قدرته سبحانه إذا رأى في إنسان ما خصلة من خير ، فيكرمه أولاً ، فيصير هذا العبد طائعاً من بعد ذلك .

وتسمع من يقول : إن فلاناً قد خطف من المعصية أي : أنه كان عاصياً ، ثم أحب الله تعالى خصلة خير فيه ، فهداه .

ومثال ذلك : الرجل الذي سقى كلباً ، بل احتال ليسقيه بأن ملأ خُفّه

سُورَةُ الْيُونُسَ

٥٦٠٢٩

بالماء من البشر ليروى ظمأ الكلب ؛ ففقر الله - سبحانه وتعالى - له
سيئاته^(١) .

هذا الرجل لم يكن ليروى الكلب تفاقاً للكلب ، ولكن لأن الرجل شعر
بالعطف على كائن ذى كبد وطبة .

إذن : فليست المائل عند الله تعالى آية أو ميكانيكية ، بل طلاقة قدرته
سبحانه تقدر كل موقف كما قدرّت اختلاف الخلق ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ ^(٢)
وَأَلْوَانِكُمْ ۚ ۞ (٢٢) ﴾ [الروم]

فليس عند الله تعالى قالب يضع فيه الخلق ، بل سبحانه يخلق الطويل
والقصير والسمين والرفيع والأشقر والزنجرى ، وهذا بعض من طلاقة
قدرته سبحانه ، وبرحمته سبحانه قرب من خلقه الذين آمنوا أولاً ،
وقربه سبحانه منهم : ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ ۞ (٢٥٧) ﴾ [البقرة]
فمن يتبع المنهج يأخذ النور ، فإذا علم الله سبحانه عمله بمنهجه فهو
سبحانه يُقرّبه قُرْباً أكثر فيعطيه هبة اصطفاوية يراها الذين حولهم وقد
يقتدون به .

والحق سبحانه يريد من المؤمن الأدب مع خلق الله ، فإذا علم سيئة عن
إنسان فعليه أن يسترها ؛ لأن الحق سبحانه يحب السِّرَّ ويحب من يستر .

(١) وذلك أن أبا هريرة روى أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر ، فملاً خفه ، ثم أمسكه بفيه (بضمه) فسقى الكلب ، فشكر الله له ، ففقر له » . قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : « فى كل ذات كبد وطبة أجر » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) ، ومسلم فى صحيحه (٢٢٤٤) .

(٢) اختلاف الألسنة : اختلاف اللغات .

وأنت قد تكره إنساناً تعلم عنه سيئة ما ، وقد تكره كل حسنة من حسناته ، فيريد الله ألا يحرمك من حسنات مَنْ له سيئة فيسترها عنك لتأخذ بعضاً من حسناته ، وبأمرك الحق ألا تحتقر هذا المسىء ؛ لأنه قد يتمتع بخصلة خير واحدة ، فيكرمه الله سبحانه من أجلها أولاً ، ثم بطيعة هذا العبد ثانياً .

والحق سبحانه يقول في الحديث القدسي :

« يا ابن آدم أنا لك محبٌ فبحقّي عليك كن لي محباً » .

ويقول الله سبحانه في حديث قدسي :

« أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منهم » .

وفي هذا القول يضع مسئولية القرب من الله في يد الخلق ، ويضيف الحق سبحانه :

« وإن تقرب إلي شبراً تقربتُ إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربتُ إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة »^(١) .

ومن يريد أن يأتيه الله هرولة فليذهب إلى الله ماشياً .

إذن : فالإيمان بالله يسلم المؤمن مفتاح القرب من الله .

ومن يكن من أصحاب الخلق الملتزمين بالمنهج يُقرّبه الله منه أكثر وأكثر .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة . والذراع من الإنسان من طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى . والذراع من الغاييس ، ومن أشهر أنواعه الذراع النخاعية وهي ٣٢ إصباعاً أو ٦٤ شبراً . [المعجم الوسيط : ذراع] . والباع : مسافة ما بين الكفين إذا انبسطت الذراعان عمداً وشمالاً ، والمراد : البالغة في الاتساع [المعجم الوسيط : باع] . والهرولة : الإسراع .

إذن : فمن الناس مَنْ يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، ويدق على باب الحق ، فينفتح له الباب ، ومن الناس مَنْ يصل بكرامة الله أولاً إلى طاعة الله ثانياً .

ولله المثل الأعلى : أنت كواحد من البشر قد يدق بابك إنسان يحتاج إلى لقمة أو صدقة فتعطيه ، وهناك إنسان آخر تحب أنت أن تعطيه ، وعندما تعطيه يطيعك من منطلق الإحسان إليه ، فما بالنا بعطاء الحق لعباده ؟

إذن : فمنهم مَنْ يصل بكرامة الله إلى طاعة الله ، ومنهم من يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، وحين يصل الإنسان إلى القرب من الله ، ويقرب الله من العبد ، هنا يكون العبد في معية الله ، وتفيض عليه هذه المعية كثيراً .

وقد قال أبو العلاء المعري " لمحبوبته :

أنت الحبيب ولكني أعوذ به من أن أكون حبيباً غير محبوب

أي : أنه يستعيز بالله من أن يكون محبباً لمن يرفض حبه ، ولكن محبة الله تختلف عن محبة البشر ، وسبحانه لا يعامل محبيه كذلك ، فأنتم حين تحب الله يقربك أكثر وأكثر ، ويسمى ذلك « المصافاة » ، فإذا أفاض الله سبحانه على بعض خلقه هبات من الكرامات فعلى العباد الذين اختصهم الحق سبحانه بذلك أن يُحسنوا الأدب مع الله ، وألا يتبجح واحد منهم متفاخراً بعطاء الله سبحانه له .

فالمباهاة بالكرامات تضيعها ، ويسلبها الحق سبحانه من الذي يتبجح بها

(١) هـ ١٠٠٠ - ١٠٠١ هـ : شاعر فيلسوف ، ولد ٣٦٣ هـ ومات في معركة لعمان (٤٤٩ هـ) عن ٨٠ سنة ، حتى في الرابع من عشره . هـ ٨٤٠ هـ : وهو ابن إحدى عشرة سنة . ولما مات وقف على قبره ٨٤ شاعر يرثونه . [الأعلام للزركلي (١/١٥٧)] .

ويتأخر ويتباهى ، فمن تظاهر بالكرامة ليس له كرامة .

إذن : فالحق سبحانه يريد أن يكون العبد دائماً في معيته ، وهو سبحانه الذي بدأ ويُن بالآية الواضحة أنه سبحانه وليّ المؤمنين ؛ ولذلك سيخرجهم من الظلمات إلى النور^(١) . فقال :

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ . (٥٧) ﴿ [البقرة]

ونحن نعلم أنه سبحانه يأتي بالمحسّنات ليبين المعنويات ؛ لأن الإنسان أولاً بالمحسّنات ، وهي أقرب إلى تقريب المراد ، فحين يضرب الحق سبحانه لنا المثل بالكفر والإيمان ، يصف الكفر بالظلمة ، والإيمان بالنور ، إنما يريد الحق أن يجعل لك المراد واضحاً موصولاً بفهومك .

وإذا كنا نتجنّب معاطب الظلمات الحسية ، أليس الأجدر بنا - أيضاً - أن نتجنّب معاطب الظلمات المعنوية ، إن الظلمة الحسية تستر الأشياء فلا نرى الأشياء ، وقد ترتطم بأضعف شيء فنحطمه أو نصطدم بأقوى شيء فيحطمنا .

إذن : فَحَجَبَ المرائي يسبب الكوارث ، أما حين يأتي النور ؛ فهو يبين ملامح الأشياء فتسير على هدى وأنت مطمئن .

وهب أنك في مكان مظلم ويوجد شيء آخر في مكان منير ، فأنت في الظلمة ترى مَنْ يوجد في النور ، وهذه مسألة ثم يفطن لتفسيرها علماء

(١) يقول الحق : ﴿مَن يَسْأَلْهَا لِيَمْلَأْهَا مَالًا لَّنَّآ أَنَّهُ إِذْ ذُكِّرُوا وَلَمْ يَتُوبْهُوا أَصَابَ﴾ (١٠) وهو الذي يُصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمتؤمنين رجياً (١٢) ﴿ [الأحزاب] فقد عبر القرآن بالظلمات ، والمراد بها الكفر ، وبالنور والمراد به الإيمان ، وهذه هي بلاغة الإعجاز في كتاب الله .

ما قبل الإسلام ، حيث كانوا يظنون أن الرؤية إنما تحدث من انتقال شعاع من عين الرائي إلى المرئي ، حتى جاء «الحسن بن الهيثم» العالم الإسلامي واكتشف قوانين الضوء ، وكشف خطأ ما سبقه من نظريات ، وحدد أن المرئي هو الذي يصدر منه شعاع إلى الرائي ، وإذا ما كان المرئي في ظلمة فلي يراه أحد ، ولو كان هناك شعاع يخرج من الرائي ؛ لرأى الإنسان في الظلام.

إذن : أول ولاية من الله للمؤمنين أنه سبحانه يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والظلمة المعتوية أقوى من الظلمة الحسية ، وكذلك النور المعنوي أقوى من النور الحسي ، فعالم القيم قد يكون أقوى من عالم الحس ؛ لأن الجبر في عالم الحس يمكن أن يحدث ، أما في عالم القيم فهو أمر شاق ؛ ولذلك قال الشاعر :

جراحاتُ السنان^(١) لها التمامُ ولا يلتامُ ما جرحَ اللسانُ

ويقول الحق سبحانه في الآية التي نحن بصدد خراطتها عنها :

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) [يونس]

و«ألا» كما أوضحنا من قبل أداة تنبيه من المتكلم للمخاطب حتى لا تفوته كلمة واحدة مما يجيء في الخطاب.

وقوله سبحانه : ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ..﴾ (٦٢) . أي : لا خوف عليهم من غيرهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) . أي : أن الحزن لن يأتي منهم ، والخوف يكون من توقع شيء ضار لم يقع حتى الآن ، ولكنه قد

(١) السنان. السهام والرماح. وجراحاتها: آثار الجروح شعبة لإصابة بها. والالتام: هو اندمال هذه الجروح. [انظر لسان العرب] .

يحدث في المستقبل .

وفي حياتنا اليومية نجد الأب يمسك بيد ابنه في الزحام خوفاً عليه ، وقد ترى ولياً من أولياء الله وقد أصيب ابنه في حادث أو مات الابن ، تجد الولي في ثبات لأنه يعلم حكمة الله في قضائه ، فلا تتطوع أنت بالخوف عليه .

إذن : فالخوف يأتي من المستقبل ، وهو أمر مرتقب ، أما الحزن فهو إحساس يحدث على شيء فات .

والحق سبحانه يقول :

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ...﴾ (٢٢) [الحديد]

والحزن على ما فات عبث ؛ لأن ما فات لا يعود .

وأولياء الله تعالى لا خوف عليهم ؛ لأنهم دائماً يصدد معرفة حكمة الله ، ومن لا يعرف حكمة الله تعالى في الأشياء قد يقول : «إن فلاناً هذا مسكين» ؛ لأنك لا تعرف ماذا جرى له .

وأما الحزن فهو مشاعر قلبية يريد الله من المؤمن أن تمر على باله .

وقد قال ﷺ حين افتقد ابنه : «إنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون» ولكنه حزن الورع الذي يتجلى في قوله ﷺ :

«إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا تقول إلا ما يرضى ربنا» (١) .

(١) الأسى الحزن الشديد . وقام الآية : «ولا تفرحوا بما آتاكم ..» (٥٣) [الحديد] بل عليه أن يكون متوازناً ، فلا يحزن على شيء فاته ، ولا يفرح بشيء جاءه قد يذهب بعد حين .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك .

وَيَبَيِّنُ اللَّهُ مَسْجَانَهُ لَنَا شَرْوْطَ الْوَلَايَةِ فَيَقُولُ:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٦٣)

والإيمان هو الأمر الاعتقادي الأول الذي يُبنى عليه كل عمل ، ويفتضى تنفيذ منهج الله ، الأمر في الأمر ، والنهي في النهي ، والإباحة في الإباحة .

والتقوى - كما علمنا - هي اتقاء صفات الجلال في الله تعالى ، وأيضاً اتقاء النار ، وزاد رسول الله ﷺ في صفات من تصدر عنه التقوى ؛ لأنها مراحل ، فقال ﷺ يصف المتقين :

«هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلئ نور»^(١) .

وقد سئل عمر - رضى الله عنه - عن المتقين فقال : «الواحد منهم يزيدك النظر إليه قرباً من الله» . وكأنه - رضى الله عنه - يشرح لنا قول الحق سبحانه :

﴿سَيَمَاهُمْ^(٢) فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ..﴾ (٢٩) [الفتح]

وساعة ترى المتقى لله تُسرُّ وتفرح به ، ولا تعرف مصدر هذا السرور إلا حين يقال لك : إنه ملتزم بتقوى الله ، وهذا السرور يلفتك إلى أن تقلده ؛ لأن رؤياه تذكرك بالخشوع^(٣) ، والخضوع^(٤) ، والسكينة ، ورقّة

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣٥٢٧) من حديث عمر بن الخطاب ، وعنه : «إن من عباد الله لأناس ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغضبهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى» قالوا : يا رسول الله ، تخبرنا : من هم ؟ قال : «هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلئ نور» لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس» رقرأ هذه الآية : ﴿وَلَا يَأْتِيهِمْ لُغْوٌ وَلَا حَوْلٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦١) [يونس] .

(٢) سيماهم : علامات التقوى والإيمان ، وهو ذلك النور في وجوههم .

(٣) خَشَعَ (خشوعاً) إذا خضع ، وخَشَعَ في صلاته ودعائه . وقيل : بقلبه على ذلك ، وهو مأخوذ من (خَشَعْتُ) الأرض إذا سَكَتْ واطْمَأَنَّ [المصباح المنير] .

(٤) وخضع لغيره (بخضع) خضعاً : ذُلٌّ واستكان فهو خاضع وأخضعه الفقير : أذله . والخضوع قريب من الخشوع إلا أن الخشوع أكثر ، يستعمل في الصوت ومنه : ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ ..﴾ (١٠٨) [طه] والخضوع في الأعناق ومنه قول الفرزدق : خضع الرقاب نواكس الأبصار . [المصباح المنير]

الَسْمَت ، وانيساط الأسارير .

والواحد من هؤلاء ينظر إلى الكون ولا يجد في هذا الكون أى خُكل ، بل يرى كل شيء فى موضعه تماماً ، ولا يرى أى قُبُح فى الوجود ، وحتى حين يصادف القبح ، فهو يقول : إن هذا القبح يبين لنا الحُسْن ، ولولا وجود الباطل ومتاعبه لما عَشقَ الناسُ الحقَّ ، وهكذا يصير الباطل من جنود الحق .

إن وجود الشر يدفع الناس إلى الخير ؛ ولذلك يقال : كُنْ جميلاً فى دينك تَرِ الوجود جميلاً ؛ لأنك حين ترى الأشياء وتقبل قدر الله فيها ، هنا يفيض الله عليك بهبات من الفيض الأعلى ، وكلما تقربت إلى الله زاد اقتراب الله سبحانه منك ، ويفيض عليك من الحكمة وأسرار الخلق ^(١) .

ومثال ذلك : العبد الصالح الذى آناه الله من عنده رحمة وعلمه من لدنه علماً ، هذا العبد يعلم موسى عليه السلام ^(٢) ، فحين قارن بين خرق العبد الصالح لسفينة سليمة ، ولم يكن يعلم أن هناك حاكماً ظالماً يأخذ كل سفينة غصباً ؛ ولذلك ناقش موسى العبد الصالح ، وتساءل : كيف تخرق سفينة سليمة؟ وهنا بين له العبد الصالح أن الملك الظالم حين يجد السفينة مخروقة قلن يأخذها ، وهى سفينة يملكها مساكين ^(٣) .

وحين قتل العبد الصالح غلاماً ، كان هذا الفعل فى نظر سيدنا موسى

(١) ويقول رسول الله ﷺ : « ما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) وأحمد فى مسنده (٢٥٦/٦) عن أبى هريرة .

(٢) قال سبحانه عن موسى ونشأ فى ثمانيناً باخضر عليه السلام : « فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتِيَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِبَادِنَا وَعِلْمًا مِنْ لَدُنَّا عَلِيمًا » (٣٦) قال له موسى هل أُلحِثَ على أن تعلمن مما علمت رشداً (٣٧) قال إنك لئن تستطيع معي صبرا (٣٨) وكلف نصر علي ما لم تحط به خيرا (٣٩) قال سجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا (٤٠) قال إن أطيعنى فلا يسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذمرا (٤١) ﴿ الكهف ﴾ .

(٣) وذلك أن موسى استشكر عليه عمله هذا فقال : « ثم أخرقها لعرقي أهلها لقد جئت شيئا إمرا » (٤٢) ﴿ الكهف ﴾ فكان رده عليه فيما بعد : « ثم أنا السفينة لكأنت لمساكين يفتنون فى البحر فرددت أن أعبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » (٤٣) ﴿ الكهف ﴾ .

جريمة ، ولم يعلم سيدنا موسى ما علمه العبد الصالح أن هذا الولد سوف يسيء إلى أهله ، وأمر الله العبد الصالح بقتله قبل البلوغ حتى لا يفتن أهله^(١) ، وسوف يدخل هذا الولد الجنة ويصير من دعايمص^(٢) الجنة .

ويقال : إن من يموت من قبل البلوغ ليس له مسكن محدد في الجنة ، بل يذهب حيث يشاء ؛ فهو كالطفل الصغير الذي يدخل قصراً ، ولا يطيق البقاء في مكان واحد ، بل يذهب هنا وهناك ، وقد يذهب إلى حيث سيدنا محمد ﷺ أو أبو بكر الصديق ، أو عند أي صحابي جليل .

وأيضاً حين دخل سيدنا موسى - عليه السلام - مع العبد الصالح إلى قرية واستطعما أهلها فرفضوا أن يطعموهما - وطلب الطعام . هو أصدق ألوان السؤال - فأبى أهل القرية أن يطعموهما ، وهذا دليل الحسنة واللؤم ؛ فأقام العبد الصالح الجدار الأيل للسقوط في تلك القرية .

ولم يكن سيدنا موسى - عليه السلام - قد علم ما علمه العبد الصالح من أن رجلاً صالحاً قد مات وترك لأولاده كثرأ تحت هذا الجدار ، وبناء بناية موقوتة بزمان بلوغ الأبناء لسن الرشيد ؛ فيقع الجدار ليجد الأبناء ما ترك لهم والدهم من كثر ، ولا يجرق أهل القرية اللثام على السطور عليه^(٣) .

(١) قال موسى : ﴿ أَفَلَمْ تَفْعَلْ نَفْسًا رَكِيَةً بِعَبْدٍ نَفْسٍ قَدْ جَفَتْ شَيْئًا نَكَرًا ﴾ [الكهف] (٣٦) ﴿ [الكهف] أفبأنه لم يستطع فهمه . استيعابه فقال له : ﴿ وَأَمَّا الْعَلَامُ فَكَانَ أَسْوَأَ مَوْضِعٍ فَحَسِبْنَا أَنْ يَرْهَقَهُمَا طَفْيَانًا وَكَفَرَا (١٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحِمًا ﴾ [١٨١] [الكهف] .

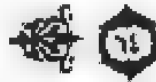
(٢) دعايمص : هم صغار الأطفال ، فسر بالدوية التي تكون في مستنقع الماء ، قال - والدعمرص - الدخال في الأمور ، أي . أنهم سيأخرون في الجنة دخالون في منازلها ، لا يُمنعون من مرضع ، كما أن الصبيهان في الدنيا لا يُمنعون من الدخول على الحُرَم ، ولا يحتجب منهم أحد . [لسان العرب] مادة (دع م ص) [١] .

(٣) وهذا أمر ذكره رب العزة في كتابه فقال عن موسى والخضر : ﴿ فَانظُرْ حَتَّىٰ إِذَا أَتَىٰ أَحَدُ الْقَرْيَةِ اسْتَطْعَمَ أَحَدَهَا فَأَتُوا أَنْ يُصَيَّرُوهُمَا فُجْرَانًا فِيهَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِضَ ظُلُمَاتُ لَيْلٍ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [٢٧] [الكهف] .
نقال له الخضر فيما بعد : ﴿ وَأَمَّا الْمِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا كُنَّا عَنْ أَمْرِ .. ﴾ [٨٥] [الكهف] .

إذن : هذه هباتٌ من فيض الحق سبحانه على عباده الصالحين ، وهو سبحانه وتعالى يجعل مثل هؤلاء العباد كالصواري المنصوبة التي تهدى الناس ، أو كالنار الذي يهدى السفن فى الظلمة .

ويقول الحق سبحانه :

لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ
لَا يُبَدِّلُ كَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ



والبُشْرَى^(١) : من البشر والبشارة والتبشير ، وكلها مأخوذة من البشرة ، وهى الجلد ؛ لأن أى أنفعال فى باطن النفس الإنسانية إنما ينضج على البشرة ، فإذا جنت للإنسان بأمر سارٌ تجد أثر هذا السرور على أساريره ، وإن جنت للإنسان بخبر سيئ تجد الكدر وقد ظهر على بشرته ، فالبشرة هى أول متفعل بالأحداث السارة أو المؤلمة .

وحين يقال : « بشرى » فهذا يعنى كلاماً إذا سمعه السامع يظهر على بشرته إشراق وسرور ؛ لأنه كلام مبشرٌ بخير .

وحين سئل رسول الله ﷺ عن البشْرِى ، قال : « إنها الرؤية الصالحة تُرى للمؤمن أو يراها » ، وقال ﷺ : « إنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة^(٢) » .

(١) بشر بكذا ، وبشر ، مثل : فرح ، وزناً ومعنى ، وهو الاستبشار ، والمصدر : البشور واسم الفاعل من الخفف : بشير ، وهو المبشر فى الخير أكثر من الشر ، والبشر : والبشْرِى : فُعِلَ من ذلك ، والبشارة إذا أطلقت اختصت بالخير . والبشر : طلاقة الوجه ، والبشورة : ظاهر الجلد ، وبين البشْرِى بمعنى السرور ، والبشرة ظاهر الجلد تفاعل يظهر مرئياً فى السرور وغيره . [المصباح المنير - بصرفاً] .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٩٨٣) ومسلم (٢٢٦٤) عن أنس بن مالك أنه ﷺ قال : « النبوة الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » .

وقد أوحى للنبي ﷺ بالرؤيا ستة أشهر ، وأوحى إليه في البقعة ثلاثة وعشرين عاماً ، فإذا نسبت الستة أشهر إلى الثلاثة والعشرين عاماً ، تجد أن الستة أشهر تمثل جزءاً من ستة وأربعين جزءاً.

والرؤيا ليست هي الحلم ؛ لأن الرؤيا هي شيء لم يشغل عقلك نهاراً ، وليس للشيطان فيه دخل.

والمثل العامي يقول : «الجوعمان يحلم بسوق العيش» فإن كان ما يراه الإنسان في أثناء النوم له علاقة بأمر يشغله ، فهذا هو الحلم ، وليس الرؤيا ، وإن كان ما يراه الإنسان في أثناء النوم شيئاً يخالف منهج الله ، فهذه قذقة من الشيطان^(١).

إذن : فهناك فارق بين الرؤيا والحلم ، وأضغاث الأحلام^(٢).

البشرى - إذن - هي الرؤيا الصالحة ، أو هي المقدمات التي تُشعر بخلق الله بهم فتتجه قلوب الناس إلى هؤلاء الأولياء ، وقد تجد واحداً أحبه الله تعالى في السماء ، فيقول الله سبحانه وتعالى لجبريل عليه السلام : «إني أحب فلاناً فأحبه» . قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادي جبريل في السماء فيقول : إن الله يحب فلاناً فأحبه ، فيحبه أهل السماء . قال : ثم يوضع له القبول في الأرض^(٣).

(١) ونحو ذلك رواه جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال لأعرابي جاءه فقال : إني حلمت إن رأسي قطع فأنا أتبعه ، فزجره النبي ﷺ وقال : « لا تُخبر بتلعب الشيطان بك في المنام » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٦٨).

(٢) أضغاث الأحلام : الرؤيا التي لا يمكن تأويلها لاختلاطها والتباسها ، والضغث : الحلم الذي لا تأويل له ولا خبر فيه ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ۖ ﴾ (يوسف : ٢١) أي : رؤياك اختلاط ليست برؤيا بيّنة ، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ هَٰلِكِينَ ﴾ (يوسف : ٢٢) أي : ليس للرؤيا المختلطة عندنا تأويل . [لسان العرب : مادة (ض غ ث)] . وهم قالوا هذا المعجز من تأويلها ، ولكن يوسف فسرها للملك ، فلا تكون أضغاث أحلام

(٣) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٣٢٠٩) ومسلم (٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة . واللفظ لمسلم ، رحمه الله وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلاناً فأبغضه . قال : فيبغضه جبريل . ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه . قال : فيبغضونه . ثم يوضع له البغضاء في الأرض .

وساعة تراه مكتوباً له القبول ، فانكل يجمعون على أن في رؤيتهم لهذا المحبوب من السماء سَمْتاً طيباً ، وهذه هي البشرى .

أو أن البشرى تأتي لحظة أن يأتي مَلَكُ الموت ، فيُلْقَى عليه السلام ، ويشعر أن الموت مسألة طبيعية ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ تَرَفَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣١) [النحل]

أو ساعة يبيضُ الوجه حين يأخذ الإنسان من هؤلاء كتابه يسينه ، وهذه بشرى في الدنيا وفي الآخرة .

والحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (٣٢) نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا . (٣٢) [فصلت]

إذن : هؤلاء الأولياء ^(١) يتلقون من فيوضات ^(٢) الله عليهم بواسطة الملائكة ويتميزون عن غيرهم ؛ لأن الواحد منهم قد يفرض على نفسه نوافل فوق الفروض ؛ لأن الفروض هي أقل القليل في الشكالف .

وقد يرى واحد منهم أن القيام بالفروض لا يتناسب مع حبه لله تعالى ؛

(١) هؤلاء الأولياء الذين تخلوا عن المعاصي وتحلوا بالطاعات فتحل مسجانه عليهم بالفروضات ومن هذا الفيض القبول والروايا الصالحة .

(٢) من عطاءات القبول باقي الآيات في قوله تعالى : نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تنتهي أنفسكم ولكنم فيها ما تدعون (٣٠) نولاً من غور رحيم (٣١) [فصلت] وهناك عطاءات وإمدادات لا تعلمها ، الله يعلمها ، وهو علام الغيوب .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

٦٠٤١

فيزيد من جنسها على ما فرض الله ، ويصلي - بدلاً من خمسة فروض - عشرة أخرى نوافل ، أو يصوم مع رمضان شهراً أو اثنين ، أو يصوم يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع .

وهذا دليل على أنه وجد أن الفروض قليلة بالنسبة لدرجة حبه لله تعالى ، وأن الله تعالى يستحق أكثر من ذلك ، وهذا معناه أن مثل هذا العبد قد دخل في مقام الرد " مع الله تعالى ، وهنا يفيض الله سبحانه وتعالى عليه بما يشاء ، وينال من رضوان الله ما جاء في الحديث القدسي :

«من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي عليها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله تردى عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته» .

وهكذا تختلف المقاييس بين عبد يحب الله تعالى ويؤدي فوق ما عليه ، وعبد آخر يقوم بالتكاليف وحدها .

ويُنهى الحق سبحانه الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها بقوله :

﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [٦٤] [يونس]

(١) وَدَّ : أحب . والاسم : المودة . وودود ، أى : محبوب ، يستوى فيه الذكر والأنثى . [المصباح المنير] .
(٢) المساءة : نقبض المسرة ، وأصلها : مسواة ، على معية ، ولهذا ترد الواو في الجمع فيقال : هي (المساوي) لكن استعمل الجمع مخففاً ، وبَدَتْ مساوية أى : تقاضته ، والسوءة : العورة ، والجمع : سوءات ، وسميت سوءة لأنها بالكشافها سوء صاحبها . [المصباح المنير] .
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٠٢) وأحمد في مسنده (٢٥٦/٦) عن ابن هريرة .

سُورَةُ يُوسُفَ

٦٠:٤٦١

وما دام الحق سبحانه قد قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ...﴾ فلن نجد أحداً قادراً على ذلك ، كما أن الخلق مقهورون كلهم يوم القيامة ؛ ومن كان يبيع له الله تعالى أن يملك شيئاً في الدنيا لم يعد مالكاً لشيء ، بدليل أن الكل سيسمع قول الحق سبحانه :

﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٦١)﴾ [غافر]

وما دام الحق سبحانه قد وعد بيشري الدنيا وبشرى الآخرة ، فلا تبديل لما حكم به الله ، فلا شيء يتأبى على حكم الله تعالى ، والوعد بالبشرىات في الدنيا وفي الآخرة فوز عظيم مؤكد .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥)﴾

تجىء هذه الآية بعد أن بين لنا الله سبحانه وتعالى اعتراضات الكفار ، وإذاءهم لرسول الله ﷺ وتكذيبهم له وقولهم فيه ما قالوه ، وفيما قالوه ما أحزنه ﷺ ؛ لذلك طلب منه الحق سبحانه ألا يتفعل لما قالوه انفعال الحزين ، فقد قالوا : ساحر ، وكاذب ، ومُفْتَرٍ ، ومجنون ، وقد نفى عنه الحق سبحانه كل ما قالوه ، فلو كان محمد ﷺ ساحراً فلماذا لم يسحرهم هم أيضاً ، وهل للمسحور إرادة مع الساحر ؟!

إذن : كَذَّبَ قَوْلُهُمْ فِي أَنَّهُ ﷺ سحر عبيدهم وأولادهم .

وقالوا : مجنون ، ولم يكن في سلوكه ﷺ أدنى أثر من جنون ، وقد أقوالهم هذه بقوله سبحانه :

سُورَةُ يُوسُفَ

﴿٦٠﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿٤١﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿٣١﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿٢١﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿١٩﴾ ﴿١٨﴾ ﴿١٧﴾ ﴿١٦﴾ ﴿١٥﴾ ﴿١٤﴾ ﴿١٣﴾ ﴿١٢﴾ ﴿١١﴾ ﴿١٠﴾ ﴿٩﴾ ﴿٨﴾ ﴿٧﴾ ﴿٦﴾ ﴿٥﴾ ﴿٤﴾ ﴿٣﴾ ﴿٢﴾ ﴿١﴾

﴿٦٠﴾ وَالْقَلَمُ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنْ لَكَ
لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴿[القلم]﴾
فالمجنون لا يكون على خُلُقٍ عَظِيمٍ أَبَدًا .

وحين قالوا : إنه افترى القرآن ، تحداهم أن يأتوا بسورة من مثل
ما قال (٣) ، وعجزوا عن ذلك رغم أنهم مرتاضون (٣) للشعر والأدب
والبيان .

وقول الحق سبحانه :
﴿وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ .. (٦٥)﴾ لأن أقوالهم لا حصيلة لها من الوقوف
أمام الدعوة ؛ لأن ﴿.. الْعِزَّةُ لِلَّهِ جَمِيعًا .. (٦٥)﴾ والعزة هي القوة ،
والغلبة ، ويقال : هذا الشيء عزيز ، أى : لا يوجد مثله ، وهو سبحانه
العزيز المطلق ؛ لأنه لا إله إلا هو لا يُغْلَب ولا يُفْهَر .

وتلاحظ حين تقرأ هذه الآية وجود حرف «الميم» فوق كلمة ﴿قَوْلُهُمْ﴾ (٣)
وتعنى : ضرورة الوقف هنا .

(١) مَنْ عَلَيْهِ بِالْعَقِّ وَغَيْرِهِ (مَنَّا) مَنْ بَابِ قَتَلَ . وَامِنْ عَلَيْهِ بِهِ : أَنْصَحَ عَلَيْهِ بِهِ . وَالْأَسْمُ الْمُنَّةُ ، وَالْجَمْعُ (مَنَّا)
وَالْمُنَّةُ بِالضَّمِّ . الْقُوَّةُ ، وَهِيَ مِنَ الْأَصْدَادِ . وَنَمِنْتُ عَلَيْهِ . أَيْ : عَمِدْتُ لَهُ مَا فَعَلْتُ لَهُ مِنَ الصَّانِعِ .
وَفِي هَذَا تَكْدِيرٍ وَتَغْيِيرٍ نَكْسَرُ بِهِ الْقُلُوبَ . لِهَذَا نَهَى الشَّارِعَ عَنْهُ مِنْ قُوَّتِهِ : هَذَا يَأْتِيهَا الْقَيْنُ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا
صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنْ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُعْطِي مَالَهُ وَتَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَنْ لَمْ يَكُنْ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تَرَابٌ
فَأَمَانُهُ وَإِلَّا فَمُرْكُوهُ صُلْبًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٦٥) ﴿[البقرة]﴾ .
وَمِنَّتِ الشَّيْءُ أَيْضًا إِذَا قَطَعَتْهُ فَهُوَ مَمْنُونٌ . وَالْمَنْ : شَيْءٌ يَسْقُطُ مِنَ السَّمَاءِ : فَيَجْنِي . [المصباح] -
بتعريف .

(٢) وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
(٢٨)﴾ [يونس] .

(٣) مَرْتَاضُونَ لِلشَّعْرِ : أَيْ : لَهُمْ ذُرِّيَّةٌ عَلَى قَوْلِ الشَّعْرِ وَطَعْمِهِ .
(٤) وَمَعْنَاهُ الْوَقْفُ الْإِلَازِمُ ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَخَتَمُ اللَّهُ .. (٣٧)﴾
[الأنعام] .

ولسائل أن يقول:

كيف يلزم الوقف هنا مع أن القرآن الكريم مبني على الوصل ؛ وآخر حرف في كل سورة تجده متوناً ، وليس في القرآن ما يلزم الوقف للقاريء ؟

وأقول رداً على هذا التساؤل: إن العلماء حين لاحظوا ضعف ملكة اللغة ؛ جاءوا بهذا الوقف ليتغهم القاريء - الذي لا علم له بالبيان العربي - كيف يقرأ هذه الآية ، فهب أن واحداً لا يملك فطنة الأداء ، فينسب ﴿ .. إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً .. ﴾ (١٥) إلى ﴿ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ .. ﴾ (١٥) . ويخطيء الفهم ، ويظن - معاذ الله - أن العزة لله هي أمر يحزن النبي ﷺ ؛ لذلك جاء العلماء بالوقف هنا لتدقق القراءة وتحسن الفهم .

ولذلك علينا أن نقرأ ﴿ .. وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ .. ﴾ (١٥) ثم نتوقف قبل أن نتابع القراءة ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً .. ﴾ (١٥) ؛ وبهذا تفهم المعنى : يجب ألا تحزن يا محمد ؛ لأن أقوالهم لن تغير في مجرى حتمية انتصارك عليهم . ويريد الحق سبحانه هنا أن يطمئن رسوله ﷺ في أمر محدد ، هو أنه ﷺ مهمته هي البلاغ فقط ، وليس عليه أن يلزمهم بالإيمان برسالته والتسليم لهنهجه .

ويبين له الحق سبحانه : أنهم إذا ما صدوا بعد بلاغك ، فلا تحزن عما يقولون ؛ فأقولهم لا يقوم عليها دليل ، ولا تهض لها حجة ، وقد جاء فيهم قول الحق سبحانه :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ .. ﴾ (١٦) [النمل]

(١) الجحود: الإنكار رغم العلم . واستيقن الأمر: علمه على سبيل اليقين . [لسان العرب : مادة (ي ق ن)].

وأقوالهم لن تقف في سبيل دعوتك ، وسيُتمُّ الله نوره ، ولا يوجد أعز من الله سبحانه وتعالى ، ولن يجبر أحد على الله أحداً ، فهو سبحانه يُجبر ولا يُجَار عليه .

وإذا كانت العزة هي القهر والغلبة ، وقد تكون عزة حُجَّة ، وقد تكون عزة حُلف ، وقد تكون عزة حكمة ، وكل واحد من خلق الله سبحانه قد توجد له عزة مجال ما أو محيط ما ، لكن العزة لله سبحانه شاملة مطلقة في كل محيط وفي كل مجال ، شاملة لكل شيء وأى شيء .

ولماذا لم يأت الحق سبحانه بأسلوب القَصْر^(١) في هذه الآية ؟

أي : أن تأتي الصفة للموصوف وتنفيها عما عداه ؛ كأن نقول : «لزيد مالٌ ليس لغيره» . وإذا قدمنا الجار والمجرور وهو المتعلق فنقول : «لفلان كذا» ، وهذا يعني أن غير فلان ليس له كذا .

وإن قلنا : «فلان له كذا» فيصح أن نقول : «ولفلان كذا ، ولفلان كذا ، ولفلان كذا» .

أما إذا قلت : «لفلان كذا» فمعناها : امتناع أن يكون لغير فلان شيء من مثل ما قلت .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ . إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۖ ﴾ (٦٥) وجاء بالتأكيد ولم يأت لها بأسلوب القصر الذي يعطى العزة لله سبحانه وينفيها عن غيره ؛ لأنه لا يوجد لهذه الآية مناهض ، وهو كلام ابتدائي يخبر به الله سبحانه خبيراً كونياً بأن العزة لله جميعاً .

(١) أسلوب القصر (أو الحصر) : هو تخصيص أمر باخر بطريق مخصوص ، وهو إنبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه . وينقسم إلى : قصر الموصوف على الصفة ، وقصر الصفة على الموصوف ؛ وكل منهما إما حقيقي وإما مجازي . [الإتقان في علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطي - ١٤٩/٣] .

وما دام الحق سبحانه هو الذى يقول ذلك - وهو خالق الخلق - فلن تأتي قضية كونية تناقضها ، ولو وجدت - معاذ الله - قضية كونية تناقضها ، فالآية لن تكون صادقة . وهذا لم ولن يحدث أبداً مع آيات الحق سبحانه ؛ لأنه هو خالق الكون ، وهو مُزِل الآيات ؛ فلا يمكن أن يحدث تناقض أبداً بين الكون وكلام خالق الكون سبحانه وتعالى .

وقد حدث أن ادعى بعضهم^(١) العزة لنفسه وقالوا:

﴿لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ...﴾ (٨) [المتأفقون]

وكان مغزى قولهم هو ادعاء العزة لأنفسهم ، وادعاء الذلة للمؤمنين .

إذن: فالعزة قد ادّعت ، وما دامت قد ادّعت فلماذا لم تأت بأسلوب القصر؟

نقول: لا ، لقد شاء الحق سبحانه أن يقول:

﴿...وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ...﴾ (٨) [المتأفقون]

فالعزة لله لا تتعداه ، ولكنه سبحانه شاء أن تكون عزة رسوله ﷺ وعزة المؤمنين من باطن عزة الله تعالى .

وقول الحق سبحانه هنا:

﴿...إِنَّ عِزَّةَ اللَّهِ جَمِيعًا...﴾ (٩) أى: فى كل ألوانها هى لله سبحانه وتعالى ،

إن كانت عزة حكمة فهو الحكيم ، وإن كانت عزة القبط على الأمور فهو

(١) هو عبد الله بن أبى راسى النخاق فى المدينة ، وكان ذلك فى غزوة بنى المصطلق فى شهر شعبان فى السنة السادسة من الهجرة ، وذلك أنه وصف محمداً وصحبه فقال: «قد نافرنا وكاثرونا فى بلادنا، والله ما أعدنا وجلايب قريش إلا كما قال الأول: سَمْنٌ كَلْبِكَ يَأْكُلُكَ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتهم بلادكم، وقاسمتهم أموالكم، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم» . أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٣/ ٢٩٠ ، ٢٩١) .

سُورَةُ يُوسُفَ

﴿٦٠﴾ ﴿٦١﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿٧٠﴾

العزیز ، وإن كانت عزة الحلم فهو الحليم ، وإن كانت عزة الغضب والانتقام فهو المنتقم الجبار ، وكل ألوان العزة لله تعالى :

﴿ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٦٥) [يونس]

وما دامت العزة هي الغلبة والقهر ، قاله سبحانه يسمع من يستحق أن يُقهر منه ، وما دام الأمر فيه قول فهو يجيء بالسمع ، وإن كان فيه فعل ، فهو يأتي بصفة العليم ، فهو السميع لما يقال والعليم بما يفعل .

ونحن نعلم أن المنهى عنه هنا هو : ﴿ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ ﴾ (٦٥) [يونس]

لذلك كان المناسب أن يقال : ﴿ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ أولاً .

ويريد الحق سبحانه أن يدلل على هذه القضية دلالة كونية في آيات الله تعالى في الكون ، وليس في الوجود أو الكون من يقف أمامه سبحانه ؛ لذلك لا بد أن نلاحظ أن قانون «العزة لله جميعاً» محكوم بأن لله تعالى ما في السموات وما في الأرض .

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ الْآيَاتُ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ۚ

وَمَا يَشْعُرُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَعِثُّونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ

إِلَّا بِخُرُصُونَ ﴿٦٦﴾

فالحق سبحانه - إذن - لن يخرج كائن من كان عن ملكة .

ومساحة تجد الحق سبحانه يبين الشيء وضده ، فهو يأتي بالقانون والإطار

(١) يخرسون ؛ يشعرون ظنهم وكذبهم وانكهم [تفسير ابن كثير (٢/٢٤٤)] .

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾ (٢٨٥) ﴿[البقرة]

ومثال ذلك : حين تبع قوم فرعون موسى - عليه السلام - وقومه ، قال أصحاب موسى : ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ (٦٦) ﴿[الشعراء]

قالوا ذلك ؛ لأنهم رأوا البحر أمامهم ، فشاء الحق سبحانه أن يبين لهم أن البحر لن يعرق مشيئته سبحانه ، ولم ينقلت البحر من قوة الله تعالى ؛ لأن لله ما في السموات وما في الأرض ، والبحر منها ؛ لذلك انقلب البحر ، فكان كل فرق كالطود العظيم^(١) .

فلا شيء يخرج عن ملكه سبحانه تعالى ؛ ولذلك يأتي الحق سبحانه بالنيض ، فبعد أن جعل الحق سبحانه لهم مسلماً في البحر ، وكل فرق كالطود العظيم ، ويظل البحر مفلوقاً فيدخل قوم فرعون فيه .

والحق سبحانه يقول لموسى عليه السلام : ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا إِنَّهُمْ يَحْدُ مَغْرُقُونَ﴾ (٦٤) ﴿[الدخان]

فيأمر الحق سبحانه البحر أن يعود كما كان ؛ فيغرق قوم فرعون بعد أن أنجى الله - سبحانه وتعالى - موسى - عليه السلام - ومن معه ، فأهلك وأنجى بالشيء الواحد ؛ لأنه سبحانه له ما في السموات وما في الأرض ، وليبين الحق سبحانه لنا أنه لا شيء في كون الله تعالى يقوم مقام عزته سبحانه أبداً .

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ (٦٦) قال كلاً إن معي ربي سيهدين (٦٧) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اصْرِبْ يَعْصَاكَ الْبَحْرُ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ (٦٦) وَأَرْسَلْنَا نُمُ الْآخَرِينَ (٦٧) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٨) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٧٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٧١) ﴿[الشعراء]

والفرق : انقلب أو الجزء منه : والطود : الجبل الكبير [ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٣٦)] ، واللسان العرب : مادة (ف ر ق) .

وهناك مثال آخر: حين يقول نوح - عليه السلام - لابنه:
﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا...﴾ (٤٢) [هود]

فيرد الابن قائلاً:

﴿سَأْوِي إِلَى جِبَلٍ يَفْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ...﴾ (٤٣) [هود]

وهذا كلام صحيح من ناحية أن الجبل يعلو مستواه عن مستوى المياه ،
ولكن ابن نوح نسي أن لله تعالى جندياً آخر هو الموج ؛ فكان من المغرقين .
صحيح أن ابن نوح فطن إلى أن السفينة سوف تستوى على
«الجودي»^(١) ، وأن من يركبها لن يغرق ، وكذلك من يأوى إلى الجبل
العالي ، لكنه لم يفطن إلى الموج الذي حال بينه وبين الجبل ؛ فكان من
المغرقين .

إذن: فكل كائن هو مؤثر بأمر من الله تعالى ، وما دامت العزة لله
جميعاً قمصداقها أن لله تعالى ما في السموات وما في الأرض ، وليس
هناك كائن في الوجود يتأبى على أن يكون جندياً من جنود الحق سبحانه .
فيكون جندياً للإهلاك ، وجندياً للنجاة في نفس الوقت^(٢) .

وقول الحق سبحانه هنا: (أَلَا) نعلم منه أن (أَلَا) أداة تنبيه للسامع
فلا يؤخذ على غمرة ، ولا تقوته حكمة من حكم الكلام ، وينتبه إلى أن

(١) يقول رب العزة سبحانه: ﴿قَالَ سَأْوِي إِلَى جِبَلٍ يَفْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مِنْ رَحْمَةٍ وَحَالٍ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرُقِينَ﴾ (٤٢) [هود] لقد اعتقد ابن نوح بجهله أن العرفون لا يبلغ إلى زووس الجبال ، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجاة ذلك من الغرق - [تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٦] .

(٢) الجودي: قال مجاهد: هو جبل بالحزيرة ، وهو الذي ربت عليه سفينة نوح - عليه السلام - [تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٦] . وقيل: إنه جبل أرارات في شرق تركيا بالأناضول .

(٣) يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٤٤) [الفتح] ويقول أيضاً:
﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ...﴾ (٤٥) [المائدة] .

هناك خطاباً عليه أن يجمع عقله كله ليحسن استقبال ما في هذا الخطاب .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٦٦) [يونس]

ولقائل أن يقول : هناك كثير من الكائنات غير العاقلة ، وقوله هنا ﴿مَنْ﴾ مقصود به الكائنات العاقلة ؟

ولنا أن نتساءل للرد على هذا القائل :

وهل هناك أي شيء في الوجود لا يفهم عن الله ؟

طبعاً لا ، والله سبحانه وتعالى هو القائل عن الأرض :

﴿ يَوْمَئِذٍ نَحْدِثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) ﴾ [الزلزلة]

إذن : فكل الكائنات في عرف الاستقبال عن الله سبحانه سواء به «مَنْ» أو به «مَا» ، وكل من في الوجود يفهم عن الله .

ونلاحظ أن الحق سبحانه يأتي مرة بالقسول : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا .. ﴾ (٨٢) [آل عمران]

ومرة يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١١) [يونس]

كما جاء في هذه الآية التي نحن بصدددها الآن .

شاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأن هناك جنساً في الوجود يوجد في السماء ويوجد في الأرض ، وهم الملائكة المُدَبِّرَات "أمرأ" هؤلاء هم المقصودون بأن لله ما في السموات والأرض .

(١١) المُدَبِّرَات أمرأ : هي الملائكة تُدَبِّرُ الأمر من السماء إلى الأرض بأمر ربها - عز وجل .

ولله سبحانه وتعالى أيضاً جنس فى السموات لا يوجد فى الأرض وهم
الملائكة المهيمون^(١) العالين ، وليس لهم وجود على الأرض ، كما أن
لله تعالى جنوداً فى الأرض ليس لهم وجود فى السماء ، فإن لاحظنا
الملائكة المدبرات أمراً ، نجد أن قول الحق سبحانه :

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ .. (٢٨٥)﴾ [بقرة]

مناسب لها .

وإن لاحظنا أن لله ملائكة مهيمين فى السماء ، وجنوداً فى
الأرض لا علاقة لهم بالسماء يكون مناسباً لذلك قول الحق سبحانه :

﴿لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْاَرْضِ .. (٦٦)﴾ [يونس]

وما دام كل شيء فى الكون مملوكاً لله تعالى فلا شيء يخرج عن مراده
سبحانه ، فلا يوجد مثلاً غار يدخله كائن فراراً من الله ؛ لأنه سبحانه قادر
على أن يسد الغار ، وإن شاء الله سبحانه أن يساعد من دخل الغار فهو
تعالى يعمى بصر من يرقب الغار^(٢) .

إذن : قلن يجبر^(٣) شيء على الله تعالى ، وستظل له صفة العزة

(١) المهيمون : الذين يهيمنون فى عبادة الله وطاعته ، فمن الملائكة من لا شغل لهم إلا العبادة فتجد منهم
القائمين فلا يركعون ، والركع فلا يسجدون ، والسجود فلا يرفعون . وهناك الملائكة الكروبيون ، وهم
أقرب الملائكة لحمة العرش الثمانية ، قال عنهم سبحانه . ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا .. (٢٤)﴾ [غافر] .

(٢) استجار به : طلب حمايته . قال تعالى : ﴿وَأِنْ أَحَدُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ..
(٢٤)﴾ [التوبة] وأجاره : تكفل بحمايته . قال تعالى . ﴿... وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ .. (٢٥)﴾ [المؤمن]
أى : أنه يتكفل بحمايته من يلجأ إليه ولا يستطيع أحد أن يجبر من يريد الله عفايه . [القاموس القويم -
بتصرف] .

(٣) هذا إشارة إلى ما حدث فى هجرة الرسول ﷺ ومعه أبو بكر من مكة إلى المدينة عندما دخلوا الغار
وأثبت الله على يابه شجرة وأوجد خبأين تركدان على البيض ، وهتكبوا كثيراً قللاً سد باب الغار
بخيوط علاها تراب وكأنه تراب السنين ،

لا يَخْدُشُهَا خَادِشٌ مِنْ وَجُودِ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ .. ﴾ (٦٦) [يونس]

ومعنى اتباعهم شركاء كأن هناك شركاء ، رغم أن الأصل والحقيقة
ألا شركاء له سبحانه .

إذن : فهم يتبعون غير شيء ؛ والدليل على ذلك موجود في طي
القضية ، فهم يعبدونهم من دون الله تعالى ، ومعنى العبادة أن يطاع أمر
وينهى نهى ، وما يعبدونه من أشياء لا أوامر لها ولا نواهي ؛ فليس هناك
منهج جاءوا به .

إذن : فلا ألوهية لهم .

إذن : فالأصل ألا شركاء لله تعالى ، ولو كان له شركاء لأنزلوا منهجاً
ولأوجدوا أوامر ، وكان لهم نواه ؛ لأن الذي يقول : «اعبدني» إنما يحدد
طريقة وأسلوب العبادة . وهاتوا واحداً من الذين تتبعونهم وتدعون لهم
يكون له منهج ، ولن يستطيعوا ذلك ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا أُتِغَفَرُ إِلَى ذِي الْعَرْشِ
مَسِيلًا ﴾ (٤٧) [الإسراء]

أى : أننا لو افترضنا أن هناك آلهة ولها مظهر قوة كالشمس التي تضيء
والقمر الذي ينير ، والمطر الذي ينزل من السماء ، والملائكة التي تدبر
الأمر ، لو صدقنا أن كل هؤلاء آلهة ، فهم سيبحثون عن الإله الواحد
الأحد ؛ ليأخذوا منه القوة التي ظنتم أنها لهم .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (٩١)

[المؤمنون]

إذ لو كان هذا الأمر صحيحاً لكانت هناك ولايات إلهية .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ . . ﴾ (٥٧)

[الإسراء]

وهم قالوا إنهم يعبدون الملائكة ، وعليهم أن يعلموا أن الملائكة نفسها تعبد الله سبحانه وتعالى ، وما دام لا يوجد شركاء لله لتتبعوهم ؛ إذن : فأنتم تتبعون الظن .

لذلك جاء قول الحق سبحانه :

﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ^(١) وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ^(٢) ﴾ (٦٦)

[يونس]

ونحن نجد الذين أولعوا بأن يوجدوا في القرآن ظاهراً تعارضاً لشككوا فيه ، قالوا : إن هذه الآية مثال على ذلك ؛ فيقولون : في بداية الآية يقول : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ . . ﴾ (٦٦) [يونس] فينفي أن المشركين يتبعون شركاء لله ، ثم يأتي في آخر الآية فيقول إنهم يتبعون الظن والخرص ، ففي أولها ينفي الاتباع ، وفي آخرها يشبه .

(١) الظن : ما يحصل في النفس عن أماره ، فهو شك واحتمال من أفعال الرحمان ، من باب نصر . والظن مصدر ، والظن اسم لهذا الحاطر الذي يحصل في النفس . قال تعالى : ﴿ وَمَا تَعْلَمُ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يَفِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ (٢) [النجم] وجمعه : ظنون ، ويستعمل الظن بمعنى اليقين مجازاً كقوله تعالى : ﴿ إِنْ يَنْتَظِرُ أَوَّلَى كَلْبٍ عَلَيْكَ ﴾ [الحاقة] بمعنى تنتظر ، [القاموس القويم] - بتصرف - .

(٢) الخرص : الكذب والقول بغير علم . وقال تعالى : ﴿ قَتَلَ الْخَوَاصُّونَ (٤) ﴾ [الذاريات] قال الزجاج : أي : الكذابين ، [لسان العرب] : مادة (خ ر ص) - بتصرف - .

وهذا جهل ممن قال بهذا وادعى أن هناك تناقضاً في الآية ، فالله سبحانه ينقى أن يكون ما يدعوه هؤلاء المشركون شركاء لله في ملكه ، فله من في السموات ومن في الأرض ، ولكنه يثبت أنهم يتبعون الظن والخرص والتخمين .

ونقول : ما هو الظن ؟ وما هو الخرص ؟

إن الظن حكم بالراجع كما أوضحنا من قبل في النسب من أن هناك نسبة إن لم تكن موجودة فهي مشكوك فيها ، أو نسبة راجحة ، أو أن نسبة يتساوى فيها الشك مع الإثبات ، فإن كان الشك مساوياً للإثبات فهذا هو الشك . وإن رجحت ، فهذا هو الظن . أما المرجوح فنسميه وهماً .

الظن - إذن - حكم بالراجع . والخرص : هو التخمين ، والقول بلا قاعدة أو دليل .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (٦٦) [يونس]

والقرآن حين يوجه خطاباً فهو يأتي بالخطاب المستوعب لكل ممكن ، وهو سبحانه حكم عليهم هنا أنهم يتبعون الظن والخرص .

ونحن نعلم أن الكافرين قسمان : قسم يُعلم حقيقة الشيء ، ولكنه يغير الحقيقة إلى إفك^(١) وإلى خرص ، وقسم آخر لا يعرف حقيقة الشيء ، بل يستمع إلى من يعتقد أنه يعرف .

(١) أفك ، يأنك ويأفك - من باب « فرح » و « ضرب » : كذب واقتري باطلاً والإفك بكسر الهمزة : الكذب . وأماك صيغة مبالغة أي : كثير الكذب . قال تعالى : ﴿ وَيَسْلُ كُلُّ أَفَّاكٍ أَثِيمٌ ﴾ (٧) [الباقية] [القلموس القويم] يتصرف .

إذن: فهناك مُتَّبِع - بكسر الباء - وهناك مُتَّبِع - بفتح الباء -
المُتَّبِع - بفتح الباء - يعلم أن ما يقوله هو كلام ملتبس ، يشوه الحقيقة
ويرزنها ، أما المتَّبِع - بكسر الباء - فيظن أنه يتبع أناساً عاقلين أماء فأخذ
كلامهم بتصديق .

إذن: فالمتَّبِع (بكسر الباء) يكون الظن من ناحيته ، أما المتَّبِع (بفتح الباء)
فيكون الحرص والكذب والافتراء من ناحيته ؛ ولذلك يقول لنا الحق
سبحانه :

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٧٨)
[البقرة]

وهؤلاء - إذن - يصدقون ما يقال لهم ؛ لأنهم أميون ، والكلام الذي
يقال لهم راجح ، وهم لو فكروا بحقولهم لما انتهروا إلى أنه كلام راجح .
أما الآخرون فيقول فيهم الحق سبحانه :

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ (٧٩)
[البقرة]

وهؤلاء هم الذين يأتي منهم الحرص والإفك وقول الزور والبهتان .
إذن: فالكفار إن كانوا من الأميين فهم من أهل الظن ، وينطبق عليهم
قول الحق سبحانه : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ (٨٠) .

وإن كانوا من القادة والرؤساء فهؤلاء هم من ينطبق عليهم قول الحق
سبحانه : ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (٨١) .

(١) البهتان: الافتراء والكذب قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِمَا بَعْرَةٌ﴾ (٨١) [المنحعة] [نسان لعرب
مادة (ب هـ)].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْيَمْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ
وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ﴾ ٦٧

و شاء الحق سبحانه بعد أن بين الإيمان والمؤمنين ، وما يمكن أن يدعيه الكافرون في نبي الرسالة ، وبعد أن بين المنهج ، ها هو سبحانه يأتي بالكلام عن آياته سبحانه في الكون تأييداً للمطلوب بالموجود .

فالمطلوب أن نؤمن برسول يبلغ منهجاً عن الله ؛ ليكون هذا المنهج نافعا لنا ، وإن أراد أحد دليلاً على ذلك فليتظر إلى الآيات التي وجدت للإنسان من قبل أن يكلف ، أي في مصلحته أم في غير مصلحته ؟

ومادامت الآيات الموجودة في الكون - والمسخرة للإنسان - تفيد الإنسان في حياته ، فلماذا لا يشكر من أعطاه كل تلك النعم ، وقد أعطى الحق - سبحانه وتعالى - الإنسان من قبل التكليف الكثير من النعم ، وفور أن يصل إلى البلوغ يصير مكلفاً .

إذن : قاله سبحانه لم يكلف أحداً إلا بعد أن غمره بالنعم النافعة له باعتقاد من العبد ، وصدق من الواقع .

فإذا ما جاء لك التكليف ، فقس ما طُلب منك على ما وُجد لك ، فإذا كنت تعتقد أن الآيات الكونية التي سبقت التكليف نافعة لك قبل أن يطلب منك «افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ؛ فخذ منها صدقاً واقعاً يؤيد صدق ما طُلب منك تكليفاً ، فكما نفعل في الأولى ، فالحق سبحانه

سيضعك باتِّباعك التكليف ، واستقبل حركة الحياة على ضوء هذا التكليف ؛ لتسعد^(١) .

ونحن نعلم أن الأصل في الإنسان أن يرتاح أولاً ليتحرك ، ثم يتعب ، ثم يرتاح ؛ ولذلك نجد التكليف قد جاء على نفس المنوال ، فقد أراحك الحق سبحانه إلى سن البلوغ وأخذت نعم الله تعالى وتمتعت بها إلى سن البلوغ ، ارتحت اختياراً ، وارتحت في مراداتك ، ثم تجيء «افعل» و«لا تفعل» لتلتزم بما يصلح لك كل أحوالك .

وإذا كان التكليف سيأخذ منك بعضاً من الجهد ، فهناك فاصل زمني للراحة ، وأنت في حياتك تجد وقتاً للراحة ، ووقتاً للحركة ، والراحة تجعلك تسعى بنشاط إلى الحركة ، والحركة تأخذ منك الجهد الذي تحب أن ترتاح بعده .

إذن ؛ فالحركة تحتاج للراحة ، والراحة تحتاج للحركة .

وجاء الحق سبحانه إلى الفترة الزمنية المسماة «اليوم» ، فبين لنا أنه كما قسم الوجود الإنساني إلى مرحلتين :

الأولى : هي ما قبل البلوغ ولا تكليف فيها .

والثانية : هي ما بعد البلوغ وفيها التكليف .

فقد قسم الله سبحانه أيضاً «اليوم» إلى وقت للراحة ووقت للحركة ، فقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ..

[يونس]

﴿ ٦٧ ﴾

(١) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْهَمُوا تَزُولُ عَلَيْهِمُ السَّلَاطَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٢٠) نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴿ ٦٧ ﴾ [فصلت] .

فكما خلق الحق سبحانه لنا اليوم وفيه وقت للراحة ، ووقت للحركة ، كذلك شرع الحق سبحانه منهج الدين ؛ لتستقيم حركة الحياة ؛ لأن الإنسان - الخليفة في الأرض - لا بد أن يتحرك ، ولا بد أن تكون حركته على مقتضى «افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ، وما لم يرد فيه «افعل» و«لا تفعل» فهو مباح ؛ إن شاء فعله ، وإن شاء لم يفعله^(١) .

وكل فعل ، وكل نهى يتطلب حركة ، وإياك أن تتصور أن النهى لا يتطلب حركة ؛ لأنك تتحرك في أمر ما ثم يأتيك قرار التوقف ، وقد تتوهم أن التوقف لا يحتاج إلى حركة ؛ لأنه سلبك ملكة القيام بما تعمل ، ولكنك تنسى أن هناك حركة داخلية ، وهى الدوافع التى كانت تلح عليك أن تقوم بما تشتهيئه نفسك ولا يواكب منهج الله ، وأنت تكبت تلك الدوافع وتكبح جماحها^(٢) ؛ لأن الله سبحانه قد أمرك بذلك .

وما دامت هناك حركة فلا بد أن يأتى منها تعب ؛ لذلك جعل الله تعالى لك حقاً فى الراحة .

وكذلك عُمُر الإنسان ، لم يكلف الله - تعالى - الإنسان إلا بعد البلوغ ، وترك له الفترة الأولى من عمره دون تكليف منه وحساب ، لكنه سبحانه لم يقطع عنه التكليف فى تلك المرحلة بتاتاً ، وإنما منع حسابه على ما «يفعل» أو «لا يفعل» ، وترك مسئولية التدريب على التكليف للأب مثلاً ، فالأب يقول لابنه : «لا تكذب» فإن كذب ؛ فالأب يعاقبه ، وهكذا يكون الأمر من الرائد ، والنهى للولد والأمر والنهى يتطلب ثواباً أو عقاباً .

(١) لأن كلمة (افعل) يندرج تحتها الأمر من الله ورسوله ﷺ فى الواجبات والفرائض والسنن والمندوبات والمشجبات . وكلمة (لا تفعل) يندرج تحتها النهى من الله ورسوله ﷺ وذلك فى الحرام والمنكروه . أما غير ذلك فهو مباح .

(٢) تكبح جماحها : تمنعها عن المعاصى . مأخوذة من كبح الدابة أى : جلدتها إليه بالليلجام ، وضرب قلها به ؛ كى تقف ولا تغرى . [لسان العرب : مادة (ك ب ح)] .

ويبين لنا رسول الله ﷺ هذا الأمر فيقول: «مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين»^(١) .

والذي يأمر هنا الابن بالصلاة هو الأب ، وهو أيضاً الذي يعاقب على ترك الصلاة ، وهو الذي يثيب ابنه إن أراد أن يجعل الصلاة محبوبة للابن ، وأن يجعل للابن أنساً بالعبادة .

وحين يكلف الأب ابنه بالصلاة ، فالابن يطيع ؛ لأن الأب هو الذي يقضى حاجات الابن ، ويحقق له مصالحه ، والابن يعلم أن والده لن يكلفه إلا بما يحقق تلك المصالح ، وهو يفعل ذلك ؛ لأنه يحبه ؛ لذلك جعل رسول الله ﷺ الأمر والنهي من النافع للابن ؛ لتوجد حيثية قبول في النفس .

وما إن يأت البلوغ فيكون التكليف من الله والأمر من الله ، والثواب والعقاب منه سبحانه .

إذن : فالأمر والنهي قبل البلوغ يأتيان من الأب ؛ ليتعود الإنسان استقبال الأمر والنهي من ربه ورب أبيه .

وإذا كانت الحياة والسير فيها على ضوء منهج الله تعالى يقتضى حركة في «افعل» و «لا تفعل» فلا بد أن يحتاج الإنسان إلى راحة من الحركة ؛ لذلك يبين لنا الله سبحانه أنه جعل في «اليوم» ليلاً ونهاراً ، ولكل مهمة ، فإياك أن تضع مهمة شيء مكان شيء آخر ؛ حتى لا ترتبك الأمور ، ولكن الظروف قد تضطرك إلى ذلك ، فهناك من يسهر للحراسة ، وهناك من يسهر للعمل في المخازن ، أو إعداد طعام الإفطار للناس ؛ ولذلك فهناك احتياط قدرى ، فقال الحق سبحانه في آية ثانية :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٧/٢) وأبو داود في سننه (٤٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، واللفظ لأحمد .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَتَاعُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ قَضِيهِ...﴾ [الرؤم]

لأن الحق سبحانه قد علم ألا أن هناك مصالح لا يمكن إلا أن تكون ليلاً ، فالذي يعمل ليلاً يرتاح نهاراً ، ولو أن الآية جاءت عمومية ؛ لقلنا لمن ينام ^(١) بالنهار : لا ، ليس هذا وقت السكن والراحة .
ولكن شاء الحق سبحانه أن يضع الاحتياطى القدرى ؛ ليرتاح من يتصل عمله بالليل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ...﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن هناك قارقاً بين «الخلق» ، و«الجعل» ، و«الملك» ، والمثال على الخلق : أنه سبحانه خلق الزمن ، ثم جاء لهذا الزمن ليجعل منه ليلاً ونهاراً ^(٢) .

إذن : فالجعل هو توجيه شيء مخلوق لمهمة .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - وهو منزه عن أى تشبيه أو مثل :

تجد صانع الفخار وهو يمسك بالطين ؛ ليجعل منه إبريقاً ، فهو يصنع الطين أولاً بأن يخلط الماء بالتراب ويعجنهما معاً ، ثم يجعل من الطين

(١) نام فلان نوماً : اضطجع أو نمتس وليه مسكن واطمان ووثق به ومن حاجته غفل عنها ولم يهتم بها وأماه : أرقده ، ونوم فلان : أرقده . والتأوم التظاهر بالنوم . واستام : نام واطمان . والتروم من آيات الله ؛ لأنه راحة وسكن . والراحة مع السكن تعطى قوة الحركة والثبات لى التفكير والتحرك . [المعجم الوجيز - بتصرف] .

(٢) يقول سبحانه ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرَ اللَّهِ مَا تَكُونُونَ﴾ [النور] .
(٣) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرَ اللَّهِ مَا تَكُونُونَ﴾ [النور] .
(٤) ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتُزِيلُوا مِنْ قَضِيهِ وَأَعْلَمَ مَا تَكُونُونَ﴾ [النور] .



إبريقاً أو أصصَ زرع أو زهرية ورد ، وهو بذلك إنما يحول مخلوقاً إلى شيء له مهمة .

والزمن كله لله سبحانه ، جعل منه قسم الليل ، وقسم النهار ، مثلما خلق الإنسان ، ووجه جزءاً منه ؛ ليجعله سمعاً ، وجزءاً آخر ؛ ليجعله بصرأ ، وجزءاً آخر ؛ ليصير مخاً ، وجزءاً آخر ؛ ليكون رئة ، كل ذلك مأخوذاً عما خلقه الحق سبحانه .

أى : أنه سبحانه جعل أشياء مما خلق أصلاً ؛ لتؤدي مهمة للمخلوق .

وفي حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد من يغزل من القطن خيوطاً ، وهناك من ينسج من تلك الخيوط قماشاً ، وبعد ذلك نجد من يأخذ هذا القماش ؛ ليجعل منه جلباباً أو بنطلوناً أو قميصاً أو لحافاً .

إذن : فالجعل هو أخذ من شيء مخلوق لمهمة . والخلق قد يترتب عليه ملك ، والجعل أيضاً قد يترتب عليه ملك ؛ فمن عمل قِدرأ من الطين هو مآلكه ، ومن جعل من الطين إبريقاً إنما يملكه .

وهكذا نجد الخلق والجعل قد يترتب عليهما ملكية ما ، لكن الملكية المنسحبة بعد الخلق والجعل تجعلك تتفجع بالأشياء وقد لا تملكها ؛ لذلك نجد قول الحق سبحانه :

﴿أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعُ وَالْأَبْصَارُ ..﴾ (٢١)

[يونس]

والحق سبحانه خلق لنا الأنعام ، وذلّلها لنا ، وملكها لنا ، وإذا قال الحق سبحانه : «ملك» فملكته سبحانه لا تنتهى لأحد أبداً سواء من الخلق أو الجعل ، بل يظل مملوكاً ؛ ولذلك قلنا : إن نقل الأعضاء هو تحكّم فيما لا يملكه المخلوق ، بل يملكه الخالق سبحانه وتعالى .

يذكر الحق سبحانه الليل والنهار فيقول:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ ۞﴾ [يونس]

وكان مقتضى الكلام أن يقول:

جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتحركوا .

وشاء سبحانه أن يأتي هنا بالأداء القرآني المعجز فقال: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ .

فهل النهار هو الذي يُبصر أم نحن؟

هل النهار مُبصر أم مُبصر فيه؟

وقديماً لم يكونوا قد وصلوا إلى الحقيقة العلمية التي وصلنا إليها الآن ، فقد كانوا يعتقدون أن الضوء " يخرج من العين إلى المرئي فتراه " ، إلى أن جاء «الحسن بن الهيثم» العالم العربي المسلم ، وأوضح بالتجربة أن الضوء إنما ينعكس من المرئي إلى العين ، بدليل أن المرئي إن كان في النور وأنت في الظلام ، فأنت تراه ، وإذا كان الأمر بالعكس فأنت لا تراه .

إذن: فقد سبق القرآن كل النظريات ، وبين لنا أن النهار إنما يأتي بالضوء فينعكس الضوء من الكائنات والموجودات إلى العين فتراه .

إذن: فالنهار هو المبصر ؛ لأنه جاء بالضوء اللازم لانعكاس هذا الضوء من المرئي إلى العيون .

ونحن نجد القرآن حين يتعرض لليل والنهار يقول:

(١) الضوء - بفتح الهمزة والضوء - بضمها وأنشأه ، والقمر : النور الذي يتشع من الأجسام النضيئة ، وقد يخص الضوء لما كان صادراً من شيء مفسى يفتبه كضوء الشمس ، وقد يخصص بالنور لما كان مستمداً من غيره ، كنور القمر . قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ۚ ۞﴾ [يونس] . [القاموس القويم] بتصرف .

[فصلت]

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ..﴾ (٣٧)

ويقول:

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحْوُورَا^(١) آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ

[الإسراء]

مُبْصِرَةً..﴾ (١٦)

وهي مبصرة كما أثبت الحسن بن الهيثم العالم المسلم ، وإن كانت في ظاهر الأمر مُبْصِرٌ فيها.

ويعطى لنا الحق سبحانه تجربة حية مع موسى عليه السلام ، وذلك في قوله سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠)﴾ [طه]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليتعرف موسى بالتجربة على ما سوف يحدث من عصاه أمام فرعون ، ثم أمام السحرة ، ثقة منه سبحانه أن موسى حين يراها تنقلب إلى حية أمام عينيه لأول وهلة سوف يفزع ؛ فيطمئنه الحق سبحانه بقوله:

﴿..خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١)﴾ [طه]

وكانت المرة الأولى لتحوُّل العصا إلى حية ، هي تجربة للاستعداد ؛ حتى لا يجزع موسى - عليه السلام - أو يخاف لحظة أن يمر بالتجربة العملية ، وحتى يقبل على تقديم المعجزة وهو واثق تمام الثقة أمام فرعون .

(١) جعل الله ليل آية وهي القمر، وجعل للنهار آية وهي الشمس، وجعل آية النهار مبصرة أى : منيرة تير الكون كله ، أما القمر فقد محا آيته وهو سواد القمر الذى فيه . ينصرف من تفسير ابن كثير (٢٧/٢) .

(٢) أى : سعيها كما كانت (عصا) .

ثم قال الحق سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ۖ (١٢)﴾ [النمل]

والجيب : هو المكان الذى تنفذ منه الرقبة فى الجلباب ويسمى (القبعة) ، فلا يظن أحد أن الجيب المقصود هنا هو مكان وضع النقود ؛ لأن مكان وضع النقود قديماً كان يوجد من داخل الجلباب ، مثل جيب (الصدىرى) الذى يرتديه أهل الريف ، وقد سُمى الجيب الذى نضع فيه النقود جيبياً ؛ لأن اليد لا تذهب إلى الجيب إلا إذا دخلت فى الفتحة التى تخرج منها الرقبة .

وقد قال الحق سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۖ (١٣)﴾ [النمل]

ويخبره الحق سبحانه :

﴿فِي تِسْعَ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٣) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ۖ (١٤)﴾ [النمل]

هكذا كانت الآيات مبصرة ^(١) وكأنها تقول للعين : أبصرينى .

(١) الجيب : النحر والصدر . قال تعالى : ﴿وَلْيَضْحَكُنَّ يَضْحَكُنَّ عَلَىٰ حُيُوبِهِنَّ ۖ (١٥)﴾ [التوراة] .
(٢) بَصْرُهُ : رآه بصره ، فهو بصير ، وبَصْرٌ بالأمر : علمه كأنه رآه بصره . وقوله : ﴿فَلْيَضْحَكُنَّ﴾ من ضحك .
(٣) [المقصص] أى : رآته من أحد جوانب البيت . وأنصر : رأى . قال تعالى : ﴿وَأَنْصَرُ فَسُوفَ يُبْصِرُونَ (٧٠)﴾ [الصافات] أى : انظر وثقف . وأنصره : جعله يبصر ، وجعله يعلم علم من بصر . قال تعالى : ﴿وَأَنْصَرُهُمْ فَسُوفَ يُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [الصافات] . والبصير : من أسماء الله الحسنى . والبصير : من له عينان يبصر بهما ضد الأعشى . قال تعالى : ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۖ (٦٦)﴾ [الأنعام] . والبصرة : نور القلب والحجة الواضحة ومن المحاذ قولهم : بهار مصر ، أى : مصر . قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۖ (١٧)﴾ [يونس] ، وقوله : ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ۖ (١٨)﴾ [الإسراء] وقوله : ﴿وَأَتَيْنَاهُمُ الْبَاقَةَ مُبْصِرَةً ۖ (٥٦)﴾ [الإسراء] أى : معجزة واضحة . وقوله : ﴿فَإِذَا مِنْهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٥٧)﴾ [الأعراف] أى : عارفون الحق . [الفاموس القويم - بتصرفه] .

وهنا في الآية - التي نحن بصدد خراطنا عنها - يقول الحق سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ﴾ [يونس]

ولم يقل : لتتحركوا فيه ، بل جاء بما يضمن سلامة الحركة ، فقال سبحانه : ﴿مُبْصِرًا﴾ لأن الضوء الذي ينعكس على الأشياء هو الذي يحفظ للإنسان سلامة الحركة.

ولكن البعض من الناس في زماننا يستخدمون نعمة الكهرباء في الإسراف في السهر ، وحين يأتي الليل يسهرون حتى الصباح أمام جهاز (التليفزيون) أو (الفيديو) أو في غير ذلك من أمور الترفيه ، ثم ينامون في النهار ، وينسون أن الليل للرقود ، والنهار للعمل . وقد ثبت أن للضوء أثراً على الأجسام ، فالضوء يؤثر في الكائن الحي ، وقد سبق النبي ﷺ ذلك الاكتشاف بزمان طويل وقال :

«أطفئوا المصابيح إذا رقدتم»^(١) ، وذلك حتى لا يشغل الجسم بإشعاعات الضوء التي تسبب في تفاعلات كيميائية في الجسم .

لذلك أقول دائماً : خذوا الحضارة بقواعد التحضير لها ؛ لأننا يجب أن نتيج للفلاح أن يذهب إلى حقله والعامل إلى مصنع ، لأن السهر ضار ، وإذا ادعى الإنسان أنه هو الذي تحضر ، فليحترم قيمة العمل الذي يصنع الحضارة ؛ لأن الآلة التي يسهر لمراقبتها ومشاهدتها هي إنتاج أناس يلتزمون بقواعد الحضارة ، واحترام قيمة العمل في النهار ، وقيمة الترفيه في الوقت المخصص .

نحن نساء استخدام أدوات الحضارة ، فالزمن الذي وفّرته السلاجة للزوجة ؛ حتى لا تقف في المطبخ نصف النهار لتعد الطعام ، وصارت

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٦٢٤) وأحمد في مسنده (٣٨٨/٣) عن جابر بن عبد الله ، واللفظ للبخاري

تظهر وجبات ثلاثة أيام وتحفظها في الثلاجة ، وتستخدم الغسالة الكهربائية فتنتهي الغسيل في ساعة من الزمن ، لكن بقية الوقت يضع أمام (التلفزيون) ولا تلتفت إلى تربية الأبناء .

وهكذا يسىء البعض استخدام الآلات المتحضرة ، وفي هذه الإساءة نوع من التخلف ، فإذا أخذنا الحضارة بمنطقية فهذا هو التحضر .

وعلى سبيل المثال : أقول لمن يركب سيارة : إياك أن تسرع بها في طريق مربة حتى لا يثور الغبار ويملأ صدور الناس بالحساسية .

وإياك أن تهمل صيانة سيارتك حتى لا يفسد الموتور ؛ ويخرج العادم الضار بصحة الناس والبيئة ، فلا يسافر الإنسان في الطريق المربة أو بسيارة غير جيدة الصيانة ؛ فيصيب صدور الناس بالمرض ، ويصيب الزروع ويفسد الهواء .

ويجب ألا تأخذ الحضارة بتلصص ، إنما علينا أن نرتقى إلى مدارجها بصيانة أساليبها ؛ لأن من لا يأخذ الحضارة بقواعدها هو من يتخلف رغم تقدم الآلة ، فتصير الآلة أكثر تحضراً منه .

إذن : فإن أخذنا كل أمر بمهمته فنحن نحقق الراحة لأنفسنا ولغيرنا .

ولذلك قلنا في تفسير قول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۖ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۖ ﴾ [الليل]

وإن بدا للإنسان أن هناك تعارضاً بين غشيان الليل (أى : تغطيته للمرئيات) وتجلّى النهار (أى : كشف المرئيات) فهذا ليس تعارضاً بل هو التكامل ؛ لأن حركة النهار تتولد من الليل ، وراحة الليل تتولد من النهار .

ثم يقول الحق سبحانه :

[الليل]

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ (١)

وهذا الخلق للذكر والأنثى هو للتكامل ، لا للتناقض ، هكذا جاء الحق سبحانه يشوعين :

الأول : هو الزمن ليلاً ونهاراً .

والثاني : هو الإنسان ذكراً وأنثى .

[الليل]

ويقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ (٢)

أى : أن حركتكم هى الموصلة إلى غايتكم ، والحركات شتى (أى : مختلفة) ، سواء فى الليل أو النهار أو للذكر أو للأنثى ، فإن خلطنا الحركة وعيشتنا بأنظمة الحياة : فالحياة ترتبك ، ونعانى من مرارة التجربة إلى أن نتعقد الأمور ، فنبحث لها عن حلول .

وقد نادينا أن تعمل المرأة نصف الوقت لتعطى البيت بعضاً من الوقت ، أو أن تعتنى بالبيت إن كان لها ما يكفيها من دخل ، أو كان لزوجها ما يكفى لحياة الأسرة ، ولكن أحداً لم يلتفت إلى ذلك إلا بعد مرارة التجارب .

وهناك مثال آخر : فى قول البعض أن الليل فى تلك البلاد المتحضرة لا ينتهى وأنت تجد السهر هناك حتى الصباح ، وعندما أسمع مثل هذا القول أقول : إن هذا ليس فى مصلحة سكان تلك البلاد ؛ لأن الليل يجب أن يكون سباتاً لتأتى الحركة المنتجة فى النهار .

(١) شت الجميع يشت شتاً ، وشتاتاً : تفرق فهو شتيت ، وهم شتى وأمر شت متفرق وجمعه أشتات . قال تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِمْ أَنْ شَرُّوا .﴾ (٢٤) [النور] أى : متفرقين . وقوله : ﴿وَأَنْ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ (٢) [الليل] أى : متنوع من الحس ومنه السيء وقوله : ﴿.. أَزْوَاجًا مِنْ نَحْتٍ شَتَّى﴾ (٢٧) [طه] مختلفة الطعم والنوع ، وقوله : ﴿فَتَعْبَهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ (٢٨) [الحشر] أى : متفرقة . [القاموس القويم - بتصرف] .

إذن : فالآفة أن تنقل مهمة نوع إلى مهمة نوع آخر ، سواء أكان في الزمان أو في الإنسان ، واقرأ جيداً قول الحق سبحانه :

﴿إِنْ سَأَلْتُمْ لَنْبِيَّ (١)﴾ [الليل]

فكل فرد من أفراد الكون له مهمة وله سعى يختلف عن سعى الآخرين .
وهنا في الآية - التي نحن بصدد خواطرنا عنها - يُنهي الحق سبحانه الآية فيقول :

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧)﴾ [يونس]

ولفائل أن يقول : لم يقل ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَبْصُرُونَ﴾ .
ونقول : لتنبه إلى أن الحق سبحانه حين يتكلم عن زمان قهري يبين في هذا الزمان مهمته ، وهو القائل في صدر الآية ووسطها :

﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا - (٦٧)﴾ [يونس]

فالعلة في هذه الآية هي سكون الليل ، لا حركة النهار ، والعين في الليل لا تؤدي مهمتها ، بل السمع هو الذي يؤدي مهمته .
والحق سبحانه هو القائل :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا (١) إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِثْمِكُمْ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١)﴾ [القصص]

أي : أن أحداً لن يستطيع الحركة في مثل هذا الليل السرمدي ولا أحد سيتبين شيئاً .

(١) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . وليل سرمد : طويل . قال الزجاج : السرمد الدائم . [اللسان العرب : مادة (س ر م د)] .

سورة التوبة

والحق سبحانه هو القاتل *

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهِ غَيْرِ
اللَّهُ يَأْتِيَكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [٧٢]

إذن : فقد جاء الحق سبحانه في آية الليل بالسمع^(١) ، وجاء في آية النهار بالابصار ، وبعد أن تكلم الله سبحانه عن مجال الحركة بالنهار والراحة في الليل ، يأتي الكلام عن الينبوع الذي يجب أن تصدّر عنه الحركة أو السكون ، وهو ضرورة الامتثال لأمر إله واحد حتى لا تصطدم حركتك بأمر إله آخر يقول ما يتناقض حركة الإله الأول .

وكما تتحرك في النهار ، وترتفع في الليل لا بد أن تكون حركتك صادرة عن أمر واحد ، هذا الأمر الواحد صادر من الأمر الواحد ، وهو الله تعالى الذي تعبه بلا شريك ، ومن يقول بغير ذلك إنما يربك حركة الحياة .

والله سبحانه يقول:

﴿إِذَا لَذَّيْبَ كُلِّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ..﴾ (٩١) ﴿[المؤمنون]﴾

وَالَّذِي يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ يُعَذِّبُكَ:

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ
لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ
سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

(١) وهنا يلتفتنا فضيلة الشيخ إلى الإعجاز القرآني في أسرارهِ ، حيث وضع الحُجاسة في مكان وظبعتها التي تستطيع الأداء فيه ، فجعل الإبصار للنهار لأنه مكانه ، وجعل السمع لليل حيث إن البصر لا يؤدي مهمته ، وإغما المهمة هنا تخصص لسمع ، وهذا كمال الأدب وجلال الأسرار في كتاب الله ملاحظة بيان ، ومعنى برقي

ونفس نص الآية الكريمة يكذبهم فيما يدعونه .

ومثال ذلك : أنك حين تقول : « اتخذ فلان بيتاً » أى : أن فلاناً له ذاتية سابقة على اتخاذه للبيت ، وبها اتخذ البيت ، فإذا قيل : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً ۖ ﴾ (٦٨) .

أيرس!

فهذا اعتراف منهم بكمال الله تعالى وذاتيته قبل أن يتخذ الولد .

وهم قد اختلفوا فى أمر هذا الولد ، فمنهم من قال : إن الملائكة هن بنات الله وكذبهم الحق سبحانه فى ذلك ، ومنهم من قال : عزير ابن الله وهم اليهود^(١) وقد كذبهم الله سبحانه فى ذلك ، وطائفة من المسيحيين قالوا : إن المسيح ابن الله^(٢) ، وكذبهم الحق سبحانه فى ذلك^(٣) .

ثم ما الداعى أن يتخذ الله الولد؟

هل استنفد قوته حتى يساعده الولد !؟

وهل يمكن أن يضعف سبحانه - معاذ الله - فيمتد بقوة الولد أو يعتمد عليه!؟

مثلما يقال حين يواجه شيخ شاباً ، ويعتدى الشاب على الشيخ ، فيقال للشاب : احذر ؛ إن لهذا الشيخ ولداً أقوى منك ؛ فيرتدع الشاب ، أو أن يقول الشيخ للشاب : إن أبنائى يفوقونك فى القوة ، وفى هذا اعتداد بالأولاد .

ويريد الحق سبحانه أن يغفل كل هذه الدعاوى ولتكون حركة الحياة متماسكة متلازمة ، لا متعارضة ولا متناقضة ؛ لذلك ينبغي أن يكون

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزُّهُنَّ ابْنُ اللَّهِ ۖ ﴾ (٢٤) . [التوبة] .

(٢) يقول الله عز وجل : ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ﴾ (٣١) . [التوبة] .

(٣) يقول الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْرَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَاتْلُهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُفَكِّرُونَ ﴾ (٥٢) . [التوبة] .

المحرك إليها واحداً تصدر منه كل الأوامر ، فلا تعارض في تلك الأوامر ؛ لأن الأوامر إن صدرت عن متعدد فحركة الحياة تتصادم بما يبدد الطاقة ويقسد الصالح .

ولذلك لا بد أن يكون الأمر صادراً من أمر واحد يُسَلَّم له كل أمر ، وهذا الإله منزّه عن كل ما تعرفه من الأغيار ، فله تنزيه في ذاته ؛ فلا ذات تشبه ذاته ، ومنزّه في صفاته ؛ فلا صفة تشبه صفته ، ومنزّه في أفعاله ؛ فلا فعل يشبه فعله ^(١) .

وحتى نضمن هذه المسألة لا بد أن يكون الإله واحداً ، ولكن بعضاً من القوم جعلوا لله شركاء ، ومن لم يجعل له شريكاً ، توهم أن له ابناً وولداً ،

ونقول لهم :

إن كلمتكم : ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ..﴾ (٦٨) ﴿ترد عليكم ؛ لأن معنى اتخاذ الولد أن الألوهية وُجِدَتْ أولاً مستقلة ، وبهذه الألوهية اتخذ الولد . ومن المشركين من قال : إن الملائكة بنات الله .

فردّ عليهم الحق سبحانه :

﴿الْكُمُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ (٢٦) ﴿تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ ^(٢) (٢٢) ﴿[النجم]

والكمال كله لله سبحانه فهو كمال ذاتي ؛ ولذلك يأتي في وسط الآية

ويقول تعالى :

(١) وذلك مصداق لقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٢١) ﴿[الشورى] ، فهو سبحانه لا مثل له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ،

(٢) ضار في الحكم : أى : جار . وقسمة ضيزى وضوزى أى : جائزة ليس فيها حق ولا عدل . [السان العرب : مادة (ض ي ز) - بتصرف] .

[يونس]

﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ .. (٦٨)﴾

وسبحانه تعنى : التنزيه ، وهو الغنى أى : المستغنى عن معين
كما تستعينون أنتم بأبنائكم ، وهو دائم الوجود ، فلا يحتاج إلى ابن مثل
البشر ، وهم أحداث تبدأ وتنتهى ؛ لذلك يحبون أن يكون لهم أبناء
كما يقول الشاعر :

❦ ابني يا أنا بعد ما أقضى ❦

ويقال : «من لا ولد له لا ذكر له» ، كأن الإنسان لما علم أنه يموت
لا محالة أراد أن يستمر فى الحياة فى ولده .

ولذلك حين يأتى الولد للإنسان يشعر الإنسان بالسرور والسعادة ،
والجاهل هو من يحزن حين تلد له زوجته بنتاً ؛ لأن البنت لن تحمل الاسم
لمن بعدها ، أما الولد والحفيد فيحملان اسم الجد ، فيشعر الجد أنه ضمن
الذكر فى جيلين .

إذن : فاتخاذ الولد إما استعانة وإما اعتداد ، والحق سبحانه غنى عن
الاستعانة ، وغنى عن الاعتداد ؛ لأنك تعتد بمن هو أقوى منك ، وليس
هناك أقوى من الله تعالى ، وهو سبحانه لا يحتاج لامداد ؛ لأنه هو الأول
وهو الآخر ، وعلى ذلك ففكرة اتخاذ الولد بالنسبة لله تعالى لا تصح على
أى لون من ألوانها .

ولذلك يقول الحق سبحانه مرادفاً لتلك الفكرة : ﴿سُبْحَانَهُ^(١)﴾
لأنها تقطع كل احتمالات ما سبقها ، ويُشيع ذلك بقوله : ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ لأنه

(١) سُبْحَ سُبْحَ من باب نَح : سَبَحَ ، ومباعدة : عام ومر من الماء . ومن المجاز سُبْحَ الجواد ، أى جرى
كأنه يسبح فى الماء ، ومن المجاز سُبْحَتِ النجوم ، أى : سارت فى أفلakها . قال تعالى : ﴿... كُلُّ لِي
فَلَكَ يَسْجُدُونَ (٢٤)﴾ [الأنبياء] وعملت معاملة العقلاء لانتظامها فى سيرها . وسُبْحَ اسم ربك : نزه
اسمه عن كل نقص وصفه بكل كمال أو قل : سبحان الله ومعناها أنزه الله تنزيهاً عن النقص وأصفه
بالكمال ، وهو منصوب على المصدرية ، ومصدر ثابت عن فعله . [القاموس القويم - بصرف]

غنى عن اتخاذ الولد ، وغنى عن كل شيء ، وقوله : ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له ، والتنزيه : ارتفاع بالمُنْتَزَهُ عن مشاركة شيء له - فى الذات أو الأفعال . وإذا ورد شيء هو لله وصفٌ ولخَلْقِهِ وصفٌ ، فإياك أن تأخذ هذه الصفة مثل تلك الصفة .

فإن قابلت غنياً من البشر ، فالغنى فى البشر عَرَضٌ ، أما غنى الله تعالى ففى ذاته سبحانه .

وأنت حى^(١) والله سبحانه حى ، ولكن أحياتك كحياته؟ لا ؛ لأن حياته سبحانه لم يسبقها عدم ، وحياتك سبقها عدم ، وحياته سبحانه لا يلحقها عدم ، وأنت يلحق حياتك العدم .

والله موجود وأنت موجود ، لكن وجوده سبحانه وجود ذاتي ، ووجودك وجود عَرَضِي . وإذا قال الحق سبحانه :

إِنْ لَهُ - سبحانه وتعالى - بَدَأَ ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۖ﴾ (١١) ﴿[الفتح]

فلا يمكن أن تكون يد الله سبحانه مثل يدك ؛ لأن ذاته سبحانه ليست كذاتك ، وصفاته سبحانه ليست كصفاتك ، وهو سبحانه القادر الأعلى ، ولا يمكن أن يكون مقدوراً لأحد .

ولذلك حين يتجلى الله سبحانه لخلقهِ ، فسوف يتجلى بالصورة التى

(١) حَيٌّ يَحْيَا . كَرَضِي يَرْضَى وحى بالإدغام يعيا حياة وحيواناً صدمات فهو حى ، وهو خاص بكل ذى روح ، ويطلق مجازاً على الأرض . قال تعالى : ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ﴾ (٢١) ﴿[فاطر] ويستعار أيضاً لمعنى الصلاح والإيمان ، قال تعالى : ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِنَّا فَأَحْيَاهُ ۖ﴾ (١٧٢) ﴿[الأنعام] والحى من أسماء الله الحسنى ، قال تعالى : ﴿لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ ۖ﴾ (٢٥٥) ﴿[البقرة] والحياة الدنيا تقابلها الحياة الآخرة ، قال تعالى : ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ (١٨٥) ﴿[آل عمران] وللحيا : مصدر ميمى بمعنى الحياة ، قال تعالى : ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٠٦) ﴿[الأنعام] أى : خيائى وموتى .

تختلف عن كل خيال العبد ، وهذه الصورة تختلف من عبد إلى آخر ، ولو كانت الصورة التي يتجلى بها الله سبحانه مقدوراً عليها لكان معنى ذلك أن هناك ذهنًا بشرياً قد قدر على الإحاطة بها . وما خطر ببالك فإلله سبحانه بخلاف ذلك ؛ لأن ما خطر بالبال مقدور عليه لأنه خاطر ، والله سبحانه لا يتقلب أبداً إلى مقدور عليه .

وأنت حين تأتي بمسألة في الحساب أو الهندسة - مثلاً - وتعطيها لتلميذ ويقوم بحلها ، فمعنى ذلك أن عقله قد قدر عليها ، أما إن جئت لتلميذ في المرحلة الإعدادية - مثلاً - بمسألة هندسية مقررّة على طلبة كلية الهندسة ؛ فعقله لن يقدر عليها .

إذن : لو أن الإنسان قد أدرك شيئاً عن الله غير ما قاله الله لا نقرب الإله إلى مقدور عليه ، والحق سبحانه مُنَزَّهٌ عن ذلك ؛ لأنه القادر الأعلى الذي لا يتقلب أبداً إلى مقدور .

لذلك يعلمنا الحق سبحانه أن نقول تنزيهاً لله تعالى كلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ ، وهو التنزيه الواجب عن كل شيء يخطر ببال الإنسان عن الله تعالى ، وهذه السبحانية أو هذا التنزيه هو صفة ذاتية في الله تعالى ، قبل أن يوجد شيء ، وبعد أن خَلَقَ الخَلْقَ ، فعلى كل المخلوقات تنزيهه ، وبدأ الخلق في التسبيح .

والتسبيح فعل مستمر لا ينقطع ولا ينقضي ؛ لذلك تجد استدلالات القرآن في السور التنزيهية^(١) تؤكد ذلك ، فيقول الحق سبحانه :

(١) فتجد التسبيح في الماضي : ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَكِيمُ﴾ ﴿١﴾ ﴿[الحديد] وفي المضارع : ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢﴾ [التغابن] وفي الأمر : ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿١﴾ ﴿[الأعلى] وفي المصدر سبحانه ، وبهذا نلاحظ أن الماضي يسبحه ، والمستقبل يسبحه والحال يذكره ، والكون مع الزمن في تسبيح مستمر : ﴿... وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَسْبَحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ خَلِيفاً نَّظَرًا﴾ ﴿١٥﴾ [الأنعام] .

﴿سَبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا
الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ...﴾ [١] [الإسراء]

وإياك أن تظن أن محمداً ﷺ قد سرى بقرار من نفسه ، بل الذي أسرى به هو الحق سبحانه ، فلا تظن أن المسافة يمكن أن تمنع مشيئة الحق المطلقة ، ولا المكان ، ولا الزمن ؛ لأن الفعل منسوب لله تعالى ، ولا يمكن أن نقيس فعلاً منسوباً لله تعالى بقياس الزمان أو المكان ، أو حسب قانون الحركة النسبية ؛ لأن الحق سبحانه له طلاقة القدرة ، وأنت بشر مجرد حادث محدود الزمان والمكان .

وأنت إذا سرت من هنا إلى الإسكندرية - مثلاً - على قدميك فستقطع المسافة في أسابيع ، وإن امتطيت دابة فقد تأخذ في الوصول إلى الإسكندرية أياماً ، وإن ركبت سيارة فموف تقطع المسافة في ساعتين ، وإن ركبت صاروخاً ، فستصل خلال دقائق .

أى : أنك كلما زادت قوة أداة الوصول قلَّ زمن الوصول ، وهذا مرجز نظرية الحركة ، وإذا كان الذي أسرى هو الله سبحانه ، وهو قوة القوى ؛ لذلك لا يمكن أن يقاس بالنسبة لمشيئة قوة أخرى ، أو أن يقاس الأمر ببعد أو قرب المكان أو كيفية الزمان الذي نعرفه .

وإياك أن تفهم أن إسرائ الله تعالى مثل إسرائك ؛ لأن الفعل إنما يأخذ قوته من الفاعل ، وما دام الفاعل هو الله سبحانه فلا أحد بقادر أن يحد أفعاله بزمن .

وقد استهل الحق سبحانه سورة الإسراء بالسبحانية وآياتها الأولى تتكلم في أدق شيء تكلم فيه رسول الله ﷺ عن ذاته بأنه قد أسرى به ، وبذلك

أثبت بحادث الإسراء حقيقة المعراج ، وأن الناموس^(١) قد خُرق له ،
وحدثنا عما نعلم لنصدق حديثه عما لا نعلم ، وحتى نفيس ما لا نعلم
على ما نعلم ، فيتأكد لنا صدقه ﷺ في حديثه عما لا نعلم .

كلمة «سبحانه» -إذن - هي للتعزية ، وهي لله تعالى أولاً قبل أن يخلق
الخلق ، فقد شهد سبحانه لذاته أنه إله واحد ، ثم شهدت الملائكة ،
ويتكرر التسبيح من كل المخلوقات التي أوجدها الله سبحانه .

وأنت تجد سور القرآن الكريم التي جاء فيها التسبيح مؤكدة أنه سبحانه
مُنَزَّه ، وله التسبيح من قبل أن يخلق الخلق ، ثم خلق الخلق ؛ ليسبحوا ،
ففي سورة الحديد يقول سبحانه :

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ... (١)﴾

[الحديد]

ويقول سبحانه في سورة الحشر :

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ... (١)﴾

[الحشر]

فهل سبَّح كل من في السموات ومن في الأرض مرة واحدة وانتهى
الامر؟ لا ؛ لأن الله سبحانه يقول :

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ... (١)﴾

[الجمعة]

ويقول سبحانه في سورة التغابن :

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ

[التغابن]

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾

(١) نواميس الكون : الأوامر التي أودعها الله -سبحانه وتعالى- في الكون، من قوانين تنظم حركة أجزائه ومكوناته .

إِذْ قَالَ سُبْحَانَهُ لِلَّهِ أَزْلاً ، وَسَبَّحَ وَيَسْبُحُ الْخَلْقُ وَكُلُّ الوجود بعد أن خلقه الله سبحانه ، سموات وأرض وما فيهما ومن فيهما ، وما بقى إلا أنت أيها الإنسان فسبح باسم ربك الأعلى .

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ۖ ۞ (٦٨) ﴾ [يونس]

وعلة التسبيح والتنزيه عن أن يكون له ولد تأتي في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ ؛ لأن اتخاذ الولد إنما يكون عن حاجة ، إما استعانة ، وإما اعتماداً ، وإما اعتداداً ، وإما امتداداً ، وكل هذه أمور باطلة بالنسبة له سبحانه ، وهو الحق الأعلى ، وهو سبحانه القاتل في أية أخرى :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُونٌ ۖ ۞ (٦٦) ﴾ [البقرة]

والقنوت^(١) معناه : الإقرار بالعبودية لله تعالى والخضوع له وإطاعته .

ويقول سبحانه في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ إِنْ عِبَدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۖ ۞ (٦٨) ﴾ [يونس]

وإن قد تأتي للنقي في مثل قول الحق سبحانه :

﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ۖ ۞ (٢) ﴾ [المجادلة]

وفي قول الحق سبحانه هنا :

(١) قنوت يقتضيه كمنع - ذل وخضوع ليد ، وقت المؤمن بالله : أطاعه وأقر له بالعبودية ، وقت في صلاته خشع وأطمان ، وقت دعا وأطال الدعاء ، والقنوت الطاعة والدعاء . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مَكُنْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَنَعْمَلْ مَا نَحْنُ بِأَجْرِهَا مَرَّتَيْنِ ۖ ۞ (٦٨) ﴾ [الأحزاب] وقوله : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُونٌ ۖ ۞ (٦٦) ﴾ [البقرة] أي : خاصمون معترفون بالوحيته مطيعون - [القاموس المقوم] - يتصرف

﴿ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ۖ ﴾ (٦٨) [يونس]

أى : ليس عندكم حُجَّةٌ تدل على أن الله تعالى اتخذ ولدًا .
ولذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٦٨) [يونس]

أى : أنكم لا تعلمون إعلاماً من الله تعالى بذلك ، فلا إعلام عن الله إلا من الله ، وليس لأحد أن يُعلم عن ربه ، فهو سبحانه من يُعلم عن نفسه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ إِنِ الْكَافِرِينَ يَفْقَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
لَا يُفْلِحُونَ ﴾ (٦٩)

والحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن الإيمان وثمرته ونهايته يأتى بالفلاح كنتيجة لذلك الإيمان ، فهو سبحانه القائل :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ ﴾ (٩) [الشمر]

وهو سبحانه القائل :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١) [المؤمنون]

ويقول أيضاً :

﴿ أَوَلَيْكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١٥٧) [الأعراف]

وكلها من مادة «الفلاح» وهى مأخوذة من الأمر الحسى المتصل بحياة الكائن الحى ، فمقومات وجود الكائن الحى : نَفْسٌ ، وماء ، وطعام ،

سُورَةُ يُوسُفَ

٥٦٠٧٩

والْتَنَفَسُ يَأْتِي مِنَ الْهَوَاءِ الَّذِي يَحِيطُ بِالْأَرْضِ ، وَالْمَاءُ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ
أَوْ يُسْتَنْبَطُ مِمَّا تَسْرِبُ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ . وَالطَّعَامُ يَأْتِي مِنَ الْأَرْضِ ، وَكُلُّ
مَا أُصْلَحَ مِنَ الْأَرْضِ يُسْتَخْرَجُ بِالْفَلَاحَةِ .

لِذَلِكَ نَقُولُ : إِنَّ الْفَلَاحَةَ هِيَ السَّبَبُ الْاِسْتَبْقَائِي لِلْحَيَاةِ ، فَكَمَا يُفْلِحُ
الْإِنْسَانُ الْأَرْضَ ، وَيَشَقُّهَا وَيَذَرُ فِيهَا الْبَذْرَ ، ثُمَّ يَرْوِيهَا ، ثُمَّ تَنْضِجُ
وَتَخْرُجُ الثَّمَرَةُ ، وَيُقَالُ : أَفْلَحَ ، أَيْ : أَتَجَتُ زِرَاعَتَهُ تَتَاجَأُ طَيِّباً .

وَشَاءَ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ أَنْ يُسَمَّى الْحَصِيلَةُ الْإِيمَانِيَّةُ الطَّيِّبَةُ بِالْفَلَاحِ .

وَيَبَيِّنُ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَةِ ، فَإِنْ كُنْتَ تَرِيدُ ثَمَرَةَ
فَابَذِلِ الْجَهْدَ ،

وَإِيَّاكَ وَالظَّنَّ أَنَّ الدِّينَ حِينَمَا يَأْخُذُ مِنْكَ شَيْئاً فِي الدُّنْيَا أَنَّهُ يَنْقُصُ
مَا عِنْدَكَ ، لَا ، بَلْ هُوَ يُتَمَّى لَكَ مَا عِنْدَكَ ^(١) .

وَالْمَثَلُ الَّذِي أَضْرِبُهُ دَائِماً - وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى - نَجْدُ الْفَلَاحِ حِينَ يَزْرَعُ
فَدَاناً بِالْقَمْحِ ، فَهُوَ يَأْخُذُ مِنْ مَخْزَنِهِ إِرْدَباً ؛ لِيَسْتَخْدِمَهُ كِبْذُورٌ فِي الْأَرْضِ ،
وَلَوْ كَانَتْ امْرَأَتُهُ حَمَقَاءَ لَا تَعْرِفُ أَصُولَ الزَّرَاعَةِ سَتَقُولُ لَهُ : «أَنْتِ أَخَذْتِ
مِنَ الْقَمْحِ ، وَكَيْفَ تَتْرَكِ عِيَالَكَ وَأَنْتِ تَنْقُصُهُمْ مِنْ قَوْنِهِمْ ؟ »

هَذِهِ الْمَرْأَةُ لَا تَعْلَمُ أَنَّهُ أَخَذَ إِرْدَبَ الْقَمْحِ الْمُخْزَنَ ؛ لِيَعُودَ بِهِ بَعْدَ
الْحَصَادِ عَشْرَةَ أَوْ خَمْسَةَ عَشَرَ إِرْدَباً مِنَ الْقَمْحِ .

كَذَلِكَ مَطْلُوبُ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فِي الدُّنْيَا قَدْ يَبْدُو وَكَأَنَّهُ يَنْقُصُكَ أَشْيَاءٌ ، لَكِنَّهُ
يُعْطِيكَ ثَمَارَ الْآخِرَةِ وَيَزِيدُهَا .

(١) يَقُولُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ .. ﴾ [الحجر] وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تَغْفُوا مِنْ شَيْءٍ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ يَوَفِّ إِلَيْكُمْ .. ﴾ [الأنفال] وَقَوْلُهُ : ﴿ مِنْ جَاءَ بِالْخَمْسَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَشْهُالٍهَا .. ﴾ [الأهَام]
وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنْ قَرْضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يضاعفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ .. ﴾ [التعاسن]

إذن: فالفلاح مادة مأخوذة من فلاح الأرض وشقها وزرعها لتأخذ الثمرة .
وكما أنك تأخذ حظك من الثمار على قدر حظك من الشعب ومن
العمل ، فذلك أمر الآخرة وأمر الدنيا .

ومثال ذلك: الفلاح الذي يحرق الأرض ، ويحمل للأرض السماد
على الطية ^(١) ، ثم يستيقظ مبكراً في مواعيد الري ، تجدد هذا الفلاح في
حالة من الانشراح والفرح في يوم الحصاد ، وأمره يختلف عما يهمل
الأرض ويقضي الوقت على المقهى ، ويسهر الليل أمام التليفزيون ،
ويأتي يوم الحصاد ليحزن على محصوله الذي لم يحسن زراعته .
وقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴾ ^(٢) [يونس]

أى: هؤلاء الذين يقولون عن الله تعالى أو في الله تعالى بشيء علم من
الله ، هم الذين لا يفلحون .

وأوضحت من قبل أن كل ما يتعلق بالله تعالى لا يُعلم عنه إلا عن
طريق الله . لكن ما الذي يحملهم على الافتراء؟

نعم ، إن كل حركة في الحياة لا بد أن يكون الدافع إليها نفعاً ،
وتختلف النظرة إلى النفع وما يترتب عليه ، فالطالب الكسول المتكبر في
الشوارع ، الراض للتعليم ، لجده راسياً غير موفق في مستقبله ، أما التلميذ
الحريص على علومه ، فهو من يحصل على المكانة اللائقة به في المجتمع ،
والتلميذ الأول كان محدود الأفق ولم ير امتداد النفع وضحامته ، بل قصر
النفع على لذة عاجلة مُضحياً بخير أجل .

(١) الطية : الثابة ، وهي الثابة التي يُركب عليها أى : ظهرها . وجسمها : مضايا . [لسان العرب : مادة
(م ط ي)] .

(٢) يقترون الكذب : يكذبون ، أو يقولون بشيء علم . لا يفلحون : لا يفلحون ولا يتصورون . قال تعالى :
﴿ وَلَقَدْ خَابَ مِنَ الْقُرَى ﴾ [طه] .

والذى جعل هؤلاء يفترضون على الله الكذب هو انهيار الذات ، فكل ذات لها وجود ولها مكانة ، فإذا ما انهارت المكانة ، أحس الإنسان أنه بلا قيمة فى مجتمعه .

والمثل الذى ضربته من قبل بحَلَّاقِ الصحة فى القرية ، وكان يعالج الجميع ، ثم تخرجَ أحد شباب القرية فى كلية الطب وافتتح بها عيادة ، فإن كان حَلَّاقِ الصحة عاقلاً ، فهو يذهب إلى الطبيب ليعمل فى عيادته ممرضاً ، أو (مُرجياً) ، أما إن أخذته العزة بالإثم ، فهو يعاند ويكابر ، ولكنه لن يقدر على دفع بعلم الطبيب .

وكذلك عصاة الكفر ورؤساء الضلال حينما يُفاجأون بمقدم رسول من الله ، فهم يظنون أنه سوف يأخذ السيادة^(١) لنفسه ، رغم أن أى رسول من رسل الله تعالى - عليه السلام - إنما يعطى السيادة لصاحبها ، ألا وهو الحق الأعلى سبحانه .

وحين يأخذ منهم السيادة التى كانت تضمن لهم المكانة والوجاهة والشأن والمعظمة ، فهم يصابون بالانهيار العصبى ، ويحاولون مقاومة الرسول دفاعاً عن السلطة الزمنية .

ومثال ذلك : هو مَقْدُمُ النبى ﷺ إلى المدينة ، وكان البعض يعمل على تنصيب عبد الله بن أبى ليكون مَلِكاً^(٢) ؛ ولذلك قاوم الرجل الإسلام ،

(١) وهذا مخالف لمنطق الرسول ﷺ ومفهوم الدعوة ، حيث عرض عليه الكفار المال والملك والسلطان والجاه ، فاختار رب الكل ، وقال قولته التى سجلها الرمن وحفظها العقول الواعية : « والله ولو وصعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أوأهلك فيه ما تركته » أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٢٦٦) .

(٢) أورده ابن إسحاق فى السيرة أن قوم عبد الله بن أبى كانوا قد نظموا له الحُرُزَ ليُشجروه ثم يملكونه عندهم . فجاهد الله برسوله وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مُصِراً على نفاق وضغن . سيرة ابن هشام (٢/٢١٦) .

وحين لم يستطع آمن نفاقاً ، وظل على عدائه للإسلام ، رغم أنه لو أحسن الإسلام واقترب من رسول الله ﷺ لنال أضعاف ما كان سيأخذه لو صار ملكاً .

وهكذا قادة الضلال وأئمة الكفر ، هم مشفقون على أنفسهم وخائفون على السلطة الزمنية ؛ لأن الرسول حينما يجيء إنما يسوي بين الناس ؛ لذلك يقفون ضد الدعوة حفاظاً على السلطة الزمنية .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن سبب افتراءهم الكذب :

﴿ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثَمَرَاتٍ إِنَّمَا تُرْجَعُهُمْ ثُمَّ نَذَرْنَاهُمْ
الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (٧٠)

ويعزُّ - إذن - على قادة الكفر وأئمة الضلال أن يسلبهم الرياسة والسيادة داع جديد إلى الله سبحانه وتعالى ، ويخافون أن يأخذ الداعي الجديد لله الأمر منهم جميعاً ، لا إلى ذاته ، ولكن إلى مراد به .

ولو كان الداعي إلى الله تعالى يأخذ السلطة الزمنية لذاته ؛ لقننا ذات أمام ذات ، ولكنه ﷺ أوضح أنه يعود - حتى فيما يخصه - إلى الله سبحانه وتعالى .

ويكشف لنا الحق سبحانه الكسب القليل الذي يدافعون عنه أنه :

(١) المتاع . وهو كل ما يتفجع به ويرغب في اقتنائه ، كالأطعمة ، وأثاث البيت ، والسلعة ، والأدوات ، والنال [المعجم الوسيط] والمراد أن الله سبحانه وتعالى يترك الكفار يتمتعون بمتاع الدنيا الزائل - لأن الدنيا كلها لا تساوي عند الله سبحانه جناح بعوضة - ولكنه سبحانه على كفرهم بالعذاب الشديد في الآخرة ويحرمهم من نعيم الجنة . ويقصد بالمتاع أيضاً الزوجة الصالحة مصداقاً لقول رسول الله ﷺ «الدنيا متاع ، وغير متاع الدنيا المرأة الصالحة» .

أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الرضاع - باب غير متاع الدنيا للمرأة الصالحة ، حديث (٥٩) عن عبد الله بن عمرو ، وعند أبي نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٣١٠) زيادة «إن نظر إليها سرتي ، وإن أمرها أطاعته» .

﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا...﴾ (٧٠) ؛ لَأَن كُلًّا مِنْهُمْ يُحِبُّ أَنْ يَقَعَ نَفْسُهُ ، بِحُصْنٍ تَقْدِيرِ الْمُنْفَعَةِ ، وَكَلِمَةِ «الدُّنْيَا» لَا بُدَّ أَنْ مِنْهَا حَقِيقَةُ الشَّيْءِ الْمُنْسُوبَةِ إِلَيْهِ .

وَالْأَسْمَاءُ - كَمَا نَعْلَمُ - هِيَ سَمَاتٌ مُسَمَّيَاتٌ ، فَحِينَ تَقُولُ : إِنَّ فَلَانًا طَوِيلٌ ، فَأَنْتَ تَعْطِيهِ نَبْطَةَ الطَّوِيلِ .

وَحِينَ تَقُولُ : «دُنْيَا» فَهِيَ مِنَ «الدُّنْيَا» أَوْ «الدِّعَاءَةِ» .

وَإِنْ اعْتَبَرْتَ الدُّنْيَا هُوَ طَرِيقٌ مُوَصِّلٌ إِلَى الْقِمَّةِ ، فَهَذَا أَمْرٌ مُقْبُولٌ ؛ لِأَنَّ الدَّرَجَةَ الْأُولَى فِي الْوُصُولِ إِلَى الْأَعْلَى هِيَ الدُّنْيَا ، وَتَلْتَزِمُ بِمَنْهَجِ اللَّهِ تَعَالَى فَتَصْعَدُ عُلُوًّا وَارْتِفَاعًا إِلَى الْآخِرَةِ .

إِذَنْ : فَمَنْ يَصِفُ الدُّنْيَا بِالدِّعَاءَةِ عَلَى إِطْلَاقِهَا يَقُولُ لَهُ : لَا ، بَلْ هِيَ دُنْيَا بِشَرْطٍ أَنْ تَأْخُذَهَا طَرِيقًا إِلَى الْأَعْلَى ، وَلَكِنْ مَنْ لَا يَتَّخِذُهَا كَذَلِكَ فَهُوَ مَنْ يَجْعَلُ مَكَانَتَهُ هِيَ الدِّعَاءَةُ ، أَمَّا مَنْ يَتَّخِذُهَا طَرِيقًا إِلَى الْعُلُوِّ فَهُوَ الَّذِي أَفْلَحَ بِاتِّبَاعِ مَنْهَجِ اللَّهِ تَعَالَى .

إِذَنْ : فَالدُّنْيَا لَيْسَتْ مِنَ الدِّعَاءَةِ ؛ لِأَنَّ الدِّينَ لَيْسَ مَوْضُوعُهُ الْآخِرَةُ ، بَلْ مَوْضُوعُهُ هُوَ الدُّنْيَا ، وَمَنْهَجُ الدِّينِ يُلْزِمُكَ بِـ «افْعَلْ» وَ «لَا تَفْعَلْ» فِي الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةُ هِيَ دَارُ الْجَزَاءِ ، وَالْجَزَاءُ عَلَى الشَّيْءِ لَيْسَ عَيْنَ مَوْضُوعِهِ ، وَأَنْتَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجْعَلَ الدُّنْيَا مُفِيدَةً لَكَ إِنْ جَعَلْتَهَا مَزْرَعَةً لِلْآخِرَةِ .

وإِذَاكَ أَنْ تَحْمِلَ عَلَى أَسَاسِ أَنَّ الدُّنْيَا ^(١) عَمْرُهَا مِائَتَ سَنَةٍ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْنِيكَ كَعَائِشٌ فِي الدُّنْيَا إِنْ طَالَ عَمْرُهَا أَمْ قَصُرَ ، بَلْ يَعْنِيكَ فِي الدُّنْيَا مَقْدَارُ مَكْثِكَ فِيهَا ، وَعَمْرُكَ فِيهَا مَظَنُونَ ، بَلْ وَزَمَنُ الدُّنْيَا كُلِّهِ

(١) وَقَدْ وَصَفَ لَنَا رَبُّ الْعِزَّةِ سُبْحَانَهُ الدُّنْيَا فَقَالَ : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى . ﴾ (٧٢) [النساء] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَرْسَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ فَاسْخَطَ بِهِ نَبَاتَ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَقَفْ بِالْأَنْسِ كَذَلِكَ نَجْعَلُ الْآيَاتِ لِلْعَوْمِ بِعَكْرُونَ (١٢) ﴾ [يونس]

مظنون ، وهناك من يموت وعمره ستة أشهر ، وهناك من يموت وعمره مائة سنة ، وكلُّ يتمنع بقدر ما يعيش ، ثم يرجع إلى الله سبحانه وتعالى . وهؤلاء الذين ضَلُّوا وقالوا على الله سبحانه افتراء ، هؤلاء لن يفلتوا من الله ؛ لأن مرجعهم إليه سبحانه ككل خلقه ، وهؤلاء المُضِلُّون لم يلتفتوا إلى عاقبة الأمر ، ولا إلى من بيده عاقبة الأمر ، ولم يرتدعوا .

ولكن من نظر إلى عاقبة الأمر وأحسن في الدنيا فمرجه إلى حسن الثواب والجنة ، ومن لم ينظر إلى عاقبة الأمر وافترى على الله - سبحانه وتعالى - الكذب فالأب والمآل^(١) إلى العذاب مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (٧٠)

ودرجة العذاب تختلف باختلاف المعذب ، فإن كان المعذب ضعيفاً ، فتعذيبه يكون ضعيفاً ، وإن كان المعذب متوسط القوة ؛ فتعذيبه يكون متوسطاً ، أما إن كان المعذب هو قوة القوى فلا بد أن يكون عذابه شديداً ، وهو سبحانه الحق القائل :

﴿ إِنْ أَخَذَهُ آلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١٠٢)

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن مبدأ تنزيه الألوهية عن اتخاذ الولد ، فهو سبحانه الغنى الذي له ما في السموات والأرض ، وبين لنا سبحانه أننا يجب أن نأخذ المنهج من مصدر واحد وهو الرسل المبلَّغون عن الله تعالى ، شاء الحق سبحانه أن يكلمنا عن موكب الرسالات ؛ لأن الكلام حين يكون كلاماً نظرياً ليس له واقع يستند ، فقد تنسحب النظرية عليه .

أما إن كان للكلام واقع في الكون يؤيد الكلام النظرى ، فهذا دليل على صحة الكلام النظرى ؛ ولذلك فتحن حين نحسب أن تضخم مسألة من

(١) المآل والمآل : المرجع والمصير .

(٢) آليم : صيغة مبالغة من الألم ، وشديد : صيغة مبالغة من الشدة ، أي : شديد الألم .

المسائل في داء اجتماعي ، نحاول أن نصنع منه رواية ، أي : أمراً لم يحدث حقيقة ، ولكننا نتخيل أنه حقيقة ؛ لنبين الأمر النظري في واقع متخيل .

ويقص علينا الحق سبحانه في القرآن قصصاً من الموكب الرسالي ؛ ليبين للكفار : أنكم لن تستطيعوا الوقوف أمام هذه الدعوة ، وأمامكم سجل التاريخ ، وأحداث الرسل مع أممهم ؛ المؤيدين بالمؤمنين ؛ والكفار المعاندين والمعارضين ، فإن كان قوم من السابقين قد انتصروا على رسولهم ، فللكفار الحق في أن يكون لهم أمل في الانتصار على رسول الله ﷺ .^(١)

ولا بد أن يكون هذا الكلام موجهاً إلى أناس لهم علم ببعض أحداث الموكب الرسالي . ولكن قد يكون علم هذا قد بهت ؛ لأن الزمان قد طال عليه ،

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَنلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمُوا إِن كَانَ كِبَرُ عَلَيَّكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِثَانِتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾^(٢)

(١) وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تحت الكافرين وعيرهم على النظر في عاقبة المكذبين والمحرمين ، نحو قوله تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (١٣) [الأنعام] . وقوله تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٣) [التعليل] .

(٢) كبير : عظم وشق عليكم . مقامي : إقامتي بينكم . تذكيري بآيات الله : دعوتي إليكم إلى الإيمان بالله تعالى . فعزمت على قتالي وطردي ، فبالله أمنت ، وبه وثقت ، وعليه اعتمدت وتوكلت . فأجمعوا أمركم : اعزموا على ما تمزجون عليه وادعوا شركاءكم غمة : ملتبساً مبهماً ، أي : كونوا جميعاً بدأ واحدة ضدي ، واقضوا إلي : أي : امضوا إلى ما في أنفسكم وافرغوا منه . ولا تُنظرون : لا تؤخرون ولا تهملون . وشدة إيمان نوح - عليه السلام - بالله تعالى وثقته في نصرته إياه هي التي دعته لأن يتحدى قومه الكافرين هذا التحدي ؛ فكان نصر الله له ، والفرق والهلاك لأعدائه بالظوفان . [مختصر تفسير الطبري - بتصرفه] .

ولفائل أن يقول: ولماذا جاء الله سبحانه هنا بخبر نوح - عليه السلام - ولم يأت بخبر آدم - عليه السلام - أو إدريس - عليه السلام - وهما من الرسل السابقين على نوح عليه السلام ؟

ومن هنا جاءت الشبهة في أن آدم لم يكن رسولا ؛ لأن البعض قد ظن أن الرسول يجب أن يحمل رسالته إلى جماعة موجودة من البشر ، ولم يظن هؤلاء البعض إلى أن الرسول إنما يرسل لنفسه أولاً .

وإذا كان آدم - عليه السلام - أول الخلق فهو مُرسل لنفسه ، ثم يبلغ من سوف يأتي بعده من أبنائه .

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى التجربة لآدم - عليه السلام - في الجنة ، فكان هناك أمر ، وكان هناك نهى هو ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ۖ ۞ (٢٥) ﴾ [البقرة]

وحذّره من الشيطان ^(١) ، ثم وقع آدم عليه السلام في إغواء الشيطان ، وأنزله الله تعالى إلى الأرض واجتباؤه ^(٢) ، وتاب عليه ، ومعه تجربته ، فإن خالف أمر ربه فسوف يقع عليه العقاب ، وحذّره من اتباع الشيطان حتى لا يخرج عن طاعة الله تعالى .

(١) الشيطان : كل عادم متمرّد من الإنس والجن ، والشيطان من الجن مخلوق حيث خلق من النار ، وهو عدو للإنسان يغويه بالشر إلا من حفظه الله بإيمانه يقول الحق : ﴿ وَحَفَظَاهُمَا مِنْ كُلِّ خَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۞ (٧) ﴾ [الحجر] أي : حفظ السماء من عبث الشياطين وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۖ ۞ (٣٦) ﴾ [فاطر] وقال : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَفْسٍ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ۖ ۞ (١٢٠) ﴾ [الأنعام] [الشموس القويم - بتصرف]

(٢) اجتباؤه : اصطفاه واختاره ، ومصداقه قوله تعالى عن آدم : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۖ ۞ (٢٠) ﴾ [طه] .

إذن : فقد أعطاه الحق سبحانه المنهج ، وأمره أن يباشر مهمته في الأرض ؛ في نفسه أولاً ، ثم يبلغه لمن بعده ،

وكما علمه الحق سبحانه الأسماء كلها ، علم آدم الأسماء لأبنائه فتكلموا : وكما نقل إليهم آدم الأسماء نقل لهم المنهج ، وقد علمه الحق سبحانه الأسماء ؛ ليعمر الدنيا ، وعلمه المنهج ؛ ليحسن العمل في الدنيا ؛ ليصل إلى حسن جزاء الآخرة .

واقراً قول الحق سبحانه وتعالى :

[طه]

﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١)﴾

ويتبعها الحق سبحانه بقوله تعالى :

[طه]

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ . . (١٢٢)﴾

ومعنى الاجتباء : هو الاصطفاء بالرسالة لنفسه أولاً ، ثم لمن بعده بعد ذلك ، والحق سبحانه هو القائل :

[البقرة]

﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى . . (٢٨)﴾

والهدى : هو المنهج المنزل على آدم عليه السلام ، والرسالة ليست إلا بلاغ منهج وهدى من الله سبحانه للخلق .

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

[الإسراء]

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)﴾

فالسابقون لنوح - عليه السلام - هم من أبلغهم آدم عليه السلام ، والدليل هو ما جاء من خبر ابنى آدم في قول الحق سبحانه :

﴿وَائْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ (٢٧) [المائدة]

وهما قد قدما القربان إلى الله تعالى .

إذن : فخير الألوهية موجود عند ابني آدم بدليل قول الحق سبحانه :

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٧) [المائدة]

إذن : فهم قد أقروا بوجود الله تعالى ، وأيضاً عرفوا النهي ؛ لأنه في إحدى الآيتين قال :

﴿لَنْ يَسُطَّ (٢٨) إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٨) [المائدة]

إذن : فالذين جاءوا بعد آدم - عليه السلام - عرفوا الإله الواحد ، وعلموا المنهج .

إذن : فالذين يقولون : إن آدم - عليه السلام - لم يكن رسولاً ، نقول لهم : اقهموا عن الله جيداً ، كان يجب أن تقولوا : هذه مسألة لا تفهم فيها ، وكان عليهم أن يسألوا أهل الذكّر ليفهموا عنهم أن آدم - عليه السلام - رسول ، وأن من أولاده قابيل وهايل ، وقد تكلمنا في التقوى .

أما لماذا جاء الحق سبحانه هنا بالحديث عن نوح ، عليه السلام ، فلنا أن نعلم أن آدم عليه السلام هو الإنسان الأول ، وأنه قد نقل لأولاده المنهج

(١) القربان : هو ما يتقرب به العبد إلى الله أو إلى الألهة الزعمية ، وقد كان أحد أبناء آدم صاحب غم ، فتقرب أكرم غمه وأسمتها وأحسنها طيبة بها نفسه ، أما الآخر فكان صاحب حرث فقرب أشمر محرثه غير طيبة بها نفسه ، فتقبل الله قربان صاحب الغنم الذي قدم أفضل ما عنده طيبة بها نفسه . انظر تفسير ابن كثير (٤٢/٢) .

(٢) بسطت : مددت .

المُبَلَّغَ لَهُ ، وَدَلَّاهُمْ عَلَى مَا يَنْفَعُهُمْ ، ثُمَّ طَالَ الزَّمَنُ وَنَشَأَتِ الْغَفْلَةُ ، فَجَاءَ
إِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ تَبَعَتْهُ الْغَفْلَةُ ، إِلَى أَنْ جَاءَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَهُنَا يَأْتِي لَنَا الْحَقُّ سَبْحَانَهُ بِخَبَرِ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي قَوْلِهِ :

﴿وَآتَىٰ عَلَيْهِمُ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ .. (٧٦)﴾ [يونس]

وَالنَّبَأُ : هُوَ الْخَبَرُ الْهَامُ الَّذِي يَلْفِتُ الذِّهْنَ ، وَهُوَ الْأَمْرُ الظَّاهِرُ الْوَاضِحُ .

وَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ يَقُولُ :

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣)﴾

[النَّبَأُ]

إِذَنْ : فَالنَّبَأُ هُوَ الْخَبَرُ الْهَامُ الْمُلْفِتُ ، وَقَدْ جَاءَ هُنَا خَبَرُ نُوحٍ - عَلَيْهِ
السَّلَامُ - الَّذِي يُبَلِّغُ قَوْمَهُ أَيْ : يَخَاطِبُهُمْ ، وَهُوَ قَدْ شَهِدَ لِنَفْسِهِ أَنَّهُ رَسُولٌ
يُبَلِّغُ مِنْهُجًا .

وَكَلِمَةُ «قَوْمٌ» لَا تَطْلُقُ فِي اللُّغَةِ إِلَّا عَلَى الرِّجَالِ ^(١) ، يَوْضَحُ الْقُرْآنُ ذَلِكَ
فِي قَوْلِ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ :

﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَمِيَ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ
عَمِيَ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ .. (١١)﴾ [الحجرات]

إِذَنْ : فَالْقَوْمُ هُمُ الرِّجَالُ ، وَالْمَرْأَةُ إِنَّمَا يُبْنَى أَمْرُهَا عَلَى السَّرِّ ، وَالْحَرَكَةُ
فِي الدُّنْيَا لِلرَّجُلِ ، وَقَدْ شَرَحْنَا ذَلِكَ فِي حَدِيثِ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ لِآدَمَ - عَلَيْهِ
السَّلَامُ - عَنْ إِبْلِيسَ ، فَقَالَ تَعَالَى :

(١) القوم : جماعة من الرجال ليس معهم نساء . ويستعمل لفظ القوم فيشتمل الأمة كلها رجالاً ونساءً ، مثل قوم نوح وقوم إبراهيم . قال ابن منظور في اللسان (مادة قوم) : «ربما دخل النساء فيه على سبيل التبع ؛ لأن قوم كل نبي رجال ونساء» .

﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (١١٧) ﴿

[طه]

ولأن الخطاب لآدم فقد قال الحق سبحانه: ﴿فَتَشْقَى﴾ (١١٧) ﴿ [طه]

ولم يقل: فتشقى؛ مما يدل على أن المرأة لا شأن لها بالأعمال التي خارج البيت والتي تتطلب مشقة، فالمرأة تقرأ^(١) في البيت؛ لتحتضن الأبناء، وتُهيئ السكن للرجل بما فيها من حنان وعاطفة وقرار واستقرار،

أما القيام والحركة فللرجل.

والحق سبحانه يقول:

﴿فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (١١٧) ﴿ [طه]

إذن: فالكدح للرجل ومتطلبه القيام لا القعود.

ثم يقول الحق سبحانه على لسان نوح - عليه السلام:

﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي ..﴾ (٧١) ﴿ [يونس]

وهنا يُحسِّن نوح قومه بإضافات التحنن، أي: جاء بالإضافة التي تُشعر المخاطبين بأنه منهم وهم منه، وأنه لا يمكن أن يغشهم فهم أهله، مثل قول النائب الذي يخطب في أهل دائرته الانتخابية: «أهلي وعشيرتي وناخبي» وكلها اسمها إضافة تحنن.

وكذلك مثل قول لقمان لابنه:

﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) ﴿ [لقمان]

(١) القر في البيت: الاستقرار فيه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ ثَرْجُ الْعَاعِلَةِ الْأُولَى﴾ (٢٢) ﴿ [الأحزاب].

وقوله :

﴿يَا بَنِي إِدْرِيصُ إِنَّا نَكُ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ۖ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمُوتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (١٦) [لقمان]

وقوله :

﴿يَا بَنِي إِدْرِيصُ أَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ﴾ (١٧) [لقمان]

وهذه إضافات التحنن وفيها إيناس للسامع أن يقرب ويستجيب للحق .

﴿يَا قَوْمُ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي ۖ﴾ (٢١) [يونس]

والكثاف والياء والراء تأتي لمعنيين :

الأول : كبر السن ، وهي : كبر يكبر .

والثاني : العظمة والتعظيم ، إلا أن التعظيم يأتي لبيان أنه أمر صعب على النفس ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿.. كَبُرَتْ ۖ﴾ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ [الكهف]

[الكهف]

أى : أن هذه الكلمة التي خرجت من أفواههم أمر صعب وشاق ، وهي

قولهم :

(١) مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ : رُتَّة حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ، والجردل : نبات عشبي ينبت في الحقول وعلى حواشي الطرق ، تستعمل بزوره في الطب ، ومنه يزور يتمل بها الطعام . الواحدة خردلة . ويضرب به المثل في الصغر ، يقال : ما عندي خردلة من كذا ، [المعجم الوسيط : مادة (خ ر د ل)] .

(٢) ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۖ﴾ (٥) [الكهف] أى : أن قول الكفار بأن لله - سبحانه وتعالى - عما يقولون - ولداً ، قول فيه خطأ كبير ، لأن الله سبحانه منزّه عن الصاحبة والأولاد ، وعن الشركاء والأنداد . قال تعالى : ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا اتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا﴾ (٢٢) [مريم] . وقال سبحانه : ﴿أَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٤) [يونس] من إثبات الولد له ، والولد يقتضى للحانسة والمثابة ، والله تعالى لا يجانس شيئاً ولا يشابه شيئاً .

﴿.. قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [١] ﴿[الكهف]

وهذه الكلمة إنما تعظم على المؤمن ، وهي مسألة صعبة لا يمكن قبولها فلا يوجد مؤمن قادر على أن يقبل ادعاء خلق من خلق الله تعالى أن له سبحانه ولداً .

ومرة تكون العظمة من جهة أخرى ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ..﴾ [١٢] ﴿[الشورى]

أى : عَظُمَ على المشركين ، وَصَعُبَ على أنفسهم ، وَشَقُّ عَلَيْهِمْ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ من أن الإله هو واحد أحد ، ولا سلطان إلا له سبحانه .

وهكذا ، إن كانت الكلمة مناقضة للإيمان فهي تكبر عند المؤمنين ، وإن كانت الكلمة تدعو الكافرين إلى الإيمان فهي تشق عليهم .

وهنا يأتي على لسان سيدنا نوح عليه السلام :

﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي^(١) ..﴾ [٢١] ﴿[يونس]

ونحن نعلم أن سيدنا نوحاً - عليه السلام - مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً .

(١) المقام : مصدر ميمي بمعنى القيام واسم مكان القيام الحسى ، ويطلق مجازاً على المكانة والمنزلة الأدبية ، وقوله : ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ..﴾ [البقرة] أى : مكان قيامه المسجد الحرام . وقوله : ﴿وَتَكُونُ مِنْ مَقَامِ كَرَمٍ﴾ [الشعراء] أى : موطن فيه خيرات . وقوله : ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصافات] أى : منزلة معلومة . وقوله : ﴿وَيَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ ..﴾ [يونس] أى : قيامى بالدعوة إلى الله وتذكيركم بآياته ، ومقام هنا مصدر ميمي .

والمقام (بالضم) مصدر ميمي من أقام الرباعي المزيد بالهمزة بمعنى الإقامة . واسم مكان واسم زمان . وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب] أى : لا إقامة لكم فى أمن مع المجاهدين فارجعوا إلى بيوتكم . . [القاموس القويم - بتصرف] .

أى : أن حياته طالت كثيراً بين قومه ، كما أن تقريعه للكافرين جعله ثقيلاً عليهم .

أو أن : ﴿ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي ۖ ﴾ (٧١)

تعنى : أنه حملهم ما لا يطيقون ؛ لأن نوحاً - عليه السلام - أراد أن يُخرجهم عما ألفوا من عبادة الأصنام ، فشقَّ عليهم ذلك .
إذن : فمبدأ عبادة الإله الواحد يصعب عليهم .

أو أن الأصل في الواعظ أو المبلغ أن يكون على مستوى القيام وهم قعود ، وكان سيدنا عيسى عليه السلام يتكلم مع الحواريين وهو واقف ، والوقوف إشعار بأن مجهود الهدى يقع على سيدنا عيسى - عليه السلام - بينما يقعد الحواريون ليستمعوا له فى راحة .

إذن : فقول الحق سبحانه :

﴿ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي ۖ ﴾ (٧١)

أى : إنَّ صعب عليكم ما أدعوكم إليه .

ويصح أن نأخذها من ناحية طول الوعظ والتكرار فى ألف سنة إلا خمسين عاماً ، أو أن مقامى كبر عليكم ، بمعنى : أننا انقسمنا إلى قسمين ؛ لأن المنهج الذى أدعو إليه لا يعجبكم ، وكنت أحب أن نكون قسماً واحداً .

وما هو ذا سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه ، وأرضاه - حين أحس أن الخلافة تقتضى أن يسمّى من يَخْلُفُهُ من بعده ، قال له بعض الناس : لماذا لا تولّى علينا عبد الله بن عمر ، فقال ابن الخطاب : بحسب

آل خطاب أن يُسأل منهم عن أمة محمد ﷺ رجل واحد. ثم أضاف: أعلم أنكم مَلَلْتُمْ حُكْمِي ؛ لأنى شديدٌ عليكم .

إذن : فقد أحسن نوح - عليه السلام - أنه انقسم هو وقومه إلى قسمين : هو قد أخذ جانب الله سبحانه الذى يدعو إلى عبادته ، وهم أخذوا جانب الأصنام التى ألفوا عبادتها .

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح - عليه السلام :

﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ .. (٧١) ﴾ [يونس]

أى : أنى لن أننازل عن دعوتى ، ولنلحظ أنك إن قلت : اتوكلتُ على الله فقد يعنى هذا أنك قد تقول : وعلى فلان ، وفلان ، وفلان ، لكنك إن قلت : ﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ .. (٧١) ﴾ [يونس]

فأنت قد قصرت توكلت على الله فقط .

وهكذا واجه نوح - عليه السلام - قومه ، ورصيده فى ذلك هو الاعتماد والتوكل على من أرسله سبحانه ، ويحاول أن يهديهم ، لكنهم لم يستجيبوا ، وقال لهم :

﴿ فَاجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً .. (٧١) ﴾ [يونس]

ومعنى جمع الأمر : (أى : جمع شتات الآراء كلها فى رأى واحد) ، أى : اتفقوا يا قوم على رأى واحد ، وأنتم لن تضرونى . وجمع أمر الأجيال التى ظل سيدنا نوح - عليه السلام - يحاول هدايتها تحتاج إلى جهد ؛ لأن الجيل العقلى ينقسم إلى عشرين سنة .

(١) فسيدنا عمر من الخطاب رضى الله عنه لم يردعاً ملكاً وإنما أرادها للراى والشورى ليضرب المثل للأجيال أن الأمر فى حياة الاستقرار للشورى مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ .. (٣٩) ﴾ [الشورى] ولكنه أجاب جواباً ذكياً يحمل ما يريد ، وما يرام منه .

وقد ظل سيدنا نوح عليه السلام - يدعو القوم بعدد ما عاش فيهم ،
أى : ألف سنة إلى خمسين ، فكم جيل - إذن - ظل نوح يعالجه ؟

إنها أجيال متعددة ، ومع ذلك لم يظفر إلا بقدر قليل من المؤمنين^(١)
بحمل سفينة واحدة ، ومعهم الحيوانات أيضاً ، فضلاً عن أن ابنه خرج -
أيضاً - مع القوم الكافرين ، ونداه نوح - عليه السلام - ليركب معه وأن
يؤمن ، فرفض ، وأثر أن يظل في جانب الكفر ، بما فيه من فناء للقوم
الكافرين ، وظن أنه قادر على أن يأوى إلى جبل يعصمه من الطوفان ،
ولم ينظر ابن نوح إلى جندي آخر من جنود الله سبحانه يقف عقبة في سبيل
الوصول إلى الجبل ، وهو الموج .

إذن : فقول نوح عليه السلام :

﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ۖ ۝ (٧١) ﴾

[يونس]

له رصيد إيماني ضمني ، فلا يوجد مجير على الله من خلق الله ؛ لأن
الخلق كله - جماده ونباته وحيوانه - إنما يتصاع لأمر الله تعالى في نصرة
نوح - عليه السلام - ولئن يتخلف شيء .

هكذا كان توكل نوح - عليه السلام - على الله تعالى بما في هذا التوكل
من الرصيد الإيماني المتمثل في :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ۝ (١٢٠) ﴾

[المائدة]

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ ۝ (٢٨٤) ﴾

[البقرة]

(١) ومصدق ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحْمَلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مِنْ سَبْقٍ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ رَبِّ آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ۝ (٤٥) ﴾ [مرد] فمن ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم ، وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفساً ، وقيل : كانوا عشرة . وقيل غير ذلك ، وأياً كان عددهم فهو قليل جداً بالنسبة لمدة مكث نوح فيهم .

ولن يخرج شيء عن ملكه سبحانه .

ومن العجيب أنه لم يخرج عن مراد الله في «كن» إلا الإنسان المختار ،
لم يخرج بطبيعة تكوينه ، ولكن الحق سبحانه وهبه من عنده أن يكون
مختاراً ، ولو لم يهبه الله تعالى أن يكون مختاراً لما استطاع أن يقف ،
ولكان كل البشر من جنود الحق .

وقد قال نوح - عليه السلام :

﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ (٧١) [يونس]

والإنسان حين يهيمه أمر من الأمور يظل متردداً بين خواطر شتى ،
ويحاول أن يرى ميزات كل خاطر ، ويختار أفضلها ، وإذا ما جمع الإنسان
خواطره كلها في خاطر واحد ، فهذا يعني استقراره على رأى واحد ،
وجمع أمره عليه .

أما إذا كان الأمر متعدد الناس ، فكل واحد منهم له رأى ، فإن اجتمعوا
وقرروا الاتفاق على رأى واحد ، فهذا جمعٌ للأمر .

والاتفاق على رأى واحد إنما يختلف باختلاف هوية المجتمعين ، فإن
كانوا أهل خير فهم يتزولون بالشر ، وإن كانوا أهل شر فهم يصعدون بالشر .

ومثال ذلك : أبناء يعقوب - عليه السلام - حينما حدث بينهم وبين
أخيهم من الحسد لكافة يوسف - عليه السلام - فقالوا :

(١) كلمة «شركاءكم» هنا منصوبة على أنها :

١- مفعول به لفعل مضمر تقديره . وادعوا شركاءكم .

٢- مفعول معه ، أى : أجمعوا أمركم مع شركائكم .

٣- معطوف على أمركم ، فتكون أجمعوا بمعنى العزم على فعل الشيء وكذلك جمع الشركاء .

وفى ضبط «شركاءكم» تفصل نظره فى تفسير القرطبي (١/ ٣٢٩٠) .

سُورَةُ يُوسُفَ

﴿٦٠﴾ ١٧٠

﴿اَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ^(١) لَكُمْ وَجْهٌ أَبِيكُمْ...﴾ [يوسف]

أى : أن الاقتراح بقتل يوسف هدفه ألا يلتفت وجه يعقوب وقلبه إلى أحد سواهم ، وأتبعوا اقتراحهم بقتل يوسف باقتراح التوبة ، فقالوا لبعضهم البعض :

﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ^(٢)﴾ [يوسف]

وهم قد ظنوا أن التوبة إن نفذوا القتل ستصبح مقبولة .

وهذا الشر البادى فى حديثهم لم يقبله بعضهم فى بادىء الأمر ؛ لأنهم أبناء نبوة ، وما يزالون هم الأسباب^(٣) ، لا يصعد فيهم الشر ، بل ينزل ، فقال واحد منهم : لا تقتلوه بل ﴿اطْرَحُوهُ أَرْضًا...﴾ [يوسف]

أى : أنه خفف المسألة من القتل إلى الطرح أرضاً ، وهذه أول درجة فى نزول الاختيار عن الشر الأول ، وأيضاً تنازلوا عن الشر الثانى ، وهو طرحه أرضاً ؛ حتى لا يأكله حيوان مفترس ، وجاء اقتراح : ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ^(٤)﴾ [يوسف]

ثم أجمعوا أمرهم أخيراً حتى نزل الشر مرة أخرى لاحتمال ورود النجاة .

(١) يخلُ: قتل مجزوم لأنه جواب الأمر معناه: يخلص ويصفو. [تفسير القرطبي: (٤/٣٤٥٢)].
(٢) قوماً صالحين: أى. تائبين. وقيل: ﴿صالحين﴾ أى: يصلح شأنكم عند أبيكم من غير أثرة ولا تفضيل. [تفسير القرطبي: (٤/٣٤٥٢)].
(٣) الأسباب فى بنى إسرائيل بمنزلة المبائل فى بنى إسماعيل. فالأسباط هم بنو يعقوب ثمانية عشر رجلاً. ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسوا الأسباط. انظر تفسير ابن كثير (١/١٨٧).
(٤) غيابة، أى: مكان مظلم من الجب. والجب: البئر. أى: ألقيوه فى موضع مظلم من الجب؛ حتى لا يلحقه نظر الناظرين. قيل: هو بئر المقدس، وقيل: هو بالأردن، قاله وهب بن منبه. وسميت البئر جباً لأنها قطعت فى الأرض قطعاً والسيارة: الجمع الذين يسبرون فى الطريق للسفر، وإن قال القائل هذا حتى لا يحتاج إلى حمله إلى موضع بعيد؛ ويحصل المقصود، فإن من يلتقطه من السيارة يحمله إلى موضع بعيد، وكان هذا رجهاً فى التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم؛ فربما لا يأذن لهم أبوه، وربما يطلع على قصدهم. [تفسير القرطبي: (٤/٣٤٥٣، ٣٤٥٤)].

إذن : فالأخيار حين يجتمعون على شر لا بد أن ينزل .

ومثال ذلك : رجل طيب رأى ابنه وهو يُضْرَب من آخر ، فيفكر للحظة في أن يضرب غريم ابنه بطلقة من (مسدس) ، ثم يستبدل هذه الفكرة بفكرة الاكتفاء بضربه ضرباً مبرحاً بالعصا ، ثم يتنازل عن ذلك بأن يفكر في صفعه صفعتين ، ثم يتنازل عن فكرة الصفع ويفكر في توبيخه ، ثم يتنازل عن فكرة التوبيخ ويكتفى بالشكوى لوالده ، وهكذا ينزل الشر عند أهل الخير .

أما إن كان الرجل من أهل الشر ، فهو يبدأ بفكرة الشكوى لوالد من ضرب ابنه ، ثم يرفضها ليصعد شره إلى فكرة أن يصفعه هو ، ثم لا ترضيه فكرة الصفع ، فيفكر في أن يضربه ضرباً شديداً ، ولا ترضيه هذه الفكرة ، فيقول لنفسه : « سأطلق عليه الرصاص » . وهكذا يتصاعد الشر من أهل الشر .

وهنا يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا نوح عليه السلام :

﴿ فَاجْتَمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ .. ﴾ (٧١) [يونس]

أي : اجتمعوا والزموا رأياً واحداً تحرصون على تنفيذه أنتم وشركاؤكم ، وهو ينصحهم رغم أنهم أعداؤه ، وكان عليه أن يحرض على اختلافهم ، ولكن لأنه واثق من توكله على ربه ؛ فهو يعلم أنهم مهما فعلوا فلن يقدرُوا عليه ، ولن يتصرفوا على دعوته إلا بالإقدام على إهلاك أنفسهم .

أو أنه مثلما يقول العامة : « أعلى ما في خيولكم اركبوه » أي : أنه يهددهم ، ولا يفعل ذلك إلا إذا كان له رصيد من قوة التوكل على الله تعالى .

ولا يكتفى بذلك بل يضيف :

﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ۖ ﴾ (٧١) [يونس]

والغمة: منها الغمام، ومنها الإغماء، أى: فقد الوعي وسُتر العقل،
أى: أنه قال لهم: لا تعبوا أنفسكم بتبادل الهمسات فيما بينكم، بل
افعلوا ما يحلو لكم، ولا تحاولوا ستر ما سوف تفعلون.

إن عليكم أن تجتمعوا على رأى واحد أتم وشركاؤكم الذين تعتمدون
عليهم، وتعبدونهم، أو شركاؤكم فى الكفر، ولم يأتِ نوح - عليه
السلام - بتقوية العصية المضادة له؛ لأنه متوكل على الله فقط.

لذلك يقول: ﴿ ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ (٧١) [يونس]

أى: أنه يُحَقِّزهم على الاجتماع على أمر واحد ومعهم شركاؤهم -
سواء من الأصنام التى عبدوها أو من أقرانهم فى الكفر - وأن يصمموا
على المضى فى تنفيذ ما اتفقوا عليه.

و«قضى» أى: حكم حكماً، لكن الحكم على شىء لا يعنى الاستمرار
بحيث ينفذ، فقد يُقضى على إنسان بحكم؛ ويوقف التنفيذ.

لكن قوله: ﴿ أَقْضُوا إِلَيَّ ﴾ يعنى: أصدرُوا حكمكم وسيروا إلى تنفيذ
ما قضيتم به.

ثم يقول: ﴿ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ أى: لا تمهلونى فى تنفيذ ما حكمتم به على.

والتأمل للآية الكريمة يجد فيها تحدياً كبيراً، فهو أولاً يطلب أن
يجتمعوا على أمر واحد، هم وشركاؤهم، ثم لا يكون على هذا الأمر

(١) غُمَّةٌ وغَمٌّ سَواءٌ ومعناه: اشغطية، من قولهم: غم الهلال إذا ستر، أى: ليكن أمركم ظاهراً مكشفاً
تتمكنون فيه مما شئتم، لين كنن يغلَى أمره فلا يقدر على ما يريد. وهذا دليل على ثقة نوح عليه
السلام من ربه سبحانه وتعالى إياه على قومه الكافرين. [تفسير القرطبي: ٤/ ٢٢٩٠].

غُمة^(١) ، ثم اقضوا إلى ما اتفقت عليه من حكم ونفذوه ولا تؤجلوه ، فهل هناك تحذُّرٌ للخصم أكثر من ذلك ؟

لقد كانوا خصوماً معاندين ، ظل نوح - عليه السلام - يترفق إليهم ويتحنن لهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وصبر عليهم كل هذا الوقت ، ولا بد - إذن - من حدوث فاصل قوى ، ولهذا كان الترقى في التحدى ، فدعاهم إلى جمع الأمر ومعهم الشركاء ، ثم بإصدار حكمهم عليه وعدم الإبطاء في تنفيذه ، كان هذا هو التحدى الذى أخذ يترقى إلى أن وصل إلى قبول تنفيذ الحكم .

والنفسية العربية - على سبيل المثال - حين سامحت ، وصبرت ، وصفححت فى أمر لا علاقة له بمنهج الله ، بل بأمر يخص خلافاً على الأرض ، تجل الشاعر العربى يقول عن «بنى ذهل» الذين أتعبوا قوم الشاعر كثيراً ، ولكن قومه صفحوا عنهم ؛ يقول الشاعر^(٢) :

صَفَحْنَا عَنْ بَنِي ذُهَلٍ	وَقُلْنَا : الْقَوْمُ إِخْوَانُ
عَسَى الْأَيَّامُ أَنْ يَرْجِعَ	بَنَ قَوْمًا كَالَّذِي كَانُوا
فَلَمَّا صَرَخَ الشَّرُّ	فَأَمْسَى وَهُوَ عَرِيَانُ
وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعَدَا	نَ دَنَاهُمْ كَمَا دَانُوا
مَشَيْنَا مَشْيَةَ اللَّيْلِ	عَدَاً وَاللَّيْلُ غَضِبَانُ

(١) غم الشيء - غمه - كتصر - غمماً : أخفاه وغطاه وسنره وغمه الأمر : كرهه وأحزنه ، قال تعالى : ﴿ فَاسْتَحَبَّا لَهُ وَنَجَّيَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) [الأنبياء] والغمة : الشئ يسأل الأمر وعدم وضوحه ، قال تعالى : ﴿ قُلْ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ۖ ﴾ (٢) [يونس] وقال : ﴿ وَخَلَقْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ ۖ ﴾ (٣) [الأعراف]

(٢) هو شهل بن شيان ويلقب بالقنيد الزماني ، توفي نحو ٧٠ ق هـ ، من بنى بكر بن وائل . شاعر جاهلى سقى الفند لعظم خلقته تشبيهاً بالقطعة من الجبل وهى الفند . (الأعلام للزركلى ١٧٩/٣) .

يَضْرِبُ فِيهِ نَوْهَيْنِ^(١) وَتَخْضَعُ^(٢) وَإِقْرَانُ
وَطَعْنُ كَقَمِ الزَّقِّ^(٣) غَدَا وَالزَّقُّ مَلَانُ
وَقَى الشَّرَّ نَجَاةً حَيَّ جَنَ لَا يُنْجِيكَ إِحْسَانُ
وَبَعْضُ الْحَلَمِ عِنْدَ الْجَهْدِ لِلِلَّذَّةِ إِذْ عَسَانُ^(٤)

إذن : فالمناجزة بين نوح - عليه السلام - وقومه اقتضت التشديد ، لعل
بشريتهم تلين ، ولعل جبروتهم يلين ، ولعلمهم يعلنون الإيمان بالله
تعالى ، ولكنهم لم يرتدعوا ،

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح بعد ذلك :

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى
اللَّهِ وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٥)

أى : إن توليتم عن دعوتى لعبادة الإله الحق ، فأنا لا أدعوكم إلى مثل
لكم هو أنا ، بل أدعوكم إلى من هو فوقى وفوقكم ، فأنا لا أريد أن
أستولى على السلطة الزمنية منكم ، ولا أبحث عن جاه ، فالجاه كله لله
تعالى .

(١) التخضع : تطيع اللحم .

(٢) الزق : الإناؤ .

(٣) أورد هذه الآيات أبو علي الفاي في الأمانى (١/٣٠٩ ، ٣١٠) ، وهو من بحر الهرج .

(٤) ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ : أعرضتم عما جئكم به ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أى : فليس ذلك لأنى مسكنكم أجراً ؛ فيقتل
عليكم مكافأتى . [تفسير القرطبي (٤/٣٢٩١)] .

(٥) ﴿إِنْ - هُنَا - نافية بمعنى (ما) أى : ما أجرى إلا على الله سبحانه وتعالى .

(٦) ﴿مُسْلِمِينَ﴾ أى : المرسلين لله تعالى . [تفسير القرطبي (٤/٣٢٩١)] .

والله لا يحتاج إلى جاه منكم لأن جأه سبحانه ذاتي فيه ، ولكن لنمنع جبروتكم وتجبركم ؛ لتعيشوا على ضوء المنهج الحق ؛ لتكون حياتكم صالحة ، وكل ذلك لمصلحتكم .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَاءَتْكُمْ مِّنْ أَجْرٍ ۚ ۝ (٧٢) ﴾ فهل يُمَالِيءُ^(١) نوح - عليه السلام - أعداءه .

إن الإنسان يُمَالِيءُ العدو ؛ لأنه يخاف أن يوقع به شراً ، ونوح عليه السلام لا يخافهم ؛ لأنه يعتمد على الله تعالى وحده ، بل هو يدلهم على مواطن القوة فيهم ، وهو يعلم أن قوتهم محدودة ، وأن شرهم مهما بلغ فهو غير نافذ ، وقد لا يكون منهم شر على الإطلاق ، فهل هناك نفع سيعود على نوح - عليه السلام - ويمنع عنه ؟

لا ؛ لأنه يعلن أنه لا يأخذ أجراً على دعوته .

هم - إذن - لا يقصدون على ضرره ، ولا يقصدون على نفعه ، وهو لا يريد منهم نفعاً ؛ لأن مركزه بإيمانه بالله الذي أرسله مركز قوياً .

وهو لا يسألهم أجراً ، وكلمة «أجر»^(٢) تعني : ثمن المنفعة ، والأثمان تكون عادة في المعاملات ، إما أن تكون ثمناً للأعيان والثروات ، وإما أن تكون ثمناً للمنفعة .

ومثال ذلك : أن إنساناً يرغب في شراء «شقة» في بيت فيذهب إلى رجل يملك بيتاً ، ويطلب منه أن يبيع له عدداً من الأسهم بقيمة الشقة .

(١) يُمَالِيءُ : يعاون ويساعد . قال أبو عبيد : يقال للفوم إذا شابهوا برأيهم على أمر : قد مالوا عليه . [لسان العرب : مادة (م ل أ)] .

(٢) الأجر : الجزاء على العمل ، والجمع : أجور . والأجر : الثواب ؛ وقد أجره الله يَجْرُهُ ويَجْرِه أجرأ وأجره : أي : أعطاه ثواب . [لسان العرب : مادة (أ ج ر)] .

وهناك آخر يريد أن يستأجر شقة فيذهب إلى صاحب البيت ؛ ليدفع له قيمة إيجار شقة في البيت ، أى : يدفع له قيمة الانتفاع بالشقة ، والأجر لا يُدفع إلا لطلب منفعة مُلحّة .

وكان على نوح - عليه السلام - أن يطلب منهم أجراً ؛ لأنه يهديهم إلى الحق ، هذا في أصول التقييم للأشياء ؛ لأنه يقدم لهم نفعاً أساسياً ، لكنه يعلن أنه لا يطلب أجراً وكأنه يقول : إن عملي كان يجب أن يكون له أجر ؛ لأن منفعته تعود عليكم ، وكان من الواجب أن آخذ أجراً عليه .

ولكن نوحاً - عليه السلام - تنازل عن الأجر منهم ؛ لأنه أراد الأجر الأعلى ، فلو آخذ منهم ؛ فلسوف يأخذ على قدر إمكاناتهم ، ولكن الأجر من الله تعالى هو على قدر إمكانات الله سبحانه وتعالى ، وفارق بين إمكانات المحدود العطاء وهو البشر ، ومن له قدرة عطاء لا نهاية لها وهو الله سبحانه وتعالى ،

وهنا يقول ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ۖ (٧٢) ﴾ [يونس]

فهذا التولّى والإعراض لا يضرّنى ولا ينفعنى ؛ لأنكم لا تملكون لى ضرّاً ولا تملكون لى نفعاً ؛ لأننى لن آخذ منكم أجراً .

ومن العجيب أن كل مواكب الرسل - عليهم السلام - حين يخاطبون أقوامهم يخاطبونهم بهذه العبارة :

﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ (٨١) ﴾ [ص]

إلا في قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وقصة موسى عليه السلام ، فمن قصة سيدنا إبراهيم يأتي قول الحق سبحانه :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلَىٰ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤)﴾
[الشعراء]

ولم يأت الحق سبحانه فيها بشيء عن عدم السؤال عن الأجر.

وأيضاً في قصة سيدنا موسى - عليه السلام - قال الحق سبحانه:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١١) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (١٢) وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٣) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٤) فَأَتَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٥) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٦)﴾
[الشعراء]

وهنا أيضاً لا نجد قولاً لموسى - عليه السلام - في عدم السؤال عن الأجر.

أما هنا في قصة نوح - عليه السلام - فنجد قول الحق سبحانه:

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٦)﴾
[يونس]

وكذلك جاء نفس المعنى في قصة هود عليه السلام ، حيث يقول الحق سبحانه:

(١) المكوف على الشيء هو الإقامة والاستمرار عليه ، أى : أنهم مقيمون مستمرون على عبادة الأصنام [تفسير ابن كثير (٣/٣٣٧)].

﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) ﴾ [الشعراء]

وجاء نفس المعنى أيضاً في قوم ثمود ، إذ قال الحق سبحانه :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) ﴾ [الشعراء]

وكذلك جاء نفس القول على لسان لوط عليه السلام ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) ﴾ [الشعراء]

ونفس القول جاء على لسان شعيب عليه السلام في قول الحق سبحانه :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) ﴾ [الشعراء]

إذن : فعالية الموكب الرسالي يأتي على ألسنتهم الكلام عن الأجر :

(١) أصحاب الأيكة : هم أهل مدين - على الصحيح - وكان نبي الله شعيب ، عليه السلام ، من أنفسهم ، وإنما لم يقل سبحانه هنا : أخوهم شعيب ؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة ، وهي شجرة كانوا يعبدها [ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٤٥)] .

[الشعراء]

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ...﴾ (١٦١)

فكان الرسل عليهم السلام يقولون للبشر الذين أرسلوا إليهم: لو أنكم فطتم إلى حقيقة الأمر لكان من الواجب أن يكون لنا أجر على ما نقدمه لكم من منفعة ، لكننا لا نريد منكم أنتم أجراً ، إنما ستأخذ أجراً من رب العالمين ؛ لأن المنفعة التي نقدمها لكم لا يستطيع بشر أن يقومها ، وإنما القادر على تقييمها هو واضع المنهج - سبحانه - ومُتَرَلِّه على رسله .

وها هو القرآن الكريم يأتي على لسان رسول الله محمد ﷺ ، ويقول:

[الشورى]

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ...﴾ (١٢٣)

أما لماذا لم تأت مسألة الأجر على لسان سيدنا إبراهيم - عليه السلام - فنحن نعلم أن إبراهيم عليه السلام أول ما دعا ؛ دعا عمه ، وكان للعم حفظ تربية إبراهيم ، وله على سيدنا إبراهيم حق الأبوة .

وكذلك سيدنا موسى عليه السلام ، فقد دعا فرعون ، وفرعون هو الذي قام بتربية موسى ، وكانت زوجة فرعون تريده قرّة عين لها ولزوجها ، حتى إن فرعون فيما بعد قد ذكره بذلك ، وقال:

[الشعراء]

﴿أَلَمْ تُرَبِّكُنِي فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتُ^(١) فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ (١٨)

أما هنا في دعوة سيدنا نوح - عليه السلام - فيأتي قول القرآن على لسان نوح بما يوضح الأمر لقوم نوح:

فإن توليتم فلا حزن لي ، ولا جزع ؛ لأنكم لن تصيبوني بضر ، ولن تمنعوا عني منفعة ؛ لأنكم لم تسألوني أن أتى لكم بالهدى لأخذ أجرى منكم ، ولكن الحق سبحانه هو الذي بعثني ، وهو الذي سيعطيني أجرى ،

(١) لبث: عشت ومكثت بيتاً.

وقد أمرني سبحانه أن أكون من المسلمين له حقاً وصدقاً.

وفي حياتنا نجد أن صديقاً يرسل إلى صديقه عاملاً من عنده ليصلح شيئاً ، فهو يأخذ الأجر من المرسل ، لا من المرسل إليه ، وهذا أمر منطقي وطبيعي .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَةً وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا آيَاتِنَا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (٧٢)

وكان الأمر الذي وقع من الحق سبحانه نتيجة عدائهم للإيمان كان من الممكن أن يشملهم ؛ لأنه لا يقال : نجيتك من كذا إلا إذا كان الأمر الذي نجيتك منه ، توشك أن تقع فيه ، وكان هذا بالفعل هو الحال مع الطوفان ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ^(١) (١١) وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ^(٢) (١٢) ﴾

[القمر]

(١) الملك : السقطة .

(٢) خلقه يخلقه من باب نصر : نجى ، ففجرنا الأرض فجاءت مكنة - تحللاً وتحلافة وتحلفه بخلقاً : صدر خلقه قال تعالى : ﴿ قَالَ يَتَّبِعُوا خُلَفَاؤِي مِنْ بَعْدِي .. ﴾ (٥٠) [الأعراف] والخلف : القرن من الناس بعد القرن ، أي الجيل بعد الجيل ، والخلف الولد الصالح أو غير الصالح . قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ .. ﴾ (٥٠) [الأعراف] والخلف بالفتح : البعض والبدل والولد الصالح أو الولد غير الصالح . والخليفة من يخلف غيره ، أو يتوب عنه ، قال تعالى : ﴿ وَإِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴾ (٤٠) [البقرة] ، وخليفة جمعها خلفاء وحلائف يقول تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعدِ قَوْمِ نُوحٍ .. ﴾ (٦٩) [الأعراف] وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ .. ﴾ (١٠٢) [الأنعام] . (الفاموس القويم - بتصرف) .

(٣) ماء منهمر : مطر غزير .

ومن المتوقع أن تشرب الأرض ماء المطر ، لكن الذى حدث أن المطر
انهمر من السماء والأرض أيضاً تفجرت بالماء ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه
وتعالى يقول :

﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (٦٢)﴾ [القمر]

أى : أن ذلك الأمر كان مقدراً ؛ حتى لا يقولن أحد : إن هذه المسألة
ظاهرة طبيعية .

لا إنه أمر مُقدَّر ، وقد كانت السفينة مرسومة بصناعة من نوح عليه
السلام ؛ لأن الحق سبحانه قد أمره بذلك فى قوله تعالى فى سورة هود :

﴿وَاصْنَعِ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. (٣٧)﴾ [هود]

ويقول الحق سبحانه فى الآية التى بعدها :

﴿وَيَصْنَعِ الْفُلَّكَ وَكَلَّمَا مَرْءٌ عَلَيْهِ مَلَأٌ^(١) مِّنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ
تَسَخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨)﴾ [هود]

ويركب نوح - عليه السلام - السفينة ، ويركب معه من آمن بالله
تعالى ، وما حملوا معهم من الطير والحيوان من كل نوع اثنين ذكراً وأنثى .

وقول الحق سبحانه :

﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ .. (٧٣)﴾ [يونس]

يوحى أن الذى صعد إلى السفينة هم العقلاء من البشر ، فكيف نفهم
مسألة صعود الحيوانات والطيور إلى السفينة ؟

نقول : إن الأصل في وجود هذه الحيوانات وتلك الطيور أنها مُسَخَّرَةٌ لخدمة الإنسان ، وكان لا بد أن توجد في السفينة ؛ لأنها ككائنات مسخرة تسبِّح الله ^(١) ، وتعبد الحق سبحانه ، فكيف يكون علمها فوق علم العقلاء الذين كفر بعضهم ، ثم أليس من الكائنات المسخرة ذلك الغراب الذي علّم «قابيل» كيف يوارى سواة أخيه ^(٢) ؟! إنه طائر ، لكنه علم ما لم يعلمه الإنسان !

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحِثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوَاءَ أَخِيهِ . . . (٣٦) ﴾ [المائدة]

ثم يقول الحق سبحانه في الآية التي تحن بصددتها الآن :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٢) ﴾ [يونس]

وكلمة «الْفُلْكِ» من الألفاظ التي تطلق على المفرد، وتطلق على الجماعة .

وقول الحق سبحانه : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ ﴾ نعلم منه أن الفعل من الله تعالى ، وهو سبحانه حين يتحدث عن أى فعل له ، فالكلام عن الفعل يأتى مثل قوله سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ^(٣) وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

(١) يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَسْبَحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٢١) ﴾ [الإسراء] .

(٢) يوارى سواة أخيه ؛ يخفى جسد أخيه «هابيل» الذى قتله أخوه بغير حق . أى : يدفنه .

(٣) الذِّكْرُ : القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ وَإِنزِلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾ [التحل]

ولكنه حين يتحدث عن ذاته ، فهو يأتي بكلمة تؤكد الوجدانية وتكون بضمير الأفراد مثل : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ .. ﴾ (١٤) [طه]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَجِئْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ .. ﴾ (٧٢) [يونس]

كلمة «أنجى» للتعددية ، وكلمة «تجى» تدل على أن هناك معالجة شديدة للإبهاء ، وعلى أن الفعل يتكرر .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ .. ﴾ (٧٣) [يونس]

تعنى : أن الخليفة هو من يجرى بعد سابق ، وكلمة «الخليفة» تأتي مرة للأعلى ، مثل الحال هنا حيث جعل الصالح خليفة للصالح ، فبعد أن أنجى الله سبحانه العناصر المؤمنة فى السفينة ، أغرق الباقين .

إذن : فالصالحون على ظهر السفينة أنجبوا الصالحين من بعدهم .

ومرة تأتي كلمة «الخليفة» للأقل ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ .. ﴾ (٥٩) [مريم]

فهنا تكون كلمة الخليفة موحية بالمكانة الأقل ، وهناك معيار وضعه الحق سبحانه لتقييم الخليفة ، هو قول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (١١) [يونس]

[يونس]

(١) خلائف : جميع خليفة وهو الذى يخلف من سبقه ، وتجمع أيضاً على «خلفاء» . قال تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نوحَ .. ﴾ (٦١) [الأعراف] .

ولأن الإنسان مخير بين الإيمان والكفر ، فسوف يلقى مكانته على صوره ما يختار .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ
وَلَيُزِيلَنَّهُمْ مَنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ أَمَّا .. (٥٥) ﴾ [النور]

إذن : فالخليفة إما أن يكون خليفة لصالِح ، وإما أن يكون صالحاً يخلفُ
فاسداً .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ فِرَاقًا غَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. (٧٣) ﴾ [يونس]

والآيات - كما قلنا من قبل - إما آيات الاعتبار التي تهدي إلى الإيمان
بالقوة الخالقة ، وهي آيات الكون كلها ، فكل شيء في الكون يدلُّك على
أن هذا الكون مخلوق على هيئة ولغاية ، بدليل أن الأشياء في هذا الكون
تنظم انتظاماً حكيماً .

وإذا أردت أن تعرف دقة هذا الخلق ، فانظر إلى ما لديك فيه دُخُلٌ ،
وما ليس لديك فيه دُخُلٌ ؛ ستجد كل ما ليس لديك فيه دُخُلٌ على درجة
مماثلة من الاستقامة ، والحق سبحانه يقول :

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَصْرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي
فَلَكَ (١) يَبْحُرُونَ (٢) ﴾ [يس]

(١) الفلك . المدار يسبح فيه الجرم السماوي . والجمع : أفلاك . [المعجم الوسيط : مادة (ف ل ك)] .

أما ما لديك فيه دخل ، فاختيارنا حين يتدخل فهو قد يفسد الأشياء .
وهكذا رأينا أن الآيات الكونية تلفت إلى وجود الخالق سبحانه وهي
مناط الاستدلال العقلي على وجود الإله ، أو أن الآيات هي الأمور
العجيبة التي جاءت على أيدي الرسل - عليهم السلام - لتقنع الناس بأنهم
صادقون في البلاغ عن الله سبحانه وتعالى .

ثم هناك آيات القرآن الكريم التي يقول فيها الحق سبحانه :
﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ
الْكِتَابِ .. (٧) ﴾ [آل عمران]

وهي الآيات التي تحمل المنهج -
وحين يقول الحق سبحانه :
﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. (٧٢) ﴾ [يونس]

فهو يعلمنا أنه أغرق من كذبوا بالآيات الكونية ولم يلتفتوا إلى بدیع
صنعه سبحانه ، وحكمة تكوين هذه الآيات ، وترتيبها ورتابتها^(١) ، وهم
أيضاً كذبوا الآيات المعجزات ، وكذلك كذبوا بآيات الأحكام التي جاءت
بها وسلمهم .

وينتهي الحق سبحانه وتعالى هذه الآية بقوله :
﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾^(٢) [يونس]

والخطاب هنا لكل من يتأتى منه النظر ، وأولهم سيدنا محمد ﷺ ،

(١) رتابتها . أي : سيرها على نظام واحد لا يتخلف ، يقول الحق سبحانه : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْعِيهَا أَنْ تَكَوِّنَ
الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ مَانِعٌ النَّهَارَ وَكُلٌّ فِي فَلَكَ يُسْتَغَوْنَ ﴾ [يس] .

(٢) عاقبة . عذاب وجزاء ونهاية . المنذرين : اسم مفعول يشير إلى من وقع عليهم الإنذار ، وهم قوم نوح
الذين أنذرهم نبيهم ، فلم يؤمنوا فاستحقوا العذاب والعذاب .

وهو أول مخاطب بالقرآن .

وانت حين تقول : «انظر» ؛ فأنت تُلْقِيت إلى أمر حسّي ، إن وجّهت نظرك نحوه جاء الإشعاع من المنظور إليه ، ليرسم أبعاد الشيء ؛ فتراه .

والكلام هنا عن أمور غائبة ، فهي أحداث حسية وقعت مرة واحدة ثم صارت خبراً ، فإن أخبرك بها مخبر فيكون تصديقك بها على مقدار الثقة فيه .

فمن رأى عصا موسى - عليه السلام - وهي تلقف الحبال التي ألقاها السحرة ؛ آمن بها ، مثلما آمن من شاهد النار عاجزة عن إحراق إبراهيم عليه السلام ، ومن رأى عيسى عليه السلام وهو يُشْفَى الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ^(١) وَيُحْيِي الْمَوْتَى بإذن الله تعالى ، فقد آمن بما رأى ، أما من لم ير تلك المعجزات فإيمانه يتوقف على قدر توثيقه لمن أخبر ، فإن كان المخبر بذلك هو الله سبحانه وفي القرآن الكريم فإيماننا بتلك المعجزات هو أمر حتمي ؛ لأننا آمنة بصدق المبلّغ عن الله تعالى .

ونحن نفهم أن الرسائل السابقة على رسالة محمد ﷺ ، كانت رسائل موقوتة زماناً ومكاناً ، لكن الإسلام جاء ليشتمل الناس الموجه إليهم منذ أن أرسل الله رسوله محمداً ﷺ إلى أن تقوم الساعة .

لذلك جاء القرآن آيات باقيات إلى أن تقوم الساعة ، وهذا هو السبب في أن القرآن قد جاء معجزة عقلية دائمة يستطيع كل من يدعو إلى منهج رسول الله ﷺ أن يقول : محمد رسول من عند الله تعالى ، وتلك هي معجزته .

وساعة يقول الحق سبحانه : ﴿فَانظُرْ﴾ فمثلها مثل قول الحق سبحانه

(١) الكمة : الحُمَّى الذي يولد به الإنسان . أما البرص فهو مرض جلدي عبارة عن بقع بيضاء تكون في الجسد . انظر اللسان .

وتعالى لرسوله ﷺ:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾^(١) [الفيل]

وحادثة الفيل قد حدثت في العام الذي ولد فيه رسول الله ﷺ ، وبطبيعة الحال فسيدنا رسول الله ﷺ لم ير حادثة الفيل ، ولكن الذين رأوها هم الذين كانوا يعيشون وقتها ، وهذا ما يلفتنا إلى فارق الأداء ، فعيونك قد ترى أمراً ، وأذنتك قد تسمع خبراً ، ولكن من الجائز أن تتخذك حواسك ، أما الخبر القادم من الله تعالى ، وإن كان غائباً عنك الآن وغير مسموع لك فخذ على أنه أقوى من رؤية العين .

ولقائل أن يقول: لماذا لم يقل الحق : «ألم تعلم» وجاء بالقول:

﴿أَلَمْ تَرَ..﴾^(١) ؟ [الفيل]

وأقول: ليدلنا الله سبحانه على أن العلم المأخوذ من الله تعالى عن أمر غيبى عليك أن تتلقاه بالقبول أكثر من تلقيك لرأى العين .

إذن: ﴿فَانظُرْ﴾ تعنى: اعلم الأمر وكأنه مُجسَّم أمامك ؛ لأنك مؤمن بالله تعالى وكأنك تراه ، ومُبلِّغك عن الله سبحانه هو رسول تؤمن برسائله ، وكل خبر قادم من الله تعالى ورسوله ﷺ لا يمكن أن يتسرب إليه الشك ، ولكن الشك لا يمكن أن يتسرب إلى المخبر الصادق أبداً .

ولقائل أن يقول: ولماذا لم يقل الحق: «فانظر كيف كان عاقبة الكافرين» بدلاً من قول الحق سبحانه:

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾^(٢) [يونس]

(١) أصحاب الفيل ، هم جيش «أبرهة» الحبشي حين قدموا لهدم الكعبة ، فمزقهم الله شر ممزق وأرسل عليهم طيوراً من السماء ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم الله كعصف مأكول . ووافق ذلك قبل مولد النبي ﷺ بخمسة وخمسين ليلة ، فهر لم ير الحادث بعينه ، ولكن إخبار الله له أمر لا يحتمل إلا الصدق ، فكانه قد رآه بعينه فعلاً .

وهنا نقول :

إن الحق سبحانه وتعالى قد بين أنه لن يعذب قبل أن يُنذِر^(١) ، فهو قد أُنذِر أولاً ، ولم يأخذ القوم على جهلهم .

فانظر - كما تعلم - هي خطاب لرسول الله ﷺ ، وخطاب رسول الله ﷺ يشمل أمته أيضاً ، وجاء هذا الخبر تسليية لرسول الله ﷺ ، فإن صادف من قومك يا محمد ما صادف قوم نوح - عليه السلام - فاعلم أن عاقبتهم ستكون كعاقبة قوم نوح .

وفي هذا تحذير وتخويف للمناوئين لرسول الله ﷺ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِ رَسُولٍ إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ^(٢)
فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهٖ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ^(٣)
الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٦﴾

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا لَهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر] ويقول : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الاسراء] النذير والإنذار وجمعه نذر ، قال تعالى : ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ .. ﴾ [الأنعام] .

والنذير هنا : هو الرسول المنذر بالعذاب . والنذر اسم مصدر بمعنى الإنذار كقول تعالى : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ عُدْوَانِهِ أَوْ نَذَرَ ﴾ [المزلات] وقوله : ﴿ .. وَمَا نُنْفِئُ الْآيَاتِ وَالنَّذْرَ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس] [يونس] يحتمل أنها الإنذارات . أو المنذرون من الرسل جمع نذير ، وقوله : ﴿ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ .. ﴾ [الحقاف] ، والمراد بالنذر هم الرسل المنذرون .

(٢) بالبينات : أى : بالحجج والأدلة والبراهين على صديق ما جاءوهم به . [ذكره ابن كثير في تفسيره] . [٢٦٦/٢] .

(٣) الطبع : هو الحتم على القلب ، ولكنه لا يُحمى ولا يُفك أبداً ، أما الحتم فقد يفك ، وقد تكون له مدة معلومة ، وقد يقبل مع التوبة الخالصة ، ويكلا الأمرين ورد القرآن : ﴿ أَوْفَيْتُكَ الدِّينَ طِبَعُ اللَّهِ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ [التحل] . وقال سبحانه : ﴿ حَتَّمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاقًا .. ﴾ [البقرة] .

وكلمة «بعث» هنا تستحق التأمل ، فالبعث إنما يكون لشيء كان موجوداً ثم انتهى ، فيبعثه الله تعالى .

وكلمة ﴿بَعَثْنَا﴾ هذه تلفتنا إلى أن الحق سبحانه أول ما خلق الخلق أعطى المنهج لآدم عليه السلام ، وأبلغه آدم لأبنائه ، وكل طمس أو تغيير من البشر للمنهج^(١) هو إمالة للمنهج .

وحين يرسل الحق سبحانه رسولاً ، فهو لا ينشئ منهجاً ، بل يبعث ما كان موجوداً ، ليذكر الفطرة السليمة .

وهذا هو الفرق بين أثر كلمة «البعث» عن كلمة «الإرسال» ، فكلمة البعث تشعرك بوجود شيء ، ثم انتهاء الشيء ، ثم بعث ذلك الشيء من جديد ، ومثله مثل البعث في يوم القيامة ، فالنفس كانوا يعيشون وسيظلون في تناسل وحياة وموت إلى يوم البعث ، ثم يموت كل الخلق ليعثوا للحساب .

ولم يكن من المعقول أن يخلق الله سبحانه البشر ، ويجعل لهم الخلافة في الأرض ، ثم يتركهم دون منهج ؛ وما دامت العقلة قد طرأت عليهم من بعد آدم - عليه السلام - جاء البعث للمنهج على السنة الرسل^(٢) المبلغين عن الله تعالى .

(١) نهج الطريق من باب فتح ، نهجاً : سلكه . ونهج الطريق له : أوضعه ، والنهج والمنهج والمنهج : الطريق الواضح والمذهب حسياً ومعتوياً ، قال تعالى : ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ فِرْعَوْنًا وَمُحَاجًا ..﴾ (١٥٥) [الثالثة] أى : مذهباً أو طريقة أو ديناً ، فهو هنا معتوى .

(٢) الرسالة : اسم لما يرسل منقولة عن المصدر ، ورسالة الرسول ما أمر بتبليغه عن الله للناس ، ودعوته الناس إلى ما أوحى إليه . والرسول : المرسل . والرسول مصدر بمعنى الرسالة ، وإذا وصف بالمصدر فلا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع . قال الزمخشري : الرسول يكون بمعنى المرسل ، وبمعنى الرسالة فعمله القرآن في سورة طه بمعنى المرسل ، فلم يكن يؤنث . يقول الحق : ﴿إِنَّا وَمَوْلَا ذِكِّكَ ..﴾ (١٥٥) [طه] أما في آية الشعراء فبمعنى الرسالة ، فجازت لتسوية فيه إذا وصف به بين المفرد والمثنى ، ولهذا قال : ﴿إِنَّا وَمَوْلَا رَبِّهِ الْعَالَمِينَ﴾ (١٥٦) [الشعراء] وأرسل تأتي لمجرد البعث والإطلاق مثل : ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ..﴾ (١٥٧) [الأعراف] (الزمخشري - بتصريف) .

سُورَةُ يُوسُفَ

○٦١١٧○

وبعد نوح - عليه السلام - بعث الحق سبحانه رسلاً ، وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :

[يونس] ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ .. (٧١) ﴾

أى : من بعد نوح ، فمساءلة نوح - عليه السلام - هنا تعنى مقدمة الرّجب الرسالى ؛ لأن نوحاً عليه السلام قد قالوا عنه إنه رسول عامٌ للناس جميعاً أيضاً ، مثله مثل محمد ﷺ ، وهو لم يُبعث رسولاً عاماً للناس جميعاً ، بل كان صعوده إلى السفينة هو الذى جعله رسولاً لكل الناس ؛ لأن سكان الأرض أيامها كانوا قلة .

والحق سبحانه قد أخذ الكافرين بذنبهم وأنجى المؤمنين من الطوفان ، وكان الناس قسمين : مؤمنين ، وكافرين ، وقد صعد المؤمنون إلى السفينة ، وأغرق الحق سبحانه الكافرين .

وهكذا صار نوح - عليه السلام - رسولاً عاماً بخصوصية من بقوا وهم المرسل إليهم بخصوصية الزمان والمكان ^(١) .

وهنا يقول الحق سبحانه :

[يونس] ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ .. (٧٤) ﴾

فهل قصّ الله تعالى كل أخبار الرسل عليهم السلام ؟ لا ؛ لأنه سبحانه وتعالى هو القتال ؛

[غافر] ﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ .. (٧٨) ﴾

(١) أما رساله محمد ﷺ فهي لعامة الزمان والمكان ، وهذا بما خصّ به الله رسوله ﷺ وأمه ، ويدل عليه حديث رسول الله ﷺ : « أعطيت نجساً ثم يعطون أحد قبلى : نصرت بالربعية ميرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وظهورا ، فأما رجس من أمى أدركته الصلاة فللبص » وأجلت لى المغانم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبی یبعث إلى قومه خاصة وبعث إلى الناس عامة « أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٣٥) ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله .

سُورَةُ التَّوْنِسِ

٦١٦٨

وجاء الحق عز وجل بقصص أولى العزم منهم^(١) ، مثلما قال سبحانه :

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ^(٢)﴾ [١٤٧]

فمن أرسله الله تعالى إلى من هم أقل من مائة ألف ، فقد لا يأتي ذكره ، ونحن نعلم أن الرسول إنما كان يأتي للأمة المنعزلة ؛ لأن العالم كان على طريقة الانعزال ، فنحن مثلاً منذ ألف عام لم نكن نعلم بوجود قارة أمريكا ، بل ولم نعلم كل القارات والبلاد إلا بعد المسح الجوى في العصر الحديث ، وقد توجد مناطق في العالم نعرفها كصورة ولا نعرفها كواقع .

ونحن نعلم أن ذرية آدم - عليه السلام - كانت تعيش على الأرض ، ثم انساحت^(٣) في الأرض ؛ لأن الأقوات التي كانت تكفي ذرية آدم على عهده ، لم تعد تكفي بعدما اتسعت الذرية ، فضاقت الرزق في رقعة الأرض التي كانوا عليها ، وانساح بعضهم إلى بقية الأرض .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً^(٤)﴾

.. [١٠٠]

[النساء]

(١) أولو العزم من الرسل هم : محمد ﷺ ، وإبراهيم ، ونوح ، وموسى ، وعيسى عليهم السلام . قال تعالى : ﴿وَمَا صَبَرَ كَمَا صَبَرْنَا أُولُو الْأَعْزَمِ مِنَ الرُّسُلِ ..﴾ [٢٥٠] [الأحقاف] .

(٢) هو يونس - عليه السلام - أجهأه الله سبحانه وتعالى من بطن الحوت ثم أرسله إلى قومه وهم أهل «نيتوى» بجهة الموصل ، وكان عددهم مائة ألف أو يزيد على المائة ألف - على اختلاف بين المفسرين ، [تفسير الجلالين ص ٣٩٦] و [تفسير ابن كثير (٤/ ٢٢٢)] ، و [صفوة التفاسير للصابوني (٣/ ٢٤)] .. . بتصرف .

(٣) انساح : من السياحة وهي الذهاب في الأرض ، أو الهجرة من مكان إلى مكان . [لسان العرب : مادة (س ي ح)] .

(٤) مراعيماً كثيراً : المراغمة الهجران والتقاعد . والمراد : أنه يجد أماكن كثيرة تصلح لأن يهاجر إليها ليعيش فيها ، [اللسان - بتصرف] .

وسعة : أي : بعيداً عن تضيق المشركين ، وقيل : سعة ، أي : كثرة في الرزق . [مختصر تفسير الطبري] . بتصرف .

وهكذا انتقل بعض من ذرية آدم عليه السلام - إلى مواقع الفيث^(١) ،
فالهجرة تكون إلى مواقع المياه ؛ لأنها أصل الحياة .

ويلاحظ مؤرّخو الحضارات أن بعض الحضارات نشأت على جوانب
الأنهار والوديان ، أما البداوة فكانت تتفرق في الصحارى ، مثلهم مثل
العرب ، وكانوا في الأصل يسكنون عند سد مأرب ، وبعد أن تهدم السد
وأغرق الأرض ، خاف الناس من الفيضان ؛ لأن العدوّين اللذين لم يقدر
عليهما البشر هما النار والماء .

وحين رأى الناس اندفاع الماء ذهبوا إلى الصحارى ، وحفروا الآبار التي
أخذوا منها الماء على قنر حاجتهم ؛ لأنهم عرفوا أنهم ليسوا في قوة
المواجهة مع الماء .

وهكذا صارت الانعزالات بين القبائل العربية ، ومثلها كانت في بقية
الأرض ؛ ولذلك اختلفت الداءات باختلاف الأمم ؛ ولذلك بعث الحق
سبحانه إلى كل أمة نذيراً ، وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝ (٢٤) ﴾ [فاطر]

وقصّ علينا الله سبحانه قصص بعضهم ، ولم يقصص قصص البعض
الأخر .

يقول الحق سبحانه :

(١) الفيث : المطر .

(٢) إن : نافية بمعنى (ما) . أي : ما من أمة إلا أرسل الله إليهم من يذرههم . خلا : مضى وسبق . قال
تعالى : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ ۝ (٢٤) ﴾ [الرعد] .

نذير : صيغة مبالغة من الإنذار ، أي : كثير الإنذار لهم بعذاب الله إذا لم يؤمنوا به . قال تعالى : ﴿ قَدْ
سَاءَ لَكُمْ رَسُولًا يَبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى قُرَّةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۝ (٢٥) ﴾ [المائدة] .

﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ
بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ .. ﴾ (٧٨) [غافر]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ .. ﴾ (٧٩) [يونس]

فهل هؤلاء هم الرسل الذين لم يذكرهم الله ؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه أرسل بعد ذلك هوداً إلى قوم عاد ، وصالحاً إلى
ثمود ، وشعيباً إلى مدين ، ولم يأت بذكر هؤلاء هنا ، بل جاء بعد نوح -
عليه السلام - بخبر موسى عليه السلام ، وكأنه شاء سبحانه هنا أن يأتى لنا
بخبر عيون الرسالات ^(١) .

وما دام الحق سبحانه قد أرسل رسلاً إلى قوم ، فكل قوم كان لهم
رسول ، وكل رسول بعثه الله تعالى إلى قومه .

وكلمة «قوم» ^(٢) فى الآية جمع مضاف ، والرسل جمع ، ومقابلة الجمع
بالجمع تقتضى القسمة أحاداً ، مثلما نقول : هياً اركبوا سياراتكم ،
والخطاب لكم جميعاً ، ويعنى : أن يركب كل واحد منكم سيارته .

وجاء كل رسول إلى قومه بالبينات ، أى : بالآيات الواضحات الدالة
على صدق بلاغهم عن الله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

(١) عيون الرسالات : أكبرها وأهمها ذكرها تفصيلاً ، وذكر غيرها إجمالاً .
(٢) القوم : جماعة الرجال ليس معهم نساء . قال تعالى : ﴿ لَا تَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ .. ﴾ (١١) [الحجرات] ، ثم
قال : ﴿ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ .. ﴾ (١١) [الحجرات] فدل على أن المقصود بالقوم هنا الرجال فقط ،
ويستعمل لفظ القوم ويشمل الأمة كلها رجالاً ونساءً ، مثل قوم نوح وقوم إبراهيم . [انقاسوس القوم]
رائنظر [لسان العرب مادة : قوم] .

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطِيعُ عَلَى قُلُوبِ
الْمُعْتَدِينَ﴾ (٧١) [يونس]

أى: أن الناس جميعهم لو آمنوا لانقطع الموكب الرمالى ، فمركب
إيمان كل البشر لم يستمر ، بل جاءت الغفلة^(١) ، وطبع الله تعالى على
قلوب المعتدين ، والطبع - كما تعلم - هو الختم .

ومعنى ذلك أن القلب المختوم لا يُخرج ما بداخله ، ولا يُدخل إليه
ما هو خارجه ؛ فما دام البعض قد عشق الكفر فقد طبع الله سبحانه على
هذه القلوب ألا يدخلها إيمان ، ولا يخرج منها الكفر ، والطبع هنا
منسوب لله تعالى .

وبعض الذين يتلمسون ثغرات فى منهج الله تعالى يقولون: إن سبب
كفرهم هو أن الله هو الذى طبع على قلوبهم .

ونقول: التفتوا إلى أنه سبحانه يبين أنه قد طبع على قلوب المعتدين ،
فالاعتداء قد وقع منهم أولاً ، ومعنى الاعتداء أنهم لم ينظروا فى آيات الله
تعالى ، وكفروا بما نزل إليهم من منهج ، فهم أصحاب السبب فى الطبع
على القلوب بالاعتداء والإغراض .

وجاء الطبع لتصميمهم على ما عشقوه وألفوه ، والحق سبحانه وتعالى
هو القاتل فى الحديث القدسى :
«أنا أغنى الشركاء عن الشرك»^(٢) .

ولله المثل الأعلى ، فأنت تقول لمن يسألك^(٣) فى غيبه: ما دمت تعشق
ذلك الأمر فاشبع به .

(١) الغفلة : سهو يمتري الإنسان من قلة التحفظ وعدم اليقظة ، قال تعالى : ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ..
(٢) [ق] ، أى : غافلاً عن إدراك القيامة وغافلاً عن أحداث ما بعد الموت . [القاموس القويم]
(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٥) وابن ماجه فى سننه (٤٢٠٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه .
(٢) السادر فى غيبه . الممن فى ضلاله المستمر عليه لا يهتم بشيء ولا يبالي ما صنع . [اللسان مادة : سدر] .

ومثل هؤلاء الذين طبع الله سبحانه وتعالى على قلوبهم ، مثل الذين كذبوا من قبل وكانوا معتدين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ (٧٥)

وكل من موسى وهارون - عليهما السلام - رسول ، وقد أخذ البيعة لهما مراحل ، والأصل فيها أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام :

﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ (١٣) [طه]

وقال الحق سبحانه وتعالى لموسى - عليه السلام :

﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ (١٤) [طه]

ثم سأل موسى - عليه السلام - ربه سبحانه وتعالى أن يشدَّ عَصْدَهُ بآخيه ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ (٣٦) [طه]

لأن موسى - عليه السلام - أراد أن يفقه قوله ، وقد رجع موسى ربه سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ وَاحْطُلْ عَقْدَهُ ^(١) مِنْ لِسَانِي ^(٢) يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ (٢٨) [طه]

(١) مثله : قومه . وقيل : هم أشرف القوم ورجوعهم ورجوعهم الذين يرجع إلى قولهم . (اللسان ، مادة : ملأ) .

(٢) العقدة : تطلق على رنة اللسان وصعوبة النطق ، قال تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام : ﴿ وَاحْطُلْ عَقْدَهُ مِنْ لِسَانِي ﴾ (٢٨) يَفْقَهُوا قَوْلِي [طه] .

وبعد ذلك جاء تكليف هارون بالرسالة مع موسى عليه السلام .

وقال الحق سبحانه : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ^(٢٤) ﴾ [طه]

فالأصل - إذن - كانت رسالة موسى - عليه السلام - ثم ضم الله سبحانه هارون إلى موسى إجابة لسؤال موسى ، والدليل على ذلك أن الآيات كلها المبعوث في تلك الرسالة كانت بيد موسى ، وحين يكون موسى هو الرسول ، وينضم إليه هارون ، لا بد - إذن - أن يصبح هارون رسولاً .

ولذلك نجد القرآن معبراً عن هذا : ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ .. ^(٤٧) ﴾ [طه]

أى : أنهما رسولان من الله .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ^(١٦) ﴾ [الشعراء]

فهما الاثنان مبعوثان في مهمة واحدة ، وليس لكل منهما رسالة منفصلة ، بل رسالتهما واحدة لم تعدد ، وإن تعدد المرسل فكانا موسى وهارون .

ومثال ذلك - والله المثل الأعلى - حين يوفد ملك أو رئيس وقداً إلى ملك آخر ، فيقولون : نحن رسل الملك فلان .

وفي رسالة موسى وهارون نجد الأمر البارز في إلقاء الآيات كان لموسى . ولكن هارون له أيضاً أصالة رسالية ؛ لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا رَسُولَا .. ^(٤٧) ﴾ [طه]

(١) طغى : تجاوز الحد . ومنه قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ^(٢٥) ﴾ [الفجر] أى : ظلموا وتجاوزوا الحد في العصيان . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَاءَ الْمَاءَ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ^(١١) ﴾ [الحاقة] .

ذلك أن فرعون كان متعالياً سَمَجاً^(١) رَذُل^(٢) الخُلُقِ ، فإن تكلم هارون
ليشد أزر^(٣) أخيه ، فقد يقول الفرعون : وما دخلك أنت؟

ولكن حين يدخل عليه الاثنان ، ويعلنان أنهما رسولان ، فإن رد فرعون
هارون ، فكأنه يرد موسى أيضاً .

أقول ذلك حتى نغلق الباب على من يريد أن يتورك^(٤) القرآن متسائلاً:
ما معنى أن يقول القرآن مرة «رسول» ومرة «رسولا» ؟
وفى هذا ردٌ كافٍ على هؤلاء المتوركين .

ويقول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا
فَاسْتَكْبَرُوا .. (٧٥) ﴾ [يونس]

والملاّ: هم أشرف القوم ، ووجوهه وأعيانه والمقربون من صاحب
السيادة العليا ، ويقال لهم : «ملاّ» ؛ لأنهم هم الذين يملأون العيون ؛
أى : لا ترى العيون غيرهم .

وفرعون - كما نعلم - لم يصبح فرعوناً إلا بالملاّ ؛ لأنهم هم الذين
نصّبوه عليهم ، وكان «هامان» مثلاً يدعم فكرة الفرعون ، وكان الكهنة
يؤكدون أن الفرعون إله .

(١) سَمَجٌ الشيء : قُبْحٌ - والسَمَجُ والسَمِيجُ : الذي لا خير فيه [لسان العرب : مادة (س م ح) - ينصرف] .
(٢) الرَذُلُ والرَذِيلُ : الدون من الناس ، وقيل : هو الخسيس . وقيل : هو الرديء من كل شيء . [لسان
العرب : مادة (ر ذ ل)] .

(٣) الأَزْرُ : القوة والثقة ، وأَزْرَةٌ وأَزْوَةٌ : أهانه ومساعدته . [لسان العرب : مادة (أ ز ر)] .

(٤) التوريك : إضافة الذئب أو النقص إلى الشيء ، وحمله عليه على غير الحقيقة ، وتحمل معنى إسقاط
عنه على غيره [انظر : لسان العرب - مادة : ورك] والمراد أنهم يحملون القرآن تناقضاتهم .

سُورَةُ يُوسُفَ

﴿٦١٢﴾

ولكل فرعون ملاً يصنعونه ، والمثل الشعبي في مصر يقول : «قالوا لفرعون من قَرَعَكَ ، قال : لم أجد أحداً يردني» .
أى : أنه لم يجد أحداً يقول له : تَحَقَّلْ . ولو وجد من يقول له ذلك لما تفرعن .

والآيات ^(١) التي بعث بها الله سبحانه إلى فرعون وملئه مع موسى وهارون من المعجزات الدالة على صدق نبوة موسى وهارون - عليهما السلام ، وفيها ما يُلَفِّتُ إلى صدق البلاغ عن الله .

أو أن الآيات هي المنهج الذي يثبت وجود الخالق الأعلى ، لكن فرعون وملأه استكبروا . والاستكبار : هو طلب الكبر ، مثلها مثل «استخرج» أى : طلب الإخراج ، ومثل «استفهم» أى : طلب الفهم . ومن يطلب الكبر إما يفتعل ذلك ؛ لأنه يعلم أن مقوماته لا تعطيه هذا الكبر .

وينهى الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿... وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥)﴾ [يونس]

وشرُّ الإجرام هو ما يتعدى إلى النفس ، فقد يكون من المقبول أن يتعدى إجرام الإنسان إلى أعدائه ، أما أن يتعدى الإجرام إلى النفس فهذا أمر لا مندوحة ^(٢) له ، وإجرام فرعون وملئه أودى بهم إلى جهنم خالدين مخلدين فيها ملعونين ؛ وفي عذاب عظيم ومهين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ بَشِيرًا قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَىٰ أَفْكًا لِّبْنِ إِسْرَٰئِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠)﴾ [الإسراء] والآيات التي أرسل بها موسى عليه السلام هي : العصا ، وإخراج يده بيضاء من غير سوء ، وسنن الجذب ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .
(٢) المندوحة : اتساع الأمر . والمراد : أن فعلهم هذا لا سبب معقول له ، ولا مبرر . [لسان العرب : مادة (ن د ج) بتصرف] .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (٧٦)

وقد جاءهم الحق على لسان الرسل - عليهم السلام - وعلى كل إنسان أن يفهم أنه حين يستقبل من الرسول رسالة الحق ، فليفهم أنها رسالة ليست ذاتية الفكر من الرسول ، بل قد أرسله بها الله الخالق الأعلى سبحانه وتعالى .

ولذلك فالتأبى " على الرسول ، لا يتأبى على مسأوله ؛ لأن الرسول هو مُبلِّغ عن الله تعالى ، والله سبحانه هو الذى بعثه ، ويجب على الإنسان أن يعرف قدر البلاغ القادم من الله الحق ؛ لأنه سبحانه هو الحق الأعلى ، وهو الذى خلق كل شيء بالحق : سماء مخلوقة بالحق ، وأرض مخلوقة بالحق ، وشمس تجري بالحق ، ومطر يتزل بالحق ، وكل شيء ثابت ومتحرك بقوانين أرادها الحق سبحانه .

ولو سيطر الإنسان - دون منهج - على قوانين الكائنات لأفسدها ؛ لأن الفساد إنما يتأتى مما للإنسان دخل فيه ، ويدخل إليه بدون منهج الله .

والفساد إنما يجىء من ناحية اختيار الإنسان للبدايل التى لا يخضع فيها لمنهج الله تعالى .

ولذلك إن أردتم أن تستقيم حياتكم استقامة الكائنات العليا التى لا دخل لكم فيها ، فامثلوا لمنهج الحق وميزانه ؛ لأنه سبحانه هو القائل :

(١) اللام فى كلمة «السحر» للتوكيد . والمعنى : أن ما جئت به ما هو إلا سحر قوى ظاهر ، والسحر هو كل أمر يخفى سسه ، ويتخيل على غير حقيقته بالتمويه والخلع ، قال تعالى عن سحرة فرعون : ﴿ قَالُوا بَلْ أَنْفَعُوا لِقَوْمِ آلِ فِرْعَوْنَ مِنْ حَبَلَتِهِمْ نَجْوَاهُمْ يُجِيبُونَ ﴾ (٥٦) [طه] .

(٢) التأبى : الرفض والكراهية . (اللسان : مادة (أ ب ي)) .

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨)﴾

[الرحمن]

أى : إن كنتم تريدون أن تعادل أموركم ، وتنضبط انضباط الكائنات الأخرى فلتكن إرادة الاختيار المخلوقة لكم خاضعة لمنهج الله تعالى ، وتسير فى إطار هذا المنهج الربانى .
وحين نتأمل قول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا .. (٧٦) ﴾ [يونس]

نجد فى هذا القول توجيهاً إلى أن الحق لم يأت من ذوات الرسل ؛ فهذه الذوات لا تدخل لها فى الموضوع ، وإياك أن تهاجم رسالة حق جاءتك من إنسان لا تحبه ، بل ناقش الحق فى ذاته ، ولا تدخل فى متاهة البحث عمّن جاء بهذا الحق ، وانظر إلى من كفروا بمحمد رسول الله ﷺ ، فهُمُ من قالوا :
﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣٦) ﴾ [الزخرف]

وهم بذلك قد أدخلوا النازل عليه القرآن فى الحكم ، مع أن العقل كان يقتضى أن ينظروا إلى القرآن^(١) فى ذاته ، وأن يأخذوا الحكمة من أى وعاء خرجت .

وعليك أنت أن تستفيد من هذا الأمر ، وتحذ الحكمة من أى قائل لها ،

(١) لأن اعتدال الموازين ثبات للحق ، وإثبات الحق وأخذ طريقه استقامت موازين الحياة ، وعند استقامتها لا نجد محروماً ولا مظلوماً .

(٢) القرىتان هما : مكة والطائف . واختلفت الأقوال فى تحديد هذين الرجلين ، ف قيل : إنهما الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفى . وقيل : إنهما عمير بن عمرو بن مسعود ، وحنبة بن ربيعة ، وقيل : ابن عبد ياليل . والمقصود أنه رجل كبير من أى البلدتين كان . انظر ابن كثير (١٢٧/٤) .

(٣) وقد نقلت لنا كتب السيرة أن الوليد بن المغيرة قال فى وصف القرآن : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لمدق ، وإن فرعه لجناة ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته « سيرة ابن هشام (١/٢٧٠) فرغم قوله فى القرآن ومدحه فيه ، إلا أنه مسايرة لقومه ، وحفاظاً على مكانته بينهم جعل القرآن واتهم محمداً ﷺ بالسحر .

ولا تنظر إلى من جاءت الحكمة منه ، فإن كنت تكرهه فأنت ترفض أن تأخذ الحكمة منه ، وإن كنت تحبه أخذتها . لا ، إن عليك أن تأخذ الحكمة ما دامت قد جاءت بالحق ؛ لأنك إن لم تأخذها أضعت نفسك ^(١) .

والحق هو الشيء الثابت ، وإن ظهر في بعض الأحيان أن هناك من طمس الحق ، وأن الباطل تغلب عليه ، فهذا يعنى ظهور المفسد ؛ فيصرخ الناس طالعين الحق .

وانتشار المفسد هو الذى يجعل الناس تستدعى الحق ، وتتحمس له ؛ لأن الباطل حين يَعْصُ الناس ، تجدهم يتجهون إلى الحق ليمسكوا به .
والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا ^(٢) رَابِيًا ^(٣) وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ^(٤) وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ^(٥) ﴾ (١٧) [الرعد]

(١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحقُّ بها » .

أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٨٧) وابن ماجه فى سننه (٤١٦٩) . قال الترمذى : حديث غريب لا تعرفه إلا من هذا الوجه ، وإبراهيم بن الفضل ، يُعَصِّفُ فى الحديث من قبل حفظه .

(٢) الزبد : هو ما يعلو ماء البحر إذا هاج موجه . وبحر مُزِيد ، أى : مانع يثقل بالزبد . وزبد الماء : خفافته وقذاه . والجمع : أزياد . [اللسان العرب : مادة (ز ب د)] .

(٣) رابياً : مرتفعاً لأنه يكون أعلى سطح الماء . [اللسان : مادة (ر ب ي)] .

(٤) جفاء السيل : هو ما يقلقه من الزبد والوسخ ونحوهما . [اللسان : مادة (ج ف ي)] .

(٥) اثن : الصفة المحببة يشبَّه بها غيرها . فالأمثال تصور المعانى بصورة الأشخاص ، لأنها أثبت فى الأذهان لاستمالة اللذهن فيها بالحواس . وأمثال القرآن قسمان :

- قسم ظاهر موضح به ، مثل قوله تعالى : ﴿ مِثْلَهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَتَاهَا مَا هُوَ إِلَّا دُخَانٌ يَذْهَبُ اللَّهُ يَوْمَئِذٍ وَتَرَكَّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٥٩) [البقرة]

- قسم كامن ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ (٦٧) [الفرقان] وهو يؤدى معنى مثل : خير الأمور أوسطها . [انظر : الإنفاق فى علوم القرآن ٤ / ٤٦]

سُورَةُ الْيُونُسَ

٦١٢٩

والحق سبحانه هنا يضرب المثل النازل كسيل من السماء على الجبال ،
فيأخذ كل واد أسفل الجبال على قدر احتماله ، ويرتوى الناس ، وترتوى
الأرض ، لكن السيل في أثناء نزوله على الجبال إنما يحمل بعضاً من
الطمي ، والقش ، ويستقر الطمي في أرض الأودية ؛ لتستفيد منه ،
أما القش والقاذورات فتطفو على سطح الماء ، وتسمى تلك الأشياء الطافية
زَبَدًا ، وساعة تضعها في النار ، فهي تصدر أصواتاً تسمى (الطشطشة).

ومثال ذلك : حين نوقد النار ؛ لنصهر الحديد ، نجد الخبث هو الذي
يطفو ، ويبقى الحديد النقي في القاع.

هذا الزبد الذي يوجد فوق الماء ينزاح على الجوانب ، ومثال ذلك : ما
نراه على شواطئ البحر حين يقذف الموج بقاذورات على الشاطئ ، هذه
القاذورات التي ألقتها البواخر ، فيلفظها البحر بالموج ، وهذا الزبد يذهب
جُفَاءً ، أما ما ينفع الناس فيبقى في الأرض ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ.. (١٧)﴾ [الرعد]

إذن : فالله سبحانه يترك للباطل مجالاً ، ولكن لا يسلم له الحق ، بل
يترك الباطل ؛ ليحفز غيره الناس على الحق ، فإن لم يغاروا على الحق غار
هو عليه^(١).

وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [يونس]

ولأنهم كانوا مشهورين بالسحر ؛ ظنوا أن الآيات التي جاءت مع
موسى - عليه السلام - هي السحر المبين ، أي : السحر الظاهر الواضح .

(١) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « ليس أحد أحب إليه المدح من الله ، من أجل ذلك
مدح نفسه » وليس أحد أغبر من الله ، من أجل ذلك حرم الفراعنة « أخرججه مسلم في صحيحه
(٢٧٦٠) ، والبخاري في صحيحه (٤٦٣٤) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا
وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ (٧٧)

وفي هذه الآية ما يوضح رد سيدنا موسى عليه السلام :

﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا .. ﴾ (٧٧) [يونس]

والذين يتوركون على القرآن يقولون : كيف يأتي القرآن ليؤكد أنهم قالوا
إن هذا لسحر مبين ، ثم يأتي في الآية التي بعدها ليقول إنهم قالوا
متسائلين : أسحر هذا ؟

وقمهم هؤلاء الذين يتوركون على القرآن أن كلمة ﴿ أَسِحْرٌ هَذَا ﴾ من
كلماتهم ، ولكن هذا هو قول موسى عليه السلام ، وكأن موسى عليه
السلام قد تساءل ؛ ليعيدوا النظر في حكمهم : هل ما جاء به سحر ؟ وهذا
استفهام استكاري ، وأريد به أن يؤكد أن هذا ليس بسحر ، ولكن جاء
بصيغة التساؤل ؛ لأنه واثق أن الإجابة الأمينة ستقول : إن ما جاء به ليس
سحراً.

ولو جاء كلام موسى - عليه السلام - كمجرد خبر لكان يحتمل
الصدق ، ويحتمل الكذب ، لكنه جاء بصيغة الاستفسار ؛ لأن المكذب له
مسيحيب بلجلجة^(١) .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - أنت حين تذهب لشراء قماش ،
فيقول لك البائع : إنه صوف خالص ونقي ، فتمسك بعود كبريت وتشعل

(١) اللجلجة والتجلجج : التردد في الكلام ، والاختلاط والاضطراب فيه . ولذلك قيل : « الحق أبلج ،
والباطل جلجج » . أي : أن الحق واضح قوي ظاهر ، أما الباطل فهو ضعيف مضطرب لا ثبات
له . [لسان العرب : مادة (ل ج ج) - بصرف] .

النار في خيط من القماش ، فإن احترق الصوف كما يحترق البلاستيك
أو القماش الصناعي ، فأنت تقول للبائع : وهل هذا صوف نقي يا رجل ؟
وهنا لن يجيب البائع إلا بالموافقة ، أو بصمت العاجز عن حجب الحقيقة .

إذن : أنت إن طرحت الأمر باستفهام إنكارى فهذا أبلغ من أن تقوله
كخبر مجرد ؛ لأن السامع لك لا بد أن يجيب .

وقول الحق سبحانه وتعالى على لسان موسى عليه السلام :

﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ .. ﴾ (٧٧)

[يونس]

يفيد ضرورة النظر إلى الحق مجرداً عنّ جاء به .

ولذلك لم يقل موسى عليه السلام : أتقولون للحق لما جئناكم به : إنه
سحر مبین ؟

إن القول الحكيم الوارد في الآية الكريمة هو تأكيد على ضرورة النظر
إلى الحق مجرداً عنّ جاء به .

ويهي الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ .. أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ (٧٧)

[يونس]

إذن : فسيدنا موسى - عليه السلام - قد أصدر الحكم بأن السحر
لا ينفع ، ولكن الآيات التي جاء بها من الحق سبحانه قد أفلحت ، فقد
ابتلعت عصاه - التي صارت حية - كل ما ألقوه من حبالهم ؛ وكل
ما صنعوه من سحر^(١) .

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ (١٧٧) فوقع الحق وبطل
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧٨) ﴿ [الأعراف] .

وأراد الحق سبحانه لعصا موسى أن تكون آية معجزة^(١) من جنس ما نبغ فيه القوم .

فأله سبحانه حين يرسل معجزةً إلى قوم ؛ يجعلها من جنس ما نبغوا فيه ؛ لتكون المعجزة تحدياً في المجال الذي لهم به خبرة ودربة^(٢) ودراية ؛ فأنت لن تتحدى رجلاً لا علم له بالهندسة ؛ لبنى لك عمارة ، ولكنك تتحدى مهندساً أن يبني لك هرمًا ؛ لأن العلوم المعاصرة لم تتوصل إلى بعض ما اكتشفه القدماء ولم يسجلوه في أوراقهم ، أو لم يعثر على كشف يوضح كيف فرغوا الهواء بين كل حجر وآخر فتماسكت الحجارة .

وقول الحق سبحانه وتعالى هنا :

﴿ .. وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ (٧٧)

[يونس]

يبين لنا أن الفلاح مأخوذ من العملية الحسية التي يقوم بها الفلاح من جهد في حرث الأرض ووضع البذور ، وري الأرض وانتظار الثمرة بعد بذل كل ذلك الجهد .

والفلاح أيضاً مأخوذ من فلاح الحديد ، أي : شق الحديد ، ككتل أو كقطع ، ولا يصلح إلا إذا أخذ الحديد الشكل المناسب للاستعمال .

وقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ (٧٧)

[يونس]

هو لفتنا أن السحر نوع من التخيل ، وليس حقيقة واقعة .

ولذلك قال الحق سبحانه في موضع آخر من القرآن :

(١) المعجزة هي : الأمر الخارق للعادة يُجرى بها الله على يد النبي أو الرسول تأييداً له وتصديقاً لرسالة ،

كمعجزات موسى وعيسى عليهما السلام انقلاب العصا حية وانفلاق البحر وإبراء الأكمه والأبرص .

وخص^(٢) بمعجزة القرآن الخالدة ، وله^(٣) معجزات حسية كتبوع الماء من بين يديه^(٤) .

(٢) دربة : عادة وخبرة أو تدريب .

[الأعراف]

﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ (١١٦)

وقال الحق سبحانه أيضاً :

﴿ .. فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ (١١٦) [طه]

إذن : فالسحر هو تخييل فقط ^(١) وليس تغييراً للحقيقة .

ولأن معجزة موسى - عليه السلام - تحدث كل القدرات ^(٢) ؛ لذلك أعلن فرعون التعيسة العامة بين كل من له علاقة بالسحر ، الذي هم متفوقون فيه ، أو حتى من لهم شبهة معرفة بالسحر ^(٣) .

ولأن السحر مجرد تخييل ، وجدنا السحرة حين اجتمعوا وألقوا حبالهم وعصيتهم ، ثم ألقى موسى عصاه ، فإذا بعصاه قد تحولت إلى حية تلتف ^(٤) ما صنعوا ، وهنا ماذا فعل السحرة ؟

يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة طه :

﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجُودًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ (٧٠) [طه]

لأن الساحر يرى ما يفعله على حقيقته ، وهم خيلوا لأعين الناس ، لكنهم يرون حبالهم مجرد حبال أو عصيتهم مجرد عصى .

(١) سحر قوم فرعون هو من نوع سحر التخيل والأخذ بالعيون ، ومبناه على أن البصر قد يخطئ ويستغل بالشئ المعين دون غيره ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ (١١٦) [الأعراف] . وقال تعالى : ﴿ .. يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ (١١٦) [طه] .

(٢) السحر : هو التأثير الشديد ، فإن كان من المخلوق فهو تخيل وحيل ، وإن كان من الخالق فهو إلهجاز وتغيير ماهية الشئ بقدرته سبحانه ؛ ولذلك انتصر موسى - عليه السلام - على السحرة ؛ لأن الله سبحانه أجابهم بقدرته الشئ لا راد لها .

(٣) وذلك أن فرعون من مكره جعل الملا من حوله هم الذين يصعدون المواجهة مع موسى بأن قال لهم : ﴿ .. إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٤) يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فمادام أنهم آمنون ﴿ [الشعراء] . فكان ردهم عليه أن قالوا له : ﴿ أَرَجِ وَاطَّاعُوا وَأَبِغْ فِي الْمُنَافِقِينَ حَاشِرِينَ ﴾ (٣٦) بأنك بكل سحر عليهم ﴿ [الشعراء] .

(٤) التفت : سرعة الأخذ والتناول - [اللسان : مادة (ل ق ف)] .

أما عصا موسى - عليه السلام - فلم تكن تخبيلاً ، بل وجدها
السحرة حية حقيقية ، ولقفت بالفعل ما صنعوا ، ولذلك خروا^(١)
ساجدين ، وأعلنوا الإيمان برب موسى وهارون .

هم - إذن - لم يعلنوا الإيمان بموسى وهارون ، بل أعلنوا الإيمان :

﴿ رَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ .. (٧٠) [طه]

لأنهم عرفوا بالتجربة أن ما ألقاه موسى ليس سحراً ، بل هو من فعل خالق
أعلى .

وكان ثبات موسى - عليه السلام - في تلك اللحظة نابعاً من التدريب
الذي تلقاه من ربه ، فقد سأله الحق سبحانه :

﴿ وَمَا تَلَكَ بِمِيزَانٍ يَا مُوسَى ﴾ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ^(٢) عَلَيْهَا وَأَهشُّ^(٣)
بِهَا عَلَى غَنَمِي .. (١٨) [طه]

وقد أجمل موسى وفصل في الرد على الحق سبحانه ، إيناساً وإطالة
للأنس بالله تعالى ، وحين رأى أنه أطال الإيناس أوجز وقال بأدب :

﴿ .. وَلِي فِيهَا مَأْرَبٌ^(٤) أُخْرَى ﴾ (١٨) [طه]

إذن : فقد أدركه أولاً شهوة الأنس بالله تعالى ، وأدرك ثانياً أدب
التخاطب مع الله تعالى ، ودربه الحق سبحانه على مسألة العصا حين أمره

(١) خر : سقط ووقع . والمراد أنهم أسروها بالسجود لله رب العالمين .

(٢) أتوكأ عليها : اتعمل واعتمد واستند عليها . [اللسان : مادة (ركأ) - بصرف] .

(٣) ﴿ وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي .. ﴾ [طه] أي : أهز بها الشجر لتساقط أوراقه لترعاه غنمي . نقله ابن كثير
في تفسيره (١٤٥ / ٣) .

(٤) مأرب أخرى : أي : مصالح وحاجات ومنافع أخرى غير ذلك .

(٤) الكبرياء : العظمة والرياسة . [ابن كثير ٤/٤٢٦] .

وهنا نجد سحرة فرعون ينسبون مجيء معجزة تحول العصا إلى حية، ينسبونها لموسى - عليه السلام - رغم أن موسى عليه السلام قد نسب مجيء المعجزة إلى الله تعالى .

وكان واجب المرسل إليه - فرعون ومثله - أن ينظر إلى ما جاء به الرسول ، لا إلى شخصية الرسول ^(١) .

ولو قال فرعون لموسى : « جئ بك » لكان معنى ذلك أن فرعون يعلن الإيمان بأن هناك إلهاً أعلى ، ولكن فرعون لم يؤمن لحظتها ؛ لذلك جاء قوله : ﴿ أَجِئْتَنَا ﴾ فنسب المجيء على لسان فرعون لموسى عليه السلام .

ولماذا المجيء ؟

يقول الحق سبحانه على لسان فرعون وقومه :

﴿ أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴾ (٧٨) [يونس]

والالفتات هو تحويل الوجه عن شيء مواجه له ، وما دام الإنسان يصدد شيء ؛ فكل نظره واتجاهه يكون إليه ، وكان قوم فرعون على فساد وضلال ، وليس أمامهم إلا ذلك الفساد وذلك الضلال .

وجاء موسى عليه السلام ؛ ليصرف وجوههم عن ذلك الفساد والضلال ، فقالوا :

﴿ أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴾ (٧٨) [يونس]

(١) فيما قاله فرعون عن موسى يطمئن في شخصيته ما حكاه رب العزة في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فرعون في قومه قَالَ يَا قوم ألَيْسَ لِي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تتصرون ﴾ (٥٠) أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين (٥١) ﴿ [الزخرف] وذلك أن موسى كان لسانه لا يتطرق بالكلام ، وقد عبر عن ذلك في دعائه : ﴿ قَالَ رب اشرح لي صدري ﴾ (٢١) ويسر لي أمري ﴾ (٢٢) وأحل عقدة من لساني ﴾ (٢٣) بقهوها قولبي ﴾ (٢٤) [طه] .

وهكذا يكشفون حقيقة موقفهم ، فقد كانوا يقلدون آباءهم ، والتقليد يريح المقلد ، فلا يُعْمَلُ عقله أو فكره في شيء ليقتنع به ، ويبنى عليه سلوكه^(١) .

والمثل العامي يصور هذا الموقف بعمق شديد حين يقول : « مثل الأطرش في الزفة » أي : أن فاقد السمع لا يسمع ما يقال من أي جمهرة ، بل يسير مع الناس حيث تسير ، ولا يعرف له انجهاً .

والمقلد إنما يعطل فكره ، ولا يختار بين البدائل ، ولا يميز الصواب ليفعله ، ولا يعرف الخطأ فيتجنبه ،

وفرعون وملؤه كانوا على ضلال ، هو نفس ضلال الآباء ، والضلال لا يكلف الإنسان تعب التفكير ومشقة الاختيار ، بل قد يحقق شهوات عاجلة .

أما تمييز الصواب من الخطأ واتباع منهج السماء ، فهو يحجب الشهوة ، ويلزم الإنسان بعدم الانفلات عكس الضلال الذي يطيل أمد^(٢) الشهوة .

إذن : فالمقلد بين حالتين :

الحالة الأولى : أنه لا يُعْمَلُ عقله ، بل يفعل مثل من سبقوه ، أو مثل من يحيا بينهم .

(١) وهذا التقليد نهى عنه رسول الله ﷺ في حديث ، فعن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال : « لا تكونوا إمعة ، تقولون . إن أحسن الناس أحسناً ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا » أخرجه الترمذي في سننه (٢٤٠٧) وقال : حديث حسن غريب لا يخرجه إلا من هذا الوجه .

(٢) أمد الشهوة : غايته . والأمد : منتهى الأجل . وقد وردت هذه اللفظة ثلاث مرات في القرآن ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ أَذْرَى أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا ﴾ [الجن] أي : زماناً بعيداً . وقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ نَجْعِدُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَيَمِينًا عَمِيدًا ﴾ . (٣) ﴿ إِنْ عَمْرَانُ ﴾ أي : في غاية البعد . وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ بَخْسَاهُمْ لِيُكْفِيَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الكهف] أي : كمدة وزماناً .

والحالة الثانية: أنه رأى أن ما يفعله الناس لا يلزمه بتكليف ، ولكن الرسول الذي يأتي إنما يلزمه بمنهج ، فلا يكسب - على سبيل المثال - إلا من حلال ، ولا يفعل مشكراً ، ولا يلزم أحداً ، وهكذا يقيد المنهج حركته ، لكن إن اتبع حركة آبائه الضالين ، فالحركة تسع ناحية الشهوات .

ولذلك أقول دائماً: إن مسألة التقليد هذه يجب أن تلفت إلى قانون التربية ، فالنشء ما دام لم يصل إلى البلوغ فأنت تلاحظ أنه بلا ذاتية ويقلد الآباء ، لكن فور أن تتكون له ذاتية يبدأ في التمرد ، وقد يقول للآباء: أنتم لكم تقاليد قديمة لا تصلح لهذا الزمان ، لكن إن تشرب النشء القيم الدينية الصحيحة ؛ فيمثل لقانون الحق ، ويحجز نفسه عن الشهوات .

ونحن نجد أبناء الأسر التي لا تتبع منهج الله في تربية الأبناء وهم يعانون من أبائهم حين يتسلط عليهم أقران^(١) السوء ، فيتجهون إلى ما يوسع دائرة الشهوات من إدمان وغير ذلك من المفاسد .

لكن أبناء الأسر الملتزمة يراعون منهج الله تعالى ؛ فلا يقلدون أحداً من أهل السوء ؛ لأن ضمير الواحد منهم قد عرف التمييز بين الخطأ والصواب .

ثم إن تقليد الآباء قد يجعل الأبناء مجرد نسخ مكررة من آبائهم ، أما تدريب وتربية الأبناء على أعمال العقل في كل الأمور ، فهذه هي التشئة التي تتطور بها المجتمعات إلى الأفضل إن اتبع الآباء منهج الله تعالى ، وتتكون ذاتية الابن على ضوء منهج الحق سبحانه ، فلا يتمرد الابن متجهاً إلى الشر ، بل قد يتمرد إلى تطوير الصالح ليزيده صلاحاً .

التقليد - إذن - يحتاج إلى بحث دقيق ؛ لأن الإنسان الذي سوف تقلده ، لن يكون مثولاً عنك ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

(١) أقران : جمع قرن (بكسر القاف وتسكين الراء) وهو الظير والمثل . والمراد بأقران السوء : أصدقاء السوء ورفقاء الشر والرفايل . [لسان العرب : مادة (قرن) - بتصرف] .

﴿يُنَاقِهَا النَّاسُ اثْقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا فَوْثٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا..﴾ (٣٣) [القمان]

إذن : فأمر الابن يجب أن يكون تابعاً من ذاته ، وكذلك أمر الأب ، وعلى كل إنسان أن يعمل عقله بين البدائل^(١) .

ولذلك نجد القرآن الكريم يقول على السنة من قلّدوا الآباء :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا^(٢) عَلَيْهِ آبَاءَنَا ..﴾ (١٧٠) [البقرة]

ثم يرد عليهم الحق سبحانه :

﴿..أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٧٠) [البقرة]

فإذا كانت المسألة مسألة تقليد ، فلماذا يتعلم الابن ؟ ولماذا لا ينال الآباء على الأرض ولا يشترون أسيرة ؟ ولماذا ينجذبون إلى التطور في الأشياء والأدوات التي تسهل الحياة ؟

فالتقليد هو إلغاء العقل والفكر ، وفي إلغائهما إلغاء التطور والتقدم نحو الأفضل .

إذن : فالقرآن يحثنا على أن نستخدم العقل ؛ لنختار بين البدائل ، وإذا كان المنهج قد جاء من السماء ، قلّتهتد بما جاء لك ممن هو فوقك ، وهذا الاهتداء المختار هو السمو نحو الحياة الفاضلة .

(١) البدائل : ما يصلح لأن يختار منه الإنسان ، فهي مواضع الاختيار في التكليف ، فله أن يختار بين الإيمان والكفر ، الطاعة والمعصية ، قال تعالى : ﴿وَنَقُصُّ رِمَازَهَا (٦) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)﴾ [الشمس] .

(٢) أَلْفَيْنَا : وجدنا . ألفى الشيء وجدّه . قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ أَقْبَرُوا آبَاءَهُمْ حَالِينَ﴾ (٦٩) [الصافات] ، وقال : ﴿وَأَلْفَيْنَا سَبِيلَهَا لَدَا الْبَابِ ..﴾ (١٥) [يوسف] أي : وجدناه .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴾ (١٠٤) ﴿

[الثالثة]

أى : أنهم أعلنوا أنهم فى غير حاجة للمنهج السماوى فردُّ عليهم القرآن :

﴿ .. أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١٠٤) ﴿

[الثالثة]

وهكذا نجد أن القرآن قد جاء بموقفين فى آيتين مختلفتين عن المقلدين :

الآية الأولى : هى التى يقول فيها الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. بَلْ تَتَّبِعُ مَا أَفْلَحْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١٧٠) ﴿

[البقرة]

والآية الثانية : هى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١٠٤) ﴿

[الثالثة]

وهم فى هذه الآية أعلنوا الاكتفاء بما كان عليه آبائهم .

وهناك فارق بين الآيتين ، فالعاقل غير من لا يعلم ؛ لأن العاقل قادر على الاستنباط ، ولكن من لا يعلم فهو يأخذ من استنباط غيره .

(١) حسبنا : يكفيننا . وهناك فارق بين قوله الكافرين للمقلدين لأبائهم هنا ، وبين قول المؤمنين لهذه الكلمة : ﴿ حَسْبُنَا ﴾ ، فالمؤمنون قالوا : ﴿ .. حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (١٧٧) ﴿ [آل عمران] ، وقالوا : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرِسَالَاتُهُ .. ﴾ (٩٠) ﴿ [التوبة] ، فالمؤمنون اكتفوا بما جاءهم من الله وأوكلوا الأمر إلى الله رغم معاداة الآباء لهم ورغم أن موقفهم هذا سيضرهم فى دينهم وقد يقطع أرواقهم ، فهم قد نظروا إلى الآخرة ، أما الكافرون فإنهم يعيشون دينهم بكل ما فيها من ملذات وشهوات .

إِذْ : فالذين اكتفوا بما عند آبائهم ، وقالوا :

﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا .. (١٠٤) ﴾ [المائدة]

هؤلاء هم الذين غالوا في الاعتزاز بما كان عند آبائهم ؛ لذلك جاء في آبائهم القول بأنهم لا يعلمون ،

أى : ليس لهم فكر ولا علم على الإطلاق ، بل يعيشون في ظلمات من الجهل .

وهنا يقول الحق سبحانه على لسان فرعون وقومه :

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا غَمًّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبَرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ .. (٧٨) ﴾ [يونس]

أى : هل جئت لتصرفنا ، وتحوّل وجوهنا أو وجهتنا أو طريقنا وتأخذنا عن وجهة آبائنا الذين نقلدهم ؛ لتأخذ أنت وأخوك الكبرياء في الأرض ؟ وهكذا يتضح أنهم يعتقدون أن الكبرياء الذى لهم في الأرض قد تحقق لهم بتقليدهم آباءهم ، وهم يحبون الحفاظ عليه ، والأمـر هنا يشمل نقطتين :

الأولى : هى ترك ما وجدوا عليه الآباء .

والثانية : هى الكبرياء ^(١) والعظمة فى الأرض .

ومثال ذلك : حين يقول مقاتل لآخر : « أرم سيفك » وهى تختلف عن قوله : « هات سيفك » ، فَرَمَى السيف تجريد من القوة ، لكن أخذ السيف يعنى إضافة سيف آخر إلى ما يملكه المقاتل الذى أمر بذلك .

(١) الكبرياء : العظمة والملك . وهى عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود ، ولا يوصف بها إلا الله تعالى . قال صاحب « القاموس القويم » : هى العظمة والتجبر والسلطان والسيطرة ، وهى فى حق الله سبحانه العظمة الحقة ، والسلطان القوى ، والسيطرة الكاملة بتصرف .

وهم هنا وجدوا في دعوة موسى عليه السلام مصيبة مركبة .

الأولى : هي ترك عقيدة الآباء .

والثانية : هي سلب الكبرياء ، أي : السلطة الزمنية والجاه والسيادة والعظمة والاثمار^(١) ، والمصالح المقضية ، فكل واحد من بطانة^(٢) الفرعون يأخذ حظه حسب اقترابه من الفرعون .

ولذلك أعلنوا عدم الإيمان ، وقالوا ما يُنهى به الحق سبحانه الآية الكريمة التي نحن بصدددها :

﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧٨)

[يونس]

أي : أن قوم فرعون والملأ أقرؤ بما حرصوا عليه من مكاسب الدنيا والكبرياء فيها ، ورفضوا الإيمان بما جاء به موسى وهارون- عليهما السلام .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَشْتُونِي بِكُلِّ سَحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ (٧٩)

وكان فرعون يعلم تقدم السحرة في دولته ، ويكفى أنه شخصياً خيّل للناس أنه إله ، وجاء أمره أن يأتي أعوانه بالسحرة ، وفور أن قال الأمر جيء بالسحرة .

وأورد الحق سبحانه في الآية التي بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى الْقَوْمَ مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ (٨١)

(١) الاثمار : المشاور في الأمر والتواصي به . ويسمى المشارو اثماراً لأن المشاروين يقبل بعضهم أمر بعض . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْعَا الْمَدْيَنَةِ يُسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ... ﴾ [القصص] ، [القاموس القويم] . وانظر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٨٣ .

(٢) بطانة الرجل : خاصته . [لسان العرب : مادة (ب ط ن)] .

وكان المسافة بين نطق فرعون بالأمر وبين تنفيذ الأمر هي أضيق مسافة وقتية ، وذلك حتى نفهم أن أمر صاحب السلطان لا يحتمل من الناس التأجيل أو التباطؤ في التنفيذ .

والقرآن حينما يعالج أمراً من الأمور فهو يعطى صورة دقيقة للواقع ، ولا يأتي بأشياء تقسد الصورة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَتَقُولُوا مَا آتَمُّ مَلْقُون ۖ ﴾ [يونس]

وفي هذه الآية تلخيص للموقف كله ، فحين علم السحرة أن فرعون يحتاجهم في ورطة ^(١) تتعلق بالحكم ، فهذه مسألة صعبة وقاسية ، وعليهم أن يسرعوا إليه .

ولم يأت الحق سبحانه هنا بالتفصيل الكامل لذلك الموقف ؛ لأن القصة تأتي بنقاطها المختلفة في مواضع أخرى من القرآن ، وكل آية توضح النقطة التي تأتي بذكرها ^(٢) .

لذلك لم يقل الحق سبحانه هنا : إن أعوان فرعون نادوا في المدائن ^(٣) ليأتى السحرة ، مثلما جاء في مواضع أخرى من القرآن ^(٤) .

(١) الورطة : الوحل تقع فيه الغنم فلا تقدر على التخلص منه . يقال : تورطت الغنم إذا وقعت في ورطة ، ثم صار مثلاً لكل شدة وقع فيها الإنسان . وتورط فلان في الأمر ، واستورط فيه : إذا ارتبك فيه ، فلم يسهل له للخروج منه . [لسان العرب : مادة (ورط)] .

(٢) وهذه ميزة النقص القرآني في الإشارة إلى قصصه عنا قصة يوسف عليه السلام .

(٣) المدائن : جمع مدينة ، وهي القرى الكبيرة . وقد ورد هذا الجمع في القرآن تحاشياً بقصة موسى ثلاث مرات ، أما المفرد منه فقد جاء ١٤ مرة منها ٤ مرات خاصة بمدينة الرسول ﷺ [التوبة : ١٠٦ ، ١٢٠] [الأحزاب : ٦٠] [المائدة : ٨٠] .

(٤) وذلك في قوله تعالى عن سحرة فرعون : ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ خَاضِرِينَ ۖ ﴾ [الأعراف] ، وقال تعالى : ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ خَاضِرِينَ ۖ ﴾ [الشعراء] .

ولم يقل لنا إن السحرة أرادوا أن يستفيدوا من هذه المسألة ، وقالوا للفرعون ^(١) :

﴿ .. إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ (١١٣) [الأعراف]

ووضَّع مثل هذا الشرط يوضح لنا طبيعة العلاقات في ذلك المجتمع ، فطلبهم للأجر ، يعنى أن عملهم مع الفرعون من قبل ذلك كان تسخييراً وبدون أجر ، ولما جاءتهم الفرصة ورأوا الفرعون في أزمة ؛ طالبوا بالأجر ، ووعدهم فرعون بالأجر ، وكذلك وعدهم أن يكونوا مقرئين ^(٢) ؛ لأنهم لو انتصروا بالسحر على معجزة موسى ؛ ففى ذلك العمل محافظة وصيانة للملك ، ولا بد أن يصبحوا من البطانة المستفيدة ، ووعدهم الفرعون بذلك شحداً لهمتهم ليبادروا بإبطال معجزة موسى ؛ ليستقر عرش الفرعون .

وشاء الحق سبحانه الإجمال هنا في هذه الآية - التى نحن بصدده - خواطرتنا عنها - وجاء ببقية اللفظ في المواضع الأخرى من القرآن .
وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقْرَأُوا مَا أَنْتُمْ مُقْرُونَ ﴾ (٨٠) [يونس]

(١) فرعون : الفرعون الكبير والتعجيز ، وفرعون الذى ذكر فى كتاب الله ترك صرَّفه فى قول بعضهم ؛ لانه لا سى له وكلايس فيمن أخذه من أبله . وقال ابن سيد : إن فرعون علَّم أعجمى . ولذلك لم يضرف . الجوهرى : فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر ، وكل عات فرعون ، والعتاة الفراعنة ، وقد تفرعن ، وهو ذو فرعون أى دهاء وتكبراً ، وقيل : الفرعون بلفظ القبط : التماسح (لسان العرب)
وقيل فى القاموس القويم : فرعون لقب يسمى به كل ملك فى مصر فى الزمن القديم ، وفرعون موسى هو متفتاح ، وقيل رمسيس الثانى . والعبرة بالأحداث لا بذات فرعون ، قال تعالى : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ (٢٨) [طه] والله أعلم .

(٢) وذلك أن السحرة عندما طلبوا الأجر يقولهم : ﴿ .. إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ (١١٣) [الأعراف]
قال فرعون : ﴿ .. نَعَمْ وَإِنَّمَا لَكُمْ مِنَ الْمَقْرِبِينَ ﴾ (١١٤) [الأعراف] فزادهم القرب منه فوق الأجر ؛ لذلك جاء عقابه لهم شديداً بعدما اتبعوا موسى ؛ لأن ما وعدهم به كان عظيماً ، فجاء العقاب على قدره .

وَأَلْقَى السَّحْرَةَ عَصِيَّتَهُمْ وَحِبَالَهُمْ .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۚ

إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

وبحق نعلم أن الحق سبحانه هنا شاء الإجمال ، ولكنه بيّن بالتفصيل ما حدث ، في آية أخرى ، قال فيها سبحانه عن السحرة :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الأعراف]

ونحن نعلم أن المواجهة تقتضى من كل خصم أن يدخل بالرعب على خصمه ؛ ليضعف معنوياته .

وهنا أوضح لهم موسى - عليه السلام - أن ما أتوا به هو سحر ومجرد تخيل .

وقد أعلم الحق سبحانه نبيه موسى - عليه السلام - أن عصاه مستصير حية حقيقية ، بينما ستكون عصيهم وحبالهم مجرد تخيل^(١) للعيون .

وقال لهم موسى - عليه السلام - حكم الله تعالى في ذلك التخيل :

﴿ .. مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ

الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [يوسف]

(١) والخيال ما تشبه لك في اللحظة أو في النوم من صورة . والظل : ما يتصوره ذهنك من شيء - والخيال إحدى قوى العقل التي يتخيل بها الأشياء ، ويتصورها .

قال تعالى : ﴿ .. يَخْلُقُ إِلَهُ مِنْ سَحَرِهِمْ أَنَّهُمْ تَسْمَعُ ﴾ (٦٦) [طه] أي : تشبه له ، ويصور له بسبب سحرهم أنها تسمى كالحيات ، والحقيقة أنها ليست حيات ، ولكنه توهم وتخيل (القاموس القويم) .

وهكذا جاء القول الفصل الذي أنهى الأمر وأصدر الحكم فيما فعل فرعون وملأؤه^(١) والسحرة ، فكل أعمالهم كانت تفسد في الأرض ، ولولا ذلك لما بعث الله سبحانه إليهم رسولا مؤيلاً بمعجزة من صنف ما برعوا فيه ، فهم كانوا قد برعوا في السحر ، فأرسل إليهم الحق سبحانه معجزة حقيقية تلتهم ما صنعوا ، فإن كانوا قد برعوا في التخييل ، قاله سبحانه خلق الأكوان بكلمة «كُنْ» وهو سبحانه يخلق حقائق لا تخيلات .

ولذلك يقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ^(٢) وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ^(٣)﴾

فالمسألة التي يشاؤها سبحانه تتحقق بكلمة «كن» فيكون الشيء .

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(٤)﴾ [يس]

و«كن فيكون» عبارة طويلة بعض الشيء عند وقوع المطلوب ، ولكن لا توجد عبارة أقصر منها عند البشر ؛ لأن الكاف والنون لهما زمن ، وما يشاؤه الله سبحانه لا يحتاج منه إلى زمن ، والمراد من الأمر «كن» أن الشيء يوجد قبل كلمة «كن» ، لأن كل موجود إنما يتحقق ويرز بإرادة الله تعالى .

ويريد الحق سبحانه هنا أن يبين لنا أن الحق إنما يأتي على ألسنة الرسل ، ومعجزاتهم دليل على رسالتهم ؛ ليضع أنوف المجرمين في الرغام^(٥) ،

(١) ملأؤه : آل فرعون ومن يرجع إليهم .

(٢) يحق : يثبت ويظهر . بكلماته : بمواعيده [تفسير الجلالين : ص ١٨٦] .

(٣) الرغام : التراب . والمراد : إذلالهم ومقابهم على عصيانهم وإجرامهم .

وليريح العالم من إضلالهم ومن مفاسدهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١)
﴿فَمَا أَمَّنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن
فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ
وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٨٢)

وإذا كان السحرة - وهم عُدَّة فرعون وعتاده لمواجهة موسى - أعلنوا
الإيمان ، فعاقبهم الفرعون وقال :

﴿أَمْسِمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ (٧١) [طه]

فهذا يدل على أن فكرة الألوهية كانت ما تزال مسيطرة على عقله ؛
ولذلك خاف الناس من إعلان الإيمان ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿فَمَا أَمَّنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾ (٨٢) [يونس]

وكلمة «ذرية» تفيد الصغار الذين لم تلمسهم خميرة من الفساد الذي كان
متشعراً ، كما أن الصغار يتمتعون بطاقة من النقاء ، ويعيشون في خلوص
من المشاكل ، ولم يصلوا إلى مرتبة السيادة التي يُحرَّصُ عليها ،
ومع ذلك فهم قد آمنوا ؛

(١) ذرية : طائفة (جماعة) من أولاد قوم فرعون [تفسير الجلالين ص ١٨٦] . وقيل : من بني إسرائيل
[مختصر تفسير الطبري : ص ٢٣٩] .

(٢) ملئهم : آل فرعون والمصريون منه والموافقون له .

(٣) يفتنهم : يصرفهم عن دينهم بتعذيبهم لهم .

(٤) عال في الأرض : جبار مستكبر . والمراد بالأرض هنا أرض مصر .

(٥) المسرفين : المتجاوزين الحد بإدعاء الربوبية . [تفسير الجلالين : ص ١٨٦] .

﴿ عَلَى خَوْفٍ ^(١) مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ .. ﴾ (٨٢)

[يونس]

وكلمة «على خوف» تفيد الاستعلاء ، مثل قولنا : «على الفرس» أو «على الكرسي» ويكون المستعلى في هذه الحالة متمكناً من «المستعلى عليه» ، ومن يستعلى إنما يركب المستعلى ، ويحمل المستعلى العبء .

ولكن من استعمالات «على» أنها تأتي بمعنى «مع» .

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ .. ﴾ (٨)

[الإنسان]

أي : يطعمون الطعام مع حبه .

وحين يأتي الحق سبحانه بحرف مقام حرف آخر فلا بد من علة لذلك .

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَا قُطْعَمَنْ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صُلْبِكُمْ فِي جُذُوعِ

[طه]

النُّخْلِ .. ﴾ (٧١)

جاء الحق سبحانه بالحرف «في» بدلاً من «على» ، ليدل على أن عملية الصلب ستكون نصلياً قوياً ، بحيث تدخل أجزاء المصلوب في المصلوب فيه .

وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

(١) الحرف هو الفترع لتوقع حدوث مكروه ، أو فوت أمر محبوب ، والحرف ضد الأمن ، قال تعالى : ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ (٤١) [فريش] وقال : ﴿ فَمَنْ خَالَفَ مِنْ مَوْرِهِ جِغْفًا أَوْ إِنَّمَا فَاسَلَخَ بِهِمْ فَلَا تُنْمِ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٤٢) [البقرة] أي : فزع لتوقعه ظلم الموصى وجوره خوئه جملة يخاف . قال تعالى : ﴿ .. وَتَحَرَّوْهُمْ لَمَّا يَنْزِدُ لَكُمْ الْأَحْيَانُ كَثِيرًا ﴾ (٤٣) [الإنسان] وخوفه فلانا أي : جملة يخافه يتعدى للمعولين قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ .. ﴾ (٤٤) [آل عمران] .

﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ...﴾ (٨) [الإنسان]

فكانهم هم المستعملون على الحب ؛ ليذهب بهم حيث يريدون .
وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿عَلَى خَوْفٍ...﴾ (٨٢) [يونس]

أى : أنهم فوق الخوف يسير بهم إلى دهاليز توقع الآلام^(١) .
وهم هنا آمنوا : ﴿عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُمْ أَن يَقْتُلَهُمْ...﴾ (٨٢) [يونس]
والكلام هنا من الحق الأعلى سبحانه يبيِّن لنا أن الخوف ليس من
فرعون ؛ لأن فرعون إنما يمارس التخويف بمن حوله ، فمثلهم مثل زوَّار
الفجر فى أى دولة لا تقيم وزناً لكرامة الإنسان .

وفرعون فى وضعه ومكانته لا يباشر التعذيب بنفسه ، بل يقوم به زبانيته .

والإشارة هنا تدل على الخوف من شيعة فرعون وملتهم .

وقال الحق سبحانه هنا : ﴿يَقْتُلُهُمْ﴾ ، ولم يقل : «يفتنوهم» ؛ ليدلنا على
ملحظ أن الزبانية لا يصنعون التعذيب لشهوة عندهم ، بل يمارسون
التعذيب لشهوة عند الفرعون .

(١) من معانى الحرف (على) : الاستعلاء ؛ وهو أكثر معانيه استعمالاً ، نحو قوله تعالى : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا
بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ...﴾ (٢٢) [البقرة] ، والظرفية ؛ نحو قوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ
أَهْلِهَا...﴾ (١٥) [القصاص] أى : فى حين غفلة . والمصاحبة ؛ نحو قوله تعالى : ﴿...وَإِنَّ رَبَّكَ لَنُورٌ مُّضِيءٌ
لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلُمِهِمْ﴾ (٤١) [الرعد] أى : مع ظلمهم ؛ ونحو قوله تعالى : ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ
مَكِينًا وَهَيْمًا وَآسِيرًا﴾ (٨) [الإنسان] . أى : مع حبهم للمال . ومن معانيها أيضاً : أن تكون بمعنى (من)
نحو قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُ الْمُنَافِقِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكْتَفَوْا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢)﴾ [المطففين] أى : من
الناس . ومن معانى (على) أيضاً : المجاوزة ، والتعميل ، والإضراب ، وأن تكون بمعنى الباء . انظر
تكميل ذلك فى [النحو الوائى] : (٥٠٩/٢ - ٥١٢) .

وهكذا جاء الضمير مرة جمعاً ، ومرة مفرداً ؛ ليكون كل لفظ في القرآن جاذباً لمعناه .

وحين أراد المفسرون أن يوضحوا معنى (ذرية) قالوا^(١) : إن المقصود بها امرأة فرعون (آسية) ، وخازن فرعون ، وامرأة الخازن ، وماشطة فرعون ، وَمَنْ آمَنَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - وَكُتِبَ إِيمَانُهُ .

كل هؤلاء منعتهم خشية عذاب فرعون من إعلان الإيمان برسالة موسى ؛ لأن فرعون كان جباراً في الأرض ، مدعياً للالهية ، وإذا ما رأى فرعون إنساناً يخذش ادعاءه للالهية ؛ فلا بد أن يبطش به بطشة قاتكة .

لذلك كانوا على خوف من هذا البطش ، فقد سبق وأن ذبح فرعون - بواسطة زيانيته - أبناء بني إسرائيل واستحيا نساءهم^(٢) ، وهم خافوا من هؤلاء الزبانية الذين نقذوا ما أراده فرعون .

ولذلك جاء الضمير مرة تعبيراً عن الجمع في قوله سبحانه وتعالى :

﴿وَمَنْهُمْ ..﴾ (٨٢) [يونس]

وجاء الضمير مفرداً معبراً عن فرعون الأمر في قوله سبحانه وتعالى :

﴿أَنْ يَفْتَنَهُمْ ..﴾ (٨٣) [يونس]

(١) هذا قول ابن عباس ، ذكره القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٢٩٦) وعلى هذا يكون الضمير في ﴿قَوْمِهِ﴾ عائداً على فرعون . وقد ذكر القرطبي قولاً آخر - ونسبه للقرءاء - يجعل الضمير يحتمل عوده على موسى وفرعون في نفس الوقت ، باعتبار أن الذرية أقوام آبائهم من النبط أي : آل فرعون وأمهاتهم من بني إسرائيل .

(٢) استحيااء النساء : أي : تركهن أحياء . وقد كان بنو إسرائيل واقعين تحت الإيذاء والاستضعاف من قبل أن يأتيهم موسى ، فبطش فرعون بهم كأن مستمرأ ، ولذلك قالوا لموسى : ﴿قَاتِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْنَا .﴾ (١٢٩) [الأعراف] ، وقد قال سبحانه عن فترة إيذاء فرعون لبني إسرائيل قبل مجيء موسى : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِيعُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ بِذَنبِ آتَائِهِمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٢١) [التقصص] .

فهم خافوا أن يفتنهم فرعون بالتعذيب الذي يقوم به أعوانه .

والحق سبحانه وتعالى هو المقاتل :

﴿ .. وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ لِمَنِ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٨٣) [يونس]

والمسرف : هو الذي يتجاوز الحدود . وهو قد تجاوز في إسرافه وأدعى الألوهية .

وقد قال الحق سبحانه ما جاء على لسان فرعون :

﴿ يَا أَيُّهَا الْأَعْلَى ﴾ (٩٤) [النازعات]

وقال الحق سبحانه أيضاً :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي .. ﴾ (٢٨) [التقصص]

وعلا فرعون في الأرض علوً طاغية من البشر على غيره من البشر المستضعفين .

وقال الحق سبحانه على لسان فرعون :

﴿ أَلَيْسَ لِي مَلِكٌ مِصْرَ^(١) وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي .. ﴾ (٥١) [الزخرف]

إذن : فقد كان فرعون مسرفاً أشد الإسراف .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا

إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ (٨٤)

(١) المصّر : البلد العظيم ، قال تعالى : ﴿ أَهْبِطُوا مِصْرًا .. ﴾ (٥٦) [البقرة] أي : بلداً عظيماً كبيراً .
ومصر بغير تنوين هي بلادنا العزيزة ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ .. ﴾ (٥٦) [يوسف] [القاموس القويم] .

وهنا شرطان ، فى قوله تعالى :

﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ .. (٨١) ﴾ [يونس]

وجاء جواب هذا الشرط فى قوله سبحانه :

﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا .. (٨٤) ﴾ [يونس]

ثم جاء بشرط آخر هو : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ .. (٨٤) ﴾ [يونس]

وهكذا جاء الشرط الأول وجوابه ، ثم جاء شرط آخر ، وهذا الشرط الآخر هو الشرط الأول وهو الإسلام لله ؛ لأن الإيمان بالله يقضى الإسلام وأن يكونوا مسلمين .

ومثال ذلك فى حياتنا : حين يريد ناظر إحدى المدارس أن يعاقب تلميذاً خالف أوامر المدرسة ونظمها ، ويستعطف التلميذ الناظر ، فيرد الناظر على هذا الاستعطاف بقوله : « إن جئت يوم السبت القادم قبيلتك فى المدرسة إن كان معك ولى أمرك ، ومجئى ولى الأمر هنا مرتبط بالموعد الذى حدده الناظر لعودة التلميذ لصفوف الدراسة ، وهكذا نجد أن الشرط الآخر مرتبط بالشرط الأول .

وهنا يتجلى ذلك فى قول الحق سبحانه :

﴿ .. إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) ﴾ [يونس]

والإيمان - كما نعلم - عملية وجدانية قلبية ، والإسلام عملية ظاهرية ، فمرة ينفذ الفرد تعاليم الإسلام^(١) ، وقد ينفك مرة أخرى من

(١) لأنه لا إيمان موصول إلا بالإسلام ، ولا إسلام واصل إلا بالإيمان ، فبينهما تلازم حقيقى قبلوغ المراد .
(٢) الإسلام هو الانقياد لله تعالى ولما جاء به الرسول ﷺ من الشرائع والأحكام ، فهو الانقياد الظاهرى لجميع أحكام الإسلام أما الإيمان فهو اعتقاد القلب وتصديقه الجازم الذى لا يدخله شك ، قال تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِرُوا وَلَكِنْ قُولُوا آمَنَّا وَكُنَّا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَنفَكُمْ مِنْ أَعْيَانِكُمْ شَيْئًا .. (١٠٣) ﴾ [الحجرات] .

تنفيذ التعاليم رغم إيمانه بالله ، ومرة نجد واحداً ينفذ تعاليم الإسلام نفاقاً من غير رضى من إيمان .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴾ (٢٥)

[البقرة]

ونجده سبحانه يبين هذا الأمر بتحديد قاطع في قوله تعالى :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا .. ﴾ (١٤)

[الحجرات]

والإيمان عملية قلبية ؛ لذلك يأتي الأمر الإلهي :

﴿ قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ

[الحجرات]

.. ﴾ (١١)

أى : أنكم تؤدون فروض الإسلام الظاهرية ، لكن الإيمان لم يدخل قلوبكم بعد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

[يونس]

﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا .. ﴾ (٨٤)

وهكذا نرى أن التوكل مطلوب الإيمان ، وأن يُسلم الإنسان زمامه في كل أمر إلى مَنْ آمَنَ به ؛ ولذلك لا ينفع الإيمان إلا بالإسلام ، فإن كنتم مسلمين مع إيمانكم فتوكلوا على الله تعالى .

لكن إن كنتم قد آمنتم فقط ولم تسلموا الزمام لله في التكليف إلى الله في «افعل» و «لا تفعل» ، فهذا التوكل لا يصلح .

وهكذا يتأكد لنا ما قلناه من قبل من أنك إذا رأيت أسلوباً فيه شرط تقدم ، وجاء جواب بعد الشرط ، ثم جاء شرط آخر ، فاعلم أن الشرط

الآخر هو المقدم ؛ لأنه شرط في الشرط الأول ^(١) ، وبالمثل هنا فإن التوكل لن ينشأ إلا بالإسلام مع الإيمان .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً ^(٢)
لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ^(٣) ﴾

أى : أنهم استجابوا لدعوة موسى - عليه السلام - بمجرد قولهم : ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ .

وإذا تقدم الجار على المجرور فمعنى ذلك قَصْرٌ وَحْصَرُ الأمر ، وهنا قصر وحصر التوكل على الله تعالى ، ولا توكل على سواه .

ويأتى بعد ذلك دعاؤهم :

﴿ . . رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ^(٤) ﴾ [يونس]

والفتنة : اختبار ، وهى - كما قلنا من قبل - ليست مذمومة فى ذاتها ، بل المذموم أن تكون النتيجة فى غير صالح من يمر بالفتنة .

ويقال : فتنه الذهب ، أى : صهرت الذهب ، واستخلصته من كل

(١) يجوز أن تتوالى أدتان - أو أكثر - من أدوات الشرط ، باتصال مباشر ، أو غير مباشر . والتوالى مع الاتصال المباشر يكون الاعتبار فيه للأداة الأولى ، فهى وحدها التى تحتاج لشرط وجواب . أما التوالى مع الاتصال غير المباشر فتكون لكل أداة جملتها الفعلية الشرطية التى تليها مباشرة ، وتفصل بينها وبين الأداة الشرطية التى بعدها وتحتاج كل أداة بعد هذا إلى جملة جوابية تخضع لعدة أحكام ، منها أنه إذا كان التوالى بغير عطف فالجواب للأداة الأولى وحدها ما لم تقم قرينة تعين غيرها . أما باقى الأدوات الثانوية لجواب أى منها محذوف دلالة جواب الأداة الأولى عليه . . انظر تفصيل ذلك فى [النحو الرافى : ٤٨٩ / ٤ ، ٤٩٠] .

(٢) فتنة : موضع عذاب . [كلمات القرآن : للشيخ حسين محمد مخلوف] .

(٣) لا نجعلنا فتنة للقوم الظالمين : أى : لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق ؛ فيشتتوا بنا . [تفسير الجلالين : ص ١٨٦] .

الشوائب ، ونحن نعلم أن صنّاع الذهب يخلطونه بعناصر أخرى ؛ ليكون متماسكاً ؛ لأن الذهب غير المخلوط بعناصر أخرى لا يتماسك .

والفتنة التي قالوا فيها :

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٥)

[يونس]

هي فتنة الخوف من أن يرتد بعضهم عن الإيمان لو انتصر عليهم فرعون وعذّبتهم ، وكأنهم يقولون : يا رب لا تسلّط علينا فرعون بعذاب شديد .

هذا إن كانوا مفترقين ، كماذا إن كانوا هم الفاتنين ؟

إنهم في هذه الحالة لو لم يتبعوا الدين التبع الحقيقي لما علم فرعون وآله أن هؤلاء الذين أعلنوا الإيمان هم مسلمون بحق ، وهم لو انحرفوا عن الدين لقال عنهم آل فرعون : إنهم ليسوا أهل إيمان حقيقي .

ونجد سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وهو أبر الأنبياء وله قدره العظيم في النبوة ، يقول :

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا... ﴾ (٥)

[الممتحنة]

ودعوة إبراهيم عليه السلام تعلمنا ضرورة التمسك بتعاليم الدين ؛ حتى لا ينظر أحد إلى المسلم أو المؤمن ويقول : هذا هو من يعلن الإيمان ويتصرف عكس تعاليم دينه .

ولذلك كان سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يؤدي الأوامر بأكثر مما يطلب منه ، ويقول فيه الحق سبحانه :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ^(١) ﴾ (١٢٤)

[البقرة]

أي : أنه كان يتم كل عمل بنية وإتقان ؛ لأنه أسوة ^(٢) ، فلم يقم بعمل

(١) ابتلى : اخبر - بكلمات : بأوامر ونواه كلفه الله بها .

(٢) أسوة : قدوة حسنة .

إيماني يظهر سطحي .

إذن : فإن كانوا هم المفتونين ، فهم يدفعون الفتنة عن أنفسهم ، وإن كانوا هم الفاتنين ؛ فعليهم التمسك بتعاليم الدين ؛ حتى لا يتهمهم أحد بالتقصير في أمور دينهم ، فيزداد الكافرون كفراً وضلالاً .

وجاء قول الحق سبحانه :

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٥)

[يونس]

ليبدل على انشغالهم بأمر الدين ، فاتنين أو مفتونين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٦)

وهنا توضح الآية الكريمة أنهم إن كانوا مشغولين بأمر الغير من الكافرين فهذا يعنى أنهم طمعوا في إيمان العدو ؛ لعل هذا العدو يعود إلى رشد الإيمان .

ورسول الله ﷺ يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »^(١) .

وهم أرادوا إيمان العدو رغم أنه ظالم .

وهكذا يعلم الحق - سبحانه وتعالى - الخلق أنه من حُقق العداوة أن يدعوا الإنسان على عدوه بالشر ؛ لأن الذي يتبعك من عدوك هو شره ، ومن صالحك أن تدعوا له بالخير ؛ لأن هذا الخير سيتعدى إليك .

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى في صحيحه (١٣) ، ومسلم في صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان من أنس بن مالك باللفظ : « والذي نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال : لأخيه - ما يحب لنفسه » .

وعلى المؤمن أن يدعو لعدوه بالهداية ، لأنه حين يهتدى ؛ فلسوف يتعدى النفع إليك ، وهذه من مميزات الإيمان أن نفعه يتعدى إلى الغير .

وهم حين دعوا ألا يجعلهم الله فتنه للقوم الظالمين ، فإن ذلك يوضح لنا أن الظلم درجات ، وأن فرعون وملاء كانوا فى قمة الظلم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٣)

[لقمان]

فقمة الظلم أن تأخذ حق الغير وتعطيه لغير صاحب الحق . وفرعون وملأه أشركوا بالله - سبحانه وتعالى - فظن فرعون أنه إله ، وصدقته من حوله .

فقمة الظلم هو الشرك بالله سبحانه ، ثم بعد ذلك ينتزل إلى الظلم فى الكبار ، ثم فى الصغائر .

وقولهم فى دعائهم للحق سبحانه :

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٦)

[يونس]

أى : اجعلنا بنجوة^(١) من هؤلاء .

وكان الذى يخيف الأقدمين هو سيول المياه ، حين تندفق ، ولا ينجو إلا من كان فى رتبة عالية - والنجوة هى المكان المرتفع - وهذا هو أصل كلمة " النجاة " .

وهنا يقول الحق سبحانه على لسانهم :

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٦)

[يونس]

(١) النجوة: المرتفع من الأرض . ويقال: هو بنجوة من هذا الأمر: أى: بعيد عنه يرى سالم . [المعجم الوسيط مادة (ن ج و)] .

والرحمة هي الوقاية من أن يجيء الداء .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ ۖ ۞ (٨٢) ﴾ [الإسراء]

والشفاء إذا وُجد الداء ، والرحمة هي ألا يجيء الداء .

وأراد الحق سبحانه أن يكرم - بعد ذلك - موسى عليه السلام وقومه

فقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَ الْقَوْمَ كَمَا يُبَصِّرُ بُيُوتًا
وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ

الْمُؤْمِنِينَ ۞ (٨٧) ﴾

وأوضحنا من قبل أن موسى وهارون عليهما السلام رسولان برسالة واحدة ، وأن الوحي قد جاء لل اثنين برسالة واحدة .

فالحق سبحانه ساعه يختار نبياً رسولاً ، فلما يختاره بتكوين وفطرة تؤهله لحمل الرسالة والنطق بمرادات الله تعالى .

وإذا كان الخلق قد صنعوا آلات ذاتية الحركة من مواد جامدة لا فكر لها

(١) تبوء : اتخذوا جعلوا ، قبة : مصلى يصلون فيه لتأمينوا من الخوف ، وكان فرعون قد منعهم من الصلاة ، أقيموا الصلاة : اتقوها ، وبشر المؤمنين : بالنصر والجنة . [تفسير الجلالين : ص ١٨٦] .

وذكر ابن كثير في تفسيره (٢/٤٢٨ ، ٤٢٩) : أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوءا أي : يتخذوا لقومهما بمصر بيوتاً ، واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى : ﴿ وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ۖ ۞ (٨٧) ﴾ فمن ابن عباس : قال : أمروا أن يتخذوها مساجد . وعن إبراهيم النخعي قال : كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا في بيوتهم ، وكذا قال غير واحد من علماء التفسير ، وكان هذا والله أعلم لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه وضيقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلصَّلَاةِ ۖ ۞ (٢٤٣) ﴾ [البقرة] ، وقال سعيد بن جبير في تفسير هذه الآية : (قبة) أي : يقابل بعضها بعضاً . [من تفسير ابن كثير . . بتصرف] .

ولا رَوِيَّةٌ^(١) ، مثل الساعة التي تُؤدِّنُ ، أو المذيع الذي يذيع في توقيت محدد ، إذا كان البشر قد صنعوا ذلك فما بالنا بالله سبحانه الخالق لكل الخلق والكون ومرسل الرسل؟

إنه سبحانه وتعالى يختار رسله بحيث يسمع تكوين الرسول أن يؤدي المهمة الموكولة إليه في أي ظرف من الظروف.

وقول الحق سبحانه هنا:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ .. (٨٧) ﴾ [يونس]

يبيِّن لنا أن الوحي شمل كلا من موسى وهارون عليهما السلام ، بحيث إذا جاء موقف من المواقف يقتضي أن يتكلم فيه موسى ، فهارون أيضاً يمكن أن يتكلم في نفس الأمر؛ لأن الشحنة الإيمانية واحدة ، والمنهج واحد .

وقد حدث ذلك بعد أن غرق فرعون وقومه ، وخلا لهم الجو ، فجاء لهم الأمر أن يستقروا في مصر ، وأن يكون لهم فيها بيوت .

ولكن لنا أن نسأل:

هل فرعون هذا هو شخص غرق وانتهى؟

لا . . إن فرعون ليس اسماً لشخص ، بل هو تصنيف لوظيفة ، وكان لقب كل حاكم لمصر قديماً هو «فرعون» ؛ لذلك لا داعي أن نشغل أنفسنا: هل هو تحتّمس الأول ؟ أو رمسيس ؟ أو ما إلى ذلك؟ فهب أن فرعون المعنى هنا قد غرق ، ألا يعني ذلك مجيء فرعون جديد ؟

نحن نعلم من التاريخ أن الأسر الحاكمة توالى ، وكانوا فراعنة ، وكان منهم من يضطهد المؤمنين ، ولا بد أن يكون خليفة الفرعون أشد ضراوة وأكثر شحنة ضد هؤلاء القوم .

(١) الروية: النظر والتفكير في الأمور، وهي خلاف البديهة [المعجم الوسيط: مادة (ر و ي)].

وقول الحق سبحانه وتعالى في الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرها عنها :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا^(١) لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يَبُوتًا .. (٨٧) ﴾ [يونس]

نجد فيه كلمة « مصر »^(٢) وهي إذا أطلقت يُفهم منها أنها « الإقليم » .
ونحن هنا في بلدنا جعلنا كلمة « مصر » علماً على الإقليم الممتد من البحر المتوسط إلى حدود السودان ، أي : وادي النيل .
ومرة أخرى جعلنا من « مصر » اسماً لعاصمة وادي النيل .
ونحن نقول أيضاً عن محطة القطارات في القاهرة : « محطة مصر » .
وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ .. أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا (٨٧) ﴾ [يونس]
نفهم منه أن التبوء هو اتخاذ مكان يعتبر مباءة^(٣) ؛ أي : مرجعاً ييؤ الإنسان إليه .

التبوء - إذن - هو التوطن في مكان ما ، والإنسان إذا اتخذ مكاناً كوطن له فهو يعود إليه إن ذهب إلى أي بلد لفترة .

(١) تبوأ : نزل وسكن .

(٢) ورد اسم « مصر » في القرآن الكريم أربع مرات علماً على مصر فرعون في قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يَبُوتًا .. (٨٧) ﴾ [يونس] . وفي قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ .. (٢٥) ﴾ [يوسف] . وفي قوله تعالى : ﴿ .. وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٢٦) ﴾ [يوسف] . وفي قوله تعالى : ﴿ وَتَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ .. (٢٧) ﴾ [الشعراء] . أما قوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعَ .. (٢٨) ﴾ [البقرة] فقد وقعت ليها كلمة مصر منونة ، دلالة على أنه ليس المقصود بها مصر فرعون العليم الأعجمي الذي يمنع من الصرف والتثنية ، فهي مصر من الأحصاء أي : بلد من البلاد .

(٣) المباءة : المكان الذي ينزل به الإنسان ويسكن فيه ، [لسان العرب : مادة (ب و أ) - يتصرف] .

ويعتبر الخروج من الوطن مجرد رحلة تقتضى العودة ، وكذلك البيت بالنسبة للإنسان ؛ فالواحد منا يطوف طوال النهار فى الحقل أو المصنع أو المكتب ، وبعد ذلك يعود إلى البيت للبيتة^(١) .

والبيوت التى أوصى الله سبحانه وتعالى بإقامتها لقوم موسى وهارون - عليهما السلام - كان لها شرط هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ۖ ﴾ (٨٧) [يونس]

والقبلة هى المتجه الذى تصلى إليه .

ومثال ذلك : المسجد ، وهو قبلة مَنْ هو خارجه ، وساعة ينادى المؤذن للصلاة يكون المسجد هو قبلتنا التى نذهب إليها ، وحين ندخل المسجد نتجه داخله إلى القبلة ، واتجاهنا إلى القبلة هو الذى يتحكم فى وضعنا الصبى .

والأمر هنا من الحق سبحانه :

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ ۖ ﴾ (٨٧) [يونس]

فإقامة البيوت هنا مشروطة بأن يجعلوا بها قبلة لإقامة الصلاة بعيداً عن أعين الخصوم الذين يضطهدونهم ، شأنهم شأن المسلمين الأوائل حينما كان الإسلام - فى أوليته - ضعيفاً بمكة ، وكان المسلمون حين ذاك يصلون فى قلب البيوت ، وهذا هو سر عدم الجهر بالصلاة نهاراً ، وعدم الجهر بقيد فى ألا ينتبه الخصوم إلى مكان المصلين .

وأما الجهر بالصلاة ليلاً وفجراً ، فقد كان المقصود به أن يعلمهم كيفية قراءة القرآن .

(١) البيتة : مصدر للفعل بات بيت ، حيث إن البيت هو محل البيات والمبيت . [لسان العرب : مادة (ب ي ت) - بتصرف] .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ أَنْ تَبُوءَ الْقَوْمَ كَمَا بِمِصْرَ بِيُوتًا وَأَجْعَلُوا يُبُوتَكُمْ قِبْلَةً ۖ ﴾ (٨٧) [يونس]

وقد يكون المقصود بذلك أن تكون البيوت متقابلة.

والى يومنا هذا أنت إن نظرت إلى ساحات^(١) اليهود في أى بلد من بلاد الدنيا تجد أنهم يقطنون حياً واحداً ، ويرفضون أن يذوبوا فى الأحياء الأخرى . .

ففى كل بلد لهم حى يسكنون فيه ، ويسمى باسم «حى اليهود» . وكانت لهم فى مصر «حارات» كل منها تسمى باسم «حارة اليهود» .

وقد شاء الحق - سبحانه وتعالى - ذلك وقال فى كتابه العزيز :

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ۖ ﴾ (٦٦) [البقرة]

وهم يحتمون بتواجدهم معاً ، فإن حدث أمر من الأمور يفرعهم ؛ يصيح من السهل عليهم أن يلتقوا .

أو ﴿ وَأَجْعَلُوا يُبُوتَكُمْ قِبْلَةً ۖ ﴾ (٨٧) [يونس]

أى : أن يكون تخطيط الأماكن والشوارع التى تُبنى عليها البيوت فى اتجاه القبلة .

وأى خطأ معمارى مثل الذى يوجد فى تربية بناء مسجد الإمام الحسين بالقاهرة ، هذا الخطأ يوجب الاتجاه إلى اليمين قليلاً مما يسبب بعض

(١) الساحات : جمع ساحة وهى الناحية من البيوت . وهى أيضاً فضاء يكون بين بيوت الحى . وساحة الدار : بائتها . [اللسان مادة : من وح] ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَعِزُّوا بِمَا يَسْتَعْمِلُونَ ﴾ (٦٦) فإذا نزل بساحتهم فضاء صباح المُنْذِرِينَ ﴿ (٦٧) [الصفحات] أى : بالمحلة أو الديار التى يسكنونها .

الارتباك للمصلين ؛ لأن الانحراف قليلاً إلى اليمين فى أثناء الصلاة يقتضى أن يقصر كل صف خلف الصف الآخر .

وحين نصلى فى المسجد الحرام بمكة ، نجد بعضاً من المصلين يريدون مساواة الصفوف ، وأن تكون الصفوف مستقيمة ، فتجد من ينه إلى أن الصف يعتدل بمقدار أطول أضلاع الكعبة ، ثم ينحنى الصف . وكذلك فى الأدوار العليا التى أقيمت بالمسجد الحرام نجد الصفوف منحنية متجهة إلى الكعبة .

ولذلك أقول دائماً حين أصلى بالمسجد الحرام : إن معنى قول الإمام : «سوا صفوفكم» أى : اجعلوا مناكبكم^(١) فى مناكب بعضكم البعض ، أما خارج الكعبة فيكفى أن نتجه إلى الجهة التى فيها الكعبة ، ونحن خارج الكعبة لا نصلى لعين الكعبة ، ولكننا نصلى تجاه الكعبة ؛ لأننا لو كنا نصلى إلى عين الكعبة لما زاد طول الصف فى أى مسجد عن اثنى عشر متراً وربع المتر ، وهو أطول أضلاع الكعبة .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ رَاجِعُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً^(٢) ۖ ﴾ (٨٧) [يونس]

أى : خططوا فى إقامة البيوت أن تكون على القبلة ، وبعض الناس يحاولون ذلك ، لكن تخطيط الشوارع والأحياء لا يساعد على ذلك .

ثم يقول الحق سبحانه :

(١) المناكب : جمع مكب ، وهو مجتمع عظم العصد والكتف . [لسان العرب : مادة (ن ك ب)] .
(٢) القبلة : الوجهة . قال تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوْلِيتَ قِبْلَةً نَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ ﴾ [البقرة] ، وهى الجهة التى نتجه إليها فى صلاتنا . ومعنى الآية هنا أن يبيتوا بيوتهم ، مواجهة للقبلة ، أو : اجعلوها قبلة للناس يتجهون إليها لنيل الخير .

﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ .. (٨٧)﴾

[يونس]

وهذا الأمر نفهم منه أن الصلاة فيها استدامة الولاء^(١) لله تعالى ، فنحن نشهد ألا إله إلا الله مرة واحدة في العمر ، ونزكّي - إن كان عندنا مال - مرة واحدة في السنة ، ونصوم - إن لم نكن مرضى - شهراً واحداً هو شهر رمضان ، ونحج - إن استطعنا - مرة واحدة في العمر .

ويبقى ركن الصلاة ، وهو يتكرر كل يوم خمس مرات ، وإن شاء الإنسان فَلْيَزِدْ ، وكان الحق سبحانه وتعالى هنا ينيه إلى عماد الدين وهي الصلاة .

ولكن من الذي اختار المكان في الآية التي نحن بصدد خواطرنّا عنها ؟ هل هو موسى وأخوه هارون ؟ أم أن الخطاب لكل القوم ؟

نلاحظ هنا أن الأمر بالتيوء هو لموسى وهارون - عليهما السلام - أما الأمر بالجعل فهو مطلوب من موسى وهارون والأتباع ؛ لذلك جاء الجعل هنا بصيغة الجمع .

وينهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿.. وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧)﴾

[يونس]

وفي هذا تنبيه وإشارة إلى أن موسى هو الأصل في الرسالة ؛ لذلك جاء له الأمر بأن يحمل البشارة للمؤمنين .

ونلاحظ هنا في هذه الآية أن الحق سبحانه جاء بالثنائية في التيوء ، وجاء بالجمع في جعل البيوت ، ثم جاء بالمفرد في نهاية الآية لينبئنا إلى أن موسى - عليه السلام - هو الأصل في الرسالة إلى بني إسرائيل .

(١) الولاء : الحب والنصرة . يقول سبحانه : ﴿وَمَا لَهُمْ آلِ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الضَّالُّونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥)﴾ [الأنفال] .

والبشرى على الأعمال الصالحة تعنى: التبشير بالجنة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ
زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنْ سَبِيلِكَ
رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ^(١) وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ^(٢) فَلَا يُؤْمِنُوا
حَقَّ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ^(٣)﴾

والزينة: هي الأمر الرائد عن ضروريات الحياة ومقوماتها الأولى ،
فاستيقاء الحياة يكون بالمأكل لآى غذاء يسدُّ الجوع ، وبالمشرب الذى يروى
العطش .

أما إن كان الطعام متنوعاً فهذا من ترف الحياة ، ومن ترف الحياة الملابس
التي لا تستر العورة فقط ، بل بالزى الذى يتميز بجودة النسيج والتصميم
والتفصيل .

وكذلك من ترف الحياة المكان الذى ينام فيه الإنسان ، بحيث يتم تأثيثه

(١) اطمس على أموالهم: قال ابن عباس ومجاهد: أى: أهلكها. وقال لضحك وأخرون: جعلها فخذ
حجارة مقروشة.

(٢) واشدد على قلوبهم: اطمع عليها. وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه ، على
فرعون وملكه الذين تبين له أنهم لا يخير فيهم ولا يجيئ منهم شيء. [ذكره ابن كثير فى تفسيره:
٤٢٩/٢].

(٣) رأى: نظربينه كأبصر. ورأى بذكره وقله بمعنى: علم. ورأى: اعتقد. ورأى فى نومه رؤيا:
حلم. والرؤيا: الحلم فى النوم. ورأى: هنا فى البصرة. أى: حتى يروا العذاب بأعينهم ريعانهم
معاينة.

بفناخر الرياش^(١) ، ولكن الضرورة في النوم يكفى فيها مكان على الأرض ، وأى فراش يقي من برودة الأرض أو حرارتها .

إذن : فالزائد عن الضرورات هو زينة الحياة ، والزينة تأتي من الأموال ، والرصيد الأصيل في الأموال هو الذهب ، ثم تأخذ الفضة المرتبة الثانية .

ومن مقومات الاقتصاد أن الذهب يعتبر قيمة الرصيد لغنى أية دولة ، مهما اكتشفوا من أحجار أغلى من الذهب .

وهذه الأحجار الكريمة - كالماس مثلاً - إن كُسرت أو خُدشت نقل قيمتها ، لكن الذهب مهما تفتت فانت تعيد صَهْرَهُ ، فتستخلص ذهباً مُجْمَعاً .

وكان الفراعنة الأقدمون يحكمون مصر حتى منابع النيل ، وكانوا يستخرجون الناس في كل الأعمال ، حتى استخراج الذهب سواء من المناجم أو من غربة رمال بعض الجبال لاستخلاص الذهب منها .

وأنت قد تستطيع استخلاص الذهب من أماكن معينة ، ولكن الفرق دائماً إنما يكون في القيمة الاقتصادية لاستخراج الذهب ، فحين يكون المنجم وقيم العطاء ، فيه كثير من عروق الذهب ، هنا يصبح استخراج الذهب مسألة مربحة اقتصادياً .

أما إن كانت التكلفة أعلى من القيمة الاقتصادية للذهب المستخرج ، فلا أحد يستخرج هذا الذهب .

(١) الرياش والريش : الخشب ، والمعاش ، والمال ، والأنث واللباس الحسن الفاخر . قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يَبَازِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَأْتُرُونَ ﴾ [الأعراف] .

وأنت إن نظرت إلى زينة الفراعنة تجسد قناع «توت عنخ آمون» آية في الجمال ، وكذلك كانت قصورهم في قمة الرفاهية ، ويكفى أن ترى الألوان التي صنعت منها دهانات الحوائط في تلك الأيام ؛ لتعرف دقة الصنعة ومدى الترف ، الذي هو أكثر بكثير من الضرورات .

وفي هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ۚ ﴾ (٨٨)

[يونس]

وهم لم يضلُّوا فقط بل أرادوا أن يضلُّوا غيرهم ؛ لذلك تحملوا وزر ضلالهم ، ووذر إضلال غيرهم .

فهل أعطاهم الله سبحانه المال والزينة للضلال والإضلال ؟

لا ، فليس ذلك علة العطاء ، ولكن هناك لام العاقبة ، مثلما تعطى أنت ابنتك عشرة جنيهات وتقول له : افعل بها ما تريد ، وأرجو أن تتصرف فيها تصرفاً يعود عليك بالخير . وقد ينزل هذا الابن ليشتري شيئاً غير مفيد ولا يشتري - مثلاً - كتباً تفيده .

هنا أنت أعطيت هذا الابن قوة شرائية لكنه لم يحسن التصرف فيها ، وغاية الاختيار هدَّته إلى اللعب . وهذا ما يسمى لام العاقبة ، ولا م العاقبة لا يكون المقصود بها سبب الفعل ، ولكنها تأتي لبيان عاقبة الفعل .

وحين أراد الحق سبحانه وتعالى أن ينجي موسى - عليه السلام - في طفولته من القتل أوحى إلى أم موسى - عليهما السلام - بقوله تعالى :

(١) أي : أن فرعون لم تكن علة النقاظ لموسى أن يكون عدوآ له بل ليتخذهُ وندأ ، وأضافت امرأته أن يكون قرة عين لها وفرعون . ولكن كانت العاقبة غير ذلك ، أي : أن ما حدث كان عكس ما كان يريد . فرعون .

﴿فَإِذَا خِفتَ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ^(١) وَلَا تَخَالِ وَلَا تَحْزَنْي.. (٧)﴾

[القصص]

ولا توجد أم تُقبل على تنفيذ مثل هذا الأمر ؛ لأنه موت محقق ؛ لأن الابن إن خُطف أو قُتل فهذا كله موت مظنون ، أما القاءه في الماء فليس فيه موت مظنون ، بل موت مؤكد ، إن لم يُنجاه الله تعالى .

ولكن أم موسى - لإيمانها بالله - فعلت ما أوحى به الله - سبحانه وتعالى - لها ؛ لأن الوارد من الله تعالى لا يجد في الفطرة منازعاً له .

أما نزغات الشيطان فهي تجد ألف منازع لها في النفس ، وكذلك هواجس النفس .

ولذلك نفذت أم موسى ما أوحى الله تعالى به إليها ، وإن كان مخالفاً للعقل والمنطق .

وحين التقطه آل فرعون ، وقد كانوا يقتلون الأطفال^(٢) ، وألقى الحق سبحانه وتعالى محبة موسى في قلوبهم ، قال :

﴿..وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي (٢٩)﴾

[طه]

فهم ساعة رؤيتهم لموسى - عليه السلام - وهو طفل ، أحبه فلم يقتلوه ، وهكذا نفذت مشيئة الله تعالى ووعدته لأمه :

﴿.. إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾

[القصص]

أى : أن لموسى - عليه السلام - مهمة مسبقة أرادها له الحق سبحانه .

(١) اليم : الماء الكثير للجمع - والمراد به : نهر النيل في مصر .

(٢) كان فرعون وزبائنه يذبحون أبناء بني إسرائيل ويستحبون نساءهم بعد أن سمع فرعون النبوءة التي

قيلت عن أن ولدًا من بني إسرائيل سيقتل علي فرعون . قال تعالى : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ

أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِيعُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يَذِيعُ أبناءَهُمْ وَيَسْتَحِبُّ نساءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمَقْصِدِينَ (٢٩)﴾ [القصص]

وقال تعالى : ﴿.. وَرَأَى فِرْعَوْنُ وَمَنْ مَعَهُ جُثُودًا مِّنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٢٩)﴾ [القصص] .

ولذلك نجد أن هناك أوامر متتابعة جاء بها القرآن الكريم في مسألة إلقاء أم موسى لابنها ، فقال الحق سبحانه :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنْ اقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ (٣٩) فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ (٣٩) ۖ ﴾ [طه]

وكلها أوامر من الحق سبحانه ، فتراه زوجة فرعون فتقول لزوجها :

﴿ قَرَّتْ عَيْنٌ (٣٩) لِي وَلَئِكَ (٣٩) ۖ ﴾ [القصص]

فهل كان فرعون يعلم أن هذا الطفل الذي التقطه سيكون عدوآ له ؟

لا ، لقد التقطه وأعطاه حياة الترف ؛ ليكون قُرَّةَ عَيْنٍ له ، وهذه علة الالتقاط ، ولكن العاقبة انتهت إلى أن يكون عدوآ ؛ ولو كانت العلة هي العداوة لما التقطه فرعون أو لقتله لحظة الالتقاط .

ولذلك يترك الحق سبحانه وتعالى في كونه أشياء تكسر مكر البشر ؛ فأخذه فرعون ورباه ، وكانت العاقبة غير ما كان يتوقع فرعون .

وقول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصددتها : ﴿ لِيُضِلُّوهُ ﴾ تفهم منه أن - سبحانه وتعالى - لم يُعْطِهِمُ الْمَالَ لِيُضِلُّوهُ ، ولكنهم هم الذين اختاروا الضلال .

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى الكثير من الناس مالا وجاهاً وأرادوا به الخير ، وهكذا نرى اختيار الإنسان ، إن له أن يضل أو يهتدي .

وقد قال موسى عليه السلام تنفيساً عن نفسه :

(١) التابوت : الصندوق الذي وضعت فيه أم موسى ابنها قبل إلقائه في اليم ؛ ليحفظه من الماء .

(٢) الساحل : شاطئ النهر القريب من قصر فرعون ؛

(٣) قُرَّةَ عَيْنٍ : مسرة وفرح . [كلمات القرآن : للشيخ حسين محمد مخلوف] .

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ..﴾ (٨٨) [يونس]

ومعنى الطمس أى : إخفاء المعالم ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَطْمِسَ^(١) وَجُوهًا فَنَرُدُّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا ..﴾ (٤٧) [النساء]

ومعنى الطمس هنا : إخفاء معالم تلك الوجوه ؛ فتكون قطعة واحدة بلا جهة أو حواجب أو عينين أو أنف أو شفاه أو ذقن .

إذن : فالطمس هو إهلاك الصورة التى بها الشيء . ودعوة موسى - عليه السلام - هنا :

﴿اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ..﴾ (٨٨) [يونس]
أى : امسحها .

وقال بعض الرواة^(٢) أنها مُسخت ، فمن كان يملك بعضاً من سبائك الذهب وجدها حجارة ، ومن كان يملك أحجاراً كريمة كالماس وجدها زجاجاً .

أو أن ﴿اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ..﴾ (٨٨) [يونس]

أى : أذهبهما ؛ لأن الأموال كانت وسيلة إضلال .

(١) وردت مادة الطمس بالقرآن الكريم فى خمسة مواضع ، هى قول الله تعالى : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ .﴾ (٢٢) [يس] ، وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ وَارَدْنَاهُ مِنْ صِغَرٍ لَعَطْمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرُ﴾ (٣٧) [التيسر] ، وقوله تعالى : ﴿فَإِذَا انشَرَقَ طُمِسَتْ﴾ (٨) [المرسلات] ، وقوله تعالى : ﴿وَأَمْوَالُهُمْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلُ أَنْ نَطْمِسَ وَجُوهًا ..﴾ (٤٧) [النساء] ، وقوله تعالى : ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ..﴾ (٨٨) [يونس] .

(٢) قاله ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي : صارت أموالهم ودراهمهم حجارة مقروشة كهيتها صحاحياً وثلاثاً وانصافاً ، ولم يبق لهم معدن إلا طمس الله عليه فلم يتفجع به أحد بعد .

وقوله عليه السلام بعد ذلك :

﴿ .. وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (٨٨) [يونس]

أى : أحكم يا رب الأربطة على تلك القلوب ؛ فلا يخرج ما فيها من كفر ، ولا يدخل ما هو خارجها من الإيمان ؛ لأن هؤلاء قد افتروا افتراءً عظيماً ، وأن تظل الأربطة على قلوبهم ؛ حتى يروا العذاب الأليم .

ولماذا دعا موسى - عليه السلام - على آل فرعون هذا الدعاء ، ولم يدعُ مثلما دعا سيدنا محمد ﷺ : «اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون» ؟
والإجابة : لا بد أن الحق سبحانه وتعالى قد أطلعه على أن هؤلاء قوم لن تفلح فيهم دعوة الإيمان .

وكان خوف موسى - عليه السلام - لا من ضلال قوم فرعون ، ولكن من استمرار إضلالهم لغيرهم .

إذن : فقد دعا عليهم موسى - عليه السلام - بما جاء فى هذه الآية :

﴿ .. رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (٨٨) [يونس]

وفى موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا .. ﴾ (٨٥) [غافر]

وهكذا يتبين لنا الفارق بين إيمان الإلجاء والقصر^(١) وبين إيمان الاختيار^(٢) .

(١) القصر والقصر : الإقبال على كره . ومنه : قصرت نفسى على الشيء إذا حبستها عليه والزمتها إياه . انظر [لسان العرب مادة : قصر ، قصر] .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ .. ﴾ [الكهف] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتُهُ فَبَعَثْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [إنا هدينا السبيل إما شاكراً وإما كفوراً] (٥١) [الإنسان]

فحين يأتى الرسول داعياً إلى الإيمان يصبح من حق السامع لدعوته أن يؤمن أو أن يكفر ، لأن الله تعالى قد خلق الإنسان وله حق الاختيار ، أما إيمان الإلجاء والقصر فهو لا ينفع الإنسان .

ومثال ذلك : فرعون ، فساعة أن جاءه العذاب أعلن الإيمان ^(١) . فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿... حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ يَا نِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝﴾ [يونس]

وإذا كان موسى - عليه السلام - قد دعا على قوم فرعون ، فقد سبقه نوح عليه السلام فى مثل هذا الدعاء عما أورده القرآن فى قوله :

﴿... رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِبَابًا ۝﴾ (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَفْسِدُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝﴾ [نوح]

واستجاب الحق سبحانه لدعوة موسى عليه السلام :

(١) قال تعالى : ﴿الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قُلُوبًا وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝﴾ [يونس] . قيل : هو من قول الله تعالى . وقيل : هو من قول جبريل أو ميكائيل عليهما السلام . ففرعون الذى قال : ﴿... أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ۝﴾ [التازعات] وقال : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي ۝﴾ [القصر] جاء الآن عندما عاين الموت وآية الله على صدق موسى فخلق بالإيمان ، ورب العزة سبحانه يقول : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يُأْتِيَهُمْ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ قَوْمًا إِيمَانُهُمْ لَمَّا تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كُنْتَ فِي إِيمَانٍ خَيْرًا لَّنْ أَنْتُمْ تُنْظَرُونَ ۝﴾ [الأنعام] .

(٢) دياراً : أحداً . أى : استئصال كل نسمة كافرة من قوم نوح ، حتى طال هذا ولده من صلبه ، وقد أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٤٢٧) حديث ابن عباس ، وعزاه لابن أبي حاتم أن رسول الله ﷺ قال : «لما رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم امرأة ، لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل ، فلما بلغها الماء صعدت به متكبها ، فلما بلغ الماء متكبها وضعت ولدها على رأسها ، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها ، فلما رحم الله منهم أحداً لرحم هذه المرأة» . قال ابن كثير : هذا حديث غريب ، ورجاله ثقات .

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ

سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩)

ويلاحظ أن الذي دعا هو موسى عليه السلام ، ولكن قوله سبحانه :
﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ (٨٩) يدل على أن هارون - عليه السلام - قد دعا
مع موسى .

وقد قلنا من قبل : إننا إن نظرنا إلى الأصالة في الرسالة لوجدنا موسى -
عليه السلام - هو الأصل فيها ، وجاء هارون ليشد عضده (١) ، وإن نظرنا
إلى طبيعة الاثنين فكل منهما رسول ، والاثنان لهما رسالة واحدة .

وما دام الحق سبحانه قد أرسل الاثنين لمهمة واحدة ، فإن انفعال واحد
منهما لشيء فلا بد أن ينفعال الآخر لنفس الشيء ؛ لذلك فلا يوجد ما يمنع
أن هارون ساعة سمع أخاه داعياً بمثل هذا الدعاء ، قد دعا هو أيضاً بالدعاء
نفسه ، أو أنه - أي : هارون - قد دعا بهذا الدعاء سرّاً .

والدعاء معناه : أنك تفرغ إلى من يقدر على تحقيق ما لا تقدر عليه ،
فأنت لا تدعو إلا في أمر عزت عليك أسبابه ؛ فنقول : إن لي ربّاً أو من
به ، وهو يقدر على الأسباب لأنه خالق الأسباب ، وقادر على أن يعطي
بلا أسباب ، والمؤمن الحق يستقبل الأحداث ، لا بأسبابه ، ولكن بقدرته من
أمن به ، وهو المسبب الأعلى سبحانه .

ولذلك تجدد موسى عليه السلام ومعه قومه حين وصلوا إلى شاطئ
البحر ، وكان من خلفهم قوم فرعون يطاردونهم ، فقال قوم موسى :

(١) العضد من الإنسان وغيره . الساعد ، وهو ما بين المرفق إلى الكتف ، والمراد بالعضد هنا : العون
والمساعدة . قال تعالى : ﴿مَتَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجَّلَ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ (٩٥) [التقصص] .

[الشعراء]

﴿.. إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (٦١)﴾

قَرَدَ موسى عليه السلام :

[الشعراء]

﴿.. كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾

أى : لا ترتبوا الأمر بترتيب البشر ؛ لأن معى رب البشر ، فجاءه الإنقاذ :

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ^(١) (٦٣)﴾

[الشعراء]

إذن : فالدعاء إنما يكون فزعاً إلى من يقدر على أمر لا تقدر عليه .

والموضوع الذى كان يشغل موسى وهارون عليهما السلام هو بقاء آل فرعون على ضلالهم وإصرارهم على إضلال غيرهم ، فلا بد أن يدعو كل منهما نفس الدعاء ، ومثل هذا نجده فى غير الرسل ونسميه «التخاطر» ، أى : التقاء الخواطر فى لحظة واحدة .

ومثال ذلك فى التاريخ الإسلامى ، لحظة أن كان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه مشغولاً بالتفكير فى جيش المسلمين المقاتل فى إحدى المعارك ، وكان عمر فى المدينة يخطب على المنبر ، فإذا به يقول فجأة : «يا سارية^(٢) الجبل» وهى كلمة لا موضع لها فى منطق الخطبة ، ولكن كان فكره مشغولاً بالقائد الذى يحارب ، وسمع القائد - وهو على البعد - الأمر ؛ فاتحاز إلى الجبل .

(١) الفرق : الجزء . والطود : الجبل الكبير . [تفسير ابن كثير : (٣/٢٢٦)] .

(٢) «يا سارية بن زئيم الدثلى» . أمره عمر بن الخطاب على جيش وسيّره إلى فارس سنة ٢٣ هـ ، فوقع فى خاطر عمر وهو يخطب يوم الجمعة أن الجيش المذكور لاقى العدو وهم فى بطن واد تدّهموا بالهزيمة وبالقرب منهم جبل فقال فى أثناء خطبته «يا سارية : الجبل ، الجبل» ووقع صوته فالتفت الله فى سمع سارية فاتحاز بالناس إلى الجبل ، وقاثنوا العدو من جانب واحد ، ففتح الله عليهم وانتصروا . [الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى : ٢/ ٥٢ ، ٥٣] .

ويقال في هذه المسألة: إن الخاطر قد شغل مع الخاطر ، مثلما تطلب أحداً في الهاتف فيرد عليك الشخص الذي تريد الكلام معه قائلاً: لقد كنت على وشك أن أتصل بك هاتفياً ، وهذا يعنى أن الخاطرين قد انضبطا معاً .

وإذا كان هذا ما يحدث في حياتنا العادية ، فما بالنا بما يحدث في الأمور الصغائية ؟ وفي أرقى درجاتها وهي النية ؟

أو أن الذي دعا هو موسى وما كان هارون إلا مؤمناً^(١) ، والمؤمن هو أحد الداعيين ، وما دام الحق سبحانه قد قبل دعوة موسى عليه السلام ، فقد قبل أيضاً دعوة المؤمن معه .

ويظن بعض الناس أن إجابة الدعوة هي تحقيق المطلوب فور الدعاء ، ولكن الحقيقة أن إجابة الدعوة هي موافقة على الطلب ، أما ميعاد إنجاز الطلب ، فقد يتأجل بعض الوقت ، مثلما حدث مع دعوة موسى عليه السلام على فرعون وملئه ، فحين دعا موسى ، وأمن هارون ، جاءت إجابة الدعاء : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ۖ (٨٩) ﴾ بعد أربعين عاماً ، ويحقق الله سبحانه الطمأنينة على المال .

فالسما ليس موظفة عند من يدعو ، وتقبل أى دعاء ، ولكن قبول الدعوة يقتضى تنفيذ الميعاد الذي تنفذ فيه .

وهذه أمور من مشيئة الله سبحانه ؛ فالحق سبحانه وتعالى منزّه عن أن يكون منفذاً لدعاء ما ، ولكنه هو الذي يبدئ مقاليد كل أمر ، فإذا ما أجيب دعوة ما ، فهو سبحانه بمشيئته يضع تنفيذ الدعوة في الميعاد الملائم ؛ لأنها لو أجيب على الفور فقد تضرر .

(١) التأمين : هو قولهم آمين وراء الداعي ، ومنه التأمين في الصلاة وراء الإمام .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا^(١)﴾ (١١)

[الإسراء]

لذلك يحدد الحق سبحانه ميعاد تطبيق الدعوة في مجال التنفيذ والواقع .

وهو سبحانه وتعالى يقول :

﴿..سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ^(٢)﴾ (٣٧) [الأنبياء]

والإنسان يعرف أنه قد يكون قد دعا بأشياء ، فحقق الله سبحانه الدعاء وكان شرّاً ، وكم من شيء يدعو به الإنسان ولم يحققه الله تعالى وكان عدم تحقيقه خيراً .

إذن : فالقدرة العليا رقية علينا ، وتعلم ما في صالحنا ؛ لأننا لسنا آلهة تأمر بتنفيذ الدعوات ، بل فوقنا الحكيم الأعلى سبحانه .

ولذلك نقول في بيان قول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ^(٣) بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ^(٤)..﴾ (١١) [يونس]

(١) عجلولاً : صيغة مباعدة من العجل والعجلة وهو السرعة . والمراد : أن الإنسان مجبور على حب الخير ، وعلى العجلة في طلبه لنفسه ، ويلجأ في الدعاء ، حتى لو كان الأمر شرّاً وهو يظن بجعله أنه خير . قال تعالى : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ..﴾ (٩٥) [الأنبياء] . وقال تعالى : ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ..﴾ (٢) [التحليل] .

(٢، ٣) عجل يعجل - عجللاً وعجلة . واستعجل استعجلاً . قال تعالى : ﴿أَسْأَلُكُمْ أَمْرًا زَكِيًّا..﴾ (٥٥) [الأعراف] وقال : ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْلِكَ يَا مُوسَى﴾ (٢٥) [طه] وعجل الأمر : طلبه قبل أوانه بدافع الشهوة . وعجل الأمر : سبقه . [القاموس القويم] .

(٤) الأجل : المدة من الزمن ، والمراد : العمر .

لأن الإنسان قد يدعو بالشر على نفسه^(١) ، ألا تسمع أمّا تدعو على ابنتها أو ابنتها رغم حبها لهما ، فلو استجاب الله لدعائها على أولادها الذين تحبهم أليس في ذلك شر بالنسبة للأم .

والولد قد يقول لأمه مغاضباً : يا رب تحدث لى حادثة ؛ حتى تستريحى منى . فهب أن الله استجاب لهذا الدعاء ، أيرضى ذلك من دعا على نفسه أو يرضى أمه ؟

طبعاً لا ؛ فإذا كان الله سبحانه قد أسطأ عليك بدعاء الشر فهذا خير لك ، فعليك أن تأخذ إبطاء الله سبحانه عليك بدعاء الخير على أنه خير لك .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يقول لموسى وهارون عليهما السلام :

﴿ قَدْ أَجِيبْتَ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٨٩)

[يونس]

أى : ابقيا على الطريق السوى ، ولا تُدخلا نفسيكما فيما لا علم لكما به ، أليس الحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ

(١) ثبت في صحيح مسلم البهي عن الدعاء على النفس والأولاد والأموال ، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : سرت مع رسول الله ﷺ في غزوة بطن بواط وهو يطلب المجدي بن عمرو الجهني ، وكان الناضح يعتقه منا الخمسة والستة والسبعة ، فدارت عقبة رجل من الأنصار على ناضح له فأناحه فركبه ثم بعته فتلدن عليه بعض التلدن فقال له : شأ لعنك الله . فقال ﷺ : « من هذا اللاع بعير » ؟ قال : أنا يا رسول الله . قال : « انزل عنه فلا تصحبنا بجمعون » ، لا تدعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم » أخرجه مسلم (٣٠١٩) .

فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ ^(١) أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ^(٢) ﴿٤٦﴾

[هود]

أى : كُنْ مُؤَدِّباً مع ربك حين تدعو وتفسس عن نفسك ، ودع الحكمة الحكيم الإجابة أو عدمها ، وقد تكون الإجابة فورية أو مؤجلة إلى حين أو أنها ، وكلاهما خير .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرِيقُ قَالَ
ءَاَمَنْتُ أَنَا وَلِلَّهِ الْآلَاءُ الَّذِي ءَاَمَنْتُ بِهِمْ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا
مِنَ الْمُسْلِمِينَ ^(٣) ﴾

قال الحق سبحانه :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ . . . ﴾ ^(١) لأن الاجتياز لم يكن بأسباب بشرية ، بل بفعل يخرج عن أسباب البشر ، فلو أن موسى عليه السلام قد حفر نفقاً تحت الماء ، أو لو كان قد ركب سفناً هو وقومه لكان لهم مشاركة

(١) الوعظ : التصح بالطاعة والعمل الصالح الإرشاد إلى الخير . قال ابن سيده : هو تذكير للإنسان بما يُلَبِّسُ قلبه من ثواب وعقاب . [ذكره ابن منظور في اللسان عدة : وعظ] . قال القرطبي في تفسيره (٣٣٦٦ / ٤) : ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ . . . ﴾ [هود] . أى : إني أنبهك عن هذا السؤال وأحذرك لئلا تكون من الجاهلين . أى : الآثمين . قال ابن العربي : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها توحشاً عن مقام الجاهلين .

(٢) تُبِعَهُمْ : اتبع أثرهم ، ليدركهم . وكان موسى وقومه بنو إسرائيل في شروجهم ستمائة ألف و عشرين ألفاً ، وتبعهم فرعون مصحباً في ألفي ألف وستمائة ألف . بغياً وعدواً : أى : في حال بغى وظلم واعتداء . وقال المفسرون : بغياً : طلباً للاستعلاء بغير حق في القول ، وعدواً : في الفعل . أدركه العريق : ناله ووصله . قال أمّنت : أى : صدقت ، وآمنت - والإيمان لا ينفع حيثئذ ، والتوبة مقبولة قبل رؤية البأس . [ذكره القرطبي في تفسيره (٣٣٠٤ / ٤ ، ٣٣٠٥) - بتصرفاً] .

في اجتياز البحر ، لكن المجاوزة كانت بأسباب غير ملحوظة بالنسبة للبشر ، فالحق سبحانه هو الذى أوحى لموسى :

﴿ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ (٦٢) ﴾ [الشعراء]

ومياه البحر كأية مياه أخرى تخضع لقانون السيولة ، والاستطراق^(١) هو وسيلة السيولة ، وهي عكس التجمد الذى يتسم بالتحيز .

والاستطراق هو الذى قامت عليه أساليب نقل المياه من صحاريج المياه التى تكون فى الأغلب أعلى من طول أى منزل ، ويتم ضخ المياه إليها ؛ لتتوزع من بعد ذلك حسب نظرية الأوانى المستطرقة على المنازل ، أما إذا كانت هناك بناية أعلى طولاً من المصهريج ، هنا يقوم سكان المبنى بتركيب مضخة لرفع المياه إلى الأدوار العالية .

وإذا كان قانون البحر هو السيولة والاستطراق ، فكيف يتم قطع هذا الاستطراق؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ . فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾ [الشعراء]

فكيف تحول الماء إلى جبال يفصل بينها سراديب وطرق يسير فيها موسى عليه السلام وقومه؟

كيف يسير موسى وقومه مطمئنين ؟

لا بد أنها معية الله سبحانه التى تحميه ، وهى تفسير لقول الحق سبحانه :

﴿ .. إِنَّ مَعِيَ رَبِّى سَيَهْدِينِ (٦٤) ﴾ [الشعراء]

(١) الاستطراق : عدة أنابيب مختلفة الأحجام والأشكال ، متصل بعضها ببعض بأنبوبة أفقية ، فإذا وضع سائل فى إحدى هذه الأنابيب ارتفع سطح السائل إلى مستوى أفقى واحد فى جميع الأنابيب . [المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية] .

ورغم ذلك يتبعهم فرعون وجنوده لعله يدركهم ، وأراد سيدنا موسى - عليه السلام - بمجرد لجأه في العبور هو وقومه أن يضرب البحر بعصاه ؛ ليعود إلى قانون السيولة ، ولو فعل ذلك لما سمح لفرعون وجنوده أن يسيروا في الممرات التي بين المياه التي تحولت إلى جبال ، ولكن الله - سبحانه وتعالى - يريد غير ذلك ، فقد أراد الحق سبحانه أن ينجي ويهلك بالشئ الواحد ، فأوحى لموسى عليه السلام :

﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا ۖ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤﴾ [الدخان]

أى : اترك البحر على حاله ؛ فينخدع فرعون وجنوده ، وما إن ينزل آخر جندى منهم إلى الممر بين جبال الماء ؛ سيعود البحر إلى حالة السيولة فيغرق فرعون وجنوده ، وينجو موسى وقومه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ ۖ ۝٩٠﴾ [يونس]

فهل كان هذا الإتياع دليل إرادة الشر ؟

أكان من الممكن أن تكون نية الفرعون أن يدعو موسى وقومه إلى العودة إلى مصر ليستقروا فيها ؟

لا ، لم تكن هذه هي نية الفرعون ؛ لذلك قال الحق سبحانه عن هذا الإتياع : ﴿بَغْيًا وَعَدُوًّا ۖ ۝٩١﴾ [يونس]

أى : أنه إتياع رغبة في الانتقام والإذلال والعدوان .

وبصور القرآن الكريم لحظة غرق فرعون بقوله :

(١) قال الأزهري : رهوا ساكناً من نعت موسى ، أى : على هيئتك . قال : وأجود منه أن تجعل رهواً من نعت البحر ، وذلك أنه قام فرقه ساكنين فقال لموسى : دع البحر قائماً بماؤه ساكناً واعبر أنت البحر . ذكره ابن منظور في اللسان ، مادة : رها [فقله تعالى : ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا ۖ ۝٢٤﴾] [الدخان] أى : ساكن الأمواج ليختروا فيترلوا فيه .

سُورَةُ يُوسُفَ

﴿٦١٨١﴾

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ .. (٦١)﴾ [يونس]

والإدراك : قصد للمدرك أن يلحق بالشئ ، والغرق معنى ، فكيف يتحول المعنى إلى شئ يلاحق الفرعون ؟

نعم ، فكأن الغرق جندي من الجنود ، وله عقل يفعل ؛ فيجربى إلى الأحداث :

﴿.. حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٦٢)﴾ [يونس]

والإيمان إذا أطلق فهو الإيمان بالقوة العليا ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى قد قال :

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا .. (٦٤)﴾

[الحجرات]

لأن الإيمان يتطلب انقياد القلب ، والإسلام يقتضى اتباع أركان الإسلام ، فالإيمان كما قال رسول الله ﷺ : « قل آمنتم بالله ثم استقم »^(١) . وفى هذا القول ذكر محدد بأن الإيمان إنما يكون لله الأعلى .

لكن لو قلت - مثلاً : «آمنت أنك رجل طيب» فهذا إيمان له متعلق ، أما إذا ذكر الإيمان بإطلاق فهو ينصرف إلى الإيمان بالله تعالى ؛ ولذلك قال الله سبحانه للأعراب :

﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا .. (٦٤)﴾ [الحجرات]

(١) وأنا من المسلمين ، أى : من الموحدين المسلمين بالانقياد والطاعة . وهو قول متأخر جداً جاء بعد فوات الأوان .

(٢) عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عن أحد بعدك . قال : قل آمنتم بالله ثم استقم . أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٨) وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٨٥) .

وهنا يأتي القول على لسان فرعون :

﴿ . آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٠) ﴾

[يونس]

والخلاف هنا كان بين الفرعون كجبهة كفر ، وبين موسى وهارون وقومهما كجبهة إيمان ، وأعلن فرعون إيمانه ، وقال أيضاً :

﴿ . وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١١) ﴾

[يونس]

ولم يقبل الله ذلك منه بدليل قول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ آمَنُوا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٢) ﴾



وهذا يعني : أقول إنك آمنت الآن وإنك من المسلمين . إن قولك هذا مردود ، لأنه جاء في غير وقته ، فهناك فرق بين إيمان الإجهار وإيمان الاختيار ، أقول الآن آمنت وأنت قد عصيت من قبل ، وكنت تفسد في الأرض .

وكان من الممكن أن يقبل الله سبحانه منه إيمانه وهو في نجوة^(١) بعيدة عن الشر الذي حاق^(٢) به .

(١) قبل : هو من قول الله تعالى . وقيل : هو من قول جبريل . وقيل : ميكائيل ، أو غيرهما من الملائكة - عليهم السلام - وقيل : هو من قول فرعون في نفسه ، ولم يكن ثم قول باللسان ، بل وقع ذلك في قلبه فقال في نفسه ما قال حيث لم تقعه التهمة . ونظيره : ﴿ إِنَّا نَطْمَعُكُمْ لَوِجَهَ اللَّهِ . . ﴾ [الإنسان] أنسى عليهم الرب سبحانه بما في ضميرهم ، لا لأبهم قالوا ذلك بلغظهم . والكلام هنا هو كلام القلب . [ذكره القرطبي في تفسيره ٤/ ٣٣٠٦] - بتصرف .

(٢) النجوة : ما ارتفع من الأرض .

(٣) حاق به الشيء : يحيط حقيقاً : نزل به ، وأحاط به . وقيل : الحقيق في اللغة هو أن يشتمل على الإنسان عاقبة مكرهه تعالى . قال تعالى : ﴿ هُوَ قَاهُ اللَّهُ مَبْنَاتٍ مَا مَكُرُوا وَخَاقٍ بَالُ فِرْعَوْنَ سَوَاءً الْعَذَابُ ﴾ [غافر] وقال تعالى : ﴿ . إِذْ كَانُوا يَجْعَلُونَ بَيْنَهُ وَاللَّهُ حَاقٍ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الاحقاف] .

فالحق سبحانه لا يقبل إيمان أحد بلغت روحه الخلقوم ، فهذا إيمان إجبار ، لا إيمان اختيار .

ولو كان المطلوب إيمان الإجبار لأجبر الحق سبحانه الخلق كلهم على أن يؤمنوا ، ولما استطاع أحد أن يكفر بالله تعالى ، وأمامنا الكون كله خاضع لإمرة الله - سبحانه وتعالى - ولا يتأبى فيه أحد على الله تعالى .

وقدرة الحق - عز وجل - المطلقة قادرة على إجبار البشر على الإيمان ، لكنها تثبت طلاقة القدرة ، ولا تثبت المحبوبة للمعبود .

وهذه المحبوبة للمعبود لا تثبت إلا إذا كان لك خيار في أن تؤمن أو لا تؤمن . والله سبحانه يريد إيمان الاختيار .

إذن : فالمردود من فرعون ليس القول ، ولكن زمن القول .

ويقال : إنها رُدَّتْ ولم تُقبل - رغم أنه قالها ثلاث مرات - لأن قوم موسى في ذلك الوقت كانوا قد دخلوا في مرحلة التجسيم لذات الله وادعوا - معاذ الله - أن الله - تعالى الله عما يقولون - جلس على صخرة وأنزل رجليه في حوض ماء ، وكان يلعب مع الحوت . . إلى آخر الخرافات التي ابتدعتها بنو إسرائيل .

وحين أعلن فرعون أنه آمن بالإله الذي آمن به بنو إسرائيل ، فهذا يعنى أنه لم يؤمن بالإله الحق سبحانه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِّكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ١٢ ﴾

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا وَلَئِن نُّكِرَ الْنَّاسُ حَقِّي وَكُنُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

(١٢) ﴿ يُونُسَ ١٢ ﴾

ونحن نعرف أن الإنسان مكوّن من بدن ، وهو الهيكل المادى المصور
على تلك الصورة التى نعرفها ، وهناك الروح التى فى البدن ، وبها تكون
الحركة والحياة.

وساعة نقول : «بدن» ، فافهم أنها مجردة عن الروح ، مثلما نقول :
جسد . وإذا أطلقت كلمة «جسد» فمعناها الهيكل المادى المجرد من الروح .
والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ۖ﴾ (٢١) [ص]

وكان سيدنا سليمان - عليه السلام - يستمتع بما آتاه الله سبحانه من
الملك ما لا ينبغى لأحد من بعده ، وسخر له الجن والرياح وعلمه كل
اللغات ، وكان صاحب الأوامر والنواهي والهيمنة ، ثم وجد نفسه قاعداً
على كرسيه بلا حراك وبلا روح ، ويقدر عليه أى واحد من الرعية ، ثم
أعاد الله له روحه إلى جسده ، وهو ما يقوله الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ (٢١) [ص]

أى : أنه أفاق لنفسه ، فعلم أن كل ما يملكه هو أمر مُفاض عليه ، لا
أمر نابع من ذاته .

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصددّها الآن يقول الحق سبحانه :

﴿فَالْيَوْمَ نَنفِخُ بِنَفْسِكَ لِيَتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ (٢٢) [يونس]

(١) أناب : رجع إلى الله تعالى بالتوبة . [كلمات القرآن : للشيخ حسين محمد مخلوف].

(٢) ننفخ : نخرجك من البحر . بيدتك : يجلسك الذى لا روح فيه . لتكون لمن خلقك : بملك . آية :
خبرة ، فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك . وعن ابن عباس أن بعض بنى إسرائيل شكوا إلى
موتهم فأوحى لهم ليروه . [تفسير الجلالين : ص ١٨٧] . وقد قرأ البيهقي وابن السعدي «ننفخك»
بالخاء ، أى : تكون على ناحية من البحر ليروك .

وبالله ، لو لم يأمر الحق البحر بأن يلفظ جثمان فرعون ، أما كان من الجائز أن يقولوا: إنه إله ، وإنه سيرجع مرة أخرى ؟

ولكن الحق سبحانه قد شاء أن يلفظ البحر جثمانه كما يلفظ جيفة أى حيوان غارق ؛ حتى لا يكون هناك شك فى أن هذا الفرعون قد غرق ، وحتى ينظر من بقى من قومه إلى حقيقته ، فيعرفوا أنه مجرد بشر ، ويصبح عبرة للجميع ، بعد أن كان جباراً مسرفاً طاغية يقول لهم :

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي .. (٣٨) ﴾ [القصر]

وبعض من باحثى التاريخ يقول : إن فرعون المقصود هو «تحتمس» ، وإنهم حللوا بعضاً من جثمانه ، فوجدوا به آثار مياه مالحة .

ونحن نقول : إن فرعون ليس اسماً لشخص ، بل هو توصيف لوظيفة ، ولعل أجساد الفراعين المحنطة تقول لنا : إن علة حفظ الأبدان هى عبرة ؛ وليتعظ كل إنسان ويرى كيف انتهزت الحضارات ، وكيف بقيت تلك الأبدان آية تعتبر بها .

وقد تعرض القرآن لمسألة الفرعون ، فقال الحق سبحانه :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الْأَوْتَادِ ^(١) (١٠) ﴾ [الفجر]

ويقول سبحانه فى نفس السورة عن كل جبار مفسد :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ^(٢) (١٤) ﴾ [الفجر]

(١) قيل فى معنى ذى الأوتاد : لأن فرعون كان يعذب الناس بأربعة أوتاد [مختصر تفسير الطبرى : ص ٥١٣] . وذكر فى تفسير الجلالين (ص ٣٩٨) أن فرعون كان يتدكّل من يغضب عليه أربعة أوتاد يشد إليها يديه ورجليه ويعذبه . وفى [كلمات القرآن للشيخ حسين محمد مخلوف] الأوتاد : الجنود أو المبانى القوية .

(٢) إن ربك لبالمرصاد : يرقب أعمالهم ويجزيهم عليها . [كلمات القرآن] .

ونلاحظ أن كلام الحق سبحانه عن فرعون في سورة الفجر كان كلاماً يضم إلى جانب حضارة الفراعنة حضارات أخرى قديمة ، مثل حضارة عاد وحضارة ثمود .

وكذلك تكلم الحق سبحانه عن الفرعون في أثناء لقطات قصة موسى عليه السلام ، ولكن الكلام يختلف في قصة يوسف عليه السلام ، فلا تأتي وظيفة الفرعون ، بل يحدثنا الحق سبحانه عن وظائف أخرى ، هي وظيفة «عزير مصر» - أي : رئيس وزرائها - ويحدثنا الله سبحانه عن ملك مصر بقوله :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ... (٥١) ﴾ [يوسف]

ولم يُكْتَشَفِ الفارق بين وظيفة «الفرعون» ووظيفة «الملك» في التاريخ المصري إلا بعد أن جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر وفك «شامبليون» رموز اللغة الهيروغليفية من خلال نقوش حجر «رشيده» ، فعرفنا أن حكام مصر القديمة كانوا يسمون «الفراعنة» إلا في فترة كانت فيها مصر تحت حكم «ملوك الرعاة» أو «الهكسوس» الذين أغاروا على مصر ، وحكموها حكماً ملكياً وقضوا على حكم الفراعنة ، ثم عاد الفراعنة إلى حكم مصر بعد أن خلصوها من سيطرة «الهكسوس» .

وهكذا نجد أن إشارة القرآن في قصة يوسف - عليه السلام - كانت إلى الملك ، ولم يأت فيها بذكر فرعون ، وهذا دليل على أن القرآن قد سبق بعلمه أي اكتشاف ، وكلما جاء اكتشاف جديد أو ابتكار حقيقي ، نجلده بؤيد كتاب الله .

ويُنتهى الحق سبحانه الآية التي نحن بصدد خواطرنّا عنها بقوله :

﴿ .. وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ^(١) (٩٦) ﴾ [يونس]

(١) وإن كثيراً من الناس : أي : أهل مكة ، عن آياتنا غافلون : لا يعتبرون بها . [تفسير الجلالين ص ١٨٧] .

وهذا القول يوضح أن هناك من يغفل عن الآيات ، وهناك من لا يغفل عنها ، و ينظر إلى تلك الآيات ويتأملها ويتدبرها ، ويتساءل عن جدوى كل شيء ، فيصل إلى ابتكارات واختراعات يتفجع بها الإنسان، أذن بميلادها عند البحث عنها ؛ لتستبين عظمة الله في خلقه .

وحين ينظر الإنسان في تلك الابتكارات سيجدها وليدة أفكار مَنْ نظروا بامعان ، وامتلكوا قدرة الاستنباط ، ولو لم يغفل الناس عن النظر في آيات الكون ، والسموات والأرض ، لزادت الابتكارات والاختراعات ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ ^(١) فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُقْرِضُونَ ^(١٠٥)﴾ [يونس]

وحين ننظر إلى مكتشف قانون الجاذبية «نيوتن» الذي رأى ثمرة تفاح تسقط من شجرتها ، نجد أن هناك عشرات الآلاف أو الملايين من البشر شاهدوا من قبله مشهد سقوط ثمرة من على شجرة ، ولكن نيوتن وحده هو الذي تفكر وتدبر ما يحدث أمامه إلى أن اهتدى إلى اكتشاف قانون الجاذبية .

وجاء من بعد نيوتن من بنى سفن الفضاء التي تستفيد من هذا القانون وغيره .

وكذلك نجد من صمَّم الغواصات ، والبواخر العملاقة التي تشبه المدن العائمة ، هؤلاء اعتمدوا على من اكتشف قانون «الطفو» وقاعدة «أرشميدس» الذي لاحظ أنه كلما غطس شيء في المياه ، ارتفع الماء بنفس حجم الشيء الغاطس فيه .

(١) كايْن من آية : كم من آية - كثير من الآيات . [كلمات القرآن : للشيخ حسين محمد مخلوف] .

كل هؤلاء اكتشفوا - ولم يخلقوا - أسراراً كانت موجودة في الكون ،
وهم تميزوا بالانتباه لها .

وكذلك العالم الذي اكتشف «البنسلين» قد لاحظ أن أصيصاً^(١) من
المواد العضوية كانت تنزل منه قطرات من الماء العفن ، ورأى الحشرات التي
تقترب من هذا الماء تموت ، فأخذ عينة من هذا العفن وأخذ يُجرى عليها
بعض التجارب في معمله إلى أن اكتشف «البنسلين» .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف]

فكانهم لو لم يعرضوا لاستنبطوا من آيات الكون الشيء الكثير .

وكذلك القصص التي تأتي في القرآن ، إنما جاءت ليعتبر الناس
ويتأملوا ، فحين يرسل الله رسلاً مؤيِّداً بمعجزة منه لا يقدر عليها البشر ؛
فعلى الناس أن يسلموا ويقولوا : «آمناء» ، لا أن يظنوا في حالة إعادة
للتجارب السابقة ؛ لأن ارتفاعات البشر في الأمور المادية قد تواصلت ؛
لأن كل جيل من العلماء يأخذ نتائج العلم التي توصل إليها من سبقوه ،
فلماذا لا يحدث هذا في الأمور العقدية ؟

ولو أن الناس بدأوا من حيث انتهى غيرهم ؛ لوجدنا الكل مؤمناً بالله
تعالى ، ولأخذ كل مولود الأمر من حيث انتهى أبوه ، ولوصل خير آدم

(١) الأص (بفتح الهمزة ، وبكسر ها ، وبضمها) : الأصل ، والأصيص : أصل اللبن (إناء) أي : أسفله
ويقال : هو كهيشة الجر له غرونان يحمل فيه الطين . وفي الصحاح : الأصيص ما تكسر من الأنية ، وهو
نصف الجر أو الخابية تزرع فيه الرياحين . (لسان العرب : مادة (أص ص)) . وتطلق هذه الكلمة على
أوان من الفخار تصنع خصيصاً لزراعة الأزهار والنباتات .

إلى كل من وكّد بعد ذلك ، لكن آفة البشر أن الإنسان يريد أن يجرب بنفسه .

ونحن نجد ذلك في أمور ضارة مثل : الخمر ، نجدها ضارة لكل من يقرب منها ، فإذا حرّمها الدين وجدنا من يتساءل : لماذا تُحرّم ؟ وكذلك التدخين ؛ نجد من يجربه رغم أن التجارب السابقة أثبتت أضراره البالغة ، ولو أخذ كل إنسان تجارب السابقين عليه ؛ فهو يصل عمره بعمر الآخرين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صَدَقَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعَامُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ^(١) ١٣ ﴾

وكلمة «تبوأ» تعنى إقامة مباءة أى : البيوت التى يكون فيها السكن الخاص ، وإذا أطلقت كلمة «مبوأ» فهى تعنى الإقليم أو الوطن ، والوطن أنت تتحرك فيه وكذلك غيرك ، أما البيت فهو للإنسان وأسرته بسكن خاص .

أما الثرى فقد يكون له جناح خاص فى البيت ، وقد يخصص الثرى فى منزله جناحاً لنفسه ، وآخر لولده وثالثاً لابنته .

أما غالبية الناس فكل أسرة تسكن فى «شقة» قد تتكون من غرفة أو اثنتين أو ثلاثة حسب إمكانيات الأسرة .

(١) بوانا : أنزلنا . مبوأ صدق : منزل كرامة وهو مصر والشام . فما اختلفوا : بأن امن بعضهم وكفر بعضهم . تفسير الجلالين ١٨٧ - ينصرفيا .

إذن: فيوجد فرق بين تبوء البيوت وتبوء المواطن ، فتبوء المواطن هو الوطن .

وسبق أن قال الحق سبحانه لموسى وهارون عليهما السلام:

﴿ أَنْ تَبُوءَ الْقَوْمَ مَكًا بِمِصْرَ يَوْمًا .. ﴾ (٨٧) [يونس]

هذا فى التبوء الخاص ، أما فى التبوء العام فهو يحتاج إلى قدرة الحق تعالى ، وهو سبحانه يقول هنا:

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ .. ﴾ (٩٢) [يونس]

والحق سبحانه أتاح لهم ذلك فى زمن موسى - عليه السلام - وأتاح لهم السكن فى مصر والشام ، وهو سبحانه القائل:

﴿ سَبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ .. ﴾ (١) [الإسراء]

وما دام الحق سبحانه قد بارك حوله فلا بد أن فيه خيراً كثيراً ، ولا بد أن تكون الأرض التى حوله مَبُوءًا صدق .

وكلمة «الصدق» تعنى جماع الخير والبر ؛ ولذلك نجد الرسول ﷺ حينما سئل: أَيْكون المؤمن جباناً؟ قال: «نعم» . وحين سئل: أَيْكون المؤمن بخيلاً؟ قال: «نعم» . وحين سئل: أَيْكون المؤمن كذاباً؟ قال: «لا»^(١) .

(١) سبحانه الذى أسرى بعبد: تنزيهاً وتبرئة لله سبحانه وتعالى عما يقول فيه المشركون . والإسراء والسرى: السير فى الليل . المسجد الأقصى: بيت المقدس . الذى باركنا حوله: لسانه فى معاشهم وأقواتهم . [مختصر تفسير الطبرى: ص ٣١٣] .

(٢) أخرجه الإمام مالك فى موطئه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلًا .

ولذلك فأنت تجد في الإسلام عقوبة على الزنا ، وعقوبة نقام على السارق^(١) ، أما الكذب فهو خصلة لا يقربها المسلم ؛ لأن عليه أن يكون صادقاً . وكل خصال الخير هي مَبُوءُ الصديق .

ولذلك نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مَخْرَجَ صِدْقٍ ^(٢) ﴾ (٨٠)

[الاسراء]

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَشِرَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ^(٣) ٢٠٠ ﴾ (٢)

[يونس]

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَاجْعَلْ لِّيْ لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ^(٤) ﴾ (٨٤)

[الشعراء]

أى : اجعل لى ذكرى حسنة فلا يقال فلان كان كاذباً ، وأما قدم الصديق فهي سوابق الخير التى يسعى إليها ؛ ولذلك كان الجزاء على الصديق هو ما يقول عنه الحق سبحانه :

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ^(٥) ﴾ (٥٥)

[القمر]

(١) قرر الكتاب والسنّة عقوبات محددة لجرائم معينة هي جرائم الحدود ، وهي : الزنا ، والقتل ، والسرقه ، والشكر ، وللحاربة ، والردة ، والبغى ؛ وذلك لتحقيق صيانة للجنم من نواحى الدين ، العقل ، المال ، المرض ، النفس . ولكل جريمة من هذه الجرائم شروط يجب توافرها لىتم تنفيذ العقوبة الخاصة بها . انظر تفصيل هذا فى كتب الفقه (أبواب الحدود) .

(٢) وقول رب أدخلنى مدخل صدق ، أى : أدخلنى المدينة إدخالاً مرضياً لا أرى فيه ما أكره . وأخرجنى من مكة مخرج صدق : إخراجاً لا أنقض بقللى إليها . [تفسير الجلالين : ص ٢٥١] .

(٣) قدم صدق : سابقة فضل ، ومنزلة رفيعة . [كلمات القرآن : للشيخ حسين محمد مغلوب] .

(٤) لسان صدق : ثناء حسناً وذكرأ جميلاً . [كلمات القرآن] .

(٥) مقعد صدق : مكان مرضى . [كلمات القرآن] . عند ملك : ذى مُلك . مقتدر : على كل ما يشاء ،

لا إله إلا هو . [مختصر تفسير الطبرى : ص ٦٠٧] .

وهو مقعد عند ملك لا يبخل ، ولا يجلس في رحابه إلا من يحبه ،
ولا يضن بخيره على من هم في رحابه .

ومقعد الصدق هو جزاء لمن استجاب له ربه فأدخله مدخل صدق ،
وأخرجه مخرج صدق ، وجعل له لسان صدق ، وقدم صدق .

وبعد أن برأ الحق سبحانه بنى إسرائيل مَبُوءاً صدق ، في مصر والشام ،
وبعد أن قال لهم :

﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ۖ ۝ (٦١) ﴾ [البقرة]

أى : أن الحق سبحانه حقق قوله :

﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيَّاتِ ۖ ۝ (٩٣) ﴾ [يونس]

وأنجاهم من فرعون ، وكان من المفترض أن تستقيم أمورهم .
ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ۖ ۝ (٩٣) ﴾ [يونس]

والمقصود بذلك هو معرفتهم بعلامات الرسول الخاتم محمد ﷺ ،
ومنهم من ترقب مجيء النبي ﷺ ليزمّن به ، ومنهم من تمادى في
الطغيان ؛ لذلك قطعهم الله - سبحانه - في الأرض أئماً .

وحين نظر إلى دقة التعبير القرآني نجد أنه يحدد مسألة التقطيع هذه ، فهم
في كل أمة يمثلون قطعة ، أى : أنه سبحانه لم يُذِبه في الشعوب . بل
لهم في كل بلد ذهبوا إليه مكان خاص بهم ، ولا يذوبون في غيرهم .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ ^(١) إِنِّي إِسْرَآئِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ ۖ ۝ (١٠٤) ﴾ [الإسراء]

(١) اهبطوا: انزلوا. مصرًا: من الأمصار ، أى : بلدًا من البلاد .

(٢) من بعده: أى من بعد إغراق فرعون .

لأننا لن نستطيع أن نحاربهم في كل بلد من البلاد التي قطعهم الله فيها ، لكنهم حين يجتمعون في مكان واحد ، إنما يسهل أن ينزل عليهم قضاء الله .

وحين تنظر إلى رحلتهم لجحد أن « يثرب » كانت المكان الذي اتسع لهم بعد اضطهادات المجتمعات التي دخلوا إليها ، وحين اجتمعوا في يثرب صار لهم الجاه : لأنهم أهل علم ، وأهل اقتصاد ، وأهل حرب .

وهم قد اجتمعوا في المدينة ؛ لأن المخلصين من أهل الكتاب أخبروهم أن هذه المدينة هي المهجر لئيب ورسول يأتي من العرب في آخر الزمان ، فمكثوا فيها انتظاراً له ، وكانوا يقولون لكفار قريش : « لقد أظلم زمان يأتي فيه نبي نبيه ، ونقتلكم فيه قتل عاد وإرم »^(١) .

وكان من المقروض أن يؤمنوا برسالته ﷺ ، لكنه ما إن أطل رسول الله ﷺ بتور رسالته حتى أنكروه خوفاً على سلطنتهم الزمنية .

وهو ما نقول عنه الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرننا عنها :

﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ .. ﴾ (٩٢) [يونس]

أي : أن علمهم بمجيء الرسول ﷺ هو مصدر اختلافهم ، فمنهم من سمعوا إشارات عنه ﷺ وعرفوا علاماته ﷺ ، فأمنوا به ، ومنهم من لم يؤمن به .

(١) قال الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَقِيَ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٩٢) [البقرة] وعن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علمناهم قهراً دهرأ في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن نبيه ، قد أظلم زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش وابعثناه كفرنا به . ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق .

وهم لم يختلفوا من قبل وكانوا متفقين ، وتوعدوا المشركين من قريش . وما إن أهل الرسول ﷺ وعلمت به «الأوس» و«الخزرج» أنه رسول من الله تعالى قد ظهر بمكة ، فقالت الأوس والخزرج : إنه النبي الذي توعدتنا به يهود ، فهيا بنا لنذهب ونسبqهم إليه قبل أن يسبقونا ، فيقتلونا به .

فكان اليهود هم الذين تسبqوا في هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ؛ لأن الأوس والخزرج سبقوهم إليه ؛ وهذا لتعلم كيف ينصر الله تعالى دينه بأعدائه .

ولذلك نجد أنهم في اختلافهم يأتي عبد الله بن سلام ^(١) إلى رسول الله ﷺ ويقول : إن اليهود قوم بُهتٌ ، وإذا أنا آمنت بك يا رسول الله سيقولون في ما يسيء إليّ ؛ لذلك فقبل أن أعلن إسلامي أسألهم عنى .

وكان ابن سلام في ذلك يسلك سلوكاً يتناسب مع كونه يهودياً ، ولما اجتمع معشر اليهود ، سألهم النبي ﷺ وقال : ما تقولون في ابن سلام ؟

قالوا : حَبْرُنا وشيخنا وهو الورع فينا ، وبعد أن أثقوا عليه ثناء عظيمًا ، قال ابن سلام : يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله .

وهنا بدأ اليهود يكيلون له السُّباب ، فقال ابن سلام : ألم أقُلْ لك يا

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي ، أبو يوسف ، أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة ، كان اسمه الحصين وسماه النبي ﷺ عبد الله ، شهد مع عمر فتح بيت المقدس والجاية . ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية اتخذ سيفاً من حشب ، واعتزلها ، وأقام بالمدينة إلى أن مات عام ٤٣ هـ (الأعلام - للزركلي ٩٠ / ٤) .

رسول الله إنهم قوم بُهت^(١) ؟

إذن : فمعنى قوله سبحانه :

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ۚ﴾ (٩٢) [يونس]

أى : أن أناساً منهم بقوا على الباطل ، وأناساً منهم آمنوا بالرسول الحق ﷺ .

وينهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿.. إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٩٣) [يونس]

أى : أن الله سبحانه وتعالى سوف يقضى بين من جاءوا فى صف الإيمان ، وبين مَنْ بَقُوا على اليهودية المتعصبة ضد الإيمان .

ونحن نلاحظ أن كلمة ﴿بَيْنَهُمْ﴾ توضح أن الضمير عام ، لهؤلاء ولأولئك .

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى يقضى يوم القيامة بين المؤمنين والكافرين ، ويقضى أيضاً بين الكافرين ، فمنهم من كان ظالماً لكافر ،

(١) عن أنس بن مالك أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم النبی ﷺ المدينة ، فأتاه يسأله عن أشياء فقال : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي : ما أول أسراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ وما بل الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال : أخبرني به جبريل أنفياً . قال ابن سلام : ذلك عند اليهود من الملائكة . قال : أما أول أسراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت . وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد . قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله . قال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بهت ، فاسألهم عني قبل أن يعلموا يا سلامي . فجاءت اليهود ، فقال النبي ﷺ : أي رجل عبد الله بن سلام فيكم ؟ قالوا : خيرنا وابن خيرنا . وأفضلنا وابن أفضلنا . فقال النبي ﷺ : أرايتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : أعاده الله من ذلك . فأعاد عليهم ، فقالوا مثل ذلك . فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقالوا : شرتنا وابن شرتنا ، وتقصوه ، قال : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله . أخرجه البخاري في صحيحه (٣٩٣٨) وأحمد في مسنده (١٠٨/٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٢) .

سُورَةُ يُوسُفَ

٦١٩٧

ومنهم من كان مختلساً أو مرتشياً ، ومنهم من عمل على غير مقتضى دينه ؛ لذلك يقضى الله سبحانه بينهم .

والآية تفيد العموم فى القضاء ماضياً وحاضراً ومستقبلاً بين كل مؤمن وكافر ، وبين كل تائب وعاصٍ ، ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾^(١)

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ .

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ قد قال من البداية إنه لا يشك فى رسالته ، وحين وعده أهله بالسيادة قال :

« والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك

(١) مخاطب بهذه الآية محمد ﷺ والمراد به غيره ، وكذلك الآية بعدها ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [يونس] ، وقد تأول بعض العلماء الشك هنا بأنه ضيق الصدر ، أى : إن ضايق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر ، وأسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك بخبرك صبر الأنبياء من قبلك على أذى قوتهم وكيفية عاقبة أمرهم . [تفسير القرطبي ٤ / ٢٣١٠] .

(٢) فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك : من أهل التوراة والإنجيل ، كعبد الله بن سلام . وقيل : إن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية - قال : « ما أشك ولا أسأل » . وقد علم الله ذلك منه ، ومخرج هذا القول ، كقول الرجل لآفته : « إن كنت ابنى فبرئى - من البر - أى : كن باراً بى - وهو لا يشك فى أنه آفته . من المتمرين : الشاكين ، [مختصر تفسير الطبرى] : ص ١٢٨ .

(٣) أمشرى فى الشىء : شك فيه ولم يستيقن . وحمارى القوم به : تجادلوا وغازى فى الشىء : تشكك فيه . قال تعالى : ﴿ فَلْيَلْزِمْنَا لَقَدْ تَسَاءَلْنَاكَ رَبَّنَا رَبَّنَا قُلُوبُنَا غَرَّتْ بِنَا فَلَا تَجْعَلْ لَنَا فِيهِ آلَاءَ ﴾ [النجم] أى : تشكك ، ويتضمن معنى التكذيب . [القاموس الشويمى] وراجع : لسان العرب مادة [مرى] .

هذا الأمر حتى يُظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته ^(١) .

تقول : إن الحق سبحانه وتعالى يضمّر خطاب الأمة في خطاب رسوله ﷺ ؛ لأن الأتباع حين يقرأون ويسمعون الخطاب وهو موجه بهذا الأسلوب إلى الرسول ﷺ فهم لن يستنكفوا ^(٢) عن أي أمر يصدر إليهم .

ومثال ذلك : لو أن قائداً يصدر أمراً لاثنتين من مساعديه اللذين يقودان مجموعتين من المقاتلين ، فيقول القائد الأعلى لكل منهما : إياك أن تفعل كذا أو تصنع كذا . والقائد الأعلى بتعليماته لا يقصد المساعدين له ، ولكنه يقصد كل مرءوسيه من الجند .

وجاء الأمر هنا لرسول الله ﷺ ؛ لتفهم أمته أن الرسول ﷺ ما كان ليتأبى على أمر من أوامر الله ، بل هو ﷺ ينقذ كل ما يؤمر به بدقة ^(٣) ؛ وذلك من باب خطاب الأمة في شخصية رسولها ﷺ .

وقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ۖ .. (٩٤) ﴾ [يونس]

(١) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٢٦٦) معزواً لابن إسحاق ، إن قريشاً قالوا لأبي طالب : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة بيننا ، وإنا قد استهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أعلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننزله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ، فبعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال له : يا ابن أخي ، إن قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا وكذا ، فأبى علي وعلى نفسك ، ولا تعملني من الأمر ما لا أطيق . فقال له رسول الله ﷺ هذه المقالة .

(٢) الاستنكاف : الامتناع تكراً وأتفه . ومنه قوله تعالى : ﴿ لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْفَاسِقُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْرِ فَيُحْشَرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٦) ﴾ [النساء] .

(٣) ومصدق ذلك قوله سبحانه : ﴿ فَذَلِكَ فَادَّعِ وَأَسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ إِنَّمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ۖ .. (٥٥) ﴾ [الشورى] .

هذا القول دليل على أن الذين عندهم علم بالكتاب من السابقين على رسول الله ﷺ ، يعرفون الحقائق الواضحة عن رسالته ﷺ .

وإن الذين يكابرون ويكفرون برسول الله ﷺ ورسالته إنما يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

وقد قال عبد الله بن سلام : «لقد عرفت محمداً حين رأيته كمعرفتي لإبني ، ومعرفتي لمحمد أشد»^(١) .

إذن : فالحق عندهم واضح مكتوب في التوراة^(٢) من بشارة به ﷺ ، وهذا يثبت أنك يا محمد صادق في دعوتك ، بشهادة هؤلاء .

ويُنتهى الحق سبحانه الآية بقوله تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (٩٤) [يونس]

والحق القادم من الله تعالى ثابت لا يتغير ؛ لأنه واقع ، والواقع لا يتغير ، بل يأتي على صورة واحدة .

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٩٤) أن عمر بن الخطاب سأل عبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف وملك؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ، وإنى لا أدري ما كان من أمه .

(٢) يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَقْبِضُونَ الرُّسُولَ الَّذِي آمَنَ الَّذِي يَهْدِيهِمْ مَكْتُوبًا عَنْهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ بِأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ بَأْوَافِكُمْ هُمْ الْمُسْتَفْضَحُونَ ﴾ (١٠٧) [الأعراف]

وعن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو ، كان يقول : إن هذه الآية التي في القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ (٥) [الأحزاب] هي في التوراة : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأمينين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك : المشوكل ، لمست بفسط ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق ، ولا يدع السيئة بالسينة ، ولكن يعفر ويصفح ، ولن نقبضه حتى نقيم به الملة العوجاء حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح بها أعيناً عمياً ، وأذاناً صمّاً ، وقلوباً غلفاً . أخرجه البخارى في كتابه التفسير (٨/ ٥٨٥ فتح) واليهيقي في الدلائل (١/ ٣٧٥) .

أما الكذب فيأتى على صور متعددة .

ولذلك فمهمة المحقق الدقيق أن يقلِّب أوجه الشهادات التى تقال أمامه فى النيابة أو القضاء ؛ حتى يأتى حكمه مصيباً لا مدخل فيه لتناقض ، ولا يعتمد على تخيُّل أو أكاذيب .

وقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ .. (٩٤) ﴾ [يونس]

إنما يدل على أن الذين قرأوا الكتاب قد عرفوا أنك رسول الله حقاً ، ومنهم من ترك معسكر اليهودية ، وجاء إلى معسكر الإيمان بك ؛ لأن الحق الذى جاء لا دخل للبشرية فيه ، بل جاء من ربك :

﴿ .. فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) ﴾ [يونس]

ومجىء الخطاب بهذا الشكل ، هو كما قلت موجهٌ إلى الأمة المؤمنة فى شخص الرسول ﷺ .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ (٦٥) .. ﴾ [الزمر]

هذا القول نزل على رسول الله ﷺ ، ومن غير المعقول أن يشرك النبى ﷺ ، وكل الآيات التى تحمل معانى التوجيه فى الأمور المتَّزة عنها رسول الله ﷺ خاصة بأمته .

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

(١) أى : لئن أشركت بالله أحداً ؛ ليعطلن عملك . [مختصر تفسير الطبرى : ص ٥٢٧] يتصرف . وجبوت الأعمال بطلانها وفسادها رغم تحصيلها . وأصله إذا حبِطت الماشية . أى : تأكل فتكثر حتى تتفخ بطنها ولا يخرج عنها ما فيها [انظر اللسان مادة : حبِط] .

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٩٥)

[يونس]

والقول الحكيم ساعة يوجه إلى الخير قد يأتي بمقابله من الشر ؛ لتضخ الأشياء بالمقارنة .

ونحن في حياتنا اليومية نجد الأب يقول لابنه : اجتهد في دروسك ، واستمع إلى مدرّسك جيداً حتى تنجح ، فلا تكن مثل فلان الذي رسب ، والوالد في هذه الحالة يأتي بالإغراء الخير ، وبصاحبه بمقابله ، وهو التحذير من الشر .

وقد قال الشاعر :

فَالْوَحْهُ مِثْلُ الصُّبْحِ مُبَيَّضٌ وَالشَّعْرُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسْوَدٌ
ضِدَانٍ لَمَّا اسْتَجَمَّا حَسَنًا وَالضُّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَ الضُّدِّ^(١)

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ
فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٩٥)

وآيات الله سبحانه كما نعرفها متعددة ؛ إما آيات كونية وهي الأصل في المعتقد الأول بأن خالقها هو الخالق الأعلى سبحانه ، وتُلَفّت هذه الآيات إلى بديع صنعه سبحانه ، ودقة تكوين خلقه ، وشمول قدرته .

وكذلك يُقصد بالآيات ؛ المعجزات المنزلة على الرسل - عليهم السلام - لتظهر صدق كل رسول في البلاغ عن الله تعالى .

(١) الأضداد : في ظهورها تظهر ميزات ما فيها ، فنحن لا نعرف قيمة الحق إلا إذا تلوّقنا مرارة الباطل ، ولا نعرف قيمة النهار إلا إذا عشنا الليل في إظلامه ، ولا نعرف جمال العدل إلا إذا اكتوبنا نار المظالم .

وآيات القرآن الكريم التي تحمل منهج الله .

وهم كانوا يكذبون بكل الآيات .

والخطاب في هذه الآية هو خطاب للنبي ﷺ ، وجاء معطوفاً على ما في الآية السابقة ، حيث يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ .. ﴾ (٩٤)

[يونس]

وكل ما يرد من مثل هذا القول لا يصح أن نفهم منه أن رسول الله ﷺ من الممكن أن يشك ، أو من المحتمل أن يكون من الذين كذبوا بآيات الله - سبحانه وتعالى - ولكن إيراد مثل هذا الأمر ، هو إيراد لدفع خواطر البشرية ، أيًا كانت تلك الخواطر ، فإذا وجدنا الخطاب المراد به رسول الله ﷺ في التنزيل ، فغاية المراد اعتدال موازين الفهم في أمته تعليماً وتوجيهاً ؛ لأن المنهج مُتَرَكٌ عليه لتبليغه لأمته فهو شهيد على الأمم .^(١)

وإذا كانت الآية التي سبقت توضح : إن كنت في شك فاسأل ، فهو سبحانه يعطيه السؤال ؛ ليستمع منه إلى الجواب ، وليُسمع له لكل الأمة ؛ الجواب القائل : أنا لا أشك ولا أسأل ، وحسبي ما أنزل الله سبحانه عليّ .

ألم يَرِدْ في القرآن الكريم أن الحق سبحانه وتعالى يقول للملائكة يوم القيامة بمحضر من عبدوا الملائكة ، ويشير إلى هؤلاء الذين عبدوا الملائكة ومخاطباً ملائكة :

﴿ .. أَهْلُوا لِمِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (١٠١)

[سج]

ونحن نعلم أن الملائكة :

﴿ .. لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (١٠٦)

[التحرير]

(١) وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرُّسُلُ عَلَيْكُمْ شُهَدَاءً .. ﴾ (٢٢٣) [البقرة] .

والحق سبحانه يعلم مسبقاً جواب الملائكة ، وهم يقولون :

﴿ سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْنَا مِنْ دُونِهِمْ .. (١٤١) ﴾ [سب]

ولكنه سبحانه وتعالى أراد أن يُسمع من فى الحشر كلهم جواب الملائكة وهم يستنكرون أن يعبدهم أحد من الخلق ، فهؤلاء الخلق إنما عبدوا الجن .

إذن : فالسؤال جاء : ليبين الرد عليه ، مثلما يرد عيسى عليه السلام حين يُعبد من بعض قومه ، ويسأله سبحانه عن ذلك :

﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ .. (١٤٦) ﴾ [المائدة]

فيأتى الجواب :

﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ .. (١٤٦) ﴾ [المائدة]

إذن : فالمراد أن يقول الرسول ﷺ : أنا لا أشك ولا أسأل .

والشك ^(١) - كما نعلم - معناه : تساوى كفة النفس وكفة الإثبات ، فإن رجحت واحدة منهما فهذا ظن ، وتكون المرجوحة وهماً واقتراء وكذباً .

وكلمة «الشك» مأخوذة من مسألة حسية ، فنحن نرى الصيادين وهم يصعون كل سمكة بعد اصطيلها فى خيط يسمى «الشكاك» .

وكذلك نرى من يقوم بـ(لضم) العقود ، وهو يشك الحبة فى الخيط ^(٢) .

من هذا نأخذ أن الشك معناه : ضمُّ شيء إلى شيء ، ومنه الشكائك ^(٣) ، وهى البيوت المنتظمة بجانب بعضها البعض .

(١) الشك : حالة نفسية يتردد معها الذهن بين الإثبات والنفي ، ويتوقف عن الحكم . [المعجم الوسيط] .

(٢) شك الشيء واشتكه : ضم أجزاءه . [المعجم الوسيط : مادة (ش ك ك)] .

(٣) الشكائك : جمع شككة ، وهى مجموعة أشياء شك - أى ضم - بعضها إلى بعض . [المعجم الوسيط : مادة (ش ك ك)] .

ومنه «شاك السلاح»^(١) أى: الذى ضمَّ نفسه إلى الدرع.

فالشك هو ضم شيء إلى شيء ، وفى النسب تضم النفى والإنبات معاً ، لأنك غير قادر على أن ترجع أحدهما.

وكل خطاب فى الشك يأتى على هذا اللون.

والآية التى نحن بصددتها تقول:

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) ﴾

[يونس]

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ هو نفسه آية من الآيات ، وهكذا نرى أن الخطاب موجه لأمته ، فمن المستحيل أن يكون الرسول ﷺ من المكذبين بآيات الله - سبحانه وتعالى - لأن التكذيب بآيات الله تعالى يعنى: إخراج الصدق إلى الكذب ، وإخراج الواقع إلى غير الواقع .

والذين كذبوا بالآيات إما أنهم لا يؤمنون بإله ، أو يؤمنون بإله ولا يؤمنون برسول ، أو يؤمنون بإله ويؤمنون برسول ولا يؤمنون بما أنزل على الرسول ﷺ .

والذى يزيد هذا وجود آية فى آخر السورة يقول فيها الحق سبحانه:

﴿ قُلْ يَبْأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن

دُونِ اللَّهِ (١٠٤) ﴾

[يونس]

(١) الشُّكَّة: ما يحمل أو يلبس من السلاح . [المعجم الوسيط: مادة (ش ك ك)].

(٢) دون: نقيض فوق ، وتكون ظرفاً ، وتأتى بمعنى أمام ، وبمعنى وراء ، وبمعنى غير ، وبمعنى قرب أو جهة ، وبمعنى قبل ، وبمعنى أقل . والتمييز بين هذه المعانى يكون بالقرائن . وهى فى الآية ﴿ قُلْ يَبْأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِى يَتَوَقَّكُمْ وَأُبَرِّتُ أَن أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) ﴾ [يونس] بمعنى (غير) . [القاموس القويم] بتصرف .

فكان الخطاب المقصود من الأمة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾



وهذا القول يوضح لنا أن الحق سبحانه وتعالى قد علم علماً أزلياً بأنهم لن يؤمنوا اختياريهم للإيمان .

فحكمه هنا لا ينفي عنهم مسئولية الاختيار ، ولكنه علم الله الأزلى بما سوف يفعلون ، ثم جاءوا إلى الاختيار فتحقق علم الله سبحانه وتعالى بهم من ملوكهم .

وحكمه سبحانه مبني على الاختيار ، وهو حكم تقديرى .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - حين يأتى وزير الزراعة ، ويعلن أننا قدّرنا محصول القطن هذا العام ، بحساب مساحة الأراضى المزرعة قطعاً ، وبالتوسط المتوقع لكل فدان ، وقد يصيب الحكم ، وقد يخيب نتيجة العوامل والظروف الأخرى المحيطة بزراعة القطن ، فمن المحتمل أن يُصاب القطن بأفة من الآفات ، مثل : دودة اللوزة ، أو دودة الورقة .

إذن : ففي المجال البشرى قد يصيب التقدير وقد يخطئ ؛ لأن الإنسان يُقدّر بغير علم مُطلق ، بل بعلم نسبي .

أما تقدير الحق سبحانه فهو تقدير أزلى ، وحين يُقدّر الحق سبحانه فلا بد من وقوع ما قدره .

(١) حقت : وجبت عليهم كلمة ربك بالعباد [تفسير الجلالين : ص ١٨٧] .

ولذلك يجب أن نفرق بين قضاء حكم لازم قهري ليس للإنسان فيه تصرف، وبين قدر قد قُدِّرَ من الله تعالى أن يفعله الإنسان باختياره، وهذه هي عظمة علم الغيب.

ومثال ذلك: هو سلوك أبي لهب^(١)، فقد نزل فيه قرآن يُتلى:

﴿ تَبَّتْ^(٢) يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ^(٣) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ^(٤) ۖ

[المسد]

وقد نزلت السورة وأبو لهب على قيد الحياة، لأن الحق سبحانه قد علم أولاً أن خواطر أبي لهب لن تدفعه إلى الإيمان، ولو أن أبا لهب امتلك ذرة من ذكاء لجاء لرسول الله ﷺ وقال: أنت قلت عني إني سأصلي النار، لكن ها أنذا أعلن أنني أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله.

لكن ذلك الذكاء لم يكن يملكه أبو لهب، فقد علم الله أولاً أن خواطره لن تدفعه إلى الإسلام، مثلما دفعت حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وعمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعمر بن العاص. وكان إسلام هؤلاء رغم وقوفهم ضد النبي ﷺ أمراً وارداً.

وقد يُقدَّرُ البشر التقدير، لكن هذا التقدير إنما يتم حسب المعلومات

(١) أبو لهب هو أحد أعمام رسول الله ﷺ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته أبو عتبة، وإنما سمي أبا لهب لاحمرار وجهه وإشراقه كأنه اللهب.

وسبب نزول السورة التي ذكر فيها، أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: يا صباحاه. فاجتمعت إليه قريش فقال: أرايتم إن حدثكم أن اعدو مصيحكم لو عسيكم، أكنتم تصدقوني؟ قالوا: نعم. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ^(١) ۖ إِلَى آخِرِهَا. أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٨) عن ابن عباس.

(٢) تبَّتْ: هلكت أو خسرت أو خابت. [كلمات القرآن: للشيخ حسين محمد مخلوف].

(٣) وهو قوله تعالى: ﴿ مِصْرَيْنِ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ^(٤) ۖ ﴾ [المسد] أي: سيُشْرِى بار جهنم.

المتاحة لهم ، ولا يملك إنسان علماً كونياً أزلياً بتقديراته ، فعلمه محدود ، وقد يأتي الأمر على غير ما يُقدَّر ؛ لأن الإنسان لا يملك ما يُقدَّر .

ولا يقولنَّ أحدٌ : إن الله يعاقب بعد أن قدر مسبقاً ؛ لأن تقدير الحق سبحانه تابع من علمه الأزلى ، وهم كانوا يتمتعون بحق الاختيار . والله سبحانه هو القائل :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا ^(١) إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) ﴾ [التوبة]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ^(٢) ﴾

إذن : فمجيء الآيات وتكرارها لن يفيدهم في الانجاء إلى الإيمان ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أنهم سيتوجهون باختيارهم إلى الكفر ؛ فقد قالوا - من قبل - ما أورده الحق سبحانه في كتابه العزيز :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ^(٣) (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ

(١) الرجس : القذر والبن حسيماً ومعتزياً ويطلق على ما يُستخرج في الشرع . والرجس والرجز معناهما واحد ويطلق الرجس على العذاب لأنه سبب عنه . قال تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رِّجْسٍ وَغَضَبٍ .. (٧٧) ﴾ [الأعراف] أي : عذاب بسبب الرجس الذي اقترفوه [القاموس القويم] بتصرف .

(٢) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ : فلا يضعهم حيثئذ . [تفسير الجلالين : ص ١٨٧] .

(٣) ينبوع : العين التي لا ينضب ماؤها .

كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا^(١) أَوْ تَأْتِي بَالِلَهُ وَالْمَلَانِكَةُ قَبِيلًا^(٢) (٩٢) أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ^(٣) أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تَنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا تُفَرِّقُوهَ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا^(٤) (٩٣) ﴿[الإسراء]

وكان الحق سبحانه يأمر رسوله أن يقول موضحاً: لست أنا الذي ينزل الآيات ، بل الآيات من عند الله تعالى ، ثم يأتي القرآن بالسبب الذي لم تنزل به تلك الآيات التي طلبوها ، فيقول سبحانه :

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ . . (٩٤)﴾ [الإسراء]

إذن : فقد نزلت آيات كثيرة لمن سبق في المعاندة والمعارضة ، ويقابل قضية عرض الإيمان عليه بكفر يملأ قلبه .

فإن كان هناك من يبحث عن الإيمان فليدخل على بحث الإيمان بدون مُعتقد سابق ، ولينظر إلى المسألة ، وما يسمح به قلبه فليُدخله فيه ؛ وبهذا الاختيار القلبي غير المشروط بمعتقد سابق هو قمة القبول .

وقد قال الحق سبحانه في الآيات السابقة كلاماً في الوجدانية ، وكلاماً في الآيات المعجزات ، وكلاماً في صدق النبوة ، وكلاماً عن القيامة ،

(١) كسفاً : قطعاً . والكسف : السحاب المقطع قطعاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَنَجْجِلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَاخِهِ . . (٩٥)﴾ [الزوم] .

(٢) قبيلاً : متقابلين . والمراد (ينهم عياناً) .

(٣) الزخرف هنا : هو الذهب . والزخرف : التزيين ، وقد يقصد به التزيين والتزيين بالكذب ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ شَيْءٍ عَذَابًا شَدِيدًا لِلْإِنسِي وَالْجِنِّ يُوْحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا . . (٩٦)﴾ [الأنعام] .

(٤) بنوعاً : عياناً تنج لنا بالله بيلسنا هذا . جنة : بستان . قصفجر الانهار : بأرضنا هذه اثني نحن بها . خلالاتها : يعني : خلال النخيل والكروم . وخلالاتها : بينها في أصولها . تفجيراً : سيلاً يسيل بينها . كسفاً : قطعاً . قبيلاً : متباعدة أو جيباً ، فتعاينهم معاينة . زخرف : ذهب . ترفى : تصعد لي هرج إلى السماء . [مختصر تفسير الطبري : ص ٣٢٤ ، ٣٢٥] بتصرف .

وقصّ لنا سبحانه بعضاً من قصص مواكب الرسل ، من نوح عليه السلام ، ثم فصل قليلاً في قصة موسى وهارون عليهما السلام ، ثم سيأتى من بعد ذلك بقصة يونس عليه السلام .

ونحن نلاحظ أن الحق سبحانه جاء بقصة نوح عليه السلام في إطناب ^(١) ، ثم جاء بخبر عن رسل لم يَقُلْ لنا عنهم شيئاً ، ثم جاء بقصة موسى وهارون عليهما السلام ، ثم سيأتى من بعد ذلك بقصة يونس عليه السلام ، فالسورة تضم ثلاثاً من الرسائل : رسالة نوح ، ورسالة موسى وهارون ، ورسالة يونس ، وهو الرسول الذى سُمِّيَت السورة باسمه .

ولسائل أن يقول : ولماذا جاء بهؤلاء الثلاثة في هذه السورة ؟

وأقول : لقد تعبنا كثيراً ، ومعنا كثير من المفسرين حتى نتلمس الحكمة في ذلك ، ولماذا لم تأت في السورة قصة هود ، وثمود ، وشعيب ، وكان لا بد أن تكون هناك حكمة من ذلك .

هذه الحكمة فيما تجلّى لنا أن الحق سبحانه وتعالى يعرض مواكب الرسائل ومواكب المعارضين لكل رسول ، والنتيجة التى انتهى إليها أمر الأعداء ، وكذلك النتيجة التى انتهى إليها أمر الرسول ومن آمن به .

ونجد الذين ذكرهم الله سبحانه هنا قد أهلكوا إهلاكاً متحداً بنوع واحد في الجميع ، فإهلاك قوم نوح كان بالغرق ، وكذلك الإهلاك لقوم فرعون كان بالغرق ، وكذلك كانت قصة سيدنا يونس لها علاقة بالبحر ، فقد ابتلعه الحوت وجرى في البحر .

(١) الإطناب والمساواة والإيجاز من فنون البلاغة فالإطناب : شرح بإفادته والمساواة : مساواة للفظ للمعنى . والإيجاز : اللفظ لقليل للمعنى الكبير ولكل مقام مقال . [شرح دلائل الإعجاز] بتصرف .

إِذْ: فَمَنْ ذَكَرَ هُنَا مِنَ الرُّسُلِ كَانَ لَهُ عِلَاقَةٌ بِالمَاءِ ، أَمَا بَقِيَّةُ المَوْكِبِ الرِّسَالِي فَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ عِلَاقَةٌ بِالمَاءِ .

وَنَحْنُ نَعْرِفُ أَنَّ المَاءَ بِهِ الحَيَاةُ ، وَبِهِ الإِهْلَاكُ ؛ لِأَنَّ وَاثِبَ الحَيَاةِ يَهْبِ الحَيَاةَ بِالشَّيْءِ ، وَيُهْلِكُ بِالشَّيْءِ نَفْسَهُ . وَكَأَنَّ الحَقَّ سَبِّحَانَهُ يَبَيِّنُ لَنَا الحُكْمَةَ : أَنَا أَهْلَكْتُ بِالْفَرَقِ هُنَاكَ ، وَنَجَّيْتُ مِنَ الْفَرَقِ هُنَا .

إِذْ: فَطِلَاقَةُ القُدْرَةِ الإِلَهِيَّةِ هِيَ الْمُسْتَوَلِيَّةُ عَلَى هَذِهِ السُّورَةِ ، كَمَا تَظْهَرُ طِلَاقَةُ القُدْرَةِ فِي مَجَالَاتٍ أُخْرَى ، وَبِالْوَأْنِ أُخْرَى^(١) .

وَسُمِّيَتْ هَذِهِ السُّورَةُ بِاسْمِ يُونُسَ ؛ لِأَنَّ الحَقَّ سَبِّحَانَهُ أَرْسَلَهُ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ^(٢) ، وَهُمْ الأُمَّةُ الْوَحِيدَةُ فِي هَذَا الْمَجَالِ الَّتِي اسْتَشْنَاهَا الحَقَّ سَبِّحَانَهُ مِنَ الإِهْلَاكِ ، فَقَدْ أَغْرَقَ قَوْمَ نُوحٍ ، وَأَغْرَقَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ؛ فَكِلَاهُمَا قَدْ كَذَّبَ الرُّسُلَ ، وَلَكِنْ قَوْمَ يُونُسَ أَوَّلَ مَا رَأَوْا البَّاسَ^(٣) آمَنُوا فَالْحَمْدُ لِلَّهِ سَبِّحَانَهُ .

وَسُمِّيَتْ السُّورَةُ بِاسْمِ مَنْ نَجَّى ؛ لِأَنَّهُ عَادَ إِلَى الحَقِّ سَبِّحَانَهُ قَبْلَ أَنْ يُعَايِنَ الْعَذَابَ ، وَلَكِنَّهُمْ رَأَوْا فَقَطْ بَشَائِرَ الْعَذَابِ ، فَتَجَوَّأُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْإِيمَانِ .

وَهُنَا يَقُولُ الحَقَّ سَبِّحَانَهُ وَتَعَالَى :

(١) مِنْ طِلَاقَةِ القُدْرَةِ تَوْظِيفُ الشَّيْءِ إِلَى ضِدِّهِ مِثْلُ النَّارِ ، فَوُظِفَتْهَا الْإِحْرَاقُ وَلَكِنَّهَا كَانَتْ عَلَى سَبِيلِ إِبرَاهِيمَ يَرُدُّهُ وَاسْتِغْنَاءً . وَالمَاءُ بِهِ الحَيَاةُ وَفِيهِ الْغَرَقُ ، وَبِهِ النُّجَاةُ ؛ فَقَدْ نَجَّى إِلَهُ سَبِّحَانَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَغْرَقَ بِهِ فِرْعَوْنَ .

(٢) يَقُولُ سَبِّحَانَهُ : ﴿ وَارْمَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ (٢٤) ﴿ الصَّافَّاتِ ﴾ وَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ «نَبِيْرُ» جِهَةِ المَوْصِلِ بِالعِرَاقِ الْحَالِيَةِ .

(٣) البَّاسُ : الْعَذَابُ . يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ نَكْذِبُ الَّذِينَ مِنْ قُلُوبِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَاسًا . . . ﴾ (١٨) ﴿ الْأَنْعَامِ ﴾ ، وَيَقُولُ : ﴿ وَنَكْمُ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَاسًا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ (٤) ﴿ الْأَعْرَافِ ﴾ . وَالبَّاسُ : شِدَّةُ الْحَرْبِ ، يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَالصَّالِحِينَ فِي الْبَاسِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَاسِ . . . ﴾ (٣٧) ﴿ الْبَقَرَةِ ﴾ . وَالبَّاسُ : الْقَرَّةُ . يَقُولُ تَعَالَى عَنْ قَوْمٍ بَلَقِيْسَ مَلَكَةً سَبَّاحِينَ شَاوَرْتَهُمْ فِي أَمْرِ سُلَيْمَانَ : ﴿ قَالُوا نَعْنِ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْرِ ضَبَدٍ . . . ﴾ (٢٥) ﴿ النَّمْلِ ﴾ .

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ
لَعَنَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَمَغْنَمَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (١٨)

وهكذا يبين لنا الحق سبحانه أن هناك كثيراً من القرى لم تؤمن إلا وقت العذاب ، فلم ينفع أيّاً منهم هذا الإيمان ، ولكن قوم يونس قبل أن تأتي بشائر العذاب والبأس أعلنوا الإيمان فقبل الحق سبحانه إيمانهم ؛ لأنه سبحانه لا يظلم عباده .

فمن وصل إلى العذاب ، وأعلن الإيمان من قلب العذاب لا يقبل منه ، ومن أحسن واستشف بواكير العذاب وآمن فالحق سبحانه وتعالى يقبله .

وكلمة «لولا» إذا سمعتها فمثلها مثل «لوما» ، وإذا دخلت «لولا» على جملة اسمية فلها حكم يختلف عن حكمها لو دخلت على جملة فعلية ، فحين تدخل على جملة اسمية مثل : «لولا زيد عندك لا تبينك» تفيد أن امتناع المجيء هو بسبب وجود زيد ، لكنها إن دخلت على جملة فعلية فيقال عنها : «أداة تحضيض وحث» مثل قول الحق سبحانه :

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ .. ﴾ (١٢٢) [التوبة]

(١) لولا تحذف شرط لا يحمل ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط ، وجملة الشرط (اسمية) ويختلف الخبر وجوباً إذا كان كوناً عاماً وإذا وليها مضمير يكون ضمير رفع مفصل [القاموس القريم] .

(٢) ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ .. ﴾ (١٨) : يقول عز وجل : لم تكن قرية آمنت فغفناها الإيمان إذا نزل بهم بأس الله ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ .. ﴾ (١٨) : قبل : إنهم لما أظلمهم العذاب ، وظنوا أنه قد دنا منهم ، وفقدوا يونس ، فدفع الله في قلوبهم التوبة ، وفرقوا بين كل أنثى وولدها ، وعجزوا - أي : رفعوا أصواتهم بانتلبية - إلى الله أربعين ليلة ؛ فلما عرف صدق توبتهم كشف عنهم العذاب ﴿ .. وَمَغْنَمَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (١٨) : لم نعالجهم بالعقوبة ، واستشفوا بأحوالهم في الدنيا ، إلى حين عافاهم ووقت فناء أعمالهم [مختصر تفسير الطبري : ص ٢٤١ ، ٢٤٢] .

أى : أنه كان يجب أن ينفر من كل طائفة عدد ليتدارسوا أمور الدين .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ ۖ (٩٨) ﴾ [يونس]

أى : أنه لو أن هناك قرية آمنت قبل أن ينزل بها العذاب لأنجيناها كما أنجينا قوم يونس ، أو كنا نحب أن يحدث الإيمان من قرية قبل أن يأتيتها العذاب .

إذن : فقوم يونس هنا مُسْتَشْنُونَ ؛ لأنهم آمنوا قبل أن يأتيتهم العذاب .

وهناك آية أخرى تتعلق بهذه القصة ، يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٢٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٢٤) ﴾ [الصفات]

أى : أن الذى منع يونس عليه السلام أن يظل فى بطن الحوت إلى يوم البعث هو التسبيح .

وهنا يبيّن الحق سبحانه الاستثناء الذى حدث لقوم يونس حين يقول :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨) ﴾ [يونس]

(١) المُسَبِّحُونَ : هم المصلّون لله تعالى ، قبل السَّلام والعقوبة التى نزلت به ، وقيل : المُسَبِّحُونَ : هم المذبحون ، بقوله كثيراً فى بطن الحوت : ﴿ .. لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء] .

﴿ .. لَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٢٤) ﴾ [الصفات] : أصار بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة . [مختصر تفسير الطبرى ، وتفسير الجلالين] .

أى: أن الإيمان نفع قرية قوم يونس قبل أن يقع بهم العذاب .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿.. لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ

[يونس]

حِينَ (٩٨) ﴿

ونحن نعلم أن كلمة «قرية» تعنى : مكاناً مُهيئاً ، أهله متوطنون فيه ،
فإذا ما مرَّ عليهم زائر فى أى وقت وجد عندهم قرىً^(١) أى : وجبة طعام .

ونحن نجد من يقول عن الموطن كثير السكان كلمة «بلد» ، وهؤلاء من
يملكون طعاماً دائماً ، أما من يكونون قلة قليلة فى موطن ففى الغالب ليس
عندهم من الطعام إلا القليل الذى يكفيهم ويكفى الزائر لمرة واحدة .

وتسمى مكة المكرمة «أم القرى»^(٢) ؛ لأن كل القرى تزورها .

وقرية قوم يونس اسمها «نينوى» قد حكى عنها النبي ﷺ فى قصة
الذهاب للطائف ، وهى قرية العبد الصالح يونس بن متى^(٣) ، وهى فى

(١) القرى . هو طعام الضيعة . والقرية فى اللغة : المصر أو البلد الكبير مثل : مصر ، مكة ، الطائف ،
نينوى ، وغيرها مما أشار إليه القرآن ، فقد وردت كلمة «القرية» فيه بهذا المعنى (٣٧ مرة) غير المتى منها
(١) والجميع (١٩) مرة .

(٢) قال عنها الحق سبحانه : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ
حَوْلَهَا..﴾ [الأنعام] ، ويقول : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكَ أَمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا..﴾ [١٧] ﴿
[الشورى] .

(٣) وذلك أن رسول الله ﷺ قابل غلاماً نصرانياً لعنة وشية ابنى ريعة يقال له عداس ، فعندما هم رسول
الله ﷺ بالأكل من عنب بسانتهما قال : باسم الله . ثم أكل ، فظفر عداس فى وجهه ، ثم قال : والله إن
هذا الكلام ما يقرؤه أهل هذه البلاد . فقال له ﷺ : ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس ، وما دينك ؟
قال : نصرانى ، وأنا رجل من أهل نينوى ، فقال رسول الله ﷺ : من قرية الرجل الصالح يونس بن
متى . فقال له عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله ﷺ : ذلك أنى ، كان نبياً وأنا
نبي ، فأكتب عداس على رسول الله ﷺ يُقْبَلُ رأسه ويديه وقدميه . أورده ابن هشام فى السيرة النبوية
(٢/ ٤٢١) .

سُورَةُ يُونُسَ

٦٢١٤

العراق ناحية الموصل ، ويونس هو من قال عنه الله سبحانه :

﴿وَإِذَا النُّونُ ﴿٨٧﴾ إِذْ ذُهِبَ مُغَاضِبًا﴾ [الأنبياء]

وكلمة «مغاضب» غير كلمة «غاضب» ، فالغاضب هو الذى يغضب دون أن يُغضبه أحد ، لكن المغاضب هو من أغضبه غيره .

وكذلك كلمة «هجر» ، ومهاجر ، فالمهاجر هو من أجبره أناس على أن يهاجر ، لكن من هجر هو من ذهب طواعية بعيداً .

والمغاضبة - إذن - تكون من جهتين ، وتسمى «مفاعلة» .

والحق سبحانه يقول :

﴿وَإِذَا النُّونُ إِذْ ذُهِبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء]

وسمى سيدنا يونس عليه السلام بذي النون ؛ لأن اسمه اقترن بالحيوت الذى ابتلعه .

وكلنا نعرف القصة ، حينما دعا قومه إلى الإيمان وكفروا به فى البداية ؛ لأن الرسول حين يجرى إنما يجرى ليقوم الحياة الفاسدة ؛ فيضطهده من يعيشون على الفساد ؛ لأنهم يريدون الاحتفاظ بالجبروت الذى يسمح لهم بالسرقة والاختلاس وإرواء أهواء النفس ، فلما فعلوا ذلك مع سيدنا يونس - عليه السلام - خرج مغاضباً ، أى : أنهم أغضبوه .

والمغاضبة - كما قلنا - من المفاعلة وتحتاج إلى عنصرين ، مثلما أوضحنا أن الهجرة أيضاً مفاعلة ؛ لأن الرسول ﷺ لم يهجر مكة ، بل ألجأ قومه إلى أن يهاجر ، فكان لهم مدخل فى الفعل .

(١) النون: الحوت . (ذو ، ذا ، ذى) بمعنى : صاحب . أى : صاحب الحوت ، وهو يونس عليه السلام .

وأبو الطيب المتنبي^(١) يقول في هذا المعنى :

إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَّرُوا
أَلَّا تُغَادِرَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمْ

أى : إن كنت تعيش مع قوم ، وأردت أن تفارقهم وقد قدروا أن تعيش معهم ، فالذى رحل حقيقة هم هؤلاء القوم .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد خروج يونس مغاضباً :

﴿ قَظَنَ أَنَّ لَّنْ نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ۖ ۝ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

أى : أنه رجَّح أن الحق سبحانه لن يضيق عليه الأرض الواسعة ، وسيهيء له مكاناً آخر غير مكان المائة الألف أو يزيدون الذين بعثه الله تعالى إليهم .

وكان من المفروض أن يتحمل الأذى الصادر منهم تجاهه ، لكن هذا الظن - والظن ترجيح حكم - يدلنا على أن معارضة دعوته كانت شديدة تُحَفِّظُ^(٢) وتغلل القلب بالألم والتعب ..

وكان عليه أن يُوطِّن نفسه على مواجهة مشقات الدعوة .

والقرية التي أرسل إليها يونس عليه السلام هي قرية «نينوى» ، وهي التي جاء ذكرها في أثناء حوار بين النبي ﷺ والغلام النصراني «عداس» الذي قابله ﷺ في طريق عودته من الطائف .

(١) هو : أحمد بن الحسين المتنبي ، شاعر حكيم ، ولد بالكوفة عام ٣٠٣ هـ ، وشأ بالشام ، ثم تنقل في البداية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس . توفي مفتولاً بالعمانية ببغداد عام ٣٥٤ هـ عن ٥١ عاماً (الأعلام للزركلي ١ / ١١٥) .

(٢) تحفظ : تنصب . والحفيظة : الغضب . ويقال : إن الحفائظ تذهب الأحقاد : أى : إذا رأيت جميعك يُظلم حميت له ، وإذا كان عليه في قلبك حقد ، [اللسان مادة حفظ] .

وكان النبي ﷺ قد ذهب إلى الطائف ليطلب من أهلها النصره بعد أن آذاه قومه في مكة فلم يجد التصير^(١) ، وجلس النبي ﷺ قريباً من حائط بستان .

فلما رآه صاحبا البستان - عتبة وشيبة ابنا ربيعة - وما لقي من السفهاء ؛ تحركت له رحمهما ، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً ، يقال له عدّاس ، فقالا له : خُذْ قِطْعاً من هذا العنب ، فضعه في هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه ، ففعل عدّاس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ثم قال له : كُلْ ، فلما وضع رسول الله ﷺ يده ، قال : باسم الله ، ثم أكل ، فنظر عداس في وجهه ، ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله ﷺ : «ومن أهل أي البلاد أنت يا عدّاس ، وما دينك؟» . قال : نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوى ؛ فقال رسول الله ﷺ : «من قرية الرجل الصالح يونس ابن مَتَّى» ؛ فقال له عداس : وما يدريك ما يونس بن مَتَّى ؟ فقال رسول الله ﷺ : «ذاك أخى ، كان نبياً وأنا نبي» ، فأكب عداس على رسول الله ﷺ يُقبل رأسه ويديه وقدميه .

ولما سأل صاحبا البستان عدّاساً عن صتيعه هذا . قال لهما : لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي^(٢) .

(١) لما أتى رسول الله ﷺ من قومه بمكة الذين آذوه وآذوا المسلمين لجأ إلى الطائف ليطلب نصرته لثقيف وكلمهم وعرض عليهم الإسلام ، فما كان منهم إلا أن رفضوا الأمر ، وأعدوا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وأجأوه إلى حائط (بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، ورجع عن سفهاء ثقيف ، فعمد إلى ظل شجرة عنب فجلس فيه . وهنا دعا رسول الله ﷺ ربه قائلاً : «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبأى ، ولكن عاقبتك هي أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك ، لك العتسي حتى توفى ، ولا حول ولا قوة إلا بك» . [السيرة النبوية لابن هشام : ٤١٩/٢ ، ٤٢١] بتصرف .

(٢) انظر : تفصيل هذه القصة في السيرة النبوية لابن هشام (٤١٩/٢ - ٤٢١) .

ونحن نعلم أن العبد الصالح - يونس عليه السلام - قد تأثر وحزن وغضب من عدم استجابة قومه لرسالته الإيمانية ، إلى أن رأوا غَيِّماً يملأ السماء وعواصف ، وألقى الله تعالى في خواطرهم أن هذه العواصف هي بداية عذاب الله لهم ^(١) ؛ فهُرَّعُوا إلى ذوى الرأى فيهم ، فأشاروا عليهم بأن هذه هي بوادر العذاب ، وقالوا لهم : عليكم بإرضاء يونس ؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى أرسله ، فأمنوا به ليكشف عنكم الغُمَّة .

وهُرَّعَ النَّاسَ إلى الإيمان بالحقى الذى لا يموت ، الحقى حين لا حى ، والقيوم والمحيى والمميت .

وذهب قوم يونس عليه السلام لاسترضائه ؛ وحين رضى عنهم بدأوا ينظرون فى المظالم التى ارتكبوها ، حتى إن الرجل منهم كان يتقضى ويهدم جدار بيته ؛ لأن فيه حجراً قد اختلسه من جاره ^(٢) .

وكشف الله سبحانه وتعالى عنهم العذاب ، وهنا يقول سبحانه :

﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ^(٣) وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى

حِينٍ ۝ (٩٨) ﴾ [يونس]

ومن لوازم قصة يونس عليه السلام ، ليست المغاضبة فقط ، بل قصته مع الحوت ، فقد كان عليه السلام بعد مغاضبته لقومه قد ركب سفينة ،

(١) وهذا يتوافق مع ما قاله الزجاج : «إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التى تدل على العذاب ، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان» واختاره القرطبي فى تفسيره (٤/ ٣٣١٢) .

(٢) نقله القرطبي فى تفسيره (٤/ ٣٣١٢) من قول ابن مسعود .

(٣) اختلف المفسرون ، هل كشف عنهم العذاب الأخرى مع الدنوى ، أم كشف عنهم العذاب فى الدنيا فقط ؟ على قولين :

• الأول : إنما كان ذلك فى الحياة الدنيا ، على ظاهر الآية الكريمة .

• والثانى : كشف العذاب فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ؛ لقول الله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَرْثِوْنَ (١٠٧) فَأَمَّنُوا فَمَشَّغْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ۝ (١٠٨) ﴾ [الصافات] ما طلق عليهم الإيمان ؛ والإيمان منقاد من العذاب الأخرى ، وهذا هو الظاهر ، والله أعلم . [ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٣٣)] .

فلعبت بها الأمواج فاضطربت اضطراباً شديداً ، وأشرفت على الفرق
بركابها ، فآلقوا الأمتعة في البحر ؛ لتخفَّ بهم السفينة ؛ فاستمر
اضطرابها ، فافترعوا على أن يلقوا إلى البحر من تقع عليه القرعة ، فوُعت
القرعة على نبي الله يونس عليه السلام .

مثلاً نركب مصعداً ، فنجد الضوء الأحمر وقد أضاء إنذاراً لنا بأن
الحمولة زائدة ، وأن المصعد لن يعمل فيخرج منه واحد أو أكثر حتى يتبقى
العدد المسموح به ، وعادة يكون الخارج من أحسن الموجودين خلقاً ،
لأنهم أرادوا تسهيل أعمال الآخرين .

كذلك كان الأمر مع السفينة التي ركبها يونس عليه السلام ، كادت أن
تغرق ، فافترعوا ، وصار على يونس أن يتزل إلى البحر .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ (١٤١)

[الصافات]

وتزل يونس عليه السلام إلى البحر فالتقمه " الحوت وابتلعه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن وجود سيدنا يونس عليه السلام في بطن
الحوت :

﴿ قُلُوبًا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ (١٤٢) **لَلَّيْلِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ
يُخْرَجُونَ** (١٤٣)

[الصافات]

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها يقول الحق سبحانه :

(١) ساهم : قارع ، أى : اشترك في الاقتراع . المدحضين : الغلوبين إذ وقع الاقتراع عليه . (ابن كثير
٢٠ / ٤ - بتصرف) .

(٢) التقمه : ابتلعه في سرعة . قال سبحانه : ﴿ فَالتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ (١٤٣) [الصافات] ، والمليم : هو
من أتى دنياً يلام عليه .

سُورَةُ التَّوْبَةِ



﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٩٨) ﴾ [يونس]

وعذاب الخزي في الحياة الدنيا يمكن أن تراه مُجسِّداً فيمن افترى وتكبر على الناس ، ثم يراه الناس في هوان ومذلة ، هذا هو عذاب الخزي في الدنيا ، ولا بد أن عذاب الآخرة أَخْزَى وَأَشَدُّ .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ .. وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ خَيْرٍ (٩٨) ﴾ [يونس]

أى : أنهم نَجَّوْا من الهلاك بالعذاب إلى أن انتهت آجالهم بالموت الطبيعي .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا
أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (١١) ﴾

والحق سبحانه وتعالى يبيِّن لنا أنه إن قامت معركة بين نبي مرسل ومعه المؤمنون به ، وبين من كفروا به ، فلا بد أن يُنْزَلَ الحق سبحانه العذاب بمن كفروا .

(١) تُكْرِهُ الناس تلزمهم وتلجئهم أى : ليس ذلك عليك يا محمد - صلوات الله وسلامه عليه - بل الله تعالى يُضِلُّ من يشاء ويَهْدِي من يشاء . كما قال تعالى في ذلك : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقْتُهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٢٣) ﴾ [هود] . وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ فِدَاهُم وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .. (٢٢٢) ﴾ [البقرة] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا يَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .. (١٠٦) ﴾ [الفصحة] . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله سبحانه هو الفعال لما يريد ، الهادي من يشاء ، المُضِلُّ لمن يشاء ، لعلهم وحكمته وعذله - سبحانه - . [تفسير ابن كثير : ٤/ ٤٣٣] بتصرف .

وياك أن تفهم أن الحق سبحانه يحتاج إلى عبادة الناس ؛ لأن الله عز وجل قديم أزلي بكل صفات الكمال فيه قبل أن يخلق الخلق ، ويكمله خلق الخلق ، وقوته سبحانه وتعالى في ذاته ، وهو خالق من قبل أن يخلق الخلق ، ورازق قبل أن يخلق الرزق والمرزوق ، والخلق من آثار صفات الكمال فيه ، وهو الذي أوجد كل شيء من عدم .

ولذلك يسمون صفاته سبحانه وتعالى صفات الذات ؛ لأنها موجودة فيه من قبل أن يوجد متعلقها .

فحين تقول : حي ، ومحي ، فليس معنى ذلك أن الله تعالى موصوف به «محي» بعد أن وجد من يحييه ، لا ، إنه محي ، وبهذه الصفة أحياء .

ولله المثل الأعلى ، وهو سبحانه مُتَرَفٍّ عن كل تشبيه : قد نرى المصور أو الرسام الذي صنع لوحة جميلة ، هنا نرى أثر موهبة الرسم التي مارسها ، واللوحة ليست إلا أثراً لهذه الموهبة .

الحق سبحانه وتعالى - إذن - له كل صفات الكمال قبل أن يخلق الخلق ، وبصفات الكمال خلق الخلق .

فياك أن تفهم أن هناك أمراً قد جَدَّ على الله تعالى ، فلا شيء يجد على الحق سبحانه ، وهو سبحانه لا يتفجع من خلقه بل هو الذي ينشئهم .

ونحن نعلم أن الإيمان مطلوب من الإنسان ، وهو الجنس الظاهر لنا ونحن منه ، ومطلوب من جنس آخر أخبرنا عنه الله - تبارك وتعالى - وهو الجن^(١)

(١) وذلك في قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٢١) [الذاريات] .

وأما بقية الكون فمُسَبِّحٌ^(١) مؤمن بالله تعالى ، والكون عوالم لا حصر لها ، ولكل نظام لا يحيد عنه .

ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يدخل الثقلين - الإنس والجن - فى نظام التسخير ما عَزَّ عليه ذلك ، لكن هذا التسخير يثبت له القدرة ولا يثبت له المحبوبة .

ولذلك ترك الحق سبحانه الإنسان مختاراً ليؤمن أو لا يؤمن ، وهذا ما يثبت له المحبوبة إن جئته مؤمناً ، وهذا يختلف عن إيمان القَسْر والقهر ، فالإيمان المطلوب من الإنسان أو الجن هو إيمان الاختيار .

وأما إيمان القسر والقهر ، فكل ما فى الكون من عوالم مؤمن بالحق سبحانه ، مُسَبِّحٌ له .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۖ ﴾ (١٤)

[الإسراء]

وهذا ليس تسبيح^(٢) دلالة ورمز ، بل هو تسبيح حقيقى ، بدليل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۖ ﴾ (١٤)

[الإسراء]

فإن فَهَمَكَ الله تعالى فى لغاتهم لعلمت تسبيح الكائنات ، بدليل أنه

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ الْمَسْبُوحَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۖ ﴾ (١٤٠) [الإسراء] . ويقول تعالى : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۖ ﴾ [الحشر] .

(٢) تسبيح الدلالة والرمز ملحظه يقيناً فى حركة الجهاد وحركة ونمو وتنفس النبات ، وحركة ونمو وتنفس وغريزة الحيوان ، وحركة ونمو وتنفس وتعقل الإنسان ، فكل حركة لها محرك ، وفى الحركة تسبيح ، وفرق ذلك نحمد للأرض والسماء بكاء فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَكُنْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مَعْلُومِينَ ﴾ (١٢) [الدخان] ، والبكاء يصدر عن عاطفة والعاطفة تصدر عن علم ، وهذه المراتب تسبيح بحقيقة لا يدركها عقل وقد يحسها قلب .

عَلَّمَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَنْطِقَ الطَّيْرِ ^(١) ، وَسَمِعَ النَّمْلَةُ تَقُولُ :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ

لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٨)

[النمل]

وَالْهَدَّاهُ قَالَ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا رَأَى عَنْ بَلْقِيسَ مَلَكَةَ سَبَأَ :

﴿ وَخَدَّتْهَا وَقَوْمُهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ

أَعْمَالُهُمْ فَضَلُّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٢٥)

[النمل]

إِذَنْ : فَكُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ مُسَبِّحٌ لِلَّهِ تَعَالَى ، يَسْرِعُ عَلَى مَنَهِجِهِ
سَبْحَانَهُ مَا عَدَا الْمُخْتَارَ مِنَ الثَّقَلَيْنِ : الْإِنْسَانَ وَالْجَانَّ ، لِأَنَّ كِلَاهُمَا فِيهِ
عَقْلٌ ، وَلَهُ مِيزَةُ الْإِخْتِيَارِ بَيْنَ الْبِدَائِلِ .

وَمِنْ عَظَمَةِ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ خُلِقَ لِلْإِنْسَانِ الْإِخْتِيَارُ حَتَّى يَذْهَبَ
الْمُؤْمِنُ إِلَيْهِ اخْتِيَاراً ، وَلَوْ شَاءَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَحْبِرَ الْإِنْسَانَ عَلَى
الْإِيمَانِ لَفَعَلَ .

أَقُولُ ذَلِكَ حَتَّى لَا يَقُولَنَّ أَحَدٌ : وَلِمَاذَا كُلُّ هَذِهِ الْمَسَائِلِ مِنْ خَلْقٍ وَإِرْسَالِ
رُسُلٍ ، وَتَكْذِيبِ أَتَمِّسَ ، ثُمَّ إِهْلَاكِ الْمَكْذِبِينَ ؟

وَلِذَلِكَ قَالَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى

يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٩)

[يونس]

(١) فَرَبُّ لَمَزَةٍ سَبْحَانَهُ يَقُولُ عَنْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ وَرَبُّهُ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْتُ مَنْطِقَ
الطَّيْرِ وَأَوْحَيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَعْلُ الْمُفْعِلُ ﴾ [النمل] .

إذن: فالحق سبحانه خلق الإنسان وسخر له كل الأجناس ، ولم يجبره على الإيمان ، بل يقول سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ^(١) نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء]

وكان رسول الله ﷺ محباً مخلصاً لقومه وعشيرته ، وذاق حلاوة الإيمان ، وحزن لأنهم لم يؤمنوا ، فبنيهم الحق سبحانه وتعالى أن عليه مهمة البلاغ فقط ، فلا يكلف نفسه شططاً^(٢) .

والحق سبحانه وتعالى شاء أن يجعل للإنسان حق الاختيار وسخر له الكون ، ومن الناس من يؤمن ، ومن الناس من يكفر ، بل ومن المؤمنين من يطيع مرة ، ويعصى أخرى ، وهذه هي مشيئة الحق ليتوازن الكون ، فكل صفة خيرة إن وجد من يعارض فيها فهذا ما شاء الله سبحانه وتعالى للإنسان ، فلا تحزن يا رسول الله ؛ فالحق سبحانه وتعالى شاء ذلك .

وإن غضب واحد من أن الآخرين لم يعترفوا بصفاته الطيبة نقول له : إن الحق سبحانه هو خالق الكون وهو الرازق ، قد كفروا به وألحدوا ، وجعلوا له شركاء ، فتخلّقوا بأخلاق الله ؟

ولذلك قال الحق سبحانه :

(١) باخِعٌ : أى : مهلك نفسك . أى : مما تعرض وتحزن عليهم لعدم إيمانهم . وهذه تسلية من الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار . كما قال تعالى : ﴿فَلَا تَغْصِبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ..﴾ (١٨١) [فاطر] . وكفوله سبحانه : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ ..﴾ (٣) [الكهف] .

قال مجاهد وعكرمة وآخرون : باخِعٌ نفسك : أى : قاتل نفسك . وقد قال الشاعر :

إلا أيها الباخِعُ الحزنُ نفسه
أشـءٌ نُحِتَتْ عَنْ يَدَيْهِ المقاديرُ

[ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٣٦)] بتصرف .

(٢) الشطط : الجور ومجاوزة القدر في كل شيء ، والمقصود : لا تنظم نفسك ، ولا تتجاوز الحد في الحزن عليهم . ومنه قوله تعالى عن الحصين اللذين حلبا حكم داود بينهما ، فقالا له : ﴿.. فاحكم بينا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط﴾ (٢٦) [ص] .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآتَمَنَ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى
يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٩) ﴿ [يونس]

إنه سبحانه وتعالى يريد إيمان المحبة وإيمان الاختيار .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَجَعَلَ
الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١٠٠) ﴿

هكذا يُبَيِّنُ لنا الحق سبحانه أن أحداً لا يؤمن إلا بإذن من الله تعالى ؛
لأن معنى أن تؤمن أن يكون إيمانك فطرة نتيجة تفكير في سماء ذات
أبراج^(١) ، وأرض ذات فجاج^(٢) ، وبحار تزخر^(٣) ، ورياح تصفر^(٤) ، كل
ذلك يدل على وجود الخالق سبحانه .

لكن أترك الله سبحانه وتعالى الناس للفطرة ؟

(١) الرجس : الحبال والضلال . [ابن كثير ٢/ ٤٣٣] . قال الزجاج : الرجس في اللغة اسم لكل ما استغفر
من عمل ، خالف الله تعالى في ذم هذه الأشياء وسماها رجساً . وللرجس معان أخرى ، فهو العذاب
كالرجز ، وهو الدائم وهو الشك في مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (٣٣) ﴿ [الأحزاب] .

(٢) الأبراج : جمع برج . وهي منازل الأنفلآك في السماء أو هي الكواكب . وقيل : هي النجوم . [انظر لسان
العرب : مادة برج] .

(٣) فجاج : جمع فج . وهو الطريق الواسع بين جبلين . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَوَقَدْ خَلَقْنَا لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا
(١٠٠) لَتَسْلُكُوا فِيهَا سَبِيلًا فَعَاجَا ﴾ (٢٠) ﴿ [نوح] . وقال : ﴿ وَوَجَعْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تُمَدَّ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا
فَاجَا سَبِيلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (٢٦) ﴿ [الأنبياء] . وقال تعالى في صيغة المفرد : ﴿ وَوَعَلَى كُلِّ صَامِرٍ بِاتَيْنَ مِنْ
كُلِّ فُجٍّ صَبْعٌ ﴾ (٢٧) ﴿ [الحج] .

(٤) بحار تزخر : أي : كثر ماؤها وارتفعت أمواجها . وزخر التقوم : جاشوا لغير أو حرم . [لسان العرب :
مادة زخر] وهذه الجملة من خطبة خطبها نُسِّيَ بن مسعدة الإيبادي في الجامعة ، كان أولها : « أيها
الناس اسمعوا وعوا » من عاش مات ، ومن مات فمات ، وكل ما هو آت آت » انظر : البيان والبيان
للجاحظ (١/ ٣٠٨)

لا ، بل أرسل سبحانه لهم الرسل ليذكروهم بالآيات الموجودة في الكون ، وليتبه الغافل ؛ لأنه سبحانه لا يريد أن يأخذ الناس على حين غفلة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿... لَمْ يَكُنْ رُبُّكَ مَهْلِكُ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١)﴾ [الأنعام]

لذلك يشبههم الحق سبحانه بأن هناك أشياء كان يجب أن تُذكر ، وكان الحق سبحانه يُبين لنا : إياكم أن تفهموا أن أحداً يخرج عن ملكي إلا بإرادتي ، فأنا بخلقى له مختاراً سمحت له أن يكفر أو يؤمن ، وسمحت له أن يطيع أو أن يعصى .

كل ذلك من أجل أن يثبت لى صفة المحبوبة .

لذلك فلا أحد يؤمن إلا بإذن الله سبحانه وتعالى ، ولا أحد يكفر إلا بإذنه سبحانه ؛ لأن مَنْ خلقه مختاراً علِمَ برضاء منه بما يكون من المخلوق ، فالكافر لم يكفر قهراً ، والمؤمن لم يؤمن قهراً من الله سبحانه

وساعةً يأتي الرسول ليعرض قضية الإيمان ، يتذكر الإنسان إيمان الفطرة ويقول : لقد جاء هذا الرسول بهذا المنهج ليمدّل لى حياتى ، فلا بد أن أرهق^(١) له السمع .

وساعة يُقبل العبد على الله تعالى ، فسبحانه يأذن له أن يدخل إلى حظيرة الإيمان .

إن العبد متى إذا ما ذهب للقاء عبد مثله له سيادة وجاه ، ويدرك العبد صاحب السيادة والجاه - بفضل من الله - السبب الذى جاء من أجله العبد الآخر ؛ فيقول صاحب السيادة لمعاونيه : لا تُدخلوه . وهو يقول ذلك ؛

(١) إرهاف السمع : الإنصات الشديد . والرهافة فى اللغة : الرقة واللفظ . [البسان : مادة رهف] .

لأن الله سبحانه أطلعه على ما في قلب العبد الآخر من غلٍّ ومن حقدٍ ومن نفاقٍ .

أما إذا دقَّ بابه عبد آخر ، فتجده يأمر معاونه أن يُدخلوه وأن يفسحوا له ؛ لأنه علم بما في قلبه من محبة ورغبة في صدق اللقاء والمودة .

إذا كان هذا يحدث بين العبياد ، وهم كلهم أغيار ، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى ؟

والله سبحانه هو القائل في حديث قدسي : «من ذكرني في نفسه ذكرته في ملائخيره» .

ما بالنا بالعبد إذا دخل على الإيمان بالله غير مشحون بعقيدة عدا الله .

إذن : أقبل على الله سبحانه وعلى ذكر الله ، وأنت إن ذكرت الله في نفسك ، فאלله يذكرك في نفسه ، وإن ذكرته في ملائخرك في ملائخيره منه ، فالملأ الذي ستذكره فيه ملائخطاء ، والله سبحانه سيذكرك في ملائخطاهر .

ويقول الحق سبحانه في ذات الحديث القدسي ^(١) : «إن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً» .

والذراع أطول من الشبر .

ويقول : «وإن أتاني يمشي أتيت به هرونة» .

فالشي قد يتعب العبد ، لذلك يسرع إليه الحق عز وجل ، وهو سبحانه بكل ربهيته ما إن يعلم أن عبداً قد صفا قلبه من خصومة الله تعالى في

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) ، وثامه : «أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حيث يذكرني ، والله ، لله أن يرح بتوبة عبده من أحدكم يجد حسنته بالفلاة» من تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإذا أقبل إلى يمشي أقبلت إليه أهول .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

﴿٦٢٢٧﴾

شئ ، حتى يفتح أمامه أبواب محبته سبحانه ، فيجِبُّ فيه خلقه ، ويجعل له مدخل صدق في كل أمر ومخرج صدق من كل ضيق ، وهو الحق القائل :
﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (١٧) [محمد]

ونلاحظ أن الحق سبحانه يؤكد في الآية التي نحن بصدد خواطرنّا عنها أنه لو شاء لآمن مَنْ في الأرض جميعاً ؛ ليبين لنا أنه حتى إبليس الذي دخل في جدال مع الله ، لو شاء الحق سبحانه لآمن إبليس .
وجاء الحق سبحانه بهذا التأكيد ؛ ليُحْكِمَ الأمرَ حول كل خلقه ومخلوقاته ، فلا يشكّ متهم أحد .

ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿. أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩) [يونس]

أراد الحق سبحانه أن يُنبِّهَ رسوله ﷺ وكل المؤمنين أنه :

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ . .﴾ (٢٥٦) [البقرة]

لأن مطلوبات الدين ليست هي المطلوبات الظاهرة فقط التي تقع عليها العين ، فهناك مطلوبات أخرى مستترة ، قَهَبُ أنك أكرهت قالباً أتستطيع أن تُكره قلباً ؟

والحق سبحانه وتعالى يريد قلزياً لا قوالباً^(١) .

وهكذا لا يصلح الإكراه في قضية الدين ، ولكن على الإنسان ألا يسحب الإكراه إلى غير موضعه أو مجاله ؛ لأنك قد تجد مسلماً

(١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٦٤) وأحمد في مسنده (٢٨٥ / ٢) وابن ماجه في مسنده (٥٣٩) ، واللفظ لمسلم . والقلوب لها الوجودان والاختيار والحب والكراهة ، والقوالب مادة تسير حسب الإدراك الذي انفعّل بوجوده ، ووجوده وضع أمامه البدائل ليختار ، ويسمى (التزوع) .

لا يصلى فينهره صديقه ، فيرد : لا إكراه فى الدين . وهذا استخدام غير صحيح واستدلال خاطيء ؛ لأن الإكراه فى الدين إنما يكون ممنوعاً فى القضية العقدية الأولى .

ولكن من أعلن أنه مسلم ، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فهذا إعلان بالالتزام بكل أحكام الإسلام ، وهو محسوب على الإسلام ، فإن أخل بحكم من أحكام الإسلام فلا بد من محاسبته .

ولا إكراه فى الدين ، فيما يخص القضية العقدية الأولى ، وأنت حر فى أن تدخل إلى الإسلام أو لا تدخل ، فإن دخلت الإسلام فأنت ملتزم بأحكام الإسلام ؛ لأنك أمنت به وصرت محسوبة عليه ، واحفظ حدود الإسلام ولا تكسرهما ؛ لأنك على سبيل المثال - لا قدر الله - إن سرت ؛ تُقطع يدك ، وإن زنت تُرجم أو تُجلد^(١) ، وإن شربت الخمر تُجلد ؛ لأنك قبلت قواعد الإسلام وشريعته .

وإن رأى واحدٌ مسلماً يسرق ، فلا يقولون إن الإسلام يُسرق ، ولكن إن رآه يُعاقب ، فهو يعرف أن الإسلام يعاقب من يجرم .

إذن : ﴿ لا إكراه فى الدين ٢٥٦ ﴾ [البقرة]

تخص المنع عن الإكراه على أصل الدين ، ولكن بعد أن تؤمن فأنت ملتزم بفرعيات الدين ، وتعاقب إن خرجت على الحدود .

والرسول ﷺ يقول : «مثل القائم على حدود الله ، والواقع فيها كمثل قوم استهموا^(٢) على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ،

(١) للزنا فى شريعة الإسلام عقوبتان : الرجم ، أو الجلد . أما الرجم فيعاقب به الزانى المحصن الذى قد أحصن بالزواج . أما الجلد مائة فهو لغير المتزوج أو لم يسبق له الزواج ، فيجلد مائة جلدة تطبيقاً لقول الله عز وجل : ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما أُلفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ [النور] .

(٢) استهموا : اقتسموا .

فكان الذين في أسفلها إذا استسقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نُؤذ من فوقنا ، فإن يتركبوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ، ونجوا جميعاً^(١) .

إذن : فالالتزام بفروع الدين أمر واجب عن دخل الدين دون إكراه ، وإن جُددت حكماً من الأحكام يُعاقب .

وهناك ما هو أشد من ذلك ، وهو حكم من ارتد عن الإسلام ، وهو القتل^(٢) .

وقد يقول قائل : إن هذا الأمر يمثل الوحشية . فنقول له : إن من التزم بالدين ، إنما قد علم بداية أنه إن آمن ثم ارتد ، فسوف يُقتل ؛ ولذلك فليس له أن يدخل إلى الإسلام إلا بيقين الإيمان .

وهذا الشرط للدين ؛ لا على الدين . فلا تدخل على الدين إلا وأنت متيقن أن أوامر الدين فوق شهواتك ، واعلم أنك إن دخلت على الدين ثم تخلَّيت عنه فسوف تُقتل ، وفي هذا تصعيب لأمر دخول الدين ، فلا يدخله أحد إلا وهو واثق من يقينه الإيماني ، وهذا أمر محسوب للدين لا ضد الدين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس]

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٩٣) وأحمد في مسنده (٢٦٨/٤) والترمذي في مسنده (٢١٧٣) وقال : حسن صحيح .

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « من بدل دينه فاقتلوه » . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٩٢٢) وأحمد في مسنده (٢١٧/١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣٢٢) وابن ماجه في مسنده (٢٥٣٥) .
- وقد قال رسول الله ﷺ في حديث آخر عن ابن مسعود : « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والمبارق لذية التارك للجماعة » . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦) .

والرجس : هو العذاب ، وهو الذنب ، ويجعله الحق سبحانه وتعالى على الذين لا يعقلون ؛ لأن قضية الدين إذا طُرِحَتْ على العقل بدون هَوًى ؛ لا بُدَّ أن ينتهي العقل إلى الإيمان .

ولذلك تجد القمم الفكرية حين يدرسون الدين ؛ فهم يتجهون إلى الإسلام ؛ لأنه هو الدين الذي يشفى الغلَّة^(١) ، أما الذين أخذوا الدين كميراث عن الآباء ، فهم يظنون على حالهم .

وبعض القمم الفكرية في العالم التي اتجهت إلى اعتناق الإسلام ، لم تتجه إليه بسبب رؤيتهم لسلوك المسلمين ؛ لأن سلوك المنسوبين للإسلام في زماننا قد ابتعد عن الدين .

ولذلك فقد اتجهت تلك القمم الفكرية للإسلام إلى دراسة مبادئ الإسلام ، وفرّقوا بين مبادئ الدين ، وبين الملتمين للدين ، وهذا إنصاف في البحث العقلي ؛ لأن الدين حين يُجرَّم عملاً ، فليس في ذلك التجريم إذن من الدين بحدوث مثل هذا الفعل المجرم ، بدليل تقدير العقاب حسب خطورة الجريمة .

فالحق سبحانه قد قال :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ۖ ﴾ (٢٨)

[المائدة]

إنه الإذن باحتمال ارتكاب السرقة ، وكذلك الأمر بالنسبة للزنا^(٢) ،

(١) الغلّة في اللغة : شدة العطش ، فاستعير لما يتلهف الإنسان لمعرفة ودرسه كأنظماً يطلب الماء .
(٢) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَةَ إِنَّهَا كَانَتْ فَاحِشَةً وَسَاءَ مَبِيلًا ﴾ (٢٤) [الإمراء] . ويقول سبحانه : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٠) الزَّانِي لَا يَنْكحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢١) والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون (٢٤) إِلَّا الَّذِينَ قَالُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَعْلَنُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٥) [النور] .

وغير ذلك من الجرائم التي جعل لها الحق سبحانه عقوبات تتناسب مع الضرر الواقع على النفس أو المجتمع من وقوعها ، فإذا رأيت مسلماً يسرق ، فتذكّر العقاب الذي أوقعه الإسلام على السارق ، وإن رأيت مسلماً يزني ، فتذكّر العقوبة التي حددها الحق سبحانه للزاني .

وهكذا الحال في جميع الجرائم .

وكبار المفكرين العالمين الذين يتجهون إلى الإسلام إنما يدرسون مبادئ الدين مفصولة عن سلوك المسلمين المعاصرين ، الذين ابتعدوا عن مبادئ الدين الحنيف .

وما هو ذا «جينو» المفكر الفرنسي يقول : « الحمد لله الذي هداني للإسلام قبل أن أعرف المسلمين ، فلو كنت قد عرفت المسلمين قبل الإسلام لكان هناك احتمال لزلزلة في النفس تجعلني أتردد في الدخول إلى هذا الدين الرفيع المقام » .

إذن : فإعمال العقل الراقى لا بد أن يؤدي إلى الإسلام لأنه فطرة الله ، والإسلام يُنمّيها ، ويرتقى بها ، والعقل هو منأط التكليف .

والرجس والذنب والعذاب كله إنما يقع على الذين لا يُعملون عقولهم ، وإعمال العقل المتعقل للقيم ينفي الرجس ، لأنهم سيُقبلون على التدين بإذن الله تعالى لهم أن يدخلوا على الإيمان به .

وإذا سألتني سائل : ما هو العقل ؟ وما هو منأط التكليف ؟

نجد أن كلمة «عقل» مأخوذة من عقّال البعير ، وهو ما يُشدُّ على رُكبته حتى لا ينهض ، ويظل ساكناً ، وحين يريد صاحبه أن ينهضه فهو يفكّ العقّال .

وأهل الخليج يضعون على رؤوسهم غطاء للرأس (غُثْرَة) ويثبتونه بنسيج مغزول على هيئة حلقتين ، ويسمون هاتين الحلقتين «العقال» ؛ لأنه يمنع غطاء الرأس من أن يحركه الهواء ، أو يُطَيِّرَه .

إذن : فالعقل أرادَه الله سبحانه لنا ليحجزنا عن الانطلاق والفوضى في تحقيق شهوات النفس ؛ لأنه سبحانه قد خلق النفس البشرية ، ويعلم أنها تحب الشهوات العاجلة ، فأراد سبحانه للإنسان أن يكبح جماح تلك الشهوات بالعقل .

فحين يفكر الإنسان في تحقيق الشهوة العاجلة ، يجد عقله وهو بهمس له : إنك ستستمتع بالشهوة العاجلة دقائق ، وأنت قد تأخذها من غيرك ؛ من محارمه أو من ماله ، فهل تسمح لغيرك أن يأخذ شهوته العاجلة منك ؟ إذن : عليك أن تعلم أن العقل إنما أرادَه الله سبحانه لك ليعقلك عن الحركة التي فيها هوى ، وتحقيق بها شهوة ليست لك ، ومغبتها "متعبة" .

ويخطيء مَنْ يظن أن العقل يفتح الباب أمام الانطلاق اللا مسئول باسم الحرية ، ونقول لمن يظن مثل هذا الظن : إن العقل هو مَنَاطُ التكليف ، وهو الذي يوضح لك آفاق المسؤولية في كل سلوك .

ومن عدالة الحق سبحانه أنه لم يكلف المجنون ؛ لأن حكم المجنون على الأشياء والأفعال هو حكم غير طيعي ؛ لأنه يفقد آلة الاختيار بين البدائل .

وكذلك لم يكلف الله سبحانه مَنْ لم ينضج بالبلوغ ؛ لأنه غير مُسْتَوْفٍ للملكات ، ولم تستوِ لديه القدرة على إيجاب مثيل له .

وقد ضربنا من قبل المثل بالثمرة ، وقلنا : إنه لا يقال إن الثمرة نضجت وصار طعمها مقبولا مستساغاً إلا إذا أصبحت البذرة التي فيها قادرة على

(١) قُبِيَ الأمرُ مَغْبُتُهُ : عاقبته وأخبره . [لسان العرب : مادة (غ ب ب)] .

أن تثبت منها شجرة إن زرعناها في الأرض .

وأنت مثلاً حين تقطع البطيخة ، ونجد لبها أبيض اللون فأنت لا تأكلها ، وتحرص على أن تأكل البطيخة ذات البذر الذي صار أسود اللون ؛ لأنه دليل نضج البطيخة ، وأنت حين تأخذ هذا اللب وترعه ينتج لك بطيخاً .

إذن : فاكتمال الإنسان بالبلوغ يتيح لعقله أن يزن السلوك قبل الإقدام عليه ، والتكليف إنما يكون للمعقل البالغ غير المكره بقوة تقهره على أن يفعل ما لا يعقله .

أما قبل البلوغ فالتكليف ليس من الله ، بل من الأسرة ، لتدريبه على الطاعة .

ورسول الله ﷺ يقول لنا : «مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين ، وفرقوا بينهم في المضاجع»^(١) .

وهنا نجد أن الذي يأمر هو الأب وليس الله ، والذي يعاقب هو الأب ، وليس الله ، وما إن يصل الابن إلى مرحلة البلوغ يبدأ تكليفه من الله .

أما إذا جاء مَنْ يُكرِّمه على أن يرتكب معصية بقوة تفوق قوته كأن يمسك (مسدساً) ويقول له : إن لم تشرب الخمر أطلقت عليك النار ، فهنا يرفع عنه التكليف .

ورسول الله ﷺ يقول في الحديث الشريف : «إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ ، والنسيان ، وما استُكْرِهوا عليه»^(٢) .

(١) المضاجع : أماكن النوم سواء أكانت فرشاً أو غيرها .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٧/٢) ، وأبو داود في مسنده (٤٩٥) عن عبد الله بن عمرو بن العاص .
(٣) أخرجه ابن ماجه في مسنده (٢٠٤٥) والدارقطني في مسنده (١٧٠/٤) والحاكم في المستدرک (١٩٨/٢) وصححه على شرط الشيخين ، عن ابن عباس ، ولكن إسناده ابن ماجه منقطع ،

فالعقل - إذن - هو مناط التكليف ، وعمله أن يختار بين البدائل في كل شئ ، ففى الطعام مثلاً نجد مَنْ يَهْوَى وضع (الشطة) فوق الطعام ؛ لأنها تفتح شهيته للطعام ، ويعد أن يأكل نجده صارخاً من الحموضة ، ويطلب المهضمات ، وقد لا تفلح معه ، بل وقد تُفسد له الغشاء المخاطي الموجود على جدار المعدة لحمايتها ؛ قُرْبَ أَكْثَلِ مَنْعَتِ أَكْلَاتِ ؛ ولذلك نجد عقله يقول له : احذر من هذا اللون من المشهيات ؛ لأنه ضارٌّ بك .

وهكذا نجد العقل هو الذى يوضح للإنسان نتائج كل فعل ، وهو الذى يدفع إلى التأنى والإجادة فى العمل ؛ ليكون ناتج العمل مفيداً لك ولغيرك باستمرار ، ولم يأتِ العقل للإنسان ليستمريء به الخطأ والخطايا .

وهكذا نجد أن العقل يدرك ويختار السلوك الملائم لكل موقف ، بل إن العقل يدعو الإنسان إلى الإيمان حتى فى مرحلة ما قبل التكليف ، فحين يتأمل الإنسان بعقله هذا انكون لا بُدَّ أن يقوده التأمل إلى الاعتراف بجميل صانع الخالق سبحانه وتعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي
الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٣)

وهنا يُحدثنا الحق سبحانه عن عالم الملك الذى تراه ، ولا يتكلم عن عالم الملكوت الذى يغيب عنك ، وكأنك إن اقتنعت بعالم الملك ، وقلت :

(١) قل انظروا ماذا فى السموات والأرض : أمر للكفار بالنظر والاعتبار فى المصنوعات الدالة على الصانع وانقاد على الكمال ، والآيات هنا بمعنى : الأدلة والبراهين على ألوهية الله ووحدانيته ، والآية تفيد عموم النظر فى ملكوت الله لكل مَنْ أراد أن يتذكر أو يتدبر . والنذر : المرسل ، جمع نذير ، وهو الرسول ﷺ . عن قوم يؤمنون : أى : عمن سبق له فى علم الله سبحانه أنه لا يؤمن . [تفسير القرطبي : ٤ / ٣٣١٤] - بتصرف .

إن لهذا العالم خالقاً إلهاً قادراً قوياً ، وتؤمن به ؛ هنا تهبُّ عليك نفحات الغيب ؛ لتصل إلى عالم الملكوت ؛ لأنك اكتشفت في داخلك أمانتك مع نفسك ، وأعلنت إيمانك بالخالق سبحانه ، ورأيت جميل صنّعه في السماء والكواكب ، وأعجبت بدقّة نظام سِرِّ تلك الكواكب .

وترى التوقيت الدقيق لظهور الشمس والقمر ومواعيد الخسوف الكلى أو الجزئى ، وتُبهر بدقّة المنظّم الخالق سبحانه وتعالى ، ولن تجد زحام مرور بين الكواكب يعطل القمر أو يعطل الأرض ، ولن يتوقف كوكب ما لغاد وقوده ، بل كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (٤٠)

[يس]

ونحن في حياتنا حين نرى دقة الصنعة بكثير فيما هو أقل من السماء والشمس والقمر ، فنحن نُكرِّمُ الصانع ، وقد أكرمت البشرية مصمّم التلغراف ، ومصمّم جهاز التليفزيون ، فما بالنا بخالق الكون كله سبحانه .

ويكفى أن نعلم أن الشمس تبعد عنا مسافة ثمانى دقائق ضوئية ، والثانية الضوئية تساوى ثلاثمائة ألف كيلو متر ، وهى شمس واحدة تراها ، غير آلاف الشمس الأخرى فى المجرات الأولى ، وكل مجرة فيها ملايين من المجموعات الشمسية ، ويكفى أن تعلم أن الحق سبحانه قد أقسم

- (١) لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر : قال الثورى : أى لا يدرك هذا ضوء هذا ، ولا هذا ضوء هذا وقال عكرمة : يعنى أن لكل منهما سلطاناً ، فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل . ولا الليل سابق النهار : قال محاهد : يطلبان حثيثين يُسلخ أحدهما من الآخر ، والمعنى فى هذا أنه لا فترة بين الليل والنهار ، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ ؛ لأنهما مسخران دأبان والفلك : جمع أنفلك ، وهى المدارات فى السماء التى تدور فيها النجوم والكواكب ؛ فكانها تسبح فى الفضاء . (تفسير ابن كثير ٥٧٣ / ٣) بتصرف . « وهذا دليل على تقدير العزيز العليم » .

بالشمس^(١) ، وقال عن كوكب الشعري :

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَىٰ﴾^(٢) ﴿٤٩﴾

[النجم]

لأن كوكب الشعري أكبر من الشمس .

وحين تتأمل السموات والأرض تجد في الأرض جبلاً شامخة ، وتمر عليها فتدهش من دقة التكوين ودقة التماسك ، وتجد في داخلها نفائس ومعادن بدرجات متفاوتة ، وقد تجد أسطح الجبال مكوّنة من مواد خصبة بشكل هش ، فإذا ما نزل عليها المطر ، فهو يصحبها معه إلى الأرض ؛ لأنها تكون مجرد ذرات كذرات برادة الحديد ، وتدخل الأرض التي شققتها حرارة الشمس .

والمثل الواضح على ذلك هو ما كان يحمله النيل من غرين^(٣) في أثناء الفيضان إلى الدلتا قبل بناء السد العالي ، وكانت مياه النيل في أيام الفيضان تشبه مادة «الطحينة» من فرط امتزاجها بذرات الغرين ، وفي مثل هذا الغرين يوجد الخصب الذي تأخذ منه الأقوات^(٤) .

ولو أن الجبال كلها كانت هشة التكوين ، لأزالها المطر مرة واحدة ، وجعلها مجرد مسافة نصف متر مضاف لسطح الأرض ، ولاختفى الخصب من الأرض بعد سنوات ، لكن شاء الحق سبحانه أن يجعل الجبال

(١) قال الحق سبحانه في سورة الشمس : ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا (١)﴾ [الشمس] . وقد ذكر الله عز وجل الشمس في كتابه العزيز (٣٢) مرة ، بل إنه سبحانه جعل سورة كاملة باسم هذا النجم .

(٢) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم عن (الشعري) إنه هو النجم الوفاة الذي يقال له مرزم الجوزاء ، وكانت طائفة من العرب يعبدونه في الجاهلية . [تفسير ابن كثير : ٢٥٩/٤] .

(٣) الغرين : ما بقى في أسفل الحوض والتقدير من الماء أو الطين ، وقيل : هو الطين الذي يحمله لسيول فيبقى على وجه الأرض رطباً أو يابساً ، وكذلك (الغريل) . قال الأصمعي : الغرين أن يجيء السيل فيشت على الأرض ، فإذا جف وأبست الطين رقيقاً على وجه الأرض قد تشقق . [لسان العرب : مادة (غ ر ن)] .

(٤) أتوات : جمع قوت ، وهو الرزق ، ويطلق لفظ قوت على كل ما يقتات به من رزق الله سبحانه وتعالى .

متماسكة ، وجعل سطحها فقط هو الهش لينزل المطر في كل عام مرة ؛
ليحمل الخصب إلى الأرض .

ومن يتأمل هندسة التكوين في الاقنيات يجد الجبال مخازن للقوت .

فالبشر يحتاجون إلى الحديد ليصنعوا منه ما يفيدهم ، سواء أكان آلات
لحرق الأرض ، أو أى آلات أخرى تساعد في تجميل الحياة ، وتجد الحديد
مخزونا في الجبال .

وكذلك نجد المواد الأخرى مثل الفوسفات أو المنجنيز ، أو الرخام ،
أو الفيروز أو الغازات .

إذن : فالمطمور^(١) في الجبال إما للاقتيات ، أو وسيلة إلى الاقتيات ،
أو وسيلة للثرف فوق الأقنيات .

وحين ينزل المطر فوق الجبال فهو يأخذ الخصب من الطبقة الهشة^(٢) على
سطح الجبال وتبقى المواد الأخرى كثروات للناس ، ففي إفريقيا مثلاً توجد
مناجم للفحم والماس ، وفي بلاد أخرى تجد عود الطيب ، وهو عبارة عن
جذور أشجار .

وأنت لو شققت الأرض كقطاع من محيط الأرض إلى المركز تجد الأرض
الخصبة مع الصحراء ، مع المياه ، مع الجبال ، متساوية في الخير مع القطاع
المقابل للقطاع الأول .

(١) طمر الشيء . خبأه . ومطمور : اسم مفعول من طمر ، وطرر : إذا قُيِّب واستخفى ، والمراد : خيرات
الله الخفية داخل الأرض تنتظر إذن الله تعالى لها بالظهور .

(٢) والشيء الهش الغير متماسك ، وهشم الشيء البابس هشماً كسره قال تعالى : ﴿ .. كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ

(٣١) ﴿ [القمر] أى : كالخطب والخشب المحطم في يد المحتظر . أى : صانع الخطيرة [القاموس القويم

ص ٣٠٣ باختصار] ،

وقد تختلف نوعيات العطاء من موقع إلى آخر على الأرض ، فأنت لو حسبت مثلاً ما أعطاه المطر للنيل من خصب الجبال من يوم أن خلق الله - عز وجل - النيل في أرض وادي النيل في إفريقيا ، وحسبت ما أعطاه النفط (البترول) في صحراء الإمارات مثلاً ، ستجد أن عطاء النيل يتساوى مع عطاء البترول ، رغم أن اكتشاف البترول قد تمّ حديثاً .

وكل قُوت محسوب من مخازن القوت ، وكل قوت له زمن ، فهناك زمن للفحم ، وزمن للبترول ، كل ذلك بنظام هندسي أنشأه الحكيم الأعلى سبحانه . وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال : ﴿يَعْقِلُونَ﴾ في مجال النظر في السموات وفي الأرض ، فهذه دعوة لتأمل عجائب السموات والأرض .

ومن تلك العجائب أن الجبال الشاهقة لها قمة ، ولها قاعدة ، مثلها مثل الهرم ، وتجد الوديان على العكس من الجبال ؛ لأن الوادي يكون بين جبلين ، وتجد رأس الوادي في أسفل ، ورأس الجبل في قمته .

وحين ينزل المطر فهو يمرُّ برأس الجبل الضيق ؛ ليصل إلى أسفل قاع الوادي الضيق ، وكلما نزل المطر فهو يأخذ من سطح الجبل ؛ ليملاً مساحة الوادي المتسعة ، وكلما ازداد الخلق ، زاد الله سبحانه رقعة الاقليات .

ومثال ذلك تجده في الغريّن القادم من منابع النيل ؛ ليأتي إلى وادي النيل والدلتا ، وكانت هذه الدلتا من قبل مجرد مستنقعات مالحة ، وشاء لها الحق سبحانه أن تتحول إلى أرض خصبة .

وحين تتأمل ذلك ترى أن كل شيء في الكون قد أوجده الحق سبحانه بحساب .

والذي يفسد الكون هو أننا لا نقوم بتكثير ما تكاثر ، بل ننتظر إلى أن تزدحم الأرض بمن عليها ، ثم نفكر في استصلاح أراضٍ جديدة ، وكان يجب أن نفعل ذلك من قبل .

وكلما نزل المطر على الجبال فهي تتخلخل وتظهر ما فيها من معادن ،
يكشفها الإنسان ويُعَبِّلُ عقله في استخدامها .

والمؤمن حين يرى ذلك يزداد إيماناً ، وكلما طبق المؤمن حكماً تكليفاً
مأموراً به ، يجد نور الإيمان وهو يشرق في قلبه .

وليُجَرَّبْ أى مسلم هذه التجربة ^(١) ، فليجرب أن يعيش أسبوعاً في ضوء
منهج الله سبحانه وتعالى ، ثم يزن نفسه ويُقيِّمها ليعرف الفارق بين أول
الأسبوع وآخر الأسبوع ، سيكتشف في هذا الأسبوع أنه يصلى في
مواقيت الصلاة ، وسيجد أنه يعرق في عمله ليكسب حلالاً ، وسيجد أنه
يصرف ماله في حلال .

زن نفسك يقينياً في آخر الأسبوع ستجد أن نفسك قد شفت شفافية
رائعة ؛ لتجد ضوء ونور الإيمان وهو يصنع انسجاماً بينك وبين الكون كله
في أبسط التفاصيل وأعقدها أيضاً .

ومثال ذلك : إنك قد تجد الرجل من هؤلاء الذين أسبغ عليهم تطبيقُ
منهج الله الشفافية تسأله زوجته : ماذا نطبخ اليوم ؟ فيقول لها : فلننقُضَ
اليوم بما بقي من طعام أمس ، ثم يُفَاجِئُ بقريب له يزوره من الريف ، وقد
جاءه ومعه الخير ،

لقد وصل الرجل إلى درجة من الشفافية تجعله منسجماً مع الكون كله ،
فيصله رزق الله تعالى له من أى مكان .

وتجد الشفافية أيضاً في أعقد الأمور ، ألم يقل يعقوب عليه السلام :

﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رَيْحَ يُوسُفَ ۚ ۞ (٩٤) ﴾ [يوسف]

(١) هذه تجربة الترييض الإيماني : فالمسلم الذي تغلى عن المعاصي وتغلى بالطاعات تحلى الله عليه
بالقبوضات والنفحات .

وكان إخوة يوسف - عليه السلام - ما زالوا على أبواب مصر خارجين منها للقاء أبيهم ، حاملين قميص يوسف ، الذي أوصاهم يوسف بإلقائه على وجه أبيه ليرتد إليه بصره ^(١) .

لقد جاءت ريح يوسف عليه السلام لأبيه يعقوب ؛ لأن يعقوب عليه السلام قد عاش في انسجام مع الكون ، ولا توجد مضارة بينه وبين الكون .

والمثل الحى لذلك هو فرح الكون بمجيء رسول الله ﷺ ، يوم مولده ، لقد فرح الكون بمقدم الرسول ﷺ ؛ لأن الكون عابد مُسَبِّح لله سبحانه ، فحين يأتى مَنْ يدعو العباد إلى التوحيد لا بُدَّ أن يفرح الكون ، أما مَنْ يَعْصِي الله تعالى ، فالكون كله يكرهه ويلعنه ، ويثلاعن الاثنان .

وقد فرح الكون بمجيء الرسول الذى أراد الله سبحانه أن تنزل عليه الرسالة الإلهية ليعتدل ميزان الإنسان مع الكون .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ ۚ ۝ (١٠) ﴾ [يونس]

والكون كله أمامهم ، فلماذا لا ينظرون ؟ إنهم يبصرون ولا يستبصرون ، مثل الذى يسمع ولا يسمع ؛ ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

(١) وذلك أن يوسف عليه السلام بعد ما تعرّف عليه إخوته قتل لهم : ﴿ قَالَ لَا تَقْرِبْ عَلَيْكُمُ التُّحَمَ الْيَوْمَ يَخْفَىٰ اللَّهُ تَكْمُ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٠) اذْهَبُوا بَقَمِيصِي هَذِهِ فَأَلْقُوهَا عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (١١) وَلَمَّا فَصَلَ الْفَجْرُ كَانَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ فَأَقُولُ إِنِّي كُذِّبْتُ (١٢) ﴾ [يوسف] أى : لولا أن تنهمونى بفساد الرأى والحرف .

سُورَةُ يُنُسُ

٦٢٤١

﴿ .. وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ ^(١) عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١) ﴾ [يونس]

إِذْ : فَعَدِمَ إِيمَانَهُمْ أَفْقَدَهُمُ الْبَصِيرَةَ وَالتَّأَمَّلَ .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آيَاتِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ
قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ^(٢) ﴾



وهؤلاء الذين لا يؤمنون يظنون في طغيانهم يعمهون ^(٣) ، وكأنهم
يتظنون أن تكرر معهم أحداث الذين سبقوا ولم يؤمنوا ، لقد جاءهم
الرسول ببيان ككل المكذبين السابقين .

ونحن نعلم أن اليوم ^(٤) هو وحدة من وحدات الزمن ، وبعده الأسبوع ،
وبعد الأسبوع نجد الشهر ، ثم نجد السنة ، وكلما ارتقى الإنسان قسّم اليوم
إلى ساعات ، وقسّم الساعات إلى دقائق ، وقسّم الدقائق إلى ثوانٍ .

وكلما تقدمت الأحداث في الزمن نجد المقاييس تزداد دقة ، واليوم - كما
قلنا - جعله الله سبحانه وتعالى وحدة من وحدات الزمن ، وهو مُكوّن من
ليل ونهار .

(١) النذر : جَمْعُ نَذِيرٍ ، وَمِنْهُ الرُّسُولُ بِحُجَّتِهِ وَآيَاتِهِ وَبِرَاهِمِهِ .

(٢) خلوا : مضوا وسبقوا أي : فما يتظنون يكفرهم إلا مثل ما وقع للأمم التي سبقتهم من العذاب
والعقاب . [تفسير الجلالين ص ١٨٨] .

(٣) يعمهون : يتحيرون ويترددون في الضلال . قال ابن الأثير : العَمَةُ في البصيرة كالعمى في البصر .
[لسان العرب : مادة (ع م هـ)] .

(٤) اليوم : في علم الفلك هو مقدار دوران الأرض حول محورها مرة ، ومدته أربع وعشرون ساعة
وجمعه أيام . وأيام الغريب : زَمَنُهُمْ . وأيام الله : أيام جلّت فيها نعمه وعذابه . القاموس القويم ص ٨٠٤

ولكن قد يُذكر اليوم ويُراد به ما حدث فيه من أحداث مُلَفَتة ، مثلما نقول : «يوم ذى قَرْد»^(١) و«يوم حنين»^(٢) و«يوم أحد».

إذن : فقد يكون المقصود باليوم الحدث البارز الذي حدث فيه ، وحين ننظر في التاريخ ، نجد كتاباً اسمه «تاريخ أيام العرب» ، فنجد «يوم بُعَاث»^(٣) و«يوم أوطاس»^(٤) وكل يوم يمثل حرباً.

إذن : فاليوم ظرف زمني ، ولكن قد يُقصد به الحدث الذي كان في مثل هذا اليوم.

ومثال ذلك أنك قد تجد من أهل الزمن المعاصر مَنْ عاش في أزمنة سابقة فيتذكر الأيام الخوالي ويقول : كانت الأسعار قديماً منخفضة ، وكان كل شيء مُتَوَفِّراً ، فيسمع مَنْ يرد عليه قائلاً : لقد كانت أياماً ، أى : أنها أيام حدث الرخاء فيها.

إذن : فقد يُنسب اليوم إلى الحدث الذي وقع فيه .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا .. ﴾ (١٠٢)

[يونس]

(١) ذو قَرْد : مكان به ماء من أرض نجد ، على مسافة يوم من المدينة ، مما يلي بلاد غطفان . ذهب أكثر كتب السيرة إلى أنها كانت قبل الحديبية ، أما البخاري في صحيحه فقد ذهب إلى أنها قبل خيبر بثلاث سنين ، وذكرها بعد الحديبية . انظر : سيرة ابن هشام (٢٨١ / ٣) ودلائل النبوة (٦٧٨ / ٤ - ١٩٣) .
(٢) كان في السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكة ، وقد قال سبحانه فيه : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شِئْئاً وَضَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ (١٠٢) [التوبة] .

(٣) يوم بُعَاث : هو يوم اقتتل في الأوس والخزرج ، وكان المظهر فيه يومئذ للأوس على الخزرج ، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سمالك الأشجعي أبو أسيد بن حضير ، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي ، قُتِلَا جميعاً . (سيرة ابن هشام ٥٥٥ / ٢) .

(٤) يوم أوطاس هو نفسه يوم حنين ، وكان في سنة ثمان للهجرة بعد فتح مكة . وأوطاس : وادئ ديار هوازن ، كانت فيه وقعة حنين .

والذين خلوا منهم قوم نوح عليه السلام وقد أغرقهم الله سبحانه ، وقوم
فرعون الذين أغرقهم الله تعالى أيضاً .

والله سبحانه هو الغافل :

﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ۝ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ
الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٤٠)

[العنكبوت]

وهذه أيام حدثت فيها أحداث يعلمونها ، فهل هم ينتظرون أياماً مثل
هذه ؟

بالطبع ما كان يصحُّ لهم أن يستمرنوا الكفر ، حتى لا تتكرر معهم مأس
كالتى حدثت لمن سبقهم إلى الكفر .

ونحن نجد فى العامية المثل الفطرى الذى ينطق بإيمان الفطرة ، فتسمع
من يقول : « لك يوم يا ظالم » أى : أن اليوم الذى ينتقم فيه الله تعالى من
الظالم يصبح يوماً مشهوراً ؛ لأن الظالم إنما يفترى على خلق الله ؛ لذلك
يأتى له الحق سبحانه بحدث ضخم يصيبه فيه الله تعالى ويذيقه مجموع
ما ظلم الناس به .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. قُلْ فَاَنْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ (١٠٢)

[يونس]

(١) الحصب : كل ما يلقى فى النار ، لتُسمر به . قال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ
.. ﴾ (٩٩) [الأنبياء] ، وحصبه : قذفه بالحصى ، قال تعالى : ﴿ أَمْ أَمْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَرْسِلَ عَلَيْكُمْ
حَاصِبًا .. ﴾ (٩٥) [الملك] أى : إعصاراً شديداً يذوقكم بالحصى ، يهلككم ، والرياح العاصفة تفعل أكثر
من ذلك .

سُورَةُ يُوسُفَ

٦٢٤٤

وقوله هنا : ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ فيه تهديد ، وقوله : ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (١٠٢) فيه بشارة ؛ لأن الرسول ﷺ سيتظر هذا اليوم ليرى عذابهم ، أما هو ﷺ فسوف يتحقق له النصر في هذا اليوم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا
نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣)

والحق سبحانه قد أنجى - من قبل - رُسله ومن آمنوا بهم ، لتبقى معالم للحق والخير .

ومن ضمن معالم الخير والحق لا بد أن تظل معالم الشر ، لأنه لولا مجيء الشر بالأحداث التي تعض الناس لما استشرف الناس إلى الخير .

ونحن نقول دائماً : إن الألم الذي يصيب المريض هو جندى من جنود العافية ؛ لأنه ينبه الإنسان إلى أن هناك خللاً يجب أن يبحث له عن تشخيص عند الطبيب ، وأن يجد علاجاً له .

والألم يوجد في ساعات اليقظة والرعى ، ولكنه يختفى في أثناء النوم ، وفي النوم رَدْع ذاتي للألم .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣) [يونس]

هذا القول يقرر البقاء لعناصر الخير في الدنيا .

(١) أى : أن الله سبحانه قد أنجى رُسله السابقين والذين آمنوا معهم من العذاب ، ومنجى النبي ﷺ وأصحابه والمؤمنين به حين تعذيب الكفار والمشركين . [تفسير الجلالين ص ١٨٨ - بتصرف] .

وكلما زاد الناس في الإلحاد زاد الله تعالى في المدد ، ففى أى بلد يُفترى فيها على الإيمان ويُظلم المؤمنون ، ويكثر الطغاة ؛ تجدد فيها بعض الناس منقطعين إلى الله تعالى ، لتفهم حقيقة القيم ، وحين تضيق الدنيا بالظلمة والطغاة تجدهم يذهبون إلى هؤلاء المنقطعين لله ، ويسألونهم أن يدعوا لهم .
وقد ألزم الحق - سبحانه وتعالى - هنا نفسه بأن يُنجي المؤمنين فى قوله سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠٣) .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠٤)

والشكُّ^(١) معناه : وضع أمرين فى كفتين متساويتين .

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ بأن يعرض على الكافرين قضية الدين ، وأن يضعوها فى كفة ، ويضعوا فى الكفة المقابلة ما يؤمنون به .
ويترك لهم الحكم فى هذا الأمر .

هم - إذن - فى شك : هل هذا الدين صحيح أم فاسد ؟

وعرض الرسول ﷺ لأمر الدين للحكم عليه ، يعنى : أن أمر الدين ملحوظ أيضاً عند أى كافر ، وهو ينتبه أحياناً إلى قيمة الدين .

(١) الشك : نقيض اليقين ، وجمعه : شكوك . قال تعالى : ﴿ قَالَتْ رَبِّمَنَ هَؤُلَاءِ لَئِنْ لَّمْ يَنفِخِ فِي سَحَابٍ مِّمَّنْ لَّيَكْفُرْ أَفَكُنَّ لِلَّهِ شُكَّاءٌ فَاظْمِرُ السُّحُوفَ وَالْأَرْضَ ﴾ (٥٥) . [إبراهيم] . [الإنسان العرب : مادة (ش ك ك)] .

فإن كنتم في شك من الدين الذي أنزل على رسول الله ﷺ ، وهل يتصر الرسول ﷺ ومن معه عليهم ، أم تكون لهم الغلبة ؟

وحين يعرض الرسول ﷺ أمر الدين عليهم ، ويترك لهم الحكم ، فهذه ثقة منه ﷺ بأن قضايا دينه إن نظر إليها الإنسان ليحكم فيها ، فلا بد أن يلتجئ الإنسان إلى الإيمان .

ويحسم الحق سبحانه وتعالى أمر قضية الشرك به ، ويستمر أمره إلى الرسول ﷺ أن يقول :

﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ ۖ ۝ (١٠٤) ﴾ [يونس]
 أى : أنه ﷺ لا يمكن أن يعبد الشركاء وأن يعبد الله ؛ لأنه لن يعبد إلا الله ﴿ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ ۖ ۝ (١٠٤) ﴾ .

ثم جاء سبحانه بالدليل الذي لا مرأى فيه ، الدليل القوى ، وهو أن الحق سبحانه وتعالى وحده هو المستحق للعبادة ؛ لأنه ﴿ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم ۖ ۝ (١٠٥) ﴾ ، ولا يوجد من يقدر أو يتأبى على قدر الله سبحانه حين يميت .
 وهنا قضيتان :

الأولى : قضية العبادة في قوله سبحانه : ﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم ۖ ۝ (١٠٤) ﴾ [يونس]

(١) المرء ، والمارة ، والتماري ، والامراء : الجند والشك . قال تعالى : ﴿ فَلَا تَمَارَ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۖ ۝ (١٠٣) ﴾ [الكهف] . وقال تعالى : ﴿ أَفَتُحَارِبُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۖ ۝ (١٠٢) ﴾ [النجم] . وكذلك المرية (بكسر الميم ، وبضمة) ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ تَحَرَّوْا فِي مَرْتَبَتِهِ ۖ ۝ (١٠١) ﴾ [الحج] [السان العرب : مادة (م ر ي)] بتصرف .

(٢) يوفاكم : يهبكم ويقبض أرواحكم . وهو من توفية العدد ، أى : يقبض أرواحكم أجمعين ، فلا ينقص واحد منكم . ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَمْثَلِ بَيْنَ مَوْتَيْهَا ۖ ۝ (١٠١) ﴾ [الزمر] أى : يستوفى مدد أجالهم في الدنيا . [اللسان : مادة وفى] .

سُورَةُ الْكَافِرُونَ

﴿٦٢٤٧﴾

وكان لا بُدَّ أن يأتي أمر المسألتين معاً : مسألة عدم عبادة الرسول لمن هم من دون الله ، ومسألة تخصيص الله تعالى وحده بالعبادة .

والفصل واضح بما يُحدد قطع العلاقات بين معسكر الإيمان ومعسكر الشرك ، كما أورده الحق سبحانه في قوله :

﴿ قُلْ يٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون]

والذين يقولون : إن في سورة (الكافرون) ^(١) تكراراً لا يلتفتون إلى أن هذا الأمر تأكيد لقطع العلاقات ، ليستمر هذا القطع في كل الزمن ، فهو ليس قطعاً مؤقتاً للعلاقات ^(٢) .

وهذا أول قطع للعلاقات في الإسلام ، بصورة حاسمة ليست فيها أية فرصة للتفاهم أو للمساومة ، ويظل كل معسكر على حاله .

(١) نزلت سورة الكافرون في رطم من قريش قالوا : يا محمد ، هلم اتع دينا وتبع دينك ، تعبد آلها سنة ونعبد آلها سنة ، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركاك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك قد شركت في أمرنا وأخذت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره . فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ يٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) ﴾ إلى آخر السورة ، فقرأ رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملا من قريش ، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة ، فأيسوا منه عند ذلك . [أسباب النزول - للواحدي ص ٢٦١] .

(٢) أقوال مُفسّري وعلماء سلفنا الصالح تتلاقى كلها فيما قاله فضيلة الشيخ هـ . فقال البعض منهم البحارى وغيره أن المزمع به ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) ﴾ [الكافرون] في الماضي و﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) ﴾ [الكافرون] في المستقبل . وقال البعض الآخر : إن هذا تأكيد محض . وهناك قول آخر نصّره الإمام ابن تيمية ، وهو أن المراد بقوله : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) ﴾ [الكافرون] نفي الفعل لأنها جملة فعلية ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) ﴾ [الكافرون] نفي قبوله لذلك بالكلية ، لأن النفي بالجملة الاسمية أكد ، فكانه نفي الفعل وكونه قابلاً لذلك ، ومعناه نفي الوقوع ، ونفي الإمكان الشرعي أيضاً . انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٥٦١) .

يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة النصر :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ [النصر]

هنا يتأكد الأمر ، فبعد أن قطع الرسول ﷺ العلاقات مع معسكر الشرك ، جاء نصر الله سبحانه وتعالى وفتحه ، فهُرِعَ الناس من معسكر الشرك إلى معسكر الإيمان ^(١).

هم - إذن - الذين جاءوا إلى الإيمان . . هذه هي القضية الأولى :

﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ .. (١٠٤) ﴾ [يونس]

وهم كانوا يعبدون الأصنام المصنوعة من الحجارة .

وأنت إذا نظرت إلى الأجناس في الوجود ، فأكرمها هو الإنسان الذي سخر له الحق سبحانه بقية الأجناس لتكون في خدمته .

والجنس الأقل من الإنسان هو الحيوان .

ثم يأتي الجنس الأقل مرتبة من الإنسان والحيوان ، وهو النبات .

ثم يأتي الجasad كأدنى الأجناس مرتبة ، وهم قد اتخذوا من أدنى الأجناس آلهة ، وهذه هي قمة الخيبة .

وتأتي القضية الثانية في قول الحق سبحانه وتعالى :

(١) كان بين سورتي «الكافرون» ، و«النصر» ما يزيد على ١٥ سنة ، فسورة الكافرون نزلت في بداية الدعوة ومحاوله قريش إنشاء رسول الله ﷺ عن الاستمرار في دعوته ، ثم حدثت الفاصلة ، ثم الهجرة ، ثم النزول ، إلى أن تم نصر الله بفتح مكة ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، فكانت سورة النصر . وهذا يؤكد ما قاله فضيلة الشيخ من اعتماد القطع مع معسكر الشرك ، ليشمل الزمن كله بالنسبة لقضية التوحيد ماضياً وحاضراً ومستقبلاً .

﴿..وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٤) ﴿فَإِذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قد رفض العبادة لمن هُم دون الله سبحانه ، فمعنى ذلك أنه لن يعبد سوى الله تعالى .

وليس هذا موقفاً سلبياً ، بل هو قمة الإيجاب ؛ لأن العبادة تقتضى استقبال منهج الله بأن يطيع أوامره ، ويجتنب نواهيه ، ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٥)

وما دام الخطاب موجهاً لرسول الله ﷺ ، فهو ككل خطاب من الحق سبحانه لرسوله ﷺ ، إنما ينطوى على الأمر لكل مؤمن .

وإذا ما عبد المؤمن الله سبحانه فهو يستقبل أحكامه ؛ ولذلك يأتى الأمر هنا بالآلة يلتفت وجه الإنسان المؤمن إلى غير الله تعالى ، فيقول الحق سبحانه :

﴿اقُمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا..﴾ (١٠٥) [يونس]

فلا يلتفت فى العبادة يميناً أو يساراً ، فما دام المؤمن يعبد الله ولا يعبد غيره ، فليعلم المؤمن أن هناك - أيضاً - شركاً خفياً^(١) ، كأن يعبد الإنسان من هُم أقوى أو أغنى منه ، وغير ذلك من الأشخاص التى يُفتن بها الإنسان .

(١) حقيقاً : مائلاً عن كل طرق ومناهج الضلال ، إلى طريق الحق وحده .
(٢) الشرك الخفى : هو الرياء وطلب السمعة والصيت . فعن شداد بن أوس قال قال ﷺ : «إن أخوف ما أمتخوف على أمتى الإشراف بالله . أما إني لست أقول : يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً . ولكن أعمالاً لغير الله ، وشهوة حقبة » أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢٠٥) .

ونحن عرفنا من قبل قول الحق سبحانه :

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا ۖ مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ ۞
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ﴾ (١٢٥) [النساء]

والحنف (٣) أصله ميل في الساق ، وتجد البعض من الناس حين يسيرون تظهر سيقانهم متباعدة ، وأقدامهم مُلتَفَّة ، هذا اعوجاج في التكوين .
أما المقصود هنا بكلمة (حنيفاً) أى : معوج عن الطريق المعوج ، أى : أنه يسير باستقامة .

ولكن : لماذا يأتي مثل هذا التعبير ؟

لأن الدين لا يجيء برسول جديد ومعجزة جديدة ، إلا إذا كان الفساد قد عمَّ ، فيأتى الدين ؛ ليدعو الناس إلى الميل عن هذا الفساد . وفي هذا اعتدال لسلوك الأفراد والمجتمع .

ويحذرننا رسول الله ﷺ من أن نقع فى الشرك الحفى بعد الإيمان بالله تعالى .

(١) الدين : الطاعة والانقياد والشرعية والجزاء ، والمعقيدة والمنهج والصراط المستقيم [القاموس القريم - باختصار ص ٢٣٩] .

(٢) الملة (بكسر الميم ، وتضعيف اللام) : الشريعة ، والدين . قال تعالى : ﴿... إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ۝﴾ [يوسف] . وقال تعالى : ﴿... مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ۚ﴾ [الحج] . [السان العرب : مادة : م ل ن] . - بتصرف .

(٣) الحنف فى القدمين : إقبال كل واحدة منهما على الأخرى بإيهامها . ورجل أحنف ، وامرأة حنفاء ، وبه سُمي «الأحنف بن قيس» ، واسمه «صخر» ؛ لحنف كان فى رجله . قال الجوهري : الحنف : الاعوجاج فى الرجل . وقال أبو عمرو : الحنيف هو المائل من خير إلى شر ، أو من شر إلى خير . وحنف عن الشيء وتحنف : مأل . والحنيف : المسلم الذى يتحنف عن الأديان ، أى : يميل إلى الحق ، وقيل : هو الذى يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، قال تعالى : ﴿... مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ۚ﴾ [آل عمران] . وقيل : الحنيف هو الذى يميل عن الضلال ، ويبعد عنه ليتجه إلى الحق ، وقد صارت هذه الكلمة علماً على المسلمين . [السان العرب : مادة (ح ن ف) - بتصرف] .

ويأتى الكلام عن هذا الشرك الثانى فى قول الحق سبحانه :

﴿...وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥)﴾ [يونس]

وهذا الشرك الثانى هو أقل مرحلة من شرك العبادة ، ولكن أن تجعل لإنسان أو لأي شيء مع الله عملاً .

فإن رأيت - مثلاً - للطبيب أو للدواء عملاً ، فَقُلْ لنفسك : إن الطبيب هو مَنْ يصف الدواء كعلاج ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى يشفى ، بدليل أن الطبيب قد يخطئ مرة ، ويأمر بدواء تحدث منه مضاعفات ضارة للمريض .

• وعلى المؤمن ألا يُفْتَنَ فى أى سبب من الأسباب .

وتذكر مثلاً آخر لذلك ، وهو أن بلداً من البلاد ذات الرقعة الزراعية المتسعة أعلنت فى أحد الأعوام أنها زرعت مساحة كبيرة من الأراضى بالقمح بما يكفى كل سكان الكرة الأرضية ، ونبتت السنابل وأينعت ، ثم جاءتها ريح عاصف أفسدت محصول القمح ، فاضطرت تلك الدولة أن تستورد قمحها من دول أخرى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ

فإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦)﴾

والمشرك من هؤلاء لحظة أن عبد الصنم ودعاه من دون الله تعالى ، فهل استجاب له ؟ وحين عبده هل قال الصنم له : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ؟

إن الأصنام التى اتخذها المشركون آلهة لم يكن لها منهج ، ولا أحد منها

ينفع أو يضر ، وحين يجيء النفع لا يعرف الصنم كيف يمنعه ، وحين يجيء الضر لا يقدر الصنم أن يدفعه .

إذن : فمن يدعو من دون الله - سبحانه وتعالى - هو دعاء لمن لا ينفع ولا يضر .

ومن يفعل ذلك يكون من الظالمين ؛ لأن الظلم هو إعطاء حق لغير ذي حق ، سواء أكان في القمة ، أو في غير القمة^(١) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ^{١٠٦} وَإِنْ يَرِدْكَ بَخِيرٌ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ^{١٠٧} ﴾

هذا كلام الربوبية المستغنية عن الخلق ، فالله سبحانه وتعالى خلق الناس ، ودعاهم إلى الإيمان به ، وأن يحبوه ؛ لأنه يحبهم ، ويعطيهم ، ولا يأخذ منهم ؛ لأنه في غنى عن كل خلقه .

ويأتي الكلام عن الضر هنا بالمس ، ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ .. ﴾ (١٠٧) ﴿ [يونس]

ونحن نعلم أن هناك «مساء» و«مساء» و«إصابة» .

وقوله سبحانه هنا عن الضر يشير إلى مجرد المس ، أي : الضر البسيط ، ولا ثقل ؛ إن الضر ما دام صغيراً فالخلق يقدرُون عليه ، فلا أحد

(١) أي : سواء كان ظمناً في القمة - أي : بالإشراك بالله - أو ظمناً في غير القمة بظلم العباد بأخذ حقوقهم والتعدي عليهم .

يقدر على الضر أو النفع ، قُلْ الضر أم كَبُرَ ، وكَثُرَ النفع أو قُلْ ، إلا بإذن من الله تعالى .

والحق سبحانه وتعالى يذكر الضر هنا بالمس ، أى : أهون الالتصاقات ، ولا يكشفه إلا الله سبحانه وتعالى .

ومن عظمته - جَلَّ وعلا - أنه ذكر مع المس بالضر ، الكشف عنه ، وهذه هي الرحمة .

ثم يأتي سبحانه بالمقابل ، وهو «الخير» ، وحين يتحدث عنه الحق سبحانه ، يؤكد أنه لا يردده .

ونحن نجد كلمة ﴿يُصِيبُ﴾ فى وَصَفِ مجيء الخير للإنسان ، فالحق سبحانه يصيب به من يشاء من عباده .

ويُنهى الحق سبحانه وتعالى الآية بهذه النهاية الجميلة فى قوله تعالى :

﴿ .. وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) ﴾ [يونس]

وهكذا توضح لنا صورة جلال الخير المتجلى على العباد ، ففى الشر جاء به مساً ، ويكشفه ، وفى الخير يصيب به العباد ، ولا يمنعه .

والله تعالى هو الغفور الرحيم ؛ لأنه سبحانه لو عامل الناس - حتى المؤمنين منهم - بما يفعلون لعاقبهم ، ولكنه سبحانه غفور ورحيم ؛ لأن رحمته سبقت غضبه ^(١) ؛ ولذلك نجد سبحانه فى آيات النعمة يقول :

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ^(٢) .. (١٨) ﴾ [النحل]

(١) عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه ، فهو عنده فوق الغرش : إن رحمتى غلبت غضبى» أخرجه البخارى فى صحيحه (٣١٩٤) ومسلم (٢٧٥١) .

(٢) الإحصاء : العدد والحصر .

وجاء الحق سبحانه بالشك ، فقال ﴿إِنْ﴾ ولم يقل : «إذا تعدون نعمة الله» لأن هذا أمر لن يحدث ، كما أن الإقبال على العَدِّ هو مظنة أنه يمكن أن يحصى ؛ فقد تُعدُّ النقود ، وقد يَعدُّ الناظر طلاب المدرسة ، لكن أحداً لا يستطيع أن يَعدَّ أو يُحصى حَبَّات الرمال مثلاً.

وقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا.. (١٨)﴾ [النحل]

وهذا شك في أن تعدوا نعمة الله .

ومن العجيب أن العَدَّ يقتضى التجمع ، والجمع لأشياء كثيرة ، ولكنه سبحانه جاء هنا بكلمة مفردة هي ﴿نِعْمَةٌ﴾ ولم يقل : «نعم» فكان كل نعمة واحدة مطمور فيها نِعْمٌ شئى .

إذن : فلن نستطيع أن نعدَّ النِّعمَ المطمورة فى نعمة واحدة .

وجاء الحق سبحانه بذكر عَدِّ النعم فى آيتين :

الآية الأولى تقول :

﴿..وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣١)﴾

[إبراهيم]

والآية الثانية تقول :

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل]

(١) ظَلُومٌ : صيغة مبالغة من (الظلم) ، أى : كثير الظلم لنفسه أو لغيره ، أو لهما معاً .
وكفَّارٌ : صيغة مبالغة من (الكفر) ، أى : شديد الكفر ، والكفر فى اللغة : استر ، من ستر الشئ .
إذا أعفاه . فكان الإنسان بعدم شكر الله على النعمة يكون قد كفرها . أى : سترها وأغفلها ولم يؤدِّ حقها من الذكر والشكر .

وصَدَّرَ الْآيَتَيْنِ وَاحِدًا ، وَلَكِنْ عَجَزَ كُلُّ مِنْهُمَا مُخْتَلَفٌ ، فَفِي الْآيَةِ الْأُولَى : ﴿ .. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٢٤) [إبراهيم]

وفِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ : ﴿ .. إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٨) [النحل]

لأنَّ النِّعْمَةَ لَهَا مُنْعَمٌ ؛ وَمُنْعَمٌ عَلَيْهِ ، وَالْمُنْعَمُ عَلَيْهِ - بِذَنْوِيهِ - لَا يَسْتَحِقُّ النِّعْمَةَ ؛ لِأَنَّهُ ظَلُومٌ وَكَفَّارٌ . وَلَكِنَّ الْمُنْعَمَ سَبِّحَانَهُ وَتَعَالَى غَفُورٌ وَرَحِيمٌ ، فَفِي آيَةٍ جَاءَ مَلْحَظُ الْمُنْعَمِ ، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى جَاءَ مَلْحَظُ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ .

وَمِنْ نَاحِيَةِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ نَجِدُهُ ظَلُومًا كَفَّارًا ؛ لِأَنَّهُ يَأْخُذُ النِّعْمَةَ ، وَلَا يَشْكُرُ اللَّهَ عَلَيْهَا .

أَلَمْ تَقُلْ السَّمَاءُ : يَا رَبِّ ! ائْذَنْ لِي أَنْ أَسْقُطَ كِسْفًا عَلَى ابْنِ آدَمَ ؛ فَقَدْ طَعِمَ خَيْرِكَ ، وَمَنَعَ شُكْرَكَ .

وَقَالَتِ الْأَرْضُ : ائْذَنْ لِي أَنْ أَنْخَسِفَ بِابْنِ آدَمَ ؛ فَقَدْ طَعِمَ خَيْرِكَ ، وَمَنَعَ شُكْرَكَ .

وَقَالَتِ الْجِبَالُ : ائْذَنْ لِي أَنْ أَسْقُطَ عَلَى ابْنِ آدَمَ .

وَقَالَ الْبَحْرُ : ائْذَنْ لِي أَنْ أَغْرُقَ ابْنَ آدَمَ الَّذِي طَعِمَ خَيْرِكَ ، وَمَنَعَ شُكْرَكَ .

هَذَا هُوَ الْكُؤُونُ الْغَيُورُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى يَرِيدُ أَنْ يِعَاقِبَ الْإِنْسَانَ ، لَكِنَّ اللَّهَ سَبِّحَانَهُ رَبُّ الْجَمِيعِ يَقُولُ : « دَعَوْنِي وَعِبَادِي ، لَوْ خَلَقْتُمُوهُمْ لَرَحَمْتُمُوهُمْ ، إِنْ تَابُوا إِلَىَّ فَأَنَا حَبِيبُهُمْ ، وَإِنْ لَمْ يَتُوبُوا فَأَنَا طَيِّبُهُمْ » .

وَيَقُولُ الْحَقُّ سَبِّحَانَهُ بَعْدَ ذَلِكَ :

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ
فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا
يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (١٠٨)

إذن: فالحق سبحانه لم يُقصر مع الخلق ، فقد خلق لكم العقول ، وكان يكفي أن تفكروا بها لتؤمنوا من غير مجيء رسول ، وكان على هذه العقول أن تفكر في القوى الذي خلق الكون كله ، بل هي التي تسعى لتطلب أن يرسل لها القوى رسولا بما يطلبه سبحانه من عباده ، فإذا ما جاء رسول ليخبرهم أنه رسول من الله ويحمل البلاغ منه ، كان يجب أن تستشرف آذانهم لما يقول .

إذن: كان على العباد أن يهتدوا بعقولهم ، ولذلك نجد أن الفلاسفة حين بحثوا عن المعرفة ، قالوا : إن هناك «فلسفة مادية» تحاول أن تتعرف على مادية الكون ، وهناك «فلسفة ميتافيزيقية»^(١) تبحث عما وراء المادة .

فَمَنْ أَعْلَمَ الْفَلَسَفَةَ - إذن - أن هناك شيئا وراء المادة .

وكان العقل المجرد ساعة يرى نُظُم الكون الدقيقة كان يجب أن يقول :
إن وراء الكون الواضح المحسُّ قوة خفية .

ولم يذهب الفلاسفة إلى البحث فيما وراء المادة ، إلا لأنهم أخذوا من

(١) الوكيل : الكفيل الموكل بأرزاق الناس وأمورهم ، والحفيظ الذي يحفظ أعمال الناس . قال سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (١٠٧) [الأنعام] ، وقد نفى الله سبحانه هذا عن نبيه ورسوله محمد ﷺ .

(٢) الفلاسفة : لفظ يوناني ومعناه البحث عن الحقيقة ، والميتافيزيقا : ما وراء الطبيعة والكون . أي : الغيبيات التي لا تخضع لقوانين المادة .

المادة أن وراءها شيئاً مستوراً.

والمستور الذى وراء المادة هو الذى يعلن عن نفسه ، فهو أمر لا نعرفه بالعقل .

وقديماً ضربنا مثلاً فى ذلك ، وقلنا: هَبْ أَتْنَا جَالِسُونَ فى حجرة ، ودَقَّ جرس الباب ، فعلم كل مَنْ فى الحجرة أن طارقاً بالباب ، ولم يختلف أحد منهم على تلك الحقيقة .

وهذا ما قاله الفلاسفة حين أقرُّوا بوجود قوة وراء المادة ، ولكنهم تجاوزوا مهمتهم ، وأرادوا أن يُعرِّفونا ماهية أو حقيقة هذه القوة ، ولم يلتفتوا إلى الحقيقة البديهية التى تؤكد أن هذه القوة لا يمكن أن تُعرَف بالعقل ؛ لأننا ما دُمنا قد عرفت أن بالباب طارقاً يدق ؛ فنحن لا نقول من هو ، ولا نترك المسألة للظن ، بل نتركه هو الذى يحدد لنا مَنْ هو ، وماذا يطلب؟ لأن عليه هو أن يخبر عن نفسه .

اطلبوا منه أن يعلن عن اسمه وصفاته ، وهذه مسائل لا يمكن أن نعرفها بالعقل .

إذن: فخطأ الفلاسفة أنهم لم يقفوا عند تعقُّل أن هناك قوة من وراء المادة ، وأرادوا أن يتفكروا من التعقُّل إلى التصور ، والتصورات لا تأتى بالعقل ، بل بالإخبار .

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ قُلْ يَسْأَلُهَا النَّاسُ فَذْجَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ ۝ (١٠٨) ﴾ [يونس]

والحق - كما نعلم - هو الشيء الثابت الذى لا يتغير أبداً ، وأن يأتى

الحق من الرب الذى يتولى التربية بعد أن خلق من عدم وأمد من عدم^(١) ،
ولا يكلفنا بتكاليف الإيمان إلا بعد البلوغ ، وخلق الكون كله ، وجعلنا
خلفاء فيه .

هو - إذن - مأمون علينا ، فإذا جاء الحق منه سبحانه وتعالى ، فلماذا
لا نجعل المنهج من ضمن التربية ؟

لماذا أخذنا تربية المأكل والملبس وسيادة الأجناس ؟

كان يجب - إذن - أن نأخذ من الربى - سبحانه وتعالى - المنهج الذى
ندير به حركة الحياة ؛ فلا نفسدها .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ جَاءَكُمْ الْحَقُّ^(٢) مِنْ رَبِّكُمْ .. ﴾ (١٠٨)

فمعنى ذلك أنه لا عذر لأحد أن يقول : «لم يبلغنى أحد» بمراد الله ،
فقد ترك الحق سبحانه العقول لتعقل ، لا أن تتصور .

وجاء التصور للبلاغ عن الله تعالى ، حين أرسل الحق سبحانه ورسولا
يقول : أنا رسول من الله ، وهو القوة التى خلقت الكون ، وكان علينا أن
نقول للرسول بعد أن تصدق بمعجزته : أهلاً ، فأنت من كنا نبحث عنه ،
فقل لنا : ماذا تريد القوة العليا أن تبلغنا به ؟

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

(١) العدم والمعدم والعدم : فقدان الشيء وذهابه . ومثله فى ضبط حروف الكلمة : الرشد والرشد - الحزن
والحزن . ومثله قوله تعالى : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي .. ﴾ (١٠٥) [البقرة] . وقوله
تعالى : ﴿ .. وبما آتانا من لدنك رحمة وهين لنا من أمرنا وحشاً ﴾ (١١) [الكهف] .

(٢) الحق : الأمر الثابت ضد الباطل ، والحق من أسماء الله الحسنى ، والحق القرآن ، والحق العدل
والصدق والحكمة والبعث وكمال الأمر ، والحق الواقع الثابت الذى لا خلاف فيه ، قال تعالى : ﴿ ألا
إن الله ما فى السموات والأرض إلا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ (٥٥) [يونس] ، والحق ما
وجب عليك لغيرك [القاموس القويم يتصرف ج ١٦٤ ، ١٦٥] .

[يوس]

﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ..﴾ (١٠٨)

لأن حصيلة هدايته لا تعود على مَنْ خلقه وهداه ، بل تعود عليه هو نفسه انسجماً مع الكون ، وإصلاحاً لذات النفس ، وراحة بال ، واطمئناناً ، وانتبهاً لتعمير الكون بما لا يفسد فيه ، وهذا الحال عكس ما يعيشه مَنْ ضل عن الهداية .

ويقول الحق سبحانه عن هذا الصنف من الناس :

[يوس]

﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا..﴾ (١٠٨)

وكلمة ﴿ضل﴾ تدل على أن الإنسان الذي يضل كانت به بداية هداية ، لكنه ضلَّ عنها .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١٠٨) [يوس]

وأنت لا توكل إنساناً إلا لأن وقتك لا يسع ، وكذلك قدرتك وعلمك وحركتك ، وهنا يُبلغ الرسول القوم : أنا لا أقدر أن أدفع عنكم الضلال ، أو أجبركم على الهداية ؛ لأنى لست وكيلاً عليكم ، بل على فقط مهمة البلاغ^(١) عن الله سبحانه وتعالى ، وهذا البلاغ إن استمعتم إليه بخلاء القلب من غيره ، تهتدوا .

وإذا اهتديتم ؛ فالخير لكم ؛ لأن الجزاء سيكون خلوداً في نعيم تأخذونه مقابل تطبيق المنهج الذى ضيق على شهوات النفس ، ولكنه يهدى حياة نعيم لا يفوته الإنسان ، ولا تفوت النعم فيه الإنسان .

(١) وقد ورد تأكيد هذا فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ..﴾ [الشورى] . وقال تعالى : ﴿..وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور] . فكل المطلوب من الرسول هو إبلاغ رسالته ، وأن يكون هذا البلاغ مبيناً جليلاً واضحاً .

وإذا كان الإنسان منا يقبل أن يتعب ؛ ليتعلم حرفة أو عملاً أو صنعة أو مهنة ؛ ليكسب الإنسان من إتقان هذا العمل بقية عمره .

أليس على هذا الإنسان أن يُقبل على العبادة التي تصلح باله ، وتسرع به إلى الغاية انسجاماً مع النفس ، ومع المجتمع ، وتقويماً وتهذيباً لشهوات النفس ، وينال من بعد ذلك خلود النعيم في الآخرة .

أما من يستكثر على نفسه الجِدَّ والاجتهاد في تحصيل العلم ، أو تعلم مهنة أو حرفة ، فهو يحيا في ضيق وعدم ارتقاء ، فهو لا يبذل جهداً في التعلم .

ونرى مَنْ يتعلم ويبذل الجهد ، وهو يرتقى في المستوى الاجتماعي والاقتصادي ؛ ليصل إلى درجة الدكتوراة - مثلاً - أو التخصص الدقيق الذي يأتي له بسعة الرزق .

وكلما كانت الثمرة التي يريدتها الإنسان أينع ^(١) وأطول عمراً كانت الخدمة من أجلها أطول .

وقارن بين خدمتك لدينك في الدنيا بما ينتظرك من نعيم الآخرة ؛ وسوف تجد المسافة بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة شاسعاً ، ولا مقارنة .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ﴾ (١٠٨)

[يونس]

(١) أينع : أكثر ضجياً . والينع : النضج . ومنه قوله تعالى : ﴿ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ ﴾ [الأنعام] .

(٢) ضلَّ الكافر : غاب عن الحجة المقنعة ، وعدل عن الطريق المستقيم ، ولم يعرف الحق . والضلال : النسيان والضياع . وضلَّ الشيء : خفى وغاب فهو فعل لازم ، وضلَّ المسافر الطريق مُتَعَدِّ : لم يعرفه . [القاموس القويم ص ٣٩٤ - ينصرف] .

تجد فيه كلمة ﴿عَلَيْهَا﴾ وهي تفيد الاستعلاء على النفس ، أى : أنك بالضلال - والعياذ بالله - تستعلى على نفسك ، وتركب رأسك إلى الهاوية .

وفي المقابل تجد قول الحق سبحانه :

﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ .. (١٠٨)﴾ [يونس]

وتجد «اللام» هنا تفيد الملك ، لذلك يقال : «فلان له» و«فلان عليه» .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه في ختام سورة يونس :

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُذَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ
الْمُخْذِينَ (١٠٩)﴾

وإذا كان الحق سبحانه قد أورد على لسان رسوله ﷺ : ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ .. (١٠٨)﴾ [يونس]

فهذا يعنى البلاغ بمنهج الله - تعالى - النظرى ، ولا بُدَّ أن يثق الناس فى المنهج ، بأن يكون الرسول هو أول المنفذين للمنهج ، لأنه - معاذ الله - لو غشَّ الناس جميعاً لما غشَّ نفسه .

إذن : فبعد البلاغ^(١) عن الحق سبحانه ، وتعريف الناس بأن الهداية

(١) البلاغ : اسم مصدر بمعنى الكفاية أو الإبلاغ أو التبليغ . قال تعالى : ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ .. (٥٦)﴾ [إبراهيم] وقال تعالى : ﴿إِنِّ فِي هَذَا بَلَاغٌ لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (٦٦)﴾ [الأنبياء] أى : فيما ذكر من الأخبار والمواظع .

ومبلغ الشئ : حده ونهايته التى يصل إليها ، أو مقداره الذى ينتهى به . قال تعالى : ﴿فَكَفَّكَ مِنْهُمْ مَنْ أَعْلَمَ .. (٦٦)﴾ [النجم] [القاموس القوم = يتصرف ١ / ٨٣ ، ٨٤] .

لا يعود نفعها على الحق ، بل هي للإنسان ، فيملك نفسه ؛ ويملك زمام حياته ، فيسير براحة اليال في الدنيا إلى نعيم الآخرة ، وأن الضلال لا يعود إلا باستعلاء الإنسان على نفسه ؛ ليركبها إلى موارد التهلكة .

والرسول ﷺ ليس وكيلاً عنكم ، يأتي لكم بالخير حين لا تعملون خيراً ، ولا يصرف عنكم الشر وأنتم تعملون ما يستوجب الشر .

ولذلك كان على رسول الله ﷺ أن يكون هو النموذج والأسوة :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ ^(١) حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ ^(٢) وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ^(٣) ﴾ [الأحزاب]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. ^(٤) ﴾ [يونس]

أى : عليك أن تكون الأسوة ، وحين تتبع ما يوحى إليك ؛ ستجد عقبات ممن يعيشون على الفساد ، ولا يرضيهم أن يوجد الإصلاح ، قوطن العزم على أن تتبع ما يوحى إليك ، وأن تصبر .

(١) الأسوة : القدوة ، والمثل الأعلى الذي يقتدى به . ورسول الله ﷺ هو أسوتنا وقدوتنا . وقد قال سبحانه عن إبراهيم عليه السلام أيضاً : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لَقَوْمُهُمْ إِنَّا وَرَاءَهُمْ كَاذِبُونَ مِنَ دُونِ اللَّهِ .. ^(٥) ﴾ [الممتحنة] ثم قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ .. ^(٦) ﴾ [الممتحنة] .

(٢) ورد الرجاء في القرآن على معان عدة :

- منها : الطلـب والامـل في تحقـق شـئ ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ .. ^(٧) ﴾ [البقرة] . وقوله تعالى : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا .. ^(٨) ﴾ [النور] .

- منها : الحرف ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا فِيهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ^(٩) أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ^(١٠) ﴾ [يونس] .

سُورَةُ يُوسُفَ

٦٢٦٣

ومجىء الأمر بالصبر دليل على أن هناك عقبات كثيرة ، وعليك أن
تصبر وتعطى النموذج لغيرك ^(١) ، والثقة في أنه لو لم يكن هناك خير في
اتباع المنهج لما صبرت عليه ؛ حتى يأتي حكم الله ﷻ .. وأصبر حتى يحكم
الله وهو خير الحاكمين ﴿١٠٩﴾ [يوسف]

وليس هناك أعدل ولا أحكم من الله سبحانه وتعالى .

وهذه السورة التي تُختم بهذه الآية الكريمة ، تعرضت لقضية الإيمان
بالله ، قعة في عقيدة لإله واحد يجب أن تأخذ البلاغ منه سبحانه ؛ لأنه
الرب الذي خلق من عَدَم ، وأمدَّ من عَدَم ، ولم يكلِّفنا إلا بعد مرور
سنوات الطفولة وإلى البلوغ ؛ حتى يتأكد أن المكلف يستحق أن يُكَلَّف
بعد أن انتفع بخيرات الوجود كله ، وثبتت من صدق الرواية .

ومعنى الرواية هو التربية ، وأن يتولى الربُّ الربِّي إلى أن يبلغ حدَّ
الكمال المرجو منه .

وقد صدقت هذه القضية في الكون .

إذن : نستمع إلى الرب - سبحانه وتعالى - الذي خلق ، حين يُبين لنا
مهمتنا في الحياة بمنهج تستقيم به حركة الحياة ، ويستقيم أمر الإنسان مع
الغاية التي يعرفها قبل أن يخطو أي خطوة .

ومن المحال أن يخلق الله - سبحانه وتعالى - المخلوق ثم يُضيعه ، بل
لا بد أن يضع له قانون صيانة نفسه ^(٢) ؛ لأن كل صنعة إنما يضع قانونها

(١) يقول سبحانه : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا آلُكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [الأنعام] . فالصبر هو افتداء بالرسول
الأمم الذين صبروا على إلقاء أقوامهم صبرا نَجَزَ بِهِ قُلُوبُكَ الْبَشَرِ ، مثل : نوح وموسى وعيسى
وإبراهيم ومحمد ﷺ .

(٢) يقول تعالى : ﴿ أَنُحِيبُ الْإِنْسَانَ أَنْ بُعْثَ لَهُ نَفْسُهُ ﴾ [القيامة] . قال ابن كثير في تفسيره .
(٤/ ٤٥٢) : « الآية تعمُ الحالين . أي . ليس يترك في هذه الدنيا مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك في
قبره سدى لا يبعث ، بل هو مأمور بنهى في الدنيا ، محشور إلى الله في الدار الآخرة » .

ويحدد الغاية لها مَنْ صنعها ، فإذا ما خالفنا ذلك نكون قد أحلنا ^(١) وغيّرنا الأمور ، وأدخلنا العالم في متاهات ، وصار لكل امرئ غاية ، ولكل امرئ منهج ، ولكل عقل فكر ، ولصار الكون متضارباً ؛ لأن الأهواء ستتضارب ، فتضعف قوة الأفراد ؛ لأن الصراع بين الأنداد ^(٢) يُضعف قوة الفرد عن معالجة الأمر الذي يجب أن يعالجه .

فأراد الله - سبحانه وتعالى - توحيداً ^(٣) في العقيدة ، وتوحيداً في المنهج .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا مثلاً تطبيقياً في مواكب الرسالات ، فذكر لنا في هذه السورة قصة نوح - عليه السلام - وقصة موسى وهارون - عليهما السلام - وذكر بينهما القصص الأخرى .
ثم ذكر قضية يونس عليه السلام .

ثم ختم السورة بقوله سبحانه :

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. (١٠٩)﴾ [يونس]

بلاغاً عن الله تعالى .

وما دُمْتَ تَبْلَغُ ، وأمتك أمة محسوبة - إلى قيام الساعة - أنها وارثة

(١) أحلنا الأمور: حوّلناها وبدلناها لغير ما وضعت له . وفي اللسان: كل شيء تغير عن الاستواء إلى العوج فقد حال واستحال . ويقال: حال الرجل يحول مثل تموج من موضع إلى موضع . (مادة: حَوَّلَ) .

(٢) الأنداد: الأمثال والنظراء .

(٣) الرسالات في جوهرها تسمي بالترديد وعليه ربه ، يقول الحق سبحانه : ﴿لَكُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا وُصِيَ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّاهُ بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣)﴾ [الشورى] .

النِّبْوة ، ولم تُعْذْ هناك نبوة بعلمك يا محمد ﷺ تسليماً كثيراً .

وأراد الحق سبحانه لأمتك أن يحملوا الدعوة للمنهج الذي نزل إليك .

إذن : فرسول الله ﷺ سيكون شهيداً بأنه قد بَلَغَ ، ويجب أن تكون أمة شهيدة بأنها بلغت ، وأوصلت رسالة الله إلى الدنيا ^(١) ، وهذا شرف مهمة أمة محمد ﷺ .

ولم يكن لأمة غيرها مثل هذا الشرف ؛ فقد كان الأمر قبل رسول الله ﷺ أن دعوة أي رسول تفُثِر ، وتبهِت تكاليفه ^(٢) ، ويغفل عنها الناس ، فيرسل الله - سبحانه وتعالى - رسولاً ، ولكن الأمر اختلف بعد رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، فلم تُعْذْ هناك نبوة ، ولا رسالة ، ولكن صار هناك مَنْ يحملون منهج الله تعالى .

والرسول ﷺ هو الأسوة ؟ لأنه مُبَلِّغُ منهج الله ، وهو أسوة في تطبيق قانون صيانة الإنسان وحركته ، ونموذج تطبيقي حتى لا يكلف الناس فوق ما تطبيقه إنسانيتهم ؛ ولذلك كان يُصْر على أنه بشر ، وأوضح القرآن الكريم ذلك بلا أدنى غموض :

[فصلت]

﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ (٦)

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۚ ﴾ [البقرة] . وقال تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ قُلْ أَتُوبُكُمْ يَرْحَمُهُمْ إِنَّكُمْ لِعِندَهُمْ مُسْمِعُونَ ۚ ﴾ [التوبة] . وفي هذا ليكون الرسول شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وتكونوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَاقْبَلُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج] .

(٢) أي : يطول عليهم الزمن فتُتَسَّى رسالة الرسول ، ويطغى فيها التحريف والتبديل والتعسير ، وقد حدث أكثر هذا مع بني إسرائيل .

ليؤكد صدق الأسوة ؛ لأنه ﷺ لو لم يكن بشراً وطلب من الناس أن يفعلوا مثله لقالوا: لن نستطيع لأنك لست مثلاً.

ولذلك نلاحظ أن القرآن يؤكد على بشرية رسول الله ﷺ ، ولكنه ﷺ يزيد عن البشر بإصطفاء الله سبحانه له ؛ ليكون رسولاً يوحي إليه ، فمهمته الرسالية الأولى أن يُبلغ هذا الوحي ، والمهمة الثانية أن يؤكد بسلوكه أنه مقتنع بهذا الوحي ويُطبقه على نفسه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾ (٢١) [الأحزاب]

وكان رسول الله ﷺ من ناحية الثراء أقل الناس مالاً ، وهو غير متكبر ، ولا جبار ، وهو كنموذج سلوكي تتوازن فيه وبه كل الفضائل ؛ فلم يطلب لنفسه شيئاً ، بل إنه منع أقاربه وأهله من حقوق أقرها لغيرهم من المسلمين ، فأقاربه لم يُعطهم الحق في أن يرثوا شيئاً مما يملكه بعد وفاته وقد حرمهم ؛ ليكون كل عمل صادر منه ﷺ أو عن يتسبون بالقربة إليه هو عمل خالص لوجه الله تعالى .

وهذا السلوك هو عكس سلوك الرئاسات البشرية ، أو السلطات الزمنية ، فهذه الرئاسات أو تلك السلطات تفيض أول ما تفيض على نفسها بالخير ، ثم تفيضه على الدوائر القريبة منها حسب أقطار القرب ؛ فالقريب جداً يأخذ أولاً وكثيراً ، ومنْ يبعد في القرابة يأخذ الأقل حسب درجة بُعدهِ .

(١) الأسوة والإسوة: القدوة. ويقال: اتسب به ، أي: اقتدى به وتكرّم مثله. قال الثعلبي: فلان ياتسب بفلان ، أي: يرضى لنفسه ما رضى به ويقتدى به. وقال الهروي: تأسى به: اتبع فعله واقتدى به. [لسان العرب: مادة (أ س ا)].

لكن الذى فى دائرة القرابة مع رسول الله ﷺ لا يأخذ حتى ما يأخذه الفقير فى أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وكان الله سبحانه وتعالى يدلنا بذلك على أنه من العيب أن يكون الإنسان منسوباً لآل بيت النبوة ، ويكون موضعاً لأخذ الزكاة.

إذن: فالاتباع الذى أمر الله تعالى به ، هو اتباع الوحي بلاغاً ، واتباع ما يُوحى به تطبيقاً ، وسيطلب هذا مواجهة متاعب كثيرة ، وسيلقى عقبات من الجبايرة المتفعين بالفساد فى الأرض ، فلا بُدَّ أن يصادموا هذه الدعوات ؛ ليحافظوا على سلطتهم الزمنية ، فيأمر الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بأن يصبر ، وفى الأمر بالصبر إشارة إلى أن الرسول ﷺ مُقبل على عقبات قَلِيلَةٍ نَفْسُهُ لَتَحْمِلُ هذه العقبات بالصبر^(١).

وفى آية أخرى يأمره الحق سبحانه وتعالى أن يصبر ويصابر هو والمؤمنون . يقول سبحانه :

﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ .. (٢٠٠) ﴿ [آل عمران]

أى: إن صبرت ، فقد يصبر خصمك أيضاً ، وهنا عليك أن تصابره ، وكلمة «اصبر» توضح أن دعاة منهج الحق سبحانه لا بد أن يتعرضوا لمتاعب ، وإلا ما كانت هناك ضرورة لأن يجيء ، فلو كان العالم مستقيماً الحركة ، فمما ضرورة المنهج إذن ؟

(١) وقد كان الحق سبحانه يُعدُّنيه ﷺ لهذا ، من نحو قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوَفُوا حَتَّى آتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام].

(٢) «اصبروا على الطاعات والمصائب ، واصبروا عن المعاصي . وصابروا الكفار فلا يكونوا أشد صبراً منكم . ورابطوا أى : جاهدوا وأقيموا عليه واستمروا فيه . [تفسير الجلالين : ص ٦٤] . وصيغة «صبر» من «فَاعِلٌ» تدل على شدة الفعل والمبالغة فيه ، أى : شدة الصبر والتحمل . والاستمرار عليه حتى الوصول للهدف :

ولكن النهج قد جاء ؛ لأن الفساد قد عمَّ الكون ، ويحتاج إلى إصلاح ، وإلى مواجهة المفسدين ، وهذا ما يرهق الداعين إلى الله تعالى ، وليُوطِن كل داعية نفسه على ذلك ، ما دام قد قام ليدعو إلى منهج الحق سبحانه وتعالى .

وكل داعٍ إلى الله لا يصيبه أذى ، فهذا يُنقص من حفظه في ميراث النبوة ؛ لأن الذي يأتي له الأذى هو الذي يأخذ حفظاً من ميراث النبوة ، فالأذى لا يجيء إلا بمقدار خطورة الداعي إلى الله سبحانه على الفساد والمفسدين ، وهم الذين يتجمعون ضده .

ورسول الله ﷺ يقول : «نَصَّرَ^(١) الله امرأ سمع مقالتي فوعاها^(٢) وحفظها وبلغها ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»^(٣) .

إذن : فنحن أمة محمد ﷺ قد ورثنا منه البلاغ ، وورثنا منه الأسوة الحسنة :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ﴾ (٢١) [الأحزاب]

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ۖ ۝ (١٠٩)﴾ [يونس]

هو دليل على أن الوحي بصدد الإنزال ؛ لأن الوحي لم ينزل بالقرآن

(١) النصارة : إشراق الوجه ونوره .

(٢) وعاءها : حفظها ، فكان كالوعاء يمس ما يوضع فيه ، وإن لم يترك تفاصيل ما وعاءه .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٢٦٥٨) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢٣١ / ٧) من حديث عبد الله بن مسعود .

دَفْعَةً وَاحِدَةً ، فَقَدْ كَانَ الْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَوَالَ حَيَاتِهِ ^(١) .

وهكذا تكون حياة رسول الله ﷺ هي مقام الاستقبال للوحى .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ...﴾ (١٠٩) [يونس]

يوضح لنا أنه سبحانه قد وضع حداً تؤمل فيه أن الأمر لن يظل صبراً ، وأن القضية ستُحسم من قريب بحكم من الله تعالى .

وكلمة ﴿يَحْكُمُ﴾ توضح أن هناك فريقين ؛ كُلٌّ يدعى أنه على حق ، ثم يأتى مَنْ يفصل فى القضية ، والحجة إما الإقرار أو الشهود ، وبطبيعة الحال لن يُقرَّ الكفار بكفرهم ، والشهود قد يكونون عُدولاً ، أو يكونون ممن يُدارون فسقهم فى ظاهر العدالة . فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الحاكم ، فهو لا يحتاج إلى شهود ؛ لأنه خير الشاهدين ، والله سبحانه لا يحكم فقط دون قدرة إنفاذ الحكم ، لا بل هو يحكم وينفذ .

إذن : فهو سبحانه قد شهد وحكم ونفذ ، ولا توجد قوة تقف أمام قدرة الله تعالى ، أو تقف أمام حكم الله عز وجل .

ونحن فى زماننا نرى القُوى وهى تختلف ، فنجد القُوى من الدول وقد تسلط على الضعيف ، فبلغا الضعيف إلى الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، ويصدر كل منهما قرارات ، وحتى لو افترضنا عدالة الحكم ، فأين قوة التنفيذ ؟ إنها غير موجودة .

(١) أى : كان ينزل مُتجماً على حسب الأحوال والوقائع ، وهذا جعل القرآن بالنسبة لأصحاب رسول الله ﷺ غُصّاً رطباً ، لأنه ينزل بما يناسب حالهم . ومعلوم أن القرآن له تنزُّلٌ آخر ، حيث نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا . راجع الإتقان فى علوم القرآن (١/ ١١٦) .

ولكن قدرة الحق الأعلى سبحانه هي قدرة خير الحاكمين ، لأنه هو سبحانه الذي يشهد ، وهو سبحانه لا يحتاج إلى مَنْ يُدَلِّسَ عليه في الشهادة ؛ لأنك إن عميت على قضاء الأرض ، فلن تعمى على قضاء السماء^(١) .

وبعد ذلك يحكم الحق سبحانه حكماً لا هوى فيه ؛ لأن أفة الأحكام أن يدخلها الهوى فتميل ، والحق سبحانه لا هوى له ؛ لأنه لا مصلحة له عند العباد ، فهو الخالق عز وجل ، ولن يأخذ مصلحة من مخلوق^(٢) .

ويطمئنتنا الحق سبحانه على أن رسوله ﷺ أيضاً لا ينطق عن الهوى .
فيقول رب العزة سبحانه :

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾ [النجم]

(١) عن أم سلمة عن رسول الله ﷺ أنه سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر ، وإنه يأتيني الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض . فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإما هي قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٥٨) ومسلم (١٧١٣) .

(٢) يقول سبحانه : ﴿ لَنْ يَأْتِيَ اللَّهُ لَعْنُهَا وَلَا دِمَارُهَا وَلَكِنَّ يَأْتِيهِ الْفُتُورُ مَكْمُومٌ ۖ (٣٧) ﴾ [الحج] . فالله تعالى هو الغنى عما سواه ، وقد كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا الهدايا ونضحوا لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرايبهم ونضحوا عليها من دماها . فبين عز وجل أن ما يناله الله منهم هو الفتور وإخلاص القلب لله . (تفسير ابن كثير ٢٢٤/٣ بتصرف) .

(٣) الهوى : هوى النفس ، وإرادتها ومحبتها الشيء ، قال تعالى : ﴿ . وَتَهَى النَّفْسُ عَنِ الْهَوَىٰ (٤) ﴾ [التأوهات] أي : منعها عن المعاصي والشهوات ، وإذا تكلم بالهوى مطلقاً لم يكن إلا مذموماً حتى يمتنع بما يخرج عنه من معناه كقولهم : هوى حسن ، أو هوى موافق للصواب . أما المراد به في الآية فهو الهوى المذموم . قال تعالى : ﴿ . فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدُوا (٣٥) ﴾ [النساء] . وقال تعالى : ﴿ فَاسْكُتْ يَنْتَظِرُ الْوَيْلَ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۖ (١٥) ﴾ [ص] . وقال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ۖ (١٦) ﴾ [الفرقان] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَعْدَ هُدًى مِنَ اللَّهِ ۖ (١٧) ﴾ [القصص] . وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَسْمُرُوا أَمْوَالَكُمْ قَوْمٌ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ ۖ (١٨) ﴾ [البقرة] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ يُضِلُّوكُمْ بِأَمْوَالِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ (١٩) ﴾ [الأنعام] . [لسان العرب : مادة (هوى) - بتصرف] .

أى: اطمئنوا إلى حكمه ؛ لأنه لا ينطق عن هوى فليس فى نفسه ما يريد تحقيقه إلا دعوة الخلق إلى حُسن عبادة الخالق سبحانه .

وقد يقول قائل: ولكن الحق - عز وجل - عدلٌ للرسول بعضاً من الأحكام .

ونقول: لقد كان رسول الله ﷺ يجتهد ببشريته فيما لم يُنزل الله فيه حكماً ، وحين يُنزل الله حكماً ، فهو ﷺ ينزل على أمر الله تعالى ، ولم يكن رسول الله ﷺ يحكم حتى فيما اجتهد فيه عن هوى ، بل حكم بما رآه عدلاً ، وحين يُنزل الحق سبحانه وتعالى حكماً مغايراً فهو يبلغ المسلمين ويُعدل من الحكم .

إذن: فالتعديل للحكم هو فمة الأمانة مع البلاغ عن الله سبحانه وتعالى ، ورسول الله ﷺ قد أقبل على الحكم فى أمر لم ينزل فيه حكم من الله ، فهو قد حكم بما عنده من رأى ، فيبلغ ﷺ الحكم من الله ، والذي عدل له ليس مساوياً له بل هو خالفه .

ثم إن الذى أخبرنا أن الله سبحانه قد عدل له هو النبى ﷺ ، فهل يوجد من يضعف مركز كلمته ، ويبلغ أن الحكم الذى صدر منه قد عدل له ؟

ولكن رسول الله ﷺ الذى استقبل الوحي تحلى بأمانة البلاغ عن الله ، وهو الذى نقل لنا عتاب ربه له ^(١) .

(١) عاتبه ربه فى شأن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى الذى جاءه يسأل ليتعلم منه ، فتلهى عنه رسول الله ﷺ بدعوة زعماء فريش للإيمان ، فنزلت سورة عبس: ﴿ عبس وتولى (١) أن جاءه الأعمى (٢) وما يدريك لعله يزكى (٣) لو يذكر نفعه لأخرى (٤) أنا من استغنى (٥) فأنك له تصدى (٦) وما عليك ألا يزكى (٧) وأما من جاءك يسعى (٨) وهو يغشى (٩) فأنك عنه تلهى (١٠) ﴾ [عبس] . وعاتبه أيضاً بقوله تعالى: ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تضيي مرضات أزواجك والله غفور رحيم (١) ﴾ [التحریم] .

وهذه قمة الصدق في البلاغ عن الله ، وكان اجتهاد رسول الله ﷺ محصوراً في الأمور التي لم يصدر فيها حكم من الله ، وكان في ذلك أسوة حسنة لنا لتجرباً ونجتهد .

وقد بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن فقال : كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بما في كتاب الله . قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ . قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ ؟ قال : أجتهد رأيي لا آلو^(١) . قال : وضرب رسول الله ﷺ صدرى ثم قال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضى رسول الله ﷺ^(٢) .

والحق سبحانه وتعالى خير الحاكمين ؛ لأنه الشاهد الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور^(٣) ، وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية^(٤) ، ولا هوى له ، وهو الذي يصدر الحكم بمطلق عدله وبفضله ، وهو القادر على إنفاذ ما يحكم به ، ولا توجد قوة تجبر عليه ، ولا يوجد حاكم يقادر

(١) لا آلو : لا أقصر في اجتهادي ويحس المسألة . ومنه قولهم : فلان لا يبالو خيراً . أي : لا يدعه ولا يزال يفضله . ويقول سبحانه : ﴿ يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَسْخَرُونَ مِنْ دِينِكُمْ لَا يَذْكُرْكُمْ خَبَالاً ۖ ﴾ [آل عمران] أي : لا يقصرون في فسادكم .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢) وأبو داود في سننه (٣٥٩٢) والترمذي (١٣٢٧) وقال : ليس إسناده عندي متصل . لا نعرفة إلا من هذا الوجه .

(٣) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ يَقُومُ حِفَاةُ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر] . فأنله عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر . قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو الرجل يدخل على أهل البيت بينهم ، وفيهم المرأة الحسنة . أو عمره وبهم المرأة الحسنة فإذا غفلوا لحظ إليها ، فإذا فطنوا غص بصره عنها ، فإذا غفلوا لحظ ، فإذا فطنوا غص ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها . ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٧٥) .

(٤) يقول عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدُّهُ مِنْ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [عالم الغيوب والشهادة الكبير المتعالي] ﴿ مَرَأَةٌ مِنْكُمْ مِنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد] .

على كل هذا إلا الله سبحانه .

وشاء الحق - عز وجل - أن يكرم المؤمنين الذين يحكمون بين الناس بأن جعل ذاته ضمنية بتفوق الخيرية على الحاكمين .

وواقع الأمر أن هناك بشراً يحكمون غيرهم ، ولكن الحق سبحانه حكم بأنه خيرهم ، فمن الحاكمين مَنْ قد يُدلس^(١) عليه غيره ، ومن الممكن أن يدخل الهوى في أحكام هؤلاء الحاكمين ، لكنه سبحانه لا تخفى عليه خافية ، ولا يمكن أن يدخل الهوى إلى حكمه ، وأحكامه نافذة بطلاقة قدرته سبحانه ؛ لذلك فهو خير الحاكمين إطلاقاً .

وإذا سمعت جمعاً يدخل الله ذاته مع خلقه فيه ؛ فاعلم أن ذلك إبدان بأن تأخذ من واقع ما تشهد حقيقة مَنْ لا تشهد ؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿ فَبَارِكْ لِلَّهِ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾

[المؤمنون]

ويقول تعالى :

﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾

[الجمعة]

ويقول تعالى :

﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) ﴾

[الأنبياء]

ويقول تعالى :

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ (٨) ﴾

[التين]

وكلما وجدت جمعاً أدخل الله ذاته مع عباده من لهم هذا الوصف ، فهذا يدلُّك على أن الموصوفين معه لهم تلك الصفات المذكورة ، ولكنه

(١) التدليس : الإغفاء والمخادعة بعدم تبين المصيب في الشيء . ومن التدليس في الاستاد بأن يحدث المحدث عن شيخه الأكبر بما لم يسمعه منه ؛ بل سمعه ممن هو دونه في المرتبة .

سبحانه وتعالى أزلى مُطلق الصفات ، وهم أحداث^(١) وأغيار تتباينهم القوة والتغير والضعف .

وتجد الله سبحانه وتعالى وهو يَصِفُ نفسه بأنه :

﴿ . أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

وكلنا تعلم أن الله سبحانه هو خالق كل شيء من عدم ، ولكن هناك من الخلق مَنْ يخلق شيئاً من موجود ؛ ولذلك فالله سبحانه وتعالى هو أحسن الخالقين .

والحق سبحانه يصف نفسه بأنه :

﴿ . خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة]

والرزق هو ما به يُتَمَنَع ، وقد يأتي لك وليٌ أمرك بالمأكل والمشرب والملبس ، ويعطيك ما تتنفع به ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الرزق في الكون كله .

ويقول الحق سبحانه واصفاً نفسه :

﴿ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) ﴾ [آل عمران]

والإنسان حين يمكر قد يُدَارِي مسألة ، ويغفل عن ركن فيها ، لكن الله تعالى لا يغفل عن شيء .

إذن : فالخيرية في الحكم لها نصيب من طلاقة قدرة الله تعالى ، ونحن عرفنا أن الرسول ﷺ حين حكم في بعض الأحكام وعدلّها له الله سبحانه وتعالى ، لم يكن لله تعالى حكم قبل أن يحكم رسول الله ﷺ .

(١) الأحداث : جمع حادث ، وهو ما يكون مسبوقاً بالعدم ، ويسمى حدوثاً زمنياً ، وقد يُعبر عن الحدوث بالحاجة إلى الغير ، ويسمى حدوثاً ذاتياً . (التعريفات للرجزاني - ص ٧١) .

ومثال ذلك : قصة زيد بن حارثة ^(١) ، وكان مولى أو عبداً لحديجة بنت خويلد ^(٢) رضى الله عنها ، ووهبته لسيدنا رسول الله ﷺ ، ثم علم أهله الذين كانوا يبحثون عنه أنه في مكة ، وكان قد خطف صغيراً من بلده وبيع في مكة ، كعادة العرب في الجاهلية مع الرقيق ^(٣) ، فلما علموا بذلك ذهبوا إلى رسول الله ﷺ ليستردوا ابنهم ، فقال لهم رسول الله : « والله إنى لأختيره ، فإن اختاركم فخذوه ، وإن اختارنى فهو لى » . فاختار زيد أن يبقى مع رسول الله ﷺ .

ولم يكن رسول الله بعد ذلك ليفرط فيه ؛ فأعطاه شرف النبوة ، فأسماه زيد بن محمد ^(٤) .

(١) زيد بن حارثة بن شراحيل ، صحابى ، من أقدمهم إسلاماً ، كان ﷺ لا يبعثه فى سرية إلا أمره عليها ، وجعل له الإمارة فى مؤتة ، فاستشهد فيها عام ٨ هـ (الأعلام ٥٧/٣) .

(٢) هى : زوج رسول الله ﷺ تزوجها قبل البعثة بـ ١٥ عاماً ، وأول من صلبت ببعثته ﷺ ، كانت مومنة ، تاجر رسول الله ﷺ بآلها ، وكانت خير معين له فى رسالته . توفيت سنة عشر من البعثة بعد خروج بنى هاشم من الشعب . راجع الإصابة فى تمييز الصحابة (٦٠ / ٨ - ٦٦) .

(٣) الرقيق : العبد ، وقد سُمى العبد رقيقاً لأنهم يرقون لما لكهم ويدلون ويخضعون . (راجع اللسان مادة رقيق) وقال الجرجاني فى التعريفات (ص ٩٩) : «الرق فى اللغة : الضعف . ومنه رقة القلب ، وفى عرف الفقهاء عبارة عن عجز حكمى شرع فى الأصل جزاء عن الكفر . أما إنه عجز فلائله لا يملك ما يملكه الحر من الشهادة والقضاء وغيرهما ، وأما إنه حكمى فلائله العبد قد يكون أقوى فى الأعمال من الحر حسناً» .

(٤) وذلك أن حارثة بن شراحيل جاء هو وأخوه كعب عم زيد إلى رسول الله ﷺ بمكة ، وذلك قبل الإسلام ، فقالا له : يا بن عبد المطلب ، يا بن سيد قومه ، أقم جيران الله ، وتفككون العائى (الأسير) ، وتطمعون الجائع ، وقد جئتكم فى ابنتنا عيبك ، فتحسن إلينا فى فداائه ، فقال : أو غير ذلك ؟ فقالا : وما هو ؟ فقال : أدمره وأختيره ، فإن اختاركما فلك ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى اختار على من اختارنى أحداً ، فقالا له : قد زدت على النصف ، فدعاه رسول الله ﷺ ، فلما جاء قال : من هذان ؟ فقال : هذا أبى حارثة بن شراحيل ، وهذا عمى كعب بن شراحيل ، فقال : قد غيرتك إن شئت ذهبت معهما ، وإن شئت أقمت معى ، فقال : بل أقيم معك . فقال له أبوه : يا زيد ، أنت اختار العبودية على أبيك وأهلك وبلدك وقومك ؟ فقال : (إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ، وما أنا بالذى أفارقه أبداً ، فعند ذلك أخذ رسول الله ﷺ بيده ، وقام به إلى اللأ من قريش فقال : اسلموا أن هذا ابنى وارثا وموروثا . فطابت نفس أبيه عند ذلك ، وكان يدعى زيد بن محمد ، حتى أنزل الله تعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَنَّهُمْ مِنْكُمْ ﴾ (الأحزاب) .

وهكذا رأى النبي ﷺ فى التبنى وسيلة تكريم ، ولكن الله عز وجل يريد أمراً غير هذا ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ۝٤٠ ﴾ [الأحزاب]

لأن الأبوة بالتبنى قد تحدث خلطاً فى الأنساب ، فالابن بالتبني له حق الزواج من ابنة مَنْ تَبَنَّى ، فكيف يمنع عنه هذا الحق ، والابن بالتبني قد تحرم عليه زوجة مَنْ تَبَنَّى إن رحل عنها أو طلقها .

لذلك شاء الحق سبحانه وتعالى أن يحفظ للأنساب حقوقها ومستولياتها ، فقال سبحانه :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۝٤١ ﴾ [الأحزاب]

ومهمته ﷺ كرسول من الله بالنسبة لكم أفضل من الأبوة لكم .

وقال الحق سبحانه فى تعديل حكم التبنى :

﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ ۝٤٢ عِنْدَ اللَّهِ ۝٤٣ ﴾ [الأحزاب]

وهذا ردّ لحكم من رسول الله بتكريم لرسول الله ، فما صنعه محمد ﷺ عدلٌ وقسطٌ بعُرف البشر ، لكن حكم الله سبحانه وتعالى هو الأقسط والأعدل ، فينتهى بذلك نسب زيد من محمد ، ويعود إلى نسبه الفعلى «زيد بن حارثة» .

(١) القسط : العدل والحق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بِنَهْمٍ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٤٢ ﴾ [الأنعام] . أما القاسطون فهم الجائرون ، قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝٤٣ ﴾ [الجن] .

وحتى لا يؤثر هذا الأمر فى نفس زيد ، نجد الحق سبحانه وتعالى يكرمه تكريماً لم يُكرمه لصحابى غيره ، فهو الصحابى الوحيد الذى ذُكر اسمه بالشطط والعلم فى القرآن ، فقال الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا ^(١) زَوَّجْنَاكَهَا ۖ ۞ (٢٧) ﴾ [الأحزاب]

وصار اسم «زيد» كلمة فى القرآن تُتلى ويُجهر بها فى الصلاة ، فإذا كان قد نفى عنه النسب إلى محمد ﷺ فقد أعطاء ذكرًا ثانياً خالداً فى القرآن المحفوظ ، ومنحه بذلك شرفاً كبيراً .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ . وَأَمِيرٌ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۖ ۞ (١٠٩) ﴾ [يونس]

يفيد أن حكم الله تعالى أعم من أن يكون حكماً فى الدنيا أو الآخرة فقط ، فحكم الله سبحانه فى الدنيا نصراً لدين الله ، ومن مات من المؤمنين أو الكفار لهم حكم آخر .

وختم الله تعالى سورة يونس بهذا الحكم ، وأهدى الله سبحانه كل مؤمن بيونس - كنى من أنبياء الله تعالى - قضية عندما ذهب مغاضباً ، قال فيه الحق سبحانه :

﴿ وَذَا النُّونِ ^(٢) إِذْ ذُهِبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۖ ۞ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

وأهداه الحق سبحانه وساماً بقوله :

(١) الوطر : قال الليث : الوطر كل حاجة كان لصاحبها فيها حمة ، فهو وطره . وجمع الوطر : أوطار . وقال الزجاج : الوطر والأرب فى اللغة بمعنى واحد . وقال الخليل بن أحمد : الوطر كل حاجة يكون لك فيها حمة ، فإذا بلغها البالغ قيل : قضى وطره وأربه . (لسان العرب : مادة (وطر)) .

(٢) النون : الحوت . وذا النون : لقب يونس بن متى عليه السلام . أى : صاحب الحوت ، وهو المحوت الذى ابتلع يونس عليه السلام بعد إلقائه فى البحر .

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ .. (٨٨) ﴿[الأنبياء]

وأشركنا الحق سبحانه وتعالى في هذا الوسام بقوله تعالى :

﴿.. وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٨) ﴿[الأنبياء]

وهكذا أسدى^(١) إلينا سيدنا يونس جميلاً كبيراً ، حين هداه الله إلى قوله :

﴿.. لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) ﴿[الأنبياء]

واستجاب الله تعالى لدعائه ، وأنجاه من الغم ، وهو أعنف جنود الله ؛ لأن الشيء الذي يضايقك هو الذي لا تستطيع له دفعاً .

ولذلك يقال : إن العدو كلما لُطِفَ^(٢) عُنِفَ ؛ لأن العدو إن كان ضخماً الحجم ، تكون الرقاية منه أسهل من العدو الصغير سريع الحركة ، فإن كان العدو ضخماً ، فالإنسان يرى ضخامته من على البعد ، فيجبري منه الإنسان أو يختبئ ، لكن إن كان العدو ثعباناً رفيعاً - مثلاً - فقد لا يراه الإنسان ، وقد لا يستطيع الفرار منه ، وإن كان ميكروباً أو فيروساً لا يرى بالعين المجردة ؛ فهو أعنفُ قدرة وقوة في مهاجمة الإنسان .

إذن : كل مُتَعَبٍ في الدنيا من الممكن أن تحتاط منه إلا ما يتلصص عليك بدقة ولُطْف ؛ فإِنَّكَ لا تعرف مدخله .

ونحن نسمع أن فلاناً قد أصيب بمرض ما ، لأنه أخذ عدوى من فيروس ما ، هذا الإنسان لا يعرف متى اخترق الفيروس جسده ، لكنه فوجيء

(١) غم الشيء يتمه غمًا : أخفاه وغطاه وستره .

وغمه الأمر : أخزنه .

قال تعالى : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ .. (٨٨) ﴿[الأنبياء]

والغمة : التباس الأمر وعدم وضوحه ، قال تعالى : ﴿وَلَمْ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ .. (١٠١) ﴿[يونس]

[القاموس القويم - ٢ / ص ٦٠ ، ٦١ بتصرف]

(٢) أسدى : أعطى ، وأهدى . [لسان العرب : مادة (س د ي)] .

(٣) لطف الشيء يلطف : صَغُرَ . [لسان العرب : مادة (ل ط ف)] .

بأعراض المرض تظهر عليه بعد كمون^(١) الفيروس في جسده لأسبوعين ،
وهكذا نجد أن العدو كلما لطفَ عَنُفًا.

والغمُّ من أشد وأقسى أنواع البلاء ، وكلنا نعرف قصة الإمام على -
كرم الله وجهه - وهو المشهور بالفتيا^(٢) ، وكان الناس يستفتونه فيما
يعجزون عن العثور على حل له ، واجتمع بعض من الناس وقالوا: نريد
أن نجتمع بعض الأشياء الصعبة ونسأله عنها لنختبره ، فلما اجتمعوا قالوا
لعليّ كرم الله وجهه: نريد أن نستعرض كون الله تعالى ، فقد جلسنا معاً
لنعرف أقوى ما خلق الله ، واختلفنا فقال كل واحد اسم القوة على حسب
ما يراها.

لم يتروّ على بن أبي طالب ، ولم يَقُلْ كلاماً مَسْرُوداً^(٣) بحيث إن
وقف ، لا يطالبه أحد بزيادة ، بل حدّد من الجملة الأولى عند القوى
حسب ترتيبها وقوتها ، حتى تطابق العدد على المحدود ، وهذا دليل على
أنه مُسْتَحْضِرٌ للقضية استحضار الوائق. وفرد أصابع يديه وقال:

أشدُّ جنود الله عشرة: الجبال الرواسي ، والحديد يقطع الجبال ، والنار
تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض

(١) الكمون: الاختفاء والاستتار. ومنه: الكمين في الحرب. وحزن مكتمن في القلب: مُخْفٍ.
[اللسان: مادة كمن].

(٢) الفتيا: تبيين المشكل من الأحكام ، أصله من الفتى ، وهو انشأ الحديث (الحديث السن) الذي شبَّ
وقوى ، فكانه يقوى ما أشكل ببيانه فيشب ويصير فتياً قوياً. وأفتى المفتي إذا أحدث حكماً. وأفتاه في
الأمر: أبناه له. وأفتى الرجل في المسألة. واستفتيته فيها فأفتاني إفتاء. قال تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُهُمْ أَهْمُ أَشَدِّ
حَقًّا...﴾ (٣١) [الصافات] وقال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفَعِّلُهُمْ﴾ (٣٢) [النساء] أي: يسألك.
وقال تعالى: ﴿... فَصَى الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (٣٣) [يوسف] ، وقال تعالى عن بلقيس ملكة سبأ:
﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرٍ...﴾ (٣٤) [النمل]. [لسان العرب: مادة (ف ت ي)] - بتصرف.

(٣) الكلام المسرود: الكلام المتتابع ، بعضه إثر بعض ، بحيث لا يدرك السامع أوجه من آخره ، فلا يستطيع
أن يستترك شيئاً على المتكلم ، أو يحفظ منه شيئاً.

يحمل الماء ، والريح تقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح ، يستشتر بالثوب أو الشيء ويمضي لحاجته ، والسُّكْر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السُّكْر ، واللهم يغلب النوم ، فأشد جنود الله - سبحانه - اللهم .

هكذا قال سيدنا علي بن أبي طالب ، فالهم والغم من أشد جنود الله تعالى ، وكان سيدنا يونس عليه السلام سبياً في أن قدم الله سبحانه لكل مؤمن به إلهي أن تقوم الساعة منجى من الهم والغم بالدعاء الذي ألهمه ليونس عليه السلام في قوله تعالى :

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾ [الأنبياء]

وهكذا تعددت «النجاة من الغم» من الخصوصية إلى العمومية ، وقد أخذها جعفر الصادق رضي الله عنه وجعل منها «تذكرة طيبة» للمؤمن حتى يستقبل أحداث الحياة كلها ، في كل جوانبها المفزعة ؛ لأن الإنسان يهدده الخوف مما يعلم .

أما الهم فلا يعرف الإنسان فيه سبب الخطر ، ولا يعلم الإنسان مكر الناس به ؛ لأن الإنسان لا يعلم ماذا يبتوا له .

وشغل الإنسان بأمر الدنيا وأن يكون منعماً ومرقهاً في كل أمور الحياة ، يجعله عرضة للهموم .

وكان سيدنا جعفر الصادق ^(١) له بصر وبصيرة بآيات القرآن ومتعلقاتها ، فقال : «عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الحق سبحانه :

﴿..حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)﴾ [آل عمران]

(١) هو : جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ، أبو عبد الله ، كان مشغولاً بالعبادة عن حب الرئاسة ، روى عنه شعبة والثوري ومالك . تولى بالخليفة عام ١٤٨ هـ .

ولا يتعجب لمن يخيفه شيء إلا إذا كان عند المتعجب شيء يزيل الخوف .

فمن عنده صدىع يمكنه أن يعالجه بالأسبرين ، أما الخوف فقد وصف
سيدنا جعفر دواءه : يقول الله سبحانه :

﴿ .. حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران]

فذلك هو الدرع من كل خوف .

ويقدم جعفر الصادق لئله السبب فيقول : لأن الله سبحانه قال عقبها :

﴿ فَانْقَلِبُوا "بِعِزَّةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ" .. (١٧٤) ﴾

[آل عمران]

أى : أن سيدنا جعفرًا جاء بالحishiة من نفس القرآن ، وأضاف جعفر
الصادق : «وعجبت لمن أهتم» - وهو الموضوع الذى نبهته الآن - ولم يفرع
إلى قول الله سبحانه :

﴿ .. لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

فإنى سمعته الله تعالى بعقبها يقول :

﴿ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وعجبت لمن مكر به كيف لا يفرع إلى قول الله سبحانه :

﴿ .. وَأَقْرِضْ أَمْراً إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) ﴾ [غافر]

لأنى سمعت الله تعالى بعقبها يقول :

(١) انقلبوا : رجعوا . أى : أنهم لما تركوا على الله كفاهم ما أمتهم ورد عنهم بأس من أرادوا كيدهم ،
فرجعوا إلى بلدهم بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء مما أضمر لهم عيودهم . (الن كبر ٢ / ٤٣١) .

﴿فَرَقَاهُ﴾ (١) اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوا وَحَاقَ (٢) بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٣٥) ﴿

[غافر]

وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها كيف لا يفرغ إلى قول الله سبحانه :

﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ..﴾ (٣٩) ﴿ [الكهف]

لأنى سمعت الله تعالى بعقبا يقول :

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ
فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ (٤٠) ﴿ [الكهف]

وهكذا وجد جعفر الصادق رضى الله عنه فى كتاب الله أربع آيات لأربع
حالات نفسية تصيب البشر ، وجاء مع كل حالة دليلها من القرآن الكريم .

وقول الحق سبحانه وتعالى فى آخر سورة يونس :

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ..﴾ (١٠٩) ﴿ [يونس]

مناسب لقوله سبحانه فى الآية الأولى من السورة التى تليها :

﴿الَّذِينَ كُتِبَ لَهُم مَّا عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ لِيَنصَحُوا لِقَوْلِ اللَّهِ وَحْيِي مُبِينٌ﴾ (١) ﴿ [مرد]

لأن الوحي كتاب أحكمت آياته حقاً وصدقاً .

(١) وفاه الله وقياً ووقاية وواقية : صلاته . ووقيت الشيء إذا صنته وسترته عن الأذى . ووقاه ما يكره : حماه
منه . وقال تعالى : ﴿فَرَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ..﴾ (٣٥) ﴿ [الإنسان] وقال تعالى : ﴿... وَمِنَ الْبَنَاتِ
يُؤْتِيهِم مَّا يَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ (٤٠) ﴿ [غافر] [لسان العرب : مادة (وق ي)] .

(٢) حاق : أحاط . والحقق : الإحاطة بالشيء والإطّار المحيط به المستدير حوله . قال الليث : الحق ما حاق
بالإنسان من مكر أو سوء عمل يعمل به ، فيترن ذلك به . وقيل : الحق فى اللغة هو أن يشمل على
الإنسان عاقبة مكروه فعله . وقال الزجاج : حاق بهم المصائب أى : أحاط بهم جزاء ما كانوا
يستهنون ، كما تقول : أحاط بفلان عمله وأهلكه كسبه ، أى : أهلكه جزاء كسبه . قال تعالى :
﴿... فَرَحُوا بِمَا عَذَّبْنَاهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَخَافُوا بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣٢) ﴿ [غافر] . وقال تعالى : ﴿وَلَا يَحِثُّ
الْمَكْرَ السَّيِّئَ إِلَّا بِأَعْيُنِهِ ..﴾ (٤٢) ﴿ [فاطر] . [لسان العرب : مادة (ح وق ي ح ي ق)] .

سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تبدأ سورة هود^(١) بقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿الرَّكُوبُ أَتَىٰ كَمَبًا مِّنْ لَّدُنْ

حَكِيمٍ خَيْرٍ ۝١﴾

وتبدأ الآية بحروف توقيفية مقطعة من الحروف التي تبدأ بها بعض سور القرآن الكريم ، أى : أن كل حرف من تلك الحروف يُنطق بمفرده ، والحرف - كما نعلم - له اسم ، وله مسمى ، ونحن حين نكتب أو نتكلم نكتب أو ننطق بمسمى الحرف لا باسمه .

ولكن بعض سور القرآن الكريم تبدأ بحروف نقرأها باسم الحرف ، وما عداها يُنطق قِيا بمسميات الحرف .

وإن أردنا معرفة الفارق بينهما ، فنحن نقرأ فى أول سورة البقرة ونقول :

(١) سورة هود هي السورة الحادية عشرة في ترتيب سور القرآن ، وهي سورة مكية في قول الحسن وعكرمة وغيرهما . وقال ابن عباس وقتادة : (لا آية ، وهي قوله تعالى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْبُحَارِ﴾ [هود] : وعدد آياتها (١٢٣) آية .

سميت باسم نبي الله هود عليه السلام ، الذي أرسل إلى قوم ثمود ، ذكر فيها اسم النبي هود ٥ مرات . وذكر في سورة الشعراء آية ١٢٤ ، وفي الأعراف آية ٦٥ .

قال عنها رسول الله ﷺ : «شيعتي هود وأخوانها : الواقعة ، وهم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت» أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١/ ٣٥٨) .

قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله في «نوار الأصول» : فالفرع يورث الشيب ، وذلك أن الفرع ينهل النفس فينشف رطوبة الجسد وتحت كل شعرة منبج ، ومنه يعرق ، فإذا نشف الفرع رطوبته ييسب المتابع فيس الشعر فايض ، كما ترى الزرع الأخضر يسقاه ، فإذا ذهب سقاؤه يس فايض . فالنفس ينهل بوعيد الله ، وأهوال ما جاء به الخبر عن الله ، فتتبلبل ، وينشف ماها ذلك الوعيد والهول الذي جاء به ، فمنه تشيب .

وسورة هود ، فيها ذكر الأمم ، وما حل بهم من عاجل بأس الله تعالى ، فأهل البقين إذا تلوا تراعى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولحظاته البطش بأعدائه ، فلو ماتوا من الفرع لحق لهم ، ولكن الله تبارك وتعالى اسمه يلطف بهم في تلك الأحيان حتى يقرأوا كلامه . نقله القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣١٩) .

«ألف . لام . ميم» رغم أنها مكتوبة : ﴿الْم ١﴾^(١) [البقرة]

إذن : فنحن نتطقها بمسميات الحروف عكس قراءتنا لقول الحق سبحانه :

﴿الْم تَشْرَحُ^(٢) لَكَ صَدْرُكَ ١﴾ [الشرح]

ونحن نتطقها بأسماء الحروف . . لماذا ؟

لأن الرسول ﷺ سمعها هكذا من جبريل عليه السلام ، والقرآن أصله سماع ، وأنت لا تقرأ قرآناً إلا إذا سمعت قرآناً ؛ لتعرف كيف تقرأ الحروف المقطعة بأسماء الحروف ، وتقرأ بقية الآيات بمسميات الحروف .

وكنا قديماً قبل أن نحفظ القرآن «نصحح» اللوح ، أى : أن يقرأ الفقيه أولاً ليُعلمنا كيف نقرأ قبل أن نحفظ .

والذى يُتعب الناس أنهم يريدون أن يقرأوا القرآن الكريم دون أن يجلسوا إلى فقيه أو دون أن يستمعوا إلى قارئ للقرآن .

ونقول لهم : إن القرآن ليس كتاباً عادياً نقرأه ، إن القرآن كتاب له خاصية مميزة ، قصُور الحروف تختلف ، فمرة نطق اسم الحرف ، ومرة نقرأ مسمى الحرف .

وقول الحق سبحانه : ﴿الْم﴾ فى أول سورة هود ؛ يجعلنا نلاحظ أنه من العجيب فى فوائح السور - التى بدأت بهذه الحروف - أن القرآن مبنى على الوصل دائماً ، فأنت لا تأتى إلى آخر الآية وتقف ، لا ، بل كل القرآن واصل ، مثلما نقرأ قول الله سبحانه :

(١) ﴿الْم﴾ ذكرت فى افتتاح ست سور هى : البقرة ، آل عمران ، النكبات ، الروم ، لقمان ، السجدة . وتحسب آية مستقلة .

(٢) أى : وسَّعناه معنوياً ، وأزلنا عنه الضيق والهم . والمراد : أرضيناك وسرورناك . أو هو شق الصدر فعلاً حسياً . أوهما معاً . [القاموس المرفوع] .

﴿ مُدَاهِمَتَانِ ﴾^(١) ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾^(٢) فِيهِمَا عَيْنَانِ
نَضَّاخَتَانِ^(٣) ﴿^(٦٦)﴾ [الرحمن]

وإن كان هناك فاصل بين كل آية وغيرها ، إلا أن الآيات كلها مبنية على
الوصل .

وفي آخر سورة يونس يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾^(٦٩) [يونس]

فلو لم تكن موصولة لتطقت الحرف الأخير مبنياً على السكون ، ولكنك
تقرأ منصوباً بالفتحة . وهي موصولة بما بعدها (بسم الله الرحمن الرحيم) .

ومن العجيب أن فوائج السور مع أنها مكونة من حروف مبنية على
الوصل إلا أننا نقرأ كل حرف موقوفاً ، فلا نقول : «ألف لَام ميم» بل
نقول : «ألف لَام ميم» .

وكذلك نقرأ في أول سورة مريم «كاف هاء ياء عين صاد» ، ولا نقرأ
الحروف بتشكيلها الإعرابي ، وهذا يدل على أن لها حكمة لا نعرفها .

وفي القرآن الكريم آيات بُدئت بحرف واحد مثل قول الحق سبحانه :

﴿ حَٰم وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾^(١) [ص]

وقول الحق سبحانه :

(١) مداهماتان : سوداوان من شدة تخضرتهما وكثرة الظلال وهذا كتابة من النعيم التام (وهو وصف

للجنة) اللتين ورد ذكرهما في قول الله تعالى في آية : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا طَّافَانِ ﴾^(٦٦) [الرحمن] .

(٢) الآلاء : النعم ، مفردتها : إلى أو إلى (بكسر الهمزة ، وفتحها) قال تعالى : ﴿ .. فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ

تَلَكُمُ تَقْلِبُونَ ﴾^(٤٥) [الأعراف] ، وقال تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَعَلَّوْنَ ﴾^(٥٥) [النجم] . [القاموس

القوم : بتصرف] .

(٣) نضاختان : فوارتان بالماء لا ينقطعان . ويخرج ماؤها غزيراً ، ونضاجة : مبخخة مبالغته تدل على

الكثرة : [تفسير الجلالين : ص ٤٧٠] و[القاموس القويم] بتصرف .

[ق]

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١﴾

وقول الحق سبحانه:

[القلم]

﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝٢﴾

ونلاحظ أن الحرف في هذه السور ليس آية ، ولكنك تقرأ قول الحق

[الشورى]

سبحانه: ﴿حَم ۝١﴾^(١)

وهي آية ، وكذلك تقرأ قول الحق سبحانه:

﴿عَسَى ۝٢﴾ [الشورى] كآية مع أنها حروف مقطعة ، ونقرأ قول الحق

سبحانه:

﴿كَلَّهِمْص ۝١﴾ [مريم] كآية بمفردها .

وتقرأ قول الحق سبحانه: ﴿طه ۝١﴾ [طه] كآية بمفردها .

وكذلك تقرأ قول الحق: ﴿يس ۝١﴾ [يس] كآية بأكملها .

وتجد أيضاً: ﴿القصص ۝١﴾ [الاعراف] كآية .

و﴿طسم ۝١﴾ [الشعراء ، والفصص] كآية .

وتجد أيضاً ﴿المر ۝١﴾ [الرعد] ملتحمة بما بعدها في آية واحدة .

وتقرأ في أول سورة النمل: ﴿طس ۝١﴾ ملتحمة بما بعدها في آية

واحدة .

(١) يسطرون: يكتبون . من سطر الكتاب أى: جعله سطوراً.

(٢) ﴿حم﴾: ذكرت في افتتاح سبع سور هي: غافر ، وفصلت ، والشورى ، والزخرف ، والدخان ، والجنائية ، والأحقاف . وتحسب آية مستقلة - والله أعلم بمعناها . [القاموس القويم] . وتسمى الحواميم .

إذن : فالمسألة لا نسق لها ، ومعنى ذلك أن لكل موقف وكل حرف حكمة ، والحكمة نجدها حين نتأمل العالم المادى فى الحياة ، فننظرن إلى عبّر الله سبحانه وتعالى فى آيات الكون المحسّنة ، ويجد الدليل على صدق الله تعالى فيما لم نعلم .

ومثال ذلك : حين ينزل الإنسان فى فندق راق فهو يجد لكل غرفة مفتاحاً ، وهذا المفتاح لا يفتح إلا باب غرفة واحدة ، ولكن فى كل طابق من طوابق الفندق هناك مفتاح مع المسئول عن الطابق يسمى «سيد المفاتيح» وهو يفتح كل غرف الطابق ، وقد صنعوا ذلك ؛ حتى لا يفتح كل نزيل غرفة الآخر .

ومع التقدم العلمى جعلوا الآن لكل غرفة بطاقة الكترونية ، ما إن يدخلها الإنسان من فتحة معينة من باب الغرفة حتى يفتح الباب ، وكل غرفة لها بطاقة معينة ، وأيضاً يوجد مع مسئول الطابق فى الفندق بطاقة واحدة ، تفتح كل غرف الطابق .

وأنت حين تقرأ فواتح السور فافهم أن كل آية لها مفتاح ، وكل حرف فى هذه الفواتح قد يشبه المفتاح ، وإن لم يكن معك المفتاح ذو الأسنان التى تفتح باب الغرفة ؛ فلن تفتح لك السورة .

إذن : فكتاب الله له مفاتيح ، ونحن نقرأ حروفاً مُقطّعة على أنها آية ، أو نقرأها كجزء من آية .

وتقول من قبل القراءة : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ^(١) لتخلص نفسك من الأغيار المناقضة لمنهج قائل القرآن ، ثم تضع البطاقة الخاصة مثل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [البقرة]

(١) قال عز وجل : ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ [النحل] ، عن عطاء قال : الاستعاذة واجبة لكل قراءة فى الصلاة أو غيرها . أورده السيوطى فى الدر المنثور (١٦٥/٥) طبعة دار الفكر ، وعزاه لعبد الرزاق فى المصنف وابن المنذر .

فيُفتَح لك باب القراءة .

وهكذا نعرف أن هناك مفتاحاً ، وأن هناك فاتحاً .

ونخذ فوائح السور على أنها مفاتيح ، وكل مفتاح له شكل ونحت معين ، إن نقلته لسورة أخرى فهو لا يفتحها .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿الر﴾ وهي مكونة من ثلاثة حروف ، مثل ﴿آلَم﴾ ، وقد وردت في خمس سور من القرآن الكريم هي : يونس ، وهود ، ويوسف ، وإبراهيم ، والحجر .

ولكن ﴿آلَم﴾ تقرأ كآية ، ولكنها هنا في مقدمة سورة «هود» جزء من آية رغم أنك تقرأها مثلها مثل سورة يونس ، وسورة هود ، وسورة يوسف وسورة إبراهيم ، وتقرأها كآية .

وأيضاً (آلَمَص) هي أربعة حروف تقرأها آية في سورة الأعراف ، وهناك أربعة حروف في أول سورة الرعد ، وتقرأها كجزء من آية في سورة الأعراف .

إذن : فليس هناك قاتون لهذه الحروف التي في أوائل السور ، بل كل حرف له خصوصية لم تتكشف كل أسرارها بعد^(١) ، لهذا ذهب بعض المفسرين إلى قولهم « الله أعلم بمراده » .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ (١)﴾

[هود]

(١) قال البيهقي في «الإنفاذ في علوم القرآن» (٢/٢١) : «المختار فيها أنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى . عن عامر الشعبي : أنه سئل عن فوائح السور . فقال : إن لكل كتاب سرّاً ، وإن سر هذا القرآن فوائح السور» .

قال ابن كثير في تفسيره (١/٢٧) : «مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور يحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً وهي : أ ل م ص ر ك ه ي ح ط س ح ق ن - يجمعها قولك : نص حكيم قاطع له سرا» .

والله سبحانه يقول مرة عن القرآن أنه : ﴿كِتَابٌ﴾ ومرة يقول :

﴿قُرْآنٌ﴾ (١١)

[يونس]

والقرآن يُقرأ ، والكتاب يُكتب ، وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليدلُّك على أن الحافظ للقرآن مكانان : صدور ، وسطور . فإن ضلَّ الصدر ، تذكر السطور .

ولذلك حين أراد المسلمون الأوائل جمع القرآن ^(١) ، ومطابقة ما في الصدور على ما في السطور ، وضعوا أسساً لتلك العملية الدقيقة ، من أهمها ضرورة وجود شاهدين على كل آية ، ووقفوا عند آخر آيتين في سورة التوبة ^(٢) ، ولم يجدوا إلا شاهداً واحداً هو «خزيمة» ، وصدقوا «خزيمة» وكتبوا الآيتين عنه ؛ لأن رسول الله ﷺ كان قد منحه وساماً ، حين قال عنه : «من شهد له خزيمة فهو حسيبه» ^(٣) .

إذن : فإطلاق صفة الكتاب على القرآن ، سببها أنه مكتوب ، وهو قرآن ؛ لأنه مقروء .

ولم تكن الكتابة في الأزمنة القديمة مسألة سهلة ، فلم يكن يُكتب إلا النفيس من الأعمال ، أو لأن القرآن كتاب ؛ لأنه في الأصل مكتوب في اللوح المحفوظ .

(١) المقصود به هنا جمع القرآن على عهد أبي بكر رضي الله عنه ، بعد أن اشتد القتل بقراء القرآن في الغزوات ، فأشار عليه عمر بجمع القرآن ، فأرسل إلى زيد بن ثابت رضي الله عنه وقال له : إنك شاب حافل ، لا تنهك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فأجمعه . فأخذ زيد يجمعه من العصب (هو سعف النخيل) واللخاف (حجارة يضي عريضة رقائق) وصدور الرجال . انظر الإتيان في علوم القرآن (١/ ١٦٥) .

(٢) هاتان الآيتان مما : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠٨) إِنْ تَوَلَّوْا أَفْلَحَ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٠٩)﴾ [التوبة] .

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ١٨) والطبراني في معجمه الكبير (٤/ ١٠١) من حديث خزيمة بن ثابت . قال الهيثمي في الجمع (٩/ ٣٢٠) : «رجاله كلهم ثقات» .

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى واصفاً القرآن :

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ .. ﴾ (١)

[هود]

ومادة الحياء والكفاف والميم^(١) تدل على أمر مُحسَّن وهو إتقان البناء ، بحيث يمنع عنه الفساد ؛ فلا خلل فيه ، ولا تناقض ، ولا تعارض ولا انهيار .

ولا بد من توازن هندسى لكل فتحة فى البناء ؛ حتى لا تكون الفشحات التى فى البناء متوازية على خط واحد ، فتحدث شروخ فى الجدران أو انهيار البناء كله . هذا هو إحكام البناء فى عالم المحسَّات .

وشاء الحق سبحانه أن يصف القرآن ، وهو الجامع لكل المنهج بأنه :

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ .. ﴾ (٢)

[هود]

فخذوا من هذا الإحكام^(٢) ما يمنع فسادكم ؛ لأن القرآن جاء على هيئة تمنع الفساد فيه ، وعقد منع الفساد يكون الإصلاح والصلاح .

ولو نظرت إلى أن القرآن الكريم فى اللوح المحفوظ مستجده قد نزل جملة واحدة ، من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، وجاء الوحي بعد ذلك حسب الأحداث التى تتطلب الأحكام ، وقد نثر الحق سبحانه فى القرآن أحكاماً وفصولاً ونجوماً .

(١) أحكم الأمر : أتقنه . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يُعَكِّمُ اللَّهُ آيَاتِهِ .. ﴾ [الحج] ، أى : ويسينها ويجعلها متقنة متقنة محكمة ، وآيات محكمة : متقنة مقنعة واضحة ، وقيل : محكمة غير منسوخة أو محكمة غير مشابهة فلا تحتاج إلى تأويل ، قال تعالى : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ .. ﴾ (٢) [آل عمران] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَاهُ سُرَّةً مُّحْكَمَةً .. ﴾ [محمد] . أى : متقنة . [القاموس القويم] .

(٢) قال القرطبي فى تفسيره (٤/ ٢٣١٠) : أحسن ما قبل فى معنى : ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ .. ﴾ [هود] قول قتادة ، أى : جعلت محكمة كلها لا تخل فيها ولا باطل ، والإحكام منع القول من الفساد ، أى : نظمت نظاماً محكماً ، لا يلحقها تناقض ولا خلل .

إذن: فالقرآن قد أحكم أولاً ، ثم قُصِّل^(١).

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ .. (١) ﴾ [هود]

والفواصل الكبيرة في القرآن هي السور ، والفواصل الصغيرة هي الآيات ، وأراد المسلمون أن يشجعوا حفظ القرآن ، فقسموه إلى ثلاثين جزءاً ، وكل جزء قسموه إلى حزبين ، وكل حزب قسموه إلى أربعة أرباع ، لكن التفصيل الذي جاء لنا من القرآن أنه سور ، وكل سورة هي مجموعة من الآيات.

وقد يكون المعنى أن القرآن قد أُحْكِمَ وقُصِّلَ ؛ لأنه نزل منهجاً جامعاً من الله سبحانه وتعالى.

وحين تنظر إليه تجدته مُنَوَّعاً ، فمرة يتكلم في العقيدة وقمئها ، ومرة يتكلم في النبوة وموكبها الرسالي ، والمعجزات ، ومرة يتكلم في الأحكام ، ومرة يتكلم في القصص ، والأخلاقيات ، والكونيات. ومرة يتكلم في علم الفرائض^(٢).

إذن: فهو مفصل في اللفظ أو في المعنى ، وهو يتناول معاني كثيرة ، وكل معنى تتطلبه العقيدة ، قمة في الشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويتناول الجزئيات حتى أدق التفاصيل.

أو أحكم نزولاً ؛ لأنه قد نزل مرة واحدة إلى السماء الدنيا ، ثم قُصِّلَ حسب الحوادث ، وهذا أدعى إلى أن تتعلق النفس بكل نجم من نجوم القرآن حين ينزل وقت طلبه.

(١) قُصِّلَ الشيء جعله أقساماً متميزة واضحة ، قال تعالى: ﴿ .. وَكُلُّ شَيْءٍ فُصِّلَتْهُ تَفْصِيلاً (١٦) ﴾ [الأنعام] ، وقال تعالى: ﴿ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ .. (٣٩) ﴾ [الأعراف] أي: معجزات مبينات واضحة ، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ مُفَصَّلٍ عَلَىٰ عِلْمٍ .. (٥٦) ﴾ [الأعراف].

(٢) الفرائض المعنى بها علم الميراث ، أخذاً مما فرغه الله لكل واحد من أصحاب القروض .

وأنت حين تُعد لنفسك صيدلية صغيرة في البيت ، قد تأتي فيها بكل الأدوية ، لكن إن أصابك صداع ، فقد تقتش عن أقراص «الأسبرين» فلا تجدها . أما إذا أرسلت إلى الصيدلية الكبيرة ، فسوف تجد «الأسبرين» حين تحتاجه .

وكذلك حين تكون ظمآن ، قد تفتح ثلاجة بيتك فلا تجد زجاجة الماء رغم أنها أمامك ، وذلك بسبب لهفة العطش .

إذن : فنزول القرآن منجماً شاء الحق - سبحانه - لتعش النفس الإنسانية وهي تعشق استقبال القرآن .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَقَرَأْنَا فَرَقَانَهُ ۚ لِنَشْهَدَ النَّاسَ عَلَىٰ مَكْثٍ ۚ وَنُنَزِّلُاهُ نَزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾

[الإسراء]

وقد جاء في القرآن على لسان الكافرين :

(١) قرئت هذه الكلمة بقراءتين : فَرَقَاهُ ، فَرَّقَاهُ (بتشديد الواو) - فعلى القراءة الأولى لمعناه : فصلناه من الملح للحقوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفرقاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة ، قاله عكرمة عن ابن عباس .

- وعلى القراءة الثانية لمعناه : أنزلناه آية مبيناً مفسراً ، قاله ابن عباس أيضاً . ولهذا قال : ﴿لِنَشْهَدَ النَّاسَ عَلَىٰ مَكْثٍ ۚ﴾ أي : لتبلغه الناس وتتلوه عليهم : ﴿عَلَىٰ مَكْثٍ ۚ﴾ أي : مهل . ﴿وَنُنَزِّلُاهُ نَزِيلًا ۚ﴾ أي : شيئاً بعد شيء . - تفسير ابن كثير (٢/٦٨) .

(٢) مكث : أقام في مكانه ، وتفيد التثاني وعدم العجلة . وقوله تعالى : ﴿لِنَشْهَدَ النَّاسَ عَلَىٰ مَكْثٍ ۚ﴾ [الإسراء] أي : على مهل ونأن بغير عجلة في أزمة متطاولة . وقال تعالى : ﴿فَمَكَّثْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ۚ﴾ [الزمل] أي : استمر الهدد في غيبته مدة لكنها غير طويلة . وقال تعالى : ﴿وَأَمَّا مَا يَبْغَى النَّاسُ فِيمَكْثُ فِي الْأَرْضِ ۚ﴾ [الرعد] أي : يبقى مدة طويلة فيها فيزيدها خصياً . وقال تعالى : ﴿مَكَّنُوا لِي أَنَسْتُ نَارًا ۚ﴾ [طه] أي : أقيموا في مكانكم متظرين . [القاموس القويم] .

﴿لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً .. (٣٢)﴾ [الفرقان]

فيكون الرد من الحق سبحانه :

﴿.. كَذَلِكَ لِنُبَيِّنَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢)﴾ [الفرقان]

ولو كان القرآن قد نزل مرة واحدة على رسول الله ﷺ لما التفت الناس إلى كل ما جاء فيه ، ولكن شاء الحق سبحانه وتعالى أن ينزل القرآن مُنْجِماً^(١) على الرسول ﷺ ، ليكون في كل نجم تثبيت لرسول الله ﷺ في المواقف المختلفة ، والرسول ﷺ وكذلك أمته من بعده في حاجة إلى تثبيات متعددة حسب الأحداث التي تعترضهم ، ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿.. كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا^(٢) (٣٢)﴾ [الفرقان]

فساعة أن يسمع المؤمنون نجماً من نجوم القرآن ، يكونون أقدر على استيعابه وحفظه وتطبيق الأحكام التي جاءت فيه ،

ولم يُنزل الحق سبحانه آية واحدة ، بل أنزل آيات ، بدليل أنهم إن جاءوا بحكم ما ، فهو سبحانه وتعالى ينزل الحق في هذا الحكم وأكثر تفصيلاً ؛ ولذلك يقول سبحانه :

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣)﴾ [الفرقان]

ولو نزل القرآن جملة واحدة ، فكيف يعالج أسئلتهم التي

(١) منجماً : مرفقاً ؛ لأن القرآن أنزل إلى سماء الدنيا جملة واحدة ، ثم أنزل على النبي ﷺ آية آية ، ركان بين أول ما نزل منه وآخره عشرون سة . [اللسان العرب ، مادة : نجم] فنزل القرآن كان منجماً حسب مقتضى حال الدعوة ، فالآيات المكية تناولت العقيدة وتقويم العادات ، وإعلاء القيم والتمهيد لعبادة الله ، والآيات المدنية تناولت العادات والمعاملات لإقامة صرح العدالة في المجتمع .

(٢) رتلناه ترتيلاً : أنزلناه مرتلاً منسقاً مجزئاً حسن التأليف [القاموس القويم] قال ابن منظور في اللسان : «أى : أنزلناه على الترتيل ، وهو تليد العجلة والتعكث فيه .»

جاءت في القرآن: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ﴾^(١).

ويضرب الله مثلاً بالبعوضة ، فيتساءلون ساخرين: كيف يضرب الله مثلاً بالبعوضة ؟

فيتزل قول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا..﴾ (٢٦) ﴿[البقرة].

ولو كانوا عقلاء لتساءلوا: كيف ركب الحق سبحانه في هذا الكائن الضئيل - البعوضة^(٢) - كل أجزاء الكائن الحي ؛ من محل الغذاء إلى قدرة الهضم ، إلى محل التنفس ، إلى محل الدم ، إلى محل الأعصاب .

وكان يجب أن يأخذوا من هذا الخلق دلائل العظمة ؛ لأن عظمة الصنعة تكون في أمرين : إما ضخامة الشيء المصنوع ، وإما أن يكون الشيء المصنوع تحت إدراك الحس .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - أن الفنيين حين صنعوا ساعة «بيج بن» التفتت الناس إلى ضخامة تلك الساعة ، ودقة أدائها ، وحين صنع الفتيون في «سويسرا» ساعة دقيقة وصغيرة جداً في حجمها ، زاد إعجاب الناس بدقة الصنعة .

وهكذا نجد أن القدرة تتجلى في صناعة الشيء الكبير في الحجم ، أو صناعة الشيء الدقيق جداً ؛ فما بالنا بخالق الكون كله ، بأكبر ما فيه وأصغر ما فيه .

(١) قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ فَمِنْهُمْ مَنْ قُلْتُ لَهُمْ نَارُ اللَّهِ وَالْخَبَرُ..﴾ (١٨٩) ﴿[البقرة] . وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قَالُوا فِيهِ قُلْ قَالَ فِيهِ تَجْبِرُ..﴾ (١٧٧) ﴿[البقرة] . وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالنَّبِيرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ..﴾ (٢١٩) ﴿[البقرة] . وقد وردت في القرآن ١٥ آية تبدأ بـ (يسألونك) .

(٢) البعوضة : حشرة صغيرة طائفة لها جناحان دقيقان ، وخرطوم تستقي به الدم ، فهي حشرة لاسعة ضارة ، وهي أنواع كثيرة جداً ، من مديخل أمراضاً مهلكة .

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٢٩٧﴾

والحق سبحانه وتعالى يضرب المثل بالذبابه فيقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ . . ﴾ (٧٢)

[الحج]

فلو اجتمع الخلق المشركون أو المتجبرون وسألوا أصنامهم أن يخلقوا لهم ذبابه ، أو حتى لو حاولوا هم خلق ذبابه لما استطاعوا ، ولا يقتصر الأمر على ذلك العجز فقط ، بل يتعداه إلى عجز آخر :

﴿ . . وَإِنْ يَسْأَلْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ ﴾

وَالْمَطْلُوبِ (٧٣)

[الحج]

فإن جاءت ذبابه على أى طعام ، وأخذت بعضاً من الطعام ، فهل يستطيع أحد أن يستخلص من الذبابه ما أخذته؟

لا ، وكذلك ترى ضعف الاثنين : الطالب والمطلوب .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ الرِّبَّانُ أَخْكَمُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ ﴾ حَكِيمٌ خَبِيرٌ (٦) ﴿ [مرد]

فالإحكام (٣) لا يتناقض مع التفصيل ، لأن الحق سبحانه هو الذى

(١) الطالب : اسم فاعل . والمطلوب : اسم مفعول . أى . ضعف الإنسان الطالب ، وضعف الذباب المطلوب [القاموس الثوبى] قال ابن عباس : الطالب الضم . والمطلوب الذباب . وقال السدى وغيره : الطالب العابد والمطلوب الضم ، [لسان العرب - مادة : طلب] .

(٢) لذن : ظرف مكان أو زمان بمعنى (عند) مبنى على السكون وإذا أضيف إلى ياء التكلم فصلت بينهما نون الوقاية وأدغمت فى نونها مثل قوله : ﴿ . . قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُتْرًا ﴾ (٧٣) ﴿ [الكهف] وجاءت مضافة إلى ضمير المخاطب مثل : ﴿ وَهَبْنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً . . ﴾ (٨٠) ﴿ [آل عمران] وإلى ضمير المتكلمين أنا . قال تعالى : ﴿ . . وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ (٧٥) ﴿ [الكهف] . ونصاف إلى ضمير الغائب كقوله : ﴿ لَيْسَ بِأَمْرٍ شَدِيدٍ مِنْ لَدُنْهُ وَيُنْزِلُ الْغُثَّيْنِ . . ﴾ (٧٤) ﴿ [الكهف] [القاموس الثوبى] .

(٣) الإحكام والحكمة فى الشيء قدرة تحمل أسرار فيها حكمة الخلق والإبداع ، والتفصيل الوزن وإقامة العدل . قال الإحكام أساس ، والتفصيل بناء ، وهما متلازمان تلازم الحكيم مع خيرة الإحلاق .

أحكم ، وهو سبحانه الذي فُصِّل ، وهو سبحانه حكيم بما يناسب
الإحكام ، وهو سبحانه خبير بما يناسب التفصيل ، بطلاقة غير متناهية .
وهو سبحانه حكيم يخلق الشيء مُحْكَمًا لا يتطرق إليه فساد ، وهو
سبحانه خبير عنده علم يخفايا الأمور .

ويقول الحق سبحانه وتعالى في آية أخرى :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ ۝ الْخَبِيرُ ۝ ﴾ (١٠٣)
[الأنعام]

فالله سبحانه لا تدركه عين ، وعينه - سبحانه وتعالى - لا تغفل عن
أدق شيء وأخفى نية .

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الْكِتَابُ أَحْكَمْتُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ ﴾ [مرد]
يسين لنا أن القرآن كلام الله القدير الذي بُنى على الإحكام ، ونزل
مُحْكَمًا جملة واحدة ، ثم جاءت الأحداث المناسبة ليتزل من السماء الدنيا
نجومًا مقصلة تناسب كل حدث .

وإحكام الكتاب ثم تفصيله له غاية ، هي الغاية من المنهج كله ، وبيئتها
الحق سبحانه في الآية التالية :

﴿ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرْمَةٌ تَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝ ﴾

إذن : فقد أحكمت آيات الكتاب وفصلت لغاية هي : ألا نعبد إلا الله .

والعبادة هي طاعة العابد للمعبود فيما أمر ، وفيما نهى .

(١) اللطيف : صفة من صفات الله واسم من أسمائه ، ومعناه : الرقيق بعباده . قال ابن الأثير : اللطيف هو
الذي اجتمع له الرفق في الفعل والعلم بدقائق المصالح وإيصالها إلى من قدرها له من خلقه . [اللسان
مادة : لطف] .

وهكذا نجد أن العبادة تقتضي وجود معبود له أمر وله نهى ، والمعبود الذى لا أمر له ولا نهى لا يستحق العبادة ، فهل مَنْ عَبْدَ الصنم تلقى منه أمراً أو نهياً ؟

وهل مَنْ عَبْدَ الشمس تلقى منها أمراً أو نهياً ؟

إذن : فكلمة العبادة لكل ما هو غير الله هي عبادة باطلة ؛ لأن مثل تلك المعبودات لا أمر لها ولا نهى ، وفوق ذلك لا جزاء عندها على العمل المرافق لها أو المخالف لها .

والعبادة بدون منهج «افعل» و«لا تفعل» لا وجود لها ، وعبادة لا جزاء عليها ليست عبادة .

وهنا يجب أن نلاحظ أن قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ .. ﴾ (٢) [هود]

غير قوله سبحانه :

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ .. ﴾ (٧٢) [المائدة]

ولو أن الرسل تأتى الناس وهم غير ملتفتين إلى قوة يعبدونها ويقدمونها لكان على الرسل أن يقولوا للناس : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ .. ﴾ (٥٩) [الاعراف]

ولكن هنا يقول الحق سبحانه : ﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ .. ﴾ (٢) [هود]

فكانه سبحانه يواجه قوماً لهم عبادة متوجهة إلى غير من يستحق العبادة ؛ فيريد سبحانه أولاً أن ينهى هذه المسألة ، ثم يثبت العبادة لله .

إذن : فهنا نفى وإثبات ، مثل قولنا : «أشهد ألا إله إلا الله» ، هنا نفى أولاً أن هناك إلهاً غير الله ، ونثبت الألوهية لله سبحانه .

وأنت لا تشهد هذه الشهادة إلا إذا وجد قوم يشهدون أن هناك إلهاً غير

الله تعالى ، ولو كانوا يشهدون بالوهمية الإله الواحد الأحد سبحانه ؛ لكان الذهن خالياً من ضرورة أن نقول هذه الشهادة^(١) .

ولكن قول الحق سبحانه : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ .. ﴾ (٢) [مرد]

معناه النفي أولاً للباطل ، وإذا نفى الباطل لا بد أن يأتي إثبات الحق ، حتى يكون كل شيء قائماً على أساس سليم .

ولذلك يقال : «درء»^(٢) المفسدة مقدّم دائماً على جلب المنفعة فالبدائية ألا تعبد الأصنام ، ثم وجه العباداة إلى الله سبحانه .

وما دامت العباداة هي طاعة الأمر ، وطاعة النهي ، فهي - إذن - تشمل كل ما ورد فيه أمر ، وكل ما ورد فيه نهى .

وإن نظرت إلى الأوامر والنواهي لوجدتها تستوعب كل أقضية الحياة من قمة الشهادة بأن لا إله إلا الله ، إلى إمطة^(٣) الأذى عن الطريق^(٤) .

وكل حركة تتطلبها الحياة لإبقاء الصالح على صلاحه أو زيادة الصالح ليكون أصلاح ، فهذه عباداة .

(١) لأن الشهادة تكون في قضية وعلى قضية ، فالذي يشهد أن لا إله إلا الله : فقد نفى الألوهية لغير الله ، وأثبتها له ؛ لأن المقام يقتضي ذلك ، فهذا إحكام في الميكن والمعنى ، فقوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ .. ﴾ [مرد] فقد قصر العباداة لله ، أما الشهادة على القضية فالكون بما فيه ومن فيه يثبت ألوهية الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذي بيده الملك ، وهو على كل شيء قدير .

(٢) درء : دفع وإبعاد . قال تعالى : ﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ .. ﴾ (٥) [التور] أى : ويدفع عنها عذاب الحد أن تشهد هذه الشهادات ، وبقية الحكم في سورة التور في الآيتين رقمي (٨ ، ٩) - [القاموس القويم] .

(٣) إمطة الأذى عن الطريق : تنعيته وإبعاده عن طريق الناس حتى لا يؤذيهم ، والأذى قد يكون أحجاراً أو أى شيء قد يؤذى الناس ويعوق سيرهم في الطريق .

(٤) عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون شعبة - فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياة شعبة من الإيمان» . أخرجه مسلم في صحيحه (٣٥) كتاب الإيمان ، وكذا أخرجه البخارى في صحيحه (٩) دون : أفضلها ، وأدناها .

إذن: فالإسلام لا يعرف ما يقال عنه «أعمال دينية» ، و«أعمال شريفة» ، ولكنه يعرف أن هناك عاملاً دينياً وعاملاً شريفاً .

وكل عامل يعمل عملاً تتطلبه الحياة بقاء للصالح أو ترقية لصلاحه وعدم الإفساد ، فهذا عامل شريف ؛ وقيمة كل امرئ فيما يحسنه .

وهكذا نجد أن كلمة العبادة تستوعب كل أفضية الحياة ؛ لأن هناك أمراً بما يجب أن يكون، وهناك نهياً عما يجب ألا يكون، وما لم يرد فيه نهى لك الخيار في أن تفعله أو لا تفعله، فإذا نظرت إلى نسبة ما تؤمر به، ونظرت إلى ما تُنهى عنه بالنسبة لأعمال الحياة، لوجدت أنها نسبة لا تتجاوز خمسة في المائة من كل أعمال الحياة، ولكنها الأساس الذي تقوم عليه كل أوجه الحياة .

ولذلك قال رسول الله ﷺ : « بُنِيَ الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان »^(١) .

وأعداء الإسلام يحاولون أن يحددوا الدين في هذه الأركان الخمسة ، ولكن هذه الأركان هي الأعمدة التي تقوم عليها عمارة الإسلام .

وأركان الإسلام هي إعلان استدامة الولاء لله تعالى ، وكل أمر من أمور الحياة هو مطلوب للدين ؛ لأنه يصلح الحياة .

وهكذا نجد أن العلم بالدين ضرورة لكل إنسان على الأرض ، أما العلوم الأخرى فهي مطلوبة لمن يتخصص فيها ويرتقى بها ليفيد الناس كلهم ، وكلما كان المتفوق من المسلمين كان ذلك تدعياً لرفعة الإسلام .

إذن: فالقاسم المشترك في الحياة هو العلم بالدين ، ولكن يجب أن نفهم هذه القضية على قدرها ، فلا يأتي إنسان لا يعرف صحيح الدين ليتكلم

(١) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٨) ، ومسلم (١٦) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

والعَوَّلُ^(١) ، والرد^(٢) ؛ لأن المسلم قد تمر حياته كلها ولا يحتاج رأياً في قضية التوريث ، أو أن يتعرف على المستحقين للميراث وأنصبتهم ، وغير ذلك .

وإن تعرض المسلم لقضية مثل هذه ، نقول له : أنت إذا تعرضت لقضية مثل هذه فإذهب إلى المختصين بهذا العلم ، وهم أهل الفقه والفتوى ، لأنك حين تعرض لقضية صحية تذهب إلى الطبيب ، وحين تعرض إلى قضية هندسية تذهب إلى المهندس ، وإن تعرضت لعملية محاسبية تذهب إلى المحاسب ، فإن تعرضت إلى أي أمر ديني ، فأنت تسأل عنه أهل الذكر^(٣) .

وأنت إذا نظرت إلى العبادة ، تجد أنها تتطلب كل حركة في الحياة ، وسبق أن ضربت لذلك مثلاً وقلت : مَبَّ أن إنساناً يصلي ، ولا يفعل شيئاً في الحياة غير الصلاة ، فمن أين له أن يشتري ثوباً يستريه عورته ما دام لا يعمل عملاً آخر غير الصلاة ، وهو إن أراد أن يشتري ثوباً ، فلا بد له من عمل يأخذ بمقابلته أجراً ، ويشتري الثوب من تاجر التجزئة ، الذي يشتري الأثواب من تاجر الجملة ، وتاجر الجملة اشتراها من المصنع ،

(١) العَوَّل في اللغة : الارتفاع . وعند الفقهاء : زيادة في سهام ذوي القروض ، ونقصان من مقادير أنصبتهم في الإرث . وهي مسألة تظهر عند حساب الأنصبة ، فيضطر مقسم التركة إلى الزيادة في جانب والنقصان في جانب .

(٢) الرد : أي : رد ما فضل من التركة إلى أصحاب القروض بنسبة فروضهم ، عند عدم استحقاق الغير ، ويتحقق ذلك بأركان ثلاثة :

١- وجود صاحب القرض .

٢- بقاء قارض من التركة .

٣- عدم العاصب .

راجع تفصيلات هذه المسائل وتطبيقاتها في كتاب (فقه السنة) للشيخ محمد سابق ، وغيره من كتب الفقه .

(٣) يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ هَلْ نَسْأَلُهُ أَهْلَ الدِّخْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء] .

فى الدين ؛ لأن العلم بالدين يقتضى اللجوء إلى أهل الذكر .

فإن قيل : الدين للجميع ، نقول : صدقت بمعنى الدين للجميع ، أما العلم بالدين فله الدراسة المتفقهة ^(١) .

وأهل الذكر أيضاً فى العلوم الأخرى يقضون السنوات ل تنمية دراساتهم ، كما فى الطب أو الهندسة أو غيرهما ، وكذلك الأعمال المهنية تأخذ من الذى يتخصص فيها وقتاً وتتطلب جهداً ، فما بالناس بالذى يصلح أسس إقامة الناس فى الحياة ، وهو التفقه فى الدين .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلُوا نَفَرٌ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١٢٢) [التوبة]

فتحن لا نطلب من كل مسلم - مثلاً - أن يدرس الممارسات ليعرف العصبية ^(٢) وأصحاب الفروض ^(٣) ، وأولى الأرحام ^(٤) ،

(١) التفقه : الفهم ، وفقه يفقه فهو فقيه : صار عالماً فاهماً . والتفقه فى الاصطلاح : علم أحكام العبادات والمعاملات وهو فرع من فروع المعارف الدينية . قال تعالى : ﴿ قُلُوا نَفَرٌ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (النساء) . وقال تعالى : ﴿ قُلُوا نَفَرٌ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ (١٢٢) [التوبة] أى : ليدرسوا أحكام الدين وليتعلّموها ، [لقاموس القويم - بصرف] .

(٢) العصبية : هم بنو الرجل وقرايته لأبيه . والمقصود بهم فى الموارث الذين يصرف لهم باقى التركة بعد أن يأخذ أصحاب الفروض أنصباهم المقدرة لهم . وأمثلتهم الأخ والعم ، والأب إذا بقى شئ بعد تقسيم التركة بأخذه بالتعصيب بجانب الفرض الذى فرضه الله له .

(٣) أصحاب الفروض هم الذين لهم فرض - أى : نصيب - وهم اثنا عشر : أربعة من الذكور ، وهم : الأب والجدة الصحيح وإن علا ، والأخ لأم ، والزوج . وثمان من الإناث : ومن : الزوجة ، والبت ، والأخت الشقيقة ، والأخت لأب ، والأخت لأم ، وبت الابن ، والأم ، والجدة الصحيحة وإن علّت ، ولكل منهم نصيب مقرر ذكره القرآن الكريم .

(٤) أولو الأرحام هم كل قريب ليس بذى فرض ولا عصبية . ذهب مالك والشافعى إلى عدم تورثهم ، ويكون المال لبيت المال ، وذهب أبو حنيفة وأحمد إلى تورثهم ، فى حالة عدم وجود أصحاب الفروض والعصبات .

والمصنع قام بتفصيل الثياب بعد أن نسجها مصنع آخر ، والمصنع الآخر نسج الثياب من غزل القطن أو الصوف . والقطن جاء من الزراعة ، والصوف جاء من جز^(١) شعر الأغنام .

وهكذا نجد أن مجرد الوقوف أمام خالقك لتصلى يقتضى أن تكون مستور العورة فى صلاتك ، هذا الستر يتطلب منك أن تتفاعل مع الحياة بالعمل .

وانظر لنفسك واسألها : ماذا أفطرت اليوم ؟

وأقلُ إجابة هى : أفطرت برغيف وقليل من الملح ، وستجد أنك اشتريت الرغيف من البقال ، وجاء البقال بالرغيف من المخبز ، والمخبز جاء بالدقيق من المطحن ، والمطحن أنتج الدقيق بعد طحن الغلال التى جاءت من الحقل . وكذلك تمت صناعة آلات الطحن فى مصانع أخرى قد تكون أجنبية .

وهكذا تمت صناعة الرغيف بسلسلة هائلة من العمليات ، فهناك الفلاح الذى حرث ، وهناك مصمم آلة الطحن الذى درس الهندسة ، وهناك عالم « الجيولوجيا » الذى درس طبقات الأرض ليستخرج الحديد الخام من باطنها ، وهناك مصنع الحديد الذى صهر الحديد الخام ، ليستخلص منه الحديد النقى الصالح للتصنيع .

وهكذا نجد أن كل حركة فى الحياة قد خدمت قضية دينك ، وخدمت وقوفك أمام خالقك لتصلى ، فلا تقل : « سأنتقطع للعبادة » بمعنى أن تقصر حياتك على الصلاة فقط ، لأن كل حركة تصلح فى الحياة هى عبادة ، وإن أردت ألا تعمل فى الحياة ، فلا تنتفع بحركة عامل فى الحياة . وإذا لم تنتفع بحركة أى عامل فى الحياة ، فلن تقدر أن تصلى ، ولن تقدر أن يكون لك قوة لتصلى .

(١) جز الشعر والصوف : قطعه .

إذن: فالعبادة هي كل حركة تتطلبها الحياة في ضوء «افعل» و «لا تفعل»^(١).

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ^(٢) وَبَشِيرٌ^(٣)﴾ [هود]

والنذير^(٤): هو من يُخبر بشرٍّ زمنه لم يَجِءَ ، لتكون هناك فرصة لتلافى العمل الذي يُوقع في الشر ، والبشير هو من يبشِّر بخير سيأتي إن سلك الإنسان الطريق إلى ذلك الخير.

إذن: الإنذار والبشارة هي أخبار تتعلق بأمر لم يَجِءَ:

وفي الإنذار تخويف ونوع من التعليم ، وأنت حين تريد أن تجعل ابنك مُجَدِّدًا في دراسته ؛ تقول له: إن لم تذكر فسوف تكون كابن فلان الذي أصبح ضالوكًا تافهًا في الحياة.

(١) افعل: أمر من الأمر وهو الله . ولا تفعل: نهى من الله . والأمر يعطى القروض والسنة والمستحب . والنهي يعطى المحرم ، والمكروه المكروه عنه مباح ، هذا هو التكليف الشرعي ، وهو مبدأ الاختيار ، وهذا التكليف الشرعي يتدرج تحت الأمر بفعل الخير ، سواء كان تعبدياً أو معاشياً ، ومن هنا تعتدل موازين العدل الاجتماعي .

(٢) النذير: الذي ينذر الكافرين والمشركين والمعصاة بعذاب الله . وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنُنَذِرُكَ بِالْحَقِّ نَذِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١٢٩] وقال تعالى: ﴿فَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِلْنَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة: ١٢٩].

(٣) البشير: الذي يشرف القوم بالحس السار ، وهو هنا يعني الرسول الذي يبشر المؤمنين بنواب الله ورجائه جزاء على إيمانهم وعبادتهم . قال تعالى: ﴿فَأَمَّا بَشْرُكُمْ فَلَسَانُكُمْ يُبَشِّرُ بِهِ التَّائِبِينَ وَنَذِيرُهُ قَوْلًا لِّأَنَّ﴾ [مريم: ٩٥] أي: قولاً شديداً المضمومة . وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥] . [القاموس القويم - بتصرف].

(٤) النذير: الإنذار والالتذار ، وجمعه نذر . قال تعالى: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [الأنعام: ١٥] . والنذير هنا: هو الرسول المنذر بالعذاب ، وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ [القمر: ١٧] . ويحتمل إنذاراتي ، ويحتمل نتائج إنذاراتي ، أي عقوباتي التي أنذروا بها ، وحذفت ياء التثنية تخفيفاً . راجع

إذن : فأنت تنذر ابنك ؛ ليستلافى من الآن العمل الذى يؤدى به إلى
الفشل الدراسى .

وكذلك ييثر الإنسان ابنه أو أى إنسان آخر بالخير الذى ينتظره حين
يسلك الطريق القويم .

إذن : فالعبادة هى كل حركة من حركات الحياة ما دام الإنسان مُتَّبِعاً
ما جاء بالمنهج الحق فى ضوء «افعل» و «لا تفعل» ، وما لم يرد فيه «افعل»
و «لا تفعل» فهو مباح .

وعلى الإنسان المسلم أن يُبَصِّرَ نفسه ، ومن حوله بأن تنفيذ أى فعل فى
ضوء «افعل» هو العمل المباح ، وأن يمتنع عن أى فعل فى ضوء «لا تفعل»
ما دام الحق سبحانه وتعالى قد نهى عن مثل هذا الفعل ، وعلى المسلم
تحرُّى الدقة فى مدلول كل سلوك .

ونحن نعلم أن التكليفات الإيمانية قد تكون شاقة على النفس ، ومن
اللازم أن نبين للإنسان أن المشقة على النفس ستأتى له بخير كبير .

ومثال ذلك : حين نجد الفلاح وهو يحمل السماد العضوى من حظيرة
البهائم ؛ ليضعه على ظهر الحمار ويذهب به إلى الحقل ؛ ليخلطه بالتربة ،
وهو يعمل هذا العمل بما فيه من مشقة انتظاراً ليوم الحصاد .

ويبين الحق - سبحانه وتعالى - هنا على لسان رسوله أن الأمر بعدم
عبادة أى كائن غير الله ، هو أمر من الله سبحانه ، وأن الرسول ﷺ هو
نذير وبشير من الله .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ .. (٢) ﴾

[هود]

فيه نفى لعبادة غير الله ، وإثبات لعبودية الله تعالى .

وهذا يتوافق ويتسق مع الإنذار والبشارة^(١) ، لأن عبادة غير الله تقتضى نذيراً ، وعبادة الله فى الإسلام تقتضى بشيراً .

ولأن الحق سبحانه وتعالى هو خالق الإنسان ويعلم ضعف الإنسان ، ومعنى هذا الضعف أنه قد يستولى عليه النفع العاجل ، فيُذهبه عن خير أجل أطول منه ، فيقع فى بعض من غفلات النفس .

لذلك بين الحق سبحانه أن من وقع فى بعض غفلات النفس عليه أن يستغفر الله ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يبخل برحمته على أحد من خلقه .

وإن طلب العبد المذنب مغفرة الله ، فسبحانه قد شرع التوبة ، وهى الرجوع عن المعصية إلى طاعة الله تعالى .

ولا يقع عبد فى معصية إلا لأنه تأبى على منهج ربه ، فإذا ما تاب واستغفر ، فهو يعود إلى منهج الله سبحانه ، ويعمل على ألا يقع فى ذنب جديد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيَّ يُمَتِّعْكُم مَّتَّعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾

(١) البشارة : ما يُعطى للمُشر بالخير السار . والبشر الذى يبشر القوم بالأخبار المحبوبة ، والرسول بشير ؛ لأنه يبشر المؤمنين بالجنة ويوِّب الله . يقول الحق : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفتح] ، ويقول الحق : ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب] القاموس القويم باختصار .

(٢) المتاع . يطلق على الكثير والقليل باعتباره مصدرًا ، ويُجمع على أمتعته باعتباره ما يُتَّنع به وما يُتَّنع به . قال تعالى : ﴿اتَّعَدَ حَلِيقَةُ آدَمَ مَتَاعٍ ..﴾ (١٧) [الرعد] أى : وصنع أشياء يُتَّنع بها . وقوله تعالى : ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ ..﴾ (٢٣) [الزخرف] . أى : أطلت مدة اتِّعائهم بالحياة ونعيمها ، ومَتَّعَهُمْ ومَتَّعَهُ بمعنى واحد . وقال تعالى : ﴿يَعْنَىٰ جَعَلْنَا تَذْكَرَةً وَمَتَاعًا لِلظَّالِمِينَ﴾ (٢٤) [الواقعة] أى : متاعًا للمسافرين الناركين ذيارهم خاوية ، أو متاعًا للجائعين . (انظر : ابن كثير ٢٩٧/٤) .

وهكذا يبين الحق سبحانه أن العبد أن يستغفر من ذنوبه السابقة التي وقع فيها ، وأن يتوب من الآن ، وأن يرجع إلى منهج الله تعالى ، لينال الفضل من الحق سبحانه .

المطلوب - إذن - من العبد أن يستغفر الله تعالى ، وأن يتوب إليه .

هذا هو مطلوب الله من العاصي ؛ لأن درء^(١) المفسدة مقدم على جلب^(٢) المصلحة ، وحين يعجل العبد بالتوبة إلى الله تعالى فهو يعلم أن ذنباً قد وقع وتحقق منه ، وعليه ألا يؤجل التوبة إلى زمن قادم ؛ لأنه لا يعلم إن كان سيقتل حياً أم لا .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَتَاعًا وَسَنًا إِلَيْنِ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ (٣)﴾

[هود]

والحق سبحانه يُجمل قضية اتباع منهجه في قوله تعالى :

﴿..فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣)﴾

[طه]

وقال في موضع آخر :

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً (١٧)﴾

[التحل]

فالحياة الطيبة في الدنيا وعدم الضلال والشقاء متحققان لمن اتبع منهج الله تعالى .

(١) للدرء: الدفع والإبعاد.

(٢) الجلب: متول الشيء من موضع إلى آخر. وجذب الشيء: طلبه وحسبه. [لسان العرب: مادة ج ل ب].

وظن بعض العلماء أن هذا القول يناقض في ظاهره قول النبي ﷺ بأن «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»^(١). و«إن أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل»^(٢) فالأمثل^(٣).

وقال بعض العلماء : فكيف نقول : ﴿يُمَتِّعُكُمْ مُتَاعًا حَسَنًا ۖ﴾ (٢) .
[مرد]

هنا نقول : ما معنى المتاع ؟

المتاع : هو ما تستمتع به وتستقبله بسرور وانسباط .

ويعلم المؤمن أن كل مصيبة في الدنيا إنما يجزيه الله عليها حسن الجزاء ، ويستقبل هذا المؤمن قضاء الله تعالى بنفس راضية ؛ لأن ما يصيبه قد كتبه الله عليه ، وسوف يوافيه بما هو خير منه .

وهناك بعض من المؤمنين قد يطلبون زيادة الابتلاء .

إذن : فالمؤمن كل أمره خير ؛ وإياك أن تنظر إلى من أصابته الحياة بآية مصيبة على أنه مصاب حقاً ؛ لأن المصاب حقاً هو من حُرِمَ من الثواب .

ونحن نجد في القرآن قصة العبد الصالح الذي قتل غلاماً كان أبواه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٥٦) وابن ماجه في سننه (٤١١٣) من حديث أبي هريرة . قال النووي في شرح مسلم (٣٠٥ / ١٨) : «معناه : أن كل مؤمن مسجون بمنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة مكلف بفعل الطاعات الشاقة ، فإذا مات استراح من هذا ، وانقلب إلى ما أعد الله تعالى له من النعيم الدائم والراحة الخالصة من نقصان . وأما الكافر فلأنما له من ذلك ما حصل في الدنيا مع قلته وتكديره بالمفصيات ، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد» .

(٢) الأمثل فالأمثل : أى الأشرف فالأشرف ، والأعلى فالأعلى في الرتبة والمترلة . يقال : هذا أمثل من هذا ، أى : أفضل وأنتى إلى الخير . وأمائل الناس : خيارهم ، [لسان العرب « مادة : مثل »] .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢ / ١) والترمذى في سننه (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣) من حديث سعد ابن أبى وقاص . قال الترمذى : حديث حسن صحيح . وقام الحديث : «ويؤتى الرجل على حسب دينه ، وما زال البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض ، ليس عليه خطيئة» .

مؤمنين ، فخشى العبد الصالح أن يرهقهما طغياناً وكفراً ، فهذا الولد كان فتنة ، ولعله كان سيدفع أبويه إلى كل محرم ، ويأتى لهما بالشقاء ^(١) .

إذن : فالمؤمن الحق هو الذى يستحضر ثواب المصيبة لحظة وقوعها .

ومنّا من قرأ قصة المؤمن الصالح الذى سار فى الطريق من المدينة إلى دمشق ، فأصيبت رجله بجرح وتلوث هذا الجرح ، وامتلأ بالصديد عما يقال عنه فى الاصطلاح الحديث «غرغرينة» وقرر الأطباء أن تقطع رجله ، وحاولوا أن يعطروه «مُرَقْدًا» أى : مادة تُخدِّره ، وتغيب به عن الوعي ؛ ليتحمل ألم بتر الساق ، فرفض العبد الصالح وقال :

إنى لا أحب أن أغفل عن ربي طرفة عين .

ومثل هذا العبد يعطيه الله سبحانه وتعالى طاقة على تحمل الألم ؛ لأنه يستحضر دائماً وجوده فى معية الله ، ومفاض عليه من قدرة الله وقوته سبحانه .

وحينما قطع الأطباء رجله ، وأرادوا أن يكفئوها وأن يدفئوها ، فطلب أن يراها قبل أن يفعلوا ذلك ، وأمسكها ليقول : اللهم إن كنت قد ابتليت فى عضو ، فإنى قد عوفيت فى أعضاء .

إذن : فصاحب المصيبة حين يستحضر الجزاء عليها ، إنما يحيا فى متعة ،

(١) يقول رب العزة سبحانه فى سورة الكهف عن موسى عليه السلام والعبد الصالح الذى صاحبه موسى ليتعلم منه : ﴿ فَأَنْتَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّيْسَ لَكَ قَتْلٌ شَيْئًا مَكْرًا ﴾ (٥٥) قَالَ أَنَّمْ أَقْتَلَكَ إِنَّمَا لَقِيتُكَ مِن صَبَأٍ ﴿ ٥٦ ﴾ [الكهف] . ويقول سبحانه على لسان العبد الصالح : ﴿ ... سَأُنْفِثُ بِنُؤَيْلٍ مَا لَمْ تَمْلِكْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (٥٨) أَمَّا السَّمِيعَةُ فَكَانَتْ لِمَسَافِكِينَ يَسْمُكُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدَتْ أَنْ أَعِيَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ ذَلِكَ بِأَخَذِ كُلِّ سَمِيعَةٍ غَضَبًا ﴿ ٥٩ ﴾ وَأَمَّا الْعَلَمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يَرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿ ٦٠ ﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَوَةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴿ ٦١ ﴾ [الكهف] .

ولذلك لا تتعجب حين يحمد أناس خالقهم على المصائب ؛ لأن الحمد يكون على النعمة ، والمصيبة ^(١) قد تأتي للإنسان بنعمة أوسع مما أفقده .

ولذلك نجد اثنين من العارفين بالله وقد أراد أن يتعالم كل منهما على الآخر ؛ فقال واحد منهما :

كيف حالكم في بلادكم أيها الفقراء ؟

- والمقصود بالفقراء هم العُباد الزاهدون ويعطون أغلب الوقت لعبادة الله تعالى - فقال العبد الثاني :

حالتنا في بلادنا إن أعطينا شكرنا ، وإن حُرمتنا صبرنا .

فضحك العبد الأول وقال :

هذا حال الكلاب في «بلخ» ^(٢) أي : أن الكلب إن أعطيت يهز ذيله ، وإن منعه أحد فهو يصبر .

وسأل العبد الثاني العبد الأول :

وكيف حالكم أنتم ؟

فقال : نحن إن أعطينا أكثرنا ^(٣) ، وإن حُرمتنا شكرنا .

إذن : فكل مؤمن يعيش في منهج الله سبحانه وتعالى فهو يستحضر في كل أمر مؤلم وفي كل أمر متعب ، أن له جزاءً على ما ناله من التعب ؛ ثواباً عظيماً خالداً من الله سبحانه وتعالى .

(١) قال الشيخ : « قد البلاء خير من حزة النعماء »

(٢) بلخ : مدينة من مدن خراسان من بلاد ما وراء النهر .

(٣) أي : إن نالنا المطاء فإننا نؤثر غيرنا به . أي : نفضلهم على أنفسنا .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا .. (٣)﴾ [هود]

والحسن هنا له مقاييس ، يُقاس بها اعتبار الغاية ؛ فحين تضم الغاية إلى الفعل تعرف معنى الحسن .

ومثال ذلك : هو التلميذ الذي لا يترك كتبه ، بل حين يأتي وقت الطعام ، فهو يأكل وعينه لا تفارقان الكتاب .

هذا التلميذ يستحضر متعة النجاح وحُسْنه ونعيم التفوق ، وهو تلميذ يشعر بالغاية وقت أداء الفعل .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ .. (٣)﴾ [هود]

أي : يؤتي كل ذي فضل مجزول " لمن لا فضل له ، فكأن الحق سبحانه ينمّي الفضل للعبد .

ومثال ذلك : الفلاح الذي يأخذ من مخزن غلاله إردباً من القمح ليذره في الأرض ؛ ليزيده الله سبحانه وتعالى بزراعة هذا الإردب ، ويصبح الناتج خمسة عشر إردباً .

والفضل هو الأجر الزائد عن مساويه ، فمثلاً هناك فضل المال قد يكون عندك ، أي : زائد عن حاجتك ، وغيرك لا يملك مالاً يكفيه ، فإن تفضلت ببعض من الزائد عندك ، وأعطيته لمن لا مال عنده فأنت تستثمر هذا العطاء عند الله سبحانه وتعالى .

والحق سبحانه وتعالى قد يعطيك قوة ، فتعطى ما يزيد منها لعبد ضعيف .

(١) الجزل : الكثير العظيم من كل شيء ، والجزل الكريم المعطاء [المعجم الوسيط : مادة (ج ز ل)] .

وقال ابن عباس: الربا رباان : فرباً لا يصح ، يعنى : ربا البيع ، ورباً لا بأس به ، وهو حلية الرجل يريد فضلها وأضعافها ثم تلا هذه الآية ﴿ وما آتاكم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله .. ﴾ (٢٤٠) [الروم] وإنما الثواب عند الله فى الزكاة .

﴿...وَأَنْ تَوَلَّوْا فَمَا نِي أَرْحَمُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ (۳) [مروء]

ويقول الحق من بعد ذلك :

(١) المرجع : الرجوع ، أو اسم زمان ، أو اسم مكان ، يقول الحق : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ .. (٢) ﴿أَنْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَجَعَكُمْ﴾ أي : رجوعكم ، أو زمن رجوعكم ، أو مكان الرجوع ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رَحْمَةً لِّكُلِّ نَبِيٍّ مِنْ قَبْلِكَ وَأَوْثَرْنَا عَلَيْهِمْ أَفْقَارًا وَمَأْوَاهُمُ الْمَثَلُ الْأَوَّلِيُّ﴾ .. (٣) ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ [يؤنس] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٣١٥

ومن كثرت سيئاته على حسناته كان في ضنك^(١) العيش وقلق النفس .

ويؤتي الحق سبحانه كل ذي فضل فضله ، فمن عمل لله عز وجل ؛
وفقه الله فيما يستقبل على طاعته ، والذين أعرضوا يخاف عليهم من عذاب
يوم كبير .

﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٤١ ﴾ [هود]

لأنه سبحانه القادر على الإيجاد وعلى الإمداد ، وعلى البداية والنهاية
المحدودة ، وبداية الخلود إما إلى جنة وإما إلى نار ، فهو القادر على كل شيء .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ الْإِنِّهٖمۡ يَلْتَوِنُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسَّخِفُوْا مِنْهُ الْإِنِّهٖنَ
لَيَسْتَغْفِرُونَ لِثِيَابِهِمْ يَعْلَمۡ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ٤٢ ﴾

(١) الضنك : ضيق العيش . ومنه قوله تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له نصيباً منكم ١٧٤ ﴾ [مله]

قال ابن كثير في تفسيره (٢/١٦٨) : « فلا طمأنينة له ، ولا انشراح لصدوره ، بل صدره ضيق حرج
لضلاله ، وإن تنعم ظاهره ، وليس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء ، فإن قلبه ما لم يخلص
إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك ، فلا يزال في ريبة يتردد ، فهذا من صنك المعيشة .

(٢) يتنون صدورهم : يطوونها على عداوة المسلمين ، ويكشون لهم البغض والكراهية .

(٣) الاستخفاء : طلب الخفاء والاختفاء . ومن جهلهم يريدون الاستخفاء من الله تعالى ، وهو سبحانه
لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . قال تعالى : ﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في
السماء ٢٠٦ ﴾ [آل عمران] . وقال تعالى : ﴿ إن تدبوا شيئاً أو تكفروا فإن الله كان بكل شيء عليماً ٢٢٦ ﴾
[الأحزاب] .

(٤) يستغفرون ثيابهم : يتنظرون بها مبالغة في الاستخفاء . [كلمات القرآن] .

(٥) ذكر الواحد في « أسباب النزول » (ص ١٥٢) أن هذه الآية نزلت في الأخنس بن شريق ، وكان رجلاً

حلوا الكلام حلو المنظر ، يلقي رسول الله ﷺ بما يحب ، ويطوي بقلبه ما يكره .

وقال الكلبي : كان يجالس النبي ﷺ يظهر له أمر أسرته ، ويصمر في قلبه خلاف ما يظهر .

وإذا وجدت «ألا» في أول الكلام فأنت تعلم أنها للتنبيه ، ومعنى التنبيه أنه أمر يوقظ لك السامع إن كان غافلاً ؛ لأنك تحب ألا تفوته كلمة من الكلام الذي تقوله .

وحين تنبهه بغير أداء الأسلوب الذي تريده منه ، هنا يكون التنبيه قد أخذ حقه ، ومن بعد ذلك يجيء الكلام الذي تقوله ، وقد تهيأ ذهن السامع لاستقبال ما تقول .

فـ «ألا» - إذن - هي أداة تنبيه ؛ لأن الكلام ستار بين المتكلم والمخاطب ، والمخاطب لا يعرف الموضوع الذي ستكلمه فيه ، والمتكلم هو الذي يملك زمام الموقف ، وهو يهيئ ذهنه لترتيب ما يقول من كلمات ، أما المستمع فسوف يفاجأ بالموضوع ؛ وحتى لا يفاجأ ولا تضيق منه الفرصة ليلتقط كلمات المتكلم من أولها ، فهو ينبهه بأداة تنبيه ليستمع^(١) .

ويقول الحق سبحانه هنا :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَشْرُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ۚ ۞ [هود]

ويقال : ثبت الشيء أى : طويته ، وجعلته جزئين متصلين فوق بعضهما البعض .

وحين يشي الإنسان صدره ، فهو يشيه إلى الأمام ناحية بطنه ، ويدارى بذلك وجهه ، والغرض هنا من مداراة الوجه هو إخفاء الملامح ؛ لأن

(١) وردت ألا في القرآن على أوجه :

الأول : التنبيه ، فندل على تحقق ما بعدهما وتدخل على الجمليتين الاسمية والفعلية ، نحو ﴿ ۞ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّافِهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ [البقرة] ﴾ ، ﴿ ۞ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ۚ ۞ [هود] .

الثاني والثالث : التحفيز والعرض ، ومعناهما طلب الشيء ، لكن الأول طلب بحث ، والثاني طلب يلين ، وتختص بهما بالدخول على الجملة الفعلية نحو : ﴿ ۞ أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ ۚ ۞ [التوبة] ، ﴿ ۞ أَلَا تَعْلَمُونَ أَنَّ يَفْعَلُ اللَّهُ بِكُمْ [التور] .

انفعال مواجيد^(١) النفس البشرية يتضح على الوجوه .

وهم كارهون للرسول ﷺ ، وحاقدون عليه ؛ ولا يريدون أن يلحظ الرسول ﷺ ما على ملامحهم من انفعالات تفصح مواجيدهم الكارهة .

ومثل ذلك جاء من قوم نوح عليه السلام ، حين قال الحق سبحانه على لسان نوح :

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا سِتْكَارًا ۖ ﴾ [نوح]

ومن البدهة أن نعرف أن الإصبع لا تدخل كلها إلى الأذن ، إنما الأذن^(٢) تسد فقط فتحة السمع ، وعدل القرآن الكريم ذلك بمبالغة تكشف موقف نوح - عليه السلام - ، فكل منهم أراد أن يُدخل إصبعه في أذنه حتى لا يسمع أي دعوة ، وهذا دليل كراهية ، وهذه شهادة ضدهم ؛ لأنهم يفهمون أنهم لو سمعوا فقد تميل قلوبهم لما يقال .

ولذلك نجد القرآن الكريم وهو يتقل لنا ما قاله مشركو مكة لبعضهم البعض :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ۚ ﴾ [٢٩]

[فصلت]

فكانهم تواصلوا بالتشويش على القرآن ، ثقة منهم في أن القرآن

(١) مواجيد : مفرد موجدة . وقد وجد فلان رجداً : حزن أو غضب . والمراد : انفعالات النفس البشرية

[المعجم الوسيط : مادة (و ج د)] يتصرف .

(٢) استغشوا ثيابهم : تغطوا بها كي لا يروا نوحاً ولا يسمعوا كلامه . قاله ابن عباس . ذكره السيوطي في (الدر المنثور) (٢٨٩ / ٨) طبعة دار الفكر .

(٣) الأغلة : عقدة الإصبع أو سلامها . ومن أيضاً : المفصل الأعلى من الإصبع الذي فيه الظفر . والجمع : أنامل . [المعجم الوسيط : مادة (ن م ل)] .

(٤) الغوا : ما لا يعتد به من كلام وغيره ، ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع . [المعجم الوسيط] . والغوا فيه : اتوا بالغوا والباطل عند قراءته [كلمات القرآن] - قال ابن عباس : بالتصغير والتخفيف على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن . ذكره السيوطي في (الدر المنثور) (٣٢٦ / ٧) وغواه لابن أبي حاتم .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

ولمى ذلك يقول الشاعر:

(٢) وذلك أن أبا صفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. فجمعهم الطريق، فنلاوموا. وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رأيكم بعض سفهاكم لأوقعتم في تمسه شيئاً، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. وهكذا إلى ليلة ثالثة حتى قال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا. (سير ابن هشام ١/ ٣١٥).

اذْكُرُوهُمْ وَقَدْ تُسَلِّلُ كُلُّ
بَعْدَ مَا انْفَضَّ مَجْلِسُ السُّمَارِ^(١)
اِخْتِلَاسًا يَسْعَى لِحِجْرَةِ طَهْ
لِسَمَاعِ التَّنْزِيلِ فِي الْأَسْحَارِ^(٢)
عُذْرَهُمْ حُثُّهُ فَلَمَّا تَرَاءَوْا
عَلَّلُوها بِبَارِزِ الْأَعْدَارِ

وجاء الحق سبحانه وتعالى هنا في نفس الآية بـ «ألا» في قوله:

﴿.. أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ۝٥﴾ [هود]

فهم إن داروا على محمد ﷺ ، فهل هم قادرون على الإدارة على رب
محمد ؟ والذي لا يدركه بصر محمد فرب محمد سيُعلمه به .

وما دام الحق سبحانه يعلم ما يسرون ، فمن باب أولى أنه سبحانه
وتعالى يعلم ما يعلنون .

والحق سبحانه وتعالى غيب ، وربما ظن ظان أنه قد يفلت منه شيء ،
ولكن الحق سبحانه يُحصي ولا يُحصَى عليه ، فإن ظن ظان أن الحق
سبحانه يعلم الغيب فقط ؛ لأنه غيب ، فهذا ظن خاطيء ؛ لأنه يعلم السر
والعلن ، فهو عليم بذات الصدور ، وكلمة «عليم» صيغة مبالغة^(٣) ، وهي
ذات في كنهها العلم .

وقول الحق سبحانه :

﴿.. عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٥﴾ [هود]

(١) السمار : هم الناس يسْمرون بالليل ، ويكون عادة في ضوء القمر .
(٢) الأسحار : جمع سحر ، وهو الثلث الأخير من الليل إلى مطلع الفجر . قال تعالى : ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ
يَسْتَغْفِرُونَ ۝٥﴾ [الذاريات] .

(٣) عليم : صيغة مبالغة من العلم أي : بالغ العلم لا حد لعلمه سبحانه .
(٤) الصدر : مقدم كل شيء وأوله ، وحسب الإنسان معروف ، ويدخله أضلاعه وقلبه وريثاءه . وفي
الصدر تظهر آثار الانفعال انقباضاً في الحزن وإشراحاً في السرور ، قال الحق سبحانه : ﴿لَمْ تَشْرَحْ لَكَ
صَدْرَكَ ۝٦﴾ [الشرح] وقال : ﴿.. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٥﴾ [آل عمران] أي : بالأسرار
المصاحبة للصدور (القصور من القوم باختصار) .

نجد فيه كلمة ﴿ذَاتِ﴾ وهي تفيد الصحبة ، و(ذَاتِ الصُّدُورِ) أى : الأمور المصاحبة للصدور .

ونحن نعلم أن الصدر محل القلب ، ومحل الرئة ، والقلب محل المعتقدات التى انتهت إليها ، وصارت حقائق ثابتة ، وعليها تدور حركة الحياة . ويُقصد بـ ﴿ذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى : المعانى التى لا تفارق الصدور ، فهى صاحبات دائمة الوجود فى تلك الصدور ، سواء أكانت حقداً أو كراهية ، أو هى الأحاسيس التى لا تظهر فى الحركة العادية ، سواء أكانت نية حسنة أو نية سيئة .

وكل الأمور التى يسمونها ذات الصدور ، أى : صاحبات الصدور ، وهى القلوب ، وكان الجرم^(١) نفسه وهو القلب معلوم للحق سبحانه وتعالى ، فخواتمه من باب أولى معلومة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَمِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٢)

(١) جرم كل شيء : جسمه . والمقصود القلب البشرى نفسه .

(٢) الدابة : اسم قاعل ، وغلب على غير العاقل ، ويستوى فيه الذكر والأنثى ، وقد يشمل العاقل وغيره ، كقوله تعالى : ﴿وَمِنْ لَيْسَ مِنْكُمْ دَابَّةٌ﴾ .. (البقرة) [تشمّل الإنسان وغيره ، وكذلك قوله : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ لَيْسَ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ .. (الشورى) ، الدابة تشمل الكائنات الحية فى الأرض والسماء ، وفيها دليل على أن فى السماء كائنات حية وعاقلة .

أما قوله تعالى : ﴿وَمِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِنَّكُمْ لَعِندَهُ الدابة هنا كل حيوان ما عدا الإنسان بدليل (وإياكم) .

(٣) مستقرها : موضع استقرارها فى الأصلاب أو فى الأرحام ونحوها . ومستودعها : موضع استبعادها فى الأرحام ونحوها ، أو فى الأصلاب . [كلمات القرآن] للشيخ حسين محمد مخلوف .

وحين يذكر القرآن الكريم لقطة توضح صفة ما ، فهو يأتي بما يتعلق بهذه الصفة ، وما دام الحق سبحانه عليماً بذات الصدور ، فهذا علم بالأمور السلبية غير الواضحة ، والحق سبحانه يعلم الإيجابيات أيضاً ، فهو يعلم النية الحسنة أيضاً ، ولكن الكلام هنا يخص جماعة يشنون صدورهم . وجاء في الآية التي نحن بصدد خواتمها ، ويُنَّ أنه عليم بكل شيء . وقال سبحانه :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا .. ﴾ (٦)

[هود]

والدابة : كل ما يدب على الأرض ، وتستخدم في العرف الخاص للدلالة على أي كائن يدب على الأرض غير الإنسان . وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ .. ﴾ (٣٨)

[الأنعام]

وذكر الحق سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام أنه سُقِلَ - حينما كُفِّ - بخواطر عن أهله ، وتساءل : كيف أذهب لأداء الرسالة وأترك أهلي ؟

فأوحى له الله سبحانه أن يضرب حجراً فانفلق الحجر عن صخرة ، فأمره الحق سبحانه أن يضرب الصخرة ، فضربها فانفلقت ليخرج له حجر ، فضرب الحجر فانشق له عن دودة تلوك ^(١) شيئاً كأنما تتغذى به ، فقال : إن الذي رزق هذه في ظلمات تلك الأحجار كلها لن ينسى أهلي على ظهر

(١) لاك الشيء بلوكة لو كَأَ مَضَخَ . [اللسان : مادة (ل و ك)].

الأرض . ومضى موسى عليه السلام إلى رسالته .

وهذا أمر طبيعي ؛ لأن الحق سبحانه خالق كل الخلق ، ولا بد أن يضمن له استبقاء حياة واستبقاء نوع ؛ فاستبقاء الحياة بالقوت ^(١) ، واستبقاء النوع بالتزواج والمصاهرة .

إذن : فمن ضمن ترتيبات الخلق أن يوفر الحق سبحانه وتعالى استبقاء الحياة بالقوت ، واستبقاء النوع بالتزواج .

ولذلك نقول دائماً : يجب أن نفرق بين عظام الإله وعطاء الرب ، فالإله سبحانه هو رب الجميع ، لكنه إله من آمن به .

وما دام الحق سبحانه هو رب الجميع ، فالجميع مسئولون منه ؛ فالشمس تشرق على المؤمن وعلى الكافر ، وقد يستخرج الكافر من الشمس طاقة شمسية ويتفع بها ، فلماذا لا يأخذ المؤمن بالأسباب ؟

والهواء موجود للمؤمن وللکافر ؛ لأنه عطاء ربوبية ، فإن استفاد الكافر من الهواء ودرسه ، واستخدم خواصه أكثر من المؤمن ؛ فعلى المؤمن أن يجدد ويكثف في الأخذ بالأسباب .

إذن : فهناك عطاء للربوبية يشترك فيه الجميع ، لكن عطاء الألوهية إنما يكون في العبادة ، وهو يُخرجك عن مراداتك إلى مرادات ربك ، فحين تطلب منك شهواتك أن تفعل أمراً فيقول لك المنهج : لا . ^(٢)

(١) القوت : ما يمسك ائمة من الرزق . وفي الصحاح : هو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام . [لسان العرب : مادة (ق و ت)] .

(٢) وأصحاب المنهج الذين قاموا به وعليه ، يقول الله في حقهم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفَاءُوا تَتَرَكُّ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٢١) نَحْنُ أُولَئِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكُنتُمْ لَهَا مَاشْتَهِي أُنْفُسِكُمْ وَلَكُمُ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٢٢) تَرَى مِنْ عَفْوَ رَبِّهِمْ (٢٣)﴾ [فصلت]

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٣٢٣﴾

وفى هذا تحكم منك فى الشهوات ، وارتقاء فى الاختيارات ، أما فى الأمور الحياتية الدنيا ، فمطاء الربوبية لكل كائن ليستبقى حياته .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

[هود] ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (٦) .

وكلمة «على» تفيد أن الرزق حق للدابة ، لكنها لم تفرضه هى على الله سبحانه وتعالى ، ولكنه سبحانه قد الرّم نفسه بهذا الحق .

ويقول سبحانه :

[هود] ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ (٦) .

ولأنه سبحانه هو الذى يرزق الدابة فهو يعلم مستقرها وأين تعيش ؛ ليوصل إليها هذا الرزق .

والمستقر : هو مكان الاستقرار ، والمستودع : هو مكان الوديعة .

والحق سبحانه يُعلمنا بذلك ليطمئن كل إنسان أن رزقه يعرف عنوانه ، والإنسان لا يعلم عنوان الرزق .

فالرزق يأتى لك من حيث لا تحتسب ، لكن السعى إلى الرزق شىء آخر ؛ فقد تسعى إلى رزق ليس لك ؛ بل هو رزق لغيرك .

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٤/ ٣٣٢٤) : «الرزق حقيقته ما يتغذى به الحي ، ويكون فيه بقاء روحه ونماء جسده ، ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى الملك ، لأن البهائم ترزق وليس يصح وصفها بأنها مالكة لعلفها ، وهكذا الأمثال ترزق اللين ، ولا يقال : إن اللين الذى فى الثدي ملك للطفل .
وقال تعالى : ﴿وَلِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ (٥٦) [الذاريات] وليس لك فى السماء ملك ، ولأن الرزق لو كان ملكا لكان إذا أكل الإنسان من ملك غيره أن يكون قد أكل من رزق غيره ، وذلك محال ، لأن العبد لا يأكل إلا رزق نفسه» .

فمثلاً: أنت قد تزرع أرضك قمحاً فيأتي لك سفر للخارج ، وتترك قمحك ؛ ليأكله غيرك ، وتأكل أنت من قمح غيرك .
ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرُّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلُّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦) ﴾ [هود]

أى : أن كل أمر مكتوب ، وهناك فرق بين أن تفعل ما تريد ، ولكن لا يحكم إرادتك مكتوب ؛ فما يأتى على بالك تفعله ، وبين أن تفعل أمراً قد وضعت خطواته فى خطة واضحة مكتوبة ، ثم تأتى أفعالك وفقاً لما كتبه .

ومن عظمة الخالق سبحانه أنه كتب كل شيء ، ثم يأتى كل ما فى الحياة وفق ما كتب .

والدليل على ذلك - على سبيل المثال - أن الله سبحانه كان يوحى إلى رسوله بالسورة من القرآن الكريم ، وبعد ذلك يُسرى^(١) عن رسول الله ﷺ الوحى ، فيتلو السورة على أصحابه ، فمن يستطيع الكتابة فهو يكتب ، ومن يحفظ فهو يحفظ .

ثم يأتى الرسول ﷺ إلى الصلاة ، فيقرأ السورة كما كُتبتْ ، ويأتى كل نجم من القرآن فى مكانه الذى قاله النبى ﷺ لأصحابه ، فكيف كان يحدث ذلك ؟
لقد حدث ذلك بما جاء به الحق سبحانه ، وأبلغه لرسوله ﷺ :

﴿ سَنَقُرُّكَ فَلَا تَنْسَى (٦) ﴾ [الأعلى]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) السرية : انكشاف الوحى عنه ﷺ ، بما فيه من شدة تؤدى إلى أن يتصيب رسول الله ﷺ عرفاً .

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ
عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ
إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا
إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦٣﴾﴾

وقد تعرض القرآن الكريم لمسألة خلق الأرض والسماء أكثر من مرة .

وقلنا من قبل : إن الحق سبحانه وتعالى قد شاء أن يخلق الأرض
والسموات في ستة أيام من أيام الدنيا ، وكان من الممكن أن يخلقها في أقل
من طرفه عين بكلمة «كن» وعرفنا أن هناك فارقاً بين إيجاد الشيء ، وطرح
مكونات إيجاد الشيء .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - حين يريد الإنسان صنع «الزبادي» ،
فهو يضع جزءاً من مادة الزبادي - وتسمى «خميرة» - في كمية مناسبة من
اللبن الدافئ ، وهذه العملية لا تستغرق من الإنسان إلا دقائق ، ثم يترك
اللبن المخلوط بخميرة الزبادي ، وبعد مضي أربع وعشرين ساعة يتحول
اللبن المخلوط بالخميرة إلى زبادي بالفعل .

وهذا يحدث بالنسبة لأفعال البشر ، فهي أفعال تحتاج إلى علاج ، ولكن
أفعال الخالق سبحانه وتعالى لا علاج فيها ؛ لأنها كلها تأتي بكلمة «كن» .

أو كما قال بعض العلماء : إن الله شاء أن يجعل خلق الأرض
والسموات في ستة أيام ، وقد أخذ بعض المستشرقين من هذه الآية ، ومن

(١) العرش في اللغة : سرير الملك - وقد سمي سبحانه سرير ملكة سبأ بالعرش ، فقال سبحانه : ﴿... وَهِيَ
عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٧)﴾ [النمل] . وعرش الباري سبحانه لا يحده ذكره رب العزة في كتابه (٢١ مرة) مضافاً
إليه سبحانه .

(٢) ليلوكم : ليختبركم ، وهو أعلم بأمركم .
أحسن عملاً : أطوع لله وأروع عن محاربه . [كلمات القرآن] :

آيات أخرى مجالاً لمحاولة النيل من القرآن الكريم ، وأن يدعوا أن فيه تعارضاً ، فالحق سبحانه وتعالى هنا يقول :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ۖ ۝ (٧) ﴾ [هود]

وجاءوا إلى آية التفصيل وجمعوا ما فيها من أيام ، وقالوا : إنها ثمانية أيام ، وهى قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ^(١) ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ ^(٢) مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ^(٣) فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاتِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ^(٤) فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَفَضَّاهُنَّ ^(٥) سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ۖ ۝ (١٢) ﴾ [فصلت]

(١) الند : المثل والتظير . وجمعه : أنداد . وقال تعالى : ﴿ فَلَا تَحْمِلُوا لَكَ أَنْدَاداً ۖ ۝ (٢٢) ﴾ [البقرة] أى : أن لا شركاء . تعالى الله عما يقولون [القاموس القويم] بتصرف .

(٢) رسا الشئ : يرسو رسواً : ثبت ورسخ ، وأرساء : جعلته ثابتاً راسخاً ، وأرسى السفينة : ثبتها على الشاطئ ، فلا تسير . والمراد بالرواسى : الجبال لأنها تثبت الأرض حتى تستقر ولا تميل ، قال تعالى : ﴿ وَالتَّنْجِثُ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ۖ ۝ (٥٥) ﴾ [النحل] وقال تعالى : ﴿ وَالْحَسْبُ لَكُمْ آسَافُهَا (٢٦) ﴾ [التازعات] . [القاموس القويم - بتصرف] .

(٣) الأقوات : جمع قوت . وهو ما يمسك اللحم من الرزق . وفى الصحاح للجوهري : هو ما يقرم به بدن الإنسان من الطعام . [اللسان - مادة : قوت] .

(٤) ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ۖ ۝ (١٠) ﴾ [فصلت] . الدخان : بخار الماء المتصاعد منها حين خلقت الأرض . ذكره ابن كثير فى تفسيره [٩٣/٤] .

(٥) ففضاهن : خلقهن . فالفضاء هنا بمعنى الخلق . وهى من الكلمات التى تأتى على وجوه كثيرة من المعانى ، ومن معانيها :

الفراغ : ﴿ فَإِذَا فَضَّيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ ۖ ۝ (٥٥) ﴾ [البقرة] .

الامر : ﴿ وَإِذَا فَضَّيْنَا أَمْرًا ۖ ۝ (١٧) ﴾ [البقرة] .

العهد : ﴿ إِذْ فَضَّيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ۖ ۝ (١١) ﴾ [القصاص] .

الوصية : ﴿ وَفَضَّيْنَا إِلَيْكَ الْأَمْرَ ۖ ۝ (٢٧) ﴾ [الإسراء] .

وهنا قال بعض المستشرقين : لو كانت هذه هي قصة الخلق للأرض والسموات لطابقت آية الإجمال آية التفصيل.

وقال أحدهم : لنفرض أن عندى عشرة أرادب من القمح ، وأعطيت فلاناً خمسة أرادب وفلاناً ثلاثة أرادب ، وفلاناً أعطيته إردبين ، وبذلك ينقد^(١) ما عندى ؛ لأن التفصيل مطابق للإجمال .

وإدعى هذا البعض من المستشرقين أن التفصيل لا يتساوى مع الإجمال . ولم يفطنوا إلى أن المتكلم هو الله سبحانه وتعالى ، وهو يكلم أناساً لهم ملكة أداء وبيان وبلاغة وفصاحة ؛ وقد فهم هؤلاء ما لم يفهمه المستشرقون .

هم فهموا ، كأهل فصاحة ، أن الحق - سبحانه وتعالى - قد خلق الأرض في يومين ، ثم جعل فيها رواسي وبارك فيها ، إصافى الأرض أو فى الجبال ، وقدر فيها أقواتها ، وكل ذلك تنمة للمحدث عن الأرض .

ومثال ذلك : حين أسافر إلى الإسكندرية فأنا أصل إلى مدينة طنطا في ساعة - مثلاً - وإلى الإسكندرية في ساعتين ، أى : أن ساعة السفر التى وصلت فيها إلى طنطا هي من ضمن ساعتى السفر إلى الإسكندرية .

وكذلك خلق الأرض والرواسي وتقدير القوت ، كل ذلك فى أربعة أيام^(٢)

(١) نقد - يفقد تقدراً وتقادراً : فنى وذهب وانقطع ولم يبق ، من النفاذ ، وهو الانتهاء . وقال تعالى : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَفْءُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ يَافِءُ ۖ ﴾ [النحل] .

(٢) اليوم : فى علم الفلك الحديث مقدار دوران الأرض حول محورها مرة ، ومدته أربع وعشرون ساعة تقريباً ، وجمعه أيام - وأيام العرب : وقائهم الحربية . وأيام الله أيام خلقت فيها نعيم الله وعذابه على الأمم الماضية العاصية ، وأيامه التى أنعم فيها على أم مطيبة صالحة .

ويوم الدين : يوم القيامة . ويوم حزين : حدثت فيه موقعة حنين . واليوم عند الله مقداره يختلف عن اليوم عندنا فأحياناً يكون ألف سنة ، ولكل نجم يومه ، ولكل كوكب يومه . قال تعالى : ﴿ .. وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج] . وقد يكون المقدار خمسين ألف سنة ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ .. فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج] ، وبهذا التقدير نفهم معنى قوله تعالى فى خلق السموات والأرض : ﴿ فَفَضَّلْنَا مِنْ سَخِ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ۖ ﴾ [فصلب] قاله أعلم بمقدار هذين اليومين - [القاموس النورى - بتصرف] .

متضمنة يَوْمَى خَلَقَ الْأَرْضَ^(١) ، ثم جاء خلق السماء فى يومين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .. (٧) ﴾

[هود]

كل هذه المسائل الغيبية لها حجة أساسية ، وهى أن الذى أخبر بها هو الصادق ، فلا أحد يشك أن الأرض والسموات مخلوقة ، ولا أحد يشك فى أن السموات والأرض أكبر خلقاً من خلق الناس ، وليس هناك أحد من البشر ادعى أنه خلق الأرض أو خلق السموات .

وكل المخترعات البشرية نعرف أصحابها ، مثل : المصباح الكهربى ، والهاتف ، والميكروفون ، والتليفزيون ، والسيارة ، وغيرها .

ولكن حين نجىء إلى السموات والأرض لا نجد أحداً قد ادعى أنه قد خلقها .

وقد أبلغنا الحق سبحانه أنه هو الذى خلقها ، وهى لمن ادعاهما إلى أن يظهر معارض ، ولن يظهر هذا المعارض أبداً .

وكل هذا الخلق من أجل البلاء :

﴿ لِيَلْبِزَكُمْ^(٢) أَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .. (٧) ﴾

[هود]

(١) ولذلك قال أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه «فتح الرحمن بكشف ما يلبس فى القرآن» ص ٣٧٣ : «يوما خلق الأرض من جملة الأربعة بعدهما ، والمعنى فى تسعة أربعة أيام ، وهى مع يومى خلق السموات ستة أيام . يوم الأحد والاثنين لخلق الأرض ، ويوم الثلاثاء والأربعاء للجعل المذكور فى الآية وما بعده ، ويوم الخميس والجمعة لخلق السموات» .

(٢) بآوت الشيء - أيلوه بئوا وبلاء : امشحته واختبرته ، قال تعالى : ﴿ وَتَلْبِزْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً .. (٢٥) ﴾ [الأنبياء] أى : نختبركم بالشر والنعم ، أو بالخير والنعم ، لنعلم مدى صبركم أو شكركم ومدى إيمانكم أو كفركم . وقوله تعالى : ﴿ هَٰذَا لَكُمْ تِلْكَ أَنفسُ مَا أَمْسَقْتُمْ .. (٣١) ﴾ [يونس] أى : نعرف حقيقة عملها الذى قدمته كما يعرف المختبر الشيء الذى يختبره . وقوله تعالى : ﴿ .. وَتَلَوْا خِيارَكُمْ (٣٣) ﴾ [محمد] . أى : نعرف صدقها من كذبها . ومن أغراض البلاء والابتلاء إظهار حقيقة العمل والتمييز بين العمل الحسن وغيره ، فهبتاً للثواب أو العقاب . [القاموس التوحيدي] بتصرف .

أى : ليختبركم أيكم أحسن عملاً^(١) ، ولكن من الذى يحدد العمل ؟
إنه الله سبحانه وتعالى .

وهل الحق سبحانه فى حاجة إلى أن يختبر مخلوقاته ؟
لا ، فالله سبحانه يعلم أزلاً كل ما يأتى من الخلق ، ولكنه سبحانه أراد
بالاختبار أن يطابق ما يأتى منهم على ما علمه أزلاً ؛ حجة عليهم .
وهكذا فاختبار الحق سبحانه لنا اختبار الحجة علينا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (٧)

[هود]

وهنا يصور الحق - سبحانه وتعالى - تكذيب المعاندين لرسول الله ﷺ ،
فهم يلقون بالألفاظ على عواهنها^(٢) من قبل أن تمر على تفكيرهم .
قلو أنهم قد مروا بهذه الكلمات على تفكيرهم ؛ لاستحالة منطقياً أن
يقولوها ؛

والرسول ﷺ يخبرهم ببلاغ الحق سبحانه وتعالى لهم بأنهم مبعوثون من
بعد الموت .

(١) عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ تلا : ﴿ إِنَّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .. ﴾ (٧) [هود] . قال : « أيكم أحسن عملاً ،
وأورع عن محارم الله ، وأسرع فى طاعة الله » أورد القرطبي فى تفسيره (٤/٣٣٢٧) والسيوطى فى
الدر المنثور (٤/٤٠٤) وعزاه لابن جرير الطبري وابن أبى حاتم والحاكم فى التاريخ وابن مردويه بنحوه .
(٢) ألقى الكلام على عواهنه : لم يتدبره ، وقيل : هو إذا لم يهتم أصاب أم أخطأ ، وقيل : إذا تهاون به .
وقال ابن الأثير : العوامن أن تأخذ غير الطريق فى السير أو الكلام ، جمع عامنة . وعهن الشيء : أى :
أرسل الكلام على ما حضر منه وعجل ، من خطأ وصواب . أى : عدم التفكير فى الكلام قبل التلفظ به
والقائه على علته ، [اللسان : مادة (ع هـ)] يتصرف .

وهذا كلام إخباري بأنهم إن ماتوا - وهم سيموتون لا محالة - سيبعثهم الله سبحانه ، فما كان منهم إلا أن قالوا :

﴿ .. إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (٧) [هود]

والخبر الذي يقوله لهم هو خبر ، فما موقع السحر منه ؟ إنهم يعلمون أنه ﷺ لم يقل ذلك إلا من نص القرآن الكريم ، وهم يقولون عن القرآن الكريم إنه سحر ، فكأن النص نفسه من السحر الذي حكموا به على القرآن .

وأوضحنا من قبل أن إبطال قضية السحر في القرآن الكريم دليله منطقي مع القول ؛ لأنهم إن كانوا قد ادعوا أن رسول الله ﷺ أو أن محمداً - في عرفهم - قد سحر القوم الذين اتبعوه .

فالساحر له تأثير على المسحور ، والمسحور لا يدخل له في عملية السحر ، فإذا كان محمد قد سحر القوم الذين اتبعوه ، فلماذا لم يسحر هؤلاء المنكرين لرسائله ؛ بنفس الطريقة التي سحر بها غيرهم ؟

وحيث إنهم قد بقوا على ما هم عليه من عناد لرسول الله ﷺ ، فهذا دليل على أن المسألة ليست سحراً ، ولو كان الأمر كذلك لسحروهم جميعاً .

وقولهم : ﴿ .. إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (٧) [هود]

يدل على أنه سحر محيط ، لا سحر لأناس خاصين ، فكلمة ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ تعني : سحراً محيطاً بكل من يريد سحره .

وبقاء واحد على الكفر دون إيمان برسول الله يدل على أن المسألة ليست سحراً .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَمَّا أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَيَّ أُمَّةً مَعْدُودَةً لَّيَقُولُنَّ﴾^(١)
 ﴿مَا يَحْسِبُهُمْ﴾^(٢) الْيَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ^(٣)
 مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

وساعة نجد ﴿لَمَّا﴾ فافهم اللام الأولى التي بعد «و» إنما جاءت ؛ لتدل على أن الكلام فيه قسم مؤكد ، وإن كان محذوفاً ، واكتفى باللام عن القسم ، وتقديره : «والله لئن» .

والقسم يأتي لتأكيد المقسم عليه بالمقسم به ، وتأكيد المقسم عليه إنما يأتي لأن هناك من يشك فيه .

فأنت لا تقسم لإنسان تلقاه وتقول له : والله لقد كنت عند فلان بالأمس . .

(١) الأمة : اسم مشترك ، يقال على ثمانية أوجه :

١- فالأمة تكون الجماعة ، كقوله : ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ ﴿٢٧﴾ [القصاص] .

٢- والأمة : أتباع الأنبياء عليهم السلام .

٣- والأمة : الرجل الجامع للخير الذي يقصد به ، كقوله تعالى : ﴿إِن إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ ﴿١٢٥﴾ [التحل] .

٤- والأمة : الدين والملة ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ ﴿٢٢٢﴾ [الزخرف] .

٥- والأمة : الحين والزمان ، كقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِثْنَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ ﴿٨﴾ [هود] .

٦- والأمة : القامة ، وهو طول الإنسان وارتفاعه .

٧- والأمة : الرجل المفرد بدينه وحده ولا يشركه فيه أحد . قال النبي ﷺ : «يبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده» .

٨- والأمة : الأم . يقال : هلم أمة زيد ، يعني : أم زيد .

[راجع تفسير القرطبي (٣٣٢٧/٤) ، ولسان العرب] .

(٢) أمة معدودة : إلى أمد محدود أي : أجل محدد . والأمة في هذا الموضع : الأجل والحين . وقال تعالى في سورة يوسف : ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ ﴿٢٥﴾ [يوسف] .

(٣) يحاسبهم : يمتحنهم .

(٤) حاق بهم : نزل بهم ، وأحاط بهم . وقال تعالى : ﴿... وَخَلَقَ بَالِغًا لِّرَغْوَنَ سَوَاءِ الْعَذَابِ﴾ ﴿٢٢٤﴾ [غافر] .
 [مختصر تفسير الطبري] بتصريف .

إذن: فالقسم يأتي لشك طراً^(١) عند السامع ، وأنت لا تقسم ابتداء .

ويأتي القسم على مقدار مراتب الشك ، وتأكيذاً بأدواته .

والقرآن الكريم يقول هنا :

﴿ وَلَقَدْ أَخْرَنَّا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مُّعْدُوْدَةٍ ۖ ۝ (٨) ﴾ [مرد]

فالوار هنا هي واو القسم ، وهنا أيضاً شرط ، والقسم يحتاج لجواب ، والشرط أيضاً يحتاج إلى جواب .

وإذا اجتمع الشرط والقسم في بلاغة الأسلوب تكتفى بجواب واحد ، مثلما نقول : « والله إن فعلت كذا لأفعلن معك كذا » .

وهكذا يُغنى جواب القسم عن جواب الشرط . والمتقدم سواء أكان قسماً أو شرطاً هو الذي يغنى جوابه عن الآخر .

مثلما نقول : « والله إن جاء فلان لأكرمه » ، فالقسم هنا متقدم ، وأغنى جوابه عن جواب الشرط . وإن قلت : إن جاءك فلان والله لتكرمه ، فهنا الشرط هو المتقدم .

والاثنان متحدان ، لكن غاية ما هناك أن القسم تأكيد والشرط تأسيس ، فإذا تقدم ذو خبر على الاثنين - على الشرط وعلى القسم - نأتي بجواب الشرط فوراً ، مثلما نقول : « زيد والله إن جاءك أكرمه » ؛ لأن الشرط كما قلنا تأسيس ، والقسم تأكيد ، ويرجع هنا الشرط ، لأن التأسيس أولى من التأكيد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَخْرَنَّا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مُّعْدُوْدَةٍ لِّقَوْلِنَّ مَا يَخِبُهُ ۖ ۝ (٨) ﴾ [مرد]

(١) طراً الشك : حدث ووقع في عقل السامع مما يستدعي من التكلم أن يقسم على ما يقول ليصدقه سامعه .

والجواب هنا للقسم ، وهو يغنى عن جواب الشرط.

أى : أن العذاب يُؤخَّر .

وقد أوعد الحق - سبحانه - الكافرين بمحمد ﷺ بأن يعذبهم ، وكان العذاب للأمم السابقة هو عذاب استتصال ، منهم من أرسل الله سبحانه عليه عاصفة ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من أغرقه ، ومنهم من خسف^(١) به الأرض .

فكان مهمة الرسل السابقين أن يبلغوا الدعوة ، ثم تتولى السماء تأديب الكافرين بالرسالات .

ولكن الحق سبحانه وتعالى قد شاء أن يفضل أمة محمد ﷺ على الأمم كلها ، وأن تعذب الكافرين في المآرك .

وحين يتوعدهم الرسول ﷺ بعذاب ، فللعذاب ميلاد ، وقد يؤخَّر ليرى المحيطون بالكافرين الضلال والفساد ، فإذا ما وقع عذاب الله سبحانه على هؤلاء الكافرين ، قلن يحزن عليهم أحد .

وهكذا أراد الله سبحانه الإمهال والإملاء^(٢) ليكون لهما معنى واضح في الحياة ، والإملاء للظالم^(٣) ؛ لتزداد مظالمه زيادة تجعل الأمة التى يعيش فيها

(١) قال عز وجل : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَيَكُونَ كَلِمَتُهُمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا كَلِمَةً ﴾ [التكوير] ، أما الذين عذبوا بالحاصب - وهى الريح العاتية الشديدة البرد الحاملة لخصباء الأرض - فهم قوم عاد .

أما ثمود فقد أخذتهم الصيحة ، وأما من عوقب بالخسف فهو فارون ، وأما من عوقب بالغرق فهو فرعون ووزيره هامان وجودهما ،

(٢) الإملاء : الإرجاء والإمهال . قال تعالى : ﴿ وَأَمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي شَتَّى ﴾ [الأعراف] . [المعجم الوسيط] بتصرف .

(٣) عن أبى موسى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إِنْ أَلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِيُعْلَى لِلظَّالِمِ ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ . ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود] أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٢) البر والصلة .

تكره ظلمه ، فإذا وقع عليه عذاب ، لا يعطف عليه أحد .

ونحن نعلم أن النفس البشرية بنت المشهد ، فحين يُقتل واحد وتمر سنوات على قضيته ، ثم يصدر الحكم بإعدامه ، فالناس تنسى لذعة القتل الأول ، وتعطف على القاتل حين يصدر الحكم بإعدامه .

ولذلك أتول دائماً :

إن من دواعي استمرار الجرائم إبطاءات المحاكمة ، تلك الإبطاءات التي تجعل عواطف الناس مع المجرم ؛ لأن مشهد المقتول أولاً قد انتهى من ذاكرتهم .

ولكن لو استحضر الناس - وقت العقوبة - ظرف الجريمة ؛ لفرحوا بالحكم على القاتل بالقتل .

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - حينما يريد أن يعذب أحداً يقول :

﴿ . . . وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ ^(١) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦) ﴾ [النور]

وذلك ليتم التعذيب أمام المجتمع الذي شقى بإفسادهم وشقى بمظالمهم ، فمن يُعذَّب على عرضه ، ويرى عذاب المعتدى فهو يُشقى .

وهنا يبين الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ : لقد توعدتكم بالعذاب . ونحن نبتن العذاب بالإمهال لهم ، ولكنهم جعلوا من ذلك مناط السخرية والاستهزاء والتهكم ، وتساءلوا : أين هو العذاب ؟

ونحن نجد القرآن يقول على ألسنتهم :

(١) طائفة: جماعة . قيل : ثلاثة ، وقيل : أربعة ، عذبة شهود الزنا . والمراد بالعذاب في هذه الآية الكريمة هو حد الزنا لغير المعصن . وعام الآية ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٤) ﴾ [النور] . [تفسير الجلالين] بتصرف .

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٢٢﴾

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا^(١) قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (١٦)

[ص]

والقط : هو جزء العمل ، وهو مأخوذ من القط أى : القطع .

والعذاب إنما يتناسب مع الجرم ، فإن كانت الجريمة كبيرة فالعذاب كبير ، وإن كانت الجريمة صغيرة فالعذاب يكون محدوداً ، فكان العذاب موافقاً للجريمة .

ومن العجيب أن منهم من قال :

﴿..اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ

[الأنفال]

أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٢)

وجاء على ألسنتهم ما أورده القرآن الكريم فى قولهم :

﴿أَوْ تَسْقُطِ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا^(٢) ..﴾ (٩٢)

[الإسراء]

ولاشك أن الإنسان لا يتمنى ولا يرجو أن يقع عليه العذاب ، ولكنهم قالوا ذلك تحدياً وسخرية واستهزاء .

وشاء الحق سبحانه وتعالى ألا يعذب الكافرين المعاصرين لرسول الله ﷺ مثلما عذب الكافرين الذين عاصروا الرسالات السابقة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ..﴾ (٣٢)

[الأنفال]

فضلاً عن أن هناك أناساً منهم ستروا إيمانهم ؛ لأنهم لا يملكون القوة

(١) قِطَّنَا : أى : نصيبنا من العذاب الذى أوعدته . [كلمات القرآن للشيخ حسين محمد مخلوف] . وقط الشيء وقُطِطَ : قطعه . [المعجم الرسيط] .

(٢) كِسْفًا : قُطْعًا . [مختصر تفسير الطبرى] و[كلمات القرآن] . والكسفة (بكسر الكاف وسكون السين وفتح الفاء) : القطعة من الشيء . والجمع : كِسَفٌ ، وكِسَفٌ . وقد قرئت كِسْفًا بفتح السين ، وقرئت بكسبها . [المعجم الرسيط : مادة (ك س ف)] .

التي تمكنهم من مجابهة^(١) الكافرين ، ولا يملكون القوة ليرحلوا إلى دار الإيمان بالهجرة ، وحثمت عليهم ظروفهم أن يعيشوا مع الكافرين .

وهناك في سورة الفتح ما يوضح ذلك ، حين قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا ﴾^(٢) أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ^(٣) فَتَصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ^(٤) بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا^(٥) لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ [الفتح]

أى : لو تميز الكافرون عن المؤمنين لسلط الحق سبحانه العذاب الأليم على الكافرين ، لكن لو دخل المسلمون بجيشهم الذي كان في الحديبية على مكة ، ودارت هناك معركة ، فهذه المعركة ستصيب كل أهل مكة ، وفيهم المؤمنون المنشورون بين الكافرين ، وهم غير متحيزين في جهة بحيث يوجه المسلمون الضربة للجانب الكافر .

إذن : فلو ضرب المسلمون المقاتلون ، لضربوا بعضاً من المؤمنين^(٦) ،

(١) للمجابهة : أى : المواجهة والرد على الحصار . وقد جبهه : أى : صاك جبهته ، أو قابله بما يكره ، أو رده عن حاجته . [المعجم الوسيط] بتصرف .

(٢) الهدي : الهدى التى ساقها الرسول ﷺ لتحرر عند الحرم ، وهو من مناسك الحج . ومعكوفاً : معبوساً ومنوعاً عن الوصول إلى مكان التحرر وهو الحرم . [تفسير الجلالين وكلمات القرآن] بتصرف .

(٣) تطوهم : نهلكوهم مع الكفار .

(٤) معرة : مكروه ومشقة أو سبة .

(٥) تزيَّلوا : تميزوا من الكفار في مكة . [كلمات القرآن] للشيخ مخلوف .

(٦) لذلك قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا حُرِبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبِمَا قَاتَلْتُمُ الْكُفْرَ الْإِيمَانُ لَسْتُ بِمُؤْمِنًا تَتَحَوَّنَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِدَّ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ ﴿١٥﴾ [النساء] .

ومن أسباب نزول هذه الآية أن المفدادين الأسود قتل أعرابياً قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، فقال له رسول الله ﷺ : « كان رجل مؤمن يخفى إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه ، فقتلته » ، وكذلك كنت تخفى إيمانك بمكة قبله ، أورد ابن كثير في تفسيره (١ / ٩٤) وعزاه للزوار . وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢ / ٦٣٣) للدارقطني في الأفراد والطبراني من حديث ابن عباس .

وهذا ما لا يريد الحق سبحانه وتعالى .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَخْرَنَّا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مُعْدُودَةٍ... ﴾ (٨) [هود]

والأمة : هي الطائفة أو الجماعة من جنس واحد ، مثل أمة الإنس ، وأمة الجن ، وأمة النمل . . وغير ذلك من خلق الله .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَقْنَاهَا ﴾ (٢٨) فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ [الأنعام]

والأمة : طائفة يجمعها نظام واحد وقانون واحد ، وأفرادها متساوون في كل شيء ، فتكون كل واحدة من هذه الأمم . وهناك الأمة : الطائفة من الزمن . مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ ۚ بَعْدَ أُمَّةٍ... ﴾ (٤٥) [يوسف]

أي : أن هذا الذي تذكر بعد فترة من الزمن ، وقد تكون الفترة المسماة «أمة» ، هي الزمن الذي يتحمل جيلاً من الأجيال .

الأمة - إذن - هي جماعة وطائفة لها جنس يجمعها ، ولها تميزات أفرادية ، وهي تلتقي في معنى عام .

(١) ما فرطنا : أي : أن الجميع علمهم عد الله ، ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتديره سواء أكان برياً أو بعيراً ، قاله ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٣١) .

(٢) ادكر : أصلها ادتكر على وزن افعل ، فليت تاء الافتعال دالا وقال الفعل دالا ، وأدغمت الدالان . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ (١٧) [الشعراء] .

فأمة الإنسان هي حيوان ناطق مفكر ، وهناك قدر عام يجمع كل إنسان ، ولكن هناك تفاوتات في المواهب .

ولا توجد نفس بشرية واحدة تملك موهبة الهندسة والطب والتجارة والصيدلة والمحاسبة ؛ لأن كل حرفة من تلك الحرف تحتاج إلى دراسة .

ولا يملك إنسان من العمر ما يتيح له التخصص في كل تلك المجالات ؛ ولذلك يتخصص كل فرد في مجال ؛ ليعمل غيره فيه ، وغيره يتخصص في مجال آخر ويعمل الباقين ، وهكذا .

وفي هذا تكافل اجتماعي ، يشعر فيه كل فرد بأنه يحتاج للآخرين ، وأنه لا يستطيع أن يحيا مستقلاً بذاته عن كل الخلق .

ولو عسرف واحد كل الحرف التي في الدنيا ، من طب وهندسة وقضاء ، ومباكة ، ونجارة ، وزراعة ، وغيرها فلن يسأل عن الباقين ؟

لذلك شاء الله سبحانه وتعالى أن تلتحم المجتمعات ضرورة وقسراً ، لا تفضلاً من أحد على أحد .

والذي يكس الشارح أو يعمل في تنظيف الصرف الصحي لا يفعل ذلك تفضلاً ، بل يفعل ذلك احتياجاً ؛ لأنه يحتاج إلى العمل والرزق ؛ لأن جسمه يحتاج إلى الطعام ، وإلى الستر بالملابس ، وأولاده يطلبون الطعام والمأوى والملبس ، ولولا ذلك لما عمل في تلك المهنة .

وإذا أخلص في عمله فآله سبحانه يحبه فيها ، وإن ارتقت أحواله ، يظل في هذا العمل ؛ لأنه عشق إتقان مهنته .

ولقد رأيت رجلاً كان يعمل في هذه المهنة ، ويحمل الأثقال على كتفه ، وحين سمع الله عليه ، اشترى عربة يجرها حمار ليحمل فيها ما يترحه من تلك المجاري .

وحين وسَّعَ الله عليه أكثر ؛ اشترى سيارة فيها ماكينة شفط للقاذورات ، وصار يجلس على الكرسي ، ويدير «موتور» نزح المجارى لداخل خزان السيارة المخصص لذلك .

إذن : فارتباطات المجتمع لا بد أن تنشأ عن حاجة ، لا عن تفضُّل ؛ لأن التفضل ليس فيه إلزام بالعمل ، لكن الحاجة هي التي فيها إلزام بالعمل ؛ لتسير حركة الحياة .

ومن يعشق عمله على أى وضع كان ، يوفقه الله تعالى فيه أكثر ؛ لأنه احترام قدر الله تعالى فى نفسه ، ولم يستنكف^(١) ، ويعطيه الله سبحانه كل الخير من هذا العمل ، بقدر حبه للعمل وإخلاصه فيه .

وإن نظرت إلى العظماء فى كل مهنة مهما صغرت ، فستجد أن تاريخهم بدأ بقبولهم لقدر الله سبحانه وتعالى فيهم .

ونحن نعلم أن قيمة كل امرئ فيما يحسنه ؛ ولذلك تجد الأمة مكونة من مواهب متكاملة لا متكررة ، حتى يحتاج كل إنسان إلى عمل غيره .

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَرَقًا بِبَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا

سُخْرًى^(٢) .. (٣٢) ﴿ [الزحرف]

(١) الاستكاف : الاستكبار والامتناع وأن تأخذه الأنفة من فعل الشيء . ومنه قوله تعالى : ﴿لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْنَّاسُ أَنْ يَكُونَ عِندَ اللَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسُخْرِيهِمْ فَنَسُخْهُمْ إِلَىٰ جَمِيعًا﴾ (النساء) .

(٢) سُخْرًى : سُخْرًى فى العمل ، مستخدماً فيه . [كلمات القرآن] أى : يستخدم بعضهم بعضاً فى الأعمال المختلفة حسب إجماعة كل منهم لها . وقد جعل الله تعالى ذلك سبباً للمعاش فى الدنيا ؛ ليرابط الناس ويتألفوا ، ولا يمتزج كل منهم بعيداً عن الآخرين نضد الحياة .

لأن أحداً لا يسخر الآخر لعمل إلا إذا كان المسخر فى حاجة إلى هذا العمل .

ولذلك تجد من يطرق بابك ويسأل : ألا تحتاج إلى سائق ؟ ألا تحتاج إلى خادم ؟

وصاحب الحاجة هو الذى يعرض نفسه ؛ لعله يجيد العمل الذى يتقته .
ولذلك يجب ألا يتصور أهل أى إنسان أنه حين يخدم فى أى حرفة من الحرف أنه يخدم المخدوم ، لا . . إنه يخدم حاجة نفسه .
وهكذا تتربط الأمة ارتباط حاجات ، لا ارتباط تفضل .

وقد قال الحق سبحانه وتعالى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ^(١) .. (١٢٠) ﴾ [النحل]

لأن هناك مواهب متعددة قد اجتمعت فيه ، وهى مواهب لا تجتمع إلا فى أمة من الناس .

وكلمة « أمة » تطلق على الزمن ، وتطلق على الجماعة من كل جنس ، وتطلق على الرجل الجامع لكل خصال الخير .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَتِلْكَ آخِرُتَا عَنْهُمْ الْعَذَابُ إِلَى أُمَّةٍ مُّعَذَّوَةٍ ^(٢) .. (٨) ﴾ [هود]

وعادة ما تأتى كلمة « مُّعَذَّوَةٍ » لتنفيذ القلة ؛ مثل قول الحق سبحانه :

(١) سئل عبد الله بن مسعود عن الأمة القانت فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ .. (١٢٠) ﴾ [النحل] قال : الأمة معلم الخير ، والقانت : المطيع لله . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥٩٠) .
(٢) أمة معدودة : طائفة من الأيام قليلة . (كلمات للقرآن) .

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾^(١) (٢٠)
[يوسف]

وما دام الثمن بَخْساً فلا بد أن تكون الدراهم معدودة.

والسبب في فهمنا لكلمة ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ أنها تفيد القلة ، هو أننا لا نُقْبِلُ على عَدِّ شيء إلا مظنة أننا قادرون على عَدِّه ؛ لأنه قليل ، لكن مالا نُقْبِلُ على عَدِّه فهو الكثير.

ومثال ذلك : أن أحداً لم يعد الرمل ، أو الشجور .

ولذلك جاء قول الحق سبحانه :

﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ..﴾ (٣٤) [إبراهيم]

و«إن» - كما تعلم - تأتي للشك ، ونعم الله سبحانه ليست مظنة الحصر.

ورغم أن البشرية قد تقدمت في علوم الإحصاء فهل تفرغ أحد ليُحصي نعم الله ؟

طبعاً لا . . وبطبيعة الحال يمكن إحصاء السكان والعاملين في أي مجال أو تخصص .

وقديماً^(٢) كان القائمون على فتح صناديق النذور ليحسبوا ما فيها ، فيضعوا الورق من فئة المائة جنيه معاً ، والورق من فئة العشرة جنيهات

(١) شروه : باعوه . قيل : هم السيارة (القافلة) تبيعوا يوسف - عليه السلام - بثمن بَخْسٍ : قليل . وقيل : حرام ؛ لأنه كان حراماً عليهم لا يحل لهم أكل ثمنه . وكانوا فيه من الزاهدين : قيل : هم السيارة كانوا فيه زاهدين ؛ لا يفلحون كرامته على الله تعالى وثبوته . [مختصر تفسير الطبري].

وذكر الجلالان في تفسيرهما أن «بَخْسٍ» أي : ناقص . وأن الدراهم المعدودة عشرون أو اثنان وعشرون درهماً . وأن إخوته هم الذين كانوا فيه من الزاهدين ، فجاء به السيارة الذين اشتروه إلى مصر ، فباعه الذي اشتراه بعشرين ديناراً وزوجي محل وثوبين . [تفسير الجلالين] بتصرف .

(٢) ذكر فضيلة الإمام هذا العمل ؛ لأنه عرض عليه يوم أن كان وكيلاً للدعوة بوزارة الأوقاف .

معاً ، وكذلك بقية الفئات من الأوراق المالية ، إلى أن يصلوا إلى القروش ، فيقوموا بوزن كيلو جرام منها ، ويحسبوا كم قرشاً في الكيلو جرام ، ويزنوا بعد ذلك بقية القروش ؛ ليحسبوا المجموع على حساب عدد القروش التي حصروها في الكيلو جرام الأول .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿وَلَنُؤَخِّرَنَّهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لِّيَقُولُوا مَا يَحِبُّهُمْ ۖ﴾ [هود]

كانهم يتساءلون سخرية واستهزاء : لماذا يتأخر العذاب الذي توعدّهم به رسول الله ﷺ ؛ لأن الإنسان لا يتشوق إلى ما يؤلمه ، ولا يقال مثل هذا الكلام إلا على سبيل التهكم .

ويأتى الرد عليهم بأداة التنبيه ، وهي «ألا» أى : تنبّهوا إلى هذا الرد .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا ۚ عَنْهُمْ ۖ﴾ [هود]

وهذا تأكيد أن العذاب سيأتى ، ولكن العباد دائماً يعجلون .

والله سبحانه لا يعجل بعجلة العباد ؛ حتى تبلغ الأمور ما أراد ، وكل أمر له وقت وله ميلاد ، وسيأتيهم ما كانوا يستعجلون ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۚ﴾ [هود]

وقد جاء تأكيد وصول العذاب إليهم بأشياء : أولها : «ألا» وهي أداة تنبيه ، وكذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ ، وهذا خبر بأن العذاب أت لا محالة ؛ لأن الذى يخبر به هو الله سبحانه وتعالى .

(١) ليس مصروفاً : ليس مدفوعاً ، [تفسير الجلالين] .

وأيضاً فهذا العذاب : ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ .. (A)﴾ [هود]

أى : أنه عذاب مستمر .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿.. وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (A)﴾ [هود]

يعنى : أنه حل بهم ونزل عليهم ، ووقع لهم العذاب الذى استهزأوا به من قبل .

وتحن نعلم أن كلمة (حاق) فعل ماض ، والكلام على أمر مستعجل ، ويُعبّر عن الأمر المستعجل بالمضارع ؛ لأن الفعل المضارع يدل على الحال أو الاستقبال ، فكيف يستعجلون أمراً ، ويأتى التعبير عنه بالفعل الماضى ^(١) ؟

ولكن القائل هنا هو الله الحق سبحانه وتعالى ، والكلام مأخوذ بقانون المتكلم ، وكل فعل يُنسب إلى قوة فاعله ، والله سبحانه هو قوة القوى .

وقال الحق سبحانه وتعالى فى موضع آخر من القرآن :

﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (A)﴾ [النحل]

وكلمة «أتى» فى عرفنا اللغوى فعل ماض ، أى : أن الكلام جاء من المتكلم بعد وقرع النسبة خارجاً ، مثلما نقول : «نجح محمد» فهذا يعنى أن النجاح قد حدث بالفعل .

(١) هنا للتعبير بالماضى عن المضارع يصدر من مالك الزمن والمكان والحركة ، لتحقيق الوقوع ، وقد يُعبّر بالمضارع عن الماضى لتخفيف الحدث ، كما فى قوله تعالى عن مقالة إبراهيم لابنه إسماعيل : ﴿إِنِّى لَأَرَى فِي السَّمَاءِ آبَاءَكَ فَأَنْزَلْنَاهُ فَمَاذَا نَرَى .. (A)﴾ [الصافات] ، ومثل الأول قوله تعالى : ﴿لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (A)﴾ [النحل]

وحين يقول الله سبحانه: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ نفهم أن ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ نسبة كلامية سبقتها نسبة واقعية .

وقوله سبحانه بعد ذلك: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ يدل على أن الأمر لم يقع ، ولكن المتكلم هنا هو الله سبحانه وتعالى .

والمعنى أن الأمر واقع لا محالة ؛ ذلك لأن كل فعل إنما ينسب لقوة الفاعل .

ومثال ذلك من حياتنا - ولله المثل الأعلى - أنك قد ترغب في أن تنقل حقيبة ضخمة وثقيلة ، فيقول ابنك الشاب: دعني أحملها لك ، وهو يقول ذلك لأنه قادر على أن يحملها في زمن يناسب قوته .

وإن جاءك ابنك الصغير وقال: سأحملها أنا، فهل لن يحمل الحقيبة إلا في مقدار زمن يناسب قوته ، وهي قوة ضعيفة .

إذن: ففي المجال البشري أنت تحكم على الماضي ، وقد يكون الحكم صادقاً أو كاذباً ، ولكنك بالنسبة لأمر مستقبل ، لا تستطيع أن تحكم عليه ؛ لأنك لا تملك من المستقبل شيئاً .

أما إذا كان قائل الكلام قادراً على إنفاذ ما يقوله الآن في المستقبل ، ولا عائق يعوقه ، فاعلم أن الأمر قادم لا محالة .

وهنا نجد الإنخبار من الله سبحانه وتعالى ، ولا شيء في الكون يتأبى^(١) على الله سبحانه .

ومادام الحق سبحانه قد قال إنه أمرٌ قد أتى ، فهو آت لا محالة .

(١) أبى الشيء: يأبى من باب فرح إباء وإباءة: وأبى الشيء يأبىه - من باب ضرب - امتنع عنه وعمره ولم يرضه . قال الحق سبحانه: ﴿ فَاسْتَعِذُوا بِاللَّهِ إِنِّي أَعْلَمُ الْبُغْرَى ﴾ [البقرة] وقوله: ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْعِلَّةِ ﴾ [الأحزاب] وقوله: ﴿ وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَهُكُمْ نَجْرَةً ﴾ .. (٢) ﴿ [التوبة] وَيَأْتِي بِمَنْعٍ . القاسوس القوم بتصريف .

ولذلك قال سبحانه :

﴿وَحَاقَ بِهِمْ .. (٨)﴾ [هود]

مع أن السياق في العرف البشرى أن يقال : وسيحقيق بهم ما كانوا به يستهزئون ؛ لأنهم كانوا يستعجلون العذاب .

وجاء قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَحَاقَ﴾ لأن الأمر بالنسبة له سبحانه لن يحول بينه وبين وقوعه أى عائق .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ

إِنَّهُ لَيَتَوَسَّسُ كُفُورًا﴾^(١)

وهنا أيضاً تبدأ الآية الكريمة بقوله سبحانه : ﴿وَلَيْنَ﴾ وهذا يعنى أن اللام قد سبقت لتدل على القسم ، وكأنه يقول : لنن أذقنا الإنسان رحمة ، ثم نزعناها منه لوقع فى اليأس .

وهنا أيضاً قسم وشرط ، والقسم متقدم ، فالجواب يكون للقسم .

وكلمة ﴿أَذَقْنَا﴾ توضح أن الإذاقة محلها الأول الفم ، ومعناها : تناول الشيء لإدراك طعمه : حلوا أو مر ، لاذع أو غير لاذع ، فلولى أم حامض .

ومن العجيب فى دقة التكوين الإنسانى أن كل منطقة فى اللسان لها طعم تنفعل له ، فطرف اللسان يتفعل لطعم معين ، ووسط اللسان يتفعل لطعم آخر ، وجوانب اللسان تنفعل للطعم ثالث ، وهكذا .

(١) يتوسس : صيغة مبالغة من اليأس . أى : يظل يائساً قائماً من رحمة الله وغيره . وكفور : صيغة مبالغة من الكفر أى : قليل الشكر على النعم ، وكفران النعم هو حجبها وعدم شكر الله عليها . [مختصر تفسير الطبرى] بتصرف .

كل ذلك فى عضو واحد شاء له الحق سبحانه هذه الدقة فى التركيب .

وكل «حلمة» من مكونات اللسان لها شىء تحس به ؛ ولذلك نجد الإنسان يذوق الطعام ، فيقول : إن هذا الطعام ينقصه الملح ، أو يذوق الحلوى - مثل الكنافة - فيقول : إن السكر المحلاة به مضبوط .

وكذلك حرارة الجسم ، يقيس الإنسان حرارته ، فإن وجدها سبعة وثلاثين درجة ونصف الدرجة ؛ فيقول : إنها حرارة طبيعية . وإن نقصت حرارة الإنسان عن ذلك يقال : إنه مصاب بالهبوط . وإن ارتفعت يقال : مصاب بالحمى .

وهذا قياس للحرارة بالجلمة لجسم الإنسان ، ولها المنفذ الخاصة بها . ولكن كل عضو فى الجسم تلزمه درجة حرارة خاصة به ليؤدى عمله .

فالكبد إن قلَّت درجة حرارته عن أربعين درجة لا يؤدى مهمته . وجسم الإنسان فيه جوارح متعددة ؛ وحرارة العين مثلاً تسع درجات ؛ لأنها لو زادت حرارتها عن ذلك لانفجرت العين ، وحرارة الأذن ثمانى درجات .

وأنت لا تستطيع أن تأتى بأشياء مختلفة الحرارة وتضعها مع بعضها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء ذلك بالنسبة للجسم الإنسانى .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ ۖ ۞ (٩) ﴾

[هرد]

والذوق هو الإدراك^(١) ، لا للأكل ، فأنت حين تشتري فاكهة تقول لك البائع : «تفضل دُق» فتأخذ واحدة منها لتستطيب طعمها .

(١) الإدراك يكون بالحواس ، وبالإدراك يحصل الانفعال الوجدانى ، وعن طريق الوجدان يكون الاختيار ، فالذوق هو تناول الشئ لإدراك طعمه فيحصل الاختيار .

فالذوق - إذن - هو تناول الشيء لإدراك طعمه .

والنعمة ^(١) حين يشاء الحق سبحانه وتعالى أن تصيب الإنسان ، ثم تُنزع منه ، هنا يصاب الإنسان بالقلق أو الحزن أو الهلع ، أو اليأس .

والنعمة مهما قلّت فالإنسان يستطيعها ، وإن نُزعمت منه فهو يثوس كفور .

واليأس : هو قطع الأمل من حدوث شيء ، ولأن الإنسان لا يملك القلب ، ولو كان يقدر عليه لما يثس .

والمؤمن لا ييأس أبداً ، لأن الله سبحانه هو القائل :

﴿ .. إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحٍ ^(٢) اللَّهُ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ [يوسف]

اليأس - إذن - هو أن تقطع الأمل من أمر مراد لك ، ولا تملك الوسائل لتحقيقه .

والذي ييأس هو الذي ليس له إله يركن إليه ؛ لأن الله تعالى هو الركن الرشيد الشديد ، والمؤمن إن فقد شيئاً يقول : «إن الله سيعوّضني خيراً منه» .

أما الذي لا إيمان له بإله فهو يقول : «إن هذه الصدقة قد لا تتكرر مرة أخرى» .

(١) نَعِمٌ يَتَنَعَّمُ فهو ناعِمٌ ، من باب فرح ، وماتى من باب كرم ، نعمة ونعمة بفتح التون وكسرها . ونعيماً كأن في رغد من العيش ، وفي تنعم به . والنعيم ما يتلذذ به من مأكّل وملبس وصحة ، يقول الحق : ﴿ .. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٠) ﴾ [يونس] أى : التي فيها كل نعيم . والنعمة بالفتح : النعيم ، ونطاق على ما يتمتع به الإنسان من وسائل الرفاهية . يقول الحق : ﴿ وَتُؤْتَى الْأَمْكَانِينَ أُولَى النَّعْمَةِ .. (١١) ﴾ [الزمل] في الدنيا ، والنعمة بكسر التون . مصدر بمعنى النعيم . ونطلق على المتاع والخير الذي يتمتع به الإنسان يقول الحق : ﴿ إِنَّكُمْ تَقْدُرُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصِيهَا .. (٣٩) ﴾ [النحل] القاموس القويم . بتصرف .

(٢) روح لله : رحمة وفرجه ، ولطفه بالعباد بإزالة كربهم . [كلمات القرآن] بتصرف . واليأس هو انقطاع الأمل ، ولا يتقطع أمل الإنسان في الله سبحانه وتعالى إلا إذا كان كافراً .

فالإنسان الذي يُسْرِقُ منه جنيته قد يحزن ، ولكن إذا ما كان عنده في المنزل عشرة جنيهاً فهو يحزن قليلاً على الجنيته المفقود .

والإنسان لا ييأس إلا عند عدم يقينه بمصدر يرد عليه ما يريد ، ولكن حين يؤمن بمصدر يرد عليه ما يريد فلا تجده يائساً قانطاً .

والمؤمن يعلم أن النعمة لها واهب ، إن جاءت شكر الله عليها ، وإن سُلبت منه ، فهو يعلم أن الحق سبحانه قد سلبها الحكمة ^(١) .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ۖ ۞٩ ﴾ [هود]

وتحن نعلم أن الإنسان مقصود به كل أبناء آدم - عليه السلام - وهم كثيرون ، منهم المؤمن ، ومنهم الكافر .

وهنا تأتي كلمة «الإنسان» على إطلاقها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يستثنى المؤمن في موضع آخر حين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ۖ ۞٤ ﴾ [العصر]

والإنسان مفرد يدل على الإنسان في كل مدلولاته ، ويستثنى من نوع الإنسان من آمن به .

فإن رأيت كلمة إنسان فاعلم أن المراد بالإنسان أفراد الإنسان كلهم .

(١) عن صهيب الرومي قال قال رسول الله ﷺ : «عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن» . إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٩٩) .

(٢) الخسر : الهلاك والبعضان .

والإنسان لو عزل نفسه عن منهج الله تعالى فهو في خسران إلا إذا اتبع منهج الله ، فالمنهج يحميه من الزلل ، وتسير غرائزه إلى ما أراد الحق سبحانه لها .

فقد خلق الحق سبحانه الغرائز لمهام أساسية ، فغريزة الجوع تجعل الإنسان يطلب الطعام ، والعطش أراده الله سبحانه وتعالى ليتبى الإنسان إلى طلب الارتواء بالماء .

وغريزة بقاء النوع تدفع الإنسان للزواج ، وغريزة حب الاستطلاع هي التي تدفع الإنسان إلى كشف المخترعات .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل عن السادين عن استكشاف آيات الله تعالى :

﴿وَكَايِن مِّنْ آيَةٍ ۖ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٥) [يوسف]

والباحث العلمي التجريبي المعمل ينفذ في ظواهر الكون ليستطلع أسرار الكون .

وهناك فارق بين حب الاستطلاع لاكتشاف أسرار الكون ، وحب الاستطلاع لأخبار الناس .

إن حب الاستطلاع عموماً هو مدار التفقاءات الكون ، ولكن الدين والمخلق هو الذي يوجه حب الاستطلاع .

(١) وكايِن . بمعنى «وكم» . وآية هنا : عبرة وحجة ، كالشمس والقمر وغيرهما من آيات الله سبحانه وتعالى ، يرونها ويعاينونها ولا يفكرون فيها : [مختصر تفسير الطبري] .
وقد أخرج أبو الشيخ الأصبهاني عن الضحاك في تفسير معنى الآية : يعني شمسها وقمرها ونجومها وسحابها . وفي الأرض ، ما فيها من الخلق والأنهار والجبال والمدائن والقصور . ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/٥٩٣) .

إذن: فالقرائن لها مهمة يجب ألا تنفك إلى غيرها ، والدين قد جاء ليعلى من الفرائض ويوجهها إلى مهامها .

لذلك نحمد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾^(١) .. (١٢) [الحجرات]

أى: لا تتبعوا العورات^(٢)؛ لأننا لو أبحنا لواحد أن يتتبع عورات الناس ؛ لأبحنا لكل الآخرين أن يتتبعوا عوراته .

وحين منع الحق - سبحانه وتعالى - الإنسان من تتبع عورات غيره ، فهو قد حماه من تتبع عوراته .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ .. (٩) [معد]

وكلمة «النزع» تفيد أن الإنسان حريص على ما وهبه له الله تعالى من خير وصحة وعافية وسر . وحين تؤخذ منه النعمة فهو يقارم .

والنزع يعنى : استمساك المتزوع منه بالشئ المتزوع .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى سورة آل عمران :

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ .. (٢٦) [آل عمران]

(١) لا تجسسوا: أى: لا تجسسوا، حذف منه إحدى التاءين - لغرض بلاغى - والمراد: عدم تتبع عورات الناس ومعاليهم بالبحث عنها . [تفسير الجلالين] بصرفه .

(٢) العورة: ما يستتره الإنسان من جسمه حياة . والعورة: الخلل والمعييب . والبيت عورة: أى فيه خلل وقوله: ﴿يَقُولُونَ إِنَّا بَنَيْنَا عِوَرَةً﴾ .. (٣٢) [الأحزاب] أى: فيها خلل يخشى أن يدخل الأعداء منه ، وذلك ليرجعوا عن الجهاد ، القاموس القويم باختصار .

كَانَ الْمَوْجُودُ فِي الْمَلِكِ يَتَشَبَّهُ بِهِ جِدًّا .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا ^(١) مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ^(٢) ﴾ [هود]

وفي نفس السورة يأتي الاستثناء ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ^(٣) ﴾

[هود]

وسنأتي لها بالخواطر من بعد ذلك :

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - في المقابل لمن نُزِعَتْ منه الرحمة

واليثوس الكفور :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً ^(٤) بَعْدَ ضَرَاءٍ ^(٥) مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ^(٦)
ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ^(٧) إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ^(٨) ﴾

وهنا نجد الضراء هي الموجودة ، والنعماء هي التي نظراً ، عكس الحالة

الأولى ، حيث كانت الرحمة - من خير ويسر - هي الموجودة .

(١) المقصود الرحمة التي أنعم الله بها عليه .

(٢) النعماء : أثر النعمة على بدن وحياة الإنسان ، فتكون ملازمة له .

(٣) الضراء : أثر الفقر والشدة . وقال تعالى : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ .. ﴾ [البقرة]

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخْلَقْنَاهُمْ بِالنَّاسِ وَالضَّرَاءِ .. ﴾ [الأنعام] .

ومست : أصابت ، [تفسير الجلالين] ومختصر تفسير الطبري [يتصرف] .

(٤) السيئات : المصائب والشدائد والعسر .

(٥) فرح : صيغة مبالغة من الفرح وهو البطر بالنعمة [كلمات القرآن] .

(٦) مخور : صيغة مبالغة من الفخر ، أي : كثير الفخر بما نال من الناس ، وفخور على الناس بما أوتي ، وغير

شاكر لله تعالى على نعمه . [مختصر تفسير الطبري] ، وتفسير الجلالين [يتصرف] .

فالتزع في الأولى طراً على رحمة موجودة ، والنعماء طرأت على ضراء موجودة .

وهناك فرق بين نعماء ونعمة ، وضراء وضر ؛ فالضر هو الشيء الذي يؤلم النفس ، والنعمة هي الشيء الذي تنعم به النفس .

لكن التنعم والألم قد يكونان في النفس ، ولا ينضح أى منهما على الإنسان ، فإن نضح على الإنسان أثر النعمة يقال فيها «نعماء» ، وإن نضح عليه أثر من الضر يقال : «ضراء» .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي .. ﴾ (١٠)

[هود]

ولا يفتن من يقول ذلك إلى المذهب الذي أذهب السيئات ؛ لأن السيئة لا تذهب وحدها .

ولو كان القائل مؤمناً لقال : رفع الله عني السيئات .

لكنه غير مؤمن ؛ ولذلك يفرق في فرح كاذب وفخر لا أساس له .

ويصفه الحق سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ .. إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴾ (١٠)

[هود]

وكان الفرح بالنعمة أذهله^(١) عن المتعم ، وعمن تزع منه السيئة .

وأما الفخر ، فنحن نعلم أن الفخر هو الاعتداد بالنائب^(٢) ، وقد تجد

(١) الذمور عن الشيء : أن يشغلك عنه أمر آخر . ذمل عن الشيء : تركه على عمد أو غفل عنه أو نسيه لشغل . [اللسان ، مادة : ذمل] .

(٢) مناقب : جمع منقبة ، وهي كرم الفعل . وكرم المناقب : حسن الخلق كرم أفعال . [اللسان] بتصرف .

إنساناً يتفاخر على إنسان آخر بأن يذكر له مناقب وأمجاداً لا يملكها الآخر .

ونحن نعلم أن التمييز لفرد ما يوجد في المجتمع ، ولكن أدب الإيمان يقرض ألا يفخر الإنسان بالتمييز .

ولذلك نجد النبي ﷺ يقول : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»^(١) .

وفي إحدى المعارك نجده ﷺ يقول :

«أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب»^(٢) .

وقد اضطر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك ؛ لأن الكافرين في تلك المعركة ظنوا أنهم حاصروه هو ومن معه وأنه سوف يهرب ، لكنه ﷺ بشجاعته أعلن :

«أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب»^(٣) وكان أقرب المسلمين إلى مكان الأعداء الكافرين وفي مواجهتهم .

ونحن نجد المتصارعين أو المتنافسين ، واحدهم يدخل على الآخر بصوت ضخم ليهز ثقة الطرف الآخر بنفسه .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٧٨) والبيهقي في دلائل النبوة (٤٧٦/٥) من حديث أبي هريرة . وعند الحاكم في مستدركه (٦٠٤/٢) وصححه من حديث جابر بن عبد الله بلفظ : «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» دون ذكر يوم القيامة .

(٢) نسب رسول الله ﷺ نفسه إلى جده عبد المطلب ، لا إلى أبيه عبد الله ، فقد كان عبد المطلب مشهوراً شهرة ظاهرة شائعة ، وكان سيد أهل مكة ، وكان مشهوراً عندهم أن عبد المطلب بُشِّرَ بالنبي ﷺ ، وأنه سيظهر ، وسيكون شأنه عظيماً ، فلما أراد النبي ﷺ تذكيرهم بذلك وتبهيهم بأنه ﷺ لا بد من ظهوره على الأعداء ، وأن العاقبة له لتقوى نفوسهم نقله الثوري في شرحه لصحيح مسلم (٣٦٠/١٢) .

(٣) وذلك أن رجلاً سأل البراء بن عازب : أوردتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال البراء : ولكن رسول الله ﷺ لم يفر ، وكانت هوازن يومئذ رسالة ، وإننا لما حملنا عليهم انكشفوا ، فأكبنا على الغنائم فاستقبلونا بالسهم ، ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء ، وإن أبا سفيان بن الحارث أخذ بلجامها ، وهو يقول : «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب» .

أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٧٦) كتاب الجهاد ، والبخاري في صحيحه (٤٣١٧) من حديث البراء بن عازب .

والفخور إنسان غائب بحجاب الغفلة عن واهب المناقب التي يتفاخر بها ، ولو كان مستحضراً لجلال الواهب لتضاءل أمامه ، ولو اتجهت بصيرة المتكبر والفخور إلى الحق سبحانه وتعالى لتضاءل أمامه ، ولردَّ كل شيء إلى الواهب .

ومثال ذلك في القرآن الكريم هو قول الحق سبحانه على لسان صاحب موسى عليهما السلام :

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ ^(١) عَنْ أَمْرِى . . (٨٩)﴾ [الكهف]

وهذا سلوك العابدين المتواضع .

أما حال الفخورين اللاهين عن الحق سبحانه وتعالى ، فقد صورهُ القرآن في قول قارون :

﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ ^(٢) عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي . . (٩٨)﴾ [القصص]

ركان مصيره هو القول الحق :

﴿لَخَسَفْنَا ^(٣) بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ . . (٨١)﴾ [القصص]

ولذلك قلنا : إنك تحصن كل نعمة عنك بقولك عند رؤيتها : «بسم الله ما شاء الله » ؛ لتذكر أن هذه النعمة لم تأت بجهدك فقط ، ولكنها جاءت لك أولاً بمشيئة الله سبحانه وتعالى ، وذلك لتبقى عين الواهب حارسة للنعمة التي عنك .

(١) القصص ما فعله الخضر عليه السلام من : خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار الذي كان سينهار .

(٢) أوتيته : أى : اكتسبته . يقصد المال الذي رزقه الله إياه ، ولكن قارون ادعى أن علمه هو الذي جلب له المال ، فكفر بنعمة الله عليه ، فاستحق عقاب الله .

(٣) الخسف : خسف الله الأرض : جعلها تهبط وتغور يقول الحق : ﴿لَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ . . (٨١)﴾ [القصص] وخسف القمر : نقص نوره ، وخسوف الشمس يقع في أواخر الشهر المسمى في أيام الحجاز ، وسببه توسط القمر بين الأرض والشمس ، فيحجب القمر الشمس ، فإن كان الخجب كلياً كان خسوفاً ، وإن كان جزئياً كان كسوفاً . وجاء في اللسان الخسف : سؤخ الأرض بما عليها أى : ابتلاعها ما فوقها . وخسف الله به الأرض أى : أغابها فيها . الغاموس الغريم باختصار .

أما حين تنسى الواهب فلن يحفظ تلك النعمة لك .

ونحن نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى لم يمنع الفرح المنبعث عن انشراح الصدر والسرور بنعمة الله بل طلبه منا في قوله سبحانه :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ قَبْدَلكَ فَلْيَفْرَحُوا ۖ ۝٥٨ ﴾ [يونس]

ولكن الحق سبحانه يطلب من المؤمن أن لا يكون الفرح المنبعث لأنفسه الأسباب ، والملازم له ، وإلا كان من الفرحين الذين ذمهم الله تعالى ^(١) .

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٥٩ ﴾

وكلمة ﴿صَبَرُوا﴾ ^(٢) هنا موافقة للأميرين اللذين سبقا في الآيتين السابقتين ، فهناك نزع الرحمة ، وكذلك هناك «نعماء» من بعد «ضرأء» ، وكلا الموقفين يحتاج للصبر ؛ لأن كلا منا مقدور للأحداث التي تمر به ، وعليه أن يصبر للمنحظية حكمة القادر سبحانه .

وبدأ الحق سبحانه وتعالى هذه الآية بالاستثناء ، فقال جل وعلا :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ۖ ۝٦٠ ﴾ [هود]

(١) فقال عن قوم موسى أنهم قابوا المقرون : ﴿ لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ٦١ ﴾ [القصص] أى .
الآشرين البطرين اللذين لا يعترفون بنعمة الله عليهم . وقال تعالى : ﴿ لا تكبلا نأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ٦٢ ﴾ [الحديد] .

(٢) واللذين صبروا ماضياً ، وصابروا حالاً ومستقبلاً هم أهل الفلاح مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يسألها الدين
آمنوا أصبروا وصابروا وراغبوا وأتقوا الله نعلكم نفعون ٦٣ ﴾ [آل عمران]

ولولا هذا الاستثناء لكان الكل - كل البشر - ينطبق عليهم الحكم الصادر في الآيتين السابقتين . حكم باليأس والكفر ، أو الفرح والفخر دون تذكُّر واهب النعم سبحانه .

ولكن هذا الاستثناء قد جاء ليُطمئن الذين صبروا على ما قد يصيبهم في أمر الدعوة ، أو ما يصيبهم في ذواتهم ؛ لا من الكافرين ؛ لكن بتقدير العزيز العليم .

أو أنهم صبروا عن عمل إخوانهم المؤمنين .

إذن : فالصبر معناه حدُّ النفس بحيث ترضى عن أمر مكروه نزل بها ^(١) .
والأمر المكروه له مصادر عدة ، منها :

« أمر لا غريم ^(٢) لك فيه كالمرض مثلاً .

« أو أن يكون لك غريم في الأمر ؛ كأن يُسرق منك متاع ، أو يُعتدى عليك ، وفي هذه الحالة تنشغل برغبة الانتقام ، وتتأجج نفسك برغبة النيل من هذا الغريم ، أكثر مما تتأجج في حالة عدم وجود الغريم ، فحين يمرض الإنسان فلا غريم له .

وفي حالة الرغبة في الانتقام فالصبر يختلف عن الصبر في حالة عدم وجود الغريم .

ولذلك عرض الحق سبحانه وتعالى لتأثي الصبر حسب هذه المراحل ،
فُسَيِّدُنَا لَقَمَان يَقُول لِابْنِهِ :

(١) ويكون الصبر مطلوباً أيضاً عند امتناع النعمة امتحاناً لإيمان المؤمن فعن أبي سعيد الخدري أن نساء من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سأله فأعطاهم ، حتى نفذ ما عنده ، فقال لهم حين أُنقِ كل شيء بيده : « ما يكن عدى من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أُعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » مشفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٧٠) ومسلم في صحيحه (١٠٢٣) كتاب الزكاة .

(٢) الغريم : الدائن ، والمدين . والجمع : غرماء . والمراد بالغريم هنا : الخصم أو العدو . [اللسان، والمعجم الوسيط] ينصرفه .

سُورَةُ الْأَمْوَرِ

﴿١٣٥٧﴾

﴿... وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(١) [لقمان]

وفى موضع آخر يقول الحق سبحانه:

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٢) [الشورى]

وفى هذه الآية «لام» التوكيد لتؤكد أن هذا الأمر يحتاج إلى عزم قوى ؛ لأن لى فيها غريماً يشير غصبى .

فساعة أرى من ضربنى أو أهاننى أو سرقنى أو أساء إلى إساءة بالغة ، فالأمر هنا يحتاج صبراً وقوة وغزيمة.

أما فى الحالة الأولى - حالة عدم وجود غريم - فالحق سبحانه يكتفى فقط بالقول الكريم :

﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ...﴾^(٣) [لقمان]

ولكنه سبحانه أضاف فى الآية الأخرى «اللام» لتأكيد العزم ، وليضيف سبحانه فى حالة وجود غريم طلب الغفران ، فيقول سبحانه :

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٤) [الشورى]

وهكذا نجد المستثنى ، وهم الصابرون على ألوانهم المختلفة .
وهنا يقول سبحانه :

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾^(٥) [عبد]

وما دام هنا صبر ، فالصبر لا يكون إلا على إيذاء . ولكن إليك أن يكون الإيذاء من خصمك فى الإيمان ، أو من خصمك فى ما دون الإيمان ،

(١) والصبر : إما صبر على المأمورات أو صبر على المحذورات ، أو صبر على المقدرات ، فمن توارت فيه هذه المقامات كان من أهل العزم وعزم الأمور معزوماتها التى يعزم عليها لوجوبها . [تفسير الجلالين].

صارفاً لك عن نشاطك في طاعة الله سبحانه ؛ لأن الصبر لا يعنى أن تكبت غضبك وتعذب نفسك بهذا الكبت بما يصرفك عن مهامك في الحياة ، بل يسمح لك الحق سبحانه أن تتخلص من غلّك وحقدك ، بمعاشة الإيمان الذي يُخفف من غلّواء الغضب .

ولكسر حدة الغلّ أباح لك الحق سبحانه وتعالى أن تعتدى على من اعتدى عليك بمثل ما اعتدى ؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يريد لك أن تظل في حالة غليان بالغضب أو القهر بما يمنعك من العمل ، بل يريد الحق سبحانه أن تتوجه بطاقاتك إلى أداء عملك .

ولذلك لا يلزمك الحق سبحانه إلا بحكم العدل فيقول عز وجل :

﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ..﴾ (١٢٩)

[البقرة]

ولكن هناك القادر على التحكم في نفسه ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظَ^(١) ..﴾ (١٣١)

[آل عمران]

ومعنى كظم الغيظ : أن الغيظ موجود ، لكن صاحبه لا يتحرك بنزوع انتقامي ، مثلما تقول : «كظمت القرية» لأن حامل القرية لو لم يكظم الماء فيها ، لتفلّت الماء منها ، أى : أنه يحبس الماء فيها .

وكظم الغيظ درجة ومنزلة ، قد لا تكون إيجابية ؛ لأن الغيظ ما زال موجوداً ؛ ولذلك تأتي مرحلة أرقى ، وتتمثل في قول الحق سبحانه :

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ..﴾ (١٣٤)

[آل عمران]

(١) الكافرين الغيظ : الحاسين غيظهم في قلوبهم . [كلمات القرآن] .

وعن معاذ بن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «من كظم قبيحاً ، وهو قادر على أن ينقله ، دعاه الله سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخبره من الخور العين ما شاء» أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٠ / ٣) وأبو داود في سننه (٤٧٧٧) والترمذي في سننه (٢٠٢١ ، ٢٤٩٣) وقال : حسن غريب .

أى : أَنْ تُخْرِجَ الْغَيْظَ مِنْ قَلْبِكَ وَتَتَسَامَحَ .

إِذِنْ : فَأَنْتَ هُنَا أَمَامَ مَرَا حِلِّ ثَلَاثَ :

أَنْ تَرُدَّ الْاِعْتِدَاءَ عَلَيْكَ بِمِثْلِهِ ، وَالمِثْلِيَّةُ فِي رَدِّ الْاِعْتِدَاءِ أَمْرٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَقَّقَ ، فَمَنْ صَفَعَكَ صَفْعَةً ، كَيْفَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَضْبِطَ كَمِيَّةَ الْاَلَمِ فِي الصَّفْعَةِ الَّتِي تَرُدُّهَا إِلَيْهِ ؟

إِنْ الْمُتَحَكِّمُ فِي رَدِّ الْاِعْتِدَاءِ هُوَ الْغَضَبُ ، وَالْغَضَبُ لَا يُقَيَّسُ الْاِعْتِدَاءَ بِمِثْلِهِ ، فَلَا يَتَحَقَّقُ الْعَدْلُ الْمَطْلُوبُ ؛ لِهَذَا يَكُونُ الصَّبْرُ خَيْرًا مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ .. وَكُنْ صَبِرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ (١٢٦)

[النحل]

فَإِنْ أَزِدْتَ مِنْ قُوَّةِ صَفْعَتِكَ تَكُونُ مُعْتَدِيًا .

وَلَعَلَّنَا نَذْكُرَ مَسْرُوحِيَّةَ «تَاجِرِ الْبِنْدَقِيَّةِ» لَشَكْسِيرِ ، وَيُظَلِّهَا هَذَا التَّاجِرُ الْيَهُودِي الَّذِي أَقْرَضَ رَجُلًا مَالًا ، وَكَانَ صَكُّ الْقَرْضِ يَفْرَضُ أَنْ يَقْتَطَعَ الْيَهُودِي رُطْلًا^(١) مِنْ لَحْمِ الْمُقْتَرَضِ إِنْ تَأَخَّرَ فِي السَّدَادِ .

وَتَأَخَّرَ الْمُقْتَرَضُ فِي السَّدَادِ ، وَأَرَادَ الْمُرَابِي الْيَهُودِي أَنْ يَقْتَطَعَ رُطْلًا مِنْ لَحْمِ الْمُقْتَرَضِ ، وَعُرِضَ الْأَمْرُ عَلَى الْقَاضِي ، وَكَانَ الْقَاضِي رَجُلًا حَكِيمًا ، وَأَرَادَ أَنْ يَصْدُرَ حُكْمًا يَتَلَمَّسُ فِيهِ الْعَدَالَةُ ، فَقَالَ الْقَاضِي : لَا مَانِعَ أَنْ تَأْخُذَ رُطْلًا مِنْ لَحْمِ الرَّجُلِ ؛ هَاتِ السَّكِينَ ، وَاقْطَعْ رُطْلًا وَاحِدًا بَلَا زِيَادَةٍ أَوْ نَقْصَانٍ ؛ لِأَنَّنَا سَنَأْخُذُ مُقَابِلَ تِلْكَ الزِّيَادَةِ مِنْ لَحْمِكَ أَنْتَ وَبِنَفْسِ السَّكِينِ ، وَكَذَلِكَ إِنْ قَطَعْتَ مِنَ اللَّحْمِ مَا يَقِلُّ عَنِ الرُّطْلِ ، فَسَنَقْطَعُ النَّاقِصَ لَكَ مِنْ لَحْمِكَ أَنْتَ عِقَابًا لَكَ .

(١) الرُّطْلُ : مَعْيَارٌ يَوْزَنُ بِهِ أَوْ يَكَالُ ، يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْبِلَادِ ، وَهُوَ فِي مِصْرَ اثْنَا عَشْرَةَ أَوْقِيَّةً ، وَالْأَوْقِيَّةُ اثْنَا عَشَرَ ذَرْمًا ، وَالْجَمْعُ : أَرْطَالٌ [المعجم الوسيط] .

وتردّد المرابى اليهودى ؛ لأن الجزار - أى جزار - لا يمكن أن يضبط يده ليقطع رطلاً مكتمل الوزن ، بل يقطع أحياناً ما يزيد عن الوزن المطلوب ، ويقطع أحياناً ما يقل عن الوزن المطلوب ، ثم يكمل أو ينقص الوزن حسب كل حالة .

وانسحب المرابى اليهودى وتنازل عن دعواه ، والذي دفعه إلى ذلك هو عدم قدرته على أخذ المثل ، فلو كان قد ارتقى قليلاً فى مشاعره لما وصل إلى هذا الحكم .

والحق سبحانه وتعالى يحضنا ^(١) على أن نرد العدوان بمثله ، وإن أردنا الارتقاء فلنكظم الغيظ ، وإن أردنا الارتقاء أكثر فلنخرج الغيظ من القلب ولنكن من العافين عن الناس ^(٢) ؛ لننال محبة الله تعالى ، لأنه سبحانه يقول :

﴿ .. وَالكَافِرِينَ الْغَيْظُ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٤٤)

[ال عمران]

وفى هذا يرتقى المؤمن بمنهج الله سبحانه ، فيجعل المعتدى عليه هو الذى يُحسن .

وحين تريد أن تفسر حب الله سبحانه للمحسنين فلسفياً أو منطقياً أو اقتصادياً ، ستجد القضية صحيحة ، والله سبحانه وتعالى يقول :

(١) المحسن : الحث والتشجيع على فعل شيء . [اللسان] بتصرف ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴾ (٣٢) وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ (٣٣) ﴾ [الحاقة] .

(٢) عن أبى بن كعب أن رسول الله ﷺ قال : « من سره أن يشرف له نبيان ، وترفع له الدرجات ، وليعب من قلعه ، ويعط من حرمة ، ويصل من قطعه » أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/٢٩٥) . عن أبى بن كعب وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجه » قال الذهبى : « فيه أبو أمة ضعيفه » الثدافطى وإسحاق لم يدرك عبادة .

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ ^(١) أَلَا تُجِبُونَ أَنَّ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ^(٢) .. ﴿٢٢﴾ [التور]

فإن أسماء ^(٣) أخوك إليك سيئة ، فإما أن ترد بالمثل ، أو تكظم الغيظ أو ترقى إلى العفو ، وبذلك تكون من المحسنين ؛ لأنك إذا كنت قد ارتكبت سيئة ، وعلمت أن الله سبحانه وتعالى يغفرها لك ، ألا تشعر بالسرور ؟
إذن : فما دُمت تريد أن يغفر الله تعالى لك السيئة عنده ، فلماذا لا تعفو عن سيئة أخيك في حقل ؟

وقول الحق سبحانه :

﴿أَلَا تُجِبُونَ أَنَّ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ .. ﴿٢٢﴾ [التور]

وقد جاء الحق سبحانه هنا من ناحية النفس ، فجعل عفو العبد عن سيئة العبد بحسنة ، فلغفو العبد ثمن عند الله تعالى ؛ لأن العبد سيأخذ مغفرة الله تعالى ، وفوق ذلك فأنت تترك عقاب المسيء والانتقام منه لربك ، وعند التسليم له راحة .

(١) صبح عن رجل : أمرض عنه أو عفا عنه ولم يؤاخذه بنبئه . قال تعالى : ﴿ .. وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التغابن] . وقال تعالى : ﴿ .. وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا صَفْحَ لِّلصَّفْحِ الْجِبِلِّ ﴾ [الحجر] . [اللسان] بتصرف .

(٢) تمام الآية : عَوَّلَا مَا نَشَاءُ أَلْوَا الْفَضْلَ مِنْكُمْ وَالنِّعَةَ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلَى الْقَرَبَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُجِبُونَ أَنَّ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾ [التور] .

وقد نزلت هذه الآية في شأن أبي بكر الصديق الذي حلف أن لا يعطي ابن خاتمه مطع بن أثانة ما كان يعطيه من قبل من النفقة بسبب ما تكلم به في حق عائشة مع من تكلم ، وهو ما يسمى بمحادثة الإفاك . فأنزل سبحانه الآية ، فقال أبو بكر : والله إنى أحب أن يغفر الله لى ، فرجع إلى مطع النفقة التي كانت عليه وقال : لا أنزعها منه أبداً . راجع تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٥) وأسباب النزول للواحدي (ص ١٨٥) ط : المكتبة الثقافية .

(٣) أسماء إملاء : فعل السوء ضد أحسن ، وأساء العمل لم يحسنه ، والمسيء اسم فاعل من أسماء ، والمسيء القبيح ، والمنكر ، والسيئة : مؤنث السيء ، بمعنى القبيح . والسوء ما يقع إظهاره وينهى ستره « الفاء ومن القويم » باختصار .

ولو اقتصصت أنت ممن أساء إليك ، فقصاصك على قدر قوتك ، أما إن تركته إلى قدرة الله تعالى ، فهذا أصعب وأشق ؛ لأنك تركته إلى قوة القوى . وهكذا ينال العافى عن المسيء مرتبة راقية ؛ لأنه جعل الله - سبحانه وتعالى - في جانبه .

وهناك من يقول : كيف يأمر الدين الناس بأن يحسنوا لمن أساء إليهم ؟ ويعمل ذلك بأنه أمر ضد النفس .

وتقول : إن الإحسان إلى المسيء هو مرحلة ارتقاء ، وليست تكليفاً^(١) أصيلاً ؛ لأن الحق سبحانه قد أباح أن نرد العدوان بمثله ، ثم حثَّ المؤمن على أن يكظم غيظه ، أو يرتقى إلى العفو وأن يصل إلى الإحسان ، وكل هذه ارتقاعات اليقين بالله سبحانه وتعالى .

وانظر إلى نفسك - ولله المثل الأعلى ومنزه سبحانه عن كل مثل - إن أردت أن تطبق الأمر على ذاتك حين تجد ولداً من أولادك قد اعتدى على أخيه ، فقلبك وعواطفك وتلطفاتك تكون مع المعتدى عليه .

ومن يقول : كيف يكلّفني الشرع بأن أحسن إلى من أساء إليّ ؟

نقول له : تذكر قول الحسن البصري رضي الله عنه^(٢) : «أفلا أحسن لمن جعل الله في جانبي ؟» .

ولو طبق العالم هذه القاعدة بيقين وإخلاص لصارت الحياة على الأرض جنة معجّلة ، التسامح ، قوامها القرب ، ومنتهجها الحب .

(١) لأن التكليف إلزام ، والعفو من الفضل ، وفي التعامل بالفضل ارتقاء .

(٢) هو : الحسن بن يسار البصري ، أبو سعيد ، تابعي ، كان إمام أهل البصرة ، وحبر الأمة في زمانه ، وهو أحد العلماء الفقهاء النجاشية ، ولد بالمدينة ٢١ هـ ، وشبه في كنفه على بن أبي طالب ، كان يدخل على الولاة بأمرهم ويتهامهم ، سكن البصرة وتولى بها عام ١١٠ هـ من ٩٠ عاماً .

سُورَةُ هُودٍ

٦٣٦٣

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١١)

[هود]

وإن تساءل أحد : ولماذا يتألون المغفرة ؟

نقول : لأنهم صبروا وغفروا ؛ لذلك يهديهم الله تعالى مغفرة من عنده ، لأنه صبر على الإساءة ، وغفر لمن أساء ، فلا بد أن يُشبيه الله تعالى ؛ لا بالمغفرة فقط ، ولكن بالأجر الكبير أيضاً .^(١)

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ
صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ
إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١٢)

وهنا نجد الحق سبحانه يأتي بصيغة الاستفهام في قوله تعالى :

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ..﴾ (١٢)

[هود]

وهو استفهام في معرض النهي .

ولله المثل الأعلى - أنت قد تقول لابنك لتحثه على الاجتهاد : «لعلك

(١) ومغفرة الله في مقابل صبر العبد وغفرانه لإساءة المسيء محدودة بحدود طاقة البشر ، أما غفران الله فيه شمول الكريم وغفر الحكيم ؛ لأن عقوبه مصحوب بالأجر ، والأجر كبير من أكبر وهو الله سبحانه .

(٢) وكيل : قائم به حافظ له [كلمات القرآن] . والوكيل : حافظ الأمين والناصر المعين . قال تعالى : ﴿ ..

وَأَلَّوْا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (٦٧) [آل عمران] . وقال تعالى : ﴿ .. قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٦٦) ﴿

[الأنعام] أي : حافظ .

سُررت من فشل فلان» وفَحَوَى^(١) هذا الخطاب ، استفهام في معرض النهي ، وهو استفهام يحمل الرجاء .

وهنا تجدد أن الراجي هو ربك - سبحانه وتعالى - الذي أرسلك بالدعوة .

ولذلك يأتي قول الحق سبحانه مُيِّنًا : لا يضيق صدرك يا رسول الله من هؤلاء المعتنين ، الذين يريدون أن يخرجوك عن مقامك الذي تلح دائماً في التأكيد عليه ، فأنت تؤكد لهم دائماً أنك بشر^(٢) ، وكان المفروض فيهم أن تكون مطلوباتهم منك على مقدار ما أقررت على نفسك ، فأنت لم تقل أبداً عن نفسك إنك إله ، ليطلبوا منك آيات تُخالف التواميس^(٣) ، بل أنت مُبلِّغ عن الله تعالى .

وإياك أن يضيق صدرك فلا تُبلغهم شيئاً مما أنزل إليك ؛ لأن البلاغ هو الحُجَّة عليهم ، فلو ضاق صدرك منهم ، وأنقصت البلاغ الموكَّل إليك ؛ لأنهم كلما أبلغوا بآية كذبوها ، فاعلم أن الله سبحانه وتعالى سوف يزيد عقابهم بقدر ما كذبوا .

(١) فحوى القول : مضحونه ومرماه الذي يشج إليه القائل . والجمع : فحار ، وفحارى . للمعجم الوسيط .

(٢) أكد رسول الله ﷺ على هذا المعنى في أحاديث شريفة كثيرة جداً :

- منها حديث رافع بن خديج قال : قدم نبي الله ﷺ بالمدينة ، وهم يأبرون النخل ، يقولون يلتحقون النخل ، فقال : ما تصنعون ؟ قالوا : كنا نصنع . قال : لعلكم لو لم تعملوا كان خيراً فتركوه ، فنقضت . قال : فذكروا ذلك له ، فقال : «إنا أنا بشر» ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذلوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي ، «إنا أنا بشر» . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٣٦٢) كتاب الفضائل .

- وعن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : «إنا أنا بشر» أرضى كما يرضى البشر ، وأغضب كما يغضب البشر ، فأبما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل ، أن يجعلها له شهيراً وزكاة وقرية يقره بها ، منه يوم القيامة . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٠٣) .

(٣) التواميس : القوانين الإلهية التي يخضع لها الكون .

وكلمة «ضائق»^(١) اسم فاعل ، ويعنى أن الموصوف به لن يظل محتفظاً بهذه الصفة لتكون لازمة له ، ولكنها تعبر عن مرحلة من المراحل ، مثلما نقول : «فلان ناجر» أى : أنه قادر على القيام بأعمال النجارة مرة واحدة - أو قليلاً - ولا يحترف هذا العمل .

وكذلك كلمة «ضائق» وهى تعبر فى مرحلة لا أكثر من قَرَطَ ما قابلوا الرسول ﷺ من إنكار ، وما طالبوا به من أشياء تخرج عن نطاق إنسانيته ، فقد طالبوا هنا أن ينزل عليه كُتْرٌ .

وقد جاء الحق سبحانه بذكر مسألة الكثر ؛ ليدلنا على مدى ما عندهم من قيم الحياة ، فقيمة القيم عندهم تركزت فى المال ؛ ولذلك تمنّوا لو أن هذا القرآن قد نزل على واحد من الأثرياء ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ^(٢١) ﴾

[الزخرف]

إذن : فلم يكن اعتراضهم على القرآن ، بل على مَنْ نزل عليه القرآن . وفى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواتمها ، طلبوا أن ينزل إليه كُتْرٌ ، وقد ظنوا أن الشراء سيلهيه هو ومن معه عن الدعوة إلى الله تعالى

(١) الضيق (بالكسر والفتح المضاد وسكون الياء) ضد السعة ، فى الماديات والمعنويات .

و اسم الماعل ضائق ، قال تعالى : ﴿ وَضَاقَ بِهِ صَدْرُكَ .. ^(١٦) ﴾ [هود] وقوله : ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا .. ^(٢٧) ﴾ [هود] . أى . رجد صديقاً فى صدره ، ومنه : ﴿ وَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ^(٢٧) ﴾ [الحجر] . وقوله : ﴿ .. وَلَا تَكُ فِى صَيْقٍ قَبْلَ يَسْكُرُونَ ^(٢٧) ﴾ [التعليل] وقرئ : نفع الضاد وكسرها . والمعنى : ولا يضيق صدرك بسبب مكبرهم . (القاموس القويم باحتصار) .

(٢) المراد بالقريتين : مكة والطائف . وقد اختلف العلماء فى تحديد اسم الرجل العظيم المقصود فمن مكة : الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة . ومن الطائف : عروة بن مسعود أو حمزة بن عبد المطلب . قال ابن كثير فى تفسيره (٤ / ١٢٧) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

ونسوا أنهم قد عرضوا الثروة عليه من قبل ^(١) .

وهكذا وضح لمن عرض عليه هذا الأمر أن مسألة الكثر لا تشغله ﷺ .
والكثرة ^(٢) - لغوياً - هو الشيء المجتمع ، فإن كانت الماشية - مثلاً -
مليئة باللحم يقال لها : « مُكْتَنَزَةٌ لَحْمًا » ولكن كلمة « الكثر » أطلقت على
الشيء الذي هو ثمن لأي شيء ، وهو الذهب .
ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبُشِّرْهُمْ

[التوبة]

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .. (٣٤) ﴾

(١) ذلك إن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله ﷺ جالس في
المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أفروم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها
فنعطيه أيها شيء ، ويكف عن ؟ فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، ثم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى
رسول الله ﷺ ، فقال : يا بن أخي ، إني ما حدث قد علمت من السطة (الشرف) في العشيرة والكان
في النسب ، وإني قد أثبت قومك بأمر عظيم فرقت به حصاصهم ، وسفقت به أحلامهم ، وعيت به
آلهم ودينهم وكفرت به من مضي من آياتهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً ننظر فيها لعلك تقل
منها بعضها ، فقال له رسول الله ﷺ : قل يا أبا الوليد اسمع ، قال : يا بن أخي ، إن كنت إنما تريد بما
حسنت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً
سودناك علينا حتى لا نقطع امرأة دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا . . . حتى إذا فرغ عتبة ،
قال له ﷺ : « أفد فرغت يا أبا الوليد ؟ » قال : نعم ، قال : فاسمع مني قال : أفعل ، فقال : ﴿ وحتم
(٦) نزيل من الرحمن الرحيم (٦) كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون (٦) ﴾ [فصلت] ثم مضى
ﷺ إليها بقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عنة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع
منه . فلما عاد إلى قومه قال لهم : خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعزوه ، فوالله ليكون
لقوله الذي سمعت منه بيا عظيم ، فإن نصبه العرب فقد كفيتموه بميركم ، وإن يظهر على العرب
فملككم ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسداً للناس به . [من سيرة النبي لابن هشام ١ / ٢٩٣ ، ٢٩٤ -
تصرف] .

(٢) كثر المال يكثره كثراً : جمعه وأدخره . قال تعالى : ﴿ .. هذا ما كنزتم لأنفسكم فأنفقوا ما كنتم تكنزون

(٣٠) ﴾ [التوبة] وقال تعالى : ﴿ .. والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله وبشرهم بعذاب

أليم (٣٠) ﴾ [التوبة] والضمير راجع إلى الفضة لقربها في الذكر ، ولأنها أقل قيمة ، فمن يخل بها

يسخل بالذهب من باب أولى . [القاموس المفيد] .

ونحن نعلم أن هناك فارقاً بين الرزق المباشر والرزق غير المباشر ، فالرزق الغير مباشر هو ما تستفيع به ، طعاماً أو شرباً ، وهناك شيء يأتي لك بالرزق الغير مباشر ؛ لكنه لا يُغنى عن الرزق المباشر المستمر ^(١) .

فلو أن إنساناً في صحراء ومعه قناطير ^(٢) مقنطرة من الذهب ، ولا يجد طعاماً ولا شربة ماء ، ماذا يفعل له الذهب ؟ ولو عرض عليه إنسانٌ آخر رغيف خبز وشربة ماء مقابل كل ما يملك من ذهب لوافق على الفور . وهنا لا يكون التقييم أن قنطار الذهب مقابل الرغيف وشربة الماء ، ولكن قنطار الذهب هنا مقابل استمرار الحياة وضرورة الحاجة .

إذن : معنى كلمة " كنز " هو نقد من الذهب والفضة مجتمعاً ، ويقال عنه بالعامية عندنا في مصر : «نقود تحت البلاطة» ، ولكن إذا أدنى صاحب هذا النقد حقَّ الله تعالى فيما أدَّخره ، لا يُعتبر كنزاً ؛ لأن الشرط في الكنز أن يكون مخفياً ، والزكاة التي تُخرج من المال المدَّخر توضح للمجتمع أن صاحب المال لا يُخفي ما عنده .

ولذلك لا يُسمى الكنزُ إلا للشيء المجتمع وممنوع منه حق الله تعالى ، فإن أدنى حقَّ الله سبحانه فقد رُفعتْ عنه الكثرية ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ .. وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) ﴾

[التوبة]

(١) الرزق المباشر ما تقتضى به الحوائج بسيولة الاستمرار ، والغير مباشر تقتضى به الحوائج بصعوبة الحاجة والضرورة .

(٢) قناطير : جمع قنطار ، وهو معيار مختلف المقدار عند الناس ، وهو بمصر في زماننا مائة رطل ، وهو ٩٢٨ ، ٤٤ من الكيلوجرامات . وقد يقصد بالقنطار : المال الكثير . [المفهم الوسيط] .

ومن هذا القول الكريم نفهم أن مَنْ يملك مالا ويؤدى حق الله فيه ، لا يُعتبر كَنَزاً^(١) ، وحين تُنْقَص الزكاةُ المالَ فى ظاهر الأمر ، فهى تدفع الإنسان إلى أن يُحَسِّن استثمارَ هذا المال ؛ حتى لا يفقده على مدار أربعين عاماً ، بحكم أن زكاة المال هى اثنان ونصف فى المائة ؛ ولذلك يحاول صاحب المال أن يُثْمِرهُ ، وهو بذلك يُهيىء فرصة لغير واجدٍ وقادرٍ لأن يعمل ، وبذلك تقلُّ البطالة .

وقد تكون أنت صاحب المال ؛ لكنك لا تفهم أسرار التجارة والصناعة ، فتشارك مَنْ يفهم فى التجارة أو الصناعة ، وبذلك تفتح أبواب فرص عمل لمن لا عمل له وقادر على إدارة العمل .

هذه هى إرادة الحق سبحانه وتعالى فى أن يجعل من تكامل المواهب نماءً وزيادة ، تكامل مواهب الوجد - النقود - ومواهب الجهد ، وبين الوجد والجهد تنشأ الحركة ، ويتفق صاحب المال مع صاحب الجهد على نسب الربح حسب العرض والطلب ؛ لأن كل تبادل إنما يخضع لهذا الأمر - العرض والطلب - لأن مثل هذا التعاون بين الواجد والقادر ينتج سلعة ، والسلعة لا هوى لها ، ولكن من يملك السلعة ومن يشتري السلعة لهما هوى ، فمالك السلعة يرغب فى البيع بأعلى سعر ، ومن يرغب فى شراء السلعة يريد بها بأقل سعر ، لكن السلعة نفسها لا هوى لها .

وما دام العرض والطلب هو الذى يتحكم فى السلع ، فهذا توازن

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٤ / ٣٠٥١) : اختلف لعلماء فى المال الذى أدبت زكاته هل يُسمى كنزاً أم

لا . فقال قوم : نعم . ورواه أبو النضى عن جعدة بن هبيرة عن على رضى الله عنه ، قال على : أربعة آلاف قمادونها شقة ، وما كثر فهو كثر وإن أدبت زكاته ، ولا يصح .

وقال ابن عمر : ما أدى زكاته فليس يكنز ، وإن كان تحت سبع أرضين ، وكل ما لم تؤد زكاته فهو يكنز وإن كان فوق الأرض ، ومثله عن جابر ، وهو الصحيح .

في ميزان الاقتصاد .^(١)

وعلى سبيل المثال : إن عُرضت اللحوم بسعر مرتفع ، فكبراء الذات في النفس البشرية تدفع غير القادر لأن يقول : إن تناول اللحم يرهقني صحياً . ويتجه إلى الأطعمة الأخرى التي يقدر على ثمنها ؛ لأن السلعة هي التي تتحكم ، أما إذا تدخل أحد في تسعير السلع ، بأن اكتنز المال ، ولم يخرج للسوق لاستثماره ، حينئذ تختفى قدرة الحركة لصاحب المال ، ولا يجد صاحب الموهبة مجالاً لإتقان صنعة .

وقول الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية :

﴿لَوْلَا^(١) أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مِنْهُ مَلَكٌ ..﴾ (١٦) [هود]

فكلمة «لولا» - كما نعلم - للتمنى ، وهم تمنوا الكنز أولاً ، ثم طلبوا مجيء ملك ، وكيف ينزل الملك ؟ أينزل على خلقته أم على غير خلقته بأن يتجسد على هيئة رجل ؟

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ..﴾ (٩) [الأنعام]

(١) قصد في أمر، يقصد كضرب قصداً : اعتدل فيه وسلك مسلكاً وسطاً ، مثل قوله تعالى : ﴿واقصه في مشيك ..﴾ (١١) [لقمان] أي : اعتدل وتوسط فيه وقال : ﴿فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ..﴾ (٣٢) [لقمان] أي معتدل غير منحرف يقول الحق : ﴿.. مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ (٢١) [المائدة] والاقتصاد لأن أصبح علماء مناهجه ، وهو فن إدارة المال ، ولا يخرج التعريف الحديث عن ما ذهبت إليه اللغة ، وأشار إليه الفران الكزيم (القاموس القويم بزيادة اقتصادها المقام) .

(٢) لولا ، حرف شرط لا يعمل ، ويدل على امتناع الجواب لو جرد الشرط . وقد تستعمل كأداة عرض وتخصيص مثل (ملاً) فتخصص بالدخول على الفعل المضارع في مثل قوله تعالى : ﴿.. لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٦) [التعل] ويدخل على الفعل الماضي الذي في ماويز المضارع مثل قوله تعالى : ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ ..﴾ (١٦) [هود] أي : لولا ينزل عليه كنز . وقوله تعالى : ﴿لَوْلَا أُخْرِجْتِي إِلَى أَهْلِ قَرْيَةٍ ..﴾ (١٤) [الأنعام] أي : لولا تؤخرني . [القاموس القويم] بتصرف .

وإن نزل المَلَك على هيئة رجل فكيف يتعرفون إلى أصله كَمَلَك ؟
وهذا غباء في الطلب .

وأيضاً قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ ﴾ (٩٤) قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۖ ﴾ (٩٥)

[الإسراء]

ولو أنزله الحق سبحانه مَلَكًا فسوف يكون من نفس طبيعتهم البشرية ،
وسوف يلتقى بهم ويتكلم معهم ، ولن يستطيعوا تمييزه عن بقية الناس
وسوف يكذبونه أيضاً .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنّا عنها يقول الحق سبحانه ردّاً لهم
عن هذا الطلب : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ۚ ﴾ (١٢) .

[هود]

وهذا الكلام موجه من الله سبحانه للرسول ﷺ لِيُلَفِّتَ الحجة التي يرد بها
عليهم ، وقد قال لهم الرسول ﷺ عن نفسه إنه نذير وبشير ، وقد طلب
غيركم الآيات ، وحين جاءت الآيات التي طلبوها لم يؤمنوا ، بل ظلُّوا
على تكذيبهم ، فنكّل الحق سبحانه بهم .

إذن : فالعناد بالكفر لا ينقلب إلى إيمان بمجرد نزول الآيات ، والحق
سبحانه هو القاتل :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۖ ﴾ (٥٩) [الإسراء]

(١) النذير : الرسول المذنب للعذاب . قال تعالى : ﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۖ ﴾ [الأعراف] .

(٢) وفي هذا يقول سبحانه : ﴿ وَالْمَسُورَاتِ بِاللَّهِ جِهَةٌ أَيَّمَانِهِمْ فَمِنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ ﴾ (٦١) وَلَقَدْ أَفْقَدْتَهُم بِأَبْصَارِهِمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۚ ﴾ (٥٩) [الأنعام] .

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٣٧﴾

أى : أن الآيات التى طلبها الكافرون لم يأت بها الله سبحانه ؛ لأن الأولين قد كذبوا بها ؛ ولذلك يبلغ الحق سبحانه رسوله ﷺ هنا بقوله :

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ .. (١٢) ﴾ [هود]

وهو ﷺ قد نزل عليه القرآن بالإنذار والبشارة ^(١) .

ويُنهى الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله :

﴿ .. وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٣) ﴾ [هود]

وأنت حين توكل إنساناً فى البيع والشراء والهبة والنقل ، وله حرية التصرف فى كل ما يخصك ، وترقب سلوكه وتصرفه ، فإن أعجبت ظلمت على نفسك بتوكيله عنك ، وإن لم يعجبك تصرفه فأنت تلغى الوكالة ، هذا فى المجال البشرى ، أما وكالة الله سبحانه وتعالى على الخلق ^(٢) فهي باقية أبداً ، وإن أبى الكافرون منهم .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ

وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤) ﴾

وفى قول الحق سبحانه وتعالى هنا بيان للون آخر من مصادمة الكافرين لمنهج رسول الله ﷺ والإيمان به ، فقالوا : إن محمداً قد افترى القرآن .

(١) يقول رب العزة سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا .. (١١٩) ﴾ [البقرة]

(٢) الوكيل : الحافظ الأمين والناصر والمعين . قال تعالى . ﴿ .. وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٣٧) ﴾ [آل عمران] ، فوكالة الله على خلقه أى : رعايتهم بالرزق والحفظ والنصرة .

(٣) الافتراء : اختلاق الكذب . ﴿ ثُمَّ يَقُولُونَ اتَّوْهًا .. (١٢٢) ﴾ [هود] أى : اخترع القرآن واختلقه من عند نفسه ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ .. (١٤) ﴾ [هود] أى : مكذوبات كما تدعون .

[القاموس القويم] .

والافتراء : هو الكذب المتعمد ، ومعنى الكذب المتعمد أنه كلام يخالف واقعاً في الكون .

فإذا كان الواقع نقياً وأنت قلت قضية إثبات ، تكون قد خالفت الواقع ، كأن يوجد في الكون شراً ثم تقول أنت : لا يوجد شراً في هذا المكان ، وهكذا يكون الواقع إيجاباً والكلام نقياً .

وكذلك أن يكون في الواقع نقي وفي الكلام إيجاب ، فهذا أيضاً كذب ، لأن الصدق هو أن تتوافق القضية الكلامية مع الواقع الكوني ، فإن اختلفت مع الواقع الكوني صار الكلام كذباً .

والكذب نوعان : نوع متعمد ، ونوع غير متعمد . والكذب عرق واقع واختلاق غير مرجود ، ويقال : خرقت الشيء أي : أنك أتيت لواقع وبدلت فيه .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴾ (١٠٠)

[الأنعام]

ويقول أيضاً الحق سبحانه :

﴿ وَتَخْلُقُونَ أَفْكَاءً .. ﴾ (١٧)

[المنكبات]

أي : تأتون بشيء من عدم ، وهو من عندكم فقط .

ويقول الله سبحانه تعالى :

(١) خرق الأمر أو الكلام : كذبه واخترعه . قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴾

(٢) [الأنعام] أي : نسبوا له بنين وبَنَاتٍ كذباً واختراعاً بغير علم . [المعجم الوسيط] .

(٣) الإنك : الكذب والافتراء الباطل . وقال تعالى : ﴿ .. وَذَلِكَ إِنكُهمُ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (٣٨)

[الأحقاف] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ .. ﴾ (٢٤) [النور] .

سُورَةُ الْاَنْعَامِ

﴿١٢٧﴾ ١٢٧٣

﴿... وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (١١٦) ﴿[الأنعام]

وحين اتهموا محمداً ﷺ بهتاناً بأنه افترى القرآن جاء الرد من القرآن الكريم بمتهى البساطة ، فأنتم - معشر العرب - أهل فصاحة وبلاغة ، وقد جاء القرآن الكريم من جنس ونوع نبوغكم ، وما دمتم قد قلتم: إن محمداً قد افترى القرآن ، وأن آيات القرآن ليست من عند الله ، فلماذا لا تفترون مثله ؟

وما دام الافتراء أمراً سهلاً بالنسبة لكم ، فلماذا لا تأتون بمثل القرآن ولو بعشر سور منه ؟ وأنتم قد عشتم مع محمد منذ صغره ، ولم يكن له شعر ، ولا نشر ، ولا خطابة ، ولا علاقة له برياضاتكم اللغوية ، ولم يزاول الشعر أو الخطابة ، ولم يشترك في أسواق البلاغة والشعر التي كانت تُعقد في الجاهلية مثل سوق عكاظ .

وإذا كان من لا رياضة له على الكلام ولا على البلاغة ، قد جاء بهذا القرآن ؛ فليكن لديكم - وأنتم أهل قُدرة ودُرّة ورياضة على البلاغة أن تأتوا ببعض من مثله ، وإن كان قد افترى القرآن فلماذا لا تفترون مثله ؟

وأنتم تعرفون المعارضات التي تُقام في أسواق البلاغة عندكم ، حين يقول شاعر قصيدة ، فيدخل معه شاعر آخر في مباراة ليلقي قصيدة أفضل من قصيدة الشاعر الأول ، ثم تُعقد لجان تحكيم تُبين مظاهر الحُسْن ومظاهر السوء في أي قصيدة .

ولو كان محمداً ﷺ قد افترى القرآن - كما تقولون - فأين أنتم ؟ ألم تعرفوه منذ طفولته ؟ ولذلك يأمر الحق سبحانه رسول الله ﷺ أن يقول :

(١) يخرصون : يكتببون . يستعمل الخرص في القرآن بمعنى الكذب أو الظن الخاطئ . قال تعالى :

﴿... وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (١١٦) [الأنعام] أي : يكتبون أو يُخَمِّتُونَ ويظنون ولا يعلمون حقيقة الأمر

على سبيل اليقين ، [القاموس القوم - ١/ ١٩١]

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ^(١) فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ^(٢)﴾ [يونس]

فهل أثر عن محمد ﷺ أنه قال شعراً أو ألقى خطبة أو تبارى^(٣) في عكاظ^(٤) أو المريد أو ذي المجاز^(٥) أو المجنة^(٦) ، وتلك هي أسواق البلاغة ومهرجاناتها في تلك الأيام ؟

هو لم يذهب إلى تلك الأماكن منافساً أو قائلاً .

إذن : أفليس الذين تنافسوا هناك أقدر منه على الافتراء ؟ ألم يكن امرؤ القيس شاعراً فحلاً ؟ لقد كان ، وكان له نظير يعارضه .

وكذلك كان عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة الشكري ، كما جاء في عصور تالية آخرون مثل : جرير والفرزدق .

إذن : فأنتم تعرفون من يقولون الشعر ومن يعارضونهم من أمثالهم من الشعراء .

إذن : فهاتوا من يشتري مثل سور القرآن ، فإن لم تشتروا ، فمعنى ذلك أن القرآن ليس افتراء .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

(١) لبث : أقام واستقر . وقال تعالى عن يونس عليه السلام : ﴿ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [البقرة] قلت في بطنه إلى يوم يبعثون (١٠٦) ﴿ [الصافات] . وقال سبحانه عن نوح عليه السلام : ﴿ قُلْتُ لِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا حَمْسِينَ عَامًا . ﴾ [التكوير] . وقال تعالى : ﴿ فُلِيتْ سِينٌ مِنْ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتُ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ [طه] .

(٢) التبارى : التنافس والتسابق .

(٣) سوق عكاظ : سوق بقرب مكة ، كان العرب يجتمعون بها كل سنة ، فيقيمون شهراً يتنازعون ويتناخرون ويتناشدون ، وسميت عكاظاً لهذا ، ويقال : تعاكظ القوم : تعاركوا وتناخروا [انظر لسان العرب - مادة عكظ]

(٤) ذي المجاز : موضع بمنى - وقيل عند عريجات - كان يقام فيه سوق في الجاهلية ، [اللسان مادة : حوز]

(٥) الجنة : موضع على بُعد أميال من مكة ، كان بها سوق من أسواق العرب .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ۝ (١٣) ﴾ [هود]

فهل كانوا قادرين على قبول التحدى ، بأن يأتوا بعشر سُورٍ من مثل القرآن الكريم فى البيان الأسر " وقوة الفصاحة وأسرار المعانى ؟

لقد تحدّاهم بأن يأتوا - أولاً - بمثل القرآن " ، فلم يستطيعوا ، ثم تحدّاهم بأن يأتوا بعشر سور ، فلم يستطيعوا ، وتحدّاهم بأن يأتوا بسورة " ، ثم تحدّى أن يأتوا ولو بحدث مثله ، فلم يستطيعوا .

وهنا جاء الحق سبحانه بالمرحلة الثانية من التحدى ، وهو أن يأتوا بعشر سُور ، ولم يكتفِ الحق سبحانه بذلك ، بل طالبهم أن يدعُوا مَجْمَعاً من البُلغَاء ، فقال سبحانه :

﴿ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۝ (١٣) ﴾ [هود]

أى : هاتوا كل شركائكم وكل البُلغاء ، من دون الله تعالى .

الحق سبحانه وتعالى هنا يقطع عليهم فرصة الادعاء عليه سبحانه حتى لا يقولوا : سوف ندعو الله ؛ ولذلك طالبهم الحق سبحانه أن يُجنّبوه ﴿ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ (١٣) ﴾ [هود]

أى : إن كنتم صادقين فى أن محمداً ﷺ قد افترى القرآن " ، وبما أنكم

(١) الأسر : الذى يأخذ بالباب الناس وعقولهم .

(٢) وذلك فى قول الله سبحانه . ﴿ قُلْ لَنْ أَجْنَعَتِ الْإِنْسُ وَالْعِزُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ۝ (٥٥) ﴾ [الإسراء] أى : معيّنًا .

(٣) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ۝ (١٣) ﴾ [البقرة] ويقول سبحانه : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ (١٣) ﴾ [يونس] .

(٤) القرآن : يطلق على كتاب الله المعجز ، المكتوب فى المصاحف ، الذى نزل على رسول الله ﷺ ، ويطلق مجازاً مرسلًا علاقته الجزئية على الصلاة ، كقوله تعالى . ﴿ وَرَأَوُا الْعَجْرَ ۝ (٧٨) ﴾ [الإسراء] أى : صلاة الفجر (القاموس الفوج باختصار) .

سُورَةُ هُودٍ

٦٣٧٦

أهل زيادة في الفصاحة فلفتروا عشر سور من مثل القرآن ، أنتم ومن
تستطيعون دعوتهم من الشركاء .

لذلك كان الرد الحكيم من الله في قول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَالْأَيْسَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ
وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَهْلَ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٤)

والخطاب هنا موجه إلى الذين ادَّعوا أن رسول الله ﷺ قد افترى
القرآن ، أو أن الخطاب موجه لرسول الله ﷺ ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى
قال في الآية السابقة :

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ﴾ (١١) «وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (١٢) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ .. (١٤) ﴿ [هود]

أى : إن لم يردُّوا على التحدى ، فليعلموا وليتيقنوا أن هذا القرآن هو
من عند الله تعالى ، بشهادة الخصوم منهم . (١٢)

ولماذا عدل الحق سبحانه هنا الخطاب ، وقال :

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ .. (١٤) ﴾ [هود]

(١) مفتریات : مختلفات مكذوبات كما تدَّعون .

(٢) وعن القرآن قال عتبة بن ربيعة لمعمر بعد حوار طويل مع رسول الله ﷺ لإثباته عن المنفى في دعوته :
« خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه . فوالله ليكرنن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم »
[سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٤] .

(٣) قال تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ .. (١٤) ﴾ [هود] ولم يقل : لك . قيل : هو على تحويل لمخاطبة
من الأفراد إلى الجمع تعظيماً وتفضيلاً ، وقد يخاطب الرئيس بما يخاطب به الجماعة .

وقيل : الضمير في « لكم » وفي « فأعلموا » للجميع ، أى : فليعلم الجميع : ﴿ أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ
.. (١٤) ﴾ [هود] قاله مجاهد . وقيل : الضمير في « لكم » ، وفي « فأعلموا » للمشركين ، والمعنى :

فإن لم يستجب لكم من تدعوتهم إلى المعاصرة ، ولا تهيبات لكم المعارضة : ﴿ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ
اللَّهِ .. (١٤) ﴾ [هود] . [قاله القرطبي في تفسيره ٤ / ٣٣٣] .

أى : من تدعونهم ، ثم قال سبحانه :

﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. ﴾ (١٤)

[هود]

وقد قال الحق سبحانه ذلك ؛ لأن الرسول ﷺ مُطَالِبٌ بالبلاغ وما بلغه الرسول ﷺ للمؤمنين مطلوب منه أن يُبلغوه ، وإن لم يستجيبوا للرسول ﷺ أو للمؤمنين ، ولم يأت أحد مع مَنْ يتهم القرآن بأنه مُفْتَرَى مِنْ مُحَمَّدٍ .

وقد يكون هؤلاء الموهوبون خائفين من التحدى ؛ لأنهم عرفوا أن القرآن حق ، وإن جاءوا ليفتروا مثله فلن يستطيعوا ، ولذلك فاعلموا - يا مَنْ لا تؤمنون بالقرآن - أن القرآن : ﴿ أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. ﴾ (١٤)

[عود]

إذن : فالخطاب يكون - مرة - موجَّهاً للنبي ﷺ ولأُمَّته .

ولذلك عدَّلَ الحق سبحانه عن ضمير الأفراد إلى ضمير الجمع فى قوله

تعالى :

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. ﴾ (١٥)

[هود]

أى : ازدادوا علماً أيها المؤمنون بأن القرآن إنما نزل من عند الله .

والعلم - كما نعلم - مراحل ثلاث : علم يقين ، وعين يقين ، وحق يقين^(١) .

أو أن الخطاب مُوجَّه للكافرين الذين طلب القرآن منهم أن يدعُّوا من يستطيعون دعاءه ليعاونهم فى معارضة القرآن : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ

[هود]

اللَّهُ .. ﴾ (١٦)

وأعلى مراتب العلم عند الحق سبحانه الذى يعلم كل العلم أزلاً ، وهو غير علمنا نحن ، الذى يتغير حسب ما يتبع لنا الله سبحانه أن نعلم ، فأنتم قد تكون عالماً بشىء وتجهل أشياء ، أو علمت شيئاً وغابت عنك أشياء .

(١) هذا التقسيم ذهب إليه أهل الحقيقة والمعارف من وحي التريظير العلمى والروحى والشهدى .

ولذلك تجدد الأطباء ، وأصحاب الصناعات الدقيقة وغيرهم من الباحثين والعلماء يستدرك بعضهم البعض ، فحين يذهب مريض لطبيب مثلاً ويصف له دواءً لا يستجيب له ، فيذهب المريض إلى طبيب آخر ، فيستدرك على الطبيب الأول ، فيصف دواءً ، وقد لا يستجيب له المريض مرة ثانية ، وهنا يجتمع الأطباء على هيئة «مجمع طبي» يُقرر ما يصلح أو لا يصلح للمريض .

ويستدرك كلٌ منهم على الآخر إلى أن يصلوا إلى قرار ، والذي يستدرك هو الأعلّم ؛ لأن الطبيب الأول كتب الدواء الذي أَرهق المريض أو لم يستجب له ، وهو قد حكم بما عنده من عِلْم ، كذلك بقية الباحثين والعلماء .

وما دام فرق كل ذي علمٍ عليمٌ ، فالطبيب الثاني يستدرك على الطبيب الأول .. وهكذا .

ولكن أيرجد أحدٌ يستدرك على الله سبحانه وتعالى ؟ لا يوجد .

وما دام القرآن الكريم قد جاء يعلم الله تعالى ، فلا علم لبشر يمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن :

﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّإِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ ۝ (١١) ﴾ [هود]

وجاء الحق سبحانه هنا بأنه لا إله إلا هو ؛ حتى لا يدعى أحدٌ أن هناك إلهاً آخر غير الله .

وذكر الله سبحانه هنا أن هذا القرآن قد نزل في دائرة :

﴿ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ ۝ (١١) ﴾ [هود]

وما دام الحق سبحانه قد حكم بذلك فلتثق بهذا الحكم .

سُورَةُ الْهُجُرَاتِ

○ ١٣٧٩ ○

مثال ذلك : هو حكم الحق سبحانه على أبي لهب^(١) وعلى امرأته^(٢) بأنهما سيدخلان النار^(٣) فهل كان من الممكن أن يعلن أبو لهب إسلامه ، ولو نفاقاً ؟ طبعاً لا ؛ لأن الذي خلقه علم كيف يتصرف أبو لهب .

لذلك نجد بعد سورة المسد^(٤) التي قررت دخول أبي لهب النار ، قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ [الإخلاص]

أى : أن الحق سبحانه ما دام قد أصدر حكمه بأن أبا لهب سيدخل وزوجه النار ، فلن يقدر أحد على أن يُغيّر من حكمه سبحانه ، فلا إله إلا هو .
ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ .. فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۝١٥ ﴾ [مرد]

وهذا استفهام ، أى : طلب للفهم ، ولكن ليس كل استفهام طلباً للفهم ، فهذا الاستفهام هنا صادر عن إرادة حقيقية قادرة على فرض الإسلام على من يستفهم منهم .

(١) أبو لهب هو أحد أعمام رسول الله ﷺ ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتبة سمي أبا لهب لثمة احمرار وجهه كانه الذهب .

(٢) كانت امرأته من سادات نساء قريش ، وهي أم جميل ، واسمها أروى بنت حرب بن أمية ، وهي أخت أبي سفيان ، وكانت عروناً تزوجها على كثره وجحوده وعناده .

(٣) وذلك في قول الله عز وجل عن أبي لهب وامرأته في سورة المسد : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ ﴾ وامرأته حَمَلَةُ الْمُطَبِّ ﴿ ٤ ﴾ [المسد] .

وصيب نزول هذه السورة كما أخرج البخارى في صحيحه (٤٩٧١) : عن ابن عباس أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء ، فصعد الجبل ، فنادى " يا صباحاه " فاجتمعت إليه قريش ، فقال : أرايتم إن حدثكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني ؟ قالوا : نعم . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب - ألماذا جمعتنا ؟ نيا لك . فأنزل الله : ﴿ نَبِّئْ هَٰذَا أَبِي لَهُبٍ وَتَبِ ۝١٠ ﴾ [المسد] إلى آخرها ،

(٤) مسد الجبل [كتصر] مسداً : أجاد فثله . والمسد الليف قال تعالى : ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ نَّبِيدٍ ۝٢٠ ﴾ [المسد] أى : من ليف لحشن ، « القاموس المفرد » .

ولكنه سبحانه شاء أن يأتي هذا الاستفهام على لسان رسوله ليقابله جواب ، ولو لم يكن السائل واثقاً أنه لا يوجد إلا الإسلام لما قالها ، ولو لم يكن السائل واثقاً أنه لا جواب إلا أن يُسلم السامع ، ما جعل جواب السامع حجة على السامع .

وقائل هذا الكلام هو الخالق سبحانه ، ولله المثل الأعلى ، وهو سبحانه مُنزّه عن كل مثل ، نجد إنساناً يحكى لك أمراً يتفصيله ، ثم يسألك : هل أنا صادق فيما قلت لك؟ . . وهو يأتي بهذا الاستفهام ؛ لأنه واثق من أنك ستقول له : نعم ، أنت صادق .

وإذا نظرنا في آية تحريم الخمر والميسر - على سبيل المثال - نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ ^(١) أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ^(٢) ﴾ (٩٧)

[المائدة]

(١) الشيطان كل عاه متمردة من الإنس أو من الجن ، والشيطان من الجن مخلوق خبيث خلق من الناس ، وهو عدو للإنسان يُغريه بالشّر ، إلا من حفظه الله بالإيمان . يقول الحق : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ [الحجر] ، وكذلك كل من التجأ إلى الله ، فالله حافظه من كيد الشيطان . [القاموس النجوم - بتصرفه]

(٢) أخرج ابن جرير في تفسيره عن أبي بريدة عن أبيه قال : بينا نحن قعود على شراب لنا ، ونحن على دعة ، ونحن على ثلاثة أو أربعة ، وعندنا باطية لنا ، ونحن نشرب الخمر حلاً ، إذ قامت حتى أتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه ، إذ نزل تحريم الخمر : ﴿ يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوا لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴾ (٩٦) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩٧) ﴿ [المائدة] فجئت إلى أصحابي فقرأت عليهم إلى قوله : (هَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) قال : وبعض القوم شربته في يده ، قد ضرب بعضها ، وبقي بعض في الإناء ، فقلل بالإناء تحت شفتيه العليا كما يفعل الحجام ، ثم صبوا ما في باطنيتها فقالوا : انتهينا ربنا . ذكره ابن كثير في تفسيره (٩٥ / ٢) .

وكان هذا الاستفهام يحمل صيغة الأمر بأن : انتهوا من الخمر والميسر ،
واخرجلوا عما تفعلون .

إذن : فقول الحق سبحانه في آخر الآية الكريمة :

﴿ .. فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٤) يعنى : أسلموا ، واتركوا اللجاجة ^(١) بأن
القرآن قد جاء من عند محمد ، أو أنه افتراه ، بل هو من عند الله سبحانه
الذى لا إله إلا هو .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ مَنْ كَانَ يَرْيِدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ
فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ ﴾ (١٥)

وكان الكافرون ^(٢) قد تكلموا بما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم
وقالوا :

﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ .. ﴾ (١٦)

[هود]

(١) اللجاجة : اختلاط الأصوات وارتفاعها ، والمقصود التشويش على القرآن بأدعاب باطلة .
(٢) يخسه حقه : مقصده حقه ولم يرقه إياه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. ﴾ (٥٥) [الأعراف] . والتمن البخس : القليل الناقص عن مثله ، ﴿ وَشُرُوءُ بَشَرٍ بَخْسٍ .. ﴾ (٢٠) [يوسف] .
(٣) يختلف العلماء في تأويل هذه الآية ، فقليل : نزلت في الكفار ، قاله الضحاك ، واختاره النحاس ،
بدليل الآية التى بعدها : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نُسِّرُهُمْ فِي الْأَخْيَرَةِ إِلَى النَّارِ . ﴾ (١١) [هود] ، أى : من أتى منهم
بصلة رحم أو صدقة فكافه بها في الدنيا ، بصحة الجسم ، وكثرة الرزق . لكن لاحسنه له في الآخرة .
وقيل : المراد بالآية المؤمنون ، أى : من أراد بعمله ثواب الدنيا عجل له الثواب ولم ينقص شيئاً في
الدنيا ، وله في الآخرة العذاب لأنه جرد قصده للدنيا . وقيل : هو لأهل الرياء ، وفي الخبر أنه يقال
لأهل الرياء : صمتم وصليتم وتصدقتم وجاهدتم وقرأتم ليقال ذلك فقد قيل ذلك ، ثم قال : إن
هؤلاء أول من تُسَرَّبُ بهم النار .

وقيل : الآية عامة في كل من ينوى بعمله غير الله تعالى ، كان معه أصل إيمان أو لم يكن . [تفسير
القرطبي ١ / ٢٢٣٩]

فهم - إذن - مشغولون بنعيم الدنيا وزينتها .

والحياة تتطلب المقومات الطبيعية للوجود ، من ستر عورة ، وأكل لقمة
وبيت يقى الإنسان ويؤويه . أما الزينة فأمرها مختلف ، فبدلاً من أن
يرتدى الإنسان ما يستر العورة ، يطلب لنفسه الصوف الناعم شتاء ،
والحرير الأملس صيفاً ، وبدلاً من أن يطلب حجرة متواضعة تقيه من
البرد أو الحر ، يطلب لنفسه قصرأ .

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ ^(١) مِنَ
الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ^(٢) وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ^(٣) . ﴾ [آل عمران]

وكل هذه أشياء تدخل فى متاع الحياة الدنيا ، ويقول الحق سبحانه :

﴿ .. ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ^(٤) ﴾ [آل عمران]

إذن : ما معنى كلمة «زينة» ؟

معنى كلمة «زينة» أنها حُسْنٌ أو تحسين طارئ على الذات ، وهناك فرق
بين الحسن الذاتى والحسن الطارئ من الغير .

(١) القناطر : جمع قنطار وهو معيار مختلف القدر وعند الناس ، وهو يصر فى زماننا : مائة وطل ، وهو

٩٢٨ و ٤٤ من الكيلوجرامات ، وقد يقصد بها المال الكثير - كما فى الآية الكريمة ، وقال تعالى :

﴿ وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ أَنْ تَأْمَنَهُ بَقِنطَارٍ يُؤْتِيهِ إِلَهُكَ . ﴾ [آل عمران] .

والقناطر المقنطرة : أى : لفساعة ، أو المحكمة المحصنة . [كلمات القرآن للشيخ حسين

مخلوف ، والمعجم الوسيط] .

(٢) الخيل المسومة : أى : المرسلة للرعى ، أو المعلمة بعلامات ، [القاسوس القويم] .

(٣) الأنعام : الإبل والبقر والضأن والمعز .

والخرث : المزروعات . [كلمات القرآن] .

(٤) المآب : المرجع . وحسن المآب : أى : المرجع الحسن . [كلمات القرآن] .

والمرأة - على سبيل المثال - حين تتزين فهي تلبس الثياب الجميلة الملففة ، وتحلّي بالذهب البراق ، فهو المعدن الذي يأخذ نفاسته ^(١) من كثرة تلالته الذي يخطف الأبصار ، ولا تفعل ذلك بمغالة إلا التي تشك في جمالها .

أما المرأة الجميلة بطبيعتها ، فهي ترفض أن تتزين ؛ ولذلك يسمونها في اللغة : « الغانية » ^(٢) ، أي : التي استغنت بجمالها الطبيعي عن الزينة ، ولا تحتاج إلى مداراة كبر أذنيها بفُرط ^(٣) ضخم ، ولا تحتاج إلى مداراة رقيتها بعقد ضخم ، ولا تحاول أن تداري معصمها الريان بسوار ^(٤) ، وترفض أن تُخفي جمال أصابعها بالخراتم .

وحين تُبالغ المرأة في ذلك التزين فهي تعطى الانطباع المقابل .

وقد يكون المثل الذي أضربه الآن بعيداً عن هذا المجال ، لكنه يوضح كيف يعطى الشيء المبالغ فيه المقابل له .
وفي ذلك يقول المتنبي ^(٥) :

الطيبُ أنت إذا أصابك طيبة والماءُ أنت إذا اغتسلت الغاسلُ

(١) تشس الشيء نعاسة : كان عظيم القيمة فهو نفيس . وقيل : منه التنافس ، كل يريد أن يكون أنفُس من غيره ، أو يحرز ما هو أنفُس وأعظم قيمة . قال تعالى : ﴿ ... وفي ذلك طينافس المتنافسون ﴾ (٦٦) [المطففين] أي : فليتنافسوا لإحرازه لأنفسهم .

(٢) الغانية من النساء : التي غنيت بالزوج . وهي أيضاً التي غنيت بحُسنها وجمالها عن الخلق . وقيل : هي التي تُطلب ولا تُطلب . وقيل : الغانية الجارية الحسنة ، ذات زوج كانت أو غير ذات زوج . سميت غانية لأنها غنيت بحُسنها عن الزينة . [لسان العرب - مادة : غي]

(٣) الفُرط : ما يُعلق في شحمة الأذن من دُرٍّ أو ذهب أو فضة أو نحوها . والجمع : أقراط ، وقروط . . . [المعجم الوسيط] .

(٤) السوار : حلقة من الذهب مستديرة كالحلقة تلبس في المعصم . والجمع : أسورة ، وأساور . [المعجم الوسيط] .

(٥) هو : أحمد بن الحسين ، شاعر حكيم ، ولد بالكوفة في محلة تسمى « كندة » عام ٣٠٣ هـ ، نشأ بالشام ، ادهى النبوة في يادية السماوة (بين الكوفة والشام) . رلفلك سعي بالمتنبي ، ثم رجع عن دعواه بعد أسره ، توفي عام ٣٥٤ هـ عن ٥٢ عاماً .

وهو هنا يقول : إن الطيب إذا ما أصاب ذلك الإنسان الموصوف ،
فالطيب هو الذي يتطيب ، كما أن الماء هو الذي يُغسل إذا ما لمس هذا
الإنسان ، وكذلك تأبى المرأة الجميلة أن تُرَيَّن تُحرَّها ^(١) بقلادة ^(٢) ؛ لأن
نحرها بدون قلادة يكون أكثر جمالاً .

ويقال عن مثل هذه المرأة «غانية» ؛ لأنها استغنت بجمالها .

ويقال عن جمال نساء الحضير : إنه جمال مصنوع بمساحيق ، وكأن تلك
المساحيق مثبتة على الوجه بمعجون كمعجون دهانات الحوائط ، وكأن كل
واحدة تفعل ذلك قد جاءت بسكين من سكاكين المعجون لتملا الشقوق
المجعدة في وجهها .

ولحظة أن يسبح هذا المعجون ترتبك ، ويختل مشهد وجهها بخليط
الألوان ؛ ولذلك يقال :

حُسْنُ الْحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيقِ وَفِي الْبِدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرٌ مَجْلُوبٍ
إِذَنْ : فالزينة هي تحسين الشيء بغيره ، والشيء الحسن يستغنى عن الزينة .
وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا
لَا يُخْسِرُونَ ^(٣) (١٥) ﴾ [مرد]

أى : إن كفرتم بالله فهو سبحانه لا يضمن عليكم فى أن يعطيكم مقومات

(١) النحر : أعلى الصدر ، وهو موضع القلادة .

(٢) القلادة : كل ما يوضع حول الرقبة من عنود وحلى وذهب وغيره ، وسُميت الأضاحى ولائد مجازاً
مرسلاً علاقته بالخلاصة ؛ لأن النماذج كانت تُعلم بقلادات في أعناقها . قال تعالى : ﴿ وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا تَعْلَمُ أَلَمُ الْإِلَهِاتِ ﴾ [المائدة] . أى : الأضاحى ذوات القلائد

(٣) الخس : الإنقاص . وبخسه حقه بخساً : نقصه حقه ولم يؤفه . قال تعالى : ﴿ وَلَا تَبْخُسُوا آلَ إِسْحَاقَ ﴾ [الأعراف] [القاموس القويم] .

الحياة وزيتها ؛ لأنه رب ، وهو الذى خلقكم واستدعاكم إلى الوجود ،
وقد ألزم الحق سبحانه نفسه أن يعطيكم ما تريدون من مقومات الحياة
وزيتها ؛ لأنه سبحانه هو القادر على أن يوفى بما وعد ،

وهو سبحانه يقول هنا :

﴿ تَوَفَّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ ۖ ۝ (١٥) ﴾ [هود]

أى : أنهم إن أخذوا بالأسباب فالحق سبحانه يلزم نفسه بإعطاء الشيء
كاملاً غير منقوص ؛

وهم فى هذه الدار الدنيا لا يُنْجَسُونَ فى حقوقهم ، فمن ينفن عمله
ياخذ ثمرة عمله .

وهذا القول الكريم يحلُّ لنا إشكالاً كبيراً نعانى منه ، فهناك مَنْ يقول : إن
هؤلاء المسلمين الذين يقولون : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ويطيعون
الصلاة ، ويبنون المساجد ، بينما هم قومٌ متخلِّقون ومتأخرون عن ركب
الحضارة ، بينما نجد الكافرين وهم يرفلون^(١) فى نعيم الحضارة .

ونقول : إن لله تعالى عطاءً ربوبيةً للأسباب ، فمن أحسن الأسباب
حتى لو كان كافراً ، فالأسباب تعطيه ، ولكن ليس له فى الآخرة من
نصيب ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَقَدْ مَنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَا مَنُورًا ۖ ۝ (٢٣) ﴾ [الفرقان]

والحق سبحانه يجزى الكافر الذى يعطى خيراً للناس بخير فى الدنيا ،
ويجزى الصادق الذى لا يكذب من الكفر بصدق الآخرين معه فى الدنيا ،
ويجزى من يمدُّ يده بالمساعدة من الكفار بمساعدة له فى الدنيا .

(١) رف . جرّ ذيل ثوبه وتبختر فى مشيه . ويرفلون فى النعيم ؛ أى : يعيشون فى رفاهية فرحين بما لديهم
من نعيم ، [المعجم الوسيط] بصرف .

(٢) الهباء المشور : الغبار المتطاير فى الجو . وقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَا مَنُورًا ۖ ۝ (٢٣) ﴾ [الفرقان] أى :
كل عمل عملوه كالهباء المشور لا يعتد به ، ولا قيمة له . [القاموس المقيم] .

وكلها أعمال مطلوبة في الدين ، ولكن الكافر قد يفعلها ، فيرد الله سبحانه وتعالى له ما فعل في الدنيا ، وإن كان قد فعل ذلك ليقال : إن فلاناً عمل كذا ، أو فلاناً كان شهماً في كذا ، فيقال له : « عملت ليقال وقد قيل »^(١) . وإذا كان الكافرون يأخذون بالأسباب ، فالحق سبحانه يعطيهم ثمرة ما أخذوا به من الأسباب .

ويجب أن نقول لمن يتهم المسلمين بالتخلف :

لقد كان المسلمون في أوائل عهدهم متقدمين ، وكانوا سادة حين طبقوا دينهم ، ظاهراً وباطناً ، شكلاً ومضموناً .

وعلى ذلك فالتخلف ليس لازماً ولا ملازماً للإسلام ، وإنما جاء التخلف لأننا تركنا روح الإسلام وتطبيقه .

وإن عقدنا مقارنة بين حال أوروبا حينما كانت الكنيسة هي المسيطرة ، كنا نجد كل صاحب نشاط عقلي مُبدع ينال القتل عقوبة على الإبداع ، وكانت تسمى تلك الأيام في أوروبا « العصور المظلمة » .

وحينما جاءت الحروب الصليبية وعرفت أوروبا قوة الإسلام

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأُتي به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأُتي به ، فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت القرآن وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : عرّاف ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار .

ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأُتي به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : هو جواد . فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار . [أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٠٥) كتاب الإمارة] .

والمسلمين ، ودحرهم^(١) المسلمون ، بدأوا في محاولة الخروج على سلطان البابا والكنيسة ، وعندما فعلوا ذلك تَقَدَّمُوا ،

هم - إذن - عندما تركوا سلطان البابا تقدموا ، ونحن حين تركنا العمل بتعاليم الإسلام تخلفنا ،

إذن : قايُّ الجُرْعَتَيْنِ خَيْرٌ ؟

إن واقع الحياة قد أثبت تقدُّم المسلمين حين أخذوا بتعاليم الإسلام ، وتخلفوا حين تركوها .

وهكذا . . فمعيَّار التقدُّم هو الأخذ بالأسباب ، فمن أخذ بالأسباب وهو مؤمن نال حُسْنَ خَيْر الدنيا وحُسْنَ ثواب الآخرة ، ومن لم يؤمن وأخذ بالأسباب نال خَيْر الدنيا ولم يَتَلْ ثواب الآخرة .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ^(٢) يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ... ﴾ (٣٩) [النور]

(١) دَحَرَهُ يَذْخَرُهُ ذَخَرًا وَذُخُورًا : دفعه وطرده وأبعدَهُ مُهَانًا . ودَحَرَهُ فِي الْحَرْبِ : هَزَمَهُ . قال تعالى : ﴿ ... وَيَقْدِرُونَ مِنْ كُلِّ حَنْبٍ ﴾ (١١٤) دُخُورًا وَكُنْهُمُ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ (٣٩) [الصافات] [القاموس القويم] .

(٢) السراب : ما تراءى في نصف النهار في الأرض الغضاء كأنه ماء وليس بماء . ويقول الله تعالى : ﴿ وَصَوَّرَتْ الْجِبَالَ فَكَانَتْ سُرَابًا ﴾ (٦١) [النبا] أي : صارت لا حقيقة لها ، أي : تشبه السراب في أنها لا حقيقة لها ، أو كالأرض المسطوحة التي يظهر فيها السراب . [القاموس القويم] .

(٣) القاع والقيعة : ما استوى من الأرض وانخفض عما يحيط به من الجبال والأكمات . قال تعالى : ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (٦٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (٦٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (٦٧) ﴾ [طه]

قَاعًا صَفْصَفًا : مكانًا منخفضاً مستوياً معتدلاً ، لا ارتفاع فيه ولا اعرجاج . وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ (٣٩) [النور] أي : بمكان منخفض مُسَوًى ما يظهر فيه السراب عادة ، [القاموس القويم] .

وهكذا يُفاجأ بالآله الذي كذب به .

والحق سبحانه يقول :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ^(١) لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ .. (١٨) ﴾ [إبراهيم]

إذن : فمن أراد الدنيا وزينتها ، فالحق الأعلى سبحانه يوقّيه حسابه ولا يبخسه من حقه شيئاً ، فحاتم الطائي - على سبيل المثال - أخذ صفة الكرم ، وعنترة أخذ صفة الشجاعة ، وكل إنسان أحسن عملاً أخذ أجره ، ولكن عطاء الآخرة هو لمن عمل عمله لوجه الله تعالى ، وآمن به .

وحتى الذين دخلوا الإسلام نفاقاً وحاربوا مع المسلمين ، أخذوا نصيبهم من الغنائم ، ولكن ليس لهم فى الآخرة من نصيب .

إذن : فالوفاء يعنى وجود عَقْد ، وما دام هناك عقد بين العامل والمعمل ، وأتقن العامل العمل فلا بد أن يأخذ أجره دون بَخْس ؛ لأن البَخْسَ هو إنقاص الحق .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ ^(٢) مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) ﴾

(١) عصفت الريح ، تعصف عَصْفًا وَعَصُوفًا : اشتد هبوبها ، والريح عاصف وعاصفة فهي تُذكر وتؤنث ، والريح العاصفة أحياناً تدمر كل شيء تمر عليه . قال تعالى : ﴿ وَلِيُبْلِغَ الرِّيحَ عَاصِفَةً .. (٢٥) ﴾ [الأنبياء] وقال تعالى : ﴿ حَاءَ تِهَاجِرِيعَ عَاصِفٌ .. (٢٦) ﴾ [يونس] وقال تعالى : ﴿ فَالْعَاصِفَاتُ عَصْفًا (٢) ﴾ [المرسلات] هى الرياح الشديدة . [قاموس القويم] .

(٢) حِطَّ العمل : بطل ولم يحقق ثمرته . وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ .. (٩) ﴾ [المائدة] ، وأحبط الله عمله : أبطله وضيعه هباءً . قال تعالى : ﴿ .. فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (١٠) ﴾ [محمد] [قاموس القويم] .

إذن : فالنار مشوى هؤلاء الذين عملوا من أجل الدنيا دون إيمان بالله ، فقد أخذوا حسابهم في الدنيا ، أما عملهم فقد حبط في الآخرة ، والحبط هو انتفاخ الماشية حين تأكل شيئاً أخضر لم ينضج بعد ، ويقال في الريف عن ذلك : « انتفخت البهيمة » أى : أن هناك غارات في بطنها ، وقد يظنها الجاهل سمناً ، لكن هذا الانتفاخ يزول بزوال سببه .

وعمل الكافرين إنما يحبط في الآخرة ؛ لأنه باطل .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنِهِ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ
كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ
مِنَ الْأَحْزَابِ فَاَلْتَارُ مَوْعِدَهُ ۚ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ
مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

والبيئة^(١) هي بصيرة الفطرة السليمة التي تُلقَت الإنسان إلى وجود واجب الوجود ، وتوضح للإنسان أن هذا الكون الجميل البديع لا بُدَّ له من واجد .

وهكذا تكون الهداية بالبصيرة والفطرة .

(١) المربة ، الجدل والشك وكذلك التمارى والامتراء والمراء والمباراة . قال تعالى : ﴿ فَلَا تَعْرَظْهُمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ۚ ﴾ [الكهف] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُنْتَرِينَ ﴾ [البقرة] وقال تعالى : ﴿ فَيَأْتِيهِمْ آلَافُ فَتَعَالَى ﴾ [التجم] [القاموس القويم] .

(٢) بأن الشيء يبين بياضاً ، طهر وانضح ، فهو بَيِّنٌ وهو بيِّنٌ أى : ظاهر ، وظاهرة . ويستعمل البيِّن والبيئنة بمعنى المظهر والمُظهرة ، والموضح والموضحة ، قال تعالى : ﴿ كَمْ أَنبَأَهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ۚ ﴾ [البقرة] أى : واضحة لا شك فيها ، أو هي مُبَيِّنَةٌ للحق مؤيدة له ، مُظهرة لأمره ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِتِلْكَ الْبَيِّنَاتِ ۖ ﴾ [الكهف] أى : ظاهر واضح أو موضح مُظهر للحق [القاموس القويم] .

والعربى القديم حين سار فى الصحراء ووجد بئراً ملقى فى الصحراء ، ورأى أثر قدم ، فقال : «البصرة»^(١) تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، وسما ذات أبراج^(٢) وأرض ذات فجاج^(٣) وبحار ذات أمواج ، أفلا يدل كل ذلك على اللطيف الخبير ؟^(٤) .

وهكذا اهتدى الرجل بالفطرة ، وهى بيئة من الله .

وقد أودع الله سبحانه فى كل إنسان فطرة ، وبهذه الفطرة^(٥) شهدنا فى عالم الذر .

وفى ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذْ أَخَذَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا .. (١٢٢)﴾ [الاعراف]

إذن : خاليتة هى إيمان الفطرة المركوز فى ذرات الأشياء .

وقد تَضَيَّب^(٦) الشهوات هذا الإيمان ، فلا يحمل نفسه على المنهج فىرسل الحق سبحانه رحمة منه رسلاً تذكُرنا بالبينات الأولى ، وتدُلنا على العلل

(١) البصرة : واحد البحر ، وهو رجيع (روث) ذرات الخُفِّ والظلف من الحيوانات .

(٢) الأبراج : جمع بُرْج ، وهى منازل الأفلاك فى السماء أو هى الكواكب . وقيل : هى النجوم . [لسان العرب . مادة : برج] .

(٣) الفجاج : جمع فج . وهو العريق الواسع بين جبلين . ومنه قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٦) يَسْلُكُوا مِنْهَا سَبِيلًا فَجَاجًا (١٧)﴾ [نوح] . وقال : ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تُمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سَبِيلًا لَعَلَّهُمْ يَرْتُدُونَ (٢١)﴾ [الأنبياء] .

(٤) هذه العبارات من خطبة خطبها قُسُ بن ساعدة الإيادى فى الجاهلية . كان أولها : أيها الناس ، اسمعوا رجاء من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت أت . انظر البيان والتبيين للجاحظ (٣٠٨/١) .

(٥) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » أخرجه أحمد فى مسنده (٢٣٣/٢) والطبائسى (٢٤٣٣) ، والترمذى (٢١٣٨) .

(٦) القُصْبُ والتَضَيَّب : تغطية الشئ ودخول بعضه فى بعض . والضباية : سحابة تُغشى الأرض كالدخان وقيل : الضباب والضباية : ندى كالغبار يُغشى الأرض بالغدوات [لسان العرب - مادة : ضب] .

والأحكام حتى تنضمَّ البيئة من الرسل على البيئة من الفطرية في الكائن .

وهكذا يبين الحق سبحانه وتعالى مناهج^(١) الاقتناع بدين الله ، فقد يكون هذا الأمر مجهولاً للخلق ، فيريد سبحانه أن يبين لنا أن هذا الجهل هو جهل غير طبيعي ؛ لأن الفطرة السليمة تهتدي قبل أن يجيء رسولٌ يُلَفِّتُنَا إلى القوة العليا التي تدبر حركة هذا الكون ،

وقد ضربت من قبل مثلاً لذلك بمن سقطت به طائفة في الصحراء ، لا ماء فيها ولا طعام ولا أنيس ولا مأوى ، ثم غلبه النوم فنام ، وحين استيقظ وجد مائدة منصوبة عليها أطيب الطعام وأطيب الشراب ، ووجد صواناً^(٢) منصوباً لمأوى إليه ؛ فلا بد لهذا الإنسان أن يدور بفكره سؤال : من صنع هذا ؟ وهو يسأل نفسه هذا السؤال قبل أن يستمتع بشيء من هذا ، خصوصاً وأنه لم يجد أحداً يقول له : أنت في ضيافتي .

إذن : فلا بد أن يفكر بعقله .

وكذلك الإنسان الذي طرأ على الوجود ، وما ادَّعى واحدٌ من خلق الله تعالى أنه خلق هذا الوجود ، وما ادَّعى أحدٌ أنه خلق السموات والأرض ، وما ادَّعى أحدٌ أنه سخر كل ما في الكون لخدمة الإنسان^(٣) .

وكان من الواجب على الإنسان قبل أن ينعم بهذا ، أن يفكر : من الذي صنع له كل ذلك ؟ فإذا جاء رسول من جنس الإنسان ليقول له : أنا جئت لأحل لك اللغز المطلوب لك .

(١) مناهج الشيء : كل ما تعلق به من أمور . ويطلق به الشيء . وُصِّلَ به . [اللسان : مادة (ن و ط) بتصرف]

(٢) الصوان : الرعاء الذي تُصان فيه الثياب ، أو توضع فيه الأطعمة . انظر [اللسان - مادة صون] .

(٣) يقول تعالى في سورة النحل : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ تُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١٦) وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ (١٧) وهو الذي سخر قبحر لما كَلَّمَا مِنْهُ لَعْنًا طَرِيًّا وَتَسَخَّرَ مِنْهُ جُنًّا مِنْهُ جَلِيَّةٌ تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِيَبْتَلُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨) [النحل]

هنا كان على الإنسان أن يرهف سمعه لذلك الرسول ؛ لأنه قد جاء ليحل للإنسان أمراً يشغل به .

ومن لطف الله سبحانه بنا أنه لم يطلب منا مقدماً أن نفكر في ذلك ، بل تركنا فترة طويلة بلا تكليف في هذه الدنيا ، لينعم الإنسان بخير ربه ، وبعد ذلك إذا ما جاء اكتمال الرشد ونضج ، ولم يكن مكرهاً ؛ فالخلق سبحانه وتعالى يكلفه بشكائيف الإيمان .

ولا بد للإنسان أن يتساءل : فكل شيء - مهما كان ثافهاً - لا بد له من صانع ، والمصباح الذي يضيء دائرة قطرها ٢٠ متراً ، عرفنا صانعه ، ودرسنا المعامل التي أنجزته ، والإمكانات التي تم استخدامها ، والمواد التي صنع منها ، أفلا نعرف تاريخ هذه الشمس ، ومن جعلها لا تحتاج إلى صيانة ولا إلى وقود ولا إلى قطع غيار ، وتبخر نصف الكرة الأرضية ؟

هذه مسألة كان يجب أن نبحثها ؛ لنرى آفاق تلك البيئة ، بيئة نور وقوة وفطرة ، يهبها الله للإنسان المفكر ؛ ليهتدي إلى أن وراء هذا الكون خالقاً مدبراً .

فإذا ما جاء إنسان مثله ليقول له : إن خالق الدنيا هو الله تعالى ، وهو سبحانه يطلب منك كذا وكذا ، كان أمراً منطقياً وطبيعياً أن نسمع لهذا الإنسان ونطابق ما يقول على إحساس الفطرة ورؤية اليينات .

إذن : فنحن نصل إلى المجهول أولاً بالفطرة ، وقد نصل بالبدية التي لا تشوبها^(١) أدنى شبهة ، فأنت حين ترى دخاناً تعتقد بالبدية أن هناك ناراً ، وحين تسير في الصحراء وترى نخصرة ؛ ألا تعتقد أن هناك مياهاً تروبيها ؟

(١) أي : لا تختلط به شبهة ، أي . الفكر البعيد عن الأهواء .

والشوب : ما اختلط بغيره من الأشياء ، وبخاصة السوائل . قال تعالى : **وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَلَيْهَا شُوبَةٌ مِنْ** حميم^(٢) . ويقال : سقاء الذوب بالشوب . الغسل بما يشاب به من ماء أولين . [المعجم الوسيط] .

هذه - إذن - أمور تعرفها بالبديهة ، ولا نحتاج إلى بحث أو جهد .

وهناك أمور قد تتطلب منك جهداً عقلياً تبحث به عما بعد المقدمات ، مثل الجهد العقلي الذي استدل به العربي على أن هناك إلهاً خالقاً يُدير هذا الكون ، فاستدل من البعرة على وجود البعير^(١) ، وأن أثر القدم يدل على المسير ، واستنتج من ذلك أن الكواكب ذات الأبراج ، والأرض ذات الفجاج ، والبحار ذات الأمواج ، كلها أمور تدل على وجود اللطيف الخبير .

كل هذه الأمور لم يقدر العقل إلا على الحكم عليها جملة ، وإن لم يعرف التفصيل .

لقد عرف العقل أن وراء هذا الكون خالقاً ، صانعاً ، حكيماً ، لكنه لم يعرف اسماً له ، وهذا أمر لا يعرفه الإنسان بالعقل ، ولا يعرف أيضاً ما هو المنهج المطلوب لهذا الخالق ، وبماذا يجزى المطيع له ، ولا بماذا يعاقب العاصي له .

إذن : لا بد من بلاغ عن الله تعالى يدل على القوة التي اقتنعت بها جملة . والمفكرون بالعقل في الكون يعلمون أن وراء هذا الكون خالقاً ، لكن لا يعرفون اسمه ، ولا مطلوبه .

إذن : فأنت لا تعرف اسم الله إلا منه ، عن طريق الوحي إلى رسوله ، ولا تعرف مطلوب الله إلا من الرسول الذي أنزل عليه البلاغ .

ومن رحمة الله بالإنسان أنه سبحانه قد أرسل رسولاً ، ومع هذا الرسول معجزة هي القرآن ؛ لأن العقل حتى حين يهتدي إلى قوة القادر الأعلى سبحانه ، فإنها ستظل بالنسبة له مبهمة ، وحين أنزل الحق سبحانه القرآن الكريم فقد أنزله رحمة بعباده وبينة لهم .

(١) البعرة : رجميع (زروث) ذوات الخلف وذوات الظلف من الحيوانات . والبعير : ما صلب للركوب والحمل من الإبل ، وذلك إذا استكمل أربع سنات . ويقال للجمال والناقة : بعير . والجمع : أباعر ، وأباعير ، وبعران . [المعجم الوسيط] .

﴿ أَقْمَنَ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ ^(١) مِّنْهُ .. (١٧) ﴾ [هود]

فالقرآن حجة ونور ، وهو يهدي البصيرة الفطرية الموجودة في الإنسان ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ .. (١٧) ﴾ وهو من أنزل عليه الوحي ، ويخبرنا عن الحق سبحانه وتعالى ما يوضح لنا أن الخالق الأعلى والقوة المطلقة هو الله سبحانه ، ويوضح لنا الشاهد مطلوب الله تعالى .

ونحن هنا أمام ثلاثة شهود :

الشاهد الأول : هو الحجة والبينة .

والشاهد الثاني : هو البرهان والبصيرة التي يهتدي إليها العقل ، والرسول هو من يبين لنا المنهج بعد الإجمال .

وهذا الرسول جاء من قبله كتاب موسى :

﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً .. (١٧) ﴾ [هود]

وهذا هو الشاهد الثالث .

ومن لا يلتفت إلى المدلول بالأدلة الثلاثة مقصّر ؛ فمن عنده تلك البينة ، ومن سمع الشاهد من الرسول ، والشاهد الذي قبله ، وهو كتاب موسى

(١) في تأويل هذا الشاهد أقوال كثيرة ذكرها القرطبي في تفسيره (٤ / ٣٣٤) .

١- أنه محمد ﷺ .

٢- أنه جبريل عليه السلام .

٣- أنه علي بن أبي طالب .

٤- القرآن في نظمه وبلاغته ، والمعاني الكثيرة منه في اللفظ الواحد .

٥- الإنجيل . فهو يتلو القرآن في التصديق وإن كان قبله .

٦- العقل الذي يتلو معرفة الله التي أشرقت لها القلوب .

قال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤٤٠) بعد أن ذكر الأقوال الثلاثة الأولى : فالأول والثاني هو الحق ، وكلاهما قريب في المعنى ، لأن كلا من جبريل ومحمد صلوات الله عليهما بلغ رسالة الله تعالى ، فجبريل إلى محمد ومحمد إلى الأمة ، وقيل : هو علي ، وهو ضعيف لا يثبت له قائل . المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشرعية من حيث الجملة ، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة ، والفطرة تصدقها وتؤمن بها .

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٣٩﴾

عليه السلام وشاهد^(١) بعده إلى نفس قوم موسى لا بد أن يقوده ذلك إلى الإيمان.

وقول الحق سبحانه:

﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ .. (١٧)﴾ [هود]

إشارة إلى من التفتوا إلى الأدلة: بينة ، وشاهداً ، وشاهداً من قبله .

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ^(٢) فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ .. (١٧)﴾ [هود]

والكفر - كما علمنا - هو الستر ، والكفر في ذاته دليل على الإيمان ، فلا يكفر أحد بغير موجود.

فوجود المكفور به سابق على الكفر ، والكفر طارئ عليه .

إذن: فالكفر طارئ على الإيمان ؛ لأن الإيمان هو أصل الفطرة .

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ .. (١٧)﴾ [هود]

وكلمة «أحزاب» جمع حزب . والحزب هو الجماعة الملتقية على مبدأ تتحمس لتنفيذه ، مثل الأحزاب التي نراها في الحياة السياسية ، وهي

(١) المقصود به هنا الإنجيل الذي أرسل به عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل .

(٢) الأحزاب : جمع حزب . وهو الجماعة من الناس اجتمعوا على أمر واحد سواء كان خيراً أو شراً .

يقول تعالى عن حزب الخير: ﴿.. أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ إِنْ حِزْبُ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٣)﴾ [المجادلة] .

وقال تعالى عن حزب الشر: ﴿اسْتَعِذْ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَإِنَّهُمْ ذُرِّيَةُ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٨)﴾ [المجادلة] .

والمقصود بالأحزاب هنا أهل الملل كلها من غير ملة الإسلام . قاله القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٣٥) .

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» .

أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الإيمان - حديث (٢١٠) .

أحزاب بشرية تتصارع في المناهج والغايات ، وهم أحرار في ذلك ؛ لأنهم يتصارعون بفكر البشر .

أما في العقيدة الأولى ، فَمَنْ الْمُخْطَطُ الأعلى ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، فالمنهج يأتي منه ؛ لأن هذا المنهج يوصل إليه ؛ لذلك قال الله سبحانه عَمَّنْ يَتَّبِعُونَ منهجه :

﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ . . (١١)﴾ [المجادلة]

أى : أنهم يدخلون في حزب يختلف عن أحزاب البشر التي تختلف أو تتفق في فكر البشر .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَانَارُ مَوْعِدُهُ . . (١٢)﴾ [هود]

والمقصود بهم كفار قريش عبدة الأوثان ، والصابئة^(١) واليهود والنصارى الذين لم يؤمنوا برسالة رسول الله ﷺ ، وكل منهم جماعة تمثل حزباً ، ويقول عنهم الحق سبحانه :

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٢)﴾ [المؤمنون]

ومن يكفر من هؤلاء برسالة رسول الله ويرسل الله فالجزاء هو النار ، وبذلك بين لنا الحق سبحانه أن هناك حزبين : حزب الله ، والأحزاب الأخرى ، وهما فريقان كل منهما يواجه للآخر .

ويقول الحق سبحانه لرسوله ، والمراد أيضاً أمة محمد ﷺ :

(١) الصابئون : يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام . وقيل : هم عبادة الملائكة ، أو عبادة الكواكب والنجوم ، أو عبادة النار . قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ . . (٢٥)﴾ [البقرة] فهم غير اليهود والنصارى [انظر : القاموس القويم ١/ ٣٦٥] .

سُورَةُ هُودٍ

﴿ ٦٣٩٧ ﴾

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ ۝ (١٧) ﴾ [هود]

أى : لا تكن يا رسول الله فى شك من ذلك ؛ لأن رسالتك وبعثتك تقوم على أدلة البينة والفطرة والهدى والنور المطلوب من الله تعالى ، والشاهد معك ، كما شهد لك من جاء من قبلك أنك جئت بالمنهج الحق :

﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۚ ۝ (١٧) ﴾ [هود]

والحق - كما علمنا من قبل - هو الشيء الثابت الذى لا يعتريه تغيير ، وهذا الحق لا يمكن أن يأتى إلا من إله لا تتغير أفعاله .

وينهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ ۝ (١٧) ﴾ [هود]

وهؤلاء لا يؤمنون عناداً ؛ لأن الأدلة منصوبة بأقوى الحجج ، ومن يمتنع عليها هو مجرد معاند .

والحق سبحانه يقول فى مثل هؤلاء المعاندين :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا (١) أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ ۝ (١٤) ﴾ [النمل]

أى : أنهم مع كفرهم يعلمون صدق الأدلة على رسالة رسول الله ﷺ ، وعلى صدق بعثته ، فيكون كفرهم حينئذ كفر عناد ؛ لأن الأدلة منصوبة بأقوى الحجج ، فيكون من يمتنع على الإيمان بهذه الأدلة إنساناً معانداً .

(١) مزية : الجدل والشك . وهناك قراءة بضم الميم : [القاموس القويم] :

(٢) جحد الحق بجحده جحوداً : أنكره وهو يعلمه . وجحد النعمة : أنكرها ولم يشكرها . وجحد بالآية : كفر بها .

وقال تعالى : ﴿ وَفَلَك عَاقِبَةٌ جَاحِدُوا بِآيَاتِنَا وَهُمْ وَعَصُوا رُسُلَهُ ۚ ۝ (٥٩) ﴾ [هود] [القاموس القويم] .

(٣) استيقن الأمر واستيقن به : مثل أيقنه وأيقن به ، من اليقين وهو الشيء الثابت الواضح الذى لا شك فيه . واستيقنتها أنفسهم : أى : علمتها قرومهم علماً واضحاً . [القاموس القويم] .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾

هذه الآية تبدأ بخبر مؤكد في صيغة استفهام ، حتى يأتي الإقرار من هؤلاء الذين افتروا على الله كذباً ، والإقرار سيد الأدلة .

والواحد من هؤلاء المفترين إذا سمع السؤال وأدار ذهنه في الظالمين ، فلن يجد ظلماً أفدح ولا أسوأ من الذي يفترى على الله كذباً ، ويقر بذلك . وهكذا شاء الحق سبحانه أن يأتي هذا الخبر في صيغة استفهام ، ليأتي الإقرار اعترافاً بهذا الظلم الفظيع .

وهؤلاء المكذبون يُعْرَضُونَ على الله مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ . . . (١٨)﴾ [هود]

والعرض إظهار الشيء الخفى لتقف على حاله .

ومثال ذلك في حياتنا : هو الاستعراض العسكري حتى يبين الجيش قوته أمام الخصوم ، وحتى تبلغ الدولة غيرها من الدول بحجم قوتها .

(١) افتري القول : اختلقه واخترعه . وافترى عليه الكذب : اخترعه . ويقول تعالى : ﴿وَأَمْ يَقُولُونَ نَزَّلَهُ﴾

﴿٣٥﴾ [يونس] أى : اخترع القرآن واختلقه من عند نفسه .

(٢) الأشهاد : أى : الشهداء بالحق ، وأشهاد : جمع شهيد ، مثل أيتام جمع يتيم ، والشهيد صفة مشبهة .

[القاموس القويم] . وفى تعيين الأشهاد فى هذه الآية أقوال : الملائكة الحفظة - الأنبياء والرسل . وقال

قتادة : الخلائق أجمع . قاله القرطبي فى تفسيره ، (٤/ ٣٣٣٦) .

وكذلك نجد الضابط يستعرض فرقته ليقف على حال أفرادها ، ويقيس درجة انضباط كل فرد فيها وحسن هندامه ، وقدرة الجنود على طاعة الأوامر .

ومثال آخر من حياتنا: فنحن نجد مدير المدرسة يستعرض تلاميذها لحظة إعلان نتائج الامتحان ، ويرى المدير والتلاميذ خزي المقصر منهم أو الذي لم يؤد واجبه بالتمام .

فما بالنا بالعرض على الله تعالى ، حين يرى المكذبون حالهم من الخسري ؟ ذلك أنهم سيفاجأون بوجود الله الذي أنكروه افتراءً ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ (١) يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ . . (٢٩)﴾ [النور]

قاي خسري - إذن - سيشتعرون به ؟ !

ويُظهر الحق سبحانه وتعالى ما كان مخفياً منهم حين يعرض الكل على الله تعالى مصداقاً لقوله سبحانه :

﴿وَعَرِضْهَُا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا . . (١٨)﴾ [الكهف]

وكذلك يُعرضون على النار ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا (١) . . (٤٦)﴾ [غافر]

(١) السراب: ما يُرى في نصف النهار على الأرض الغضاء كأنه ماء ، وليس ماء . وهو ظاهرة متعلقة بخداع البصر . والقيعة: الأرض المستوية المنخفضة عما يحيط بها من مرتفعات وكذلك «الفاع» . يقول تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (٢٢٤) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (٢٢٥) لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (٢٢٦)﴾ [طه] [القاموس القويم] . والأرض الصفصف هي الأرض المستوية المساء ، أي : إن الجبال تزول فلا يكون لها أثر ، ولا ترى في مكانها ارتفاعاً ولا هبوطاً ولا عوجاً .

(٢) الغدو: الدخول في أول النهار . والعشي: آخر النهار . وهذه الآية نبئت في حق فرعون وآله . وقامها: ﴿.. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)﴾ [غافر] وهذه الآية أصل في إثبات عذاب القبر عند أهل السنة . انظر: [تفسير ابن كثير ٤ / ٨١] .

وهكذا يظهر الخزي والخجل والمهانة على هؤلاء الذين افتروا على الله تعالى .
وهو سبحانه يعلم كل شيء أزلاً ، ولكنه سبحانه شاء بذلك أن يكشف
الناس أمام بعضهم البعض ، وأمام أنفسهم ، حتى إذا ما رأى إنسان في
الجنة إنساناً في النار ، فلا يستشير هذا الشهيد شفقة المؤمن ؛ لأنه يعلم أن
جزاء المفترى هو النار .

ويا ليت الأمر يقتصر على هذا الخزي ، بل هناك شهادة الأشهاد ؛ لأن
الحق سبحانه وتعالى يقول في نفس الآية :

﴿ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ۚ ﴾ (١٨) [هود]

والأشهاد جمع له مفرد ؛ هو مرة «شاهد» ، مثل «صاحب»
و«أصحاب» ، ومرة يكون المفرد «شهيد» مثل «شريف» و«أشراف» .

والأشهاد منهم الملائكة ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ مَا يَلْفِظُ ^(١) مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ^(٢) ﴾ (١٨) [ق]

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ^(٣) كِرَامًا كَاتِبِينَ ^(٤) يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ ^(٥) ﴾

[الأنعام]

(١) اللفظ : إخراج الشيء من الفم . والمراد به : التكلم ، واللفظ : الرمي والإلقاء عامة . ومنه حديث ابن عمر أنه مثل عما لفظ البحر فنهى عنه . أواد ما يلقبه البحر من السمك إلى جانبه من غير اصطیاد . [اللسان : مادة لفظ] .

(٢) الرقيب لعنيد : الحاضر المستعد لإتيان ما يتكلم به الإنسان في كتابه الحسنات والسيئات . [القاموس الفريسي] .

(٣) الحافظون : أي : الملائكة الرقباء والحافظون عليكم . يقول تعالى : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ^(٤) ﴾ [الطارق] أي : ملك حافظ لها رقيب عليها . ويقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ^(٥) ۖ ﴾ [الأنعام] أي : ملائكة يحفظونكم ويراقبون أعمالكم . [القاموس الفريسي] .

أو شهود من الأنبياء الذين بلغوهم منهج الله ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾ (٤١) [النساء]

وأيضاً الشهيد على هؤلاء هو المؤمن من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، فيبْلُغُهَا إلى غيره ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .. ﴾ (١٤٣) [البقرة]

وكلمة «الشهادة» تعنى : تسجيل ما فعلوا ، وتسجيل أيضاً أنهم بُلِّغُوا المنهج وعاندوه وخرجوا عليه ، فارتكبوا الجريمة التى تقتضى العقاب ، لأن العقوبة لا تكون إلا بجريمة ، ولا تجريم إلا بنص ، ولا نص إلا بإعلام .

ولذلك نجد القوانين التى تصدر من الدولة تحمل دائماً عبارة «يُعمل بالقانون من تاريخ نشره فى الجريدة الرسمية» .

إذن : فحمل الأَشْهاد أن يعلنوا أن الذين أنكروا الرسالة والرسول قد بُلِّغُوا المنهج ، وبُلِّغُوا أن إنكار هذا المنهج وإنكار هذا الرسول هو الجريمة الكبرى ، وأن عقوبة هذا الإنكار هى الخلود فى النار .

ولأن الحق سبحانه وتعالى هو العدل نفسه ؛ لذلك فلا عقاب إلا بالتأكد من وقوع الجريمة ، لذلك لا بد من شهادات متعددة ، ولذلك يأتى الشاهد

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ : اقرأ على القرآن . قال : فقلت يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل . قال : إني أشتهي أن أسمعه من غيرى ، فقرأت النساء حتى إذا بلغت : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾ (١٤٣) [النساء] . رفعت رأسى أو ضممت رجلي إلى جنبى ، فرفعت رأسى فرأيت دموعه تسيل . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٠٦) والبخارى فى صحيحه (٥٠٥٥) .

من الملائكة ، وهو من جنس غير جنس المعروضين ، ويأتى الشاهد من الأنبياء وهو من جنس البشر إلا أنه معصوم .

وكذلك يأتى الشاهد من الإخوة المؤمنين الذين يشهدون أنهم قد بلغوا منهج الإيمان ، ثم تأتى شهادة هى سيدة الشهادات كلها ، وهى شهادة الأيعاض على الكل .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (٢٠) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢١) وَقَالُوا لِمَ لِيُؤْذَنَ لَكُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) ﴿

[فصلت]

فالجوارح تنطق لتقيم الحجة على أولئك المذنبين .

وسؤال المذنبين عن كيفية وقوع النطق لا لزوم له ؛ لذلك نجد السؤال هنا «لم» ؛ لأن الجوارح كانت هى أدوات المذنبين فى ارتكاب الجرائم ؛ لأن اليد هى التى امتدت لتسرق ، واللسان هو الذى نطق قول الزور ، والقلب هو الذى حقد ، والساق هى التى مشت إلى المعصية .

والإنسان - كما نعلم - مركب من جوارح ، وهذه الجوارح لها أجهزة تكون الكل الإنسانى ، ومدير كل الجسم هو العقل ، فهو الذى يأمر اليد لتمتد وتسرق ، أو تمتد لتربت على اليتيم ؛ والعين تأخذ أوامرها من العقل ، فإما أن يأمرها بأن تنظر إلى جمال الكون ، وتعتبر بما تراه من أحداث ، أو يأمرها بأن تنظر إلى الحرام .

(١) يُوزَعُونَ: يُنْفَقُونَ عن التفرق ويُجمعون فى مكان واحد . والوزع : الكف والمنع . يقال : وزعت الجيش إذا حبست أولهم على آخرهم ، ويمتنع عليهم التفرق والانتشار . [انظر : لسان العرب - مادة : وزع] .

سُورَةُ هُودٍ

١٤٠٢

إذن: الجوارح خادمة مطيعة مُسَخَّرَةٌ لذلك الإنسان وإرادته ، لكن الأمر يختلف في الآخرة ، حيث لا أمر لأحد إلا الله .

والحق سبحانه القائل :

﴿ .. لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

فالجوارح تقول يوم القيامة لأصحابها: كنا نفعل ما تأمروننا به من المعاصي رغمًا عنا ؛ لأننا كنا مُسَخَّرِينَ لكم في الدنيا ، والآن انحَلَّتْ إرادتكم عنا فقلنا ما أجبرتمونا على فعله .

وهكذا تعترف الأشهاد ، مُصَدِّقًا لقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى

الظَّالِمِينَ (١٨) ﴾ [هود]

وما داموا قد كذبوا على ربهم ، فالكذب عليه هو الله ، ولا بد أن يطردهم من الرحمة ، وهم قد ارتكبوا قمة الظلم وهو الشرك به والإلحاد^(١) وإنكار الرسول ﷺ والرسالة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ
مُمْكِرُونَ (١٩) ﴾

(١) الملحد: العادل المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه . يقال : قد أَلْحَدَ في الدين أي : حاد عنه . والإلحاد

الظلم في الحرم ، وهو أيضاً الشك في الله ، والميل عن الإيمان به . [انظر : لسان العرب - مادة لحَد]

(٢) عوج : مال وانحنى ولم يكن معتدلاً . وعاج عوجاً (يفتح العين والواو) ، وعوجاً (تكسر العين وفتح

الواو) . قال تعالى : ﴿ قَرَأْنَا عَرَبِيًّا وَعَجَزَ عِوَجٌ .. (٦٨) ﴾ [الزمر] أي : قرأنا مستقيماً في مبادئه

وأحكامه . وقال تعالى : ﴿ وَيُفْرِقْهَا عِوَجًا .. (١٧) ﴾ [هود] أي : أن الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله

يريدون سبيل الله معوجة ، [القاموس القويم] .

وهنا يحدثنا القرآن عن هؤلاء الذين كفروا بالله وآياته ورسوله ﷺ ، ولم يكتفوا بكفرهم ، بل تمادوا وأرادوا أن يصدوا غيرهم عن الإيمان .
وبذلك تعدوا في الجريمة ، فبعد أن أجرموا في ذواتهم ، أرادوا لغيرهم أن يُجرم .

وسبق أن أنزل الحق سبحانه خطاباً خاصاً بأهل الكتاب ، الذين سبق لهم الإيمان برسول سابق على رسول الله ﷺ ، ولكن أعماهم الطمع في السلطة الزمنية فطمسوا الآيات المبشرة برسول الله في كتبهم ، وهم بذلك إنما صدوا عن سبيل الله ، وأرادوا أن تسير الحياة معوجة .
يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٩)

[آل عمران]

وقد أرسل الحق سبحانه رسوله ﷺ ليعدل المعوج من أمور المنهج . والعوج هو عدم الاستقامة والسوائية ، وقد يكون في القيم ، وهي ما قد خفي في المعنويات ، فتقول : أخلاق فلان فيها عوج ، وأمانة فلان فيها عوج .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ ۝ (١) ﴾

[الكهف]

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنها عنها يقول الله سبحانه :

﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۖ ۝ (١٩) ﴾

[مرد]

(١) ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ : أى : أنه قرآن مستقيم سليم في أحكامه ومبادئه ولا اعوجاج فيه . [القاموس القديم] بتصرف .

سُورَةُ هُودٍ

٥٠٦٤

أما في الأمور المحسنة فلا يقال: «عوج»، بل يقال: «عَوَج»، فأنت إذا رأيت شيئاً معوجاً في الأمور المحسنة تقول: عَوَجٌ^(١).

لكننا نقرأ في القرآن قول الحق سبحانه:

﴿وَيَأْتُونَكَ مِنَ الْجِبَالِ فَفُتِلَ يَتَسِفُّهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا^(٢) (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا^(٣) (١٠٧)﴾ [طه]

وقد أوردتها الحق سبحانه هنا بهذا الشكل لدقة الأداء القرآني؛ لأن هناك عوجاً حسيماً يحسه الإنسان، مثلما يسير الإنسان في الصحراء؛ فيجد الطريق منبسطاً ثم يرتفع إلى ربوة ثم ينسط مرة أخرى، ثم يقف في الطريق جبل، ثم ينزل إلى واد، وأي إنسان يرى مثل هذا الطريق يجد فيه عوجاً.

أما إذا كنت ترى الأرض مبسوطة مسطوحة كالأرض الزراعية، فقد تظن أنها أرض مستوية، ولكنها ليست كذلك؛ بدليل أن الفلاح حين يغمر الأرض بالمياه، يجد بقعة من الأرض قد غرقت بالماء، وقطعة أخرى من نفس الأرض لم تمسها المياه، وبذلك نعرف أن الأرض فيها عوج لحظة أن جاء الماء، والماء - كما نعلم - هو ميزان كل الأشياء المسطوحة.

(١) قال ابن منظور في اللسان (مادة عوج): «هو يفتح لعين مختص بكل شخص مربى كالأجسام، وبالكسر بما ليس بمربى كالرأى والقول»، وقيل: الكسر يقال فيهما معاً، والاول أكثر.

(٢) ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾: القاع الأرض المستوية المنخفضة عما حولها. والصفصف الأرض المساء المستوية. أي: أن الجبال تزول «تلا يكون لها أثر». [القاموس القويم].

وذكر ابن كثير في تفسيره أن الله تعالى يذهب الجبال عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسيراً، فيجعلها - أي: الأرض - قاعاً صفصفاً، أي: بساطاً واحداً، والقاع هو المستوى من الأرض، والصفصف تأكيد لمعنى استواء الأرض بمرئته، وقيل: الذي لا يات فيه والاول أولى وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللام ولهذا قال: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ أي: لا ترى في الأرض يومئذ واحداً ولا رابية ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً. قاله ابن عباس وعكرمة وأخرون. (ابن كثير ٣/ ١٦٥).

(٣) ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه] أي: أنها مساء مستوية، لا انحراف فيها بمئة ولا بسرة، فلا ميل فيها مطلقاً ولا انخفاض فيها ولا ارتفاع. [القاموس القويم].

ولذلك حين نريد أن نحكم استواء جدار أو أرض ، فنحن نأتي بميزان الماء ؛ لأنه يمنع حدوث أى عوج مهما بلغ هذا العوج من اللطف والدقة التى قد لا تراها العين المجردة .

وفى يوم القيامة يأثى أصحاب العوج فى العقيدة ، ويصورهم الحق سبحانه فى قوله :

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝١٠٨﴾ [طه]

هم إذن - يصطفون بلا اعوجاج ، كما يصطف المجرمون تبعاً لأوامر من يقودهم إلى السجن ، فى ذلة وصغار^(١) ولا ينطقون إلا همساً .
وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيُبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝١٩﴾ [هود]

والسبب فى صدّهم عن سبيل الله أنهم يريدون الحال مُعْوجاً ومائلاً ، وأن يُنْفِرُوا الناس من الإيمان ليضمثوا لأنفسهم السلطة الزمنية ويفسدون فى الأرض ؛ لأن مجيء الإصلاح بالإيمان أمر يزعجهم تماماً ، ويسلب منهم ما يتفعون به بالفساد .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أى : يوم القيامة الذى يرون فيه هذه الأحوال والأموال فيستحيون مسارعين إلى الداعى حيثما أمروا بادروا إليه ، ولو كان هذا فى الدنيا لكان أنفع لهم . وقال قتادة : لا عوج له أى : لا يميلون عنه وخشعت : سكنت . [تفسير ابن كثير : ٣ / ١٦٥] .

(٢) خشعت الأصوات : خفت وهذأت ، كناية عن شدة الرهبة والخوف يوم القيامة . [القاموس القويم - ١٩٤ / ١]

(٣) الصغار (بفتح الصاد المشددة) : الخضوع فى دل ومهانة . [لسان العرب - مادة : صغر]

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ^(١) فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ
السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

والإعجاز هو الامتناع ، وأعجزت فلاناً ، أى : برهنت على أنه ممتنع
عن الأمر وغير قادر عليه .

وقد تجلّى الإعجاز - على سبيل المثال - فى عجز هؤلاء الذين أنكروا
أن القرآن معجزة أن يأتى بآية من مثله .

والمعجز فى الأرض هو من لا تقدر عليه .

ويبين لنا الحق سبحانه فى هذه الآية أن هؤلاء الكافرين لا يعجزون الله
فى الأرض ، بدليل أن هناك نماذج من أم قد سبقت وكفرت ، فمنهم من
أخذته الرياح ، ومنهم من خسف الله بهم الأرض ، ومنهم من غرق ، وإذا
انتقلوا إلى الآخرة فليس لهم ولى أو نصير من دون الله ؛ لأن الولى هو
القريب منك ، ولا يقرب منك إلا من تحبه ، ومن ترجو خيره .

فإذا قُرب منك إنسان له مواهب فوق مواهبك ، نضع عليك من
مواهبه ، وإذا كان من يقرب منك قوياً وأنت ضعيف ، ففى قوته سياج
لك ، وإن كان غنياً ، فغناه ينضع عليك ، وإن كان عالماً أفادك بعلمه ،
وإن كان حليماً أفادك بحلمه لحظة غضبك ، وكل صاحب موهبة تعلق
موهبتك وأنت قريب منه ، فسوف يفيدك من موهبته .

(١) أعجزه : جعله عاجزاً عن ثيله وأملت منه ، فلم يقدر عليه . قال تعالى : ﴿ .. إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ (٥٥) ﴿

[الأنفال] أى : لا يعجزون الله إدراكهم وتمذيبهم وأخذهم بذنوبهم ، فلن يفلتوا . وقال تعالى :

﴿ لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا أَهَمُّ الْبَارِ .. ﴾ (٥٧) [النور] . [القاموس القويم - ٧ / ٢]

والولى هو النصير أيضاً ؛ لأنك أول ما تستصرخ سيأتى لك القريب منك .
وهؤلاء الذين يصدّون عن سبيل الله لن يجدوا ولياً ولا نصيراً فى الآخرة -
وإن وجدوه فى الدنيا - لأن كل إنسان فى الآخرة سيكون مشغولاً بنفسه :

﴿يَوْمَ تَرَوْنها تَذَلُّ^(١) كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ
حَمْلَهَا وَتَرى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ^(٢)﴾
[الحج]

ويقول الحق سبحانه :

﴿يَأْتِيها النَّاسُ أَتَقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ
وَلَا مَوْلودٌ هُوَ جازٍ^(٣) عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ..^(٤)﴾
[لقمان]

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ^(٥) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ^(٦) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ^(٧) لِكُلِّ
أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ^(٨)﴾
[عبس]

إذن : فهؤلاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله لا يُعْجِزُونَ الله فى
الأرض ، ولا يجدون الولى أو النصير فى الآخرة ، بل :

﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ..^(٩)﴾
[هود]

(١) تَذَلُّ : تعطل عما ترضعه ، كناية عن شدة الهول والفرع . والذهل عن الشيء : تركه عن عمد أو الغفلة عنه ونسيانه لشغل . [لسان العرب - مادة : ذهل]

(٢) جازٍ : اسم فاعلٍ من التعلل جازى . وحزى عنه : قضى الحق نياية عنه أو كفى بدلائمه فى أمر . وقال تعالى : ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَعْزى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ..^(١٥)﴾ [البقرة] .

أى : لا تغنى ولا تقضى . والمراد بقوله تعالى : ﴿وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَعْزى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلودٌ هُوَ جازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ..^(٣٠)﴾ [لقمان] . أى : أن كلا منهما لمير دافع عن الآخر شيئاً من العذاب [القصاص] .
[التقويم] يتصرف .

ونحن نفهم الضَّعْفَ على أنه الشيء يصير مرتين ، ونظن أن في ذلك قوة ، ونقول : لا ؛ لأن الذي يأتي ليسند الشيء الأول ويشفع له ، كان الأول بالنسبة له ضعيف .

إذن : فالمُضَاعَفَةُ هي التي تظهر ضعف الشيء الذي يحتاج إلى ما يدعمه .
ومُضَاعَفَةُ العذاب أمر منطقي لهؤلاء الذين أرادوا الأمر عوجاً ، وصدوا عن سبيل الله تعالى ، وأرادوا بذلك إضلال غيرهم .
وقول الحق سبحانه :

﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۖ ۝ (٢٠) ﴾ [هود]

لا يتناقض مع قوله الحق :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ۖ ۝ (٦٦) ﴾ [الأنعام]

لأن هؤلاء الذين صدوا عن سبيل الله ليس لهم وزر واحد ، بل لهم وزران : وزر الضلال في ذواتهم ، ووزر الإضلال لغيرهم .
وهناك آية تقول :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ ۝ (٦٨) يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ ۖ ۝ (٦٩) ﴾ [الفرقان]

أى : أن مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ مُضَاعَفَةً للعذاب . لماذا ؟

(١) وزر الشيء يزره وزراً حملاً . ويأتي في الأحمال الثقيلة ، ويستعار للذنوب . والمراد بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ۖ ۝ (٦٦) ﴾ [الأنعام] . أى : لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى [القاموس القويم] .

(٢) ومن يفعل ذلك يلقى أثاماً : أى . أن من يفعل تلك الذنوب والآثام يلقى جزاء إثمه ويعاقب عليه .
والإثم : فعل ما نهى الله تعالى عنه . [القاموس القويم] .

لأنه كان أسوة لغيره في أن يرتكب نفس الجرم .

والحق سبحانه وتعالى لا يريد للذنوب أن تنتشر ، ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يحض على أن يرى المؤمنون من ارتكب الجرم لحظة العقاب ، مثلما يقول سبحانه في الزنا :

﴿ .. وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢)

[النور]

وحين يرى المؤمنون وقوع العقوبة على جريمة ما ، ففي ذلك تحذير من ارتكاب الجرم ، وحد من وقوع الجرائم .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواتمها عنها يضاعف العذاب لأولئك الذين صدّوا عن سبيل الله ، وأرادوا إضلال غيرهم ، فارتكبوا جريمتين :

أولاهما : ضلالهم .

والثانية : إضلالهم لغيرهم .

ولذلك نجد بعضاً من الذين أضلّوا يقولون يوم القيامة :

﴿ .. رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ (٢٩)

[فصلت]

ويقولون أيضاً :

﴿ .. رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَا ﴾ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنَا كَبِيرَا ﴾ (٦٨)

[الأحزاب]

(١) طائفة : جماعة أو فرقة من الناس . ذهب الإمام مالك إلى أن الطائفة أربعة نفر فصاعداً لأنه لا يكفي شهادة في الزنا إلا أربعة شهداء فصاعداً . وبه قال الشافعي وقال ربيعة : خمسة . وقال الحسن البصري : عشرة . انظر [ابن كثير (٣/ ٢٦٦)] .

(٢) السادات والكبراء : قال مقاتل : السادات هم أشرف القوم وعظمائهم . والكبراء : هم العلماء . قاله ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥١٩) وعزاه لابن أبي حاتم .

سُورَةُ هُودٍ



إذن : فالندعوة إلى الانحراف إضلال ، وعمل الشيء بالانحراف
إضلال ؛ لأنه أسوة أمام الغير .

ومضاعفة العذاب لا تعنى الإحراق مرة واحدة في النار ؛ لأن الحق
سبحانه لو تركنا للنار لتحرقنا مرة واحدة لانتهى الإيلام ؛ ولذلك أراد الحق
سبحانه أن يكون هناك عذاب بعد عذاب .

يقول الحق سبحانه :

﴿ كَلَّمَا نَضِجَتْ ^(١) جُلُودُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا
الْعَذَابَ ۖ ﴾ (٥٦)

[النساء]

فهو عذاب على الدوام .

أو أن العذاب الذي يضاعف له لون آخر ، فهناك عذاب للكفر ،
وهناك عذاب للإفساد .

يقول الحق سبحانه :

﴿ .. زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ (٨٨)

[النحل]

فالعذاب على الكفر لا يلغى العذاب على المعاصي التي يرتكبها
الكافر ^(٢) .

فإذا كانت الشاة القرناء يُقتصرُ للشاة الجللحاء منها ^(٣) ، أي : أن الشاة
التي لها قرون وتنطح الشاة التي لا قرون لها ، فيوم القيامة يتم القصاص

(١) نضج اللحم : أيه وصلابته لأن يؤكل . والمراد احترقت جلودهم .

(٢) لأنه لم يؤمن بالدين الذي يجب أن يؤمن به ، لهذا لم ينج من العذاب ، ويعذب أيضاً لمخالفته لمنهج الله
(ثم كان مؤمناً برسول الله أو لم يؤمن بالرسول ولكن كان مخالفاً للفطرة .

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال : « لنزود الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد
للشاة الجللحاء من الشاة القرناء » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٨٢) كتاب البر والصلة . والجللحاء : هي
الشاة ذهب شعر مقدم رأسها ، وهي هنا بمنزلة الجماء التي لا قرنة لها .

منها ، رغم أنه لا حساب للحيوانات ؛ لأنها لا تملك الاختيار ، ولكنها سوف تُستخدم كوسيلة إيضاح لميزان العدالة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ .. يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ ﴾ وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ ﴿٢٠﴾

[هود]

أى : ما كانوا يستطيعون الاستفادة من السمع رغم وجود آلة السمع ، فلم يستمعوا لبلاغ الرسول ﷺ ، ولا استطاعوا الاستفادة من أبصارهم ليروا آيات الله سبحانه وتعالى فى الكون ، فكانهم صُمُّ عُمًى ، أو يضاعف لهم العذاب مدة استطاعتهم السمع والإبصار .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ .. ﴿٣٨﴾

[مريم]

أى : أن سمعهم وأبصارهم ستكون سليمة وجيدة فى الآخرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ ﴿٤١﴾

(١) السمع : حس الأذن ، ويطلق على الأذن ، وعلى الأذن ، بلفظه لأنه مصدر . وقال تعالى : ﴿ خُتِمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ .. ﴿٧﴾ [البقرة] أى : ختم على أذانهم فلا تسمع ، والمراد : أنهم يسمعون ولا يفهمون . [القاموس القويم] .

(٢) أسمع بهم وأبصر : فعل تعجب من « سمع » ومن « أبصر » أى : ما أدق سمعهم وبصرهم ، وما أعجب شأنهم يوم القيامة ، إذ يرى كل أعماله فى الدنيا ، ويسمع كل ما قاله فى لحظات ليشهد على نفسه . [القاموس القويم] .

إذن : فهم خسروا أنفسهم ؛ لأنهم بظلم النفس وإعطائها شهوة عاجلة زمنها قليل ، أخذوا عذاباً آجلاً زمنه خالد .

وفى هذا ظلم للنفس ، وهذه قمة الخيبة ، وهذا يدل على اختلال الموازين . وأنت قد تظلم غيرك فتأخذ من عنده بعضاً من الخير لتستفيد به ، وبذلك تظلم الغير لصالح نفسك .

وظلم النفس يعنى أنك تعطيها متعة عاجلة وتغفل عنها عذاباً آجلاً ، والمتعة العاجلة لها مدة محدودة ، أما العذاب فلا مدة تحدده .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٧٦)

[هود]

أى : لم يهتد إليهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله ، ولو كان لهؤلاء الذين عبدوهم قوة يوم القيامة ؛ لهرعوا إليهم ليستنقذوهم من العذاب ، ولكنهم بلا حول ولا قوة ؛ لأن الحق سبحانه قد حكم على هؤلاء الكافرين ، وقال :

﴿ .. وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (٧٧)

[التوبة]

وكذلك هؤلاء الآلهة المعبودة من دون الله تعالى ، أو شركاء مع الله ، لا يهتدون إليهم ، حتى يفرض قدرتهم على النصرة ، فتلك الآلهة أو الشركاء لا يهتدون إليهم ؛ ولا يعرفون لهم مكاناً .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ .. ﴾ (٦١)

[هود]

أى : غاب وثاه عنهم .

(١) ضل الكافر : غاب عن الحق المقتضى ؛ وعُدل عن الطريق المستقيم ولم يعرف الحق ، والضلالة : النسيان والضياع ؛ وضل الشيء : ضاع وغاب ؛ فهو فعل لازم ، وضل المسافر الطريق : لم يعرفه فهو متعد [القاموس القويم - ينصرف]

[هود]

وقوله سبحانه: ﴿... مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ (٢١)﴾

أى: ما كانوا يدعونه كذباً.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسِرُونَ (٢٢)﴾

واختلف العلماء فى معنى كلمة ﴿لَا جَرَمَ﴾ ، والمعنى العام حين تسمع كلمة ﴿لَا جَرَمَ﴾ أى: حق وثابت ، أو لا بد من حصول شئ محدد.

وحين يقول الحق سبحانه:

﴿لَا جَرَمَ أَن لَّهُمُ النَّارُ . (٢٢)﴾

[النحل]

أى: حق وثبت أن لهم النار ؛ نتيجة ما فعلوا من أعمال ، وتلك الأعمال مقدمة بين يدي عذابهم ، فحين نسمع ﴿لَا جَرَمَ﴾ ومعها العمل الذى ارتكبه ، تلقى فى أنه يحق على الله - سبحانه - أن يعذبهم.

وقال بعض العلماء^(١): إن معنى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ حق وثبت.

وقال آخرون^(٢): إن معنى ﴿لَا جَرَمَ﴾ هو لا بد ولا مقر.

(١) لا جرم: لا محالة ولا بد ، وتحولت إلى معنى القسم فصارت بمنزلة قولنا: حقاً. وهى هنا بمعنى «حقاً». وقد وردت فى القرآن فى خمسة مواضع:

الأول: سورة هود - آية ٢٢ وهى التى يصدد تفسيرها هنا.

الثانى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُخْفُونَ إِنَّهُ لَا يَجِبُ الْمُسْكِرِينَ (٥٢)﴾ [النحل].

الثالث: ﴿... لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارُ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ (٥٧)﴾ [النحل].

الرابع: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٠)﴾ [النحل].

الخامس: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ . (٦٦)﴾ [غافر].

(٢) قاله الخليل بن أحمد الفراهيدى ، وسيبويه . فـ «لا» و «جرم» عندهما كلمة واحدة ، وأن «عندهما» فى موضع رفع . وهذا قول الفراء ومحمد بن يزيد . انظر تفسير القرطبي (٤/ ٣٣٣٨).

(٣) قال المهدوى: وعن الخليل أيضاً أن معناها لا بد ولا محالة . وهو قول الفراء أيضاً . ذكره الثعلبي: انظر تفسير القرطبي (٤/ ٣٣٣٨).

والمعنيان ملتقيان لأن انتفاء البُدْيَةِ^(١) يدل على أنها ثابتة .

وكان يجب على العلماء أن يبحثوا في مادة الكلمة ، ومادة الكلمة هي «الجرم» ، والجرم : هو القطع^(٢) ، ويقال : جرم يده ، أى : قطع يده .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴾ (٢٢) [هود]

أى : لا قطع لقول الله فيهم بأن لهم النار ، ولا شيء يحول دون ذلك أبداً ، ولا بد أن ينالوا هذا الوعيد ؛ وهكذا التضى المعنى بـ «لا بد» .

إذن : فساعة تسمع كلمة «لا جرم» ، أى : ثبت ، أو لا بد من حدوث الوعيد .

وأيضاً تجد كلمة «الجريمة» مأخوذة من «الجرم» ، وهى قطع ناموس مستقيم ، فحين تقرر ألا يسرق أحد من أحد شيئاً ، فهذا ناموس مستقيم ، فإن سرق واحد من آخر ، فهو قد قطع الأمن والسلام للناس ، وأى جريمة هى قطع للمألوف الذى يحيا عليه الناس .

وأيضاً يقال : جرم^(٣) الشيء أى : اكتسب شره ، ومنه الجريمة ، ولذلك يقال : من الناس من هو «جارم» وهى اسم فاعل من الفعل : «جرم» ، مثل كلمة «كاتب» من الفعل «كتب» و«مجروم عليه» وهى اسم مفعول ، مثلها مثل «مكتوب» .

فإن أخذت الجريمة من قطع الأمر السائد فى النظام ، فهؤلاء الذين افتروا على الله وظلموا وصدوا عن سبيل الله ، فلا جريمة فى أن يعذبهم الله بالنار .

(١) البدل : التصيب من كل شيء . ولا بد منه إلا مفرق . [المعجم الوسيط] .

(٢) الجريمة : ما قطع من السر (السر) . [المعجم الوسيط] .

(٣) جرم الشيء ، جرماً : قطعه وغلب على فعل الشر . يقال : جرم أنذب وجنى جناية ، وجرم المال : كسبه من أى وجه . وجرمه : حملته على فعل شر أو فنب أو جرم . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ٱلَّذِينَ قَاتَلُوا ۚ ﴾ [البقرة] أى : لا يحملكنم بغض قوم على عدم العدل ،

ومثل هذه العقوبة ليست جريمة ؛ لأن العقوبة على الجريمة ليست جريمة ؛ بل هي مَنع للمجريمة^(١) .

وهكذا تلتقى المعانى كلها ، فحين نقول : ﴿لَا جَرَمَ﴾ فذلك يعنى أنه لا جريمة فى الجزاء ؛ لأن الجريمة هى الآثام العظيمة التى ارتكبوها .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠)﴾ [الشورى]

وقد سماها الحق سيئة ؛ لأنها تسيء إلى المجتمع ، أو تسيء إلى الفرد نفسه .
ولهذا يقول الحق سبحانه :

﴿وَأِنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوِّلْتُمْ بِهِ .. (٤٦)﴾ [النحل]

وهكذا نجد أن هناك معانى متعددة لتأويل قول الحق سبحانه : ﴿لَا جَرَمَ﴾ ، فهى تعنى : لا قطع لقول الله فى أن المشركين سيدخلون النار ، أو لا بد أن يدخلوا النار ، أو حى وثبت أن يدخلوا النار ، أو لا جريمة من الحق سبحانه عليهم أن يفعل بهم هكذا ؛ لأنهم هم الذين فعلوا ما يستحق عقابهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخِسُونَ (٦٢)﴾ [هود]

وكلمة (الآخسرون) جمع «أخسر»^(٢) وهى أفعل تفضيل لخاسر ، وخاسر اسم فاعل مأخوذ من الخسارة .

(١) ولذلك قال سبحانه : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢٨)﴾ [البقرة] قال ابن كثير فى تفسيره (٢٨/١) : «إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه ، فكان فى ذلك حياة للنفس . قال أبو العالية : جعل الله القصاص حياة ، فكم من رجل يريد أن يقتل فتنبهته مخافة أن يقتل .»

(٢) أخسر : صيغة أفعل التفضيل ، ونفجذ المبالغة فى المعنى ، أى . أكثر وأشد خسارة . (راجع : لسان العرب - مادة : خسر)

سُورَةُ هُودٍ

٦٤١٧

والخسارة في أمور الدنيا أن تكون المبادلة إجحافاً^(١) لواحد ، كأن يشتري شيئاً بخمسة قروش وكان يجب أن يبيعها بأكثر من خمسة قروش ، لكنه باعها بثلاثة قروش فقط ، فبعد أن كان يرغب في الزيادة ، باع الشيء بما ينقص عن قيمته الأصلية .

ومن يفعل ذلك يسمى «خاسر» ، والخسارة في الدنيا موقوتة بالدنيا ، ومن يخسر في صفقة قد يربح في صفقة أخرى .

ولنفترض أنه قد خسر في كل صفقات الدنيا ، فما أقصر وقت الدنيا ! لأن كل ما ينتهي فهو قصير ، لكن خسارة الآخرة لا نهاية لها .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ ^(٢) بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ^(٣) الَّذِينَ ^(٤) ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ^(٥) ﴾ [الكهف]

وهكذا وصفهم الحق سبحانه مرة بأنهم الأخسرون ، ومرة يقول سبحانه واصفاً الحكم عليهم :

﴿ .. أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ^(٦) ﴾ [الزمر]

(١) الجحف والمجاحفة : أخذ الشيء وجترأفه . والجحف : شدة الجرف . والإجحاف : الظلم الشديد . [انظر : لسان العرب : مادة جحف] .

(٢) أنباء بالشيء ، ونباء به : أخبره به وذكر له قصته . والنبأ : الخبر ، أو الخبر ذو الشأن والقصة ذات البال والإنباء أيضاً . التحديث ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَنُنَبِّئُكُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ^(٥) ﴾ [الحجر] . أى : حدثكم . [القاموس القويم ٢ / ٢٥٠]

(٣) الآية عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية بحسب أنه مصيب فيها وأن عمله مقبول وهو مخطئ ، وعمله مردود ، فتجدهم يعتقدون أنهم على شيء وأنهم مقبولون مجربون ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَاقَهُ جِثَامٌ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ^(٦) ﴾ [النور] . [تفسير ابن كثير ٣ / ١٠٧] بتصرف .

وهو خسران محيط يستوعب كل الأمكنة .

وشاء الحق سبحانه بعد ذلك أن يأتي بالمقابل لهؤلاء ، وفى ذلك فيض من الإيتاسات المعنوية ؛ لأن النفس حين ترى حكماً على شيء تأتس أن تأخذ الحكم المقابل على الشيء المقابل .

فحين يسمع الإنسان قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٢ ﴾ [الأنفطار]

فلا بد أن يأتي إلى الذهن تساؤل عن مصير الفُجَّار ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤ ﴾ [الأنفطار]

وهذا التقابل يعطى بسطة النفس الأولى وقبضة النفس الثانية ، وبين البسطة والقبضة توجد الموعظة ، ويوجد الاعتبار .

ويأتى الحق سبحانه هنا بالمقابل للمشركين الذين صدوا عن سبيل الله ، فصاروا إلى النار ، والمقابل هم المؤمنون أصحاب العمل الصالح .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَاخْتَبَوْا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٢٣ ﴾ [٢٣]

(١) الأبرار : جمع برّ ، وهو الرجل الصادق الصالح صاحب الطاعة والإحسان . والبر : هو الذى يبر والديه فيحسن إليهما . [لسان العرب - مادة : برو] يتصرف .

(٢) الفجار : جمع فاجر ، وهو المنبعث فى المعاصى ، غير مكترث ولا مبال ، وهو أيضاً من بالغ فى العصيان وجهريه . [أنقاموس القويم ٧٣ / ٢] يتصرف .

(٣) اختبوا إلى ربهم : تواضعوا وخشعوا وساروا فى الطريق المستقيم المظمن الواسع . وقال تعالى : ﴿ وَتَشْرِي الْمُضْحَبَتَيْنِ ۝٢١ ﴾ [الحج] . أى : الحاشعيتين . والخبث : المكان الواسع المظمن من الأرض . [أنقاموس القويم] .

الإيمان - كما نعلم - أمر عقدي ^(١) ، يعلن فيه الإنسان إيمانه بإله واحد موجود ، ويلتزم بالمنهج الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على الرسول ﷺ ، ومن آمن بالله تعالى ولم يعمل العمل الصالح يتلقَّ العقاب ؛ لأنَّ فائدة الإيمان إنما تتحقق بالعمل الصالح .

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول لنا :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا ^(٢) وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا .. (٦٤) ﴾

[الحجرات]

أي : اتبعتم ظاهر الإسلام .

وهكذا نعرف أنه يوجد مُتيقَّن بصحة واعتقاد بأن الإله الواحد الأحد موجود ، وأن الرسول ﷺ مُبلَّغ عن الله عز وجل ؛ لكن العمل الذي يقوم به الإنسان هو القيصَل بين مرتبة المؤمن ، ومرتبة المعلم .

فالذي يُحسن العمل هو مؤمن ، أما من يؤدي العمل بتكاسل واتباع لظواهر الدين ، فهو المسلم ، وكلاهما يختلف عن المنافق الذي يدَّعي الحماس إلى أداء العبادات ، لكنه يُمكر ويبيِّت ^(٣) العداة للإسلام الذي لا يؤمن به .

وكان المنافقون على عهد رسول الله ﷺ أسبق الناس إلى صفوف الصلاة ، وكانوا مع هذا يكتُمون الكيد ويدبرون المؤامرات ضد النبي ﷺ .

(١) قال ابن منظور في اللسان (مادة عقد) : «اعتقد كذا بقلبه ، وليس له معقود ، أي : عقد رأي . وفي الحديث : أن رجلاً كان يبايع وفي عقده ضعف ، أي : في رأيه ونظره في مصالح نفسه . فالإيمان أمر يعتقده القلب .

(٢) الإيمان هو اعتقاد القلب الجازم الذي لا يداخله شك بالأمور الغيبية من [إيمان بالله واليوم الآخر والكتب والرسل وما لا يراه الناس ، أما الإسلام فهو الالتزام الظاهري بأحكام الدين من صلاة وصيام وغيرهما وإن لم يكن في القلب إيمان . فالإيمان وحسه أمر يعلمه الله من قلب كل عبد .

(٣) يَبِّتُ أمراً : دَبَّرَهُ في خفاء ، كأنه دَبَّرَهُ في الليل ليخفيه . يقول تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَأُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبْهِنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١) ﴾ [النساء] .

[القائم من الفرق - ١/ ٨٩]

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ ۝ (٢٢) ﴾ [هود]

هذا القول يبين لنا أن معيار الإيمان إنما يعتمد على التوحيد ، وإتقان أداء ما يتطلبه منهج الله سبحانه ، وأن يكون كل ذلك بإخبات وخضوع ، ولذلك يقال: رُبُّ معصية أورث ذلاً وانكساراً ، خير من عبادة أورث عزاً واستكباراً.

أى: أن المؤمن عليه ألا يأخذ العبادة وسيلة للاستكبار^(١).

وكلمة ﴿أَخْبَتُوا﴾ أى: خضعوا خشية لله تعالى ، فهم لا يؤدون فروض الإيمان لمجرد رغبتهم فى ألا يعاقبهم الله ، لا بلى يؤدون فروض الإيمان والعمل الصالح خشية لله .

وأصل الكلمة من «الخبث» وهى الأرض السهلة المظمتة المتواضعة ، وكذلك الخبت فى الإيمان.

ويصف الحق سبحانه أهل الإيمان المختبين بأنهم :

﴿ .. أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ (٢٣) ﴾ [هود]

أى: الملازمون لها ، وخلودهم فى الجنة يعنى أنهم يقيمون فى النعيم أبداً ، ونعيم الجنة مقيم ودائم ، على عكس نعيم الدنيا الذى قد يفوته الإنسان بالموت ، أو يفوت النعيم الإنسان بالسلب^(٢) ، لأن الإنسان فى الدنيا عرضة للأغيار ، أما فى الآخرة ، فأهل الإيمان أصحاب العمل الصالح المختبون لربهم ، فهم أهل النعيم المقيم أبداً.

(١) الاستكبار: التعظيم والتجبر على الناس وظلمهم بغير الحق ، وصيغة استفعل تشعر بتكلف وإدعاء الشيء ، فالمستكبر يدعى أو يظن فى نفسه أنه كبير .

(٢) السلب: هو سلب النعمة من الإنسان .

وهكذا عرض الحق سبحانه حال الفريقين : الفريق الذى ظلم نفسه بافتراء الكذب على الله ، وصدوا عن سبيل الله ، وابتغوا الأمر عوجاً ، هؤلاء لن يُعجزوا " الله ، وليس لهم أولياء يحمونهم من العذاب المضاعف .

وهم الذين خسروا أنفسهم ، ولن يجدوا عوناً من الآلهة التى عبدوها من دون الله ، ولا شىء بقادر على أن يفصل بينهم وبين العذاب ، وهم الأخسرون .

أما الفريق الثانى فهم الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة بخشوع وخشية ومحبة لله سبحانه وتعالى ، وهم أصحاب الجنة الخالدون فيها .

إذن : فلكل فريق مسلكه وغايته .

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَرَ وَالْبَصِيرِ
وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١٤)

والفريقان هما من تحدثنا عنهما من قبل .

وكلمة «الفريق» تعنى : جماعة يلتقون عند غاية وهدف واحد ، مثلما نقول : فريق كرة القدم أو غيره من الفرق ، فهى جماعات ، وكل جماعة منها لها هدف يجمعها .

ونحن نحمد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ . . فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّمِيرِ ﴾ (٧) [الشورى]

(١) أعجزه : جعله عاجزاً عن نيله ، وأفلت منه فلم يقدر عليه . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا سَفَا

إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال] أى : لا يعجزون الله إدراكهم وتعذيبهم وأخذهم بذنوبهم فلن يفلتوا .

(٢) السمير : النار المشتعلة المتقدة المروجة . يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا الْحَمِيمُ سُفِرَ ﴾ [التكوير] أى :

أوقدت بشدة . ويراد بالسمير : نار جهنم . ويقول تعالى : ﴿ . . مَا وَافَقَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا حَبَتِ ذُنُوبُهُمْ سَمِيرًا

﴾ [الأنفال] أى : ذنوبهم ناراً هائجة موقدة مشتعلة .

وكلمة ﴿الْفَرِيقَيْنِ﴾ جاءت في الآية التي نحن بصدد خواطرنها ؛ لأن كل فرقة تضم جماعة مختلفة عن الجماعة الأخرى ، ولهؤلاء متعصبون ، وللآخرين متعصبون .

ويضرب الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية المثل بسَيِّدَيِ الخواص الإدراكية في الإنسان ، وهما السمع والبصر ، فهما المصدران الأساسيان عند الإنسان لأخذ المعلومات ، إما مسموعة ، أو مرئية ، ثم تكون لدى الإنسان قدرة الاستبطان^(١) والتوليد عما سمعه بالأذن ورآه بالعين .

ولذلك قال لنا الحق سبحانه :

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل]

إذن : فما دام الحق سبحانه قد جعل السمع والأبصار والأفئدة مصادر تأتي منها ثمرة ، هي المعلومات وتمحيصها^(٢) ، فالحق سبحانه يستحق الشكر^(٣) عليها .

ونحن نعلم أن الطفرات^(٤) الحضارية وارتقاءات العلم ، إنما تأتي بمن سمع ومن رأى ، ثم جاءت من الاستنباط أفكار تطبيقية تفيد البشرية .

(١) الاستنباط : استخراج الماء من باطن الأرض . ومن المجاز : استنبط الرأي الصحيح : استخرجه ببحثه وفكره كمن يستخرج ماء من البئر . يقول تعالى : ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّهُمْ يَلْعَنُوا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ . (٥٥)﴾ [النساء] .

(٢) تمحيص الشيء : اختباره وفحصه بدقة . [المعجم الوسيط] بتصرف .
وقال تعالى : ﴿وَلْيَحْصِصْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَسْخَرِ الْكَافِرِينَ (٣٦)﴾ [آل عمران] . أي : يظهرهم ويخلصهم من العيوب ومن المنافقين ويقضي على الكافرين . وقال تعالى : ﴿وَلْيَحْصِصْ مَا فِي قُلُوبِكُمْ . (٥٦)﴾ [آل عمران] . أي : يظهر الإيمان الذي في قلوبهم من الرساوس والشكوك . [القاموس الفريسي] .

(٣) الشكر : مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية ، فيثنى على المنعم بلسانه ، ويذيب نفسه في طاعته ويعتقد أنه موليا .

(٤) طفرات : جمع طفرة ، وهي وثبة في الارتفاع . وقد طفر بطفر : وثب في الارتفاع . [انظر لسان العرب] .

ومثال ذلك : هو من رأى إنباء طعام وله غطاء ، وكان بالإنباء ماء يغلى ،
فارتفع الغطاء عن الإناء .

هذا الإنسان اكتشف طاقة البخار ، واستنبط أن البخار يحتاج حيزاً أكبر
من حيز السائل الموجود في الإناء ؛ لذلك ارتفع الغطاء عن الإناء ، وارتقى
هذا الاكتشاف ليطور كثيراً من أوجه الحياة .

ولو أن كل إنسان وقف عند ما يسمعه أو يراه ولم يستنبط منه شيئاً
لما تطورت الحياة بكل تلك الارتقاءات الحضارية .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ
مَثَلًا ۚ﴾ (٧١)

ولن يشك كل من الأعمى أو الأصم أن من يرى أو من يسمع هو خير
منه ، ولا يمكن أن يستوى الأعمى بالبصير ، أو الأصم بسماع .

وهكذا جاء الحق سبحانه وتعالى بالأشياء المتناقضة ، ليحكم الإنسان
السامع أو القارىء لهذه الآية ، ليفصل بحكم يذكّره بالفارق بين الذى
يرى ومن هو أعمى ، وكذلك بين من يسمع ومن هو أصم ، ومن الطبيعى
ألا يستويان .

لذلك ينهى الحق سبحانه الآية بقوله تعالى :

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أى : ألا تعتبرون بوجود هذه الأشياء .

ونحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد قال لنا :

﴿... فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (٤٦)

[الحج]

أى : أن الإنسان قد يكون مبصراً ، أو له أذن تسمع ، لكنه لا يستخدم حاسة الإبصار أو حاسة السمع فيما خلقت من أجله فى النقاط مجاهيل الأشياء .

وبعد أن بيّن الحق سبحانه وصّف كل طرف وصراعه مع الآخر ، واختلاف كل منهما فى الغاية ، والصراع الذى بينهما تشرحه قصص الرسل عليهم السلام .

ويقول الحق سبحانه فى بعض من مواضع القرآن الكريم ، وفى كل موضع لقطات من قصة أى رسول ، واللقطة التى توجد فى سورة قد تختلف عن اللقطة التى فى سورة أخرى .

ومثال ذلك : أن الحق سبحانه قد تكلم فى سورة يونس عن نوح وموسى وهارون ويونس عليهم السلام ، وهنا - فى سورة هود - تأتى مرة أخرى قصة نوح عليه السلام ، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢٥)

والآية توضح مسألة إرسال نوح عليه السلام كرَسُول لقومه ، وعلى نوح الرسول أن يمارس مهمته وهى البلاغ ، فيقول :

﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢٥) [هود]

ونحن نلاحظ أن همزة (إن) فى إحدى قرأتى الآية تكون مكسورة ، وفى قراءة أخرى تكون مفتوحة ^(١) ، أما فى القراءة بالكسر فتعنى أن نوحاً عليه

(١) نذير : الرسول المنذر بالعذاب . وأنشده : حقوه ، وأنشده شيئاً : أعلمه إياه وعرفه به وبما يتوجب عليه من ضرر فى مدة تكفى للتحفظ منه . أى : خوفاً منه ليبعد عنه . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَلْهَوْنَاكُمْ عَنْ ذِكْرِنَا بِقُرْهِنَا ۚ ﴾ (٢٥) [نبا] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتْنَا ۚ ﴾ (٢٥) [انفعر] . وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُفْتَنُ الْبَشَرُ ۚ ﴾ (٢٥) [الحج] . [القاموس المبرور ٢/ ٢٥٨] بتصرف .

(٢) قراءة الفتح قرأها ابن كثير وابن عمرو والكسائى . قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٤٠) أى : أرسلناه بأنى لكم نذير مبين .

السلام قد جاء بالرسالة قبله قومه وقال :

﴿ .. اِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢٥)

[هود]

وأما فى القراءة الأخرى بالفتح فتعنى أن الرسالة هى :

﴿ .. اِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢٥)

[هود]

فكان القراءة الأولى تعنى الرواية عن قصة البلاغ ، والقراءة الثانية تحدد مضمون الرسالة : ﴿ .. اِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢٥)

[هود]

والقراءة الأولى فيها حذف القول ، وحذف القول كثير فى القرآن ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَالْمَلٰٓئِكَةُ يَدْخُلُوْنَ عَلَيْهِمْ ^(١) مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
بِمَا صَبَرْتُمْ .. ﴾ (٢٤)

[الرعد]

وهذا يعنى أن الملائكة يدخلون على المؤمنين فى الجنة من كل باب ^(٢) ، وساعة الدخول يقول الملائكة :

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ .. ﴾ (٢٤)

[الرعد]

(١) الضمير فى (عليهم) عائد على أولى الأبواب الذين وصفهم ربهم بصفات استحقوا بها دخول جنات عدن . قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْلَمْ مِثْقَالَ أُتْرَاقٍ مِنْ ذَلِكَ اتَّخَذْتُمْ لَهُ ثَوْبًا حَرِيرًا ﴾ (١٠٩) الذين يؤمنون بعهد الله ولا يفتنون الميثاق (١٠) والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب (١١) والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويذرون بالحسنه السبحة أولئك لهم عظيم الأجر (١٢) [الرعد] .

(٢) للجنة أبواب ، عددها بعض العلماء ثمانية أبواب ، استدلالاً بحديث رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد يتوضأ فيلطف - أو فيسبغ الوضوء - ثم يقول - أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٤) من حديث عتبة بن عامر .

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٢٦

وقول نوح عليه السلام : ﴿.. إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٢٥) [هود]

نعلم منه أن النذير - كما قلنا من قبل - هو من يخبر بشرٍّ لم يأت وقته بعد ، حتى يستعد السامع لملاقاته ، وما دام أن نبي الله نوحاً قد جاء نذيراً ، فالسباق مستمر ؛ لأن الحق سبحانه قال في الآية التي قبلها :

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ ..﴾ (٢٤) [هود]

أى : أن هناك فريقاً عاصياً وكافراً وله نذير ، أما الفريق الآخر فله بشير ، يخبر بخير قادم ليستعد السامع أيضاً لاستقباله بنفس مطمئنة .

والفريق الكافر الذى يستحق الإنذار ، يأتى لهم الحق سبحانه بنص الإنذار فى قوله تعالى : (١)

﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ (١)

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام محسوب على قومه ، وهم محسوبون عليه ؛ ولذلك نجده خائفاً عليهم ؛ لأن الرباط الذى يربطه بهم رباط جامع قوى . وكذلك نجد الحق سبحانه يُحِثُّ قلوب المرسل إليهم لعلهم يحسنون استقبال الرسول .

ومثال ذلك : قول الحق سبحانه :

﴿وَأَلِيَّ عَادٌ أَخَاهُمْ هُودًا ..﴾ (٦٥) [الأعراف]

ولأن الرسول أخ لهم فلن يغشهم أو يخدعهم .

(١) وذلك أنهم كانوا يعبدون مع الله سبحانه أصناماً ، وهى التى ورد ذكرها فى سورة نوح - آية ٢٣ ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (٢٥) [نوح] وهم أسماء رجال صالحين ، لما ماتوا عمل الناس على هيشتهم أصناماً تذكّرهم بأعمالهم ، ثم تقادم الزمن فأصبحوا يعبدونها من دون الله . [انظر : تفسير ابن كثير ٤/٤٢٦]

واستقبل الملا من قوم نوح الأمر بما يقوله الحق سبحانه عنهم :

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا
مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُبَادُوا
الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾



والملا - كما نعلم - هم وجوه القوم ، وهم السادة الذين يملأون العيون
مهابة ، ويتصدرون أي مجلس

وهناك مثل شعبى فى بلادنا يوضح ذلك المعنى حين نقول : «فلان يملأ
العين» .

أى : أن العين حين تنظر إليه لا تكون فارغة ، فلا جزء فى العين يرى غيره .
ويقال أيضاً : «فلان قيّد النواظر» أى : أنه إذا ظهر تقيّدت به كل
النواظر ، فلا تلتفت إلى سواء ، ولا يمكن أن يكون كذلك إلا إذا كانت
فيه مزايا تجذب العيون إليه بحيث لا تتحول عنه .

والمراد بذلك هو الحاشية المقربة ، أو الدائرة الأولى التى حول المركز ،
فَحَوْلُ كل مركز هناك دوائر ، والملا هم الدائرة الأولى ، ثم تليهم دائرة
ثانية ، ثم ثالثة وهكذا ، والارتباك إنما ينشأ حين يكون للدائرة أكثر من
مركز ، فتشتت الدوائر .

وردّ الذين يكوّنون الملا على سيدنا نوح قائلين :

(١) الملا : أشراف القوم أو جميعهم .

(٢) الذين هم أرادنا : أى : أقرنا وأحقر الناس فى نظرنا .

بأدى الرأى : ظاهرة الذى لا روية فيه ، أى : رأى سطحى غير متعمق .

رقرى : مبادئ الرأى : أى : بدء الرأى وأمله من غير روية أيضاً [الفأوس القويم] .

[هود]

﴿ مَا فَرَأَيْكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا .. ﴾ (٢٧)

أى : أنه لا توجد لك ميزة تجعلك متفوقاً علينا ، فما الذى سودك^(١) علينا لتكون أنت الرسول ؟

وقولهم هذا دليل غباء ، لأن الرسول ما دام قد جاء من البشر ، فسلوكه يكون أسوة ، وقوله يصلح للاتباع ، ولو كان الرسول من غير البشر لكان من حق القوم أن يعترضوا ، لأنهم لن يستطيعوا اتخاذ الملاك^(٢) أسوة لهم .

ولذلك بين الحق سبحانه هذه المسألة فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ (٩٤)

[الإسراء]

وجاء الرد منه سبحانه بأن قل لهم :

﴿ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ (٩٥)

[الإسراء]

إذن : فالرسول إنما يجيء مُبلِّغ منهج وأسوة^(٣) سلوك ، فإذا لم يكن من جنس البشر ، فالأسوة لن تصلح ، ولن يستطيع إلا البلاغ فقط .

(١) سودك علينا : جعل لك السيادة والرياسة علينا فتأمرنا وتنهانا .

(٢) إذ كيف يتخذون الملاك أسوة لهم ، وهو من جنس غير جنسهم . وله أحكام وقدرات تختلف عن قدراتهم ، فلا يصلح الاحتجاج بأفعال الملائكة على غيرهم من الأجسام . ولذلك عندما قال مشركو مكة : ﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ قبل لهم : ﴿ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ لَكُمْ لَا يُظْرُونَ ﴾ (٩٦) ولَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَعَلَّنَاهُ رَجُلًا وَلَبِئْسَ عَلَيْهِمْ مَا يَتَّبِعُونَ ﴾ [الأنعام] . [بتصرف من تفسير ابن كثير ٢ / ١٢٤]

(٣) الأسوة : القدوة . والمراد بها هنا : القدوة الحسنة التى ينبئ على الجميع الاقتداء بها . قال تعالى : ﴿ فَتَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. ﴾ (٢١) [الأنزاب] .

سورة هود

٦٤٢٩

ومثال ذلك : أنت حين ترى الأسد في أى حديقة من حدائق الحيوان ،
يصول ويجول ، ويأكل اللحم النىء المقدم له من الحارس ، أتحدثك نفسك أن
تفعل مثله ؟ . . طبعاً لا ، لكنك إن رأيت فارساً على جواد ومعه سيفه ،
فإنفسك قد تحدثك أن تكون مثله .

وهكذا نجد أن الأسوة تتطلب اتحاد الجنس ؛ ولذلك قلنا : إن الأسوة هي
الدليل على إبطال من يدعى الألوهية لعزير^(١) أو لعيسى عليهما السلام .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان الملائكة الكافر من قوم نوح :

﴿ وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُارِذُوا ﴾ (٢٧) ﴿ [هود]

والأرادل^(٢) جمع «أرذل» ، مثل قولنا : «أفاضل قوم» ، وهى جمع
«أفضل» .

والأرذل هو الخسيس الدنىء فى أعين الناس . ورذال المال أى : رديئه .
ورذال كل شيء هو نفايته .

ونرى فى الريف أثناء مواسم جمع «القطن» عملية «فرز» القطن ، يقوم بها
صغار البنين والبنات ، فيفصلون القطن النظيف ، عن اللوز الذى لم يفتح

(١) عزير : هو رجل صالح من بنى إسرائيل جعله اليهود ابناً لله وعيدوه لعلمه بالتوراة وحفظه لها كما فى
الكتب حرقاً بحرف [القاموس القويم ١٨ / ٢] . و [تفسير ابن كثير ٢ / ٣٤٨] . وهو الذى ورد ذكره
فى سورة البقرة فى قوله تعالى : ﴿ أَوْتَاكَ ذِي مَرْ عَلَى قُرْبَةٍ وَهِيَ خَاطِيَةٌ عَلَى عُرْوَتِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ
مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ
وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَغَيَّرْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَعَلَّكَ
تَبِينُ لَمْ يَأْمُرْ أَنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة] .

(٢) رَذَلُ الشَّيْءُ « رَذَالَةً وَرَذُلًا » صار خسيساً رديئاً ، فهو رَذُلٌ .

والأرذل : اسم تفضيل يفيد المسالفة فى الصفة . وقال تعالى فى سورة النحل : ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤَدُّ إِلَى أَرْذَلِ
الْفَعْرِ . . ﴾ (٣٠) ﴿ [النحل] أى : إلى الهرم والعجز . وقال تعالى : ﴿ قَالُوا أَنْزِلْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ ﴾ (٣١) ﴿
[الشعراء] ، أى : أخس الناس ، فى نظرنا . وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُارِذُوا ﴾ (٣٢) ﴿ [هود] . أى :
أفقرنا وأحق الناس فى نظرنا . [القاموس القويم] .

بالشكل المناسب ؛ لأن اللوزة المصابة عادة ما تعاني من ضمور ، ولم تنضج النضج الصحيح .

وكذلك يفعل الفلاحون في موسم جمع «البلح» ، فيفصلون البلح الجيد عن البلح المعيب .

إذن : فردال كل شيء هو نفاقته .

وقد قال الملأ من الكفار من قوم نوح :

﴿ وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَفُرُوا ﴾ (١٧)

[هود]

أى : أنهم وصفوا من آمنوا بنوح عليه السلام بأنهم نفاقته المجتمع .

وجاء الحق على ألسنتهم بقولهم في موضع آخر :

﴿ .. وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ ﴾ (١١)

[الشعراء]

ولم يتف نوح عليه السلام ذلك ؛ لأن الذين اتبعوه قد يكونون من الضعاف ، وهم ضحايا الإفساد ؛ لأن القوى في المجتمع لا يقربه أحد ؛ ولذلك فإنه لا يعاني من ضغوط المفسدين ، أما الضعاف فهم الذين يعانون من المفسدين ؛ فما إن يظهر المخلص لهم من المفسدين فلا بد أن يتمسكوا به .

ولكن ذلك لا يعنى أن الإيمان لا يلمس قلوب الأقوياء ، بدليل أن البعض من سادة وأغنياء مكة استجابوا للدعوة الحمديدية مثل : أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، رضى الله عنهم .

ولكن الغالب في دعوات الإصلاح أنه يستجيب لها المطحونون بالفساد ، هؤلاء الذين يشعرون بالغليان في مراحل^(١) الألم بسبب الفساد ، وما إن

(١) المراحل : جمع مرحلة ، وهو كل ما طبع فيه من قدر وغيرها . وقيل : هو القدر المصنوع من النحاس خاصة . [انظر : اللسان ، مادة : رجل] .

يظهر داعية إلى الإصلاح ويريد أن يزحزح الفساد ، فيلتفون حوله ويتعاطفون معه ، وإن كانوا غير عبيد ، لكن محكومين بالغير ، فهم يؤمنون علناً برجل الإصلاح ، وإن كانوا عبيداً مملوكين للسادة ؛ فهم يؤمنون خفية ، ويتحمل القوى منهم الاضطهاد والتعذيب .

إذن : فكل رسول يأتي إنما يأتي في زمن فساد ، وهذا الفساد ينتفع به بعض الناس ؛ وطغيان يعاني منه الكثيرون الواقع عليهم الفساد والطغيان .

ويأتي الرسول وكأنه ثورة على الطغيان والفساد ؛ لذلك يتمسك به الضعفاء ويفرحون به ، وتلتف قلوبهم حوله .

أما المتفعون بالفساد فيقولون : إن أتباعك هم أراذلنا . وكأن هذا القول طعن في الرسول ، لكنهم أغبياء ؛ لأن هذا القول دليل على ضرورة مجيء الرسول ؛ ليخلص هؤلاء الضعاف ، ويجيء الرسول ليقود غلبة على فساد الأرض ، ولينهى هذا الفساد .

وهي غلبة تختلف عن غلبة الثائر العادي من الناس ، فالثائر من الناس يرى من يصفق له من المطحونين بالفساد .

لكن آفة^(١) الثائر من البشر شيء واحد ، هي أنه يريد أن يستمر ثائراً ، ولكن الثائر الحق هو الذي يثور ليهدم الفساد ، ثم يهدأ ليبني الأمجاد ، فلا يسلط السيف على الكل ، ولا يفضل قوماً على قوم ، ولا يدل من طغى عليهم ، ويظلم من طغوا .

بل عليه أن يحكم بين الناس بالعدل والرحمة ؛ لتستقيم الأمور ، وتذهب الأحقاد ، ويعلم الناس كلهم أن الثائر ما جاء ضد طائفة بعينها ، وإنما جاء ضد ظلم طائفة لغيرها ، فإذا أخذ من الظالم وأعطى المظلوم ؛ فليجعل الاثنين سواء أمام عينيه .

(١) آفة الشيء : الخطأ الذي فيه ، أو نقصه ، أو عيبه . [راجع : لسان العرب - مادة أرف]

ومن هنا يجيء الهدوء والاستقرار في المجتمع .

إذن : فقد كان قول الكافرين من ملاً قوم نوح :

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُكْفِرُوا مِنْ قَبْلُ وَهُمْ أَدْعَاءُ مُتَفَبِّهِينَ ٢٧ ﴾ [هود]

هو قول يؤكد وجود الفساد في هذا المجتمع ، وأن الضعاف المطحونين من الفساد قد اتبعوا نوحاً عليه السلام .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ ٢٧ ﴾ [هود]

والبادي هو الظاهر ؛ ضد المستتر .

وهناك قراءة أخرى ^(١) هي ﴿ بَادِيءُ الرَّأْيِ ٢٧ ﴾ .

أي : بعد بدء الرأي .

والآية هنا تقول :

﴿ بَادِي الرَّأْيِ ٢٧ ﴾ [هود]

أي : ظاهر الأمر ، فساعة ما يُلقى إلى الإنسان أي شيء فهو ينظر له نظرة سطحية ، ثم يفكر بأمعان في هذا الشيء .

وساعة يسمع الإنسان دعوى أو قضية ، فعليه ألا يحكم عليها بظاهر الأمر ، بل لا بد أن يبحث القضية أو الدعوى بتركها وهدوء .

وهم قد قالوا لنوح عليه السلام : أنت بشر مثلنا ، وقد اتبعك أراذلنا ؛ لأنهم نظروا إلى دعوتك نظرة ظاهرية ، ولو تعقبوا دعوتك وتأملوها ونظروا في عواقبها بتدبر لما آمنوا بها .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٢٣٤٢) : «يجوز أن يكون «بادي الرأي» من بدأ يبدأ وحذف الهمزة . وحقق أبو عمرو الهمزة فقرأ «باديء الرأي» أي أول الرأي ، أي : اتبعوك حين ابتداءوا ينظرون ، ولو آمنوا النظر والفكر لم يتبعوك ، ولا يختلف المعنى ما هنا بالهمز وترك الهمزة .»

ويكشف الحق سبحانه هذا الغباء فيهم ، فقول المَلَأَ بأن الضعفاء كان يجب عليهم أن يتدبروا الأمر ويتمعنوا في دعوة نوح قبل الإيمان به ، ينقضه إصرار الضعفاء على الإيمان ؛ لأنه يؤكد أن جوهر الحكم عندهم جوهر سليم ؛ لأن الواحد من هؤلاء الضعفاء لا يقيس الأمر بمقياس من يملك المال ، ولا بمقياس من يملك الجاه ، ولا بمقياس من له سيادة ، بل قاس الضعيف من هؤلاء الأمر بالقلب ، الذي تعقل وتبصر ، وباللسان الذي أعلن الإيمان ؛ لأن الإنسان بأصغريه : قلبه ولسانه^(١) .

إذن : فهذا المَلَأَ الكافر من قوم نوح - عليه السلام - قد حكم بأن الضعاف أراذل بالمقاييس الهابطة ، لا بالمقاييس الصحيحة .

ولو امتنع هؤلاء الذين يُقال عنهم «أراذل» عن خدمة من يقال لهم «سادة» لذاق السادة الأمرين ، فهم الذين يقدمون الخدمة ، ولو لم يصنع النجار أثاث البيت لما كانت هناك بيوت مؤثثة .

ولو امتنع العمال عن الحفر والبناء لما كانت هناك قصور مشيدة .

ولو امتنع الطاهي عن طهي الطعام لما كانت هناك موائد ممتدة ، وكل خدمات هؤلاء الضعاف تصب عند الغنى أو صاحب المال أو صاحب الجاه .

وهكذا ترى أن الكون يحتاج إلى من يملك الثروة - ولو عن طريق الميراث - ليصرف على من يحتاجه المجتمع أيضاً ، وهم الضعاف الذين يعطون الخير من كدّهم وإنتاجهم .

إذن : فالضعفاء هم تمة السيادة .

(١) هذا من أمثال العرب : المرء بأصغريه ، وأصغراه قلبه ولسانه . قال ابن منظور في لسان الغريب : «معناه : أن المرء يعجز الأمور ، ويضبطها بجنتائه ولسانه» .

وحين نمنع النظر لوجدنا أن سيادة الثرى أو صاحب الجاه إنما تأتى نتيجة لجهودات من يقال عنهم : إنهم أراذل .

ولو أنهم تخلّوا عن الثرى أو صاحب الجاه ، لما استطاع أن يكون سيداً .

ويذكر لنا الحق سبحانه بقية ما قاله الملائكة الكافر من قوم نوح :

﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (٢٧) [هود]

وهم - بهذا القول - قد أنكروا أن سيادتكم إنما نشأت بجهد من قالوا عنهم إنهم أراذل ، وأنكروا فضل هؤلاء الناس .

ويُلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى الآفة التى تتاب بعض المجتمعات حين يذكر لنا ما قاله الكافرون :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (٣٦) أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرِيًّا ^(١) . ﴾ (٣٧) [الزخرف]

إذن : فالحق سبحانه هو الذى قسم المعيشة ، وآفة الحكم أن ننظر إلى المرفوع على أنه الغنى ، لا ، فليس المرفوع هو الغنى ، بل هو كل ذى موهبة ليست فى سواه .

وما دام مرفوعاً فى مجال فهو سيخدم غيره فيه ، وغيره سيخدمونه فيما رُفِعوا فيه ؛ لأن المسألة أساسها التكامل .

(١) المقصود بالقريتين : مكة والطائف . وقد اختلف العلماء فى المقصود بالرجلين ، ذكر ابن كثير هذا الاختلاف ، ثم قال : «الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان» تفسير ابن كثير (١٢٧/٤) .
(٢) سَخِرِيًّا : أى : يُسَخَّرُ بعضهم بعضاً فى الأعمال لاحتياج هذا إلى هذا وهذا إلى هذا . قاله السدى وغيره . (تفسير ابن كثير (١٢٧/٤) ونقل ابن منظور فى اللسان : «سَخِرِيًّا : عبيداً وإماء وأجراء» .
راجعته على الأصل وخرج أحاديثه صاحب الفضية الشيخ / محمد المنزاوى المستشار بالأزهر والأساذ / عادل أبر المعاطى .